

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى « ومنارا » كمنار الطريق

مصر، سلخ ربيع الاول ١٣٣٩ — ١٨ القوس (ق ٣) سنة ١٢٩٩ هش ١٠ ديسمبر ١٩٢٠

فاتحة المجلد الثاني والعشرين

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدّك، وجلّ ثناؤك، ولا إله غيرك، لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، فنحمدك بما حمدت به نفسك في كتابك، ونصلي ونسلم على أنبيائك ورسلك : (الحمدُ للهِ وسلامٌ على عِبادِهِ الذينَ اصطفَى)، وتحياته المباركات وصلواته الطيبات على خاتم رسله محمد المصطفى، وآله المطهّرين وأصحابه الحنفا، وعلى من اتبع هديهم واقتفى، (وَهُوَ اللهُ لا إلهَ إلا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ في الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

سبحانك اللهم وبحمدك ، حكمت فعدلت ، وقدّرت فهديت ، وانتقمت فقهرت ، فلك الحمد في السراء والضراء وحين البأس، لاقنوط من رحمتك ولا يأس ، فاسألك من رحمتك العامة للعالمين، ومن رحمتك الخاصة للمسلمين ، ووفقني اللهم للقيام في هذا المنار بالنصيحة الحق ، النافعة لكل من بلغته من الخلق ، ووفق اللهم أئمة هذه الامة وأمراءها، وقادتها وزعماءها، الى ما تخرجها به من ظلمات هذه الفتن الى النور الفائض من مطالع آياتك البينات ، المنبسط شعاعه على الخلق بسننك في سير البشر ونظام الكائنات ، ليعلموا أن الغلو في الدين، مضيعة للدنيا والدين، وان الغرور بالدنيا مهلكة للمغرورين ، وان سنة الله تعالى في رد الفعل الى سواء الصراط ، يتعاقب في سبيله التفريط والافراط ، (وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

سبحانك اللهم وبحمدك ، أريتنا من آياتك في أنفسنا وفي الآفاق ما يتبين به الحق ، لمن زكت فطرته واستنارت بصيرته من الخلق، فوفقنا لمعرفة ما نراه منها في هذا الزمان ، معرفة اعتبار وحكمة وايمان، كما وفقت لذلك آباءنا الاولين ، وسلفنا الصالحين ، لنكون كما كانوا من الأئمة الوارثين ، الجامعين بين سيادة الدنيا وهداية الدين ، اذا أوغلنا في الدين نوغل برفق فلا نغلو غلوّ المغرورين، واذا حكمنا بين الناس نحكم بالعدل فلا نعلو علوّ الجبارين ، واذا تصرفنا بما أحلت لنا من الزينة والطيبات من الرزق نتصرف تصرف الشاكرين ، فلا نستأثر بالنعمة أَثَرَةَ المسرفين ، الذين يفسدون في الارض ولا يصلحون ، (يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَافِرُونَ)

سبحانك اللهم وبحمدك ، أريتنا آياتك فإن جحدها أقوام فقد عرفناها وما نحن لها بجاحدين ، وعرفتنا نعمتك فإن يكفر بها الاكثرون فما نحن بها بكافرين ، وقد أنزلت عقابك الحق بالباغين الجبارين ، وبالمترفين المسرفين ، وعن ذل لكبريائهم ودان لطغيانهم من الجاهلين المفرطين ، فاجعل اللهم ذلك عبرة وموعظة لنا ، ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا، وارفع اللهم مقتك وغضبك عنا، فقد آن أن يستدير الزمان، ويتجدد اعجاز القرآن ، فيتوب الفاسقون ، ويوقن المرتابون ، ويؤمن الجاحدون (الم ، غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأرضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ . لِلهِ الأمرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ • يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وهم عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)

سبحانك اللهم وبحمدك . أريتنا من جهل أعلم الناس بشؤون خلقك ، ما أقمت به الحجة البالغة على صدق قولك واحاطة علمك ، فقد غلبت الروس الذين كانوا يعدون الخطر الاكبر على الاسلام ، كما غلبت الروم في عهد ظهور النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم غُلبت الشعوب الجرمانية ، وظهر جهلها بما كانت به أعلم الشعوب من الفنون الحربية ، ثم ظهر جهل أعلم الاقوام بجمع الثروة وحفظ المال فكانوا من الخاسرين ، وظهر جهل أعلم الامم بشؤون الادارة والاستعمار فكانوا من الخائبين (ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَسَاؤُا السُّوءَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ)

سبحانك اللهم وبحمدك أنت الواحد القهار، مكور النهار على الليل

ومكوّر الليل على النهار ، الكبرياء رداؤك ، والعظمة إزارك ، من نازعك فيهما قصمته ، وقد صرفت عن آياتك الذين يتكبرون في الارض بغير الحق ، مغترين بما استدرجتهم به من شدة القوة وسعة الرزق ، فلم يعتبروا بما حل بمن قبلهم ممن كانوا أشد منهم قوة ، ولم يتعظوا بما أنزلت من آيات الوحي وشرعت من هدي النبوة ، . . . .

. . . . واجعل ذلك تربية للمستضعفين المتفرقين ، وقهرك إياهم سلاما ورحمة لجميع العالمين، يعلو بها الحق على الباطل، ويقضي بها العدل على الظلم ، ويغلب القصد والاعتدال والايثار ، على السرف والاثرة والاستكبار ، فقد ضاق البشر ذرعا بطمع الاغنياء المسرفين، وطغيان الرؤساء الجبارين ، الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد ، واستكبروا على العباد فاستعبدوا الجماعات والشعوب للافراد، (أفأمِنَ أهلُ القُرى أن يأتيَهُمْ بأسُنا بياتاً وهُمْ نائمُونَ ؟ أوَ أمِنَ أهلُ القُرى أن يأتيَهُم بأسُنا ضُحىً وهُمْ يَلعَبُونَ ؟ أفأمِنُوا مَكرَ اللهِ ، فلا يأمَنُ مَكرَ اللهِ إلاّ القومُ الخاسِرُونَ ؟ أوَلَمْ يهْدِ للذِينَ يَرِثُونَ الأرض مِنْ بَعْدِ أهلِها أن لو نَشاءُ أصَبْناهُمْ بِذُنوبِهِم ونَطبَعُ على قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ) ؟

لقد انذرنا أكابر الساسة في مثل هذه الفاتحة منذ عامين، أن ترك تنفيذ قواعد العدل العام وحرية الامم لابد لها من احدى العاقبتين ، بقولنا: إن لا تفعلوه تكن فتنة في الارض وفساد كبير ، وانقلاب باشفي شره مستطير، أو تعود الحرب جذعة، بهذه السياسة الخدعة الخبيثة الظلمة (والذين يمكرُونَ السيئات لهمْ عذابٌ شديدٌ ومكرُ أولئكَ هوَ يَبُور ، فلا

تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الغَرورِ) وقد صدقت الآيات ولم تغن النذر، واتبع المنذرون أهواءهم وكل أمر مستقر. فهذه الارض تضطرم بنيران الفتن والفساد ، والانقلاب البلشفي كل يوم في ازدياد، وإنما هو شر على منهومي المال، ومستعبدي الاقوام ومذلي الاقيال، وقد يشقى ناس فيسعد بشقائهم آخرون، وتثل عروش قرى عاتية فيرثها قوم آخرون، (أَمْ يَقسِمونَ رحمَةَ رَبِّكَ ؟ نَحْنُ قَسَمنَا بَينَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ في الحياةِ الدُّنيَا وَرَفَعنَا بَعْضَهُمْ فَوقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعضُهُمْ بَعضًا سُخْرِيًّا وَرَحمةُ رَبِّكَ خَيرٌ مِمَّا يَجمَعُونَ • وَلولاَ أنْ يَكونَ النَّاسُ أُمَّةً واحدَةً لَجَعَلنَا لِمَنْ يَكفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِم سُقُفًا مِن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَليهَا يَظهَرُونَ . . .)

. . . . ان الناس لن يكونوا أمة واحدة، ولن تخضع الامم منهم لامة واحدة، ويا أيها المثرون المترفون، و«الرأسماليون» الطامعون، إن طلب الزيادة ينتهي بالوقوع في النقصان، وان السواد الاعظم من البشر لا يرضى أن يكون عبداً خادما لافراد من الاعيان، وان سنة رد الفعل، سيكون لها القول الفصل، والحكم العدل؛ ولكن المجرمين يرون العدل عقابا، والمساواة بين الناس عذابا، فكيف اذا سبقه الجزاء على الظلم السابق، والافراط الماحق، وكان تنفيذه على المعاندين، بمثل القسوة التي كانوا يسومونها الضعفاء والمساكين؛ وان تبتم قبل أن يحاط بكم، فهو خير لكم، (لا تَظلِمُونَ وَلا تُظلَمُونَ • وَلَقَد أَهلَكنَا مَا حَولَكُم مِنَ القُرَى وَصَرَّفنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُم يَرجِعُونَ)

وأنت يا أيتها الامة الامية، التي عاودها الارتكاس في عصبية الجاهلية،

الى م هذا التفرق والانقسام ، بعد تلك السعادة بالوحدة والاعتصام ،
وحتى م تلدغين من الجحر الواحد مراراً عديدة وقد حُذّرتِ من المرتين،
وسمعت النذر بالاذنين ورأيت العبر بالعينين ولمست العواقب باليدين ؟
والى متى تغترين بالمظاهر والالقاب، وتدعين الفرص تمر بك مر السحاب، ؟
لقد اتفقت عليك الامم كما أخبرك النذير، . . . .
اذ كان لهم منك أيٌّ ولي وظهير، ورأيت الذين في قلوبهم مرض يسارعون
فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، وابتغوا عندهم العزة والثروة
فكانت كرتهم الخاسرة ، لانهم خسروا بموالاتهم الدنيا والآخرة، وذلك
هو الخسران المبين، وان كانوا عنه لمن الغافلين (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا
كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ● فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ ●
أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ● — نُسَارِعُ لَهُمْ فِي
الْخَيْرَاتِ ? بَل لَّا يَشْعُرُونَ)

فيا قوم اني لكم ناصح أمين، على علم بالحق المبين، من هداية القرآن،
وأحوال الزمان ، أن لا تعبدوا الا الله، ولا تيأسوا من روح الله، (وَأَنِ
اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى
وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ، وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
كَبِيرٍ) أخاف عليكم عذاب يوم القيامة الاولى، قبل عذاب يوم القيامة
الاخرى، يومَ الخزي والنكال، بفقد بقية الاستقلال، فقابلوا أولياء الشيطان،
بما أمركم به الرحمن، من غير تحريف ولا تصحيف في القرآن، ولا تغرنكم أيمان
أئمة ليس لهم إيمان، ولا يصدنكم عن آيات الله سبب ولا نسب ؛ ولا
رَغَب ولا رهب ؛ ولا ورق ولا ذهب، فقد برح الخفاء وانكشفت الظلمة،

فلا يكن أمركم عليكم غمة ، (قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون — من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون)

وما لا أخص بالتذكير قومي وعشيرتي ، بهذا التذكير العام لجميع شعوب أمتي ، بما يشد أزر الجماعة ويضع عنها إصرها ، ويحكم أواصر الجامعة ويرفع لها ذكرها ، وهم لا يزالون أشد تلك الشعوب تخاذلا وتواكلا ، وأضعفهم تعاونا وتكافلا ، وأكثرهم تباغيا وتفاشلا ، وتماحكا وتماحلا ، وأقلهم تحالفا وتناصرا ، وتضافرا وتظاهرا ، إتحد مسلمو مصر مع القبط فيما يفيد في الدنيا ولا يضر بالدين ؛ وتعاون مسلمو الهند كذلك مع الوثنيين ، وتناصر مسلمو الترك مع الروس إحدى أعدائهم الأولين ، ولكن تعذر الاتفاق في الجزيرة بين أبناء الدين الواحد ، واللغة الواحدة والوطن الواحد ، كما تعذر الاتحاد في قطر آخر بين السهل والجبل ، بل بين بلد وبلد ، ولولا أن هذه الأمة مرحومة لأبسلت بذنوبها ، وهلكت بتفريطها في أمرها ، ومن رحمة الله بها أن باب التوبة لا يزال مفتوحا في وجهها ، وإن مسالك النجاة ما فتئت مرجوة لها ، فما عليها إلا أن تأتي البيوت من أبوابها ، وتطلب المسببات من أسبابها ، بتغيير ما أوقعها في سابق غرورها ، والتواكل في أمورها ، والاتكال على أعيان مبيرها . (ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم * كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وكل كانوا ظالمين * إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون * الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون) فتدبروا سائر الآيات — (وأنتم

لا تعلمون. هذا بصائر للناس وهدًى ورحمة لقوم يوقنون)

استدار الزمان، ووقع من التطور الاجتماعي ما لم يكن في الحسبان، وسيندك ما بقي من صروح الاستبداد، وينطلق سائر المستعبدين من مقاطر الاستعباد، بفضل التضافر والتظاهر والاتحاد . . . .

. . . . وانما الذل والهوان، والخزي والخذلان، والبغي والعدوان، على أهل النفاق والدهان، والمتفرقين في المذاهب والاديان، والمتمادين في الزعامات والبلدان: والمغرورين بالعهود والايمان. والقوانين وحقوق الانسان، والمخدوعين بكلم العدل والمدنية، والمساواة والحرية. والرحمة الانسانية. وانما المعاهدات حجج الاقوياء على الضعفاء، ولا وجود للعدل والمساواة، الا حيث العجز عن الظلم والمحاباة، ولا حق في الحرية، ولا في الرحمة الا لذوي الايد والجرمة؛ والعاقل لا يظلم فكيف اذا كان أمة[1] على أن قاموس السياسة تكثر فيه اسماء الاضداد، فلا تنافي فيه بين التحرير والاستعباد، ولا تضاد بين الحماية والاستقلال. ولا تناقض بين الاساءة والاحسان، ولا تعارض بين الكفر والايمان (يقولونَ بأفواهِهِم ما ليسَ في قلوبهم والله أعلمُ بما يكتمون • كيفَ وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الاً ولا ذمة وأولئكَ هُم المعتدون)

تبا للمنافقين المتملقين. وسحقا لليائسين المستسلمين. وبعدا للفاسقين الخائنين. وطوبى للراجين العاملين. فرب خوف أعقب الرجاء. ورب عداء انتهى بولاء (وعسَى أنْ تكرهُوا شيْئاً وهو خيرٌ لكم وعسَى أن تحبوا شيْئاً وهو شرٌّ لكم. والله يعلم وانتم لا تعلمون)

منشىء المنار ومحرره
محمد رشيد رضا

(١) هذه الكلمة لموقظ الشرق الحكيم السيد جمال الدين الافغاني

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة اذ لا يسع الناس عامة، ولشترط على السائل أن يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك أن يرمز الى اسمه بالحروف أو يعبر بما شاء من الالقاب ان شاء . وأننا نذكر الاسئلة بالترتيب غالباً وربما قدمنا متاخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه ، وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا ، ولمن مضى على سؤاله شهران أو ثلاثة أن يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

مأتم عاشوراء واقتحام الشيعة النار فيه

(س — ١) من صاحب الامضاء في (زنجبار)

الى حضرة جناب الافخم العلامة الاستاذ السيد محمد رشيد رضا المحترم، دام اقباله

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته : سيدي بطي الاحرف ورقة قطفناها من الجريدة الرسمية بزنجبار أحببنا أن نطلعكم عليها مضمونها أن الشيعة الامامية الاثنا عشرية يوقدون في ليلة العاشر من المحرم في حفرة طويلة عريضة نارا قوية ويمرون فوقها ولا تحرقهم. وكنا قبلُ نسمع بهذا العمل انه في الهند وهذه السنة شاهدنا بأعيننا هذا العمل بطرفنا . ويزعمون انها معجزة من معجزات أهل البيت وكذلك يزعمون ان شجرة في الهند يخرج منها دم في كل شهر محرم. وقد كثر من اخواننا الشيعة بطرفنا مثل هذه الاشياء . ولولا أن بين أيدينا كتب العلامة ابن تيمية قدس الله روحه لكان أكثر الناس تشيعوا . وقد عرفناكم بذلك لاجل أن تبينوا لنا الحقيقة على صفحات المنار حتى ينجلي ما التبس علينا ، ولكم من الله الاجر، ومن خلقه الشكر، والسلام

من مشيركم صلاح الدين بن ناجي بن علي الكسادي

من زنجبار في ٢٣ المحرم سنة ١٣٣٩

ترجمة ما نشر في جريدة زنجبار الرسمية الانكليزية

أرسل الينا الوصف الآتي للاعياد الحلية لعاشر المحرم ولطيلك القراء : من المعلوم الذي لاشك فيه ان تذكار استشهاد الحسين هو من أهم الاعياد الاسلامية لان أول صدع عظيم حدث في الاسلام كان بناء على هذا الحادث ، أعني مسألة الحق بالخلافة

تحتفل فرقة الشيعة في زنجبار كل سنة باستشهاد الحسين بشعور انفعالي عظيم ذي تأثير شديد . ففي ليلة العاشر من المحرم يضرب المخلصون صدورهم ورؤوسهم ويخوضون في النار وهم ينادون باسم محمد والحسين بنغمة مؤثرة تبكي الناظرين ، بل تحزن صدر السنيين ، وغيرهم من المتفرجين ، ولا يصاب أحد من المخلصين بضرر. ثم ذكرت الجريدة ان عاشوراء هذه السنة كانت أول فرصة حدث فيها الاحتفال باقتحام النار في جزيرة زنجبار اه

(ج) ان اقتحام بعض أفراد الشيعة الامامية النار في الاحتفال بذكرى استشهاد الامام الحسين السبط عليه السلام في عاشوراء له نظير عند بعض المنتمين الى الطريقة الرفاعية وغيرها من طرق المتصوفة . ومنهم من يحمي حديدة في النار حتى تحمر ثم يلحسها بلسانه حتى تبرد ويزول احمرارها . وكثير من الناس المنتمين الى أديان ومذاهب ونحل مختلفة في أقطار كثيرة يأتون بأعمال غريبة في نظر جماهير الناس وهذه الاعمال الغريبة التي تتناقل جميع الامم أخبارها ثلاثة أنواع

(أحدها) صناعة الشعوذة التي يحذقها بالتعلم والتمرن وخفة الحركة أناس كثيرون فيأتون من الاعمال ما يعجز عنه غيرهم وقد تخيل الى الناظر الشيء على غير صورته أو حقيقته كأن ترى لسان أحدهم يصيب النار وهو لا يمسها بل يقرب منها ويلقي لعابه عليها . وأسهل من ذلك اقتحام نار موقدة بسرعة لاتكفي لعلوق النار بالمقتحم ، وقد رأينا بعض الصبيان في بعض قرى سورية يتبارون في اقتحام نار يوقدونها وقلما تعلق بثوب أحد منهم

(النوع الثاني) غرائب حقيقية يستعان عليها بالعلم بخواص الاشياء كعلم الكيمياء والكهرباء وغيرهما . وانما تكون غرائب عند الجاهل باسبابها وكذلك النوع الاول انما

يراه غريبا من يجهل تلك الصناعة وما فيها من الحيل والتخيل

(النوع الثالث) غرائب مصدرها تأثير النفس الانسانية بقوة ارادتها وغيرها من الخواص الروحانية كاستعدادها لعلم ببعض الامور الواقعة أو المستقبلة من غير طريقي الحس والفكر . وهذا النوع يتفاوت أهله فيه تفاوتا عظيما بالاستعداد الفطري وبالرياضة الروحية

والمتكلمون يطلقون على كل ماجاء على خلاف المعروف المعهود مما لا يعرف له سبب كلمة (خوارق العادات) ويعدون منها الآيات التي يؤيد الله تعالى بها رسله عليهم السلام ويسمونها المعجزات . والخوارق الحقيقية لا تتكرر كثيرا لان مايتكرر هو عادي لانه يعود كما بدأ ، وكل ماكان عن علم أو صناعة أو قوة نفسية تستخدمها الارادة البشرية فهو من جنس المعتاد ويتكرر ، لان صاحبه يفعله بارادته واختياره ، وانحصاره في أفراد وفئات من الناس هو كانحصار سائر الصناعات والعلوم في متعلميها ومزاوليها وقوة الاستعداد الجسدي في أهلها

وأما آيات الرسل التي أيدهم الله تعالى بها للدلالة على صدقهم في دعوى الرسالة عنه فليست مما تتعلق به قدرتهم وارادتهم بحيث يأتونها متى شاؤا كسائر أفعالهم الاختيارية ولا مما يتلقى بالتعليم ، ولذلك أمر الله تعالى خاتم رسله الذي أكمل دينه به ان يجيب من اقترحوا عليه الآيات بقوله (قل انما الآيات عند الله) بقوله (سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا) ولكنها من شئونه تعالى يجريها على أيديهم متى شاء اما بغير كسب منهم البتة كاعجاز القرآن وعصا موسى واما مقارنة لكسب مّا منهم يأتونه باذنه ليس له من التأثير في خرق العادة الا الصورة كرمي نبينا (ص) المشركين بقبضة من الرمل على البعد منهم أصابت أعينهم على كثرتهم وبعدهم عنه واختلاف أوضاعهم وحالاتهم عند الرمي ، وذلك قوله تعالى له (وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى) ومن هذا القبيل ابراء الاكمه والابرص واحياء الموتى لعيسى (ع م) وان جاز أن تكون قوة روحانيته الوهبية هي المؤثرة باذن الله تعالى فيه . وكرامات الاولياء اكثر ماتكون من النوع الثالث للغرائب .

وأما السحر فليس من خوارق العادات في شيء وانما هو صناعة تؤخذ بالتعلم

والتمرن وتدخل فيما ذكرنا من أنواع الغرائب المعتادة التي يقصد بها الكيد والمكر والخداع ولذلك اتهم فرعون السحرة بأن ما فعلوه مع موسى مكر مكروه في المدينة متواطئين عليه ، وقال تعالى لموسى (انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى) وقال في تأثير كيدهم وشعوذتهم فيه (يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى) وذكر ان هاروت وماروت كانا يعلمان الناس السحر ببابل ، وخوارق العادات لاتكون بالتعلم كما تقدم وفاقا لما قاله الشيخ محيي الدين بن العربي

اذا تدبر السائل ماتقدم علم أن ما ذكره من اقتحام بعض الشيعة النار هو مما ذكرنا من العادات المكررة ، والشجرة التي زعموا انها تقطر دماً في شهر المحرم لاوجود لها . فأنا لم أسمع بها قبل ورود هذا السؤال لا في بلاد الهند أيام كنت فيها ولا في غيرها ولما جاء هذا السؤال سألت عنها بعض أفاضل الشيعة الذين يعرفون الهند وايران والعراق فقال لم نسمع بذكر هذه الشجرة في الهند ولا في ايران ولا في العراق . وهذه الاقطار الثلاثة هي مواطن الشيعة الامامية ومأوى الملايين منهم وفيها معاهدهم الدينية الكبرى فكيف يجهل فيها أمر هذه الشجرة و يعرف في زنجبار وحدها

وهب أن ماذكر من اقتحام النار لادخل فيه لصنعة ولا خفة وانه كرامة لاهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فأي دخل في ذلك لمذهب الامامية ويقتضى لترك غيره اليه ؟ وهل هو الا مذهب موافق لسائر مذاهب المسلمين المعروفة في اكثر مسائل العبادات والمعاملات ومخالف لها في مسائل قليلة كما يخالف بعضها بعضاً. وجميع أصحاب المذاهب الاسلامية يجلون آل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام ويحبونهم و يوالونهم و يرون انهم أهل لكل كرامة من الله تعالى في الدنيا والآخرة الا ما شذ فيه بعض الخوارج الذين يتبرءون من أمير المؤمنين علي المرتضى كرم الله تعالى وجهه ومن أفراد آخرين من الصحابة وأئمة الدين ، وأس الاسلام ما أجمع عليه المسلمون ولا سيما في الصدر الاول وكل ماوقع فيه الخلاف بين أئمة العلم والفقه فهو من المسائل غير القطعية في الدين التي يختلف فيها الاجتهاد ، ولا ينحصر الصواب فيها بفرد من الافراد ، وفي كل من المنتمين الى المذاهب المنتشرة صالحون وطالحون وابرار وفجار ، فان أوتي أحد الصالحين من أهل مذهب منها كرامة فلا وجه لجعلها

حجة على ترجيح مذهبه على سائر المذاهب في جميع المسائل الخلافية ولا في بعضها، ولو كان حجة لاستغني به عن الاجتهاد والاستدلال

استطراد في تفرق المسلمين والعبرة بعام عاشوراء

سبق لنا البحث في أمثال هذه المسائل مراراً ، وانه ليحزننا اننا لا نزال في أشد الحاجة الى تكرير تذكير عامة أخواننا المسلمين من جميع المذاهب في جميع الاقطار بأنه قد آن لهم ان يتركوا هذا التنابز والتناظر في المذاهب الذي أضعف الدين، وفرق كلمة المسلمين ، فان المصائب العامة المشتركة أفصح معلم وأحكم مؤدب، وقد توالت عليهم نذرها ، ووضحت لهم عبرها ، ولا سيما في هذه السنين ، (أولا يرون انهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولاهم يذكرون) بل قد رأى الاكثرون مالم يكونوا يرون ولكنهم لايزالون يعمهون ، وقد أضاعوا أعظم الفرص، ولا يزال لديهم مجال العمل ، فان أضاعوا بقية الفرصة فهم هالكون

قد كانت ذكرى قتل الحسين واقامة المآتم له مما يقصد به غلاة السياسيين من الباطنية واتباعهم زيادة التفريق بين المسلمين وتأريث الضغائن والاحقاد بينهم استرسالا مع تلك الدسائس المجوسية التي دست في الصدر الاول الكيد للمسلمين الذين أزالوا ملك المجوس وسلطانهم الديني وملكهم الكسروي ، وكان جميع الصادقين في الاسلام من شيعة آل البيت النبوي وغيرهم غافلين عن ذلك جاهلين به ، وظل بعض المتعصبين يقصد منه في بعض الاوقات تقوية العصبية والتذكير بأخذ الثار من المعتدين الظالمين ، ولكن من هم اليوم ؟ واعادة الحق الى الائمة الوارثين ، وأين هم اليوم ؟ فعل العباسيون ببني أمية فعلتهم ، وفعل العبيديون بالعباسيين فعلتهم . وصار المسلمون دولا كثيرة أحاط بها الخطر منذ قرنين أو أكثر ، فأي استعداد اتخذ لذلك في مجموع الامة الاسلامية أو في أي مملكة من ممالكها ؟ أين هم من العمل بما صح من ان «ات وليس في عنقه بيعة لامام مات ميتة جاهلية ؟ لقد مزقوا نسيج الوحدة ، ولم يبق من الجامعة الدينية في أي جماعة منهم الا أسباب الفرقة ؟ ولقد صار هذا المأتم كسائر ما أحدث المسلمون المختلفو المذاهب من الاحتفالات باسم الدين : عادات تقليدية ، تشبه الملاهي او تجمع الناس لسماع القصص التاريخية

والخيالية، بل هي أقل فائدة وأكبر ضررا من تمثيل القصص المذكورة في الامم الحية

لو كان المسلمون يعيشون عيشة الجد لجعلوا الاجتماع في عاشوراء الذكري مولد الامام الحسين (عليه رضوان الله وسلامه) وسيلة سياسية لاحياء المقصد المعظم الذي بذل هذا السبط الشهيد السعيد حياته العالية الغالية في سبيله لاحدثا دينيا يزيد تفريق الكلمة ولا لعبا بالسلاح والنار وندبا بالخطب والاشعار لا يبعث على اقامة حق، ولا تجديد ملك بل هو اما أن يضر واما أن لا ينفع — ذلك المقصد الذي لم ترتق أمة من الامم الراقية في هذا العصر الا على أيدي رجال من أهله يصح ان يسموا حسينيين بما كان من استهانتهم بالحياة الدنيا في سبيل دك سلطان الظلمة المستبدين بأمتهم واقامة سلطة عادلة مقيدة برأي الامة مكانها. ذلك هو الامام الاعظم لمن تسميهم الامم العزيزة اليوم بالفدائيين المنقذين لها، فهل يوجد أحد من زعماء مأتم عاشوراء في قطر من الاقطار بث هذه الفكرة فيه أو فكر فيها؟

(شاهد تاريخي في مأتم عاشوراء)

كان الباطنية من زنادقة المجوس وغيرهم ممن قبل دعوتهم قد اتخذوا شيعة آل البيت ذريعة الى مقصدهم السياسي الذي ذكرناه آنفا وسبق لنا بيانه من قبل. وكان جل كيدهم موجها الى جعل ملك الاسلام في قبضتهم ليمكنوا من قتله بسيفه، وقد نجحوا بتأسيس الدولة العبيدية الفاطمية بمصر، ولكن هذه الدولة زالت قبل ان يتمكنوا من ازالة الاسلام بها. وهذه الدولة هي التي أحدثت مأتم عاشوراء في مصر للمقصد الذي قامت به، واننا نورد من تاريخ المقريزي الشهير صفة مأتم عاشوراء عندهم وهو:

(ماكان يعمل في يوم عاشوراء)

قال ابن زولاق في (كتاب سيرة المعز لدين الله) في يوم عاشوراء من سنة ثلاث وستين وثلثمائة انصرف خلق من الشيعة وأشياعهم الى المشهدين قبر كلثوم ونفيسة ومعهم جماعة من فرسان المغاربة ورجالتهم بالنياحة والبكاء على الحسين عليه السلام وكسروا أواني السقائين في الاسواق وشققوا الروايا وسبوا من ينفق في هذا اليوم ونزلوا حتى بلغوا مسجد الريح وثارت عليهم جماعة من رعية أسفل فخرج أبو محمد الحسين بن عمار وكان يسكن هناك في دار محمد بن أبي بكر وأغلق الدرب ومنع

الفريقين ورجع الجميع لحسن موقع ذلك عند المعز ولولا ذلك لعظمت الفتنة لان الناس قد أغلقوا الدكاكين وأبواب الدور وعطلوا الاسواق وانما قويت أنفس الشيعة بكون المعز بمصر وقد كانت مصر لا تخلو منهم في أيام الاخشيدية والكافورية في يوم عاشوراء عند قبر كلثوم وقبر نفيسة وكان السودان وكافور يتعصبون على الشيعة وتتعلق السودان في الطرقات بالناس ويقولون للرجل : من خالك؟ فان قال معاوية أكرموه وان سكت لقي المكروه وأخذت ثيابه وما معه حتى كان كافور قد وكل بالصحراء ومنع الناس من الخروج

وقال المسبحي وفي يوم عاشوراء يعني من سنة ست وتسعين وثلثمائة جرى الامر فيه على ما يجري كل سنة من تعطيل الاسواق وخروج المنشدين الى جامع القاهرة ونزولهم مجتمعين بالنوح والنشيد ثم جمع بعد هذا اليوم قاضي القضاة عبد العزيز ابن النعمان سائر المنشدين الذين يتكسبون بالنوح والنشيد وقال لهم لا تلزموا الناس أخذ شيء منهم اذا وقفتم على حوانيتهم ولا تؤذوهم ولا تتكسبوا بالنوح والنشيد ومن أراد ذلك فعليه بالصحراء . ثم اجتمع بعد ذلك طائفة منهم يوم الجمعة في الجامع العتيق بعد الصلاة وأنشدوا وخرجوا على الشارع بجمعهم وسبوا السلف فقبضوا على رجل ونودي عليه هذا جزاء من سب عائشة وزوجها صلى الله عليه وسلم وقدم الرجل بعد النداء وضرب عنقه

— وقال ابن المأمون وفي يوم عاشوراء يعني من سنة خمس عشرة وخمسمائة عبي السماط بمجلس العطايا من دار الملك بمصر التي كان يسكنها الافضل بن أمير الجيوش وهو السماط المختص بعاشوراء وهو يعبى في غير المكان الجاري به العادة في الاعياد ولا يعمل مدورة خشب بل سفرة كبيرة من أدم والسماط يعلوها من غير مرافع نحاس وجميع الزبادي أجبان وسلائط ومخللات وجميع الخبز من شعير وخرج الافضل من باب فرد الكم وجلس على بساط صوف من غير مشورة واستفتح المقرئون واستدعى الاشراف على طبقاتهم وحمل السماط لهم وقد عمل في الصحن الاول الذي بين يدي الافضل الى آخر السماط عدس أسود ثم بعده عدس مصفى الى آخر السماط ثم رفع وقدمت صحون جميعها عسل نحل ولما كان يوم عاشوراء من سنة ست عشرة

وخمسمائة جلس الخليفة الآمر بأحكام الله على باب الباذهنج بقي من القصر بعد قتل الافضل وعود الاسمطة الى القصر على كرسي جريد بغير مخدة متلثما هو وجميع حاشيته فسلم عليه الوزير المأمون وجميع الامراء الكبار والصغار بالقراميز وأذن للقاضي والداعي والاشراف والامراء بالسلام عليه وهم بغير مناديل ملثمون حفاة وعبي السماط في غير موضعه المعتاد وجميع ما عليه خبز الشعير والحواضر على ما كان في الايام الافضلية وتقدم الى والي مصر والقاهرة بأن لا يمكنا أحداً من جمع ولا قراءة مصرع الحسين وخرج الرسم المطلق للمتصدرين والقراء الخاص والوعاظ والشعراء وغيرهم على ما جرت به عادتهم. قال وفي ليلة عاشوراء من سنة سبع عشرة وخمسمائة اعتمد الاجل الوزير المأمون على السنة الافضلية من المضي فيها الى التربة الجيوشية وحضور جميع المتصدرين والوعاظ وقراء القرآن الى آخر الليل وعوده الى داره واعتمد في صبيحة الليلة المذكورة مثل ذلك وجلس الخليفة على الارض متلثما يرى به الحزن وحضر من شرف بالسلام عليه والجلوس على السماط بما جرت به العادة

قال ابن الطوير اذا كان اليوم العاشر من المحرم احتجب الخليفة عن الناس فاذا علا النهار ركب قاضي القضاة والشهود وقد غيروا زيهم فيكونون كما هم اليوم ثم صاروا الى المشهد الحسيني وكان قبل ذلك يعمل في الجامع الازهر فاذا جلسوا فيه ومن معهم من قراء الحضرة والمتصدرين في الجوامع جاء الوزير فجلس صدرا والقاضي والداعي من جانبيه والقراء يقرؤن نوبة بنوبة وينشد قوم من الشعراء غير شعراء الخليفة شعرا يرثون به أهل البيت عليهم السلام ، فان كان الوزير رافضيا تغالوا وان كان سنيا اقتصدوا ولايزالون كذلك الى أن تمضي ثلاث ساعات فيستدعون الى القصر بنقباء الرسائل فيركب الوزير وهو بمنديل صغير الى داره ويدخل قاضي القضاة والداعي ومن معهما الى باب الذهب فيجدون الدهاليز قد فرشت مصاطبها بالحصر بدل البسط وينصب في الاماكن الخالية من المصاطب دكك لتلحق بالمصاطب لتفرش ويجدون صاحب الباب جالسا هناك فيجلس القاضي والداعي الى جانبيه والناس على اختلاف طبقاتهم فيقرأ القراء وينشد المنشدون أيضا ثم يفرش عليها سماط الحزن مقدار الف زبدية من العدس والملوحات والمخللات والاجبان والالبان الساذجة

والاعسال النحل والفطير والخبز المتغير لونه بالقصد فاذا قرب الظهر وقف صاحب الباب وصاحب المائدة وأدخل الناس للاكل منه فيدخل القاضي والداعي ويجلس صاحب الباب نيابة عن الوزير والمذكوران الى جانبه وفي الناس من لايدخل ولا يلزم أحد بذلك فاذا فرغ القوم انفصلوا الى أماكنهم ركباناً بذلك الزي الذي ظهروا فيه وطاف النواح بالقاهرة ذلك اليوم وأغلق الباعون حوانيتهم الى جواز العصر فيفتح الناس بعد ذلك وينصرفون اه ماجاء في تاريخ المقريزي عقب الكلام على المشهد الحسيني وذكر خلاصة مقتل الامام الحسين . ثم قال في باب بيان أعياد الفاطميين ومواسمهم مانصه :

﴿ يوم عاشوراء ﴾ كانوا يتخذونه يوم حزن تتعطل فيه الاسواق ويعمل فيه السماط العظيم المسمى سماط الحزن وقد ذكر عند ذكر المشهد الحسيني فانظره وكان يصل الى الناس منه شيء كثير فلما زالت الدولة اتخذ الملوك من بني أيوب يوم عاشوراء يوم سرور يوسعون فيه على عيالهم ويتبسطون في المطاعم ويصنعون الحلاوات ويتخذون الاواني الجديدة ويكتحلون ويدخلون الحمام جرياً على عادة أهل الشأم التي سنها لهم الحجاج في أيام عبد الملك بن مروان ليرغموا بذلك آناف شيعة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الذين يتخذون يوم عاشوراء يوم عزاء وحزن فيه على الحسين بن علي لانه قتل فيه وقد أدركنا بقايا مما عمله بنو أيوب من اتخاذ يوم عاشوراء يوم سرور وتبسط وكلا الفعلين غير جيد والصواب ترك ذلك والاقتداء بفعل السلف فقط * وما أحسن قول أبي الحسين الجزار الشاعر يخاطب الشريف شهاب الدين ناظر الاهراء وكتب بها اليه ليلة عاشوراء عند ما أخر عنه ما كان من جاريه في الاهراء

قل لشهاب الدين ذي الفضل الندي ... والسيد بن السيد بن السيد
أقسم بالفرد العلي الصمد ... ان لم يبادر لنجاز موعدي
لاحضرن للهناء في غد ... مكحل العينين مخضوب اليد

يعرض للشريف بما يرمى به الاشراف من التشيع وانه اذا جاءه بهيئة السرور في يوم عاشوراء غاظه ذلك لانه من أفعال النغب وهو من أحسن ماسمعته في التعريض فلله دره

باب المراسلة والمناظرة

خطبة للشيخ محمد أبو زيد

خطبها في الاحتفال برأس السنة الهجرية سنة ١٣٣٩
وفيها اتفاقية الصلح بين الرسول وخصومه

أحمد الله تعالى ثم أقول في هذا الاسبوع توالت الاعياد الثلاثة العيد المصري (عيد النيروز) والعيد العبري والعيد الهجري وتوالي هذه الاعياد يبشرنا بأن الخير سيتوالى على مصر وأبنائها

الحوادث مرجع التاريخ

جرت عادة الامم على أن تؤرخ بالحوادث فاذا كانت لها حادثة مهمة جعلتها مبدأ لتاريخها . انظر العرب قبل الاسلام كانوا يرجعون الى الحوادث في التاريخ فيقولون عام الفيل ويوم الحرب الفلانية . وانظر المسيحيين جعلوا تاريخهم حادثة الشهداء الذين اضطهدهم الرومان وأبوا الا أن يموتوا ضحية دينهم ومبدئهم

فوائد الاحتفال بالاعياد

وفي الاحتفال بالاعياد فوائد ينبغي لنا أن نراعيها — منها احياء ذكرى العاملين وتخليد آثارهم لنقتدي بهم في خلقهم وعملهم ، ومنها ارتباط الحاضر بالماضي ارتباطا يجدد للامة قوتها ويحفظ لها شخصيتها ، ومنها تربية الشعور والعواطف على الاتحاد والتعاون فيشعر كل فرد في الاجتماع بأنه قوي بقوة المجتمعين مؤيد بروحهم ، وروح الاجتماع معروف تأثيرها في النفوس والاعمال

ثم من الفوائد كذلك أن تحاسب الامة نفسها على ما عملته في الماضي وما تعده للمستقبل فتنظر كما ينظر التاجر في آخر كل سنة مقدار الربح أو الخسارة فان كان عندها ضعف في الداخلية أو الخارجية ورأت نفسها قد قصرت فيما مضى فانها تتوب الى الله تعالى وتعمل على تقوية هذا الضعف وتحترس من أن تقع في مثله في المستقبل وان رأت انها لم تقصر وانها قوية متقدمة فانها تشكر الله الذي وفقها ثم تستزيد من الاعمال الرابحة المتقدمة

هجرة النبي حادثة عظيمة

هذا وان هجرة النبي حادثة عظيمة اذ كانت سببا في احداث اصلاح عظيم وفتحا لباب استقلال جديد وقبل أن أبين هجرته أذكر حكمة ارساله وارسال من سبقه من الرسل صلوات الله عليهم أجمعين

حكمة ارسال الرسل

خلق الله الناس أحرارا مستقلين فاقتضت حكمته وهو وليهم واليه يرجع أمرهم أن يربيهم تربية عملية تثبت في نفوسهم ما فطرهم عليه من الحرية والاستقلال فاختار منهم رسلا مربين لا تذل نفوسهم لشهوة أو هوى ولا تضعف ارادتهم أمام سلطة أو استبداد وأرسلهم بالتعاليم الهادية الى سعادة الدنيا والآخرة

ولو رجعنا الى ماكان يدعو اليه كل رسول لوجدناهم متحدين في الدعوة وكلهم يدعو الى التوحيد (ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) وفي هذا منتهى العزة للنفوس إذ انها لاتستعبد الا لربها الذي يربيها على نعمه ويواليها بفضله واحسانه، والله سبحانه لم يجعل جنسا عبدا لجنس ولم يفاضل بين عباده ألا بقوله (ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير) فالاكرم عند الله من يتخلق بأخلاق الله فلا يستبد بالناس ولا ينتقص من حريتهم والله تعالى قد أرسل الرسل تأييدا لهذا المبدأ مبدأ السير بالناس الى الحرية واخراجهم من الاستبداد

موسى الرسول في مصر وصاحب الهجرة

تعلمون حادثة موسى لما أرسله الله لانقاذ بني اسرائيل من استعباد فرعون قال الله (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات الى النور)

وما كانت الظلمات الا السلطات الاستبدادية التي أماتت ارادة القوم وقضت على حريتهم وايمانهم وما النور الا الاستقلال الذي فيه يحيا الشعور وينمو الايمان وتقوى الارادة

كذلك قال الله لرسوله محمد (كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور)

ايذاء المشركين إياه

اذا علمنا ان الله بعث الرسل لهدم قواعد الاستبداد والظلم، ونشر مبادئ المساواة والعدل ، فاننا نعلم السبب في الايذاء الذي كان ينزل بهم ، والعقبات التي كانت توضع في طريقهم ، وذلك أن المستبدين بالشعب المتحكمين في رقبته يخشون من كل مبدأ يزلزل استبدادهم ، ويخافون من كل عمل يوجد المساواة بينهم وبين المغلوبين لهم ، المقهورين بسلطانهم ، فلذا تراهم عند مايشعرون بمصلح يأخذون في محاربته و يسعون في صده عن سبيله بكل مايستطيعون

الحيلولة بينه و بين الشعب

ولعلمهم بأن الشعب يتأثر بهذه المبادئ تجدهم يحرصون على أن يحولوا بين هذا المصلح والشعب فالشعب المحكوم بالاستبداد مهما جبن ومهما ضعفت ارادته فانه باسماعه مبادئ الحرية وتكريرها على نفسه تنبعث فيه روح العمل لها فيخشى المستبدون به ذلك ولا يمكنون المصلح منه ، وانظر قول الله في أعداء الرسول لما كانوا يرونه متصلا بالشعب يتلو آيات القرآن (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)

صبر النبي وقوة ارادته

واخيرا تضايقوا منه [١] فرجعوا الى عمه ابي طالب — وكانت صلته بمحميه من القتل — فقالوا قل لابن أخيك يرجع عما هو فيه والا نكون في حل مما نرقعه به. فلما عرض عليه عمه ذلك تحمس وقال : والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري مارجعت عن دعوة ربي حتى أبلغها أو أموت دونها

فنمت هذه الروح العالية و بعثت هذه المبادي، العالية

سبب هجرته

لما مات عمه تآمر الخصوم على قتله فأوحى الله اليه بأن يهاجر الى يثرب حيث يجد الانصار والمساعدين فيعمل على تقوية نفسه ونشر مبادئه فهاجر طوعا لربه.

(١) تعدى عامة بلادنا تضايق بمن ولم يرد في معاجم اللغة التي في أيدينا

في الله والأوطان سمي مهاجر لله لم يجبن ولم يتـأثم
لم يرض يثرب بعد مكة موطنا إلا خضوعاً للمليك الأعظم
ما زال فيها غاديا أو رائحا ابدا يحن الى الحطيم وزمزم
هـلم النبوة والمفاخر كلها وخلاصة الشرف الذي لم يثلم
علمتنا حب البلاد عقيدة لا يطلع الايمان مالم تعلم
ولقد هديت من الضلالة أمة لولاك لم تنهض ولم تتقدم
وألنت جانبها وصعب شكيمها بروائع الآيات لا بالمخذم
وأخذت من ميسورها ماينقى بقليله غيظ الفقير المعدم
وعقدت في عنق القوي ضمانة تقي الضعيف عن الطوى والاسهم

كانت هجرته سببا في أنه قابل ناسا تمكن من نشر دعوته فيهم وتقوى بنصرتهم وكان على الدوام يحن إلى دياره التي احتلها الخصوم وأخرجوه منها

مفاوضة في الصلح بين الرسول وخصومه

ذهب الرسول في أربع مئة وألف من أصحابه إلى مكة في السنة السادسة من الهجرة كي يزورها و يعتمر فيها فينشرح صدره بها ويخفف من حنينه اليها . ولما قرب منها أرسل العيون والجواسيس لتستطلع له حال الخصوم وتبانه ماهم فيه من الاستعداد ولما شاور الرسول أصحابه قالوا ماجئنا مقاتلين فان منعونا قاتلناهم وبايعوه على ألا يفر منهم أحد فنمهم الخصوم وحاصروهم ، و بعد مناوشات ومضاربات وقعت بينهم رأى الرسول أن جيشه لا يقوى على الجيش الذي أمامهم (١) وأن الصلح خير لهم فدارت المفاوضات بين الطرفين على إبطال الحرب عشر سنين ، و يباح للرسول أن يأتي مكة في كل عام آمنا حراً

الخصم يملي الشروط و يضع القيود

وقد وضع الخصم شروطا وقيودا وأملاها بنفسه في اتفاقية الصلح

اتفاقيـة الصلح وشروطها

قالوا لا تكتب بسم الله الرحمن الرحيم فانا لا نعرف الرحمن من هو وا كتب

(١) المنار : الحق ان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يجنح لذلك الصلح من ضعف بل لايثاره السلم على الحرب ، ورغبته في التمكن من تبليغ الدعوة بالحجة والبرهان

باسمك اللهم ، فكتب ، قالوا لا تكتب هذا ما اتفق عليه محمد رسول الله لانقر بانك رسول الله ولو أقررنا لما منعناك فاكتب محمد بن عبد الله فكتب ، قالوا من يأتي منا مسلما ترده الينا وأما من يأتي منكم الينا فلا نرده فرضي وكتب ، قالوا لا تدخل مكة هذا العام ولا بد أن ترجع الى عام آخر لئلا يتحدث العرب بان قد ضغط علينا فكتب ، قالوا اذا دخلت بعد هذا العام فتدخل بسلاح الراكب وتكون السيوف في القرب . فقبل الرسول كل هذه الشروط بعد تحققه من تشبث الخصوم وتمسكهم بها ، وكان الصحب ينتقدونها و يعترضون على كل شرط منها فيقنعهم الرسول بالقبول للحاجة

وقد اشتد اعتراضهم لما وصلوا الى أن من جاء اليهم مسلما يردونه ومن ذهب منهم لا يرد اليهم فقالوا كيف نرد من يأتي مسلما ونحن ندعو الى الاسلام وكيف لا يرد الينا من يذهب منا ؟ حتى المساواة في ذلك لانحصل عليها ؟ فقال الرسول من ذهب منا فقد أبعده الله ومن جاءنا ورددناه فالله يجعل له فرجاً ومخرجاً (يعني هذا تحكم القوي في الضعيف وللضرورة أحكام)

هكذا أملى المشركون شروط الاتفاقية حسب ارادتهم وقبلها الرسول كلها على مافيها من الاجحاف ليكون حرا في دخول مكة كل عام فيتمكن من الاختلاط بالشعب و يبث فيه ما يشاء من المبادىء والتعاليم و يتمكن من اعداد القوة التي يحفظ بها الحق وكان قبل هذا لا يمكن أحدا من المسلمين أن يجهر بعقيدته خوفا من المشركين وفتنتهم وعذابهم وشدتهم [1]

حكم القرآن في الاتفاقية

وقد أنزل الله في هذه الاتفاقية الآيات المبينة أنها فتح ونصر ومغانم قال تعالى (انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا) وقال (لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ، ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما . وعدكم الله

---

(١) يعني انه لم يمكن لاحد من المسلمين قبل صلح الحديبية ان يظهر اسلامه أي في غير المدينة وما يقربها وناهيك باضطهاد المسلمين في مكة وما يقربها

مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه) فتأمل قوله فعجل لكم هذه يعني سيكون لهم مغانم كثيرة من وراء هذه المغانم التي كسبوها بالاتفاقية وما الاتفاقية الا باب لتلك المغانم الكثيرة ووسيلة للوصول اليها . وقد كان ما وعد الله تعالى وتحقق نظر الرسول وأصحابه في صلاحية الاتفاقية اذ تم لهم فتح مكة والاستيلاء على بلادهم من جميع جوانبها والتحكم فيها بكل حرية واستقلال بعد سنتين اثنتين من امضاء المعاهدة (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا) وقد أفاض بعد ذلك على العالم من مبادئه العالية ما ترون في تاريخ الاسلام والحضارة الاسلامية . وبالاجمال كانت هجرة النبي صلى الله عليه وسلم جديرة بأن تكون مبدأ التاريخ الاسلامي وانها لحادثة اهتز العالم لها ونتج عنها الانقلاب الكبير في عالم المدنية وسنة الحرية والاستقلال

اقتداؤنا بالرسول

وانا نحمد الله اذ قد اقتدينا بالرسول واقتفينا أثره في الهجرة التي هاجرها وفدنا المصري فاستحق بها فخرا ، ونال من أجلها كرما وأجرا ، فالله تعالى يوفقه للاصلاح فيما يتفق عليه لتقدم المصريين وتحرير مصر

يا مصر ان قلوبنا ونفوسنا ... رهن لديك فلا تخافي واسلمي
مهما استطال عليك جد عاثر ... فالله جارك من عثار مؤلم
فثقي بأن الله بالغ أمره ... والله خير حافظا من مغرم

انتهت الخطابة

[المنار] ان هذه الخطابة قد روعيت فيها المناسبة بين معنى العام الهجري وبين حال مصر السياسية في هذا الوقت فكانت المناسبة قوية والمراعاة حسنة وأكثر الخطابة حقائق وأقلها معاني خطابية وشعرية قصد بها التأثير الذي يقتضيه الوقت كالتفاؤل بتوالي أهل المال لخلفة وبعض ما ذكر من فوائد الاحتفال بالاعياد ومثل هذا مما يتسامح به في أمثال هذه المواقف ، ولكن فيها من مبالغات شعرية لا يتسامح في مثلها كالذى ذكره في حكمة ارسال الرسل ولا سيما تفسيره الظلمات

بالسلطات الاستبدادية والنور بالاستقلال على سبيل الحصر ، وانما الاستبداد أحد تلك الظلمات والاستقلال بعض لوازم ذلك النور ، وما كل الامم التي بعث فيها الرسل كانت خاضعة لسلطة استبدادية كقوم موسى عليه السلام . نعم ان الخطيب قد تلقى عنا في مدرسة الدعوة والارشاد ان التوحيد يعلي الانفس ويرفعها حتى لا تذل ولا ترضى بمهانة ولا تخضع لسلطة استبدادية ، ولكنه بالغ في تصوير ذلك بما ذكر في الخطبة وغفل عما قررناه في الدرس وفي المنار ولا سيما مقالات ذكرى المولد النبوي من اتصاف الامة العربية قبل البعثة المحمدية بالحرية الشخصية واستقلال الفكر وقوة الارادة . وجملة القول أن هذه الخطبة كانت فريدة في بابها بمناسبتها لمقتضى الحال ولكن من بعض الوجوه ، فالمقارنة المقصودة بها غير تامة . ومما انكرناه من الخطبة خلوها من الصلاة على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عند ذكره فيها على كثرته — والموضوع جله ديني — وهذا من تأثير السياسة والاحوال الاجتماعية في الدين

مشيخة الجامع الازهر

محاربة البدع

أرسل الينا الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر رسالة بهذا العنوان مع كتاب خاص منه ذكر فيه انه سئل عما يسميه بعض أهل الطرق اسم الصدر فاجاب بكتابة هذه الرسالة أو الفتوى وأرسلها الينا لأجل نشرها « تعميما للفائدة وارشاداً للأمة » وهي :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، أما بعد فانكم تسألون عما يفعله الآن بعض أهل الطرق من ابناء هذا العصر ، من اجتماعهم صباح مساء ، يرددون لفظ (أه ، أه) يعتقدونه اسما من اسماء الله ، ويقولون انهم بذلك يذكرون الله سبحانه ويسمون ذلك اسم الصدر

والجواب : أن هذا اللفظ المسئول عنه « أه » بفتح الهمزة وسكون الهاء ليس من الكلمات العربية في شيء ، بل هو لفظ مهمل لامعنى له مطلقاً ، وان كان بالمد فهو مما يدل في اللغة العربية على معنى التوجع وليس من أسماء الذوات فضلا عن أن يكون اسما من أسماء الله الحسنى التي أمرنا أن ندعوه بها كما قال تعالى (ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا

يعملون) وقوله : (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى)

وقد أجمع العلماء على أن أسماء الله تعالى وصفاته توقيفية(١) ولا يجوز لنا اطلاق اسم عليه تعالى أو صفة لم يكن ورد بها الشرع ، كما أنهم أجمعوا على أنه لا يجوز لنا التعبد بشيء لم يرد الشرع بجواز التعبد به ،

ومعلوم انه صلى الله عليه وسلم لم يخرج من هذه الدار حتى أكمل الله لنا على يديه الدين ، وأتم لنا النعمة ، كما قال تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً) وفي الصحيحين عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) وفي لفظ « من عمل عملا ليس عليه امرنا فهو رد » وفي صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في خطبته « ان أحسن الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد وشر الامور محدثاتها وكل بدعة ضلالة » (٢) ومن تأمل قوله تعالى (وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون) وتدبر هذا الوعيد الشديد اقشعر جسمه ان يذكر الله أو أن يدعوه بعد ذلك بغير أسمائه التي سمى بها نفسه واذن لنا في تسميته بها على يد رسوله صلى الله عليه وسلم . والالحاد في الاسماء هنا على ثلاثة معان — الخروج بها عما وضعت له من المعنى الشرعي؛ تحريفها عن لفظها الوارد شرعاً ، ادخال ما ليس منها فيها كوضوع السؤال وكما نقل المفسرون هنا من علماء اللغة ان الملحد العادل عن الحق والمدخل فيه ما ليس منه

فثبت بذلك بطلان عمل هؤلاء العوام الذين انتشروا في المدن والقرى يجمعون الناس ويعقدون المجالس على ذلك ويتخذون ذلك ورداً موقوتاً زاعمين أنهم

(١) المنار : اطلاق الحكم بالاجماع هنا سهو لجمهور الاشاعرة قالوا بالتوقيف وجمهور المعتزلة بعدمه ولذلك قال صاحب الجوهرة

واختير ان اسماه توقيفية كذا الصفات فاحفظ السمعية

(٢) لفظ مسلم أوله « أما بعد فان أحسن الحديث » الخ ورواه أحمد وأصحاب السنن باختلاف في الالفاظ ، وأخرجه البخاري من حديث عبد الله بن مسعود موقوفا بلفظ « ان أحسن الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وشر الامور محدثاتها ، وان ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين » وذكر الحافظ في شرحه له من الفتح ان أصحاب السنن أخرجوه عنه مرفوعا وان مسلما أخرجه من حديث جابر مرفوعا مع زيادة وليس شيء من ذلك على شرط البخاري

يتقربون بذلك الى الله. وفي ذلك اضلال للعامة ونشر لسنة سيئة فيهم. لانه تعبد بما لم يتعبدنا الله به. وتسمية لله بغير أسمائه . نعوذ بالله من فعل ذلك أو الاعانة عليه أو السكوت عنه

ومما قال زعماء تلك البدعة من قولهم انهم وجدوا مشايخهم كذلك فليس في ذلك برهان لهم في الدنيا ولا مخلص لهم عند الله يوم القيامة من عذابه . كيف وقد قال علماء الصوفية أنفسهم كل ما لم يستند الى الكتاب والسنة فهو باطل وقالوا اذا لم يستند كشف الولي الى الكتاب والسنة فهو كشف شيطاني لا الولي غير معصوم . وورد مثل هذا القول أيضاً عن أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه ، وأجمعوا على أنه لا يجوز العمل بالكشف ولا الالهام والمشاهدة الا بعد عرضه على الكتاب والسنة. وما يقولونه أيضاً من الاستدلال على بدعتهم هذه بقوله تعالى «ان ابراهيم لاواه حليم » فليس من الاستدلال في شيء بل هو بقول الجاهلين أشبه لان الآية ليس معناها أنه كان يذكر الله بلفظ (آه) كما يعملون بل معناها كما قال المفسرون أنه كان مشفقاً رحيماً. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل!

٢٥ المحرم سنة ١٣٣٩ شيخ الجامع الازهر

محمد أبو الفضل

وقد نشرت هذه الفتوى في الجرائد اليومية فرد عليها بعض المنتسبين الى الطريقة الشاذلية برسالة نشرت في جريدة الاهرام هذا نصها

الرجوع الى الحق فضيلة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . أما بعد فأسأله تعالى أن يهدي الى حضرة النبي صلى الله عليه وسلم أزكى صلاة واتم سلام وان يعم بذلك سائر الانبياء والمرسلين وآل كل والتابعين

قال الله تعالى « ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في اسمائه سيجزون ما كانوا يعملون»

قال المفسرون . اسماء الله تعالى كلها حسنى لانها تدل على معاني الكمال الالهي سواء وردت في القرآن فقط كاسم الله تعالى القريب والمحيط و سريع والاحد وأحكم الحاكمين وخير الفاصلين وذي العرش وذي الطول وغير ذلك مما ورد في

الذكر الحكيم خاصة . أو جاءت به السنة أيضاً كقوله صلى الله عليه وسلم : ان لله تسعاً وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة . الله الرحمن الرحيم — الحديث . أو وردت به السنة وان لم يرد في القرآن كقوله صلى الله عليه وسلم (الديان لا يموت) وقوله صلى الله عليه وسلم (ان الله تعالى طيب لا يقبل الا طيبا) وقوله صلى الله عليه وسلم في بعض ادعيته (ياحنان يامنان) وقوله صلى الله عليه وسلم (ان الله تعالى جميل يحب أن يرى أثر نعمته على عباده) وقدورد هذا الاسم في خريدة التوحيد للدردير فهو الجليل والجميل والولي وغير ذلك مما تفردت به السنة خاصة وليس في القرآن صراحة . فليس المراد بالاسماء الحسنى خصوص التسع والتسعين والالزم عليه معارضة الاحاديث بعضها لبعض كما لا يخفى وذلك لا يعقل .

اذا علمت ذلك علمت أننا مأمورون أن ندعو الله تعالى بكل اسم ثبت وروده عن الشارع صلى الله عليه وسلم مطلقاً

ومما تأكد ثبوته ذلك الاسم العظيم الذي اتخذه السادة الشاذلية من ضمن اذكارهم وهو اسم الله تعالى (آه) جل جلاله . ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه انه رأى مريضاً كان يئن في حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فنهاه بعضهم عن الانين وأمره بالصبر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « دعوه يئن فانه يذكر اسما من اسمائه تعالى » ونقل العلامة الحفني في حاشيته على الجامع الصغير للجلال السيوطي عند الكلام على الاسم الاعظم قال ان اسم الله تعالى (آه) هو الاسم الاعظم الذي اذا دعي به أجاب واذا سئل به أعطى . وقال الامام الفخر الرازي في تفسيره في شرح البسملة : اختلف العلماء في الاسم الاعظم ويرجح عندي أن (آه) هو اسم الله الاعظم لاشتماله على سر الاشارة وتكوين الكائنات وظهور التجليات . وذكر العلامة العزيزي في شرحه على الجامع الصغير أيضاً ان اسم الله تعالى (آه) هو اسم يلهمه الله تعالى للعبد عند تجليات الجلال . وقال الشيخ الامير في حاشيته على متن (غرامي صحيح) أن (آه) من أسمائه تعالى وصحح ذلك . وروى الحاكم في مستدركه حديثاً يذكر فيه أن (آه) اسم عظيم من أسمائه تعالى يلهمه الله تعالى لمن أحب من عباده لانه سر من الاسرار التي لا يطلع عليها الا المقربون من المؤمنين . وقال الاستاذ الباجوري في حاشيته على جوهرة التوحيد عند قول الناظم « حتى الانين في المرض كما نقل » ينبغي للمريض أن يقول (آه) فانه اسم من أسمائه تعالى ولا يقول أخ فانه من أسماء

الشيطان - فقد ثبت بالدليل النقلي ان (آه) اسم عظيم من أسمائه الحسنى التي امرنا سبحانه وتعالى أن ندعوه بها ، فحينئذ لا الحاد ولا تحريف نعوذ بالله من ذلك وإذاً ليس اسم (آه) مهملا لا معنى له مطلقاً (كما قيل) بل معناه منزه عن الاهمال جليل عند أهل الانصاف ولو تتبعنا الآثار والاخبار الواردة في الاستدلال على صحة هذا الاسم لما وسعتنا الصحف . وفي هذا القدر كفاية لمن سطعت عليه أنوار الهداية ، ونسأل الله تعالى العناية وحسن الختام ، بجاه سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

الفقير أحمد وافي — الشاذلي الازهري

نشر هذا الرد في عدد الاهرام الصادر في ٢٦ المحرم ولم ينشر من قبل مشيخة الازهر رد عليه ، ولكن كتب الى الاهرام الرد الآتي فنشر في العدد الذي صدر في ٢ صفر وهذا نصه :

﴿ رد على رد ﴾

أصدرت هيئة مشيخة الازهر الاعلى بياناً أنكرت فيه على بعضهم بدعة مستهجنة لم تؤيدها الاحاديث الصحيحة المتن القوية الحجة المتعارضة مع روح الدين الناصع المنتشرة في بلاد هي كعبة العلم وحجة العارفين في اللغة والدين ، فيبرى أحدهم ويسطر في صحيفتكم الغراء كلمة لا أرى مندوحة من الرد عليها احقاقا للحق الذي لا ينكره الا المكابرون ، وانا لا اطيل الشرح في هذا الباب وانما اورد الوجوه الآتية كي لا نضل الطريق السوي وحتى لا يتسلط بعضهم على السذج من الامة فيدخلون في الدين ماهو براء منه

أولا — ان ما أورده حضرة الكاتب من عزو حديث أبي هريرة الذي فيه قال الرسول الكريم لمارضي المريض على أنينه (دعوه يئن) هذا العزو الى صحيح مسلم كذب محض . والا فليأتنا حضرته بالنص الصريح في صحيح مسلم وهو كثير متداول بين الايدي كرر طبعه مراراً وتعددت طبعاته وكلها خلو من هذا الحديث فليتفضل حضرته بذكر الصحيفة التي تتضمن هذا الحديث .

ثانياً — ان الحديث المذكور مدون في الجامع الصغير وعزاه صاحب الجامع الى الرافعي فهو حديث لا تقوم عنده حجة لانه لم يخرج في الكتب الصحيحة ولم يصححه احد من المحدثين

ثالثاً — لو فرضنا أن هذا الحديث صحيح فلا يدل على بدعتكم هذه من

الرسول انما أشفق على المريض وتركه يئن فان صح أن لفظة (أه) اسم من أسماء الله تعالى فاسماء الله الحسنى معروفة ولا حاجة الى عدها في هذا المقام. وحسبنا أن يكون ماأورد تمويه اشفاقا على المرضى . فلايجب أن يكون ساريا على الاصحاء واقناع السذج منهم بأن لفظ (أه) اسم من أسماء الله . والله برىء مما تنسبونه اليه جلت أسماؤه محمد فهمي بالاسكندرية

تعليق المنار على الفتوى والرد عليها

الفتوى ودعامة الإصلاح

ان فتوى الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر مشتملة على بيان اساس الدين وأصل الاصلاح الاعظم فيه وان كانت في بيان بطلان بدعة خاصة قد ابتلي أهل الطرق بكثير من مثلها ومما هو أبعد عن هدي الدين منها كما شرحناه في مواضع من المنار ، وهذه الاصول تقضي على جميع البدع فقيمة الفتوى أكبر وأعظم من اثباتها لكون مايسمونه اسم الصدر والتعبد به بدعة ليست من الدين في شيء

ذلك الاساس الراسخ والاصل الثابت الذي هو جدير بتدبر المسلمين هو قول الشيخ ان العلماء قد أجمعوا على أنه لايجوز لنا التعبد بشيء لم يرد الشرع بجواز التعبد به . فهذا الاصل ثان للاصل الاول الذي جاء به جميع رسل الله (ص) وهو انه لايعبد الا الله وحده . وقد صرح شيخ الاسلام ابن تيمية بأن الدين كله قائم على هذين الاصلين (١) لايعبد الا الله تعالى (٢) لايعبد الله تعالى الا بما شرعه، ولا نزاع في ذلك وانما نفيده ونكرره لزيادة الايضاح والتقرير . وقد بين الشيخ أدام الله النفع به دليل هذا الاجماع بقوله إن الرسول (ص) لم يخرج من هذه الدار حتى أكمل الله تعالى لنا على يديه الدين وأتم لنا النعمة ، وذكر نص آية المائدة التي أنزلت عليه صلوات الله وسلامه في يوم عرفة من حجة الوداع . ولعله انما قال « على يديه » ولم يقل على لسانه مع أن الدين تبليغ عن الله تعالى باللسان ليفيد أنه (ص) بين ما نزله الله عليه بالعمل والحكم والتنفيذ كما بلغه بالقول . وعبارته تدل على حصر هذا الاكمال به (ص) دون غيره من الصحابة وعلماء التابعين ومن بعدهم فليس قول أحد منهم ولا فعله دينا ولا حجة في الدين عند أهل السنة

وقد بنى الشيخ أيد الله به السنة على هذا بطلان احتجاج أصحاب هذه البدعة بأقوال شيوخهم وأفعالهم فقال إنه ليس لهم في ذلك برهان في الدنيا ولا منجاة من عذاب الله تعالى في الآخرة . ولما كان سبب افتتان الكثير من الناس ببدع المتصوفة الاغترار بما كان عليه بعض شيوخهم من العرفان والصلاح وما ينقل عن بعض أفرادهم من معرفة الحقائق بالكشف — كشف الشيخ هذه الشبهة بكلام منقول عن بعض علماء الصوفية المشهورين مبني على ذلك الاساس الاعظم للدين ، وهو قولهم : كل ما لم يستند الى الكتاب والسنة من كشف وغيره فهو باطل ، وتسميتهم هذا الكشف شيطانياً . وقولهم انه لا يجوز العمل بالكشف ولا الالهام والمشاهدة الا بعد عرضه على الكتاب والسنة ، وتصريحهم بأن الولي غير معصوم أي لا في كشفه ولا في غيره . وانما نقل هذا القول عن علماء الصوفية لان غير العلماء لا يعتد بقولهم ولا نقلهم ، فمثل علماء الصوفية في ذلك غيرهم من المتكلمين والفقهاء ، فالدين قد أكمله الله تعالى وهو محصور في الكتاب العزيز والسنة النبوية الثابتة ، ولا يوجد اجماع صحيح ولا قياس صحيح الا وهو مستند اليهما ، وانما كلام العلماء الذي يعتد به هو بيان الاصلين وما استنبط منهما واستند اليهما من قياس واجماع على ما في القياس والاجماع من خلاف معروف في علم أصول الفقه

وقد استدل الشيخ ايد الله حجته على ما ذكر من اساس الدين بالسنة الصحيحة كما استدل بالكتاب العزيز واكتفى باشهر الاحاديث واصرحها في الموضوع — حديث « من أحدث في أمرنا هـذا ما ليس منه فهو رد » وهو متفق عليه ، وحديث « أما بعد فان أحسن الحديث كتاب الله » الخ وهو متفق عليه أيضا وان لم يخرجه البخاري الا موقوفا على عبد الله بن مسعود . ورواهما غير الشيخين كما تقدم

بعد بيان هذه الاصول الاساسية في الدين أشار الشيخ في سياق بيان بدعة ما يسمونه اسم الصدر الى قسمي البدعة الذين أسهب الامام الشاطبي في الكلام عليهما بكتابه الاعتصام وهما البدعة الحقيقية كذكر الصدر الذي ليس له أصل في الكتاب ولا في السنة ولا كان موجودا في صدر الاسلام بل هو احداث وابتداع محض ، والبدعة الاضافية وهي ما كان له أصل ولكن الابتداع فيه بالعوارض والصفات

كالعدد والتوقيت والاجتماع والصفة كصلاة الرغائب في رجب وصلاة شعبان وقد قال فيهما الامام النووي في المنهاج : وصلاة رجب وشعبان بدعتان قبيحتان مذمومتان . ومن هذا القبيل جميع الاوراد والاذكار التي جعلوها من شعائر الدين بالتوقيت والاجتماع ورفع الصوت وغير ذلك . قال الشيخ نفع الله به :

« فثبت بذلك بطلان عمل هؤلاء العوام الذين انتشروا في المدن والقرى يجمعون الناس ويعقدون المجالس على ذلك ويتخذون ذلك وردا موقوتا زاعمين انهم يتقربون بذلك الى الله ، وفي ذلك اضلال العامة ونشر لسنة سيئة فيهم لانه تعبد بما لم يتعبدنا الله به وتسمية لله بغير أسمائه، نعوذ بالله من فعل ذلك أو الاعانة عليه أو السكوت عنه » اه

وقد عبرنا عن البدعة بالسنة السيئة باعتبار أنها تتبع وتجعل كالمشروع ويقتدي بعض الناس فيها ببعض ، وللاشارة الى حديث جرير بن عبد الله البجلي في صحيح مسلم مرفوعا « من سن في الاسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن في الاسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » (١) وأخرجه الترمذي عنه بلفظ « من سن سنة خير . . ومن سن سنة شر . . » فالمراد بالسنة هنا معناها اللغوي وهو الطريقة المسلوكة . اذ كان سبب الحديث ان قوما من مضر جاؤا النبي (ص) حفاة عراة فتمعر وجهه الشريف لما رأى بهم من الفاقة فأمر بلالا فأذن وأقام فصلى بالناس ثم خطب فحث على التصدق من النقد والثياب والطعام ، فتلبث الناس حتى كان رجل من الانصار بدأ بأن جاء بصرة كادت كفه تعجز عنها لكبرها بل عجزت ، ثم تتابع الناس فكان ماجاءوا به كومين من طعام وثياب ، حتى تهلل وجه النبي (ص) وقال « من سن في الاسلام » الخ فالمراد بالسنة هنا العمل الذي يكون به صاحبه قدوة فيه سواء كان اتباعا كعمل ذلك الانصاري وهو السنة الحسنة أوابتداعا وهو السنة السيئة . وليس من السنة الحسنة أن يسن في الدين عبادة جديدة ولو في الهيأة والصورة . نعم قد يدخل في السنة الحسنة كل

(١) وفي رواية شيئاً في الموضعين ونقص يستعمل لازماً ومتعدياً

اختراع دنيوي ينفع الناس في دينهم أو دنياهم ويشترط في الثاني أن لا يكون محظورا شرعا في نفسه ولا فيما يترتب عليه ويلازمه . وقد تضمن كلام الشيخ انكار جميع البدع و بيان حظرها وحظر الاعانة عليها والسكوت عنها . كل ذلك محرم شرعا ، والحث على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وهما من عزائم الدين بل هما سياجه وحفاظه .

ونحمد الله انا قد جرينا على هذه الاصول والقواعد في المنار وما زال كثير من المعممين الجاهلين أو الحاسدين ينكر علينا بناء الاصلاح الديني على اتباع الكتاب والسنة وانكار البدع كلها حقيقية كانت أو اضافية .

ونرجو من الشيخ وهو رئيس لماهد الدينية في هذا القطر كله ان يجعل العمل بهذا الفتوى مبدأ إصلاح جديد في الازهر وسائر المعاهد الدينية قبل غيرها ، فان البدع ومخالفة السنن كثيرة فيها حتى في عماد الدين — الصلاة — فقد صليت الجمعة من عهد قريب في الجامع الازهر فوجدت قشر البصل وأوراقه الخضر وقشر البيض منثورة في مواضع من المسجد ، ووجدت المجاورين وغيرهم متحلقين في صحنه يتكلمون وقت الخطبة . ووجدت الصفوف غير تامة ويبعد بعضها عن بعض بعدا واسعا ، وغير ذلك من المنكرات ، كما نرجو منه أن يبطل من عقاب مخالفي قانون المعاهد الحرمان من دروس العلم ، فانه يتضمن المنع من طاعة الله تعالى وعبادته بتلقي علوم الدين ووسائلها ومقاصدها والله الموفق .

الرد على المعترض على الفتوى

انبرى أحد مشايخ الطريقة الشاذلية للرد على الفتوى واثبات مايسمونه اسم الصدر وكون التعبد به مشروعا فاستدل على الاسم بحديث عزاه الى صحيح مسلم وحديث عزاه الى الحاكم و بكلام بعض المصنفين

أما الحديث الاول فنص عبارته فيه : ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه رأى مريضا كان يئن في حضيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فنهاه بعضهم عن الانين فقال رسول الله (ص) « دعوه يئن فانه يذكر اسما من أسمائه تعالى » وقد كذبه من رد عليه من الاسكندرية بعزوه هذا الحديث الى صحيح مسلم وطالبه ببيان مكانه منه وذكر ان السيوطي عزاه في الجامع الصغير الى الرافعي وانه

لم يصححه أحد من المحدثين وانه على فرض صحته لا يدل على مطلوبه ، وهو مصيب في هذه الاقوال كلها ولكنها غير كافية في الرد عليه فنزيد عليه ما يأتي من الدلائل والفوائد

(١) ان المعترض زعم ان هذا الحديث من مسند أبي هريرة المخرجة في صحيح مسلم وليس في صحيح مسلم ولا في غيره من كتب الحديث . والحديث الذي عزاه السيوطي في جامعه الى الرافعي من مسند عائشة وبين السيوطي سببه في الجامع الكبير كا ذكر في الاكمال من كنز العمال وهو ان عائشة قالت دخل علينا رسول الله (ص) وعندنا عليل يئن فقلنا له اسكت فقال « دعوه يئن فان الانين اسم من أسماء الله تعالى يستريح اليه العليل » والمعترض ذكر لحديث أبي هريرة سببا مثل هذا وهو ناقل له عن بعض كتب الطريقة وليس هو المخترع له . ومن المعروف عند العلماء ان الحديث كغيره من العلوم له أئمة يؤخذ عنهم فلا يعتد الا بما رووه ولا يحتج بشيء مما رووه الا اذا صححوا سنده أو حسنوه . وان كتب المتصوفة وكتب التاريخ والادب يكثر فيها الاحاديث الموضوعة والواهية التي لا يجوز العمل بها لا في فضائل الاعمال ولا في غيرها ، بل يوجد أمثال هذه الاحاديث في كتب التفسير والكلام (العقائد وفلسفتها) لان أكثر مصنفيها من غير المحدثين . وهذا كتاب احياء العلوم من أشهر الكتب ومؤلفه من أكبر أئمة المتكلمين والفقهاء والصوفية وهو يشتمل على كثير من الاحاديث الموضوعة والواهية التي لا يجيز أحد من الائمة العمل بها في الفضائل فضلا عن الاحتجاج بها في اثبات اسماء الله تعالى وصفاته وشرعية عبادة لا دليل لها سواها

(٢) قال الشيخ محمد الحوت الكبير في كتابه الذي بين فيه ما في الجامع الصغير من الاحاديث الضعيفة أي والموضوعة عند ذكر حديث « دعوه يئن » : لكن هذا لم يرد في حديث صحيح ولا حسن واسماؤه تعالى توقيفية أه

(٣) مما يدل على أن هذا الحديث مصنوع ليس له أصل عدم ذكر أحد له من المحدثين ولا فقهاء الحديث في الكتب التي لا يهملون فيها مثله ككتب لغة الحديث وشروحه وفقه الحديث فهذا الحافظ ابن الاثير لم يذكر كلمة الانين في كتابه النهاية الذي وضعه لتفسير مفردات الاحاديث ، ولم يذكرها صاحب مجمع البحار في كتابه ولا في تكملته على عنايته باستقصاء ما تركه صاحب النهاية .

ولم يذكره حفظ الحديث والفقهاء في بحث حكم الانين شرعا هل هو مكروه أم لا وقد اعتمد أعلم الفقهاء بالاحاديث كراهته ونظر بعضهم فيها ولو ثبت هذا الحديث عندهم لقالوا انه مستحب او مسنون

٤) قال الحافظ ابن حجر في شرحه حديث تفجع عائشة من وجع رأسها وقول النبي (ص) لها « ذاك لو كان وانا حي فاستغفر لك وادعو لك » ـ وهو في كتاب المرضى من صحيح البخاري ـ ما نصه :

قال القرطبي اختلف الناس في هذا الباب (المنار : يعني باب الشكوى في المرض ونحوه هل يقدح في الرضا من الله والتسليم أم لا) والتحقيق ان الالم لا يقدر أحد على رفعه والنفوس مجبولة على وجدان ذلك فلا يستطاع تغييرها عما جبلت عليه وانما كلف العبد أن لا يقع منه في حال المصيبة ماله سبيل الى تركه كالمبالغة في التأوه والجزع الزائد كأن من فعل ذلك خرج عن معاني أهل الصبر . وأما مجرد التشكي فليس مذموما حتى يحصل التسخط للمقدور . وقد اتفقوا على كراهة شكوى العبد ربه وشكواه انما هو ذكره للناس على سبيل التضجر والله أعلم

(قال) روى أحمد في الزهد عن طاوس انه قال : أنين المريض شكوى . وجزم ابو الطيب وابن الصباغ وجماعة من الشافعية أن انين المريض وتأوهه مكروه . وتعقبه النووي فقال هذا ضعيف أو باطل فان المكروه ماثبت فيه نهي مقصود وهذا لم يثبت فيه ذلك ثم احتج بحديث عائشة في الباب ثم قال فلعلهم ارادوا بالكراهة خلاف الاولى . فانه لاشك ان اشتغاله بالذكر أولى انتهى ولعلهم أخذوه بالمعنى من كون كثرة الشكوى تدل على ضعف اليقين وتشعر بالتسخط للقضاء وتورث شماتة الاعداء . واما اخبار المريض صديقه أو طبيبه عن حاله فلا بأس به اتفاقا. اه ما أورده الحافظ في شرح حديث عائشة من البخاري ولو كان لها حديث في شرعية الانين لذكره النووي أو الحافظ الذي قال فيه بعض العلماء : ان كل حديث قال الحافظ ابن حجر : لا أعرفه – فليس بحديث . لجودة حفظه الكتب السنة وحسن استحضاره لها ولا سيما في شرحه للبخاري الذي كان يتلقاه عنه الحفاظ والفقهاء في الجامع الازهر تلقي بحث واستدلال

وكذلك فقهاء الحنابلة جزموا بكراهة الانين في المرض في كتبهم . قال الفقيه ابن مفلح

في كتابه الفروع :(فصل) يكره الانين في المرض الخ ثم قال في فصل بعده :وكانوا يكرهون أنين المريض لانه يترجم عن الشكوى . ثم ذكر عن عبد الله بن الامام أحمد انه نقل في أنين المريض : أرجو أن لا يكون شكوى ولكنه اشتكاء الى الله . اه وذكر ذلك السفاريني في أواخر الجزء الاول من شرح منظومة الآداب ثم قال

« قلت — أنين المريض تارة يكون عن تبرم وتضجر فيكره وتارة يكون عن تسخط بالمقدور فيحرم فيما يظهر ، وتارة يكون لاجل ما يجد ويجد به نوع استراحة بقطع النظر عن التضجر والتبرم فيباح ، وتارة يكون عن ذل بين يدي رب العالمين وانكسار ، وخضوع وافتقار ، ومسكنة واحتقار ، مع حسم مادة العون الا من بابه ، والشفاء الا من عنده ، والعافية الا من كرمه ، فهذا لا يكره فيما يظهر بل يندب اليه . واليه الاشارة في حديث وان لم يثبت « المريض أنينه تسبيح وصياحه تكبير ، ونفسه صدقة ، ونومه عبادة ، ونقله من جنب الى جنب جهاد في سبيل الله » قال الحافظ ابن حجر ليس بثابت والله أعلم اه

فأنت ترى ان حديث عائشة الذي عزاه السيوطي الى الرافعي أمثل ما يستدل به على الحكم الصحيح في هذه المسألة لانه نص فيها فلو كان له أصل لذكروه ولو مع التصريح بعدم ثبوته كما قال الحافظ في حديث المريض المذكور آنفا

(٥) وأما الحديث الثاني فقد أورده المعترض بقوله : وروى الحاكم في مستدركه حديثا يذكر فيه أن (أه) من أسمائه تعالى يلهمه الله تعالى لمن أحب من عباده لانه سر من الاسرار التي لا يطلع عليها الا المقربون من المؤمنين

ونقول في هذا الحديث كما قلنا فيما قبله : الظاهر أنه نقله عن بعض كتب أهل الطريق الذين لا يعتد بنقلهم . وهو لم يذكر لفظه ولا اسم الراوي له من الصحابة . ونحن لم نر كلمة «أه» في النهاية ولا مجمع البحار ولا تكملته ولا في غيرهما من معاجم اللغة العامة الشاملة لما في الكتاب والسنة ولغيره من كلام العرب . ونزيد على ذلك ان هذه العبارة من الكلام المألوف عند الصوفية وليست من أساليب كلام الرسول (ص) ولا كلام العرب في عصره . وكيف يصح أن يكون سرا يعرف بالالهام ويختص بالمقربين مع التصريح به ، على انه لم غير معروف الا عند غوغاء المنتسبين

الى الطريق فلم يرد عن أحد من أكابر الصحابة والتابعين ، ولا الائمة المجتهدين ، ولا غيرهم من أكابر الفقهاء أو المتكلمين ، وأئمة الصوفية العارفين.

الاقوال في اسم الله الاعظم

(٦) ولما كانت الاقوال التي عزاها الى العلماء في اثبات اسم الصدر واردة في بيان كونه هو اسم الله الاعظم ننقل ما أحصاه الحافظ ابن حجر من الاقوال في الاسم الاعظم عن يقول به فان بعض العلماء انكره كما قال الحافظ وهذا نص ما قاله في فتح الباري بعد أن أطال الكلام في اسماء الله الحسنى :

(تكميل) واذ قد جرى ذكر الاسم الاعظم في هذه المباحث فليقع الالمام بشيء من الكلام عليه ، وقد انكره قوم كابي جعفر الطبري وأبي الحسن الاشعري وجماعة بعدهما كابي حاتم ابن حبان والقاضي أبي بكر الباقلاني فقالوا لايجوز تفضيل بعض الاسماء على بعض ، ونسب ذلك بعضهم لمالك لكراهيته أن تعاد سورة أو تردد دون غيرها من السور لئلا يظن أن بعض القرآن أفضل من بعض فيؤذن ذلك باعتقاد نقصان المفضول عن الافضل ، وحملوا ماورد من ذلك على أن المراد بالاعظم العظيم وان أسماء الله كلها عظيمة . وعبارة ابي جعفر الطبري : اختلفت الآثار في تعيين الاسم الاعظم والذي عندي ان الاقوال كلها صحيحة اذ لم يرد في خبر منها انه الاسم الاعظم ولا شيء أعظم منه ، فكانه يقول كل اسم من اسمائه تعالى يجوز وصفه بكونه أعظم فيرجع الى معنى عظيم كما تقدم . وقال ابن حبان الاعظمية الواردة في الاخبار انما يراد بها مزيد ثواب الداعي بذلك كما أطلق ذلك في القرآن والمراد به مزيد ثواب القارئ

وقيل المراد بالاسم الاعظم كل اسم من أسماء الله تعالى دعا العبد به ربه مستغرقا بحيث لا يكون في فكره حالتئذ غير الله تعالى، فان من تأتى له ذلك استجيب له . ونقل معنى هذا عن جعفر الصادق وعن الجنيد وعن غيرهما . وقال آخرون استأثر الله تعالى بعلم الاسم الاعظم ولم يطلع عليه أحدا من خلقه . وأثبته آخرون معينا واضطربوا في ذلك وجملة ما وقفت عليه من ذلك أربع عشر قولا

الاول — الاسم الاعظم « هو » نقله الفخر الرازي عن بعض أهل الكشف واحتج له بأن من أراد أن يعبر عن كلام معظم بحضرته لم يقل له : أنت قلت كذا

وانما يقول : هو يقول . تأدبا معه

الثاني — « الله » لانه اسم لم يطلق على غيره ولانه الاصل في الاسماء الحسنى ومن ثم أضيفت اليه

الثالث — « الله الرحمن الرحيم » ولعل مستنده ما أخرجه ابن ماجه عن عائشة انها سألت النبي صلى الله عليه وسلم ان يعلمها الاسم الاعظم فلم يفعل فصلت ودعت : اللهم اني أدعوك الله وأدعوك الرحمن الرحيم وأدعوك بأسمائك الحسنى كلها ما علمت منها وما لم أعلم » الحديث وفيه انه (ص) قال لها « انه لفي الاسماء التي دعوت بها » (قلت) وسنده ضعيف وفي الاستدلال نظر لايخفى

الرابع — « الرحمن الرحيم الحي القيوم » لما أخرج الترمذي من حديث أسماء بنت يزيد ان النبي (ص) قال « اسم الله الاعظم في هاتين الآيتين (وإلهكم إله واحد لااله الا هو الرحمن الرحيم) وفاتحة سورة آل عمران (الله لااله الا هو الحي القيوم) أخرجه أصحاب السنن الا النسائي وحسنه الترمذي وفي نسخة صححه وفيه نظر لانه من رواية شهر بن حوشب

الخامس — (الحي القيوم) أخرج ابن ماجه من حديث أبي أمامة « الاسم الاعظم في ثلاث سور البقرة وآل عمران وطه » قال القاسم الراوي عن أبي أمامة « التمسته منها فعرفت انه « الحي القيوم » وقواه الفخر الرازي واحتج بأنهما يدلان من صفات العظمة بالربوبية مالا يدل على ذلك غيرهما كدلالتهما

السادس — « الحنان المنان بديع السموات والارض ذو الجلال والاكرام الحي القيوم » ورد ذلك مجموعا في حديث أنس عند أحمد والحاكم وأصله عند أبي داود والنسائي وصححه ابن حبان

السابع — « بديع السموات والارض ذو الجلال والاكرام » أخرجه أبو يعلى من طريق السري بن يحيى عن رجل من طي وأثنى عليه قال كنت أسأل الله تعالى أن يريني الاسم الاعظم فأريته مكتوبا في الكواكب في السماء

الثامن — « ذو الجلال والاكرام » أخرج الترمذي من حديث معاذ بن جبل قال سمع النبي (ص) رجلا يقول : ياذا الجلال والاكرام - فقال « قد استجيب

لك فعل » واحتج له الفخر بأنه يشمل جميع الصفات المعتبرة في الالهية لان في الجلال اشارة الى جميع السلوب وفي الاكرام اشارة الى جميع الاضافات

التاسع — (الله لا اله الا هو الاحد الصمد . الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث بريدة وهو أرجح من حيث السند من جميع ما ورد في ذلك

العاشر — (ربّ ربّ) أخرجه الحاكم من حديث أبي الدرداء وابن عباس بلفظ (اسم الله الاكبر : رب رب) وأخرج ابن أبي الدنيا عن عائشة : اذا قال العبد يارب يارب قال الله لبيك عبدي سل تعط . رواه مرفوعا وموقوفا

الحادي عشر — دعوة ذي النون . أخرج النسائي والحاكم عن فضالة بن عبيد رفعه « دعوة ذي النون في بطن الحوت (لااله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين) لم يدع بها رجل مسلم قط الا استجاب الله له

الثاني عشر — نقل الفخر الرازي عن زين العابدين انه سأل الله ان يعلمه الاسم الاعظم فرأى في النوم « هو الله الله الله الذي لااله الا هو رب العرش العظيم »

الثالث عشر — هو مخفي في الاسماء الحسنى ويؤيده حديث عائشة المتقدم لما دعت ببعض الاسماء وبالاسماء الحسنى فقال لها (ص) « انه لفي الاسماء التي دعوت بها »

الرابع عشر — كلمة التوحيد نقله عياض كما تقدم قبل هذا . اه ماأورده الحافظ من احصاء الاقوال التي وقف عليها ومنها عدة أقوال نقلها عن الرازي ليس فيها ذكر اسم (آه) المدعى وسننقل ماقاله في تفسيره ، ومنها أدلة رواها الحاكم وكان الحافظ ابن حجر يحفظ مستدرك الحاكم وغيره من كتب السنة ولم يذكر عنه في الروايات التي رواها في الاسم الاعظم ولا في الاسماء الحسنى ان منها (اه) وبلغنا انها كلمة سريانية

وسننشر في الجزء التالي بقية الرد على المعترض على فتوى شيخ الازهر مبدوءا بكلام الفخر الرازي في اسم الله الاعظم ، ان شاء الله تعالى

تاريخ فنون الحديث (*)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل من السنة تبيانا للكتاب، ونورا يهتدي به أولو الالباب، وبعث اليها من الحفاظ المتقنين، والرواة الصادقين، والنقدة البصيرين، من قام بصادق خدمتها، وحفظ عليها جلال حرمتها، ونفى عنها تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، (١) وصانها من أفك المفترين، ودغل الدجالين، فحفظت على مر العصور، ومن يد الدثور، وصينت — بعناية الله — من أرباب الفجور. فلله مزيد الحمد والمنة على ماحفظ من معالم دينه وسبل رشاده، وعلى صفيه وخليله محمد بن عبد الله صلواته وسلامه، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين

« وبعد » فان من لاعلم له بالكتاب والسنة لاحظ له من الملة الحنيفية، والشرعة المحمدية، وليس له من نور الهداية ومصباح النبوة مايهتدي به في دياجير الشبهات، وظلمات الترهات؛ وان صدره لخلو من برد اليقين، وعقله بمعزل عن اصابة الحق المبين، وقلبه خلو من واعظ الايمان، وخشية الديان. فالخير كل الخير في اتباع الكتاب والسنة واقتفاء هديهما، والاغتراف من بحرهما الواسع، وجودهما السابغ، ولاشيء أهدى للنفوس وأجلب لسعادتها، وارجى لطهارتها، من تفهم هذين الصنوين والعكوف على درسهما، وتدبر معانيهما، والنفوذ الى مغزاهما. فهنالك طهارة القلب، وصفاء العقل، وكمال النفس

فكان خليقا بالعلماء ورواد الدين أن يجعلوا مقصدهم الاسمى وغايتهم القصوى معرفة هذين الاصلين، والاستظلال بظل هاتين الدوحتين، والاحتماء بحماهما وابتغاء الهداية من سبيلهما. ولكن — وا أسفاه — صرفوا عنهما العناية وولوا وجوههم نحو الفروع وما اليها، وحكموا بها في كتاب الله وسنة رسوله (ص) فآثروا الفروع

---

*) رسالة صنفها الشيخ عبد العزيز الخولي الطالب في السنة النهائية لمدرسة القضاء الشرعي

١) روى البيهقي في المدخل من حديث ابراهيم بن عبد الرحمن العذري مرسلا قال قال رسول الله « ص » يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين

على الاصول، وقدموا آراء الرجال على قول الله وقول الرسول . ومن ذلك الاعراض لمقام الكتاب والسنة، وتغال في وضع الآراء مواضع النصوص، وانه لخطأ - لو يعلمون - عظيم تنكره أسولهم، وتأباه عليهم - لو أنصفوا - عقولهم

ومن عجيب أمرهم أن يعدوا من كبار المفسرين من درس مثل تفسير الجلالين أو النسفي دون أن تكون له ملكة فهم في القرآن وذوق يدرك به سرفصاحته وكمال اقتدار على تطبيقه على سير الناس ومعاملاتهم . وأعجب من ذلك أن يعدوا بخاري زمانه ومسلم أوانه من مر على صحيح البخاري مر السحاب دون أن يطلق لنفسه العنان في تفهم الاحاديث واستنباط الاحكام ومقارنة ذلك بافهام المتقدمين وما استنبطوه منها. وان صحيح البخاري من كتب الصحاح والمسانيد والاجزاء التي يكاد يخطئها العد ولا يضبطها الحساب؟ وان من المضحكات المبكيات أن نسأل كثيراً من العلماء عن اسماء الكتب الستة فلا يحير جوابا كأن ذلك ليس لديه من الدين في ورد ولا صدر ولا قبيل أو دبير . فلا حول ولا قوة الا بالله

تنكرت معالم الدين، وطبق الجهل على المنتسبين اليه ، وسادت الفروع وعبدت لها الاصول، وأنكر على المؤثر لها ، المقتفي هديها ؛ فزال جلال الدين من النفوس وكاد يرحل من دور القضاء ، ويهاجر من أرض المعاملات

فكل ذلك دعاني لان أجعل رسالتي التي أقدمها لمدرسة القضاء في السنة الختامية ، في تاريخ فنون الحديث — والكشف عما طرأ عليها من جمع وتصنيف وترتيب وتهذيب وشرح وتبيين حتى تتمثل لك — أيها القارىء الكريم — صورة واضحة ترى فيها كتب السنة ماثلة ، وتلمح في ثناياها تلك الخدمات الجليلة التي أداها للسنة سلفنا الصالح ، وتبصر في أساريرها رفيع مقام السنة وناصع بياضها وجليل أمرها. واني وان لم أسبق الى هذا النوع من الكتابة — حسب ما أعلم — ولم يعهد أحد قبلي صعابه فان أملي في الله عظيم ورجائي في واسع فضله كبير ان يسدد لي خطاي ، ويوفقني لمسعاي ، ويمدني بروح من عنده يهديني بها قصد السبيل ، انه نعم المولى ونعم النصير

معنى تاريخ السنة

السنة في اللغة الطريقة المسلوكة من سننت الشيء بالمسن اذا أمررته عليه

حتى يؤثر فيه سنا أي طريقاً . وهي اذا أطلقت تنصرف الى الطريقة المحمودة وقد تستعمل في غيرها مقيدة كقول النبي (ص) «من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة » رواه مسلم وتطلق في عرف الشرعيين على قول النبي (ص) وأفعاله وتقريراته — عدم انكاره لامر رآه أو بلغه عمن يكون منقاداً للشرع فهي مرادفة للحديث . وأعني بتاريخها الادوار التي تقلبت فيها من لدن صدورها عن صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم الى أن وصلت الينا من حفظ في الصدور ، وتدوين لها في الصحف ، وجمع لمنثورها وتهذيب لكتبها وتفي لما اندس فيها ، واستنباط من عيونها ، وتأليف بين كتبها ، وشرح لغامضها ونقد لرواتها — الى غير ذلك مما يعرفه القائمون على خدمتها والعاملون على نشر رايتها

ادوار تاريخ السنة

حفظها في الصدور . تدوينها مختلطة بالفتاوى . افرادها بالتدوين تجريد الصحيح . تهذيبها بالترتيب والجمع والشرح . فنون الحديث المهمة وتاريخ كل علم وأحسن المصنفات فيه .

وسنعقب ذلك بخاتمة فيها مسائل قيمة

مكانة السنة من الكتاب

قبل أن نشرع في موضوعنا نقدم لك بين يديه فصلا نبين فيه مكان السنة من الكتاب ومنزلتها منه حتى تنجلي لك مكانة الموضوع الذي نحن بصدده فنقول وبالله توفيقنا وعليه اعتمادنا

ان للسنة عملين (١) تبيين الكتاب (٢) والاستقلال بتشريع الاحكام . أما الاول فلقوله تعالى (وأنزلنا اليك الذكر «القرآن» لتبين للناس ما نزل اليهم) فلا سبيل الى العمل بجل الشرائع التي تضمنها الكتاب الا ببيان من المعصوم يفصل مجملها ويوضح مشكلها ويعين محتملها ويقيد مطلقها. وكيف تراك مصلي اذا وقفت الى ماننطق به الكتاب فحسب ولم تعرج على السنة فتتعرف أوقاتها وعدد ركعاتها وسجداتها ومايقيمها أو يبطلها الى سائر أحكامها وكثيراً نواعها

وما الذي تخرجه من مالك زكاة اذا لم تسترشد بكتاب الصدقات من السنة؟ ثم كيف تؤدي مناسك الحج اذا لم تأتس بالرسول في قاله وحاله يوم أن حج بالناس حجة الوداع . فلا جرم كان القرآن في حاجة الى السنة ورحم الله الاوزاعي اذ يقول : الكتاب أحوج الى السنة من السنة الى الكتاب ولا عجب في ذلك فان المجمل في حاجة الى البيان ولا كذلك المفصل

وأما الثاني فلقوله تعالى :(وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب) : وقوله جل شأنه : (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) الى غير ما آية . وكيف تنكر استقلال السنة بتشريع الاحكام وقد أخرج أبو داود والترمذي عن المقدام بن معديكرب قال قال رسول الله (ص) « يوشك رجل منكم متكئاً على أريكته يحدث بحديث عني فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وماوجدنافيه من حرام حرمناه ألا وان ماحرم رسول الله مثل الذي حرم الله — زاد أبو داود — ألا اني أوتيت الكتاب ومثله معه » وقد حرمت السنة نكاح المرأة على عمتها أو خالتها وحرمت الحمر الاهلية وكل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير وأوجبت رجم المحصن ـ الى كثير مما ملئت به مدونات فقه الحديث والكتب الجامعة لأحاديث الاحكام كبلوغ المرام لابن حجر والمنتقى للمجد ابن تيمية وشرحه نيل الاوطار للشوكاني

ولا تنس ما في السنة من آداب وأخلاق وقصص ومواعظ ورقائق وعقائد وان كانت لاتعدو شرح الكتاب

وجملة القول ان الكتاب والسنة ينبوع هذا الدين المتين ، ومعتصم المسلمين وناموس المشرعين

الدور الاول حفظ السنة في الصدور

لم تكن السنة في القرن الاول — عصر الصحابة وأكابر التابعين — مدونة في بطون الكتب وانما كانت مسطورة على صفحات القلوب فكانت صدور الرجال مهد التشريع النبوي ومصدر الفتيا ومنبعث الحكم والاخلاق

ولم يقيدوا السنة بكتاب لما ورد من النهي عن كتابتها : روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال قال رسول الله (ص)

« لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه وحدثوا عني فلا حرج ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » قال كثير من العلماء نهاهم عن كتابة الحديث خشية اختلاطه بالقرآن . وهذا لا ينافي جواز كتابته اذا أمن اللبس . وبذلك يحصل الجمع بين هذا وبين قوله (ص) في مرضه الذي توفي فيه « ائتوني بكتاب اكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده » وقوله عام الفتح « اكتبوا لابي شاه » واذنه لعبد الله بن عمرو بتقييد العلم . ولما توفي النبي (ص) بادر الصحابة الى جمع ما كتب في عهده في موضع واحد وسموا ذلك « المصحف » واقتصروا علـ بتجاوزوه الى كتابة الحديث وجمعه في موضع واحد كما فعلوا بالقرآن لـكن رفوا همهم الى نشره بطريق الرواية اما بنفس الالفاظ التي سمعوها منه « ص » ان بقيت في أذهانهم أو بما يؤدي معناها ان غابت عنهم فان المقصود بالحديث هو المعنى ولا يتعلق في الغالب حكم بالمبنى بخلاف القرآن فان للالفاظ مدخلا في الاعجاز فلا يجوز ابدال لفظ منه بآخر ولو كان مرادفاً له خشية النسيان مع طول الزمان فوجب أن يقيد بالكتابة . وأما السنة فتقييدها مباح ما أمن الاختلاط

فانت تراهم سلكوا مسلك الجمع بين هذه الاحاديث المتضاربة لـكن نظرت لابن القيم في كتابه (زاد المعاد) اثناء الكلام على قصة الفتح ما يأتي : وفي القصة ان رجلا من الصحابة يقال له أبو شاه قام فقال اكتبوا لي فقال النبي (ص) « اكتبوا لابي شاه » يريد خطبته . ففيه دليل على كتابة العلم ونسخ النهي عن كتابة الحديث فان النبي (ص) قال من « كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحه » وهذا كان في أول الاسلام خشية أن يختلط الوحي الذي يتلى بالوحي الذي لا يتلى ثم أذن بالكتابة لحديثه . وصح عن عبد الله بن عمرو انه كان يكتب حديثه وكان مما كتبه صحيفة تسمى الصادقة وهي التي رواها حفيده عمرو بن شعيب عن أبيه عنه وهي من أصح الاحاديث وكان بعض أئمة أهل الحديث يجعلها في درجة أيوب عن نافع عن ابن عمر والأئمة الاربعة وغيرهم احتجوا بها *

والى القول بالنسخ أميل . ذلك ان القرآن وان كان بدعاً في أسلوبه فريداً في نظمه يمتاز على غيره بالاعجاز . لـكن المسلمين في أول الاسلام كانوا حديثي عهد بنزوله وكان النازل منه يسيراً فلم تكن ميزته المثلى قد توطنت النفوس جد التوطن ، ولا تمكنت فيها فضل التمكن . فكان من الممكن أن يشتبه على من «دون غيره [redacted] المتلو بغير المتلو فوجب التمييز بالكتابة . فلما مرنوا

على أسلوبه وطال عهدهم بسماعه وتلاوته حتى أصبحوا اذا سمعوا الآية تتلى أو السورة تقرأ ادركوا لاول كلمة تقرع أسماعهم ان ذلك وحي الله المتلو ولم يجر الاشتباه حول تفوسهم — لما مرنوا على ذلك اذن لهم بكتابة الحديث لأمن اللبس

ولعل من دواعي النهي عن كتابة الحديث أولا ثم الاذن بكتابته ثانيا أن العارفين بالكتابة كانوا في غربة الاسلام قليلين فقصرت الحكمة جهودهم على كتابة القرآن فلما توافر عددهم أذن صلوات الله وسلامه عليه بكتابة الحديث

ولا يقع في نفسك مما أسلفت انه لم يدون شيء من الحديث في القرن الأول وان كان هذا هو الشأن الغالب — فقد كان عبد الله بن عمرو يكتب كل ما سمعه من رسول الله (ص) وروى أبو عمر يوسف بن عبد البر في كتابه « جامع بيان العلم وفضله » عن مطرف بن طريف قال سمعت الشعبي يقول حدثني أبو جحيفة قال قلت لعلي بن أبي طالب هل عندكم من رسول الله (ص) شيء سوى القرآن؟ فقال لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة الا أن يعطي الله عبدا فهما في كتابه وما في هذه الصحيفة ؟ قلت وما في الصحيفة ؟ قال العقل وفكاك الأسير وألا يقتل مسلم بكافر

وكتب رسول الله (ص) كتاب الصدقات والديات والفرائض والسنن لعمرو بن حزم وغيره . وعن ابي جعفر محمد بن علي قال وجد في قائم سيف رسول الله « ص » صحيفة مكتوب فيها « ملعون من أضل اعمى عن سبيل ، ملعون من سرق تخوم الارض ، ملعون من تولى غير مواليه ، أو قال ملعون من جحد نعمة من أنعم عليه » وعن معن قال أخرج الي عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود كتابا وحلف لي أنه خط أبيه بيده . وعن سعيد بن جبير أنه كان يكون مع ابن عباس فيسمع منه الحديث فيكتبه في واسطة الرحل فاذا نزل نسخه . وعن عبد الرحمن بن ابي الزناد عن أبيه قال كنا نكتب الحلال والحرام وكان ابن شهاب يكتب كل ما سمع فلما احتيج اليه علمت انه أعلم الناس . وعن هشام بن عروة عن أبيه أنه احترقت كتبه يوم الحرة في خلافة يزيد وكان يقول لو أن عندي كتبي باهلي ومالي

تثبت الصحابة في رواية الحديث

عساك تقول اذا كانت الصدور وعاء السنة في القرن الاول فكيف يؤمن عليها النسيان وأن يندس بين المسلمين من يتقول على الرسول ؟ فنقول اجابة عن ذلك أن الصحابة وأكابر التابعين كانوا على علم بالكتاب وكانوا أسبق الناس الى الائتمار

بأمره والانتهاء بنهيه وقد علموا ما أوعد الله به كاتم العلم من لعن وطرد وإبعاد عن رحمة الرب فكانوا اذا علموا شيئاً من سنن الرسول بادروا الى تعليمه وابلاغه خروجا من التبعة وابتغاء للرحمة فسرعان ما ينتشر بين الجماهير فلئن نسي بعض منهم فرب مبلغ أوعى من سامع فن البعد بمكان أن يضيع شيء من السنة أو يخفى على جمهور المسلمين . ولم يكن الصحابة يقبلون الحديث من كل محدث بل علموا أن من الحديث عرما وعللا ومخطئاً ومصوبا وأن سبيل ذلك اليقين أو الظن الآخذ بأهدابه لذلك تثبتوا في رواية الحديث جد التثبت فكان لهم في الراوي نظرة كما كانت لهم في المروي وكان كثير منهم يأبى الا شاهداً معضداً أو يميناً حاسمة تميط لثام الشك عن وجه اليقين . فهذا أبو بكر الصديق كان أول من احتاط في رواية الحديث . روى ابن شهاب عن قبيصة أن الجدة جاءت الى أبي بكر تلتمس أن تورث فقال ما أجد لك في كتاب الله شيئاً ثم سأل الناس فقام المغيرة فقال كان رسول الله «ص» يعطيها السدس فقال له هل معك أحد ؟ فشهد محمد بن مسلمة بذلك فأنفذه لها أبو بكر رضي الله عنه . وعمر بن الخطاب سن للمحدثين التثبت في النقل وربما كان يتوقف في خبر الواحد اذا ارتاب . روى الجريري عن أبي نضرة عن أبي سعيد ان أبا موسى سلم على عمر من وراء الباب ثلاث مرات فلم يؤذن له فرجع فأرسل عمر في أثره فقال لم رجعت قال سمعت رسول الله «ص» يقول اذا سلم أحدكم ثلاثاً فلم يجب فليرجع » قال لتأتيني على ذلك ببينة أو لأفعلن بك فجاء أبو موسى منتقعاً لونه ونحن جلوس فقلنا ما شأنك فأخبرنا وقال فهل سمع أحد منكم فقلنا نعم كلنا سمعه فأرسلوا معه رجلا منهم حتى أتى عمر فأخبره وقال علي رضي الله عنه كنت اذا سمعت عن رسول الله (ص) حديثاً نفعني الله بما شاء منه واذا حدثني عنه محدث استحلفته فان حلف لي صدقته وان أبا بكر حدثني وصدق أبو بكر . ولقد كان كثير من أصحاب رسول الله «ص» يقلون من الرواية عن رسول الله (ص) خشية أن يدخلوا في الحديث ما ليس منه سهواً أو خطأ فيما لهم من وعيد الكذب على رسول الله (ص) ومن أولئك الزبير وأبو عبيدة والعباس و[illegible] وكانوا ينكرون على من يكثر من الرواية اذ الاكثار مظنة الخطأ والخطأ في الدين [illegible] وعلى أبي هريرة كثرة حديثه حتى اضطر لتبرئة نفسه أن يبين السبب الذي حمله على الاكثار فقال إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثا

ثم يتلو : (ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون * الا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم) : ان اخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق في الاسواق وان اخواننا من الانصار كان يشغلهم العمل في أموالهم وان أبا هريرة كان يلزم رسول الله (ص) يشبع بطنه ويحضر ما لا يحضرون ويحفظ ما لا يحفظون

مبدأ تدوين السنة

لما انتشر الاسلام واتسعت البلاد وشاع الابتداع وتفرقت الصحابة في الأقطار ومات كثير منهم وقل الضبط دعت الحاجة الى تدوين الحديث وتقييده بالكتابة . ولعمري انها الاصل فان الخاطر يغفل والقلم يحفظ فلما أن أفضت الخلافة الى الامام العادل عمر بن عبد العزيز كتب على رأس المائة الى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عامله وقاضيه على المدينة : انظر ما كان من حديث رسول الله «ص» فاكتبه فاني خفت دروس العلم وذهاب العلماء وأوصاه أن يكتب له ما عند عمرة بنت عبد الرحمن الانصارية «١» والقاسم «٢» وكذلك كتب الى عماله في أمهات المدن الاسلامية بجمع الحديث وممن كتب اليه محمد بن مسلم بن عبيد الله ابن عبد الله بن شهاب الزهري المدني احد الأئمة الاعلام وعالم أهل الحجاز والشام «٣» ثم شاع التدوين في الطبقة (*) التي تلي طبقة الزهري فكان أول من جمعه بمكة ابن جريج «٤» وابن اسحاق «٥» أومالك «٦» والربيع بن صبيح «٧» أوسعيد بن أبي عروبة «٨» أوحماد بن سلمه «٩» وسفيان الثوري «١٠» والأوزاعي «١١» وهشيم «١٢» ومعمر «١٣» وجرير بن عبد الحميد «١٤» وابن المبارك «١٥» وكل هؤلاء بالقرن الثاني وكان جمعهم للحديث مختلطاً بأقوال الصحابة وفتاوي التابعين

(١) توفيت سنة ٩٨ (٢) توفي سنة ١٢٠ (٣) توفي سنة ١٢٤ «*» الطبقة في اصطلاح المحدثين عبارة عن جماعة اشتركوا في السن ولقاء المشايخ (٤) توفي سنة ١٥٠ (٥) توفي سنة ١٥١ (٦) توفي سنة ١٧٩ بالمدينة (٧) توفي سنة ١٦٠ (٨) توفي سنة ١٥٦ (٩) توفي سنة ١٦٧ بالبصرة (١٠) توفي سنة ١٦١ بالكوفة (١١) توفي سنة ١٥٦ بالشام (١٢) توفي سنة ١٨٨ بواسط (١٣) توفي سنة ١٥٣ باليمن «١٤» توفي سنة ١٨٨ بالري (١٥) توفي سنة ١٨١ بخراسان

أشهر الكتب المؤلفة في القرن الثاني

من أشهر الكتب المؤلفة في المائة الثانية الموطأ للامام مالك ابن أنس المدني امام دار الهجرة (١) ومسند الامام الشافعي (٢) ومختلف الحديث له (٥) والجامع للامام عبد الرزاق بن همام الصنعاني (٣) ومصنف شعبة بن الحجاج (٤) ومصنف سفيان بن عيينة (٥) ومصنف الليث بن سعد «٦» ومجموعات من عاصرهم من حفاظ الحديث وعقال أوابده كالاوزاعي والحميدي (٧)

ولما كان موطأ مالك أسير هذه الكتب ذكراً وأبعدها صيتاً وأجلها نبولا رأيت أن أفرد له فصلا يجلي شأنه ويوضح مالاقاه من عناية الأمة وأئمة الدين

موطأ الامام مالك

درجة حديثه قال الحافظ ابن حجر أن كتاب مالك صحيح عنده وعند من يقلده على مااقتضاه نظره من الاحتجاج بالمرسل والمنقطع «١» وغيرهما قال المحدث الدهلوي صاحب كتاب «حجة الله البالغة» أما على رأي غيره فليس فيه مرسل ولا منقطع الا قد اتصل السند به من طرق أخرى فلا جرم كانت صحيحة من هذا الوجه . وقد صنف في زمان مالك موطآت كثيرة في تخريج أحاديثه ووصل منقطعة مثل كتاب ابن ابي ذئب وابن عيينة والثوري وغيرهم ممن شارك مالكا في الشيوخ . قال السيوطي في تقريبه نقلا عن ابن حزم : أحصيت مافي موطأ مالك ومافي حديث سفيان ابن عيينة فوجدت في كل واحد منهما من المسند «٢» خمسمائة ونيفا مسندة وثلاثمائة مرسلا وفيه نيف وسبعون حديثاً قد ترك مالك نفسه العمل بها وفيها أحاديث ضعيفة وهاها جمهور العلماء

عناية الناس به قد روى الموطأ عن مالك بغير واسطة أكثر من الف رجل

١. توفي سنة ١٧٩ .٢. توفي سنة ٢٠٤ «٥» يطلق مختلف الحديث على الاحاديث المعارضة بمثلها في القوة ويمكن الجمع بينها بغير تعسف.٣. توفي سنة ٢١١ .٤. توفي سنة ١٦٠ .٥. توفي سنة ١٩٨ .٦. توفي سنة ١٧٥ .٧. «توفي ٢١٩

«١» المرسل من الحديث ماسقط من سنده الصحابي بأن يروي التابعي عن الرسول (ص) مباشرة والمنقطع ماسقط من اثناء سنده راوٍ أو أكثر مع عدم التوالي «٢» المسند مرفوع صحابي بسند ظاهره الاتصال

وقد ضرب الناس فيه أكباد الابل الى مالك من أقاصي البلاد، مصداقا لقول النبي «ص» — «يوشك ان يضرب الناس أكباد الابل في طلب العلم فلا يجدون بأعلم من عالم المدينة» قال عبد الرزاق هو مالك ابن أنس. رواه الترمذي — فمنهم المبرزون من الفقهاء كالشافعي ومحمد بن الحسن «١» وابن وهب والقاسم ومنهم شيوخ المحدثين كيحيى بن سعيد القطان «٢» وعبد الرحمن بن مهدي «٣» وعبد الرزاق بن همام «٤» ومنهم الملوك والامراء كالرشيد (٥) وابنيه الامين (٦) والمأمون «٧» . وقد اشتهر في عصره حتى بلغ على جميع ديار الاسلام ثم لم يأت زمان الا وهو أكثر به شهرة وأقوى به عناية. وعليه بنى فقهاء الامصار مذاهبهم حتى أهل العراق في بعض أمرهم ولم يزل العلماء يخرجون حديثه ويذكرون متابعاته وشواهده (*) ويشرحون غريبه ويضبطون مشكله ويبحثون عن فقهه ويفتشون عن رجاله الى غاية ليس بعدها غاية . روى ابن سعد في الطبقات عن مالك بن أنس قال لما حج المنصور قال لي : قد عزمت على أن آمر بكتبك هذه التي وضعتها فتنسخ ثم أبعث الى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة وآمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدوه الى غيره ؛ فقلت يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا فان الناس قد سبقت اليهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورووا روايات وأخذ كل قوم بما سبق اليهم ودانوا به فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لانفسهم. وروى أبو نعيم في الحلية عن مالك بن أنس قال شاورني هرون الرشيد في أن يعلق الموطأ في الكعبة ويحمل الناس على ما فيه فقلت لا تفعل فان أصحاب رسول الله (ص) اختلفوا في الفروع وتفرقوا في البلدان وكل مصيب . فقال وفقك الله يا أبا عبد الله

روايات الموطأ قال أبو القاسم بن محمد بن حسين الشافعي الموطآت المعروفة عن مالك احد عشر معناها متقارب والمستعمل منها أربعة موطأ يحيى بن يحيى وموطأ ابن بكير وموطأ أبي مصعب وموطأ ابن وهب ثم ضعف الاستعمال في

١. توفي الاول سنة ٢٠٤ والثاني ١٨٩ ـ٢. سنة ١٩٨ ـ٣. سنة ١٩٨ ـ٤. سنة ٢١١ ـ٥. سنة ١٩٣ ـ٦. سنة ١٩٨ ـ٧. سنة ٢١٨

(*) الحديث الذي ينفرد بروايته واحد يسمى غريبا فان انفرد به في موضع واحد من الاسناد قيل للحديث انه فرد نسبي أيضا وان كان في كل موضع منه سمي فردا حقيقيا مطلقا وان وافق ذلك المنفرد غيره في رواية ذلك الحديث عن نفس الصحابي الذي رواه عنه قيل انه وجد للاول متابع وان وجد متن يشبه متنه وهو مروي عن صحابي آخر قيل للثاني شاهد

الأخيرين . وبين الروايات اختلاف كبير من تقديم وتأخير وزيادة ونقص ومن أكبرها وأكثرها زيادات رواية أبي مصعب فقد قال ابن حزم انها تزيد على سائر الموطآت نحو مائة حديث

شروح الموطأ ومختصراته

ممن شرح الموطأ أبو مروان بن عبد الملك بن حبيب المالكي (١) وصنف الحافظ ابو عمر يوسف بن عبد البر (٢) كتابا سماه (التقصي لحديث الموطأ) وله كتاب (التمهيد لما في الموطأ من المعاني والاسانيد) قال ابن حزم هو كتاب في الفقه والحديث ولا أعلم نظيره. وكذلك شرح الموطأ أبو محمد عبد الله بن محمد النحوي البطليوسي (٣) والقاضي الحافظ أبو بكر محمد بن العربي المغربي «٤» وسماه (القبس) ومما جاء فيه في وصف الموطأ : هذا أول كتاب الف في شرائع الاسلام وهو آخره لانه لم يؤلف مثله اذ بناه مالك رحمه الله على تمهيد الاصول للفروع ونبه فيه على معظم أصول الفقه التي ترجع اليه في مسائله وفروعه. وممن شرحه جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي (٥) وسمى شرحه « كشف المغطا في شرح الموطأ» ومحمد ابن عبد الباقي الزرقاني المصري المالكي (٦) شرحه شرحا بسيطاً في ثلاثة مجلدات وللموطأ مختصرات كثيرة منها مختصر الامام الخطابي أحمد بن محمد البستي (٧) ومختصر أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي (٨) وابن رشيق القيرواني (٩) (له بقية)

(الدعوة الى انتقاد المنار)

اننا ندعو جميع من يطلع على المنار من علماء الدين وغيرهم من أهل العلم والرأي أن يكتبوا الينا بما يرون فيه من الخطأ في المسائل الدينية وغيرها أو ما يرونه في مصلحة أمتنا أو أوطاننا التي نعيش فيها . ونعد المنتقدين بنشر كل ما يرسل الينا من نقد مع بيان رأينا فيه بشرط أن يكون على الوجه الذي بيناه في خاتمة المجلد الـ ٢١ وفيما قبله

ونذكر عامة قراء المنار أن يطالبوا كل من يسمعون منه انتقادا في المنار بكتابة انتقاده وارساله الى صاحبه لينشره فيه فيطلع قراؤه عليه وعلى ما يقرن به من قبول أو رد وليأخذوا بما يرونه الحق . وليعلموا أن كل منتقد لا يرضى أن يكتب انتقاده ويرسله الينا فهو فاسق مغتاب ، أو حاسد كذاب

---

١. توفي سنة ٢٣٩ ٢. سنة ٤٦٣ ٣. سنة ٥٢١ ٤. سنة ٥٤٦ ٥. سنة ٩١١
٦. سنة ١١٢٢ ٧. سنة ٢٨٨ ٨. سنة ٤٧٤ ٩. ٤٥٦

الاتحاد والاقتصاد

كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، ميزان سياسة الامم ونظام الاجتماع ، كثر في هذا العصر تشدق الخطباء بذكرهما ، وشرح الكتاب لفوائدهما ، ولم يفقه الدهماء حقيقة معناهما ، بل لم يحط أكثر العلماء والزعماء منا خبرا بهما ، لان فقه الحقائق واحاطة الخبر لايحصلان الا بطاول التجارب في الحوادث ، والاصطلاء بنيران الكوارث ، بعد تلقي الحكمة بالتعليم ، والتربية على سلوك الصراط المستقيم

كنا منذ أنشأنا المنار في أواخر سنة ١٣١٥ للهجرة قد جعلنا أهم ماندعو اليه القراء في مصر وسائر البلاد ان يجعلوا جل عنايتهم في اصلاح شؤونهم بالتربية الملية التي تكوّن أمة متحدة والاقتصاد الذي تكون به الامة غنية تتصرف بثروتها في القيام بمصالحها كما تشاء . بثثنا هذه الدعوة في (المؤيد) في ذلك العهد اذ كنا نكتب فيه مقالات بامضاء (م . ر) وبغير امضاء . ثم أعدنا بثها في (الجريدة) في أول العهد بظهورها في مقالة عنوانها (الى أي شيء أنت يامصر أحوج) نشرناها أيضاً في الجزء الثاني للمجلد العاشر من المنار الذي صدر في صفر سنة ١٣٢٥

ونحمد الله تعالى ان رأينا في هذه السنين آيات الاتحاد في هذه البلاد العزيزة ورأينا من نتائجه قرب الحصول على الاستقلال الذي نعتقد أنه لاينال الا به . بل نقول ان الاتحاد بغير استقلال خير من الاستقلال بغير اتحاد ، لان الاتحاد يأتي بالاستقلال المفقود ، وفقده يذهب بالاستقلال الموجود ، فالواجب الآن على كل مصري أن يكون أحرص على تعزيز الاتحاد والتكافل الذي وقع ، منه على نيل الاستقلال الذي يرجى به و يتوقع ، فان الاتحاد اذا تزلزل وانفصمت عروته قبل بدو صلاح ثمرته نفضت الشجرة أو خرجت الثمرة شيصا لاغناء فيها ، واذا انتكث فتله بعده زال أثره بزواله ، فاذا لااستقلال ابتداء ولا بقاء الا بالاتحاد

ولما كان الكل كثرة منظمة جهة وحدة تضبطها وتعرف بها وكان الوفد المصري هو عنوان الاتحاد الذي ارتقت اليه البلاد ومثله وجب على الشعب المصري المتحد أن يظل مستمسكا بحبله معتصما بعروته ، ولاسيما بعد الذي ظهر من كفاءته وأمانته ، والا

كان كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا ، وزهيك به جهلا وأفنا وخسرانا .

ثم ليعلم علم تدبر أنه لاقوام لاستقلال الامم وحريتها الا بالثروة، ولاثروة الا بالاقتصاد، وان الاستقلال السياسي، متوقف على الاستقلال الاقتصادي، ونحن مقصرون في سبيل هذا الاستقلال تقصيرا اذا لم نبادر الى تداركه كنا من الهالكين ان للكسب والانفاق علوما وفنونا اتسع نطاقها في هذا العصر اتساعا عظيما لانها قطب الرحى لمدنية الامم والشعوب وعزتها ورفاهتها وسيادتها، وقد برزت بها الامم الشمالية الغربية ، فاستعمرت أواستعبدت به الامم الشرقية والجنوبية، حتى ظن كثير من القاصرين ان الشعوب والاجناس أو الاقاليم الغربية، أعظم استعدادا بطبيعة العرق وخاصية الجنس من الشعوب الشرقية، ويبطل هذا القول ،اهو معلوم من إن اليهود أرقى أهل الارض في جميع هذه العلوم والفنون والاعمال المترتبة عليها، أينما وجدوا وحيثما حلوا من أقطار الارض، وهم شعب شرقي محافظ على نسبه ودمه، وكذلك الشعب الياباني في الشرق الاقصى قد جارى الغربيين فيها من عهد قريب

ولكن الامر الغريب ان المسلمين في الشرق والغرب والجنوب والشمال لايزالون مقصرين في هذا المضمار، وبهذا التقصير أضاعت أكثر دولهم ملكها وأمسى الباقي لها بين براثن الخطر، ويضيع أكثر أفرادهم ملكهم في البلاد التي يزاحمهم فيها غيرهم ، فان كان جل ثروة مصر وسورية والعراق لا يزل بيدهم فما ذلك من كسبهم بعلومهم وفنونهم وانما ذلك إرث رقبة الارض تسلسل فيهم لانهم أكثر السكان المالكين لها ، فهذه مصر أقدر البلاد العربية على اقتباس العلوم والفنون المالية وغيرها وأكثرها نفقة عليها نراها مقصرة في هذا الاقتباس لجميع من يعيش فيها من الشعوب الاوربية واليونانيين والسوريين يفوقون المصريين في العلوم والفنون المالية والاقتصادية وفي ادارة المال بالتجارة وغيرها وفي الاقتصاد وحفظ الثروة من التبذير والضياع ، بل القبط من المصريين يفوقون المسلمين في ذلك عملا وثروتهم النسبية تفوق ثروة المسلمين وأكثر أعمال الحكومة المالية في أيديهم وأيدي الاوربيين والسوريين ، بل أكثر المسلمين يعتمدون على كتبتهم في ادارة ثروتهم، على أن المسلمين أشد اسرافا في الانفاق وتبذير الاموال منهم ومن سائر الشعوب التي نعرف أحوالها

من فطن لهذا من علماء الاقتصاد يعلله بادي الرأي بأن الدين الاسلامي هو السبب في الامرين . وهذا التعليل يضاهي في البطلان تعليل من عساه يقول ان الدين المسيحي هو سبب ثراء نصارى الغرب وسعة عيشهم وشدة سطوتهم وجبروتهم . والحق أن كلا من النصارى والمسلمين مخالف لهدي دينه ونصوص كتابه في الامرين ، فالانجيل يهدي الى المبالغة في الزهد والقناعة والتواضع والخضوع لكل سلطان ، وينص على أن الغني لايدخل ملكوت السموات ، والاسلام دين سيادة واقتصاد وجمع بين مطالب الروح والجسد كابيناذلك وفصلناه مرارا كثيرة . ومن نصوصه فيما نحن بصدده قوله تعالى في أوائل سورة النساء (ولاتؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما) أي جعل عليها مدار قيام مصالحكم ومرافقكم وحفظها وثباتها ، وقوله في صفات المؤمنين من أواخر سورة الفرقان (والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) ونهى في وصايا سورة الاسراء عن المبالغة في قبض اليد وبسطها في الانفاق وعن التبذير ، وسمى المبذرين اخوان الشياطين . وهذه الوصايا هي أمهات أصول الدين وفضائله وآدابه ، وهي تشمل الوصايا العشر التي في التوراة ماعدا بطالة يوم السبت وتزيد عليها . وفي السنة وصايا وأحكام كثيرة في ذلك

فالمسلمون مخالفون لدينهم فيما اعتادوا من الاسراف في النفقات ، وهذا اذا كانت فيما أبيح لهم من الزينة والطيبات ، فكيف اذا كانت في المحرمات ، ولا سيما الفواحش الثلاث المفسدات المفطرة المخربات للديار — السكر والزنا والقمار . وهم على هدمهم بذلك لدينهم ، يهدمون كل مايبنى من صرح استقلالهم ، وانني لم أر ولم أسمع من أخبار البشر أن شعبا منهم يعادي النقد الذي هو ميزان الاعمال والقوة في الاجتماع البشري كالشعب المصري ، فالمصري أسرع الناس بذلا لما يصل الى يده من النقد فالمتمتعون بالزينة واللذات ينفقون في سبيلها ماتصل اليه أيديهم من كسب وقرض ولو بالربا الفاحش ، وغير المتمتعين يشترون بما تصل اليه أيديهم من كسب وقرض بالربا أرضا أوعقارا ، ولا يبالي أكثر الفريقين أن يشتري الشيء بأضعاف ثمنه وان استدان الثمن بالربا الفاحش لان النقد احقر الاشياء في نظره ولذلك ترى أكثر المصريين على سعة ثروتهم الزراعية مرهقين بالدين . فيجب على الزعماء والعلماء والخطباء

وكتاب الصحف أن يتماروا على درء هذا الخطر بوسيلتي العلم والعمل ، والاغنياء المتبجحون منهم كالاجراء للاجانب لان جل ما يتبجحون يتسرب الى صناديق المصارف المالية وسائر المرابين وجيوب أصحاب الحانات والمواخير وموائد القمار وتجار عروض الزينة والترف ، وبعبارة أخرى ان جل ثروة البلاد تخرج منها الى البلاد الاجنبية .

ومن الضروري أن يبادروا الى تأليف جمعية اقتصادية يكون من أعمالها ارسال بعض الطلاب المستعدين الى معاهد العلم في أوربة لأجل الاختصاص في علم الاقتصاد السياسي وسائر الفنون المالية والصناعات الضرورية ولا سيما الغزل والنسيج ثم جعلهم معلمين لهذه الفنون والصناعات وعاملين بها ، والاستقلال المنتظر يزيل ان شاء الله ما كان من الموانع دون مثل هذا . واني رأيت في الهند معامل عظيمة للمنسوجات الاوربية — دع المنسوجات الوطنية الخاصة بأهل البلاد — وجميع عمال هذه المعامل من الوطنيين الا أنني رأيت في معمل كبير في بمباي رجلين من الانكليز وظيفتهما اختيار نقوش النسيج : ويكون أهم أعمال هذه الجمعية وشعبها تعميم النقابات الزراعية في البلاد وتأليف الشركات للمشروعات الاقتصادية المختلفة ويكون منها السعي لارشاد جمهور الامة الى الاقتصاد وجعل ثروة البلاد قوة لها وضامنا لاستقلالها بنفسها وحريتها في التصرف بثروتها

﴿ نصيحة اقتصادية ﴾

إن هذا الغلاء الشديد الذي تئط من حمله جميع الامم — الذي كانت الحرب سببا طبيعيا[1] له وابتدع له الطامعون من التجار وغيرهم أسبابا صناعية وحيلا كثيرة — قد بلغ مده الغاية في حده ولم يعهد للعمران قبل باحتماله ، ومن المقطوع به في علم الاقتصاد ان الاشياء التي قلت بقلة الايدي العاملة لاشتغال ألوف الالوف من البشر بالحرب عن الزراعة والصناعة ستكثر بعد عود تلك الايدي الى العمل فتجد المستهلكين للاقوات والمصنوعات قد قل عددهم اذ أهلكت الحرب خمسة وثلاثين مليونا من البشر منها

(١) القاعدة في النسبة الى فعيلة فعلي وصرحوا باستثناء السليقة فقالوا سليقي استعمل وجرى علماء المعقول وغيرهم على ذلك في النسبة الى الطبيعة لانها بمعنى السليقة

١٢ مليونا في ميادين القتال على أوسط تقدير ، والباقي فيما تولد عنها من الادواء والامراض والمجاعات كما قيل، ويوجد عشرات الملايين أو مئات الملايين من البشر في الشرق لا يزال يتعذر ايصال البضائع الاوربية اليهم فلابد اذا أن تهبط أثمان البضائع والاقوات هبوطا عظيما ربما كان فوق تقدير المقدرين

فالواجب على كل عاقل حريص على ماله أن يتبع القاعدة المعقولة التي جرينا نحن عليها وكنا نوصي الناس بها وهي أن لا يشتري أحد شيئا ما قبل عودة الاسواق الى الاسعار المعتدلة إلا اذا كان لاغنى له عنه وبعد البحث عن أسعاره في عدة مواضع. ولا يغترن أحد بعد اليوم بحيل التجار بادعاء تنزيل الاثمان موقتا ودعوتهم الى ما يسمونه الفرصة الحقيقية أو « الاكازيون » وأن هذه الفرص ليست بموقتة وانما هم مضطرون الى الهبوط بها الى ما دونها فهم يغتنمون فرصة حاجة الناس الى الشئ والتهم الغلاء قبل الهبوط الشديد العام المنتظر فالتم لهم والغرم على من يصدقهم

بدأ احذق التجار ينقص أسعار البضائع بالتدريج ولاسيما المنسوجة وظل أغنياء الطامعين مصرين على نهب الناس بتلك الاسعار الفاحشة بل علمنا علم اليقين أن بعض الذين أعلنوا الناس وجوب اغتنام الفرصة بالتقص الموقت من سعر البضائع قد زادوا في سعرها بما كثيرا على بياناتها كما كانوا يفعلون في زمن الحرب والهدنة، ولكن قل من ينخدع بعد اليوم بهؤلاء النساة المستحقين الافلاس والفقر

الجود والاحسان

والمقابلة فيهما بين نساء الانكليز اليوم ونساء الصحابة (رض).

نشرت جريدة التيمس منذ بضعة أشهر ما يأتي

قال أحد اغنياء لندن محافظها بن ايلم وابلته انه مستعد التبرع بمئة وخمسين الف جنيه لانشاء حديقة في لندن تدعى حديقة النصر. وقد وعد هذا المحسن أن يتبرع بكل ثروته وتقدر باكثر من مليون للاعمال الخيرية قبل وفاته

واجتمع المؤتمر الانكليزي الكاثوليكي في لندن لاستنداء الاكف لمساعدة الرسالات الدينية الخارجية وخطب الخطباء. قالت الديلي مايل فاخذت النساء ينزعن حليهن ويلقينها في السلب والمواقيط التي أديرت على المجتمعين وتبرع كثيرون

بحوالات كتبوها باقلام استعاروها بعضهم في الاجتماع و بعض هذه الحوالات بالف جنيه و بعضها بثماني مئة والبعض بخمس مئة. وقدر ما اجتمع من الساعات ذات السوار والحلي الاخرى بمئات الجنيهات. ونزعت احدى الحاضرات الحلية التي على حذائها وتبرعت اخرى بازرار اللؤلؤة التي تحلي بلوزتها وتبرعت اخرى بقرطين صغيرين من الذهب والالماس نزعتهما من أذنيها وكان المجموع الاول ١٧٤٠٠ جنيه اه

الاعتبار بهذا الخبر

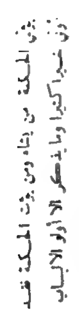
ذكرنا تبرع نساء الانكليز بحليهنّ لمساعدة نشر دينهن ماورد في الصحيحين من مثل ذلك من نساء الصحابة (رض) ففي (باب عظة النساء) من كتاب العلم عند البخاري عن ابن عباس (رض) قال أشهد على النبي (ص) انه خرج ومعه بلال فظن انه لم يسمع النساء فوعظهن وأمرهن بالصدقة فجاءت المرأة تلقي القرط والخاتم و بلال يأخذ في طرف ثوبه.

وهذا الوعظ للنساء كان في يوم عيد الفطر، خص النبي فيه النساء بالموعظة بعد الخطبة العامة لظنه انه لم يسمعهن لانهن كن يصلين ويجلسن وراء الرجال وأخرج البخاري الحديث في (باب موعظة الامام النساء يوم العيد) من (كتاب العيدين) عن جابر، وفي تفسير سورة الممتحنة عن ابن عباس. ويؤخذ من مجموع الروايات ان النبي (ص) شق صفوف الرجال بعد خطبة العيد حتى أتى النساء فقرأ عليهن آية المبايعة ثم قال لهن «هل أنتن على ذلك»؟ فاجابته واحدة منهن نعم. ولما أمرهن (ص) بالصدقة قال لهن بلال: هلم لكنّ فداً أبي وأمي. فجعلن يلقين الفتخ والخواتم في ثوب بلال، وزاد في رواية لمسلم الخلاخيل. فأما الاقراط فهي حلي الآذان وأما الفتخ وهي جمع فتخة فخواتم تلبس في أصابع اليدين والرجلين.

والعبرة فيما تقدم من وجوه أهمها أن الافرنج اليوم أقرب منا الى هداية ديننا وسيرة سلفنا الصالح في أمور كثيرة وأهمها حياة الدين والغيرة عليه والبذل في سبيله ومشاركة النساء للرجال في حضور العبادة و[illegible] مع الرجال وسماع المواعظ والتعاون على المساعدة الملية العامة. ولا يبعد أن يعود نساؤنا الى شيء من هداية دينهن اقتداء بالمحسنات من نساء الافرنج كما يقلد الكثيرات منهن المسيئات الآن في الامور المنتقدة.

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه
أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب





قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى « ومنارا » كمنار الطريق

مصر سلخ ربيع الآخر ١٣٣٩ — ١٩ الجدي (ش١) سنة ١٢٩٩ هش ٩ يناير ١٩٢١

تاريخ فنون الحديث

٢

افراد الحديث بالتأليف من مبتدأ القرن الثالث

في أول هذا القرن أخذ رواة الحديث في جمعه طريقة غير الاولى
اذ كانوا يجمعونه ممزوجاً باقوال الصحابة وفتاوي التابعين أخذوا يفردونه بالجمع والتأليف ثم من أئمة الحديث من جمع في مصنفه كل ما روي عن الرسول (ص) من غير تمييز بين صحيح وسقيم . ومنهم من أفرد الصحيح بالجمع ليخلص طالب الحديث من عناء السؤال والبحث ، وكان أول الراسمين لتلك الطريقة المثلى شيخ المحدثين محمد بن اسماعيل البخاري لجمع في كتابه المشهور ماتبين له صحته. وكانت الكتب قبله ممزوجاً فيها الصحيح بالعليل بحيث لايتبين الناظر فيها درجة الحديث من الصحة الا بعد البحث عن أحوال الرواته والوقوف على سلامته من العلل فان لم يكن من أهل البحث ولم يتلق عن يتعرف منه درجته بقي ذلك الحديث مجهول الحال عنده . واقتفى أثر البخاري في ذلك الامام مسلم ابن الحجاج القشيري وكان من الآخذين عنه ثم ارتسم خطتهما كثيرون

وان ذلك القرن الثالث لاجل عصور الحديث وأسعدها بخدمة السنة ففيه ظهر كبار المحدثين وجهابذة المؤلفين وحذاق الناقدين وفيه أشرقت شموس الكتب الستة التي كادت لا تفلت من صحيح الحديث الا النزر اليسير والتي عليها يعتمد المشرعون وبها يعتضد المناظرون وعن محياها تنجاب الشبه وبضوءها يهتدي الضال وببرد يقينها تثلج الصدور

وبانسلاخ هذا القرن يكاد يتم جمع الحديث وتدوينه، ويبتدئ عصر ترتيبه وتهذيبه ، وتسهيله على رواده وتقريبه

وقبل أن نأتي على المشهور من كتب السنة في هذا القرن نمهد فصلا نكشف فيه عن طرق التصنيف في الحديث حتى تكون في بعض تأليفه.

طرق التصنيف في الحديث

للعلماء في تصنيف الحديث وجمعه طريقتان (احداهما) التصنيف على الابواب وهو تخريجه على أحكام الفقه وغيره وتنويعه أنواعاً وجمع ما ورد في كل حكم وكل نوع في باب بحيث يتميز ما يتعلق بالصلاة مثلاً عما يتعلق بالصيام وأهل هذه الطريقة منهم من اقتصر على ايراد ما صح فقط كالشيخين ومنهم من لم يقتصر على ذلك كأبي داود والترمذي والنسائي (ثانيتهما) التصنيف على المسانيد وهو انه يجمع في ترجمة كل صحابي (١) ما عنده من حديثه سواء كان صحيحاً أو غير صحيح ويجعله على حدة وان اختلفت أنواعه ، وأهل هذه الطريقة منهم من رتب أسماء الصحابة على حروف المعجم كالطبراني في المعجم الكبير والضياء المقدسي في المختارة التي لم تكمل وهذا أسهل تناولا ، ومنهم من رتبها على القبائل فقدم بني هاشم ثم الاقرب فالاقرب الى رسول الله «ص» في النسب ، ومنهم من رتبها على السبق في الاسلام فقدم العشرة ثم أهل بدر ثم أهل الحديبية ثم من أسلم وهاجر بين الحديبية والفتح ثم من أسلم يوم الفتح ثم أصاغر الصحابة سنا وختم بالنساء . وقد سلك ابن حبان في صحيحه = = طريقة ثالثة : مرتبة على خمسة أقسام وهي الاوامر والنواهي والاخبار والاباحات وأفعال النبي (ص) ونوع كل واحد من هذه الخمسة الى أنواع ، والكشف في كتابه عسر جداً ، وقد رتبه بعض المتأخرين على الابواب وعمل له الحافظ أبو الفضل العراقي أطرافاً (٢) وجرد الحافظ أبو الحسن الهيثمي زوائده على الصحيحين في مجلد

ولهم في جمع الحديث طرق اخرى (منها) جمعه على حروف المعجم فيجعل مثلا حديث «انما الاعمال بالنيات» في حرف الالف وقد جرى على ذلك أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس وابن طاهر في أحاديث كتاب الكامل لابن عدي (ومنها) جمعه على الاطراف وذلك بان يذكر طرف الحديث ثم يجمع أسانيده اما مع عدم التقيد بكتب مخصوصة أو مع التقيد بها ، وذلك مثل ما فعل أبو العباس أحمد بن ثابت العراقي في أطراف الكتب الخمسة

---

(١) الصحابي من لقي النبي (ص) مؤمنا به ومات على ذلك (٢) سيأتي معنى الاطراف بعد قليل

ومن أعلى المراتب في تصنيف الحديث تصنيفه معللا بان يجمع في كل حديث طرقه واختلاف الرواة فيه فان معرفة العلل أجل أنواع علم الحديث وبها يظهر ارسال بعض ما عد متصلا أو وقف ما ظن مرفوعاً وغير ذلك من الامور المهمة . والذين صنفوا في العلل منهم من رتب كتابه على الابواب كابن أبي حاتم وهو أحسن لسهولة تناوله، ومنهم من رتب كتابه على المسانيد كالحافظ الكبير يعقوب ابن شيبة البصري (١) فانه الف مسنداً معللا غير أنه لم يتم ولو تم لكان في نحو مائتي مجلد والذي تم منه مسند العشرة والعباس وابن مسعود وعتبة بن غزوان وبعض الموالي وعمار، ويقال ان مسند علي منه في خمس مجلدات ويقال انه كان في منزله أربعون لحافاً أعدها لمن كان عنده من الوراقين الذين يبيضون المسند، ولزمه على ما خرج من المسند عشرة آلاف دينار (خمسة آلاف جنيه مصري تقريباً) قال بعض المشايخ انه لم يتم مسند معلل قط

هذا وقد جرت عادة أهل الحديث أن يفردوا بالجمع والتأليف بعض الابواب والشيوخ والتراجم والطرق

أما الابواب فقد أفرد بعض الأئمة بعضها بالتصنيف كباب رفع اليدين في الصلاة أفرده البخاري بالتصنيف ، وباب القضاء باليمين مع الشاهد أفرده الدارقطني بالتصنيف وأما الشيوخ فقد جمع بعض العلماء حديث شيوخ مخصوصين كل واحد منهم على انفراده لجمع الاسماعيلي حديث الاعمش وجمع النسائي حديث الفضيل بن عياض . وأما التراجم فقد جمعوا ما جاء بترجمة واحدة من الحديث كمالك عن نافع عن ابن عمر وكسهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة

وأما الطرق فقد جمعوا بعض طرق الاحاديث كحديث قبض العلم جمع طرقه الطوسي وحديث « من كذب علي متعمداً » جمع طرقه الطبراني وغير ذلك

(١) توفي سنة ٢٦٢

كتب السنة في القرن الثالث

اشهر الكتب في القرن الثالث صحيح البخاري(١) وصحيح مسلم(٢) وسنن أبي داود(٣) وسنن النسائي(٤) وجامع الترمذي(٥) وسنن ابن ماجه (٦) ومسند الامام أحمد بن حنبل (٧) والمنتقى في الاحكام لابن الجارود(٨) ثم مصنف ابن ابي شيبة (٩) وكتاب محمد بن نصر المروزي «١٠» ومصنف سعيد بن منصور «١١» وكتاب تهذيب الآثار لمحمد بن جرير الطبري «١٢» وهو من عجائب كتبه ابتدأ فيه بما رواه أبو بكر الصديق وتكلم على كل حديث وعلته وطرقه وما فيه من الفقه واختلاف العلماء وحججه واللغة فتم مسند العشرة وأهل البيت والموالي وقطعة من مسند ابن عباس، والمسند الكبير لبقي بن مخلد القرطبي «١٣» رتبه على أسماء الصحابة روى فيه عن الف وثلثمائة صحابي ونيف ثم رتب حديث كل صاحب على ابواب الفقه لجاء كتابا حافلا مع ثقة مؤلفه وضبطه واتقانه ومسند عبيد الله بن موسى «١٤» ومسند اسحاق بن راهويه «١٥» ومسند عبد ابن حميد «١٦» ومسند الدارمي «١٧» ومسند أبي يعلى الموصلي «١٨» ومسند ابن ابي أسامة الحارث بن محمد التميمي «١٩» ومسند ابن ابي عاصم احمد بن عمرو الشيباني «٢٠» وفيه نحو خمسين الف حديث ومسند ابن ابي عمر ومحمد بن يحيى العدني (٢١) ومسند ابي هريرة لابراهيم بن حرب العسكري «٢٢» ومسند الامام علي لاحمد بن شعيب النسائي «٢٣» ومسند العنبري ابراهيم بن اسماعيل الطوسي «٢٤» والمسند الكبير للبخاري ومسند مسدد بن مسرهد «٢٥» ومسند محمد بن مهدي «٢٦» ومسند الحميدي «٢٧» ومسند ابراهيم بن معقل النسفي «٢٨» ومسند ابراهيم بن يوسف المنجابي «٢٩» ومسند مالك لاحمد بن شعيب

---

(١) توفي سنة ٢٥١ (٢) سنة ٢٦ (٣) سنة ٢٧٥ (٤) سنة ٣٠٣ (٥) سنة ٢٧٩ «٦» ٢٧٣ «٧» سنة ٢٤١ «٨» سنة ٣٠٧ «٩» سنة ٢٣٥ «١٠» سنة ٢٩٤ «١١» سنة ٢٢٧ «١٢» سنة ٣١٠ «١٣» سنة ٢٧٦ «١٤» سنة ٢١٣ «١٥» سنة ٢٣٧ «١٦» سنة ٢٤٩ «١٧» سنة ٢٥٥ «١٨» سنة ٣٠٧ «١٩» سنة ٢٨٢ «٢٠» سنة ٢٨٧ «٢١» سنة ٢٤٣ «٢٢» سنة ٢٨٢ «٢٣» سنة ٣٠٣ «٢٤» سنة ٢٨٠ «٢٥» سنة ٢٢٨ «٢٦» سنة ٢٧٢ «٢٧» سنة ٢١٩ «٢٨» سنة ٢٩٥ «٢٩» سنة ٣٠١.

النسائي «١» والمسند الكبير للحسن بن سفيان «٢» والمسند المعلل لابي بكر البزار «٣» ومسند ابن سنجر «٤» والمسند الكبير ليعقوب بن شيبة «٥» ولم يؤلف أحسن منه ــ لكنه لم يتم ــ ومسند علي بن المديني «٦» ومسند ابن ابي عزرة احمد بن حازم «٧» ومسند عثمان بن ابي شيبة «٨» وكتب المسانيد كثيرة جدا وفيما ذكرنا كفاية وان أردت زيادة فانظر كشف الظنون تجد فيه بعض الحاجة

«تنبيه» كتب المسانيد دون كتب السنن في الرتبة اذ جرت عادة مصنفيها أن يجمعوا في مسند كل صحابي مايقع لهم من حديثه صحيحاً كان أو سقيما ولذلك لايسوغ الاحتجاج بما يوردفيها مطلقاًواستثنى بعض المحدثين منها مسندالامام احمد بن حنبل

كتب السنة في القرن الرابع

الحد الفاصل بين المتقدمين والمتأخرين من رواة الحديث وحملته هو رأس سنة ثلثمائة وقد أبنا فيما سلف أن القرن الثالث أسعد القرون بخدمة السنة وتصحيحها ونقد رواتها وكل من أتى بعد ذلك فعالة على المتقدمين ــ الاقليلا ــ يجمع ما جمعوا ويعتمد في نقده على ماانتقدوا لذلك كانت كتب السنة في القرن الثاني والثالث تمتاز في الاكثر بأولية الجمع فيها دون الاخذ عن غيرها وهذا مادعاني الى أن أفرد كتب السنة في القرن الرابع بالذكر دون أن ادمجها مع كتب السنة في القرن الثالث

أشهر الكتب في القرن الرابع المعاجم الثلاثة الكبير والصغير والاوسط للامام سليمان ابن أحمد الطبراني (٩) رتب في الكبير الصحابة على الحروف وهو مشتمل على نحو خمسمائة وعشرين الف حديث ورتب في الاوسط والاصغر شيوخه على الحروف أيضاً ولقد رتب الكبير الامام علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (١٠) ترتيباً حسناً وسنن الدارقطني (١١) وصحيح أبي حاتم محمد بن حبان

(١) توفي سنة ٣٠٣ (٢) سنة ٣٠٣ (٣) سنة ٢٩٢ (٤) سنة ٢٥٨ (٥) سنة ٢٦٢ (٦) ٢٣٤ (٧) سنة ٢٧٦ (٨) سنة ٢٣٩ «٩» سنة ٣٦٠ «١٠» سنة ٧٢١ «١١» سنة ٣٨٦

البستي (١) وصحيح أبي عوانة يعقوب بن اسحاق(٢) وصحيح ابن خزيمة محمد ابن اسحاق(٣) وصحيح المنتقى لابن السكن سعيد بن عثمان البغدادي (٤) والمنتقى لقاسم بن أصبغ محدث الاندلس (٥) ومصنف الطحاوي(٦) ومسند ابن جميع محمد بن أحمد (٧) ومسند محمد بن اسحاق(٨) ومسند الخوارزمي «٩» ومسند ابي اسحق ابراهيم بن نصر الرازي «١٠»

وسنعقد لكل كتاب من كتب السنة الشهيرة في القرنين الثالث والرابع فصلا يعرف به ويبين درجة أحاديثه وما لقيه من عناية مبتدئين في ذلك بمسند الامام أحمد رضي الله عنه

مسند الامام احمد بن حنبل

مسند الامام أحمد كتاب جليل من جملة أصول السنة يشتمل على أربعين الف حديث تكرر منها عشرة آلاف ومن أحاديثه ماينوف عن ثلثمائة حديث ثلاثية الاسناد (أي بين راويها والرسول ثلاثة رواة)

درجة حديثه ـ روى أبو موسى المديني عن الامام احمد أنه سئل عن حديث فقال انظروه فان كان في المسند والا فليس بحجة. كأن الامام يرى صحة كل ماساقه في مسنده لكن عبارته ليست صريحة في أن كل مافيه حجة انما هي صريحة في أن ماليس فيه ليس بحجة لكن ثم أحاديث مخرجة في الصحيحين وليست فيه . والحق أن الكتاب فيه كثير من الاحاديث الضعيفة بل ذكر ابن الجوزي في موضوعاته خمسة عشر حديثا من المسند لاحتماله فيها سمة الوضع وذكر الحافظ العراقي تسعة . لكن أجاب عن هذه الاحاديث الحافظ ابن حجر في كتابه (القول المسدد في الذب عن المسند) وقال في كتابه تعجيل المنفعة برجال الاربعة ليس في المسند حديث لاأصل له الا ثلاثة أحاديث او أربعة منها حديث عبد الرحمن بن عوف أنه يدخل الجنة زحفاً قال ويعتذر عنه لانه مما أمر بالضرب عليه فترك سهواً أوضرب عليه وكتب من تحت الضرب . ويعجبني ماقاله العلامة

(١) توفي سنة ٣٥٤ (٢) سنة ٣١٦ (٣) سنة ٣١١ (٤) سنة ٣٥٣ (٥) سنة ٣٤٠ «٦» سنة ٣٢١ «٧» سنة ٤٠٢ «٨» سنة ٣١٣ «٩» سنة ٤٢٥ «١٠» سنة ٣٨٥

ابن تيمية في كتابه (منهاج السنة) شرط أحمد في المسند أن لا يروي عن المعروفين بالكذب عندهم وان كان في ذلك ما هو ضعيف، قال ثم زاد ابن احمد زيادات على المسند ضمت اليه وكذلك زاد أبو بكر القطيعي وفي تلك الزيادات كثير من الاحاديث الموضوعة فظن من لا علم عنده أن ذلك من رواية احمد في مسنده

شرحه واختصاره ـ شرح المسند أبو الحسن بن عبد الهادي السندي (١) نزيل المدينة المنورة واختصره زين الدين عمر بن احمد الشماع الحلبي وسمى مختصره در المنتقد من مسند الامام أحمد وكذلك اختصره سراج الدين عمر بن علي المعروف بابن الملقن الشافعي (٢)

الجامع الصحيح المسند للامام البخاري

وصف اجمالي له ـ هو أول كتاب الف في الصحيح المجرد وقد اتفق جمهور العلماء على انه اصح الكتب بعد القرآن الكريم ويقاربه في ذلك صحيح مسلم وذلك انهما لا يخرجان من الحديث الا ما اتفق على ثقة ناقليه الى الصحابي المشهور مع كون الاسناد اليه متصلا غير مقطوع (وذلك ما يسمى بشرط الشيخين)

ولقد جمع البخاري صحيحه في ست عشرة سنة وما كان يضع فيه حديثا الا بعد أن يغتسل ويصلي ركعتين ويستخير الله في وضعه . وقد ذكر الحافظ ابن حجر أن عدة ما فيه من الاحاديث بالمكرر ٧٣٩٧ سوى المعلقات والمتابعات والموقوفات (*) وبغير المكرر من المتون الموصولة ٢٦٠٢ ومن المتون المعلقة المرفوعة التي لم يصلها في موضع آخر منه ١٥٩ حديثا فمجموع غير المكرر ٢٧٦١ وفيه من المعلقات ١٣٤١ حديثا وفيه من المتابعات والتنبيه على اختلاف الروايات ٣٤٤ حديثا ولم يذكر عدد الموقوفات على الصحابة والمقطوعات الواردة عن التابعين فمن بعدهم فجملة ما فيه بالمكرر سوى الموقوف والمقطوع ٩٠٨٢ حديثا . وانما جمع في صحيحه الاحاديث المعلقة والموقوفة والمقطوعة وليست

(١) توفي سنة ١١٣٩ (٢) توفي سنة ٨٠٥

(*) المعلق من الحديث ما كان في سنده سقط من أوله كأن يقول البخاري عن ابن عمر (رض) عن النبي (ص) كذا والموقوف ما انتهى سنده الى الصحابي ولم يذكر فيه قولا للنبي ولا فعلا ولا وصفا ولا تقريرا ـ والمقطوع ما انتهى سنده الى من دون الصحابي تابعي وقد يطلق على المقطوع موقوف على فلان اي الذي انتهى اليه السند ا

من موضوع كتابه لانه قصد بها الاستئناس والاستشهاد فحسب. ولذلك نأى في سياقها لتمتاز

وقد انتقد عليه الحفاظ عشرة أحاديث ومائة منها ما وافقه مسلم على تخريجه وهو ٣٢ حديثاً ومنها ما انفرد بتخريجه وهو ٧٨ حديثاً قال الحافظ ابن حجر في مقدمة شرحه (فتح الباري على صحيح البخاري): وليست عللها كلها قادحة بل أكثرها الجواب عنه ظاهر والقدح فيه مندفع وبعضها الجواب عنه محتمل واليسير منه في الجواب عنه تعسف، وقد أوضح ذلك الحافظ مفصلا في المقدمة. وقد ضعف الحافظ من رجال الجامع للبخاري نحو الثمانين ولكن أكثرهم من شيوخه الذين لقيهم وجالسهم وعرف أحوالهم واطلع على أحاديثهم وميز صحيحها من ضعيفها فهو بهم أعرف ولهم أخبر. وقد روى عن البخاري جامعه الصحيح نحو من مائة الف منهم كثير من أئمة الحديث كمسلم وأبي زرعة والترمذي وابن خزيمة

شروحه — لم يعتن علماء المسلمين بشيء بعد الكتاب العزيز عنايتهم بالجامع الصحيح للامام البخاري فما أكثر شارحيه والكاتبين في رجاله والمؤلفين في أغراضه والمختصرين لكتابه وقد عد الفاضل ملا كاتب جلبي في كتابه كشف الظنون، ماينيف على اثنين وثمانين شرحا للبخاري دبجها يراع الجهابذة من السلف والاذكياء من الخلف، ما بين كامل وناقص، بيد أن منهم من مال الى الاجمال كالامام الخطابي (١) فانه عمل شرحا سماه (أعلام السنن) في مجلد واحد ومنهم من آثر التطويل فلم يغادر صغيرة ولا كبيرة مما يتعلق بسنده أو متنه الا أتى عليه كالامام مجدالدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي الشيرازي «٢» فانه شرحه شرحا وافيا سماه «منح الباري بالسيل الفسيح الجاري» كمل ربع العبادات منه في عشرين مجلدا أتى فيه بما لم يسبق اليه. ومنهم من سلك سبيل التوسط مقتصرا على ما لا بد منه في فهم الاحاديث مع تقييد أوابده وتذليل شوارده

وهؤلاء على اختلاف مشاربهم وتباين مسالكهم قد فاقوا حد الكثرة الا أن المحسنين من الشراح احسانا أربعة نفر

الامام بدر الدين محمد بن بهادر الزركشي «٣» في (شرحه التنقيح)

والعلامة بدر الدين محمود بن أحمد العيني الحنفي «٤» في شرحه (عمدة القاري)

«١» توفي سنة ٣٠٨ «٢» سنة ٨١٧ «٣» سنة ٧٩٤ «٤» سنة ٨٥٥

والحافظ جلال الدين السيوطي «١» في شرحه (التوشيح)

وشيخ الاسلام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني «٢» في شرحه (فتح الباري) ولعمري أنه لأمير أولئك المحسنين فان شرحه لا يدانيه شرح ولا يحيط بجماله وصف، ولو لم يكن له الا مقدمته لكانت كافية في الاشادة بذكره والابانة عن جلالة قدره. ولما طلب من مجتهد اليمن العلامة الشوكاني أن يشرح الجامع الصحيح للبخاري قال : لا هجرة بعد الفتح . وقد بدأ تأليف شرحه الفتح مفتتح سنة ٨١٧ بعد ان أكمل مقدمته في سنة ٨١٣ وانتهى منه في غرة رجب سنة ٨٤٢ وقد أولم عند ختمه وليمة عظيمة لم يتخلف عنها من وجوه المسلمين الا اليسير انفق عليها نحو خمسمائة دينار «مائتين وخمسين جنيها مصريا» وقد لقي ما يستحق من الحظوة في عصر مؤلفه حتى طلبه ملوك الاطراف بالاستكتاب واشتري بنحو ثلثمائة دينار «مائة وخمسين جنيها مصريا» وانتشر في الآفاق حتى غطت شهرته سائر الشروح وهو يقع في ثلاثة عشر مجلدا ومقدمته في مجلد ضخم «وقد طبع بكل من مصر والهند مرتين»

مختصرات الجامع — له مختصرات كثيرة من أشهرها مختصر الامام جمال الدين أحمد بن عمر الانصاري القرطبي «٣» ومختصر بدر الدين حسن بن عمر الحلبي «٤» المسمى (ارشاد الساري والقاري) ومختصر الحسين بن المبارك الزبيدي(٥) جرد فيه حديثه من أسانيده وسماه (التجريد الصريح لاحاديث الجامع الصحيح) وقد شرحه شرحا وافيا حسن صديق خان ملك بهوبال بالهند وكذلك شرحه الشيخ عبدالله الشرقاوي

كتب رجاله — منها (أسماء رجال البخاري) للشيخ الامام أحمد بن محمد الكلاباذي «٦» وكتاب (التعديل والتجريح) لرجاله لابي الوليد سليمان بن خلف الباجي «٧» و(الافهام بما وقع في البخاري من الابهام) «*» لجلال الدين بن عمر البلقيني «٨»

«١» سنة ٩١١ «٢» سنة ٨٥٢ ٣ توفي سنة ٦٥٦ ٤ سنة ٧٨٩ ٥ سنة ٨٩٣ «٦» سنة ٣٩٨ «٧» سنة ٤٧٤ «*» ابهام الراوي أن لا يذكر اسمه ولا يقبل حديث المبهم ولو الابهم بلفظ التعديل على الاصح (٨) سنة ٨٢٤

الجامع الصحيح للامام الحافظ مسلم بن الحجاج

هو ثاني الكتب الستة وأحد الصحيحين المشهود لهما بعلو الرتبة وقد ذكر النووي في أول شرحه له ان الحسين بن علي النيسابوري قال: ماتحت أديم السماء أصح من كتاب مسلم ووافقه على ذلك بعض شيوخ المغرب، ولكن الذي لاينبغي الاضرار فيه رجحان صحيح البخاري عليه لان الصفات التي تدور عليها الصحة في كتاب البخاري أتم منها في كتاب مسلم أما من حيث الاتصال فلاشتراط البخاري ان يكون الراوي ثبت له لقاء المروي عنه ولو مرة واكتفى مسلم بإطلاق المعاصرة وما ألزم به مسلم البخاري من انه يحتاج الى ان لايقبل المعنعنة (١) أصلا ليس بلازم لان الراوي اذا ثبت له لقاء من روى عنه مرة لايجري في رواياته احتمال ان لايكون سمع منه لانه يلزم من جريانه ان يكون مدلسا والمسألة مفروضة في غير المدلس. وأما من حيث العدالة والضبط فلأن من تكلم فيهم من رجال مسلم ستون ومائة ومن تكلم فيهم من رجال البخاري ثمانون، مع ان الثاني لم يكثر من اخراج حديثهم وأغلبهم من شيوخه الذين أخذ عنهم ومارس حديثهم وأما من جهة عدم الشذوذ والاعلال (٢) فلان ما انتقد على البخاري من الاحاديث مما لم يشاركه فيها مسلم ثمانية وسبعون حديثا وما انتقد على مسلم كذلك ثلاثون ومائة أضف الى هذا مافي البخاري من الاستنباطات الفقهية والدقائق الحكمية مما عري منه كتاب مسلم، هذا الى اتفاق العلماء على ان البخاري كان أجل من مسلم في العلوم وأعرف بصناعة الحديث منه وان مسلما تلميذه وخريجه ولم يزل يستفيد منه ويتتبع آثاره حتى قال الدارقطني: لولا البخاري لما راح مسلم ولا جاء. لكن الانصاف يدفعنا الى الاعتراف لمسلم بتلك الميزة الجليلة والطريقة الحكيمة ونعني بها سهولة التناول من كتابه اذ جعل لكل حديث موضعا واحدا يليق به جمع فيه طرقه التي ارتضاها وأورد فيه أسانيده المتعددة وألفاظه المختلفة مما يسهل على الطالب النظر في وجوهه واقتطاف ثماره وتوليه الثقة بجميع الطرق التي للحديث

---

١ المعنعنة أن يكون في السند لفظه عن كمن فلان عن فلان ٢ الشذوذ مخالفة الثقة من هو ارجح منه والاعلال وجود علة خفية قادحة في السند او الحديث

ولم يجمع حول ذلك البخاري بل فرق طرق الحديث في الابواب المختلفة وقد روى عن مسلم ان كتابه أربعة آلاف حديث دون المكرر وبالمكرر ٧٢٧٥ حديثاً

شروحه - شرح صحيح مسلم كثير من العلماء ذكر منها صاحب كشف الظنون نحو خمسة عشر شرحا من اشهرها المنهاج للحافظ الامام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الشافعي «١» وشرح أبي الفرج عيسى بن مسعود الزواوي «٢» وهو شرح كبير في خمس مجلدات جمع عدة شروح سبقته، واكمال المعلم للامام أبي عبدالله محمد بن خليفة الابي المالكي «٣» في أربع مجلدات ضمنه شرح المازري وعياض والقرطبي والنووي مع بعض الزيادات، والابتهاج للشيخ أحمد بن محمد الخطيب القسطلاني الشافعي «٤» بلغ الى نحو نصفه في ثمانية أجزاء كبار، وشرح الشيخ علي القاري الهروي نزيل مكة المكرمة «٥» في أربع مجلدات

مختصراته - من أشهر مختصراته تلخيص كتاب مسلم وشرحه لاحمد بن عمر القرطبي «٦» ومختصر الامام زكي الدين عبد العظيم المنذري «٧» ومختصر زوائد مسلم على البخاري لسراج الدين عمر بن علي ابن الملقن الشافعي «٨» وهو كبير في اربع مجلدات ولابي بكر أحمد بن علي الاصبهاني «٩» كتاب في أسماء رجال مسلم

تصحيح غلط في الجزء الاول

سقط من السطر ١٩ ص ٧ من الجزء الاول جملة والصواب هكذا (فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين) على ان الاقتباس لايشترط فيه ايراد الآيات بتمامها ولا الترتيب بينها . وفي تلك الفاتحة آيات متصلة من مواضع مختلفة، وفيه عطف على محذوف يدرك بالقرينة ووضع لبعض علامات الوقف في غير موضعها سهوا

«١» توفي سنة ٦٧٦ «٢» سنة ٧٤٤ «٣» سنة ٨٢٧ «٤» سنة ٩٢٣
«٥» سنة ١٠١٦ «٦» سنة ٦٥٦ «٧» سنة ٦٥٦ «٨» سنة ٨٠٤ «٩» سنة ٢٧٩

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة اذ لا يسع الناس عامة، ونشترط على السائل أن يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك أن يرمز الى اسمه بالحروف أو يعبر بما شاء من الالقاب ان شاء. واننا نذكر الاسئلة بالترتيب غالبا وربما قدمنا متاخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه، وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا، ولمن مضى على سؤاله شهران أو ثلاثة أن يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ الاقتداء في الصلاة بمتخذي الوسطاء والشفعاء عند الله ﴾

(وما يتبع ذلك في حقيقة الاسلام والارتداد عنه)

(س٢) جاءنا هذا السؤال من جماعة الموحدين في (دمياط) ومعه عنوان واحد منهم لنجيبه فرأينا أنه يجب نشره والجواب عنه في المنار وهو:

حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمد رشيد رضا صاحب ادارة المنار العامرة

تحية اخلاص نحدوها اليكم روح الاسلام وبعد فلما كانت ثقتنا لاتنحصر بغير عالميتكم لسعة اطلاعها بنور الاله الواحد الهادي الى الصراط المستقيم سيما في معضلات الامور التي يتوقف صلاح الدين عليها. رجونا كم لسؤال الآتي وهو (هل تصح الصلاة خلف متخذي الشفعاء والوسائط من مسلمي هذا الزمان أم لا تصح)

وفي الختام نلح جميعا بتكرار الرجاء ونردده باسم الدين الاسلامي الحنيف أن لا يضن الاستاذ الامام على طائفة تقلب وجهها في السماء لمقابلة الجواب على هذا السؤال وافيا. هذا وان لم يمكن الاستاذ لأمانة نشر الجواب في المجلة الطائر ذكرها بين أقطار المشارق والمغارب فيها وحبذا والا فرجونا جميعا أن لا نحرم من الرد بالعنوان طيه ولكم من الله تعالى الشكر والاجر ان شاء الله والسلام الموحدون بدمياط

(ج) الظاهر أن السائلين يعنون بمتخذي الشفعاء والوسطاء عند الله من يصدق عليهم قوله تعالى في مشركي العرب (ويعبدون من دون مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وانهم مرتابون في الاقتداء بهم في الصلاة مع هذا الشرك الصريح لانهم يأتونه عن جهل ويحسبون أنه طاعة لله وعمل بدينه وهم مؤمنون اجمالا بالله وبأن كل ماجاء بعثه خاتم رسله محمد صلى الله عليه وسلم فهو حق. وإيمانهم بذلك ايمان اذعان لانهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويصومون رمضان ويحجون بيت الله من استطاع منهم اليه سبيلا. فموضع الاشكال على هذا مايصدر عنهم من العبادة الشركية لغير الله تعالى كدعاء الموتى من الصالحين والتمسح بقبورهم والطواف بها وببعض النبات والجماد لشفاء الامراض وتفريج الكروب وتوسيع الرزق وغير ذلك من الاعمال والاعتقادات المنافية للتوحيد الذي جاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام وهو ان لا يعبد الله وان يخلص له الدين وحده فلا يدعى معه احد — هل هي من أعمال الشرك المجمع عليها المعلومة من الدين بالضرورة فلا يعذر الجاهل بها كما يقول المتكلمون والفقهاء أم هي مما يخفي على غير العلماء الاعلام العارفين بحقيقة ما كان عليه الصدر الاول من قواعد الاسلام ، فيعد الجاهل بها والمتأول فيها معذورا واسلامه وما يترتب عليه من الاعمال صحيحا ؟ ثم اذا كان أس الدين مما يعذر جاهله وهو توحيد العبادة واخلاصها لله تعالى بالتوجه اليه فيها وحده ولا سيما الدعاء الذي هو مخها ولبابها فاي قاعدة من قواعده أو ركن من أركانه المبنية على هذا الاس لا يعذر الجاهل بها أو المتأول لها ؟ واين اجماع الامة على أن التوحيد الخالص شرط لصحة الصلاة والصيام وسائر العبادات لايعتد بشيء منها بدونه مع سائر أصول الايمان القطعية المعلومة من الدين بالضرورة ؟

اننا نعلم بالاختبار الدقيق ان كثيرا ممن يدعون غير الله تعالى يجهلون كثيرا من هذه الاصول الاعتقادية والعملية وأن منهم من التاركين لاركان الاسلام كلها أو بعضها والمرتكبين لكبائر الاثم والفواحش المصرين عليها بدون مبالاة بأمر ولا نهي ، ولا انتفاع بذكرى ولا زجر ، ومنهم من اعتاد بعض الاعمال الدينية المشروعة

والمبتدعة اعتيادا ولكنه لا يعرف الخشوع والخوف والرجاء الاعند تلك القبور وذكر أصحابها. أو نحوهاما يعظمون تعظيم عبادة وتدين وان لم يسموه كله أو بعضه عبادة ومن هؤلاء وأولئك الذين يدعون هؤلاء الموتى خاشعين معتقدين انهم يقضون حوائجهم بأنفسهم ولا يخطر في بالهم غير ذلك، ومنهم من يسمى دعاءه توسلا واستشفاعا ولا سيما اذا أنكر عليه. وهذا عين ماحكاه القرآن عن مشركي العرب ولم يعتد بايمانهم حتى يتركوه وقال فيهم (وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) ومن هؤلاء الذين يعدون هذا تأولا المذعنون للامر والنهي الملتزمون للفرائض المتأثمون من المعاصي وفيهم وقع الاشكال فيما يظهر لان تكفير المؤمن المتأول المبين فيه خطر عظيم ولا سيما في هذا الزمان الذي ترك أكثر أهله علم الدين على الوجه الذي كان معروفا عند سلف الامة أهل الحق.

وانا نمهد للجواب التفصيلي الشافي تمهيدا نراه ضروريا فنقول

(١) ان قواعد العقائد وأصول الايمان واحكام الاسلام والردة المجمع عليها والمسائل الاعتقادية والفرعية المختلف فيها كلها مقررة في الكتب وان كل مسلم مكلف أن يعرف الفرائض المبنية منها وان يبذل جهده فيها في تطبيق الوقائع والنوازل التي تعرض له على ماعرف ، ومن ذلك الجهد سؤال العارفين واستفتاء المفتين فيما يشكل عليه من ذلك الى أن يهتدي الى الحكم المنطبق على الواقعة — فهذا اجتهاد عملي يطالب به العوام كالعلماء كالاجتهاد في القبلة في حالة البعد عن الكعبة المشرفة وعدم المحاريب المتواترة. وان لاحوال الزمان والمكان تأثيرا عظيما في هذا الاجتهاد العملي من مظاهره انك ترى الناس يستنكرون البدع عند ظهورها أشد الاستنكار وربما بالغوا في ذلك فجعلوا المباح محظورا كالبدع في العادات والماعون والازياء وكم كتب بعض المشتغلين بالعلم رسائل وكتبا في تحريم بعض هذه المستحدثات في أول العهد بظهورها كالاحذية الشائعة التي تسمى في مصر بالجزم (جمع جزمه) وفي الشام بالكنادر والفانيك ومنها مايسميه الفرنجة (البوتين) واذا شاعت المنكرات الدينية وعمت تصير عند الجمهور كالمباحات بل يجعلون بعضها في عداد المسنونات والشعائر الدينية ولا سيما في هذا الزمان الذي ترك فيه الامر بالمعروف والنهي عن المنكر في أكثر البلاد

التي يقطنها المسلمون بل صار كثير من المحظورات المجمع عليها المعلومة من الدين بالضرورة من المباحات في حكم القانون المتبع كالربا والزنا وشرب الخمر . فمن يعيش في أمثال هذه البلاد لا يكون نظره في تطبيق الاعمال على القواعد والاحكام الشرعية كمن يعيش في بلاد نجد التي لا يكاد يرى فيها شيئاً من أمثال هذه المنكرات فشيا مألوفا ولا يسمع فيها بحكم من حاكم غير مستند الى نص من كتب الفقه المعتبرة، لذلك ينقل عن بعض عوامهم تكفير مرتكب بعض المعاصي ولو غير قطعية وفي مصر لا يكفر التارك لجميع أركان الاسلام والمستبيح لا كبر الفواحش بالاصرار على المجاهرة بها بلا مبالاة

(٢) قد اختلف مصنفو الكتب الكلامية والفقهية اختلافا واسع النطاق في مسائل الكفر والردة من حيث الادلة ومن حيث تطبيقها على الاعمال والناس وناهيك بتشديد من ناطوا هذه المسائل باللوازم القريبة والبعيدة للاحكام القطعية أو الظنية القوية كمن كفروا من حقر عالما أو قال أو فعل ماينافي احترام كتاب شرعي أو فتوى شرعية بالالقاء على الارض أو القول ببطلان الفتوى أو عدم قبولها اذ عدوا ان اهانة الفقيه أو فتواه أو الكتاب تستلزم إهانة الشرع وان عدم الاذعان والاحترام للفتوى يستلزم رفض الشرع والدين ، وقد يعدون من الاهانة وعدم الاحترام ماليس منه في الواقع أو في عرف الفاعل وقصده . ويوجد في هذه الكتب ولا سيما تصانيف المتأخرين منها من الاقوال مالا يمكن اثباته شرعا وفي بعضها تأييد للبدع المخلة بأصول الدين وفروعه

(٣) قد وقع من جراء ماذكرناه ونشكو منه في هذه البلاد من الفوضى في العلوم الدينية وفي تطبيقها على الاعمال المجرئة لاحد المنتمين الى طريق المتصوفة الغارقين في البدع على كتابة رد على فتوى لشيخ الازهر ورئيس المعاهد الدينية بالباطل حاول فيه جعل البدعة التي انكرها الشيخ بالدليل دينا متبعا وعبادة مشروعة واستدل على ذلك بأحاديث لا تدل عليه ولا هي بصحيحة فيستدل بها على فرض دلالتها على ماذكر — ونشر رده الباطل في صحيفة يومية مشهورة قرأها ألوف من الناس وسكت علماء الازهر على ذلك الى ان انكره على المتصوف بعض أهل الغيرة من الاسكندرية كما علم ذلك من جزء المنار الماضي ذلك بأن شيخ الازهر - وان كان رئيس علماء الدين في الازهر وسائر معاهد التعليم الديني في هذا القطر — ليس له رياسة دينية مطاعة عند المسلمين فيما يأمر به أو ينهى

عنه أو يفتي به وان وافق الحق لاشرعا ولا قانونا ولا مواضعة عرفية وليس من أعمال مشيخة الازهر نشر الدين بتلقين عقائده وآدابه وأحكامه لعامة المسلمين المكلفين بطريقة منتظمة فيكون من أثر ذلك أن السواد الاعظم قد تلقى دينه عن مصدر واحد موثوق به بحيث نجزم بأن كل ما كان معلوما من الدين بالضرورة في صدر الاسلام وسائر القرون التي جزم فيها علماء الاصول والفروع بأن من جحد شيئا مجمعا عليه من هذه المعلومات يكون كافرا . بل نعلم بالاختبار أن السواد الاعظم من المسلمين في هذه البلاد أميون وأن المتعلمين في غير المعاهد الدينية من الاهالي أكثر من المتعلمين فيها، فأما الاميون فا كثرهم لم يتلق عقيدته من عالم ولا متعلم بل يسمع بعضهم من بعض أقوالا وأمثالا وحكايات بعضها من عقائد الايمان و بعضها من أضاليل أهل الكفر وخرافات أهل الشرك ، وأما المتعلمون في المدارس الدنيوية فكثير منهم تعلموا في مدارس دعاة النصرانية التي انشئت لتحويلهم عن دينهم، ومنهم من تعلموا في مدارس الحكومة وغيرها أوفي أوروبة ، وجميع المدارس الدنيوية يبث فيها من التعاليم ماينافي الدين أو يوقع الريب في بعض عقائده ولا يكاد يوجد فيها مدرسة يتلقن المسلم فيها أصول دينه على الوجه الحق المؤيد بالدلائل التي تدحض الشبهات الواردة عليه من العلوم الاخرى. وأما المتعلمون في الازهر وما يتبعه من المعاهد فاكثرهم يجيء من بلاد الارياف ومزارعها متشبعا بما عليه العوام من الخرافات والاوهام فتمر عليه السنون وهو يعالج مبادىء النحو والفقه التي لا تنزع من نفسه شيئا من الخرافات والبدع التي عرفها وألفها ثم يحضر دروس العقائد المعروفة في هذه المعاهد وهي مختصرات أو مخلصات من كتب جدلية جافة فيما يجب اعتقاده في الايمان بالله ورسله واليوم الآخر تحرك الشبهات ولا تكاد تزيد مدارسيها إيمانا ولا عملا صالحا ولا تمييزا للبدع من السنن ولا ترغيبا في طلب رضوان الله وترهيبا من عقابه ، وقد يوجد في بعضها مدح لاتباع السنة وسيرة السلف وذم لما ابتدع بعدهم كقول الجوهرة

وكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف

ولكن لم يذكروا في شروحهم وحواشيهم عليها خلاصة ماحوت دواوين السنة من أحاديث الاعتصام وآثار الصحابة فيه ولا ماورد عن السلف من اجتناب البدع

والزجر عنها ، بل لا تخلو أمثال هذه الشروح والحواشي مما يخالف السنة ويؤيد البدعة وأهلها عن قرب أو بعد كاحتجاج الراد على فتوى شيخ الازهر في هذه الايام بما في بعضها من قولهم ان «اه» من اسماء الله تعالى كما يوجد ذلك في بعض كتب الفقه والفتاوي أيضا ، ومنه قول بعضهم باستحباب وضع الستور على قبور الصالحين قياسا على ستر الكعبة والقائل بهذا ليس من أهل القياس الاصولي الاجتهادي الا أن يكون القياس الشيطاني الذي يهدم نصوص الكتاب والسنة ، ويبني بانقاضها صروح البدعة ، فقد صحت الاحاديث بحظر تشريف القبور وبناء المساجد عليها ووضع السرج والمصابيح عليها ولعن الذين اذا مات الرجل الصالح فيهم اتخذوا على قبره مسجداً. ومقتضي هذا القياس أن هذا مشروع محبوب عند الله ورسوله (ص) وتقتضي هذه الفتوى أيضا أن الطواف بتلك القبور وتقبيلها مشروع ، وكل ذلك من عبادة غير الله تعالى وهل كان الشرك الذي بعث جميع الرسل لهدمه الا عبادة غير الله تعالى من الملائكة والانبياء والصالحين بدعائهم والغلو في تعظيمهم بما لم يأذن به الله وتعظيم ما وضع للتذكير بهم من صور وتماثيل وقبور ؟

(٤) لقد كان مثار كل هذه الفوضى والضلالات ما تبع التقليد والتمذهب من جعل جماهير الناس كل ما دون في كتب دينا يتبع ولا سيما بعد موت مؤلفه وعند أهل مذهبه أو أهل طريقته اذا كان منتميا الى بعض طرق المتصوفة . التقليد نفسه مختلف فيه عند الاصوليين وأهل النظر والاستدلال والتشديد في منعه في الامور الاعتقادية عظيم جدا حتى قال من قال انه لا يعتد بايمان المقلد وان وافق الحق وقد ذكر ذلك صاحب الجوهرة في أول عقيدته بقوله

اذ كل من قلد في التوحيد	إيمانه لم يخل من ترديد
ففيه بعض القوم يحكي الخلفا	وبعضهم حقق فيه الكشفا
فقال أن يجزم بقول الغير	كفى والا لم يزل في الضير

وناهيك بحال المختلف في إيمانه والعياذ بالله تعالى. والتقليد الذي اجازه من اجازه منهم وأوجبه صاحب الجوهرة هذا قاصرا اياه على الائمة الاربعة المشهورين في الفقه وابي القاسم الجنيد من الصوفية — افتياتا منه على الشرع — وهو التقليد في فروع الاعمال، انما

كانوا يعنون به تقليد العاجز عن معرفة الحكم للمجتهد الموثوق به عنده بأخذه عنه الحكم بدون دليل، وليس منه في شيء أن يجعل من الدين كل ماذكر في كتاب ولو لجاهل ليس من أهل الاجتهاد المطلق ولا مادونه كاكثر هؤلاء المتأخرين الذين لم يعنوا قط بالنظر في أدلة الاحكام وانما تآليفهم عبارة عن نقل كل مؤلف منهم لكلام من قبله مع تصرف يفسد النقل في بعض الاحيان، واكثر نقل المتأخرين عن قريبي العهد بهم ولا يكاد احد منهم ينظر في كلام المجتهدين ولا كلام أهل التخريج والاجتهاد في مذاهبهم، بل جعلوا الفقهاء طبقات أوصلها بعضهم الى ست ويقول مثل ابن عابدين الشهير انه من السادسة واملها امرى النقل يعني عن قبلهم لا من الكتاب والسنة، ولا من نصوص الأئمة، وهذه الطبقات حجب دون الكتاب والسنة كل طبقة تحجب مادونها عما فوقها، فالحجب بين الطبقة السادسة وبين النور المنزل من عند الله ليستضيء به البشر خمسة هي مادستها. وقد ضرب الامام الغزالي مثلا جميلا ضوء الشمس يدخل من نافذة فيقع على مرآة وينعكس عنها على جدار مقابل لها ثم ينعكس عنه الى جدار ثان مقابل له ثم ينعكس عنه الى جدار ثالث في حجرة أخرى مظلمة من بابها ثم ينعكس مايقع على هذا الجدار المقابل للباب الى جدار رابع في حجرته مقابل له - فالنور الذي يقع على المرآة مثل لنصوص الكتاب والسنة عند المهتدين بهما من الائمة المجتهدين وغيرهم من السلف لان الله تعالى شرع دينه وجعل كتابه تبيانا عاما لا خاصا بالأئمة وانما الائمة أقوى فهما وأوسع علما وأهدى سبيلا في الاهتداء به وتعليمه للناس. والنور المنعكس عن المرآة على الجدار الاول مثل العلم الذي يتلقاه الناس عن الأئمة الذين [illegible] بعض [illegible] وما يستنبط منها [illegible] وما ينعكس عن هذا النور على الجدار الثاني [illegible] من بعض ولا تتبين بها الاشياء بجلاء تعرف به حقيقتها وصفتها [illegible] بل كثير [illegible] تخفى وما يقع فيها الاشتباه

(يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا * فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما)

(د) يشتبه على أكثر [illegible] من أهل وعن أخذ بعضهم بقول الامام بدون معرفة دليله وبين ما خصه بالذم من التقليد

الاعمى الذي ترتب عليه ما أشرنا اليه من الفوضى الدينية وقد قلب بعض المقلدين الوضع وعكس القضية فجعلوا أقوى حججهم على وجوب التقليد وكونه مصلحة راجحة زعمهم أنه يدفع مفسدة الفوضى في الدين بادعاء الكثيرين للاجتهاد واتباع الناس لهم وهم غير أهل لذلك فيكونون ضالين مضلين فاقفال باب الاجتهاد قد درأ هذه المفسدة وقيد من ليس أهلا للاجتهاد باتباع أئمة معدودين قد ثبت اجتهادهم ونقلت مذاهبهم بالتواتر

والحق ان هذه المفسدة التي ذكروها واقعة لاريب فيها وانما كان سببها ماسموه اقفال باب الاجتهاد أي اقفال باب الاهتداء بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ورد كل اختلاف ونزاع اليهما كأمر الله تعالى. وهذا الاهتداء ليس معناه ان يكون كل مهتد بهما إماما أهلا لاستنباط أي حكم شرعي احتيج اليه منهما، فعوام السلف الصالح لم يكونوا أئمة ولا كان الجماعات ولا الافراد منهم يلتزمون تقليد فرد معين من علمائهم، وانما كانوا كلهم عالمين بالضروري من الدين ومتفاوتين في علم غيره ومن احتاج منهم الى علم مالا يعلمه في نازلة وقعت له سأل عنها من يثق بعلمه ودينه من أهل العلم أي سأله عن حكم الله تعالى في كتابه وسنة رسوله (ص) وكان أولئك العلماء الذين هم أهل العلم بالقرآن والسنن يفتونهم بالنصوص ان وجدت والا فبما يستنبطون منها

وأما عوام الخلف الذين حيل بينهم و بين هداية كتاب ربهم وما بينه من سنة نبيهم عليه الصلاة والسلام بتسميتها اجتهادا يعجز عنه البشر فهم في فوضى دينية من هذا التقليد الاعمى الذي هو عبارة عن الاخذ بقول كل من ينتمي الى العلم أو يدعيه والى العمل بكل قول يوجد في كتاب مخطوط أو مطبوع ولا سيما كتب المنسوبين الى مذاهبهم في الفقه أو الكلام أو التصوف وناهيك بكتب المشهورين منهم مهما يكن سبب شهرتهم، ومن اختبر المسلمين في الاقطار المختلفة اختبارا صحيحا يجد انه يقل في طلاب العلوم الدينية فيهم من يعرف سيرة الامام الذي ينتمي اليه في علمه ودينه وأصول مذهبه ونصوصه في الفروع ، وانما حظهم من المذهب قراءة بعض الكتب التي ألفها بعض المقلدين المنتمين اليه على تفاوت عظيم في فهمها وعلى ما في الكثير منها من الخلط والخطأ والغلط كما أشرنا اليه آنفا ، وياليتهم مع هذا يعرفون ما في الكتب

المتبعة في مذاهبهم ويعملون بما صح نقله عن المجتهدين أو من على مقربة منهم ، كلا ان أكثر العوام يقلد بعضهم بعضا في الدين وآدابه وعباداته فعلا وتركا كما علمت، ولا يوجد واحد في المئة ولا في الالف منهم تلقى دينه عن أحد من المنتحلين تعلم الدين على ماوصفنا من سوء حالهم ومن جهل أكثرهم بنصوص الائمة المجتهدين - كجهلهم بالكتاب والسنة؛ ولو كانوا متبعين لاولئك الائمة الكرام لجعلوا أكبر همهم تذكير الناس وتعليمهم بالكتاب والسنة وارجاع كل أمر اليهما وبذلك وحده ترتفع الفوضى الدينية أو تقل وتموت البدع أو تضعف. وأقوال المؤلفين المنتسبين الى المذاهب ليس لها من التأثير على القلوب والاقناع في العقول مثل ما لكلام الله تعالى وسنة رسوله (ص) وكلامهم متعارض لكثرتهم فاذا حاججت امرءا بقول مؤلف منهم حاجك بقول آخر يخالفه كما حاجّ بعض المنتسبين الى الطريقة الشاذلية شيخ الجامع الازهر بنقول كاذبة خاطئة وجدها في بعض كتبهم فيما ابتدعوه من التعبد بما يسمونه اسم الصدر، وهو اخراجهم من صدورهم صوتا مشتملا على الحرفين اللذين مخرجهما اقصى الحلق (أه)

بل أقول ان اقفال باب الاهتداء بالكتاب والسنة وتذكير الناس بهما قد فتح أبواب الزندقة والمروق من الدين لا باب الفوضى في الدين أو الفسوق فقط ، وأوسع هذه الابواب اثنان الشبهات المادية وتنطع بعض الدجالين المنتمين الى التصوف المدعين أنهم عرفوا الحقيقة أو اتبعوا من عرفها بالكشف، وناهيك بطائفة البكتاشية والملة البابية والبهائية من أهل هذا الزمان كسلفهم الباطنية من الاسماعيلية وغيرهم . كل هذه الدواهي الطامة جاءت من ابتداع تلقي الدين عمن ينتسب الى المذاهب المعروفة والاخذ بما يقوله أو يكتبه كل منهم أو يوجد في كتبهم من غير ان يكون تلقينا للكتاب والسنة وتفسيرا لما يحتاج الى التفسير منهما وجعل هذا التلقين هو الاصل وماقد يحتاج اليه من فتوى اجتهادية في نازلة جزئية فرعا لا يدعي اليه ولا يجعل سنة متبعة وشريعة ثابتة ولا يجعل من خالفه الى غيره مبتدعا ولا فاسقا ، ولو فعلوا هذا واستعانوا عليه بما قاله أهل العلم بالتفسير والحديث لما قطعت الصلة بين الامة وبين النور الذي أنزله الله اليها ولما قفل بذلك باب الفوضى التي هي الاخذ بكلام كل من بعد من المعممين والمؤلفين مهما تكن أقوالهم ومصادرها ، وليس هذا هو الاجتهاد المطلق الذي أقفلوا بابه

(٧) من هذا الدين — ومن كان أصله كتاب الله تعالى وما بينه به رسوله في أقواله وأفعاله وأحكامه — يتوقف فهم الخلف اياه على معرفة سيرة السلف الصالح من جمهور الصحابة والتابعين وحفظة السنة وعلماء الأمصار في القرون الثلاثة التي هي خير القرون ، ذلك بأن نصوص القرآن والاحاديث تحتمل المعاني المختلفة بضروب المجازات والكنايات فيعرض الناس فيها من التأويل ماليس مراداً للشارع ، وانما كان الصحابة أعلم الناس بهذا الدين لانهم أعلم بلغة القرآن والحديث التي هي سليقة لهم، ولمشاهدتهم أعمال الرسول (ص) ووقوفهم على أحكامه في بيانه. ولذلك قال علي كرم الله وجهه لابن عباس (رض) حين أرسله لمحاجة الخوارج : احملهم على السنة فان القرآن ذو وجوه . والمراد من السنة معناها اللغوي أي سيرة الرسول (ص) وطريقته المتبعة من عهده فانها عمل لا يحتمل التأويل كما يحتمله كلامه وكلام الله تعالى وسائر الكلام وقد نهى بعض الخوارج بعضا عن محاجة ابن عباس بالقرآن بحجة أنه من قريش الذين قال الله تعالى فيهم (بل هم قوم خصمون) يريدون أنه لا يغلب في المحاجة والمخاصمة لانه ألحن بالحجة وأبرع في مجال الغلب في الخصومة ، لا انه صاحب الحق بما يثبته به من البرهان ، على ان القوم كانوا مستدلين ، وفيما أخطأوا فيه متأولين ، وما قالوه هو تكأة المقلدين، الذين يعذرون أنفسهم في الاصرار على ما ظهر لهم من ضلالهم بجهلهم وحذق خصمهم وخلابته في القول ، فالجهل عذر الجاهل العارف والمعترف بجهله وعجزه ، لا المستدل الذي ينافح عن دعواه بسيفه ورمحه ،

وعلماء المذاهب التي يدعي الناس اتباعها يقولون ان الجهل عذر في المسائل التي من شأنها أن تخفى على العامة وان كانت مجمعا عليها كارث بنت الابن مع بنت الصلب السدس تكملة للثلثين الذي جعله الله تعالى في الكلالة فرضا للاثنين ، ولا يجعلونه عذرا لاحد في المسائل المعلومة من الدين بالضرورة — قالوا الا اذا كان قريب عهد بالاسلام أو نشأ في شاهق جبل ، وهذا مبني على أن معاشرة المسلمين كافية لمعرفة الضروري من عقائد الاسلام وأحكامه في العبادات والحلال والحرام وذلك كاف في صحة اسلام من يعرفه معرفة اذعان وان جهل جميع المسائل الاجتهادية والنصوص الخفية المجمع عليها فكيف بالمسائل المختلف فيها؛ على انه لابد أن يعرف الكثير منها

ولما قل العلماء ذلك القول كانت معاشرة المسلمين كافية لمعرفة حقيقة الاسلام كما قالوا، ثم تغير الزمان، حتى صار المسلمون أنفسهم حجة على الاسلام، ويعترف بذلك خطباؤهم على منابر جوامعهم في خطب الجمعة، بقولهم «لم يبق من الاسلام الا اسمه، ولا من القرآن الا رسمه» ويقولهم «صار المعروف منكرا والمنكر معروفا» وهذا القول حق واقع، ولكن لا يعتبر به القائل ولا السامع، وقد كان من أثره أن كثيرا من الناس حتى بعض المعممين منهم لا يعلمون بدين أحد الا المعتصم بالكتاب والسنة، وما كان عليه سلف الامة، ولا سيما اذا دعا الناس الى ذلك والى ترك البدع الناشية، حينئذ ينبذونه بلقب وهابي أو عدو الائمة المجتهدين، وأولياء الله المقربين، فالجهال قد اتخذوا من أسماء الائمة والصالحين الذين هم اعداؤهم سهاما مسمومة يرمون بها أولياءهم والمتبعين لهم في الحقيقة لانهم يهتدون بالكتاب والسنة مثلهم، — فالكتاب والسنة ليسا حجة عندهم ولا هداية لهم بل هما يردان بقول كل من الف كتابا كتب في طرته نه العلامة فلان الفلاني مذهبا، والعلاني طريقة أو مشربا، فاتباع الكتاب والسنة عندهم ضلال بل ربما يرمون صاحبه بالكفر أو الزندقة كما بينا ذلك في غير ما موضع من المنار، وهذا من الخزي الذي يعد من أغرب جهل البشر، والخذلان الذي يمثل منتهى فساد العقول والفطر، يتبرأ منه ومن اهله أئمة الاثر والفقه والتصوف وعلماء بدلائل مذاهبهم وطرقهم. وهو ليس من التقليد الذي أجازه بعض هؤلاء العلماء في شيء فقد كانوا في خير القرون لا يعلمون عامة الامة الا ما انزله الله تعالى اليها وما بينه به رسولها، ولم يكن ثم مذاهب تحمل عليها، وانما كانت مباحث الاجتهاد محصورة في تعليم الخاصة ومجالس القضاء ونوازل الفتوى في الوقائع. ومن قواعد الاصول عندهم عدم جواز الاجتهاد مع وجود نص الكتاب أو السنة في المسألة وانه لا حجة في كلام أحد غير المعصوم وهم مجمعون على ان الائمة الاربعة في الفقه وأئمة الصوفية كالجنيد والشبلي والبسطامي وأمثالهم غير معصومين وانما قال بعض الشيعة بعصمة نفر معروفين من أئمة آل البيت

وجميع هؤلاء العلماء يفضلون سلف الامة على خلفها في العلم بحقيقة الدين والعمل به كما تقدم ويحثون على الاقتداء بهم ويردون كل ما خالف هديهم وسيرتهم

ويستدلون به على الابتداع في الدين كما يستدلون بالنصوص — فنحن اذاً محتاجون في التمييز بين السنة والبدعة الى معرفة ما كان عليه جمهور السلف الصالح ونتمسك به نرد ما خالفه ولا سيما ما اتفقوا عليه وما كان الخلاف فيه شاذاً أو ضعيف الرواية أو الدلالة، ولكننا نعذر من أخذ بقول أي عالم من أولئك الائمة لاعتقاده صحة دليله أو أنه هو حكم الله تعالى وان لم يعرف دليله

ثبت بالعقل والنقل والاختبار ان العمل بأحكام الدين ومنه القضاء بها والفتوى في تطبيقها على النوازل الواقعة أقوى بيانا للمراد بها من القول مهما يكن فصيحاً جلياً، فكلام الله أفصح الكلام وابلغه ومعنى هذا انه أعلاه بيانا واقناعا وتأثيرا ومع هذا كان بعض الصحابة يخطيء في فهم بعض احكامه وفي تطبيقها على العمل كما أخطأ من تمعك منهم في التراب كما تتمعك الدابة لانه فهم أن التيمم عن الجنابة يجب أن يمتاز عن تيمم الحدث وكما أخطأ من ربط في رحله عقالا أبيض وعقالا أسود ليتبين بالتمييز بينهما طلوع الفجر، ولهذا جعل الله تعالى رسوله (ص) مبيناً لكتابه على وصفه اياه بأنه بيان للناس وتبيان لكل شيء ونور مبين، وتبيين الرسول (ص) بأعماله وأحكامه وفتاويه في النوازل أقوى وأظهر من تبيينه بأقواله وان أوتي جوامع الكلم وصار أفصح من نطق بالضاد. لان أقواله ذات وجوه تحتمل التأويل كما قال الامام علي المرتضى في الكتاب العزيز بل هي أولى، ويختلف فيها الفهم، كما اختلف الصحابة رضي الله عنهم في أمره اياهم بأن لا يصلوا العصر الا في بني قريظة ففهم بعضهم ان المراد عدم التأخر عن الوصول الى بني قريظة في ذلك الوقت فصلوا في الطريق ولم يتأخروا، وحمل الآخرون الامر على ظاهره ولان العمل أبعث على القدوة والائتمار كما ثبت بالعقل والتجربة، وأظهر وقائعه في السنة أمر النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة بالتحلل من عمرتهم عقب صلح الحديبية كرر الامر بالقول ثلاثا ولم يمتثلوا فاغتم عليه الصلاة والسلام وكانت زوجه أم سلمة رضي الله عنها معه فذكر لها ذلك مستشيرا لها فيه فأشارت عليه أن يخرج اليهم ولا يكلم أحدا حتى يتحلل من عمرته بنحر هديه وحلق رأسه ففعل فتبعوه مسرعين ولم يقع لهذا نظير منهم.

فعلم من هذا أن أحكام الدين لم تبين تمام التبيين الا بالسنة العملية وان الصحابة

انفسهم كانوا محتاجين اليها وكان يختلف اجتهادهم في الاقوال اذا لم تتبين بها ، بل كان منهم من تأول النص الصريح في مقام الخصومة انتصاراً لنفسه ودفاعاً عنها كما تأول معاوية حديث عمار تقتله الفئة الباغية فقال: انما قتله من أخرجه ، فرد أمير المؤمنين علي هذا القول حين بلغه بأنه يقتضي ان يكون النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي قتل عمه حمزة أي وجميع من قتل معه في بدر واحد وسائر الغزوات — فما تبين من أعمال الدين بالسنن المتبعة قولا وتركا فهو الذي لا يسع أحداً مخالفته ولا يعذر فيه وما سواه يعذر فيه الناس باختلاف الافهام والتأول مع الاعتقاد وحسن النية

وقد حدث بعد النبي (ص) من الاحداث والوقائع ما لم يكن في عصره وختلف الاجتهاد في أحكامها من حيث تحقيق المناط وتقيح المناط أي من حيث الاستدلال على الحكم ومن حيث تطبيقه على الوقائع بالعمل والقاعدة الاصولية في اجتهاد الافراد من الصحابة وغيرهم انه ليس حجة في الدين وانما يجب على من اجتهد في مسألة أن يعمل بما ظهر له أنه الحق فيها والقائلون بالتقليد يجيزون للعاجز عن الاجتهاد فيما يعرض له مما لا نص فيه أن يأخذ باجتهاد من يثق به من المجتهدين. وأما اجماع الصحابة فهو حجة عند جميع الائمة والامام أحمد لا يحتج باجماع غيرهم وكان الامام مالك يحتج باجماع أهل المدينة في زمنه أي زمن التابعين وتابعي التابعين وانما يظهر هذا في الشعائر والسنن العملية المتبعة لا فيما سبيله الاجتهاد. وجملة القول ان الله تعالى اكمل الدين بكتابه وبيان رسوله وكان أهل الصدر الاول من السلف الصالح هم الذين حملوا الينا هذا الدين كما سمعوه ووعوه بالقول والعمل ، فمعرفته متوقفة على معرفة روايتهم له وسيرتهم في العمل به

ولا شك أن العمل بالاسلام عبادة ومعاملة وسياسة وقضاء كان في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم على أكمل الوجوه ، بل قال بعض علماء الاصول ان اجماع الخلفاء الاربعة حجة واحتجوا لذلك بحديث العرباض بن سارية مرفوعاً « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وان تأمر عليكم عبد[1] وانه من يعش منكم

(١) وفي رواية «ولو عبداً حبشياً» وهذا في الامراء والحكام الذين يوليهم الامام الاعظم فلا ينافي أحاديث حصر الائمة في قريش كما نقله الحافظ ابن رجب وغيره في شرح الحديث وأيدوه بحديث علي عند الحاكم والدارقطني مرفوعاً «

فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ ، واياكم ومحدثات الامور فان كل بدعة ضلالة » وفي رواية « فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح وكذا غيرهما من وجوه وطرق ، واختاره النووي في الاربعين . بل ذهب بعضهم الى الاحتجاج بسنة الشيخين أبي بكر وعمر ، وبعضهم بالاحتجاج بما سنه عمر أي سن في خلافته لما ورد في ذلك ولبيان وجه هذا مكان آخر يعلم منه انه ليس على اطلاقه حتى عند القائلين به . وذكر الحافظ ابن رجب في كتاب (جامع العلوم والحكم) عن الامام مالك انه قال : قال عمر بن عبد العزيز : سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الامر من بعده سننا الاخذ بها اعتصام بكتاب الله وقوة على دين الله ليس لاحد تبديلها ولا تغييرها ولا النظر في أمر خالفها فمن اهتدى بها فهو المهتدي ومن استبصر بها فهو المنصور ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى واصلاه جهنم وساءت مصيرا (قال) وحكى عبد الله بن عبد الحكم عن مالك انه قال : أعجبني عزم عمر ذلك — يعني هذا الكلام . وروى عبد الرحمن بن مهدي هذا الكلام عن مالك ولم يحكه عن عمر اه ويجمع بين الروايتين بأن مالكا كان يرويه تارة ويقوله تارة مقررا له في نفسه على غير طريق الرواية — فعمل جمهور الصحابة والتابعين وسياسة الخلفاء الاربعة الراشدين وقضاؤهم وادارتهم لامور الا...

...وموقوفاً « وان أمرت قريش فيكم عبداً حبشياً فاسمعوا له واطيعوا » وذهب بعض العلماء أنه انما ذكر العبد الحبشي على طريق ضرب المثل وان لم يصح وقوعه كما قال في حديث الترغيب في بناء المساجد « من بنى لله مسجدا ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة » رواه أحمد عن ابن عباس بسند صحيح ويستحيل ان يكون المسجد كمفحص القطاة وهو المكان الذي تفحصه برجلها وتبيض فيه . والامة مجمعة على أن العبد أي المملوك كما هو المتبادر هنا لا يجوز أن يكون الامام الاعظم صاحب الولاية العامة على المسلمين ، و... أن يلي ما دون ذلك من ولاية الامر وقال بعضهم ان في هذا الحديث وما ... معناه اشارة الى ما كان في الامة بعد من ولاية العبيد والمماليك

في الحرب والسلم ومعاملة المبتدعة وأرباب الاهواء والثوار الخارجين على ائمة الحق والعدل كل ذلك نبراس نهتدي به ونعرف حكم الله تعالى فيه ، وحاجتنا اليه في كل زمان ومكان كحاجة الصحابة رضوان الله عليهم في زمن الرسول الى مشاهدة أعماله وسماع احكامه والوقوف على قضائه وسيرته في الحرب والسلم

وسنبين ان شاء الله تعالى مزية كل خليفة من الاربعة وحكمة الله تعالى في ترتيبهم على حسب أعمارهم وما ترتب على ذلك من المصالح

﴿ نتيجة هذه المقدمات — والمقصود من هذه التمهيدات ﴾

مكان مسلمي عصرنا من دينهم

(١) علم مما تقدم ان ما عليه جماهير المسلمين اليوم في أمورهم الدينية ممزوج بالبدع والضلالات والفسق وترك الفرائض وفشو الفواحش وكثرة الشبهات الا في بلاد قليلة فمباشرة المسلمين لايمكن أن يعرف منها حقيقة دينهم في مثل القطر المصري أو الحجازي دع مادونهما في العلم والعراقة في الاسلام وان نجوم هذه البدع بدأ في خلافة عثمان فما كان عليه المسلمون قبلها فهو الاسلام الخالص، وما كان في خلافة علي من معاملة الخارجين عن الاسلام باسم الاسلام، والخارجين من المسلمين على أئمة الحق بالشهوات أو الشبهات، والمبتدعين فيه ما ليس منه بالتأويلات، فهو الحق الذي يهتدى في أمثال هذه المشكلات، والنور الذي يستضاء به في دياجير الظلمات ، وعليه جرى علماء السلف الصالح من حملة السنة وأئمة العترة ورواة الآثار، وأهل الاجتهاد الصحيح من علماء الامصار

مصادر الاسلام وحملته وكتبه

(٢) ان دين الله الاسلام هو كتابه تعالى وما بينه من سنة رسوله بالقول والعمل الذي كان عليه جمهور الصحابة والتابعين وأئمة عترة النبي (ص) قبل حدوث الفتن واحداث البدع وفي أثنائها ، وحملته الى الامة هم الذين حفظوا الكتاب والسنة وصنفوا الكتب في الاخبار والآثار وسيرة أهل الصدر الاول وميزوا صادقها من كاذبها وصحيحها من سقيمها وأئمة الامصار في القرون الثلاثة الذين بينوا للناس طرق فهم النصوص والاستنباط منها. فما أجمعوا عليه من أمر الدين فهو الذي لايسع مسلما تركه ،وما اختلفوا فيه يرد الى الكتاب

والسنة كما أمر الله تعالى بقوله (فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير واحسن تأويلا) أي مآلا وعاقبة. والرد في الامور العامة منوط بأولي الامر، وفي الوقائع الخاصة بعمل كل فرد بما ظهر له الدليل على صحته، فان لم يكن من أهل الدليل عمل بما يفتيه به من يثق بعلمه بالكتاب والسنة ودينه في الاهتداء بهما

عمل جمهور السلف حجة وهدى

(٣) عمل جمهور السلف الصالح حجة فيما يختلف أهل النظر والاستدلال فيه باجتهادهم أو اختلاف أفهامهم وتأويلهم للنصوص ولكننا نعذر المخالف لجمهور السلف بالاجتهاد والتأول اذا علمنا من حاله انه مؤمن بأن كل ماجاء به الرسول من أمر الدين حق، ومسلم مذعن لذلك على الوجه المبين في المقدمات، وحينئذ نعامله معاملة المسلمين في الصلاة معه وفي أحكام النكاح والارث وغير ذلك مع الرد عليه ومجادلته بالتي هي أحسن والتحذير من بدعته اذا كانت مخالفته ابتداعا أو فسقه اذا كانت فسقا، مهتدين في ذلك بما كان أهل الصدر الاول يعاملون به المنافقين والمؤلفة قلوبهم من ضعفاء المسلمين الذين قبلوا أحكام الاسلام والخوارج والمبتدعة المتأولين، مثال ذلك اننا لانعتد باسلام أحد يكذب القرآن أو يستحل مخالفته وانما نعذر من يفهم بعض آياته فهما مخالفا لفهم السلف مع التسليم والاذعان النفسي لكل مافيه ولوبحسب فهمه، ولا نعتد باسلام من يكذب الرسول أو يستحل مخالفته فيما يعتقد هو انه جاء به من دين الله ولكننا نعذرمن لم يصدق رواية بعض الاحاديث لشبهة عنده في المتن أوالسند فكذب مضمونها أو خالفه لذلك وان صح عندنا، ونرد عليه بالتيهي أحسن. فقد أمرنا بدرء الحدود بالشبهات؛ وأولى الحدود أن يدرأ حد الردة والخروج من الملة

بم يكون الارتداد عن الاسلام

(٤) انما جعل العلماء المتقدمون مدار الارتداد عن الاسلام على جحد المجمع عليه المعلوم بالضرورة من أمر الدين لان الجهل عذر عندهم والمدار في صحة الاسلام الاذعان النفسي والعملي لاحكامه وهو فرع العلم بها ولذلك صرحوا بان من نشأ في شاهق جبل أو كان حديث عهد بالاسلام يعذر حتى بجحده المعلوم من الدين بالضرورة عند جمهور المسلمين لانه ليس معلوماً عنده ولم يصدقوا

الناشيء بين المسلمين أو من طال عهد اختلاطه بهم بعد الاسلام اذا جحد شيئاً وادعى الجهل ليتنصل من الحد مثلا. وقد بينا في المقدمات ان معاشرة المسلمين في اكثر البلاد الاسلامية في هذه الازمنة لاتقتضي معرفة حقيقة الاسلام في عقائده وعباداته الخالية من البدع وسائر أحكام الحلال والحرام، وانما يعلم اسلام المرء باذعانه وخضوعه لما علم انه من الاسلام، ومن كان هكذا فعلاج مايجهله تعليمه واقامة الحجة عليه. وقد جربنا هذا العلاج فشفي به كثيرون من أدواء الشرك والابتداع والشكوك والاوهام ، فالسليم الفطرة ذو الجهل البسيط يشفى بسرعة عجيبة وانما يعسر شفاء أصحاب الجهل المركب الذين أخذوا شيئاً من قشور الكلام والفقه وتأويلات أدعياء الفقه والتصوف فهم يردون بها الآيات الصريحة والاحاديث الصحيحة وسيرة السلف الصالح (ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم) وهذا هو البلاء المبين الذي أضاع الاسلام ولا علاج له الا بناء التعليم الاسلامي في مدارسه وغيرها على التفسير والحديث وسيرة السلف الصالح وتلقين كل مسلم ماتقدم تقريره في ذلك

معاملة المبتدعة والمنافقين والفاسقين

(٥) اننا على كوننا لا نكفر أحداً من أهل القبلة فيما يأتيه جاهلا أو متأولا نحتاط لديننا فيمن نعلم بالاختبار الشخصي انهم على شيء من الشرك الجلي أو النفاق من غير أن نفرق الجماعة أو نحدث الفتن بين المسلمين فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وبعض الصحابة كحذيفة بن اليمان يعرفون بعض المنافقين باعيانهم ولا يجبهونهم بذلك ولا يخبرون الناس به رجاء أن يصلحوا ويوقنوا بطول معاشرة المسلمين، وكان علماء الصحابة والتابعين يصلون مقتدين بأئمة الجور من بني أمية وعمالهم ، والاسوة الكبرى في هذا الباب سيرة علي كرم الله وجهه في الخوارج ومعاوية وأنصاره. واني على هذا لا أصلي مقتديا بمن أعلم باختباري الشخصي أنه مشرك أو كافر بغير الشرك وان كان يظهر الاسلام ولا أعطيه شيئاً من الزكاة الواجبة الا اذا كان من المؤلفة قلوبهم . فهذا ما عندي من الجواب عن سؤال الموحدين في دمياط كثرهم الله تعالى وبارك فيهم

واني أتبع هذا ببيان سيرة السلف الصالح فيما ذكر من أمر الابتداع والاختلاف في الدين وأهله من أصحاب الاهواء وغيرهم ثم امضي عليها بما أراه نافعا في الاقتداء بهم . عسى أن يهتدي به الغلاة في الدين والمفرطون فيه ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

شرح قاعدة « لانكفر أحدا من أهل القبلة بذنب »

وبيان عدم كفر المبتدع في الدين جاهلا أو متأولا

هذه القاعدة من قواعد أهل السنة والجماعة الذين يصدق عليهم هذا القول لامن يسمون أنفسهم بهذا الاسم ليتميزوا من المعروفين بأسماء أخرى . وهي تذكر في بعض العقائد . وقد رأيت لشيخ الاسلام ابن تيمية تحقيقا نفيسا مطولا فيها ذكره في سياق تخطئة الرافضة في سب الصحابة (رض) وبيان ان الرد عليهم وعلى كل مخطئ في الدين يجب ان يقصد به بيان الحق وهداية الخلق دون التشفي والانتقام، وذكر ان الكلام في هذا مبني على مسألتين وبين ذلك بما نصه :

(احداهما) ان الذنب لايوجب كفر صاحبه كما تقوله الخوارج ، بل ولاتخليده في النار ومنع الشفاعة فيه كما تقوله المعتزلة .

(الثانية) ان المتأول الذي قصد متابعة الرسول لا يكفر ولا يفسق اذا اجتهد فأخطأ وهذا مشهور عند الناس في المسائل العملية . وأما مسائل العقائد فكثير من الناس كفروا المخطئين فيها . وهذا القول لايعرف عن أحد من الصحابة والتابعين لهم باحسان ولا يعرف عن أحد من أئمة المسلمين وانما هو في الاصل من أقوال أهل البدع الذين يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم (فيها) كالخوارج والمعتزلة والجهمية ووقع ذلك في كثير من أتباع الأئمة كبعض أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم . وقد يسلكون في التكفير ذلك فنهم من يكفر أهل البدع مطلقا ثم يجعل كل من خرج عما هو عليه من أهل البدع . وهذا بعينه قول الخوارج والمعتزلة والجهمية. وهذا القول أيضا لا يوجد في طائفة من أصحاب الائمة الاربعة ولا غيرهم وليس فيهم من كفر كل مبتدع ، بل المنقولات الصريحة عنهم تناقض ذلك

ولكن قد ينقل عن أحدهم انه كفر من قال بعض الاقوال ويكون مقصوده ان هذا القول كفر ليحذر ولا يلزم اذا كان القول كفرا ان يكفر كل من قاله مع الجهل والتأويل [1] فان ثبوت الكفر في حق الشخص المعين كثبوت الوعيد في الآخرة في

(١) لعل الاصل ولو مع الجهل والتاويل

حقه وذلك له شروط وموانع كما بسطناه في موضعه . واذا لم يكونوا في نفس الامر كفارا لم يكونوا منافقين فيكونون من المؤمنين فيستغفر لهم ويترحم عليهم. واذا قال المسلم (ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان) يقصد كل من سبقه من قرون الامة بالايمان وان كان قد أخطأ في تأويل تأوله فخالف السنة أو أذنب ذنبا فانه من اخوانه الذين سبقوه بالايمان فيدخل في العموم وان كان من الثنتين والسبعين فرقة فانه مامن فرقة الا وفيها خلق كثير ليسوا كفارا بل مؤمنين فيهم ضلال وذنب يستحقون به الوعيد كما يستحقه عصاة المؤمنين والنبي صلى الله عليه وسلم لم يخرجهم من الاسلام بل جعلهم من أمته ولم يقل انهم يخلدون في النار

فهذا أصل عظيم ينبغي مراعاته فان كثيرا من المنتسبين الى السنة فيهم بدعة من جنس بدع الرافضة والخوارج. وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم علي ابن أبي طالب وغيره لم يكفروا الخوارج الذين قاتلوهم بل أول ما خرجوا عليه وتحيزوا بحروراء وخرجوا عن الطاعة والجماعة قال لهم علي ابن أبي طالب رضي الله عنه ان لكم علينا أن لانمنعكم من مساجدنا ولا حقكم من الفيء ثم أرسل اليهم ابن عباس فناظرهم فرجع نحو نصفهم ثم قاتل الباقي وغلبهم ومع هذا لم يسب لهم ذرية ولا غنم لهم مالا ولا سار فيهم سيرة الصحابة في المرتدين كمسيلمة الكذاب وأمثاله بل كانت سيرة علي والصحابة في الخوارج مخالفة لسيرة الصحابة في أهل الردة ولم ينكر أحد على علي ذلك. فعلم اتفاق الصحابة على انهم لم يكونوا مرتدين عن دين الاسلام

قال الامام محمد بن نصر المروزي وقد ولي علي رضي الله عنه قتال أهل البغي وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم فيهم ماروى وسماهم مؤمنين وحكم فيهم بأحكام المؤمنين، وكذلك عمار بن ياسر، وقال محمد بن نصر أيضا حدثنا اسحاق بن راهويه حدثنا يحيى بن آدم عن مفضل بن مهلهل عن الشيباني عن قيس بن مسلم عن طارق ابن شهاب قال كنت عند علي حين فرغ من قتال أهل النهروان فقيل له أمشركون هم؟ قال من الشرك فروا، فقيل أفمنافقون؟ قال المنافقون لايذكرون الله الا قليلا. قيل فما هم؟ قال قوم بغوا علينا فقاتلناهم. وقال محمد بن نصير أيضا حدثنا اسحق حدثنا

وكيع عن مسعر عن عامر بن شقيق عن أبي وائل قال قال رجل: من دعي الى البغلة الشهباء يوم قتل المشركون؟ فقال علي من الشرك فروا، قال المنافقون، قال ان المنافقين لايذكرون الله الا قليلا، قال فما هم ؟ قال قوم بغوا علينا فقاتلناهم فنصرنا عليهم. قال اسحق حدثنا وكيع عن أبي خالد عن حكيم بن جابر قال قالوا لعلي حين قتل أهل النهروان أمشركون هم ؟ قال من الشرك فروا، قيل فمنافقون ؟ قال المنافقون لايذكرون الله الا قليلا، قيل فما هم ؟ قال قوم حاربونا فحاربناهم وقاتلونا فقاتلناهم

(قلت) الحديث الاول وهذا الحديث صريحان في ان عليا قال هذا القول في الخوارج الحرورية أهل النهروان الذين استفاضت الاحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذمهم والامر بقتالهم، وهم يكفرون عثمان وعليا ومن تولاهما فمن لم يكن معهم كان عندهم كافرا ودارهم دار كفر، فانما دار الاسلام عندهم هي دارهم. قال الاشعري وغيره: اجمعت الخوارج على تكفير علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومع هذا علي قاتلهم لما بدأوه بالقتال فقتلوا عبد الله بن خباب وطلب علي منهم قاتله، فقالوا كلنا قتله وأغاروا على ماشية الناس ولهذا قال فيهم قوم قاتلونا فقاتلناهم وحاربونا فحاربناهم، وقال قوم بغوا علينا فقاتلناهم

وقد اتفق الصحابة والعلماء بعدهم على قتال هؤلاء فانهم بغاة على جميع المسلمين سوى من وافقهم على مذهبهم، وهم يبدءون المسلمين بالقتال ولا يندفع شرهم الا بالقتال فكانوا أضر على المسلمين من قطاع الطريق. فان أولئك انما مقصودهم المال فلو اعطوه لم يقاتلوا وانما يتعرضون لبعض الناس وهؤلاء يقاتلون الناس على الدين حتى يرجعوا عما ثبت بالكتاب والسنة واجماع الصحابة الى ما ابتدعه هؤلاء بتأويلهم الباطل وفهمهم الفاسد للقرآن. ومع هذا فقد صرح علي رضي عنه بانهم مؤمنون ليسوا كفارا ولا منافقين. وهذا بخلاف ما كان يقوله بعض الناس كأبي أسحق الاسفرائني ومن تبعه يقولون لا نكفر الا من يكفرنا. فان الكفر ليس حقا لهم بل هو حق لله وليس للانسان أن يكذب على من يكذب عليه ولا (ان) يفعل الفاحشة بأهل من فعل الفاحشة بأهله بل ولو استكرهه رجل على اللواطة لم يكن له أن يستكرهه على ذلك؛ ولو قتله بتجريع خمر أو تلوط لم يجز قتله بمثل ذلك، لان هذا حرام لحق

الله تعالى . ولو سب النصارى نبينا لم يكن لنا أن نسب المسيح ، والرافضة اذا كفروا أبا بكر وعمر فليس لنا أن نكفر عليا . وحديث أبي وائل يوافق ذينك الحديثين فالظاهر انه كان يوم النهروان أيضا

وقد روي عنه في أهل الجمل وصفين قول أحسن من هذا ، قال اسحاق بن راهويه حدثنا ابو نعيم حدثنا سفيان عن جعفر بن محمد عن ابيه قال سمع علي يوم الجمل و يوم صفين رجلا يغلو في القول فقال لا تقولوا الا خيراً انما هم قوم زعموا انا بغينا عليهم وزعمنا انهم بغوا علينا فقاتلناهم ، فذكر لابي جعفر انه أخذ منهم السلاح فقال ماكان أغناه عن ذلك . وقال محمد بن نصر حدثنا محمد بن يحيى حدثنا أحمد بن خالد حدثنا محمد بن راشد عن مكحول أن أصحاب علي سألوه عن قتل من أصحاب معاوية : ما هم ؟ قال هم المؤمنون . و به قال احمد بن خالد . حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة عن عبد الواحد بن ابي عون قال مر علي - وهو متكئ على الاشتر - على قتلى صفين فاذا حابس اليماني مقتول فقال الاشتر : أنا لله وانا اليه راجعون هذا حابس اليماني معهم يا أمير المؤمنين عليه علامة معاوية أما والله لقد عهدته مؤمنا ، قال علي والآن هو مؤمن ، قال وكان حابس رجلا من أهل اليمن من أهل العبادة والاجتهاد . قال محمد بن يحيى حدثنا محمد بن عبيد حدثنا مختار بن نافع عن أبي مطر (قال) قال علي : متى ينبعث أشقاها ؟ قيل من أشقاها ؟ قال الذي يقتلني . فضربه ابن ملجم بالسيف فوقع برأس علي رضي الله عنه وهمّ المسلمون بقتله فقال لا تقتلوا الرجل فان برئت فالجروح قصاص وان مت فاقتلوه ، فقال انك ميت ، قال وما يدريك ؟ قال كان سيفي مسموما - و به قال محمد بن عبيد : حدثنا الحسن وهو ابن الحكم النخعي عن رياح بن الحارث قال : انا لبواد وان ركبتي لتكاد تمس ركبة عمار بن ياسر اذ أقبل رجل فقال كفر والله أهل الشام ، فقال عمار لا تقل ذلك فقبلتنا واحدة ونبينا واحد ، ولكنهم قوم مفتونون فحق علينا قتالهم حتى يرجعوا الى الحق - و به قال ابن يحيى حدثنا قبيصة حدثنا سفيان عن الحسن بن الحكم عن رياح بن الحرث عن عمار بن ياسر قال : ديننا واحد وقبلتنا واحدة ودعوتنا واحدة ولكنهم قوم بغوا علينا فقاتلناهم . قال ابن يحيى حدثنا يعلى حدثنا مسعر عن عبد الله بن رياح عن رياح بن الحرث قال قال عمار

ابن ياسر: لا تقولوا كفر أهل الشام، قولوا فسقوا قولوا ظلموا. قال محمد بن نصر وهذا يدل على أن الخبر الذي روي عن عمار بن ياسر انه قال لعثمان بن عفان: هو كافر. خبر باطل لا يصح لانه اذا انكر كفر أصحاب معاوية وهم انما كانوا يظهرون انهم يقاتلون في دم عثمان فهو لتكفير عثمان أشد انكارا (قلت) والمروي في حديث عمار انه لما قال ذلك انكر عليه علي رضي الله عنه وقال أتكفر برب آمن به عثمان وحدثه بما يبين بطلان ذلك القول فيكون عمار ان كان قال ذلك متأولا قد رجع عنه حين تبين له انه قول باطل

ومما يدل على ان الصحابة لم يكفروا الخوارج انهم كانوا يصلون خلفهم وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنه وغيره من الصحابة كانوا يصلون خلف نجدة الحروري وكانوا أيضا يحدثونهم ويفتونهم ويخاطبونهم كما يخاطب المسلم المسلم كما كان عبد الله بن عباس يجيب نجدة الحروري لما أرسل اليه يسأله عن مسائل وحديثه في في البخاري، وكما أجاب نافع ابن الازرق عن مسائل مشهورة وكان نافع يناظره في أشياء بالقرآن كما يتناظر المسلمان. وما زالت سيرة المسلمين على هذا ما جعلوهم مرتدين كالذين قاتلهم الصديق رضي الله عنه هذا مع أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتالهم في الاحاديث الصحيحة وما روي من أنهم شر قتلى تحت اديم السماء خير قتيل من قتلوه في الحديث الذي رواه أبو امامة رواه الترمذي وغيره أي أنهم شر على المسلمين من غيرهم فانهم لم يكن أحد شرا على المسلمين منهم لا اليهود ولا النصارى فانهم كانوا مجتهدين في قتل كل مسلم لم يوافقهم مستحلين لدماء المسلمين وأموالهم وقتل أولادهم مكفرين لهم وكانوا متدينين بذلك لعظم جهلهم وبدعتهم المضلة، ومع هذا فالصحابة والتابعون لهم باحسان لم يكفروهم ولا جعلوهم مرتدين ولا اعتدوا عليهم بقول ولا فعل بل اتقوا الله فيهم وساروا فيهم السيرة العادلة. وهكذا سائر فرق أهل البدع والاهواء من الشيعة والمعتزلة وغيرهم فمن كفر الثنتين والسبعين فرقة كلهم فقد خالف الكتاب والسنة واجماع الصحابة والتابعين لهم باحسان مع أن حديث الثنتين والسبعين فرقة ليس في الصحيحين وقد ضعفه ابن حزم وغيره لكن حسنه غيره أو صححه كما صححه الحاكم وغيره وقد رواه أهل السنن. وروى من طرق وليس قوله

« ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة » أعظم من قوله تعالى (ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا) وقوله (ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا) وأمثال ذلك من النصوص الصريحة بدخول من فعل ذلك النار ومع هذا فلا نشهد لمعين بالنار لامكان انه تاب أو كانت له حسنات محت سيآته أو كفر الله عنه بمصائب أو غير ذلك كما تقدم بل المؤمن بالله ورسوله باطنا وظاهرا الذي قصد اتباع الحق وماجاء به الرسول اذا اخطأ ولم يعرف الحق كان اولى ان يعذره الله في الآخرة من المتعمد العالم بالذنب ، فان هذا عاص مستحق للعذاب بلا ريب ، وأما ذلك فليس متعمدا الذنب ، بل هو مخطئ والله قد تجاوز لهذه الامة عن الخطأ والنسيان ، والعقوبة في الدنيا تكون لدفع ضرره عن المسلمين وان كان في الآخرة خيرا ممن لم يعاقب ، كما يعاقب المسلم المتعدي للحدود ولا يعاقب أهل الذمة من اليهود والنصارى والمسلم في الآخرة خير منهم

وأيضا فصاحب البدعة يبقى صاحب هوى يعمل لهواه لا ديانة ، ويصد عن الحق الذي يخالف هواه ، فهذا يعاقبه الله على هواه ومثل هذا يستحق العقوبة في الدنيا والآخرة ، ومن فسق من السلف الخوارج ونحوهم كما روي عن سعد بن أبي وقاص انه قال (نزل) فيهم قوله تعالى (وما يضل به الا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ماأمر الله به أن يوصل ويفسدون في الارض أولئك هم الخاسرون) فقد يكون هذا قصده ، لاسيما اذا تفرق الناس فكان منهم من يطلب الرياسة له ولاصحابه. واذا كان المسلم الذي يقاتل الكفار قد يقاتلهم شجاعة وحمية ورياء وذلك ليس في سبيل الله فكيف بأهل البدع الذين يخاصمون ويقاتلون عليها؟ فانهم يفعلون ذلك شجاعة وحمية ، وربما يعاقبون لما اتبعوا أهواءهم بغير هدى من الله لا لمجرد الخطأ الذي اجتهدوا فيه ، ولهذا قال الشافعي : لأن أتكلم في علم يقال لي فيه أخطأت ، أحب لي من أن أتكلم في علم يقال لي فيه كفرت

فمن عيوب أهل البدع تكفير بعضهم بعضا . ومن ممادح أهل العلم انهم يخطئون ولا يكفرون . وسبب ذلك ان أحدهم قد يظن ماليس بكفر كفرا ، وقد يكون كفرا لانه تبين له انه تكذيب للرسول وسب للخالق والآخر لم يتبين له ذلك ، فلا يلزم

لذا كان هذا العالم بحاله يكفر[1] اذا قاله ان يكفر من لم يعلم بحاله

والناس لهم فيما يجعلونه كفرا طرق متعددة فنهم من يقول الكفر تكذيب ما علم بالاضطرار من دين الرسول ، ثم الناس متفاوتون في العلم الضروري بذلك. ومنهم من يقول الكفر هو الجهل بالله، ثم قد يجعل الجهل بالصفة كالجهل بالموصوف وقد لا يجعله، وهم مختلفون في الصفات نفيا واثباتا . ومنهم من لا يحده بحد بل كل ماتبين انه تكذيب لما جاء به الرسول من أمر الايمان بالله واليوم الآخر جعله كفرا — الى طرق أخر . ولا ريب أن الكفر متعلق بالرسالة فتكذيب الرسول كفر . وبغضه وسبه وعداوته مع العلم بصدقه في الباطن كفر عند الصحابة والتابعين لهم باحسان وأئمة العلم وسائر الطوائف الا الجهم ومن وافقه كالصالحي والاشعري وغيرهم فانهم قالوا هذا كفر في الظاهر وأما في الباطن فلا يكون كفراً الا اذا استلزم الجهل بحيث لا يبقى في القلب شيء من التصديق بالرب، وهذا بناء على ان الايمان في القلب لا يتفاضل ولا يكون في القلب بعض من الايمان . وهو خلاف النصوص الصريحة وخلاف الواقع ، وبسط هذا موضع آخر.

والمقصود هنا ان كل من تاب من أهل البدع تاب الله عليه واذا كان الذنب متعلقا بالله ورسوله فهو حق محض لله فيجب على الانسان ان يكون في هذا قاصدا لوجه الله متبعا لرسوله ليكون عمله خالصا صوابا، قال تعالى (وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى، تلك أمانيهم. قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين● بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وقال تعالى (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا واتخذ الله ابراهيم خليلا) قال المفسرون وأهل اللغة معنى الآية أخلص دينه وعمله لله وهو محسن في عمله. وقال الفراء في قوله (فقل أسلمت وجهي لله) أخلصت عملي وقال الزجاج قصدت بعبادتي الى الله وهو كما قالوا كما قد ذكر توجيهه في موضع آخر، وهذا المعنى يدور عليه القرآن فان الله تعالى أمر أن لا يعبد الا اياه وعبادته فعل ما أمر وترك ما حظر، والاول هو اخلاص الدين والعمل لله، والثاني هو الاحسان والعمل

(١) لعل الاصل : يكفره

الصالح، ولهذا كان عمر يقول في دعائه: «اللهم اجعل عملي كله صالحا، واجعله لوجهك خالصا، ولا تجعل لاحد فيه شيئا. وهذا هو الخالص الصواب كما قال الفضيل بن عياض في قوله (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) قال أخلصه وأصوبه، قالوا يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال ان العمل اذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل، واذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل، حتى يكون خالصا صوابا، والخالص ان يكون لله والصواب ان يكون على السنة،

والامر بالسنة والنهي عن البدعة هما أمر بمعروف ونهي عن منكر وهو من أفضل الاعمال الصالحة فيجب ان يبتغى به وجه الله وان يكون مطابقا للامر، وفي الحديث « من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فينبغي ان يكون عالما بما يأمر به عالما بما ينهى عنه رفيقا فيما يأمر به رفيقا فيما ينهى عنه حليما فيما يأمر به حليما فيما ينهى عنه » (١) فالعلم قبل الامر والرفق مع الامر والحلم مع الامر فان لم يكن عالما لم يكن له ان يقفو ما ليس له به علم، وان كان عالما ولم يكن رفيقا كان كالطبيب الذي لا رفق فيه فيغلظ على المريض فلا يقبل منه، وكالمؤدب الغليظ الذي لا يقبل منه الولد وقد قال الله تعالى لموسى وهارون (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) ثم اذا أمر أو نهى فلا بد أن يؤذى في العادة فعليه أن يصبر ويحلم كما قال تعالى (وامر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الامور) وقد أمر الله نبيه بالصبر

(١) المنار: قوله وفي الحديث الخ لم أر الحديث بهذا اللفظ في شيء من دواوين السنة ولا فيما جمع منها ككنز العمال والمصنف بحر واسع . وفي معناه حديث « من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف» رواه البيهقي في شعب الايمان من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وفي سنده سالم بن ميمون الخواص ضعيف لا يحتج به ولا يكتب حديثه روى عن المثنى بن الصباح الفارسي وهو ضعيف مختلف فيه قال الامام احمد لا يسوى حديثه شيئا. وقال ابن معين رجل صالح يكتب حديثه ولا يترك. لكن رواه الديلمي من حديث أبان عن أنس مرفوعا بلفظ « لا ينبغي للرجل ان يامر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى تكون فيه خصال ثلاث رفيق بما يامر رفيق بما ينهى عالم فيما يامر عالم بما ينهى عدل فيما يامر عدل فيما ينهى » وذكر في الاحياء للغزالي «ولا يامر بالمعروف وينهى عن المنكر الا رفيق فيما يأمر به رفيق فيما ينهي عنه حليم فيما ينهي عنه فقيه فيما يامر به فقيه فيما ينهى عنه » قال الحافظ العراقي لم أجده هكذا . وذكر حديث البيهقي

على اذى المشركين في غير موضع وهو إمام الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، فان الانسان عليه أولا ان يكون أمره لله وقصده طاعة الله فيما امر به وهو يحب صلاح المأمور واقامة الحجة عليه فان فعل ذلك لطلب الرياسة لنفسه ولطائفته وتنقيص غيره كان ذلك خطيئة لا يقبله الله وكذلك اذا فعل ذلك لطلب السمعة والرياء كان عمله حابطاً. ثم اذا رد عليه ذلك أو أوذي أو نسب الى أنه مخطئ وغرضه فاسد طلبت نفسه الانتصار لنفسه وأتاه الشيطان فكان مبدأ عمله لله ثم صار له هوى يطلب به أن ينتصر على من آذاه وربما اعتدى على ذلك المؤذي، وهكذا يصيب أصحاب المقالات المختلفة اذا كان كل منهم يعتقد أن الحق معه وانه على السنة فان أكثرهم قد صار لهم في ذلك هوى أن ينتصر جاههم ورياستهم وما نسب اليهم لا يقصدون أن تكون كلمة الله هي العليا وأن يكون الدين كله لله، بل يغضبون على من خالفهم وان كان مجتهدا معذوراً لا يغضب الله عليه، ويرضون عمن كان يوافقهم وان كان جاهلا سيء القصد ليس له علم ولا حسن قصد، فيفضي هذا الى أن يحمدوا من لم يحمده الله ورسوله ويذموا من لم يذمه الله ورسوله، وتصير موالاتهم ومعاداتهم على أهواء أنفسهم لا على دين الله ورسوله. وهذا حال الكفار الذين لا يطلبون الا أهواءهم ويقولون هذا صديقنا وهذا عدونا وبلغة المغل هذا « بال » هذا « باغي » لا ينظرون الى موالاة الله ورسوله ومعاداة الله ورسوله

ومن هنا تنشأ الفتن بين الناس قال الله تعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) فاذا لم يكن الدين كله لله كانت فتنة ، وأصل الدين أن يكون الحب لله والبغض لله والموالاة لله والمعاداة لله والعبادة لله والاستعانة بالله والخوف من الله والرجاء لله والمنع لله والاعطاء لله ، وهذا انما يكون بمتابعة رسول الله الذي أمره أمر الله ونهيه نهي الله ومعاداته معاداة الله وطاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله. وصاحب الهوى يعميه الهوى ويصمه فلا يستحضر ما لله ورسوله في ذلك ولا يطلبه ولا يرضى لرضا الله ورسوله ولا يغضب لغضب الله ورسوله بل يرضى اذا حصل ما يرضاه بهواه ويغضب اذا حصل ما يغضب له بهواه، ويكون مع ذلك معه شبهة دين ان الذي يرضى له ويغضب له هو السنة وهو الحق وهو الدين، فاذا قدر أن الذي معه هو الحق المحض دين الاسلام ولم يكن قصده أن يكون الدين كله لله وأن تكون كلمة الله هي العليا

بل قصد الحمية لنفسه وطائفته أو الرياء ليعظم هو ويثنى عليه أو فعل ذلك شجاعة وطبعاً أو لغرض من الدنيا لم يكن لله ولم يكن مما هو في سبيل الله فكيف اذا كان الذي يدعي الحق أو السنة هو كنظيره معه حق وباطل وسنة وبدعة؟ وهذا حال المختلفين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً وكفر بعضهم بعضاً وفسق بعضهم بعضاً ولهذا قال تعالى فيهم (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ماجاءتهم البينة * وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) وقال تعالى (كان الناس أمة واحدة) فاختلفوا (١) كما في سورة يونس(١) وكذلك في قراءة بعض الصحابة وهذا على قراءة الجمهور من الصحابة والتابعين انهم كانوا على دين الاسلام وفي تفسير ابن عطية عن ابن عباس انهم كانوا على الكفر وهذا ليس بشيء وتفسير ابن عطية عن ابن عباس ليس بثابت عن ابن عباس بل قد ثبت عنه أنه قال كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام وقد قال في سورة يونس (وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا) فذمهم على الاختلاف بعد أن كانوا على دين واحد فعلم أنه كان حقاً

والاختلاف في كتاب الله على وجهين (أحدهما) أن يكون كله مذموماً كقوله (وان الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد) والثاني أن يكون بعضهم على الحق وبعضهم على الباطل كقوله (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ، ولو شاء الله مااقتتل الذين من بعدهم من بعد ماجاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله مااقتتلوا ولكن الله يفعل مايريد) لكن اذا أطلق الاختلاف فالجميع مذموم كقوله (ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم) وقول النبي صلى الله عليه وسلم « انما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على انبيائهم » ولهذا فسروا الاختلاف في هذا الموضع بأنه كله مذموم . قال الفراء في اختلافهم وجهان

---

(١) يوشك ان يكون قد سقط من هنا شيء ولو بعض آية البقرة التي أورد جملة منها وهي (كان الناس أمة واحدة) وبعده (فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) أي كان بعثهم بعد الاختلاف الذي صرح به آية يونس وسيذكرها وفي قراءة ابي ابن كعب الذي أشار اليه المصنف بقوله بعض الصحابة ولعله قصد بها التفسير (٢) لعل أصله تفسير الجمهور أي للامة الواحدة

(احدهما) كفر بعضهم بكتاب بعض (والثاني) تبديل مابدلوا ، وهو كما قال ، فان المختلفين كل منهم يكون معه حق وباطل فيكفر بالحق الذي مع الآخر ويصدق بالباطل الذي معه وهو تبديل ما بدل ، فالاختلاف لابد أن يجمع النوعين ولهذا ذكر كل من السلف أنواعاً من هذا (ثم قال المؤلف بعد ذكر ستة أنواع من اختلاف أهل الكتاب حذفناها للاختصار مانصه)

واختلاف أهل البدع هو من هذا النمط(١) فالخارجي يقول ليس الشيعي على شيء والشيعي يقول ليس الخارجي على شيء، والقدري النافي يقول ليس المثبت على شيء والقدري الجبري المثبت يقول ليس القدري النافي على شيء والوعيدية تقول ليست المرجئة على شيء والمرجئة تقول ليست الوعيدية على شيء. بل ويوجد شيء من هذا بين أهل المذاهب الاصولية والفروعية المنتسبين الى السنة فالكلابي يقول ليس الكرامي على شيء، والكرامي يقول ليس الكلابي على شيء، والاشعري يقول ليس السالمي على شيء والسالمي يقول ليس الاشعري على شيء وصنف السالمي كأبي علي الأهوازي كتاباً في مثالب الاشعري وصنف الاشعري كابن عساكر كتاباً يناقض ذلك من كل وجه ، وذكر فيه مثالب السالمية ، وكذلك أهل المذاهب الاربعة وغيرها لاسيما وكثير منهم تلبس ببعض المقالات الاصولية وخلط هذا بهذا، فالحنبلي والشافعي والمالكي يخلط بمذهب مالك والشافعي وأحمد شيئاً من أصول الاشعرية والسالمية وغير ذلك ويضيفه الى مذهب مالك والشافعي وأحمد ، وكذلك الحنفي يخلط بمذهب أبي حنيفة شيئاً من أصول المعتزلة والكرامية والكلابية ويضيفه الى مذهب أبي حنيفة. وهذا من جنس الرفض والتشيع لكنه تشيع في تفضيل بعض الطوائف والعلماء لاتشيع في تفضيل بعض الصحابة

والواجب على كل مسلم يشهد أن لااله الا الله وان محمداً رسول الله ان يكون أصل قصده توحيد الله بعبادته وحده لاشريك له وطاعة رسوله يدور على ذلك ويتبعه أين وجده ويعلم أن أفضل الخلق بعد الانبياء هم الصحابة فلا فلا ينتصر لشخص انتصاراً مطلقاً عاماً الا الرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا الطائفة انتصاراً مطلقاً عاماً الا للصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فان الهدى

---

(١) يريد النمط الاخير الذي حكاه الله تعالى في قوله عنهم (وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء)

يدور مع الرسول حيث دار ويدور معه أصحابه دون أصحاب غيره حيث داروا، فاذا اجتمعوا لم يجتمعوا على خطأ قط بخلاف أصحاب عالم من العلماء فانهم قد يجتمعون على خطأ بل كل قول قالوه ولم يقله غيرهم من الأئمة لا يكون الا خطأ فان الدين الذي بعث الله به رسوله ليس مسلماً الى عالم واحد وأصحابه ولو كان كذلك لكان ذلك الشخص نظيراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو شبيه بقول الرافضة في الامام المعصوم، ولا بد أن يكون الصحابة والتابعون يعرفون ذلك الحق الذي بعث الله به الرسول قبل وجود المتبوعين الذين تنسب اليهم المذاهب في الاصول والفروع ويمتنع أن يكون هؤلاء جاؤا بحق يخالف ما جاء به الرسول فان كل ما خالف الرسول فهو باطل، ويمتنع أن يكون أحدهم علم من جهة الرسول ما يخالف الصحابة والتابعين لهم باحسان فان أولئك لم يجتمعوا على ضلالة فلابد أن يكون قوله ان كان حقاً مأخوذاً عما جاء به الرسول موجوداً فيمن قبله وكل قول قيل في دين الاسلام مخالف لما مضى عليه الصحابة والتابعون لم يقله أحد منهم بل قالوا خلافه فانه قول باطل

والمقصود هنا ان الله تعالى ذكر ان المختلفين جاءتهم البينة وجاءهم العلم وانما اختلفوا بغيا ولهذا ذمهم الله وعاقبهم فانهم لم يكونوا مجتهدين مخطئين، بل كانوا قاصدين البغي عالمين بالحق معرضين عن القول وعن العمل به ، ونظير هذا قوله (ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم) قال الزجاج اختلفوا للبغي لا لقصد البرهان. وقال تعالى (ولقد بوأنا بني اسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) وقال تعالى (ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين * وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون * ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون * انهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وان الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين * هذا بصائر للناس وهدى ورحمة) فهذه المواضع من القرآن تبين أن المختلفين ما اختلفوا حتى جاءهم العلم والبينات فاختلفوا للبغي والظلم ، لا لاجل اشتباه الحق بالباطل عليهم. وهذه حال أهل الاختلاف المذموم من أهل الاهواء كلهم لا يختلفون الا من بعد أن يظهر لهم الحق ويجيئهم العلم فيبغي بعضهم على بعض. (للبحث بقية)

دعوة عرب الجزيرة العربية الى الوحدة والاتفاق

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا. وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا. كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَٱخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ. وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

ثبت في القرآن المجيد ثم في التواريخ التي دونها علماء العرب وغيرهم من الامم قديما وحديثا ومن العاديات (الآثار القديمة) التي اكتشفت في أقطار مختلفة أن العرب من أقدم أمم الارض حضارة وعمرانا ورسلا وشرائع حتى انهم استعمروا أقدم البلاد مدنية كمصر وسورية والعراق، فلهم في حضارة الفراعنة والفينيقيين والكلدانيين العرق الراسخ، والمجد الشامخ: فان لم تكن تلك الامم فروعا منهم، فلها وشائج أرحام مشتبكة بهم، من قبل أن مزجها الاسلام بهم في الدين واللغة والنسب بألوف السنين.

فمن ذلك ما حكاه في القرآن المجيد عن قوم عاد (ارم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد) كقول نبيهم هود في مبانيهم وقوتهم (أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * واذا بطشتم بطشتم جبارين) وقوله في نسلهم وزرعهم وضرعهم (أمدكم بأنعام وبنين * وجنات وعيون) وبيانه لهم ان هذه النعم يزيدها الرجوع الى الله بالايمان وترك المعاصي نماء وقوة

(ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويردكم قوة الى قوتكم) وما حكاه عن ثمود وقول رسولهم صالح لهم في تذكيره بنعم الله عليهم (هو أنشأكم من الارض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه) وقوله (أتتركون فيما ههنا آمنين * في جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم * وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين) وما قصه لنا عن سبأ في سورتها لجناتهم عن اليمين والشمال ، واتصالها بالقرى المباركة في أرض الشام ، ونظام السير المقدر بالاوقات وحفظ الامن فيها بالعدل والنظام ، وذلك قوله تعالى (وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين) وناهيكم بقصة ملكتهم مع نبي الله سليمان ، وكونها أوتيت من كل شيء يؤتاه الملوك في ذلك الزمان ، مع القوة والحكم بالشورى دون الاستبداد

ومن ذلك ما أثبته الذين اكتشفوا آثار الكلدانيين في العراق وشريعة ملكهم حمورابي من كون شريعتهم عربية ودولتهم عربية ، وهذا الملك كان كان يسمى ملك البر والسلام ، وفي سفر التكوين من أسفار التوراة ان ابراهيم عليه الصلاة والسلام أعطاه العشور اذ كان من رعيته وانه بارك ابراهيم . فدل هذا على ان ابراهيم صلى الله عليه وعلى آله كان عربيا أيضا

ومن ذلك ما اكتشفه أحمد بك كمال العالم الاثري المصري من امتزاج اللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية) باللغة العربية الدال على أحد أمرين اما أن العرب وقدماء المصريين من عرق واحد، واما أن العرب قد استعمروا مصر وحكموا فيها قبل دولة الرعاة العربية المعروف خبرها في تاريخ مصر فكان للغتهم الاثر الخالد في لغتها

هذا الماع تاريخي وجيز لمدينة العرب وقوتهم وعمرانهم في التاريخ القديم منذ ألوف السنين وان في لغتهم الفنية الراقية الواسعة دلائل أخرى على ذلك متعددة المناهج واضحة المسالك

قد ضعفت الامة العربية بعد تلك القوة ، وبدت بعد تلك الحضارة ، وخرب معظم بلادها بعد ذلك العمران ، وغلبت عليها الامية ، وكادت تعمها الجاهلية الوثنية ،(فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد * وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) ومر على هذا الضعف قرون وتعاقبت عليه أجيال ، حتى ظن الظانون أن هذه

الامة هرمت وقاربت الزوال ، فلا تقوم لها قائمة ولا يتجدد لها شباب ،

ثم جاء الاسلام لجمع شملها بعد فرقة وشتات . والف بين قلوب قبائلها وأفرادها بعد عدواة تأرثت بها الاضغان وتحكمت فيها الثارات، وأخرجها من ظلمات الجاهلية والامية . الى نور العلم والحكمة والنظام والمدنية ، وجعل لها المكانة الاولى بين أمم الارض في السيادة والرياسة ، والكلمة العليا في الحكم والسياسة، فورثت ملك القياصرة والاكاسرة في الشرق ، وامتد سلطانها في القرن الاول من حدود الهند الى المحيط الغربي وهو آخر ما كان يعرف من اليابسة في الغرب ، وأحيت في هذه الممالك الواسعة العلوم والفنون ورقت الصناعة والزراعة ، وسلكت السبل الجديدة للتجارة . فسادت شريعتها جميع الشرائع ، وعلت لغتها جميع اللغات ، وفاقت آدابها جميع الآداب

ولكن حظ جزيرتها من هذا العمران كان قليلا، ثم دب اليها الخراب وعاد أكثر أهلها الى البداوة والامية والجاهلية أو ما يقرب منها . بل صاروا دون الجاهلية في بعض الصفات والمزايا حتى اللغة، فأنى لبدو الجزيرة وحضرها في هذا العصر بما يقرب من تلك الملكة العليا في الفصاحة والبلاغة التي جعلت لكتاب الله المعجز تلك المكانة من عقولهم وقلوبهم،حتى ان كان أحدهم ليسمع السورة أو الآية منه فيخرج ساجدا ، وتتحول عقائده وأخلاقه وعاداته بهدايته الى ضدها

عاد أهل الجزيرة الى جاهلية يضرب بعضهم رقاب بعض بعد ألف الاسلام بينهم فكانوا بنعمة الله اخوانا ، ويرتزق قويهم بسلب ضعيفهم بعد كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، وفرقوا دينهم فصاروا شيعا تكفر كل شيعة منهم الاخرى أو تفسقها بعد تلك الوحدة العظيمة، جاهلين أو غافلين عن قول ربهم لرسولهم صلى الله عليه وسلم (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء) وما في معناه من الآيات والاحاديث .

ان هداية القرآن هي التي جمعت كلمة العرب على ما كان من تفرقهم وتعاديهم في الجاهلية، وهي التي جعلتهم أئمة الامم في العلم والحكم والآداب والعدل في اثر اخراجهم من تلك الامية ، وما أصابهم ما أصابهم بعد ذلك من التفرق والتعادي والجهل والفقر الا بتركها ، ولن تعود اليهم تلك النعم الا بعودهم اليها ، (ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) ولكن وحي شياطين

التفريق . قد زين بزخرف القول لكل فريق ، ان كل شيعة تجمعها رابطة مذهب فانما الواجب عليها ان تعمل بقول علمائه وحكامه ، ولا يجوز لها ان تهتدي بكتاب الله وسنة رسوله ، وان اختلفوا في الرأي، وتنازعوا في الامر خلافا لقوله عز وجل (فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول) وشبهتها في هذه المخالفة أن الاهتداء بكتاب الله المنزل ، فتح لباب الاجتهاد المقفل فاختلفوا في أصل الاهتداء بالكتاب، الذي أنزله الله تعالى لازالة الاختلاف

من غص داوى بشرب الماء غصته فكيف يفعل من قد غص بالماء

ان الله تعالى أرسل رسله لهداية خلقه (وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه . وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم) فكيف يؤخذ بقول العلماء أو الامراء الذين يبغي بعضهم على بعض، فيما تنازعوا واختلفوا فيه من الأمر، اذا لم يرجعوا الى الاصل الجامع، ويحكموه في الخلاف الواقع، وهو يقول (فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) ثم يعلل ذلك تعليلا، بقوله (ذلك خير وأحسن تأويلا) أي أحسن عاقبة ومآلا من كل ماعداه فكيف لا يكون خيرا من اتباع أهوائهم، في تحكيم آرائهم، والرد الى أقوال زعمائهم وعلمائهم، على أن هذا الرد الى كتاب الله وسنة رسوله وذلك الاهتداء بهما ، لا يستلزمان الاجتهاد الاصولي المطلق الذي أقفلوا بابه ، فقد كان عوام السلف الصالح مهتدين بهما ولم يكن كل واحد منهم اماما مجتهدا في استنباط جميع الاحكام ، كائمتهم المشهورين وعلمائهم الاعلام

نعم ان الشيخ محمد عبد الوهاب قد جدد دعوة الدين في بقاع نجد ، فرجع الالوف بها عما كانوا عليه من الجاهلية والشرك، وكانت تنتشر دعوته في جميع جزيرة العرب التي يتعذر اصلاحها وجمع كلمتها بغير الدين ، ولو تم ذلك لتجدد أمر الاسلام في جميع أقطار المسلمين. ولكن حال دون ذلك ثنتان (أولاهما) مقاومة السياسة لها ، والاخرى غلو الكثير من القائمين بها ، فالاولى أذاعة الساسة في العالم كله ان هذه دعوة ابتداع في الدين ، والغلاة أيدوا هذه الاذاعة بما اشتهر عنهم من الغلو ولا سيما تكفير من عداهم من المسلمين، ولهذه التهمة أصل ، وقد بينا الحقيقة في هذه

المسألة من قبل ، وغرضنا من الالمام بذكرها الآن ، بيان استعداد العرب للصلاح والاصلاح بدعوة الايمان، اذا قام بها من يدعو اليها بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن كما أمر القرآن، وتذكير الغلاة من المتدينة بأن لا يغلو في دينهم ولا يقولوا على الله الا الحق ، ولا يحرموا ما لم يحرم الله ورسوله بالنص أو اقتضاء النص ، وان يعذروا كل مخالف لهداية الدين بالتأول أو الجهل ، و يعتمدوا في بث الدعوة على نشر العلم والعمل به على قاعدة (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وان لا يكفروا أحدا من أهل القبلة بذنب ، وان يفرقوا بين الجهل بشيء مما يجب الايمان به عن جهل وان عد بعضه الفقهاء كفرا ردة ، وكفر العناد وتكذيب الرسول الذي كان عليه مشركو الجاهلية في زمن البعثة. فاذا علموا هذا وعملوا به لا تلبث الدعوة ان تعم الجزيرة وغيرها و يسقط كل من يعارضها حرصا على الزعامة وحب الرياسة .

هذا وان لما أصاب الجزيرة من الشقاق والشقاء سببا أصيلا وراء الخلاف الديني المبني، وهو حب الرياسة وعلو بعض الزعماء على بعض، وسببين عارضين وهما الجهل والفقر، وازالة السببين العارضين من الامور الكسبية القريبة المنال، وانما الشقاء كل الشقاء في الشقاق الناشئ عن حب الرياسة والعلو وخطره المنذر بالهلاك والزوال

ان في بلاد العرب من ينابيع الثروة ما يكفي لجعل أهلها من أغنى شعوب الارض كمعادن الذهب والحديد والحجارة الكريمة والاملاح والزيوت المعدنية وغير ذلك ، وفي كثير من أرضها قابلية لخصب الزراعة يعز نظيره في غيرها ، وناهيك بقهوة اليمن ونخيل المدينة وفاكهة الطائف، وأهلها أزكى الشعوب وأقواها استعدادا للتجارة حتى ان عوام الحضارمة قد زاحموا بها أرقى شعوب هذا العصر علما وتجربة في بلاد الهند وجاوة ومصر، فبقليل من العلم والنظام تدخل جزيرة العرب في حياة جديدة من الثروة والعمران، وتحفظ نفسها من الخطر المحدق بها الآن، ولكن ذلك يتوقف على ازالة العداء الذي طرأ على أئمتها في هذا الزمان

اذا زال الشقاق وأديل منه الاتفاق بين أئمة اليمن والحجاز ونجد ، زال في أثره ما منيت به البلاد من الجهل والفقر ، وما يتهددها من فقد الاستقلال والذل ، واذا حل بالجزيرة ما جعله الله تعالى بسنته في البشر ، عقابا لازما لاهل التنازع والفشل،

يذل الاسلام ويزول سلطانه من رءوس سائر الامم، وتكون تبعة ذلك على أمراء الجزيرة وأئمتها ، وما يظن بأحد منهم انه يحسب أن بلاده بأمن من سيطرة الاجانب بقوتها ، أو بحرّها ووعورتها، اذ لم يبق (فيما أظن) منهم من يجهل أن الاجانب قد استولوا على ماهو مثلها أو أشد منها قوة، وألذع حرا وأصعب وعورة، على انه ليس مثلها في كونه جزيرة أو شبه جزيرة؛ فهذه البلاد يمكن للدول البحرية حصرها من البحر، ومنع السلاح عنها وقطع موارد الرزق، ولا سيما اذا ثبتت سيطرتها على بلاد سورية والعراق، التي يسهل حصرها أيضا اذا هي نجت من تلك السيطرة وليتذكروا جميعا ما أوصى به النبي (ص) في مرض موته بشأن جزيرتهم ، وحكمة ما أشار اليه من ان الاسلام سيأرز اليها كما تأرز الحية الى جحرها وتطبيق ذلك على ما صار اليه أمر المسلمين الآن

ان بقاء عز الاسلام يتوقف على استقلال العرب واصلاح شؤونهم كما ثبت عندنا بالنظر الصحيح، المؤيد لحديث جابر عند أبي يعلى بسند صحيح ، وهو قو عليه الصلاة والسلام « اذا ذلت العرب ذل الاسلام » ولا عز بغير استقلال ولا استقلال الا بالقوة والمال ، ولا قوة ولا ثروة ، مع الشقاق والفرقة ، وانما الـ كل القوة بالاعتصام والوحدة ؛ فاذا اتحد أمراء الجزيرة وأئمتها حفظوا استقلال وأمكنهم نشر العلم وتفجير ينابيع الثروة في بلادهم، بمساعدة أهل البصيرة والقادر على تنظيم الادارة والقوة وتدبير الثروة من أمتهم ، وتسابقت الشعوب الغنية الق الى موادهم أو مصانعتهم، للاستفادة من قوتهم وثروتهم، بل هي على وشك الاحتيا اليهم منذ الآن، لما بين غربي أوربة وشرقيها من المقارعة والصدام، الذي يتوقف نتيجته ما يكون عليه الشرق من حكم ونظام ، ولا سيما شعوب الاسلام ، من العر والترك والفرس والتتر والافغان

هذا ما أحكيه لهم عن رأي أهل البصيرة والدين، من عقلاء العرب وعلماء المسلمين، الذين يتنفسون الصعداء حزنا، ويحرقون الارم غيظا وأسفا، كلما صخ اسماعهم نبأ تقاتل أئمة الجزيرة، للتنازع على بعض الجبال والاودية (١) مع خراب البلاد، وفقر العباد، الذين يزيلهما الاتفاق والاتحاد، ويزيدهما الافتراق والجلاد، واني بلسان صفوة المخلصين من عقلاء العرب وغيرهم من المسلمين، أدعوهم الى عقد الاتفاق والحلف بينهم على الاصول الآتية :

(١) ابطال الحرب والغزو بين عرب الجزيرة بعضهم مع بعض وحل مشكلات الخلاف بالتحكيم ولو بصفة هدنة موقتة الى أن يوضع للبلاد نظام حلفي ثابت

(٢) حفظ الحالة الحاضرة باعتراف كل حكومة مستقلة في قسم الجزيرة باستقلال سائر الحكومات الموجودة فيها اليوم وترك مسائل الحدود الى مجلس التحكيم بحيث لايعد اعتراف بعضهم باستقلال بعض متضمنا للرضا بالحدود المختلف عليها

(٣) حرية المذاهب الدينية الموجودة في البلاد في التعليم والعمل والدعوة بشرط عدم طعن أحد في مذهب غيره أو تكفير متبعيه بل يتبع في ذلك قوله تعالى (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) فلكل أحد أن يبين بالدليل أو بنصوص المذهب المعتمدة أحكام الدين والكفر والحلال والحرام ولكن ليس له أن يطبقها على طائفة معينة من أهل القبلة لان التطبيق له شروط ولاسيما في شأن الطوائف والجماعات التي تقيم الشعائر الاسلامية، بل ليس لغير الحاكم الشرعي في الدعوى الشرعية ان يحكم بكفر شخص معين يدعي الاسلام و يقتله بذلك

(١) كجبل سفان الذي يتقاتل عليه صاحبا اليمن وعسير ووادي طربة الذي [illegible] فيه صاحبا الحجاز ونجد

كما ينقل عن بعض الغلاة في بعض البوادي فرب قائل قول أو فاعل عده بعض العلماء كفرا لدلالته عندهم على عدم تصديق الرسول وقائل القول أو فاعل الفعل من المؤمنين الموقنين ولكنه جاهل أو متأول ولو ظهر له الحق في المسألة لقبله مذعنا ورجع عما كان عليه تائبا مستغفرا

(٤) حرية التجارة وحفظ الامن في البلاد وتسهيل طرق المواصلات بينها وتنظيم مصلحة البريد والبرق والمبادرة الى انشاء تلغراف لاسلكي في البلاد ولاسيما عواصمها

(٥) ارسال كل حكومة معتمدا الى عاصمة الاخرى يكون وكيلا لها عندها كما هو المعهود بين جميع الحكومات التي بينها عهود ولها مصالح في بلاد الاخرى

(٦) بعد حصول هذه التمهيدات يتألف لهذه الحكومات مجلس حلفي يكون هو المرجع في حل جميع مسائل الخلاف ووضع الحدود بين البلاد وجميع مايتعلق بحفظها وترقية شؤونها . واننا متى رأينا من أئمة اليمن والحجاز ونجد شروعا في تنفيذ هذا العمل الذي دعوا اليه جميعا قبل أن تشتد الحاجة اليه بوقوع الحرب العظمى وكثر الحديث فيه — فان عقلاء الامة العربية في سائر البلاد وأهل الغيرة من مسلمي الاعاجم يمدونهم بآرائهم السديدة ومساعدتهم الرشيدة في تنفيذ الاتفاق الحلفي ونظام مجلسه وسائر ما يحتاجون اليه في ذلك وفيما يترتب عليه من ايجاد وسائل الثروة في البلاد

فيأيها الائمة المتبعون في بلادكم انكم تعلمون انكم مسئولون عند الله تعالى عن كل مايتعلق بأمر البلاد وأهلها ، وانكم لا تعلمون حق العلم قدر اهتمام شعبكم العربي في غير بلادكم واهتمام جميع عقلاء الشعوب الاسلامية الاخرى بأمركم ومايقولون عنكم كلما بلغهم شيء من انباء اختلافكم وتقاتلكم ، وما يتمنون لكم من السعادة وحسن الحال الذي يعدونه من اسباب سعادتهم ، وما يكتبون اليوم في تاريخكم ، مما ينشر قريبا في عصركم ، مصححا لما تنشره الجرائد عنكم ، الا فاعلموا أن جميع العقلاء منهم ومن غيرهم يعلمون باليقين ان اتفاقكم خير لكل منكم وان بقاء هذا الشقاق بينكم أكبر مصائب نابكم وعلى شعبكم وأمتكم وملتكم (فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم) والسلام على من اتبع الهدى ، ورجح المصلحة العامة على الهوى

الخيال في الشعر العربي

يرتفع شأن الشعر وتقضي لصاحبه بالبراعة والتفوق على غيره بمقدار مايحرز من بناء محكم ومعنى بديع . وقد حذق فلاسفة الادب انظارهم الى الوجوه التي تملك بها المعاني شرف منزلتها وحسن طلعتها ، أو تأخذ منها الالفاظ متانة نسجها وصفاء ديباجتها .

ومن أجل الفنون التي يرجع النظر فيها الى جهة المعنى صناعة التخييل ، وهي الغرض الذي جردت القلم للبحث عنه في هذه الصحائف متحرياً أسلوبا لا يشتكي منه القارئ طولا ولا قصرا

ولا ادعي أن هذا الفن مما ضل عن أولئك الفلاسفة فلم يعرجوا على مكانه ، أو صعب عليهم مراسه فلم يسوموه بفكر ثاقب وبيان فاصل ؛ فان كثيرا من علماء البلاغة قد ولوا وجوههم شطره حتى توغلوا في طرائقه ، وكشفوا النقاب عن حقائقه ، ومن أبعدهم نفوذا في مسالكه الغامضة واسلمهم ذوقا في نقد معانيه وتمييز جيدها من رديئها الامام عبد القاهر الجرجاني صاحب كتابي أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز .

وما كان لي سوى أن أعود الى مباحثه المبثوثة في فنون شتى فاستخلص بقدر ما تسمح به الحال لبابها ، وأولف بين ماتقطع من أسبابها ، ولا تجدني أن شاء الله أحكي مقالهم دون أن أعقد بناصيته أو أبث خلاله أو أضع في ردفه جملا تلبسه ثوبا قشيبا أو تنفخ فيه روحا كانت هادئة

الشعر

يعرف العربي في جاهليته كما عرف بعد أن نسل اليه العلم من كل حدب أن الكلام ينقسم الى شعر ونثر . والميزة المحسوسة لكل أحد أن الشاعر لايحثو عليك الالفاظ جزافا مثلما يفعل الناثر ، وانما يلقيها اليك في أوزان تزيد في رونقها ، وتوفر لذتك عند سماعها ، ومن هذا ذهب بعضهم في حد الشعر الى أنه كلام مقفى موزون. وهذا مثل من يشرح لك الانسان بأنه حيوان بادي البشرة منتصب القامة . فكل

بما قصر تعريفه على مايدرك بالحاسة الظاهرة ، ولم يتجاوزه الى المعنى الذي تقوم الحقيقة ويكون مبدأ لكمالها ، وهو التخييل في الشعر والنطق في الانسان

فالروح التي يمدبها الكلام المنظوم في قبيل الشعراء هي التشابيه والاستعارات لامثال وغيرها من التصرفات التي يدخل لها الشاعر من باب التخييل . وليس زن سوى خاصة من خواص اللفظ المنظور اليها في مفهوم الشعر بحيث لايسميه رب شعرا الا عند تحققه ، واطلاق الشعر على الكلام الموزون اذا خلا من معنى ستطرفه النفس لايصح الا كما يصح لك أن تسمي جثة الميت انسانا ، أو تمثال لحيوان المفترس أسدا

والمنثور من الكلام يشارك الشعر في اشتماله على الصور الخيالية ولكن نصيب شعر منها أوفر، وهو بها أعرف ، كما يمتاز بأحد أنواع التخييل وهو مالا يتوخى به صاحبه وجه الحقيقة ، وانما يقصد به اختلاب العقول ومخادعة النفوس الى التشبث بغير حق يدعوك كما قال ابن الرومي الى أن تطوي جناحيك على جذوة من الحقد

وما الحقد الا توأم الشكر في الفتى و بعض المزايا ينتسبن الى بعض

فحيث ترى حقدا على ذي إساءة فثم ترى شكرا على واسع القرض

وقال آخر — يزين لك أن تدرج نفسك في كفن الذل وتواريها في حفرة من الخمول

قد بالخمول وعذ بالقبل معتصما بالله تنجو كما أهل النهى سلموا

فالريح تحطم ان هبت عواصفها دوح الثمار وينجو الشيح والرتم

ولاختصاص الشعر بهذا النوع من التخييل أطلق بعض المشركين من العرب على الرسول صلى الله عليه وسلم اسم الشاعر ليلقوا في أوهام السذج أن كلامه من نوع مايصدر عن الشعراء من الاقوال المموهة والتخيلات الباطلة

فهم يعلمون أن القرآن بريء من النزعة التي عهد بها الشاعر وهي عرض الباطل في لباس الحق، لانه انما ينطق بالحكمة ، ويجادل بالحجة ، ولا يخفى عليهم أنه مخالف الشعر في طريقة نظمه، فان الشعر عروضا يقف عنده ووزنا ينتهي اليه ، والقرآن يصوغ الموعظة وينفق الحكمة بغير ميزان ، ولكن ضاقت عليهم مسالك الجدال وانسدت في

وجوههم طرق المعارضة ، فلم يبالوا أن يتشبثوا بالدعاوي التي يظهر بطلانها لاول رأي، كما قالوا عنه انه مجنون ، وهم يشهدون في أنفسهم انه أبلغهم قولا وأقوام حجة وأنطقهم بالحكمة

وأما الآيات التي وافقت بعض الاوزان فهي على سلامتها من بهرج التخيلات لاتجد الموافق منها الموزون قد استقل بنفسه وأفاد المعنى دون أن تصله بكلمات من الآيات السابقة أو اللاحقة ، والكلام المؤلف من الموزون وغير الموزون لايصح لاحد أن يسميه شعرا ليقدح به في قوله تعالى (وماهو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون)

التخييل عند علماء البلاغة

ينقسم التصرف في المعاني على ما يقول الشيخ عبد القاهر الجرجاني الى تحقيق وتخييل ، والفارق بينهما أن المعنى التحقيقي ما يشهد له العقل بالاستقامة وتتضافر العقلاء من كل أمة على تقريره والعمل بموجبه كقول المتنبي

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم

فمعنى هذا البيت مما تلقاه العقلاء بالقبول ، ووضعوه بمقدمة ما يتنافسون فيه من الحكم البالغة، وكذلك اتخذه الامراء الراشدون قاعدة يشدون بها ظهر سياستهم، ويستندون اليها في حماية شعوبهم ، ومن الذي يجهل أن حياة الامم انما تنتظم بالوقوف في وجه من يتهافت به السفه على هدم شرفها والاستئثار بحقوقها ؟

والتخييلي هو الذي يرده العقل ، ويقضي بعدم انطباقه على الواقع ، اما على البديهة كقول بعضهم

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق

فكل احد يدرك لاول ما يطرق سمعه هذا البيت أن الكواكب لا تنوي ولا تنتطق ولا تخدم ، وأن تلك النجوم المتناسقة في وسط الجوزاء مركبة فيها من قبل أن يصير الممدوح شيئا مذكورا

أو بعد نظر قليل كقول أبي تمام

لاتنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي

نهى الخاطبة في صدر البيت عن انكارها لفاقة الكريم وفراغ يده من المال وأخبر في العجز بأن السيل لا يستقر على الاماكن المرتفعة . وهذا المعنى في نفسه صحيح ولكن الفاء في قوله « فالسيل حرب » افصحت بأن السبب في عدم توفر حطام الدنيا لذى الكريم هو كون الماء اذا وقع على الاماكن العالية لا يلبث أن ينحدر الى ما انخفض عنها من وهاد وأغوار ، وهذا انما وصل الى الذهن بتخييل أن رفعة القدر بمنزلة المكان الحسي وان المال بمنزلة الماء الدافق ينساق الى الرجل فيقضي منه وطره ثم يرسله ان شاء الى بني الحاجات ، فيكون القول بأن مكانة الكريم لارتفاعها جعلت المال يمر على يده ثم ينطلق بالبذل والانفاق يستند الى ان الماء لا يتجمع على ما صعد على وجه الارض من أكمات وهضاب ، وهذا القياس ضرب من التخييل لا يجول في العقل الا ريثما ينظر الى ان السبب في عدم استقرار الماء على الاماكن العالية كونه جرما سيالا لا تتماسك اجزاؤه وتثبت في محل الا اذا أحاط بجوانبه جسم كثيف ، وليس للدراهم والدنانير هذه الطبيعة حتى يلزم أن تمر على يد الكريم ثم تنصب منها الى من كانوا ادنى منه منزلة

ويفهم من وجه التفرقة بين القسمين أن مجرد الاستعارة عندهم لا يدخل في قسم التخييل وقد صرح الجرجاني بهذا في كتاب اسرار البلاغة ناظراً الى ان المستعير لا يقصد الا اثبات معنى اللفظة المستعارة حتى يكون الكلام مما ينبو عنه العقل، وانما يعمد الى اثبات شبه بين امرين في صفة، والتشابه من المعاني التي لا ينازع العقل في صحتها

التخييل عند الفلاسفة

يقول الفلاسفة ان من بين القوى النفسية قوة تتصرف في صور المعلومات بالتركيب تارة والتفصيل مرة أخرى ، ويسميها فلاسفة العرب اذا لم تخرج عن دائرة التعقل مفكرة ، ويقال في عملها تفكر ، فان تصرفت بوجه لا يطابق النظر الصحيح سموها مخيلة ، ويقال في عملها تخيل أو تخييل . فمثال ما يأخذ من العقل مأخذ القبول قول القاضي عياض

انظر الى الزرع وخاماته تحكي وقد ولت امام الرياح
كتيبة خضراء مهزومة شقائق النعمان فيها جراح

فالشاعر التفت الى ما في حافظته من الصور المناسبة لهيأة زرع أخضر يتخلله

شقائق النعمان وقد أخذت الرياح تهب عليه من جانب فيميل الى آخر ميلا يتراءى للعين انه حركة ينتقل بها من مكانه ، فوقع خياله على الجيش والملابس الخضراء والجراحات التي تنال الجيش المقاتل فألف بينها ثم جعل مسيره ادبارا وانهزاما ليوافق حالة جيش ظهرت فيه الجرحى بمقدار ما في المزارع الخضراء من شقائق النعمان

ومثال مالا يثق به النظر ولا يدخل في حساب الاقوال القائمة على التحقيق قول الشاعر

ترى الثياب من الكتان يلمحها نور من البدر أحيانا فيبليها
فكيف تنكر أن تبلى معاجرها والبدر في كل وقت طالع فيها

ابصر معاجر من يتحدث عنها وقد اخلقت فحاول ان يلتمس وجها يحمل ذلك الاخلاق من شواهد حسنها، أو يسد فم العاذل حتى لا ينغض من شأنها، فتصور طلعة القمر وانساق اليه مايدور بين الناس من أن الثياب التي يعج عليها القمر أشعته يسرع اليها البلى ثم ادعى مبالغا في التشبيه أن وجهها قمر وبنى على هذا أن تعجب ممن ينكر تأثيره في معجرها بالاخلاق. ففي هذا التصرف ادعاء أن وجهها قمر وهذا مما يألفه العقل لانه بمنزلة التشبيه ولا مفر له من قبوله متى تحقق الوجه الجامع بين طرفيه والمعنى الذي للعقل أن يلتفت عنه انما هو دعوى ان معجرها أخلق بعلة كونه مطلعا لوجهها المسمى بالقمر على وجه المجاز

ماذا نريد من التخييل ؟

يفهم من صريح المقالة الفلسفية أن المفكرة والمخيلة اسمان لقوة واحدة وهي التي تتصرف في المعلومات بالتفصيل والتركيب وانما تغير اسمها بحسب اختلاف الحال فعند ما يكون زمامها بيد العقل يسمونها مفكرة وعندما تنفلت منه يسمونها مخيلة

واذا عرفت أن التمثيل والاستعارة من عمل هذه القوة باتفاق علماء النفس فمن جرى طائفة من الناس على اطلاق التخييل أو الخيال عند ما تتصرف هذه القوة تصرفا تصوغ به معنى مبتدعا سواء أنس به العقل أو تجافى عنه لم يكونوا صنعوا شيئا سوى تغيير الاصطلاح وادخال القسمين تحت اسم واحد

واطلاق لفظ التخييل أو الخيال في صدد الحديث عن المعاني الصادقة والتصورات المعقولة لايحط من قيمتها أو يمس حرمتها بنقيصة فان علماء البلاغة انفسهم قد اطلقوه على مايأتي به البليغ في الاستعارة المكنية من الامور الخاصة بالمشبه به ويثبته للمشبه فقالوا الأظفار أو إضافتها في قولك « انشبت المنية اظفارها » تخييل أو استعارة تخييلية واطلقوه في الفصول في الوصل حين تكلموا على الجامع بين الجملتين وقسموه الى عقلي ووهمي وخيالي واطلقوه في فن البديع على تصوير ماسيظهر في العيان بصورة المشاهد ولم يبالوا في جميع ذلك ان يضربوا لها امثلة من الكتاب العزيز وغيره من الاقوال الصادقة

فيسوغ لنا حينئذ أن نساير ابناء العصر ونتوسع في معنى الخيال والتخييل ولا نقف عند اصطلاح القدماء من الفلاسفة أو علماء البلاغة حيث خصوا بها مالا يصادق عليه العقل والمخالفة في الاصطلاح مادامت الحقائق قائمة والمقاصد ثابتة بحالها لا يبعد عن تبديل الفاظ وتطور الاساليب .

يقول الناس عند مايسمعون بيتا أو أبياتا لاحد الشعراء : هذا خيال واسع أو هذا تخييل بديع . فيفهم السامع لهذه الكلمات ومايماثلها ان لصاحب هذا الشعر قدرة على سبك المعاني وصوغها في شكل بديع ، ولو قالوا « ما أضيق هذا الخيال أو ما اسخف هذا التخييل » فهموا ان ليس له قدرة على اخراج المعاني في صورة مبتكرة

فيصح لنا أن نأخذ هذا المعنى الذي يحضر في الذهن عند سماع تلك الجمل ونشرح به معنى المتخيلة فنقول هي قوة تتصرف في المعاني لتنتزع منها صورا بديعة

وهذه القوة انما تصوغ الصور من عناصر كانت النفس قد تلقتها من طريق الحس أو الوجدان ، وليس في امكانها ان تبدع شيئا من عناصر لم يتقدم للمتخيل معرفتها ، ومثال هذا من الصور المحسوسة أن قدماء اليونان رمزوا الى صناعة الشعر بصورة فرس له جناحان وهي صورة انما انتزعها الخيال بعد ان تصور كلا من الفرس والطائر بانفراده

وقد يجول في خاطرك عند ماتمر على قول امرئ القيس

ايقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب اغوال

ان هذا الشاعر قد تخيل لاغوال وانيابها ولم تسبق له معرفة بها اذ لا اثر للغول وانيابها ولا لشيء من موادها في العيان فيلوح لك ان هذا يقدح في قولنا ان المخيلة

لاتؤلف الصور الا من مواد عرفتها بوسيلة الحس أو الوجدان

والذي يكشف الشبهة ان كلا من الغول وانيابها صورة وهمية ولكن لم يحدثها الخيال من نفسه بل اخذ من الحيوانات الفظيعة المنظر اعضاء متفرقة وأنيابا حادة وتصرف فيها بالتكبير ثم ركبها في صورة رائعة وهي التي تخطر على الذهن عند مايذكر اسم الغول . حتى ان الناس لا يتفقون فيما أحسب على تصور هـذا الامر الموهوم فكل يخطر له المعنى في أبشع صورة يتمكن خياله من جمعها وتلفيقها

فغاية ماصنع الشاعرأن تخيل امرا محسوساوهي النصال المحددةفي صورةأمرهو في نفسه خيالي أيضاولكن صورته مأخوذة من مواد كان يعرفها من قبل بطريق الرؤية أوالسماع

وتعتمد المخيلة على قوة التذكر وهو تداعي المعاني وخطورها على الذهن بسهولة وبعد ان تتراءى لها الصور بوسيلة التذكر تستخلص منها مايلائم الغرض فتفصل الخاطرات عن أزمنتها أوامكنتها أو مايتصل بها مما لايتعلق به القصد من التخييل ، ثم تتصرف في تلك العناصر بمثل التكبير أو التصغير وتأليف بعضها الى بعض حتى تظهر في شكل جديد

تداعي المعاني

ترجع الاسباب التي تجمع بين المعاني وتجعلها بحيث يكون حضور بعضها في النفس يستدعي حضور بعض الى ثلاثة أنواع

(اولها) اقتران المعنيين في الذهن حيث يكون تعلقهما أواحساسهما في وقت واحد أو على التعاقب ، ومن هذا تذكر الوقائع عندمايخطر بالبال مكانها كما قال ابن الرومي

وحبب أوطان الرجال اليهم مآرب قضاها الشباب هنالك
اذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهود الصبا فيها فحنوا لذلك

أو زمانها كما قالت الخنساء

يذكرني طلوع الشمس صخرا واذكره بكل مغيب شمس

وخصت هذين الوقتين بالتذكير لانهما مظهر لعملين عظيمين من أعمال صخر اذ كان يغدو للاغارة التي هي مظهر الشجاعة عند مطلع الشمس ويبسط الطعام اكراما للضيوف وقت الغروب

ومن هذا الوجه تنشأ الكنايات وبعض أنواع المجاز المرسل أما الكنايات فلأنها الدلالة على المعنى باسم ما يلازمه في الخارج . وصح هذا نظراً الى ان حضور المعنى الموضوع له اللفظ يستدعي حضور لازمه في ذهن المخاطب كقول الحصين ابن الحمام

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدما
ولسنا على الاعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

أراد الشاعر أن يفيد ثباتهم في مواقف الحروب وأنه لا يلتفت بهم الفزع من الموت الى سبة الهزيمة فعبر عن هذا المعنى بأن دماءهم لا تقطر على أعقابهم البتة ، وهذا يقتضي انهم لا يولون العدو ظهورهم حتى ينالها بسيوفه كما ان معنى قطر الدماء على الاقدام يذهب بالسامع الى معنى انهم يستقبلون العدو بوجوههم الى ان ينالوا ظفرا أو يلاقوا موتا شريفا

وأما بعض أنواع المجاز المرسل فكاطلاق اسم الحال على المحل والسبب على المسبب والكل على الجزء وعكسها ، ومداره على ان ذهن المخاطب ينتقل الى المعنى المراد بسهولة حيث كان بينه وبين المعنى الحقيقي مناسبة تقتضي تقارنهما في الذهن لان ادراكهما كان في وقت واحد كالحال والمحل والكل والجزء أو على التعاقب كالسبب والمسبب

(النوع الثاني) من الاسباب التي تتلاحق بها المعاني في الذاكرة التباين فان الصور التي يكون بينها تضاد لا يكاد بعضها يتخلف عن بعض ، فمن تصور الشجاعة خطر له معنى الجبن ، ومن مرت على باله الصداقة انساق اليه معنى العداوة ، ولهذا أدخل علماء البلاغة في وجوه الوصل بين الجملتين ما يقوم بينهما من التضاد في المعنى وساقوا في أمثلته قوله تعالى (ان الابرار لفي نعيم وان الفجار لفي جحيم) وان شئت مثلا من الشعر فقول المتنبي

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وانثني وبياض الصبح يغري بي

ومن هذا الوجه أيضا سح لهم ان يعدوا في علاقات المجاز المرسل الضدية

(النوع الثالث) التشابه وهو ان يكون بين المعنيين تماثل في بعض أمور خاصة كمن يرى الرجل المقدام فيتصور الاسد ويسمع الالفاظ البليغة قد تبرجت في أسلوب محكم فيذكر الدرر المتناسقة في اسلاكها . وعلى هذا النوع يقوم فن التشبيه والاستعارة اللذين هما أوسع مضمار تتسابق فيه قرائح الشعراء والكتاب

لماذا تختلف الافكار في تداعي المعاني ؟

تختلف الناس فيما يتداعى اليهم من المعاني الى ان ترى صورا تتوارد على شخص متعاقبة وهي في خيال آخر لاتتقارن البتة ، قال أحد الفلاسفة اني لا أسأل عن السبب في ان معنى من المعاني يدعو آخر ويأخذ بناصيته ولكنني أبحث في شيء آخر وهو ان المعنى الواحد قد يختلف تواليه باختلاف الاشخاص، ثم قال ويمكن الجواب عن هذا بأن الناس يختلفون في ميولهم وشعب وجهتهم في الحياة ، فكل معنى يدعو لصاحبه ماهو ألصق بميله وأقرب الى همه

وايضاح هذا الجواب ان توالي المعاني يختلف باختلاف الاشخاص لاحد سببين (الاول) ان الدواعي والعواطف النفسية لها مدخل في تجاذب المعاني واسترسالها في الخيال ، فالطمع أو الحاجة أو الرهبة مثلا تستدعي المعاني العائدة الى المديح أو الاستعطاف ، والغرام يستدعي المعاني الغزلية ، والكآبة والاسف يستدعيان معاني الرثاء أو الشكوى ، والسرور يستدعي المعاني اللائقة بالهناء ، والاعجاب بالنفس أو العشيرة يستدعي معاني الفخر والحماسة . فالزاهد في الدنيا لا يسع خياله من معاني الاطراء والملق ما يسعه خيال الحريص عليها . والخالي من عاطفة الغرام، لا يخطر على قلبه من معاني التشبيب ما يخطر على قلب الشجي المستهام

(الثاني) مايتفق للانسان في طرز حياته وهو حال المحيط الذي يتقلب فيه فيتوالى على خاطر الناشيء في النعيم والترف ما لا يتوالى على خاطر الناشيء في حال عسرة وبؤس . ويحضر في نفس من شب في الحاضرة مالا يحضر في نفس الناشيء في البادية ، وينساق الى خيال الناشيء في شمال المعمورة مالا يدخل في خيال الناشيء في جنوبها ، فالمقيم في شمال أوربا مثلا يذكر الشتاء فتقارنه صورة الثلج وليس بينهما في ذهن المقيم بالجنوب اقتران واتصال لقلة مشاهدته للثلج أو عدم وقوع نظره عليه طول حياته . ولو نظر الى الهلال رجلان هذا نشأ في الحلية والآخر اتخذ الحداد حرفة فالشأن أن يتداعى الى الاول صورة السوار وينتقل منه الى المعصم أو الصياغة ويتداعى الى الثاني صورة المنجل وينتقل منها الى الزرع أو الحدادة (يتبع) محمد الخضر التونسي

محاربة البدع

تتمة الرد على المعترض على فتوى شيخ الازهر

قول الفخر الرازي في اسم الله الاعظم

(٤) ذكر المعترض أن الفخر الرازي قال في شرح البسملة من تفسيره ما نصه: اختلف العلماء في الاسم الاعظم ويرجح عندي أن (آه) هو الاسم الاعظم الذي اذا سئل به أعطى واذا دعي به أجاب لاشتماله على سر الاشارة وتكوين الكائنات وظهور التجليات .

ونقل الحافظ ابن حجر عنه أنه نقل عن بعض الصوفية أن الضمير (هو) هو الاسم الاعظم ونحن ننقل هنا نص عبارته في تفسير الفاتحة في هذه المسألة ليعلم الناس أن ماعزاه المعترض اليه هو خلاف ماذهب اليه وليعلم المعترض نفسه ان ما اعتمده من كتب أهل الطريق في هذه المسألة لا يوثق بنقلها ولا بعلم أهلها فنقول

ذكر الرازي في المسألة الحادية عشرة من الباب الثالث من أبواب تفسير البسملة ان الاسم الموضوع لذات الخالق واجب الوجود يجب أن يكون أعظم الاسماء وأشرفها قال : وهو المراد من الكلام المشهور الواقع في الالسنة وهو اسم الله الاعظم ولو اتفق لملك مقرب أو نبي مرسل الوقوف على ذلك الاسم حال مايكون قد تجلى له معناه لم يبعد أن يطيعه جميع عوالم الجسمانية والروحانية . ثم قال :

(المسألة الثانية عشرة) القائلون بان الاسم الاعظم موجود اختلفوا فيه على وجوه وذكر أن (الاول) ذو الجلال والاكرام وضعفه (والثاني) هو الحي القيوم وضعفه (والثالث) قول من يقول اسماء الله كلها عظيمة لايجوز وصف واحد منها بانه أعظم وضعفه (ونقول ان ذكره سهو لان التقسيم والاقوال للمثبتين للاسم الاعظم والقائلين به) ثم قال

(القول الرابع) ان الاسم الاعظم هو قولنا (الله) وهذا هو الاقرب عندي لانا سنقيم الدلالة على أن هذا الاسم يجري مجرى اسم العلم في حقه سبحانه واذا كان كذلك كان دالا على ذاته المخصوصة اه بحروفه من الصفحة ٦٢ من الجزء الاول

المطبوع بالمطبعة الخيرية سنة ١٣٠٧ ومنه يعلم بعض الفرق بين الرازي والحافظ ابن حجر في سعة الاطلاع

ثم إن الرازي جعل الاسماء الالهية بحسب دلالتها على ماوضعت له أقساما فصلها في أبواب وفصول وجعل الفصل التاسع من الباب السابع (في الاسماء الحاصلة لله تعالى من باب الاسماء المضمرة) وهي انا وانت وهو - عند ماتقدم في الكلام دالة على الله تعالى . وقد أطال في هذا الفصل الكلام في الضمير «هو» بكلام جله من نظريات الصوفية والفلاسفة وذكر له احدى عشرة فائدة واستنبط بعد ذلك ان الذكر به أعظم الاذكار ولكنه لم يقل انه هو الاسم الاعظم ولعله صرح به في كتاب آخر من كتبه . ولكنه لم يذكر أن (آه) من أسماء الله تعالى البتة .

واستنباطه هذا مردود شرعاً فانه لم يرد في الكتاب ولا في السنة الذكر باسماء الله تعالى مفردة غير واقعة في كلام مركب له معنى ، والضمير «هو» ليس من أسماء الله تعالى ولا يدل بنفسه على ذات الله تعالى ولا على صفة من صفاته وانما يدل على ذلك كما يدل على غيره اذا وقع في الكلام ضميرا راجعاً اليه . ويحسن أن نذكر نظريته ونبين بطلانها وملخصها أن نداء الله تعالى بكل اسم من اسمائه يدل على وصف يتضمن الدعاء والسؤال المناسب لمعنى ذلك الاسم فمن قال يا رحمن كان معناه ارحم ومن قال ياكريم كان معناه أكرم الخ ثم قال « وقد بينا أن الذكر انما يعظم شرفه اذا كان خالياً عن السؤال والطلب اما اذا قال ياهو كان معناه خالياً عن الاشعار بالسؤال والطلب فوجب ان يكون قولنا «هو» اعظم الاذكار » اه

ونقول ان هذا الكلام باطل مقدماته ونتيجته فليس أشرف الاذكار ما كان خالياً من دعاء الله تعالى وسؤاله بل الدعاء أعظم العبادة كما صح في الحديث «الدعاء هو العبادة » وقرأ (وقال ربكم ادعوني استجب لكم) رواه احمد وابن أبي شيبة والبخاري في الادب المفرد وأصحاب السنن الاربعة والحاكم من حديث النعمان ابن بشير مرفوعا وصححه الحاكم والترمذي وأبو يعلى في مسنده من حديث البراء ، وهو على حد حديث «الحج عرفة» رواه أحمد وأصحاب السنن وصححوه ومعناهما ان معظم الحج وركنه الاعظم عرفة ومعظم العبادة أو روحها ولبابها الدعاء . ويفسره ،

حديث أنس « الدعاء مخ العبادة » رواه الترمذي من طريق عبد الله بن لهيعة قاضي مصر ومحدثها وعالمها وفيه مقال معروف ولذلك جعله الحافظ مؤيدا لما ذكرناه في تفسيره بعد أن عزاه الى الجمهور وروى الترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححاه من حديث ابي هريرة رفعه « ليس شيء أكرم على الله من الدعاء »

ولما كان الدعاء ركن العبادة الاعظم ومعظمها وعمادها صار يطلق ويراد به العبادة مطلقا كما قالوه في تفسير كثير من آيات القرآن حتى صار بعض الناس يظن ان الصيام يسمى دعاء مثلا . وقد قال الله تعالى (٧ : ١٨٠ ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون) أفرأيت من عمل بهذه الآية فذكر الله داعيا له بأسمائه خير أم من ألحد فيها فصار يقول: هو هو هو . أو ياهو ياهو، وهي عبادة لم ترد في كتاب الله ولا في سنة رسوله ولا رويت عن السلف الصالح ؟ وهي مع ذلك فاسدة في لغة الكتاب والسنة فان الضمير وحده لا يسمى كلاما ولا يكون له معنى الا اذا وقع في كلام يكون له فيه مرجع ومثله ما اذا كان جوابا لسؤال يعرف فيه المرجع بالقرينة ، ولا يدخل عليه حرف النداء ولا على ضمير المخاطب الذي يوجه اليه النداء فلا يقال يا أنت وحرف النداء يتضمن معنى الدعاء أو النداء ويؤول بالفعل ولذلك جعلوا المنادى من المنصوبات وكل من أنت وهو ضمير رفع منفصل

ولو صح نداء الغائب من الخلق وعهد في كلامهم بالضمير المنفصل أو غيره لما كان ذلك بالذي يصح في نداء الخالق الذي لا يغيب عنهم وقد روى الشيخان وأصحاب السنن الاربعة من حديث أبي موسى الاشعري قال : كنا مع النبي (ص) في سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال النبي (ص) « أيها الناس انكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، انكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم » والصوفية الصادقون العارفون أجدر من غيرهم بملاحظة هذا الشهود والحضور والرازي رحمه الله لم يكن صوفيا وانما ينقل كلامهم ويتصرف فيه . ولو سلمنا له قوله ان أشرف الذكر ما كان خاليا عن معنى الدعاء لما كان ذلك مستلزما التسليم له بجعل الذكر بضمير الغيبة — على فرض جوازه وصحته — هو المتعين في تحصيل ذلك الذكر بل نقول حينئذ ان المتعين ذكره تعالى باسمه الذي جزم جزءا تبعا

بالجمهور بأنه اسم علم لذات الواجب الوجود وان جميع الاسماء الحسنى والصفات العليا تجري عليه ورجح هو أنه اسم الله الاعظم كما سبق النقل عنه وهو اسم الجلالة (الله) ونتبع فيه المأثور فنجعله بكلمة التوحيد لا مفردا فقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « أفضل الذكر لا اله الا الله » رواه الترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم بسند صحيح من حديث جابر بن عبدالله . ثم نقول ان القرآن قد جعل اسم الرحمن مرادفا لاسم الجلالة في عدة مواضع كقوله تعالى (قل ادعو الله أو ادعو الرحمن اياما تدعو فله الاسماء الحسنى) وذكر في عدة آيات في سياق الضر والعذاب في الدنيا والآخرة كقوله تعالى حكاية عن الناصح لقومه باتباع المرسلين (ان يردن الرحمن بضر) وقوله في حكاية انذار ابراهيم لابيه (اني أخاف ان يمسك عذاب من الرحمن) وقوله (قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا) وهذه أبعدها عن التأويل

فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى واسع الاطلاع ولا سيما في العلوم العقلية ولكنه كثير الخطأ ولا سيما فيما يختص بعلوم السنة وآثار السلف وكلامه في تفسيره المشهور كثير التعارض والتناقض وكثيرا مما نتعقبه في تفسيرنا . وانما ننقل هنا من كلامه ما هو حجة عليه فيما ذكره من تفضيل ذكر الله وندائه بضمير الغيبة وهو قوله في سياق رد قول جهم في مسألة اطلاق مثل كلمة شيء على الله تعالى من تفسير قوله تعالى (ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها) قال :

الحق في هذا الباب التفصيل وهو انا نقول: ما المراد من قولك انه تعالى شيء وذات وحقيقة؟ ان عنيت انه تعالى في نفسه ذات وحقيقة وثابت وموجود وشيء فهو كذلك من غير شك ولا شبهة ، وان عنيت به انه هل يجوز ان ينادى بهذه الالفاظ أم لا فنقول لا يجوز لانا رأينا السلف يقولون ياالله يارحمن يارحيم — الى سائر الاسماء الشريفة ، وما رأينا ولا سمعنا ان أحدا يقول : ياذات ياحقيقة يامفهوم يامعلوم — فكان الامتناع عن مثل هذه الالفاظ في معرض النداء والدعاء واجبا لله تعالى والله أعلم . اه

(ثم قال) المسألة الرابعة — قوله تعالى (ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها) يدل على انه تعالى حصلت له أسماء حسنة وانه يجب على الانسان أن يدعو الله بها وهذا يدل على أن أسماء الله توقيفية لا اصطلاحية . ومما يؤكد هذا انه يجوز ان يقال ياجواد ولا يجوز ان يقال ياسخي ولا ان يقال ياعاقل ياطبيب يافقيه » انتهى

بعضه . ونقول ومثله ما هو يا هو ، لم يقله أحد من السلف الصالح ولا هو جائز في لغة الدين وأولى منه بالانكار آه ؛ فانه ليس من هذه اللغة وانما هو من اللغة السريانية كما قيل .

نقول المعترض عن سائر العلماء

(٥) قد تبين مما تقدم ان نقل المعترض على فتوى شيخ الازهر عن صحيح مسلم ومستدرك الحاكم وعن الفخر الرازي كذب . وبقي مانقله عن حاشية الحفني على الجامع الصغير وشرح العزيزي له وعن حاشية الشيخ الامير على متن غرامي صحيح وحاشية الباجوري للجوهرة فنقول فيه — أولا — ان ما نقله عن الاولين هو في شرح حديث الانين في المرض وقد علمت انه لا يصح وفي شرح حديث « اسم الله الاعظم الذي اذا دعي به أجاب واذا سئل به أعطى » هكذا ذكر المعترض ولم يذكر تتمة الحديث وهي « دعوة يونس بن متى » وهذه التتمة تنفي مايزعمه المعترض . وهذا الحديث عزاه السيوطي في الجامع الصغير الى ابن جرير عن سعد وبجانبه علامة الضعف . وقبله حديث « اسم الله الاعظم الذي اذا دعي به أجاب في ثلاث سور من القرآن — في البقرة وآل عمران وطه » وعزاه الى ابن ماجه والطبراني والحاكم عن أبي امامة وعلم عليه السيوطي في جامعه بالصحة وذكر غيره ان في سنده هشام ابن عمار وهو مختلف فيه على انه نص في خلاف مايريد المعترض اثباته

أما ماذكره العزيزي في شرحه للجامع الصغير فقد نقل عن الحافظ عشرين قولا في الاسم الاعظم أولها انكاره وثانيها انه مما استأثر الله بعلمه والعشرون الم ويعلم باقيها مما أوردناه عن الحافظ وليس فيها أن (آه) منها . وتبعه الحفني في ذلك

وأما كلامهم في حديث الانين فقد قال المناوي في شرحه له عند قوله « فان الانين من اسماء الله تعالى » ما نصه : أي لفظ آه من أسماء الله تعالى لكن هذا تداوله الصوفية ويذكرونه كثيراً ولم يرد فيه توقيف من حيث نظر

وقال الحفني عند شرح هذا الحديث في حاشيته على الجامع الصغير (ص ٢٧ من الطبعة الاميرية) فقال عند قوله « دعوه يئن » أي يأتي بقوله آه . وقال عند قوله « من اسماء الله » أي من أثر بعض أسماء الله كالضار والمؤلم فاذا تجلى

تعالى على عبده بهذا الاسم حصل له الفرج ، والا فانه لم يرد انه من اسمائه تعالى . ه

وأما الشيخ الامير فستغني بما ذكره في حاشيته على عبد السلام شارح الجوهرة فقد قال عند قوله « الانين » ينبغي أن يقال آه لانه ورد اسما لله دون آخ لما قيل من انه من اسماء الشيطان . ونقل الباجوري قوله هذا ولكنه لم يذكر صيغة التمريض في كون آخ من اسماء الشيطان . وقول المناوي هو الصحيح لانه أعلمهم بالحديث والآثار وبالتصوف على انهم كلهم ذكروا كلمة «آه» بالمد ولم يذكر أحد منهم قولا ما في لفظة « اه » التي يدعيها المعترض فسقط كل ما قاله ولم يفده قول أحد منهم بل كلهم حجة عليه لا له . فياليت شعري هل يرجع ذلك الشاذلي المعترض وأمثاله الى الحق بعد ما تبين له أن كل ما استند اليه أهل طريقته في ذلك باطل عملا بعنوان اعترافه (الرجوع الى الحق فضيلة) الا اذا وافق الهوى التقليدي وان كان كذبا على الله ورسوله ومخالفا لما كان عليه السلف الصالح ومحققو الخلف في ذلك ?.

﴿ الرحلة السورية الثانية ﴾

٤

طرابلس والقلمون

ما حزنني من سوء حال بلاد سورية الاجتماعية والادبية شيء كما حزنني حال طرابلس والقلمون حيث نشأت وترعرعت فقد كانت طرابلس خير المدن السورية في العلوم الشرعية والادبيـة ، والعيشة الراضية الهنية ، كما كانت القلمون خير البلاد الصغيرة في ذلك ، أو « سيدة القرى والمزارع » كما وصفت في السجل الاعظم (دركنار) لبلاد الدولة العثمانية في الباب العالي كما روي لنا وذلك ان جميع أهلها كانوا سادة شرفاء ، وانقياء نجباء ، قد ولدت ولله الحمد فيها ، ونشأت في بيت الكرم والمجد لا مثيل منها ، فكنت من أول العهد بالتمييز أرى العلماء والادباء والحكام والوجهاء تغشى دارنا ، وتمشو الى ضوء نورنا ؛ بل كنت أرى فيها الضيوف من البلاد المختلفة يجتمعون على اختلاف مللهم ومذاهبهم ، وكان مسجدها عامر دائما بإقامة شعائر العبادة وقراءة

دروس العلم والوعظ ، وقد عشت ما عشت فيها ولم أر أحدا ارتكب فاحشة أو شرب مسكرا أو أتى منكرا الا ما كان ينسب الى أفراد قلائل من ارتكاب سرقة الفاكهة أو الزيتون والليمون وما كان يقع بين بعض المتخاصمين والمتنازعين من التضارب بالعصي أحيانا وبالمدى ندراء وقلما رأيت شيئا من ذلك بعيني . وإني قد شببت فيها وأنا أعتقد أن الذين يقترفون كبائر الاثم والفواحش في الدنيا أفذاذ قليل عددهم في كل مكان وأكثرهم في المدن أو البوادي . ولذلك كنت أجتنب معاشرة أكثر الناس في طرابلس عند ما كنت أطلب العلم [illegible] ما ذكرت من [illegible] على غيرها ، حتى انني الى اليوم لا أعرف جميع أسماء الذين صحبت معهم [illegible] الطوال في المدرسة . وكانت مدارس العلم يومئذ عامرة وطلابه كثيري العدد ، كانت دور أهل العلم والادب أندية وسمارا تكثر فيها المطارحات العلمية والمساجلات الادبية ولم تكن الخمر معروفة في شيء من ملاهيها العامة (القهاوي) ولا الرقص ، وكل ما كنت أعلمه في هذا أن في حارة النصارى ملهى في بستان اسمه الزهرية يشربون فيه الخمر ويختلف اليه بعض أهل الدعارة من المسلمين ، ولكنني لم أر في أثناء اقامتي فيها لطالب العلم من السكارى الا عبدا أسود وشابا [illegible] في [illegible] يبيع الحمص المملح و[illegible] وانما نسمع احيانا ببعض [illegible] من المنكر [illegible] عليهم والقدح فيهم اذ يغلب عليهم التستر ويندر فيهم التهتك ، كاجتماع بعض أهل الدعارة في مجالسهم الخاصة في بيوتهم على مائدة الخمر أو شربها على مائدة الطعام ، وانما كان يفعل هذا من المسلمين الاكثر الموظفين من الترك حتى بعض قضاة الشرع . وكان هؤلاء الموظفون يحرصون على اغواء وجهاء المسلمين الذين يعاشرونهم واغرائهم بالشرب معهم كدأب أهل السكر في كل مكان ، وقل من كان يسلم منهم من قرنائهم أو مرؤوسيهم ولو بقبول الكأس من أيديهم مرة واحدة [illegible] ذلك [illegible] سألنا [illegible] مسكر فأي حرج اذا في شربه [illegible] لا يسكر الا كثيره [illegible] فقلت له تلك شبهة بعض [illegible] الذي [illegible] والحق أن كل مسكر خمر يحرم قليله وكثيره كما ثبت في [illegible] والعبرة [illegible] .

وإذ كنت أكتب مثل هذا الاعتبار به وليكون تاريخا تعرف بمثله أسباب التطور الاجتماعي في البلاد فانني اذكر واقعة في هذا الباب هي أكبر ماكان يتحدث به الناس في مدينتنا (طرابلس الشام) ويفخرون بها . وهي بين مدحت باشا الوزير الشهير ودرويش افندي الشنبور

كان درويش افندي هذا رجل طرابلس الكبير بل رجل سورية الممتاز في عصره بالعلم بالقوانين وحسن الادارة والتصرف في حل المشكلات، حتى ان أمور ادارة لواء طرابلس كانت بيده يتصرف فيها كما يشاء، وهو عضو في مجلس الادارة رأيه فيه بحكم القانون كرأي غيره من الاعضاء، فكان أصحاب الحاجات يولون وجوههم شطر داره دون أمثاله من الأعضاء بل دون الرؤساء من المتصرف التركي المولى من نظارة الداخلية الى من دونه من رؤساء الادارة وكذا رؤساء الجند فيما يقيدون فيه بالادارة كأخذ العسكر بنظام القرعة المعروف فلم يكونوا يستطيعون أخذ أحد الا برأيه — لذلك كان له حساد كثيرون فلما جاء مدحت باشا واليا على سورية كثر السعاة بدرويش افندي الشنبور لديه الذين يرمونه بالاستبداد بأعمال الحكومة وكونه لم يترك لاحد من رجال الدولة اسما ولا عملا في لواء طرابلس وانه هو نفسه لايمكنه أن يكون له اسم سمي ولا قدر علي في ذلك اللواء الا باخراجه من مجلس الادارة وجعله حلس بيته ، وقد أثرت هذه السعاية في نفسه، فلما جاء طرابلس في دورة التفتيش المعتادة كان استقباله لدرويش افندي استقبال المرتاب المختبر فلما سمع كلامه أحب الخلوة به فسمع منه من الانباء والآراء ما أكبره في عينه، وأحله في أعلى مكان من الثقة به ، والكلام مظهر العلم والعقل والرأي (فلما كلمه قال أنك اليوم لدينا مكين أمين) ولم يكن يستطيع مفارقته الا وقت النوم ، وكان الوزير مبتلى بشرب الخمر كاكثر رجال الدولة وكان درويش افندي لا يشرب بها كسائر وجهاء طرابلس ولا سيما أصحاب الزي العلمي أمثاله فاجتهد مدحت باشا في حمله على الشرب لتطيب له معاشرته ولا يرى نفسه صغيرا أو حقيرا في عينه وعين نفسه بارتكابه لهذا المنكر مع من ينكره في نفسه لتحريمه وقد كان مدحت باشا مسلما محترما لدينه كما يقال ولكن السكر بلاء قلما يستطيع تركه من ابتلي به — عرض لدرويش افندي أولا فتباله وأعرض كانه لم يفهم مراده ،

فكاد له مكيدة سلم منها بحسن بادرته ، وقوة ارادته ؛ ذلك أنهما كانا في متنزه من متنزهات ضواحي المدينة اسمه (بركة البداوي) فطلب الوزير الخمرة فأخذ لنفسه كأسا وناول درويش افندي كأسا أخرى وقال له تشرب على اسم مولانا السلطان الاعظم فأخذ الكأس درويش افندي وقال على البداهة : كأس من يد افندينا مدحت باشا باسم مولانا السلطان الاعظم أمير المؤمنين لاينبغي أن تصب في الجوف وتخالط القذر بل مكانها الرأس ، وصب الكأس على عمامته البيضاء . فاعجب مدحت باشا بهذه البداهة والكياسة . وزاده هذا الثبات كرامة عنده ومكانة في نفسه

هذه الحالة التي كانت عليها طرابلس الى عهد طلبي العلم فيها وهجرتي منها هي التي ضاعفت آلامي لما رأيت هذه المرة مارأيت من سوء حالها ، ومن بان عدوى المجاهرة بالتهتك فيها ، وقد بدأ ذلك فيها في أوائل العهد بالحكومة الدستورية الاتحادية ثم كان لمفاسد الحرب ثم للاحتلال الاجنبي تأثير بعد تأثير في استشراء فساده كما بيناه في النبذة الثالثة من هذه الرحلة (ج ٩ م ٢١) حتى ان طرابلس صارت دون بيروت ودمشق في الحالة الملية والأدبية الاسلامية فقد خلت من تلك الحلقات الواسعة من طلاب العلم ومن تلك المحافل والسمار التي كانت آهلة بأهل الهيئة والوقار من العلماء والوجهاء من الطبقات المختلفة الذين كانت آراؤهم تضطر الغرباء من حكامهم وغيرهم الى احترامهم دع أهل البلد الذين هم كبراؤه . وكذلك كان شأن شيوخ أهل بيتنا في القلمون بل لم أر مجلس وقار في مكان ما مثل المجالس التي كان يحضرها كبير أسرتنا السيد الشيخ أحمد عم والدي فقد كان أوجه الوجهاء من علماء طرابلس ورجال الحكومة وغيرهم يجلونه لما كان عليه من الجد والوقار والتقوى حتى إنه لم يكن أحد يشذ في جلوسه ولا في ضحكه ومزاحه في حضرته بل يلزمون الاعتدال والادب الشرعي ، وقد اتهم رجل صالح من طرابلس بفاحشة أو مقدماتها وكان ممن يترددون على القلمون مع بعض العلماء فلم يتجرأ بعدها أن يتراءى امامه طول حياته ، وماذا أقول عن صاحب تلك الشيبة الرائعة الذي قال فيه نقادة المعاصرين الشيخ عبد الفتاح الزعبي نقيب أشراف طرابلس وخطيب جامعها الكبير الى اليوم : آخر من أدركنا من الصديقين عمي الشيخ أحمد . وأنا لم أكن هنالك استطيع تعمد النظر في وجه

أحد منهم بالفسق ولا السكوت على منكر منذ كنت غلاما أمرد وقد شذ في حديثه معي تاجر في طرابلس يقول لا يعد منكرا شرعا اذا حسنت فيه النية فتركت الشراء منه والنظر الى دكانه بل المرور امامها مادام فيها

نعم انني كنت أول من انتقد من المسلمين ما كان عند الوجهاء من التكلف في اللقاء والسلام والقعود والقيام وأول من ترك عادة الجلوس على الركب في بدء الجلوس معهم وان فعل ذلك بعض كبار السن والقدر لاجلي ولكنني أقول الآن ان مجالسهم كانت خيرا من مجالس اكثر أولادهم وأحفادهم الذين تركوا غير ذلك من آدابهم العالية لا المتكلف منها فقط مفتونين بزخرف حرية الفسق الذي يخشى أن يضيع عليهم دنياهم ودينهم فيكونوا من الاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا

اصيبت طرابلس بالعقم من العلماء والفضلاء والزعماء فلا خلف فيها في العلم والرشد للشيخ محمود نشابه والشيخ عبد الغني الرافعي والشيخ عبد الرزاق الرافعي والشيخ عبدالله الصفدي ودرويش افندي الشنبور والمفتي مصطفى أفندي كرامي الذين أدركناهم في شيخوختهم ، ولا للشيخ حسين الجسر والشيخ عبد الله البركة والشيخ نجيب الحامدي والشيخ محمد كامل الرافعي ومحمود افندي المغربي والمفتي رشيد افندي كرامي والشيخ خليل صادق الذين أدركناهم في كهولتهم

وانما بقي أفراد من الطبقة التي قبل طبقتنا أوسعهم علما وفهما وإفادة الشيخ محمد ابراهيم الحسيني وقد جهلت مدينته قيمته فلا ينتفع به الا أفراد قليلون من بقايا الطلاب، ومنهم الشيخ محيي الدين المنار والشيخ عبد اللطيف نشابه، وأفراد آخرون من طبقتنا ورفاقنا في الطلب وأكثر هؤلاء وأولئك قد تركوا الدرس والتدريس، واجتنبوا الكتابة والتصنيف، ومنهم من يشتغل بأمر الدنيا من تجارة وزراعة لكساد بضاعة العلم. ولم أر في هذه الزورة لطرابلس أحدا من رفاقي لا يزال مغرما بالمطالعة والكتابة الا الشيخ محمد رحيم والشيخ عبد الحميد افندي المغربي، وليس لاحد منهما ولي في عمله ولا ظهير

وأما القلمون فلم يبق فيها أولو بقية يستفيد الناس منهم الاعمي أبو عبد الرحمن عاصم فهو يقرأ دروسا في مسجدنا في بعض الاحيان لمن عساه يوجد فيه ولكنه في عامة

أوقاته ، منزل الناس لا يكاد أحد يراه الا في صلاة الجماعة وقد انقرض ثلثا أهل القرية وحال الباقين شر مما كانت عليه ؛ وقد كنت قبل الهجرة الى مصر أقرأ لهم التفسير ونهاية المحتاج في فقه الشافعية والزواجر وغير ذلك من كتب التوحيد المواعظ والرقائق . وبلغني أنه وجد فيهم رجل يتجرأ على المجاهرة بالفواحش وارتكاب منكرات السلب والنهب يستعين على ذلك برشوة الحكام ، وأما طرابلس فقد صار الكثيرون فيها يجاهرون بذلك ومنهم من يدعو الاجانب الى داره و يقدم لهم الخمور فيها ولكن تيقظ بعضهم لتدارك الخطر كما بيناه في البنفذة الثالثة التي قبل هذا من الرحلة ، فليحفظ الناس هذا ولينتظروا عاقبة هذا التغيير فان الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم ونسأل الله تعالى أن يتوب عليهم ويجعلهم خيرا مما كان عليه سلفهم ويغير ما بهم الى خير منه

تصحيح غلط في الجزء الاول

نبهنا في ص١٠٣ الى حذف جملة من آية وقع في فاتحة المنار وقلنا ان الاقتباس لا يشترط فيه ايراد الآيات تامة وان منه آيات في تلك الفاتحة من مواضع مختلفة لم يفصل بينها ، وعطف على محذوف يعرف بالقرينة . ونزيد هنا أن منه حذف في السطر ١٦ من ص ٨ بعد قوله تعالى (ولا ذمة)وهو تتمة الآية الثامنة من سورة التوبة الى قوله (ولا ذمة) قبل فاصلة الآية العاشرة : وكنا وضعنا في هذا الموضع نقطا لتدل على الحذف فتركت في الطبع سهوا . وقد اضطررنا الى تنقيح تلك الفاتحة والحذف منها اضطرارا ترتب عليه ماذكر

ووقع في السطر ١٦ ص ١٠ – يونس ١٠ : ٢٨ – وصوابه (الانعام ٦ :٢٢) وسببه في الاصل أن آية يونس سقطت من الطبع وبقي عددها وحذف عدد آية سورة الانعام فصارت آيتها بعدد سورة يونس ويكتفى الآن بتغيير الرقم . وفي س ١١ ص ١٣ (ويوم – وصوابه ثم يوم) وفي س٢٦ ص١٣ أيضا تقديم عليم على حكيم في الجملة القرآنية وتفسيرها والصواب عكسه (حكيم عليم) وهذا سهو منا نسأل الله أن لا يؤاخذنا به



قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى « ومنارا » كمنار الطريق

مصر ٣٠ جمادى الاولى ١٣٣٩ــ١٩ الدلو (ش ٢) سنة ١٢٩٩هـ ش ٨ فبراير ١٩٢١

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة اذ لا يسع الناس عامة، ونشترط على السائل أن يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك أن يرمز الى اسمه بالحروف أو يعبر بما شاء من الالقاب ان شاء. واننا نذكر الاسئلة بالترتيب غالبا وربما قدمنا متاخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه ، وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا ، ولمن مضى على سؤاله شهران أو ثلاثة أن يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

حقيقة التصوف ومكانه من الشرع

(س٣) من صاحب الامضاء

السلام عليكم ورحمة الله

الى فضيلة مولانا وراشدنا السيد رشيد رضا

وقع نظري على بعض الاعمال الدينية في بلدي المسمى باسنبلاوين مما من

أجله أرجو أن تعرفونا حقيقة التصوف وهل له قوانين ونواميس غير ماتبينه الشريعة المحمدية . واذا كان هو ماجاءت به الحنيفة فما الحاجة اليه والقرآن والسنة بين يديه وان كان مخالفا فمن أقر المبتدئ فيه عليه ومن أين استنبط ذلك المخترع تلك الطرق التي توصل الى الله (كما يدعون) ولعمري إن صح هذا كان لله طريقان طريق بينه على لسان رسوله الكريم في كتابه المبين وآخر قد هدى اليه بعض عباده المهتدين

وانما دعاني الى سؤالكم والاستنارة بآرائكم ماأخشاه من كسوف شمس شريعتنا في ذلك الافق (أفق الصوفية) فاني ارى من ينتسبون اليه ويدعونه قد ولعوا بمقتضياته وشغفوا بها حتى أنستهم الاذكار والاوراد التي يتغنون بها في الساحات والانحاء ومبالغاتهم في الشيوخ والاولياء انسام ذلك أساس الدين وكبد الشريعة (التوحيد) وهذا طبق ماأراه غريزة في بعض النفوس من الشغف بالكماليات وربما سحبت ذيول النسيان على الواجبات غشا منها لاصحابها وانهم قاموا بما فرض عليهم وارتقوا الى أن وجب عليهم ماندب اليه الدين ، وزجا منها بهم الى زمرة المقربين الذين امتثلوا وأمضوا أوامر الدين

وان سبق لكم هذا فأرجو من فضيلتكم اعادته باختصار وذلك كما تعلمون لقرب عهدنا بالمنار لازالتم مصادر الرشد وأهل الفضل والوقار

حسين محمد حسين النجار

بمدرسة القضاء الشرعي

[المنار] التصوف مصدر تصوف الرجل ـ أي صار صوفيا أي أحد أفراد الطائفة المعروفة بالصوفية ، وأشهر الاقوال في المنسوب اليه أنه الصوف لانهم كانوا يلتزمون لبسه وقيل انه كلمة سوفا أو سوفي اليونانية ومعناها الحكمة وذهب الحافظ ابن الجوزي في كتابه تلبيس ابليس أنه نسبة الى صوفة وهو لقب الغوث بن مر بن اد ابن طابخة بن الياس بن مضر لانه قد اشتهر عند العرب أنه أول من انقطع الى الله تعالى لعبادته عند بيته الحرام ، وتسلسل ذلك في ولده فصار لقب صوفة يطلق على كل منهم وناطت العرب به وبهم من بعده اجازة الناس بالحج من عرفة ومنى وهي الافاضة منها فكانت لا تفيض منهما حتى يفيض صوفة فاذا حانت الاجازة تقول

« أجيزي صوفة » وكان سبب هذه التسمية ان أم الغوث كان لا يعيش لها ولد فنذرت لئن عاش لتعلقن برأسه صوفة ولتجعلنه ربيط الكعبة، ففعلت فقيل له ثم لولده من بعده صوفة ـ نقله عن السائب الكلبي

قال الحافظ المذكور: كانت النسبة في زمن رسول الله (ص) الى الاسلام والايمان فيقال مسلم ومؤمن ثم حدث اسم زاهد وعابد، ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد فتخلوا عن الدنيا وانقطعوا الى العبادة واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها وأخلاقا تخلقوا بها ـ ثم ذكر نسبتهم التي لخصناها عنه آنفا. ثم قال في تاريخه ومبدأه: هذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مئتين، ولما أظهره أوائلهم تكلموا فيه وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة وحاصلها أن التصوف عندهم رياضة النفس ومجاهدة الطبع برده عن الاخلاق الرذيلة وحمله على الأخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والاخلاص والصدق الى غير ذلك من الخلال الحسنة. ثم ذكر أن أوائلهم كانوا على ذلك حتى لبس عليهم الشيطان وكان أول تلبيسه ان صدهم عن العلم وأراهم أن المقصود العمل فلما اطفأ مصباح العلم تخبطوا في الظلمات فمنهم من غلا في ترك الدنيا وهي قوام مصالح الخلق، ومنهم من أغري بتعذيب النفس بالجوع والعري والفقر الاختياري، ومنهم من غلبت عليهم الخيالات، حتى قالوا بالحلول والاتحاد، وكانوا يعنون بالنظافة والتنطع في الطهارة. وراجت عليهم لقلة العلم الاحاديث الموضوعة. وذكر بعد هذا تصانيفهم وما فيها من الغلو في الدين والاحاديث الباطلة. ثم انتقل الى بيان ضروب التلبيس عليهم وما خالفوا فيه الشرع عن جهل أو تأول وأطال في ذلك. وكتابه هذا جدير بأن يطبع

ولشيخ الاسلام أحمد تقي الدين بن تيمية فتوى في الصوفية والفقراء نشرناها في ج١٠ م١٢ من المنار ثم طبعناها في رسالة على حدتها لتعميم نفعها. وقد ضعف فيها القول بنسبتهم الى صوفة لانها قبيلة كانت في الجاهلية ولا وجود لها في الاسلام ورجح نسبتهم الى الصوف وقال ان لفظ الصوفية لم يكن مشهورا في القرون الثلاثة وانما اشتهر التكلم به بعد ذلك، وقال ان أول ظهورهم كان في البصرة لانه كان فيها من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك مما لم يكن في سائر الامصار ولهذا

كان يقال فقه كوفي وعبادة بصرية . وذكر بعض أحوال الصوفية ووزنها بميزان الشرع وسيرة السلف الصالح كعادته فبين الراجح من الشائل فيها وان الناس فيهم بين ذام يرميهم بالابتداع والخروج عن السنة وبين غال يدعي انهم أفضل الخلق بعد الانبياء ، وان الصواب هو الوسط وهو انهم كغيرهم من الطوائف يجتهدون فنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ، ولكن انتسب اليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ثم بين ان كلامه في صوفية الحقائق الاولين ، وأنه حدث بعدهم صنفان وهم صوفية الارزاق الذين يقيمون في الخوانك ويأكلون فيها ما وقف على الصوفية ، وصوفية الرسم الذين همهم تقليدهم في اللباس والآداب الوضعية ، ويسهل على السائل أن يراجع هذه الفتوى ويقرأها ، ويقرأ ماكتبه ابن خلدون في مقدمته ان لم يكن قرأه فان أكثره صواب

وانا قد ذكرنا في تاريخ الاستاذ الامام عيون ماذكره هؤلاء المحققون في بيان حقيقة الصوفية وزدنا عليهم مسائل مهمة استنبطناها من كتبهم ومن كتب التاريخ أجملناها في ورقتين مثل أوراق المنار ملخصها ان الصوفية طائفة انقطعت الى الزهد في الدنيا والعمل للآخرة برياضة النفس وتربية الارادة والاخذ بالعزائم ومحاسبة النفس وحسن النية والمبالغة في العبادة . وغايتهم الوصول الى تجريد التوحيد وكمال المعرفة بالله تعالى . ثم ادعى حالهم من ليس منهم غشا وتلبيسا ، ولبس لباسهم من تناقض حاله حالهم دعوى وتقليدا — وان رياضة النفس وتزكيتها تثمر للصادق فيها علما وعرفانا بسنن الله في الارواح وأسرار قواها وأحوالا وأذواقا غريبة غير مألوفة ولا معروفة لغير أهلها (منها) التأثير بقوة الارادة في بعض أمور الكون كشفاء مريض وتنفير من الشر وجذب الى الخير ويسمونه التأثير بالارادة أو الهمة (ومنها) معرفة بعض الامور من غير طريق الحس أو الفكر وهو مايسمونه الكشف (ومنها) الغوص على دقائق أسرار الشريعة وحكمها وصفات النفوس البشرية وقواها وعللها الخ ومنها غير ذلك مما لاحاجة الى ذكره هنا

وان هذا التصوف برياضة النفس قد سبق المسلمين اليه قدماء الهنود والصينيين واليونان ، وقد سرى الى المسلمين كثير من بدع أولئك الاقوام وضلالاتهم

وشمائرهم وشاراتهم (كالسبح والاعلام) حتى انهم أخذوا عنهم فلسفة وحدة الوجود فصارت غاية الطريق عندهم . وبث الباطنية في التصوف ضلالات أخرى شر أصولها التأويل البعيد للآيات والاحاديث وطاعة الاذعان لكل ما يأمر به السالكين شيوخهم وان كان منكرا وعدم الانكار عليهم في شيء . وكانت الباطنية تقصد بهذا التعاليم افساد دين الاسلام وابطاله وازالة ملكه بالدسائس التي وضعها عبد الله ابن سبأ اليهودي وجمعيات المجوس السرية التي بثت في المسلمين دعوة الغلو في التشيع لآل البيت والطعن في أعاظم الصحابة لافساد دين العرب وتقويض دعائم ملكهم بالشقاق الداخلي لتتمكن تلك الجمعيات بذلك من اعادة ملك المجوس وسلطان دينهم اللذين أزالها العرب بالاسلام . ولولا هذان الاصلان — التأويل والطاعة المطلقة — لما راجت الضلالات والبدع في هذه الطائفة لان أصل طريقتها تزكية النفس بالعلم والعمل الشرعيين مع الصدق والاخلاص والاخذ بالعزائم ومحاسبة النفس حتى على الخواطر ومن المأثور المشهور عن أئمة الصوفية قولهم : التصوف أخلاق فمن زاد عليك في الاخلاق زاد عليك في التصوف ومن قواعد الاسلام المنصوصة المعلومة منه بالضرورة انه «لاطاعة في معصية انما الطاعة في المعروف» وهذا اللفظ من حديث مرفوع في الصحيحين وغيرهما عن علي كرم الله وجهه وفوقه قول الله تعالى لرسوله (ص) في آية المبايعة (ولا يعصينك في معروف)

ثم بينا هنالك أنه لاسبيل الى تصفية التصوف من البدع الا بتحكيم الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح فيه قبولا وردا بعد بيان أن الضلالات والبدع المتغلغلة في كتب الصوفية قسمان — ما أخذه الباطنية من صوفية البراهمة واليونان ودسوه في التصوف الاسلامي وليس له أصل في الكتاب ولا في السنة الا ما زعموه من التأويلات المخالفة للغة والشرع — وما أحدثه بعض شيوخ الطريقة من الاوراد والشعائر الدينية المخالفة للسنة في ذاتها وأصلها أو في صفتها وطريقة أدائها، حتى ان بعض كبار الفقهاء والمتكلمين روجوا بعض هذه البدع والآراء بالتأويلات والتوسع فيما جوزه بعضهم من العمل بالحديث الضعيف في فضائل الاعمال ولم يراعوا ما اشترطه المحققون في هذا من الشروط — فترى مثل الغزالي من أكبر أئمة علماء الكلام والفقه يرغب

في بعض العبادات المبتدعة مستدلا عليها بهذه الاحاديث الواهية والموضوعة دع مايتعلق منها بالاعتقاد

مثال ذلك صلاة الرغائب في رجب وصلاة ليلة نصف شعبان ذكرهما الغزالي في الاحياء مستدلا عليهما بما ورد فيهما وهو موضوع وقد قال فيهما النووي في منهاجه : وصلاة رجب وشعبان بدعتان قبيحتان مذمومتان . ولم يكن النووي أعلم بفقه الشافعي من الغزالي بل قال بعض العلماء ان كتب الشيخين الرافعي والنووي مأخوذة من كتبه التي حرر بها المذهب كما قال فيه وفيها بعضهم :

حرر المذهب حبر أحسن الله خلاصه
ببسيط ووسيط ووجيز وخلاصه

ولكن النووي كان أعلم منه بالسنة فان الغزالي لم يتوسع في علم السنة الا في آخر عمره (وتمت الخاتمة التي وفقه الله لها بحسن نيته واخلاصه له الدين) ولعله لم يؤلف بعد ذلك شيئاً .

فهذا مثال ما أخذوا فيه بالموضوع . ومما أخذوا فيه بالضعيف الواهي — وهو أكثر — دعاء الوضوء قال في المنهاج : وحذفت دُعاء الوضوء اذلا أصل له . وهو يعني الدعاء الذي ذكره الرافعي تبعاً للغزالي . واعتذر الشمس الرملي شارح المنهاج عنه بأنه يعني انه ليس له أصل صحيح أو لم يكن مستحضراً لما ورد فيه من حديث ضعيف ورد من طرق والضعيف يعمل به في الفضائل ما لم يشتد ضعفه فيما له أصل صحيح كلي ولكن لا يستدل به على السنية ـ هذا ما ذكره عنه بالمعنى وذكر أن والده الشهاب الرملي اعتمد دعاء الوضوء ـ وأقول ان النووي نفى ورود شيء من السنة في دعاء الوضوء في مواضع من كتبه ومنها الاذكار وتعقبه صاحب المهمات فقال ليس كذلك بل روي من طرق منها عن أنس رواه ابن حبان في ترجمة عباد بن صهيب، وقد قال أبو داود انه صدوق قدري وقال أحمد ما كان بصاحب كذب . وتعقبه الحافظ ابن حجر فقال لو لم يرد فيه الا هذا لمشي الحال ولكن بقية ترجمته عند ابن حبان : كان يروي المناكير عن المشاهير حتى يشهد المبتدئ في هذه الصناعة (أي رواية الحديث) انها موضوعة . وساق منها هذا الحديث اه وقال الذهبي في ترجمته من الميزان : وروى عن حميد عن أنس بخبر طويل في الذكر على الوضوء باطل الخ

أقتصر على هذين الشاهدين من الاخذ بالاحاديث الموضوعة والواهية لنصوص الفقهاء فيها وهم الذين يعول الجمهور على كلامهم، ويرجحونه على كلام سائر العلماء فيما اختلفوا فيه لانهم هم الذين انتدبوا لتحريرفقه الائمة الذين يدعي الناس تقليدهم وكانت الحكام تحكم بما دونوه في كتبهم ولا تقبل الفتوى الا منها حتى صار جماهير المنتسبين الى طرق الصوفية يتبعون هؤلاء الفقهاء وان كان الصوفي الحقيقي — وهو العارف بربه العالم بدينه العامل به — لا يقلد احدا . وقد احتكر الفقهاء لانفسهم حق ترجيح أقوالهم على أقوال المفسرين والمحدثين ، بله الصوفية والمتكلمين، كما صرح به ابن حجر الهيثمي في الفتاوي الحديثية . وكان الصواب أن يحكم علماء الآثار من التفسير والحديث وسيرة سلف الامة في كل خلاف وتنازع يقع بين المسلمين ليبينوا لهم حكم الله ورسوله فيه عملا بقوله عز وجل (فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) ولا خلاف بين أحد من العلماء في معنى هذا الرد بل هم متفقون على أن الرد الى الله هو الرد الى كتابه والرد الى الرسول بعد وفاته هو الرد الى سنته . وعلماء الآثار هم المختصون بعلم ما صح في التفسير ومن سنة الرسول (ص) وسيرة السلف وكثيرا ما يأخذ الفقهاء بما لا يصح من الاحاديث وقد يحكمون بالقياس مع وجود النص بل يأخذون بأقوال المصنفين المنتمين الى مذاهبهم وإن لم يعرفوا لها دليلا ولا نصا من كلام أئمتهم المجتهدين ولا سيما المتأخرين منهم وقد أعطوا المشتغلين بكتبهم سلاحا يحاربون به نصوص الكتاب والسنة اعتذارا بالتقليد فكل كتاب ينتمي مصنفه الى مذاهبهم يحتج به عندهم ويعمل بما فيه ولكن لا يجوز الاهتداء عندهم بالكتاب ولا بالسنة الا من هداه الله ووفقه، ولم تضل أمة من أمم الرسل عن دينها أبعد من ضلال هؤلاء ولولا حفظ الله لكتابه وتوفيقه الحفاظ لتدوين السنة لتعذر الاصلاح ومعرفة حقيقة الاسلام . وقد سبق لنا بيان هذا مرارا كثيرة آخرها ما بسطناه في الكلام على فتوى شيخ الازهر في انكار بعض البدع وما فصلناه في الفتوى الاولى والثانية من جزئي المنار اللذين قبل هذا

وجملة القول في صوفية المسلمين أن علماءهم كسائر أصناف علماء المسلمين الذين استعملوا عقولهم في الدين من المتكلمين والفقهاء كل صنف قد انفرد بالتوسع في

علم فجاء فيه بما لم يجيء به غيره وكل منهم أخطأ وأصاب فالصوفية اتقنوا علم الاخلاق والآداب الدينية وحكم الشريعة واسرارها وطرق تزكية النفس واصلاحها — وهذا غرض الدين ومقصده فان كانوا قد غلوا وأتوا ببعض مايخالف النصوص ودخل في كتبهم وأعمالهم من تصوف الامم السالفة ومن البدع ماينكره الاسلام فالمتكلمون أيضا قد دخل في كتبهم مثل ذلك من الفلسفة اليونانية وغيرها من البدع المخالفة للنصوص ولما كان عليه السلف وكذلك الفقهاء قد دخل في كتبهم مثل ذلك بالرأي والقياس والاخذ بالاحاديث الضعيفة والموضوعة . وكل من في هذا العصر من المنتحلين لطرق الصوفية فهو منتم الى أحد مذاهب الفقهاء والمتكلمين فلو صلح حال المشتغلين بعلم الفقه لامكنهم إصلاح أهل الطريق، وأنى يصلح غيره من لم يصلح نفسه؟ وأنى يصلح نفسه أو غيره من اتخذ علم الدين حرفة للارتزاق به فهو يخدم ويطيع من يعتقد أو يظن أو يتوهم أن أمر رزقه بيده ولو فيما يغضب ربه وأمته ؟

من هذا البيان الوجيز المفيد يعلم السائل حقيقة التصوف وان له كتبا تشبه القوانين أكثر ما فيها منصوص أو مستنبط من الشرع أو غير مخالف له وبعضها بدع تلصق به إلصاقا بشبهات وتأويلات باطلة . وأحسن الكتب في تصوف الحقائق وأسلمها من مخالفة الكتاب والسنة فيما نعلم كتاب مدارج السالكين . وأما سؤال السائل عن وجه الحاجة اليه مع وجود الكتاب والسنة فجوابه إن علمي الكلام والفقه يشاركان التصوف في هذا السؤال وجوابه فكما شعر المدلون بالحاجة الى تصنيف الكتب في بيان أصول العقائد التي تستمد الى الكتاب والسنة للتمييز بينها وبين البدع وإثباتها بالادلة النظرية الفنية التي كانت مألوفة بانتشار كتب الفلسفة ورد شبهات المخالفين على هذه العقائد — وكما شعروا بالحاجة الى تدوين علم الاحكام الشرعية في العبادات والمعاملات لايضاح ماجاء في الكتاب والسنة من النصوص وما يمكن ان يستنبط منها ولو بطريق القياس الذي احتج على اثباته بعضها — كذلك شعروا بالحاجة الى تدوين الكتب لبيان طريقة التربية والتأدب بالآداب المنصوصة فيهما أو المستنبطة منهما والمفصلة لما فيهما من الاجمال. وقد قلنا آنفا إن ما وقع في كتب الصوفية من المخالفة لبعض نصوصهما وسيرة السلف الصالح الذين أجمعت كل الفرق على تفضيلهم وخيريتهم وقع مثله في

كتب المتكلمين والفقهاء . يعلم ذلك من كتب السنة ومن الكتب التي يرد فيها كل منهم على الآخر، والفقهاء المقلدون يوجبون طاعة شيوخهم الذين التزموا تقليد مذاهبهم ويجعلون كلامهم أصلا في الدين يردون به نصوص الكتاب والسنة بتأويل أو بغير تأويل كما يوجب المتصوفة طاعة شيوخهم المسلكين ويؤولون ما خالفوا فيه الشرع ولكن لا يقولون انه اصل في الدين يجب على الناس اتباعه شرعا بل شبهة هذه الطاعة عندهم ان التربية المرادة من سلوك الطريقة تتوقف على هذه الطاعة موقتا لا دائما وأن كلامهم في الحقائق رموز لا يفهمها غيرهم

وقد ذكر المحقق ابن القيم في كتابه (اعلام الموقعين) أمثلة كثيرة لما خالف فيه المقلدون للمذاهب المشهورة النصوص الصحيحة الصريحة المحكمة اتباعا لاقوال شيوخهم واحتجوا لهذه الاقوال بالاقيسة أو بجعل المتشابه أصلا للمحكم أو بأحاديث لا تصح ولا يحتج بها بحسب القواعد الاصولية ومنها ما احتجوا له بعبارة من حديث صحيح يردون باقيه المخالف للمذهب وهذا من عجيب أمرهم كما قال وقد أورد له ستة وستين شاهدا في الوجه التاسع عشر من وجوه الرد على المقلدين التي بلغت ٨١ وجها فليراجعها السائل ومن شاء في الفصل المعقود للكلام في القياس والتقليد من الجزء الاول من هذا الكتاب الجليل .

ثم انه عقد بعد هذا الفصل فصلا آخر في « تحريم الافتاء والحكم في دين الله بما يخالف النصوص وسقوط الاجتهاد والتقليد عند ظهور النص وذكر اجماع الفقهاء على ذلك » وقد أورد في هذا الفصل ٧٧ مثالا لرد أهل المذاهب السنة الصحيحة الصريحة المحكمة بالقياس أو بغير الصحيح أو بالمتشابه ، وذكر في الوجه الثامن منها بعض شبهاتهم ورد عليها باثنين وخمسين وجها كلها شواهد تؤيد ما ذكرناه

فاذا كان الامر كذلك فلماذا يخشى السائل كسوف شمس الشريعة في أفق الصوفية دون غيرهم وهو يعلم أن المنتحلين لطرق التصوف والمنتحلين لمذاهب الفقه لا تزييل بينهم ولا تمييز - فلا هؤلاء على هدي أئمة الفقه من علماء السلف كمالك والشافعي ، ولا وائك على هدي أئمة التصوف كالجنيد والشبلي وأمثالهم من عباد السلف. فالحق أن جميع الفرق لها حسنات وسيئات (ثلة من الاولين وقليل من الآخرين)

وأكثر مسلمي هذا العصر ضعفاء في الدين علما وعملا ولاسيما في البلاد التي ليس فيها حكومة اسلامية تقيم الحدود وتلتزم الشرع . والبلاد ذات الحكومة الاسلامية على قلتها بعضها شديدة التعصب لمذهب معين كالبلاد الافغانية المتعصبة لمذهب الحنفية وحكومة اليمن المتعصبة لمذهب الزيدية فهذان لا يرجى أن يكون فيهما اصلاح اسلامي عام لاستحالة اتباع جميع المسلمين لهذا المذهب أو ذاك — وبعضها شديد الغلو في العمل مع ضعف في العلم كبلاد نجد ولكن لهذه مزية لا نعرفها لبلاد أخرى من بلاد المسلمين في هذا العصر وهي أنهم وان كانوا منتمين الى مذهب الامام أحمد فلا نعرف جماعة من جماعات الاسلام غيرهم تقبل اتباع كل ماثبت في الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح وتدعو اليه. وترد ماخالفه وان قاله أو كتبه حنبلي مثلهم، ومع هذا يرميهم كثير من المسلمين بالابتداع والضلال ومنهم من يكفرهم كما يرمون بذلك من يدعو الى الكتاب والسنة من الافراد. وأي بلاء أشد على الاسلام من هذا؟ واذا قيض الله لهذه البلاد أن يتسع فيها العلم فانها تحيي الاسلام في جزيرة العرب ومن ثم يتجدد في سائر العالم فيعود الامر كما بدأ.

قال صلى الله عليه وسلم «بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء» رواه مسلم عن أبي هريرة والنسائي عن ابن مسعود وابن ماجه عنهما وعن أنس . وروى مسلم من حديث ابن عمر مرفوعا « ان الاسلام بدأ غريباً وسيعود كما بدأ ويأرز بين المسجدين كما تأرز الحية في جحرها » وفسر الغرباء في حديث آخر مرفوع بقوله «الذين يصلحون ما أفسد الناس بعدي من سنتي» رواه الترمذي من حديث عمرو بن عوف المزني. صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد عاد الاسلام غريباً كما بدأ حتى صار المسلم الحق المحيي للسنة غريبا مطعونا في دينه ، فاذا قوي هؤلاء الغرباء الذين يحيون ما أمات الناس من سنته (ص) واعتزوا بعد ضعفهم الذي هو عليه اليوم كما كان سلفهم في بدئه فان غربته تستتبع المجد والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين آخرا كما استتبعته أولا لاتحاد السبب

ان العالم الاسلامي ليئن من ضعف دينه وامتهان شعوبه بامتهانه ، وانه ليتبرم من سوء حال سادته وكبرائه والمتحلين لعلم الدين ومن جهل أكثرهم بما يجب من الخدمة في هذا العصر وقعودهم عنها حتى امتهنوا وسقطوا من مكانتهم الاجتماعية

وتفريق ما بأيديهم من مصالح الامة التي يعتد بها لوطنوا أنفسهم في بعض البلاد على الحرمان منها ورضوا بعدم مشاركة غيرهم حتى بالبحث فيها — وانه سيضطر سائر الازهر وأمثالهم من معممي سائر الاقطار الى الاصلاح الذي كانوا يقاومونه وانما يضطرهم الى ذلك باحتقاره لما هم عليه اليوم اذ قرب ان يزول ما كانوا يعتزون به من اتباع السواد الاعظم من العوام لهم وتقبيلهم لايديهم ومواساتهم بالهدايا والصدقات والوصايا، فقد كانوا اذا قام فيهم مصلح كالسيد الافغاني الحكيم والاستاذ الامام همسوا في آذان هؤلاء العوام : هذا معتزلي هذا فيلسوف هذا كافر يريد أن يفسد عليكم دينكم ، فحافظوا على تقاليدكم وموالدكم واستغاثتكم بأهل القبور الذين يتوسطون لكم عند الله بدفع النقم وحفظ النعم، التي جعلتكم وراء جميع الامم

نعم أوشك أن يزول ذلك بل زال الا قليلا وقد رأينا ما كان من تأثير موت الاستاذ الامام وموت غيره من أكابر الشيوخ الذين تولوا منصب الافتاء مثله وتولوا مالم يتول من مشيخة الازهر — اضطرب القطر المصري واهتز العالم الاسلامي كله لموت الاستاذ الامام باشد مما اضطربت بيوت أولئك الشيوخ لموتهم الذي لايكاد يشعر به وما ذلك الا لانهم كانوا يعيشون لانفسهم و بيوتهم وكان يعيش لامته وملته

سبقت الهند مصر وسورية والحجاز في احياء السنة علما وعملا وقد تمهدت العقبات امام مصر و بدت طلائع الاصلاح في نابتة الازهر ولكن الحركة فيه لاتزال بطيئة ولا تسرع بها الا صدمات المعارضة والمقاومة لها وحينئذ تجد من طلاب الاصلاح الديني والدنيوي أعوانا وأنصارا تجرئها و يتعاون رجال الدين ورجال المدنية على الاصلاح الاسلامي الديني المدني و يظهر صدق قولنا في المقصورة بعد التنويه بما قام به الاستاذ الامام من الاجتهاد في اصلاح الازهر

فان يك الازهر لم يصلح بها ... فقد نأى عن سبل من كان مأى (١)

ونبتت من غرسه نابتة ... تلام الصدع وترأب الثأى

وترفع الهمة عن المهد أو ... يعود جحر الضب حيث كنا (٢)

(١) مأى بالفتح تعمق أي بعد عن طرق المتأخرين المتنطعين المتعمقين في مباحث عبارات الكتب (٢) أي الى أن يعود جحر الضب الذي دخلوا فيه باتباع سنن =

اذاً يزال وهو قد أشفى الشفا من معضل بات به على شفا
نمت ولي المصلحون شطره يحدونه من كل فج ورجا
ماوردوا حياضه وصدروا الا يفيضون علوما وهدى
فاحيوا الاسلام في انفس من دانام بهجره صرف الردى
فساد آهلا الى موطنه من غربة طال بها عهد النوى
واستتبعت غربته المجد كما كان فساد الامر مثلما بدا

فتبين بهذا ان خوف السائل على الاسلام من بدع خلف المتصوفة هو من قبيل توقع الواقع وانما يتلافى هذا الواقع فيهم وفي غيرهم بتجديد يكون سريعا اذا أيدته حكومة اسلامية وبطيئا اذا لم يتح له ذلك في بدء التجديد. وانما يكون التجديد بالتعارف والتعاون بين الطائفة التي بشر النبي (ص) بأن أمته لا تخلو من وجودها فانها الآن متفرقة في البلاد مامن قطر الا وفيه أفراد منها ففي حديث ثوبان في الصحيحين وكتب السنن « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك » وفي معناه أحاديث أخرى

وأهم القواعد التي يجب بناء الاصلاح عليها هي

(١) الاعتراف باسلام كل مذعن لما أجمع عليه المسلمون من أمر الدين

(٢) بث دعوة العمل بهداية الكتاب والسنة الصحيحة وسيرة السلف الصالح فيهما كما أثبته دلاء الحديث بالاسانيد المعتمدة وترك ما خالفه من أنظار المتكلمين وآراء الفقهاء ولانزيد في أمور العبادات والحلال والحرام على ذلك ولا ننقص منه ، وقد بينا حجج هذه المسألة مرارا. وليس معنى هذا ان يكون المهتدي بذلك اماما مجتهدا بل ان يكون على بصيرة من دينه على طريقة السلف عوامهم وخواصهم مع الاستعانة على فهم النصوص بما فسرها به العلماء

(٣) عدم التعصب لبعض المذاهب على بعض وذلك بأن نعذر كل متبع لامام من أئمة السلف المجتهدين في حكم من الاحكام من أئمة آل البيت كزيد بن علي

= من قبلهم وأسما بسهولة الحنيفية السمحة: اشارة الى حديث ابي سعيد الخدري المتفق عليه « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم » هذا لفظ البخاري ولفظ مسلم « حتى لو دخلوا في جحر ضب لتبعتموهم »

والصادق والباقر وأئمة فقهاء الامصار كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وأئمة الصوفية كالجنيد ، وعلماء الصحابة والتابعين بالاولى. ولانكفر مسلما مذعنا بذنب ولابدعة ارتكبها بجهل أو بشبهة اتباع لمن أو بتأول. ومتى زال التعصب تكون المناظرة بين المختلفين في ذلك بالدليل الشرعي مع الادب والاحترام واتقاء الشقاق والتفرق بين المسلمين ، ويتبع دعاة الاصلاح في ذلك قاعدة الامام مالك: كل أحد يؤخذ من كلامه ويرد عليه الا صاحب هذا القبر- يعني النبي(ص) فلا يتعصبون لشخص معين غير الرسول صلوات الله وسلامه عليه ولا لجماعة غير الصحابة رضوان الله عليهم فما أجمعوا عليه فلا مندوحة عن اتباعه وما اختلفوا فيه يرجح فيه ما كان دليله أقوى والآخذون به من التابعين وسائر علماء السلف أكثر فانه قلما يسلم عالم مجتهد من شذوذ ينفرد به دون الجماعة فيعذر باجتهاده ولا يتبع فيه واننا نكتب في فرصة أخرى مقالا في شذوذ كبار العلماء الذين خالفوا الجمهور ليكون شرحا لقاعدة الامام مالك رحمه الله تعالى

(٤) الاستعانة بارشاد الكتاب والسنة على الاصلاح الدنيوي مع تحصيل العلوم والفنون التي ترتقي بها الزراعة والصناعة والتجارة والقوى الحربية فان هذا مفوض الينا بتلك الهداية التي نصت على أن الله خلق لنا ما في الارض جميعاً وامرتنا بأن نعد لحفظ دعوة الحق ما نستطيع من قوة . وقال رسولنا صلى الله عليه وسلم « انما انا بشر مثلكم اذا أمرتكم بشيء من أمر دينكم فخذوا به واذا أمرتكم بشيء من رأيي فانما أنا بشر » وقال « أنتم أعلم بامر دنياكم » رواهما مسلم في صحيحه

ولهذه المسائل تفصيل شرحناه في المنار مرارا بل كان المنار في جملته وتفصيله دعوة الى الاصلاح الاسلامي المبني على أساس اتباع جمهور السلف الصالح في أمور الدين رواية ودراية وعملا بلا زيادة ولا نقص ـ وبالبناء نبلغ مدّ أحدهم أو نصيفه ـ واتباع ما تقتضيه المصلحة ويثبته العلم والاختبار في أمور الدنيا مطلقين لاجتهادنا العنان فيه ـ وهذا اتباع للسلف فيما فهموه من هدي الكتاب والسنة أيضا كما يعرف من سيرتهم في فتح البلاد وانشاء الدواوين وغير ذلك مما دونته كتب العلوم والفنون والعمل بها. وهو مذهب امام دار الهجرة مالك ابن أنس كما بينه الشاطبي في الاعتصام وغيره (ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم)

﴿ شرح قاعدة لا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ﴾

٢

تتمة كلام شيخ الاسلام وهو في الاختلاف في الدين

ثم المختلفون المذمومون كل منهم يبغي على الآخر فيكفر بما معه من الحق مع علمه انه حق ، ويصدق بما مع نفسه من الباطل مع علمه بأنه باطل ، وهؤلاء كلهم مذمومون ولهذا كان اهل الاختلاف المطلق كلهم مذمومين في الكتاب والسنة فانه مامنهم الا من خالف حقا واتبع باطلا ، ولهذا أمر الله الرسل أن تدعو الى دين واحد وهو دين الاسلام ولا يتفرقوا فيه وهو دين الاولين والآخرين من الرسل واتباعهم قال تعالى (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ماتدعوهم اليه) وقال في الآية الاخرى (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا بما تعملون عليم * وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون * فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون) أي كتبا اتبع كل قوم كتابا مبتدعا غير كتاب الله فصاروا متفرقين مختلفين لان أهل التفرق والاختلاف ليسوا على الحنيفية المحضة التي هي الاسلام المحض الذي هو اخلاص الدين لله الذي ذكره الله في قوله (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ذلك دين القيمة) وقال في الآية الأخرى (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون * منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولاتكونوا من المشركين * من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون) فنهاه أن يكون من المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً وأعاد حرف «من» ليبين أن الثاني بدل من الاول والبدل هو المقصود بالكلام وماقبله توطئة له وقال تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم - الى قوله - ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم) فأخبر أن أهل الرحمة لايختلفون. وقد ذكر في غير موضع أن دين الانبياء كلهم الاسلام

كما قال تعالى عن نوح (وأمرت أن أكون من المسلمين) وقال عن ابراهيم (اذ قال ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون) وقال يوسف (فاطر السموات والارض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين) (وقال موسى ياقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين) وقال عن السحرة (ربنا افرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين) وقال عن بلقيس (رب اني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) وقال (يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار) وقال (واذ أوحيت الى الحواريين ان آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا وأشهد بأنا مسلمون) وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «انا معاشر الانبياء ديننا واحد» وتنوع الشرائع لا يمنع أن يكون الدين واحداً وهو الاسلام كالدين الذي بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم فانه هو دين الاسلام أولا وآخرا، وكانت القبلة في أول الامر بيت المقدس ثم صارت القبلة الكعبة، وفي كلا الحالين الدين واحد وهو دين الاسلام فهكذا سائر ما شرع للانبياء قبلنا ولهذا حيث ذكر الله الحق في القرآن جعله واحداً وجعل الباطل متعدداً كقوله (وأن هذا صراطاً مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) وقوله (اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) وقوله (اجتباه وهداه الى صراط مستقيم) وقوله (ويهديك صراطاً مستقيما) وقوله (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات) وهذا يطابق ما في كتاب الله من أن الاختلاف المطلق كله مذموم بخلاف المقيد الذي قيل فيه (ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر) فهذا قد بين أنه اختلاف بين أهل الحق والباطل كما قال (هذان خصمان اختصموا في ربهم) وقد ثبت في الصحيح انها نزلت في المقتتلين يوم بدر في حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي وعبيدة بن الحرث ابني عميه والمشركين الذين بارزوهم عتبة وشيبة والوليد بن عتبة

وقد تعددت كتب الاختلاف التي يذكر فيها مقالات الناس اما نقلا مجرداً مثل كتاب المقالات لابي الحسن الاشعري وكتاب الملل والنحل للشهرستاني ولابي عيسى الوراق أو مع انتصار لبعض الاقوال كسائر ما صنفه أهل الكلام

على اختلاف طبقاتهم فرأيت عامة الاختلاف الذي فيها من الاختلاف المذموم وأما الحق الذي بعث الله به رسوله وأنزل به كتابه وكان عليه سلف الأمة فلا يوجد فيها في جميع مسائل الاختلاف بل يذكر أحدهم في المسئلة عدة أقوال والقول الذي جاء به الكتاب والسنة لايذكرونه، وليس ذلك لانهم يعرفونه ولا يذكرونه بل لايعرفونه، ولهذا كان السلف والأئمة يذمون هذا الكلام ولهذا يوجد الحاذق منهم المنصف الذي غرضه الحق في آخر عمره يصرح بالحيرة والشك(١) اذا لم يجد في الاختلافات التي نظر فيها وناظر ماهو حق محض وكثير منهم يترك الجميع ويرجع الى دين العامة الذي عليه العجائز والاعراب كما قال أبو المعالي وقت السياق: لقد خضت البحر الخضم وخليت أهل الاسلام وعلومهم ودخلت في الذي نهوني عنه والآن ان لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني وها انااذا أموت على عقيدة أمي . وكذلك أبو حامد في آخر عمره استقر أمره على الوقف والحيرة بعد أن نظر فيما كان عنده من طرق النظار أهل الكلام والفلسفة وسلك ماتيسر له من طرق العبادة والرياضة والزهد وفي آخر عمره اشتغل بالحديث بالبخاري ومسلم ، وكذلك الشهرستاني مع أنه كان من أخبر هؤلاء المتكلمين بالمقالات والاختلاف وصنف فيها كتابه المعروف بنهاية الاقدام في علم الكلام وقال : قد أشار علي من اشارته غنم، وطاعته حتم ، ان اذكر له من مشكلات الاصول ، ماأشكل على ذوي العقول، ولعله استسمن ذاورم. ونفخ في غير ضرم،

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر الا واضعاً كف حائر على ذقن أو قارعاً سن نادم

فاخبر انه لم يجد الا حائراً شاكا مرتاباً أو من اعتقد ثم ندم لما تبين له خطأه فالاول في الجهل البسيط (ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها) وهذا دخل في الجهل المركب ثم تبين له انه جهل فندم، ولهذا تجده في المسائل يذكر أقوال الفرق وحججها ولا يكاد يرجح شيئاً للحيرة، وكذلك الآمدي الغالب عليه الوقف في الحيرة . وأما الرازي فهو في الكتاب الواحد بل في الموضع منه ينصر قولا وفي موضع آخر منه أو من كتاب آخر ينصر نقيضه. ولهذا استقر أمره على الحيرة والشك ، ولهذا لما ذكر ان أكمل العلوم العلم بالله

(١) المنار: اي الشك في الترجيح بين المسائل الكلامية والفلسفية لا في أصل الاسلام

وبصفاته وأفعاله ذكر على أن كلا منهما اشكال (١) وقد ذكرت كلامه وبينت ما أشكل عليه وعلى هؤلاء في مواضع فان الله قد أرسل رسله بالحق وخلق عباده على الفطرة فمن كمل فطرته بما أرسل الله به رسله وجد الهدى واليقين الذي لاريب فيه ولم يتناقض ولكن هؤلاء أفسدوا فطرتهم العقلية وشرعتهم السمعية بما حصل لهم من الشبهات والاختلاف الذي لم يهتدوا معه الى الحق كما قد ذكر تفصيل ذلك في موضع غير هذا

والمقصود هنا انه لما ذكر ذلك قال: ومن الذي وصل الى هذا الباب، ومن الذي ذاق من هذا الشراب

نهاية اقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وقال: «لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلا، ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ـ أقرأ في الاثبات (اليه يصعد الكلم الطيب ـ الرحمن على العرش استوى) وأقرأ في النفي (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ـ ولا يحيطون به علما) ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي» وهو صادق فيما أخبر به انه لم يستفد من بحوثه في الطرق الكلامية والفلسفية سوى أن جمع قيل وقالوا وانه لم يجد فيها ما يشفي عليلا أو يروي غليلا، فان من تدبر كتبه كلها لم يجد فيها مسألة واحدة من مسائل أصول الدين موافقة للحق الذي يدل عليه المنقول والمعقول بل يذكر في المسألة عدة أقوال والقول الحق لا يعرفه فلا يذكره. وهكذا غيره من أهل الكلام والفلسفة ليس هذا من خصائصه فان الحق واحد ولا يخرج عما جاءت به الرسل وهو الموافق لصحيح العقل وفطرة الله التي فطر عليها عباده. وهؤلاء لا يعرفون ذلك بل هم (من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً) وهم مختلفون في الكتاب (وان الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد)

وقال الامام أحمد في خطبة مصنفه الذي صنفه في محبسه في الرد على الزنادقة

(١) المنار: كتب مصحح الكتاب في المطبعة الاميرية: هكذا في الاصل. لعل في الكلام نقصا أو تحريفا اه ونقول لعل الاصل: ذكر أن كلا منها عليه اشكال ـ أو ـ ذكر أن على كل منها اشكالا

والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأوله على غير تأويله قال: «الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل الى الهدى، ويصبرون منهم على الاذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله أهل الضلالة والعمى، فكم من قتيل لابليس قد أحيوه، وكم من تائه ضال قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس وما أقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين. الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عنان الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب متفقون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يلبسون عليهم.» وهو كما وصفهم رحمه الله فان المختلفين أهل المقالات المذكورة في كتب الكلام اما نقلا مجرداً للاقوال واما نقلا وبحثاً وذكر اللجدال مختلفون في الكتاب كل منهم يوافق بعضاً ويرد بعضاً ويجعل مايوافق رأيه هو المحكم الذي يجب اتباعه وما يخالفه هو المتشابه الذي يجب تأويله أو تفويضه وهذا موجود في كل مصنف في الكلام. اه

*

هذا ما أحببنا نقله من كلام شيخ الاسلام في هذا المقام وقد أطال بعده في وصف المتكلمين وخلافهم وفضل الاشعري على غيره في معرفة الفرق ومذاهبها وذكر خلاف الفلاسفة أيضا . ونصر مذهب السلف بالعقل والنقل على مذاهب جميع المتكلمين والفلاسفة. ولا يهولنك تخطئة هذا الرجل لجميع أولئك الاساطين من الفلاسفة والنظار غرورا بشبهة الشيطان انه لا يعقل ان يكون هو أعلم منهم أو أذكى حتى يكون أحق بالصواب وأولى. فالرجل ليس صاحب مذهب مخترع تعارضت أدلته مع أدلة هذه الفرق واشتبه علينا الامر حتى نرجح قوله على كل منها أو نرجح غيره عليه؛ بل هو ناصر مذهب جمهور السلف الصالح بالادلة العقلية التي انخدع بنظرياتها كل من شذ عنه قليلا أو كثيرا، وأساس مذهبهم الايمان بكل ماجاء في كتاب الله وصح عن رسوله على الوجه الذي كان عليه خير الامة قبل افتتانها بالنظريات التي فرقتها شيعاً. ونحمد الله أن سخره لما من هدم كل ماخالف السلف من تلك النظريات بأدلة من جنسها هي أقوى منها وأثبت بالبرهان أن صريح المعقول لا يناقض صحيح المنقول ، وتضمن هذا اثبات ان هذا الدين من عند الله اذ لو كان من عند الرسول أو غيره لما في نظريات المتكلمين والفلاسفة

وكان المتأخر أصح رأيا فيه من المتقدم

وقد استوفى الرد على أولئك المخالفين للسلف من المنتسبين الى مذاهب السنة والمبتدعة والفلاسفة في كتابه (موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول) واني انقل منه هنا ما ختم به الوجه السابع من الوجوه التي تكلم فيها على تقديمهم العقل على النقل عند التعارض وهو :

(تفنيد ابن تيمية لقول المتكلمين بتقديم النظريات العقلية على النصوص السمعية)

والمقصود هنا التنبيه على أنه لو سوغ للناظرين أن يعرضوا عن كتاب الله تعالى ويعارضوه بآرائهم ومعقولاتهم لم يكن هناك أمر مضبوط يحصل لهم به علم ولا هدى فان الذين سلكوا هذه السبيل كلهم يخبر عن نفسه بما يوجب حيرته وشكه والمسلمون يشهدون عليه بذلك فثبت بشهادته وإقراره على نفسه وشهادة المسلمين الذين هم شهداء الله في الارض انه لم يظفر من أعرض عن الكتاب وعارضه بما يناقضه بيقين يطمئن اليه ولا معرفة يسكن بها قلبه والذين ادعوا في بعض المسائل أن لهم معقولا صريحا يناقض الكتاب قابلهم آخرون من ذوي المعقولات فقالوا ان قول هؤلاء معلوم بطلانه بصريح المعقول فصار ما يدعى معارضة للكتاب من المعقول ليس فيه ما يجزم بأنه معقول صحيح اما بشهادة أصحابه عليه وشهادة الامة واما بظهور تناقضهم ظهورا لا ارتياب فيه واما لمعارضة آخرين من أهل هذه المعقولات لهم، بل من تدبر ما يعارضون به الشرع من العقليات وجد ذلك مما يعلم بالعقل الصريح بطلانه والناس اذا تنازعوا في المعقول لم يكن قول طائفة لها مذهب حجة على أخرى بل يرجع في ذلك الى الفطر السليمة التي لم تتغير باعتقاد يغير فطرتها ولا هوى فامتنع حينئذ أن يعتمد على ما يعارض الكتاب من الاقوال التي يسمونها معقولات وان كان ذلك قد قاله طائفة كبيرة لمخالفة طائفة كبيرة لها ولم يبق الا أن يقال ان كل انسان له عقل فيعتمد على عقل نفسه وما وجده معارضا لاقوال الرسول صلى الله عليه وسلم من رأيه خالفه وقدم رأيه على نصوص الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ومعلوم أن هذا أكثر ضلالا واضطرابا فاذا كان فحول النظر وأساطين الفلسفة الذين بلغوا في الذكاء والنظر الى الغاية وهم ليلهم ونهارهم يكدحون في معرفة هذه العقليات ثم لم يصلوا فيها الى

معقول صريح يناقض الكتاب بل اما الى حيرة وارتياب واما الى اختلاف بين الاحزاب فكيف غير هؤلاء ممن لم يبلغ مبلغهم في الذهن والذكاء ومعرفة ماسلكوه من العقليات

فهذا وأمثاله مما يبين أن من أعرض عن الكتاب وعارضه بما يناقضه لم يعارضه الا بما هو جهل بسيط أو جهل مركب فالاول (كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب) والثاني (كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) وأصحاب القرآن والايمان في نور على نور قال تعالى (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم ٭ صراط الله الذي له ما في السموات وما في الارض ألا الى الله تصير الامور) وقال تعالى (الله نور السموات والارض مثل نوره) الى آخر الآية وقال تعالى (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون) فأهل الجهل البسيط منهم أهل الشك والحيرة من هؤلاء المعارضين للكتاب المعرضين عنه، وأهل الجهل المركب أرباب الاعتقادات الباطلة التي يزعمون أنها عقليات وآخرون ممن يعارضهم بقول مناقض لتلك الاقوال هو العقليات ومعلوم أنه حينئذ يجب فساد أحد الاعتقادين أو كليهما والغالب فساد كلا الاعتقادين لما فيهما من الاجمال والاشتباه وأن الحق يكون فيه تفصيل يبين أن مع هؤلاء حقا وباطلا ومع هؤلاء حقا وباطلا والحق الذي مع كل منهما هو الذي جاء به الكتاب الذي يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه والله أعلم اه

[المنار] كل مؤمن سليم الفطرة صحيح العقل اذا قرأ هذا يجزم بأنه الحق، وانه يجب على المسلمين أن لا يغتروا بشهرة أحد من المتكلمين ولا الصوفية ولا الفقهاء الذين خالفوا السلف فيما نقله ثقات المحدثين عنهم من أمر الدين، وانما نعذر كل عالم في اجتهاده اذا ثبت من سيرته اخلاصه لله تعالى وان قصده تأييد الشرع ولكن لانتبع أحدا فيما خالف هدي السلف الصالح ونحن نعذر ممتمسكين (؟) على نقل ثقات المحدثين دون آراء المختلفين. وهذا منتهى الاصلاح في الدين.

تاريخ فنون الحديث

٣

المستدرك على الصحيحين للحاكم

قد أودع الحافظ محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري(١) في كتابه المستدرك ماليس في الصحيحين مما رأى أنه على شرطهما أو شرط أحدهما (٢) أو ماأدى اجتهاده الى تصحيحه وان لم يكن على شرط واحد منهما مشيراً الى القسم الاول بقوله هذا حديث على شرط الشيخين أو على شرط البخاري أو على شرط مسلم والى القسم الثاني بقوله هذا حديث صحيح الاسناد وربما أورد فيه مالم يصح عنده منبهاً على ذلك وهو متساهل في التصحيح وقد لخص الحافظ الذهبي (٣) مستدركه وأبان مافيه من ضعيف أو منكر وهو كثير وجمع جزء في الاحاديث الموضوعة التي وجدت فيه فبلغت حوالي مائة. قال الذهبي : في المستدرك جملة وافرة على شرطيهما أو شرط أحدهما ولعل مجموع ذلك نحو نصف الكتاب وفيه نحو الربع مما صح سنده وفيه بعض الشيء وما بقي وهو نحو الربع فهو مناكير واهيات لاتصح وفي بعض ذلك موضوعات

وهذا الامر مما يتعجب منه فان الحاكم كان من الحفاظ البارعين في هذا الفن ويقال أن السبب في ذلك أنه صنفه في أواخر عمره وقد اعترته غفلة وقال الحافظ ابن حجر انما وقع للحاكم التساهل لانه سود الكتاب لينقحه فعاجلته المنية ولم يتيسر له تحريره وتنقيحه

وقال كثير من المحدثين ان ماانفرد الحاكم عن أئمة الحديث بتصحيحه يبحث عنه ويحكم عليه بما يقتضي به حاله من الصحة أو الحسن أو الضعف اه

«١» توفي سنة ٤٠٥ «٢» قال النووي المراد بقول المحدثين على شرطهما أو على شرط أحدهما ان يكون رجال الاسناد في كتابيهما أو في كتاب أحدهما لانه ليس لهما شرط في كتابيهما ولا في غيرهما (٣) سنة ٧٤٨

المستخرجات على الصحيحين

قبل أن نذكر المستخرجات على الصحيحين نذكر معنى الاستخراج فنقول الاستخراج أن يعمد حافظ الى صحيح البخاري مثلا فيورد أحاديثه واحداً واحداً بأسانيد لنفسه غير ملتزم فيه ثقة الرواة ــ من غير طريق البخاري الى أن يلتقي معه في شيخه أو فيمن فوقه اذا لم يمكن الاجتماع معه في الاقرب وربما ترك المستخرج أحاديث لم يجد له بها اسناداً مرضياً وربما علقها عن بعض رواتها وربما ذكرها من طريق صاحب الاصل وقد اعتنى كثير من الحفاظ بالتخريج وقصروا ذلك في الاكثر على الصحيحين لكونهما العمدة في هذا الفن .

وللمستخرجات فوائد منها ماقد يقع فيها من زوائد في الحديث لانهم لايلتزمون الفاظ المستخرج عليه ومنها علو الاسناد اذ رواية الحديث عن صاحب المستخرج عليه أبعد من روايته عن طبقته أو شيوخه وقد يقع فيها التصريح بالسماع مع كون الاصل معنعناً أو بتسمية مبهم في الاصل ولا يحكم للزيادات الواقعة في المستخرجات بالصحة الا اذا كان سند المستخرج الى الشيخ الذي التقى فيه مع مصنف الاصل صحيحاً متصلا . وقد يطلق التخريج على عزو الحديث الى من أخرجه من الأئمة كقولنا أخرجه البخاري للحديث الذي يوجد في صحيحه

ومن الكتب المستخرجة على جامع البخاري المستخرج لابي نعيم أحمد بن عبد الله الاصبهاني (١) والمستخرج لابي بكر أحمد بن ابراهيم الاسماعيلي (٢) والمستخرج لابي بكر أحمد بن محمد البرقاني شيخ الفقهاء والمحدثين (٣)

ومن المستخرجات على صحيح مسلم تخريج أحمد بن حمدان النيسابوري (٤) وتخريج ابي عوانة الاسفرائني (٥) وتخريج أبي نصر الطوسي (٦) والمسند المستخرج على مسلم للحافظ أبي نعيم الاصبهاني (٦)

المجتبى لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (٧)

لما صنف النسائي سننه الكبرى أهداها الى أمير الرملة فقال له أكل مافيها صحيح فقال فيها الصحيح والحسن وما يقاربهما فقال ميز لي الصحيح من غيره

١، توفي سنة ٤٣٠ ، ٢، سنة ٣٧١ ، ٣، سنة ٤٢٥ ، ٤، سنة ٣١١ ، ٥، سنة ٣١٦ ، ٦، سنة ٣٤٤ ، ٧، ٣٠٣

فصنف له السنن الصغرى وسماه المجتبي من السنن ،

ودرجته في الحديث بعد الصحيحين لانه أقل السنن بعدهما ضعيفاً وأما سننه الكبيرة فكان من طريقته أن يخرج فيها عن كل شخص لم يجمع على تركه . واذا نسب الى النسائي رواية حديث فانما يعنون روايته في مجتباه وقد شرح المجتبي شرحا وجيزاً الحافظ جلال الدين السيوطي (١) وكذلك شرحه أبو الحسن محمد ابن عبد الهادي السندي الحنفي (٢) اقتصر فيه على حل مايحتاج اليه القارئ والمدرس من ضبط اللفظ وايضاح الغريب والاعراب شأنه في شرح الكتب الستة على أن شرحه أوسع من شرح السيوطي (*) وقد شرح سراج الدين عمر بن علي بن الملقن الشافعي زوائده على الصحيحين وأبي داود والترمذي في مجلد

سنن أبي داود سليمان بن أشعث السجستاني (٣)

قال أبو سليمان الخطابي في كتابه معالم السنن اعلموا رحمكم الله أن كتاب السنن لابي داود كتاب شريف لم يصنف في علم الدين كتاب مثله وقد رزق القبول من كافة الناس فصار حكما بين فرق العلماء وطبقات الفقهاء على اختلاف مذاهبهم فلكل منه ورد ومنه شرب (**) وعليه معول أهل العراق وأهل مصر وبلاد المغرب وكثير من أقطار الارض . قال أبو داود رحمه الله كتبت عن رسول الله (ص) خمسمائة الف حديث فانتخبت منها أربعة آلاف حديث وثمانمائة ضمنتها هذا الكتاب ذكرت الصحيح ومايشبهه ويقاربه ويكفي الانسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث أحدها قوله (ص) « الاعمال بالنيات » والثاني قوله (ص) « من حسن اسلام المرء تركه مالايعنيه » والثالث قوله (ص) « لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يرضى لاخيه مايرضى لنفسه » والرابع « الحلال بين والحرام بين » الحديث وقال ما ذكرت في كتابي حديثاً أجمع الناس على تركه وما كان به من حديث فيه وهن شديد فقد بينته ومنه مالا يصح سنده . ومالم أذكر فيه شيئاً فهو صالح وبعضها أصح من بعض ، وهو كتاب لا ترد عليك سنة عن النبي (ص) الا وهي فيه ولا أعلم شيئاً بعد القرآن الزم للناس أن يتعلموه من هذا الكتاب ولا يضر رجلا أن لا يكتب من العلم شيئاً بعد ما يكتب هذا الكتاب الى آخر كلامه في رسالته

(*) طبع المجتبى مع شرحيه هذين في الهند (**) الشرب بالكسر كالورد وهو بمعنى المنهول أي مايورد ومايشرب (١) توفي سنة ٩١١ (٢) « سنة ١١٣٨ (٣) « سنة ٢٧٥

الى أهل مكة . وقد اشتهر هذا الكتاب بجمعه لاحاديث الاحكام وفيه كثير من المراسيل وكان يحتج بها من تقدم الشافعي كسفيان الثوري ومالك والاوزاعي

﴿شروحها﴾ شرح هذه السنن كثيرون من أفاضل العلماء شرحها الامام الخطابي (١) في كتابه معالم السنن وقطب الدين أبو بكر اليمني الشافعي (٢) في أربع مجلدات كبار وابو زرعة أحمد بن عبد الرحيم العراقي (٣) كتب من شرحه سبع مجلدات الى أثناء سجود السهو وشرح زوائده على الصحيحين ابن الملقن في مجلدين وشرح السنن شهاب الدين الرملي (٤)

مختصراتها قد اختصرها زكي الدين المنذري (٥) واسمى مختصره المجتبى وقد شرحه السيوطي بكتابه زهر الربا على المجتبى وهذب المختصر ابن قيم الجوزية الحنبلي (٦) وشرح مهذبه شرحا جيلا ذكر فيه أن الحافظ المنذري قد أحسن في اختصاره فهذبته نحو ماهذب هو به الاصل وزدت عليه من الكلام على علل سكت عنها اذ لم يكلها وتصحيح أحاديثه والكلام على متون مشكلة لم يفتح مقفلها وقد تبسطت الكلام على مواضع لعل الناظر لايجدها في كتاب سواه

قال ابن كثير في مختصر علوم الحديث أن الروايات لسنن أبي داود كثيرة يوجد في بعضها ماليس في الاخرى

الجامع الصحيح لمحمد أبي عيسى الترمذي (٦)

قال ابو عيسى الترمذي رحمه الله تعالى عرضت هذا الكتاب على علماء الحجاز والعراق وخراسان فرضوا به واستحسنوه وقال ما أخرجت بكتابي هذا الا حديثاً قد عمل به بعض الفقهاء فعلى هذا كل حديث احتج به محتج أو عمل بموجبه عامل أخرجه سواء صح طريقه أو لم يصح لكنه تكلم على درجة الحديث وبين الصحيح منه والمعلول كما ميز المعمول به من المتروك وساق اختلاف العلماء فكتابه لذلك جليل القدر جم الفائدة كما انه قليل التكرار

﴿شروحه﴾ قد شرحه محمد بن عبد الله الاشبيلي المعروف بابن العربي المالكي (٨) وأسمى شرحه (عارضة الاحوذي في شرح الترمذي) وشرحه الحافظ محمد بن محمد الشافعي (٩) شرح نحو ثلثيه في عشر مجلدات ولم يتمه وقد كمله زين الدين

(١) توفي سنة ٣٢٨ (٢) سنة ٦٥٢ (٣) سنة ٨٢٦ (٤) سنة ٨٤٨ (٥) سنة ٦٥٦ (٦) سنة ٧٥١ (٧) سنة ٢٧٩ (٨) سنة ٥٤٦ (٩) سنة ٧٣٤

عبد الرحيم بن حسين العراقي (١) وشرحه عبد الرحمن بن احمد الحنبلي في عشرين مجلدا وقد احترق شرحه في الفتنة وكذلك شرحه السيوطي والسندي وشرح زوائده على الصحيحين وابي داود عمر بن علي بن الملقن (٢)

﴿ مختصراته ﴾ منها الجامع لنجم الدين محمد بن عقيل (٣) ومختصر الجامع لنجم الدين سليمان بن عبد القوي الطوفي الحنبلي (٤)

سنن محمد بن يزيد بن ماجه القزويني (٥)

عد بعض الحفاظ أصول السنة خمسة يعني كتب البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبي داود وعدها بعض آخر ستة بضم سنن ابن ماجه الى الخمسة السالفة وأول من فعل ذلك ابن طاهر المقدسي (٦) ثم الحافظ عبد الغني (٧) في كتاب الاكمال في أسماء الرجال وانما قدموا سنن ابن ماجه على الموطأ لكثرة زوائده على الخمسة بخلاف الموطأ . قال بعض المحدثين ينبغي ان يجعل السادس كتاب الدارمي فانه قليل الرجال الضعفاء نادر الاحاديث المنكرة والشاذة (٨) وان كان فيه أحاديث مرسلة وموقوفة . وقد جعل بعض العلماء كرزين السرقسطي (٩) سادس الكتب الموطأ وتبعه على ذلك المجد بن الاثير في كتاب جامع الاصول وكذا غيره

قال الحافظ المزي ان كل ما انفرد به ابن ماجه عن الخمسة فهو ضعيف ولكن قال الحافظ ابن حجر انه انفرد بأحاديث كثيرة وهي صحيحة فالاولى حمل الضعف على الرجال

شروح سنن ابن ماجه : شرحها كمال الدين محمد بن موسى الدميري الشافعي (١٠) في خمس مجلدات واسمى شرح الديباجة ولكنه مات قبل تحريره وشرحها ابراهيم ابن محمد الحلبي (١١) وجلال الدين السيوطي في شرحه مصباح الزجاجة وكذلك السندي وقد شرح سراج الدين عمر بن علي بن الملقن زوائده على الخمسة في ثمان مجلدات وسمى شرحه ما تمس اليه الحاجة على سنن ابن ماجه

---

(١) توفي سنة ٨٠٤ (٢) سنة ٨٠٤ (٣) سنة ٧٢٩ (٤) سنة ٧١٠ (٥) سنة ٢٧٣ (٦) سنة ٦٠٠ (٧) بعد سنة ٦٠٠ (٨) الحديث المنكر ما كان في سنده كثير الغلط أو غافل عن الاتقان أو فاسق والشاذ ما خالف فيه الثقة من هو أرجح منه (٩) توفي سنة ٥٣٥ (١٠) سنة ٨٠٨ (١١) سنة ٨٤١

باقي كتب السنة الصحيحة غير الكتب الستة

مما أسلفت يتبين لك ان الصحيحين لم يستوعبا كل الصحيح وكذلك الإصول الخمسة أو الستة وان كان الزائد عليها قليلا قال الامام النووي الصواب قول من قال انه لم يفت الاصول الخمسة الا النزر اليسير. وها نحن أولاء ندلي اليك بباقي الكتب الشهيرة الجامعة للصحيح في القرنين الثالث والرابع

فنها صحيح محمد بن اسحاق بن خزيمة النيسابوري(١) وصحيحه أعلى مرتبة من صحيح ابن حبان تلميذه لشدة تحريه حتى انه يتوقف في التصحيح لأدنى كلام في الاسناد. ومنها صحيح أبي حاتم محمد ابن حبان البستي(٢) واسم مصنفه التقاسيم والانواع والكشف على الحديث منه عسر لانه غير مرتب على الابواب ولا المسانيد وقد رتبه ابن الملقن وجرد أبو الحسن الهيثمي زوائده على الصحيحين في مجلد وقد نسبوا لابن حبان التساهل في التصحيح الا أن تساهله أقل من تساهل الحاكم في مستدركه. ومنها صحيح أبي عوانة يعقوب ابن اسحاق (٣) وصحيح المنتقى لابن السكن سعيد ابن عثمان (٤) وسنن الامام الحافظ علي بن عمر البغدادي الشهير بالدارقطني (٥) والمنتقى في الاحكام لابن الجارود عبد الله ابن علي «٦» والمنتقى في الآثار لقاسم ابن أصبغ محدث الاندلس «٧».

كتب الاطراف

كتب الاطراف هي ما تذكر طرفا من الحديث يدل على بقيته وتجمع أسانيده اما مستوعبة أو مقيدة بكتب مخصوصة فمن ذلك

أطراف الصحيحين للحافظ ابراهيم بن محمد بن عبيد الدمشقي (٨) ولابي محمد خلف بن محمد الواسطي (٩) قال الحافظ بن عساكر وكتاب خلف أحسنهما ترتيبا ورسما وأقلهما خطأ ووهما. وهو في دار الكتب السلطانية أربع مجلدات — ولابي نعيم أحمد بن عبد الله الاصفهاني (١٠)— وللحافظ أبي الفضل أحمد

«١» توفي سنة ٣١١ «٢» سنة ٣٥٤ «٣» سنة ٣١٦ «٤» سنة ٣٥٣ «٥» سنة ٣٨٥ «٦» ٣٠٧ «٧» سنة ٣٤٠ «٨» سنة ٤٠٠ «٩» سنة ٤٠٠ «١٠» سنة ٥١٧

ابن علي بن حجر العسقلاني وأطراف السنن الاربعة لابن عساكر الدمشقي (١) في ثلاث مجلدات مرتباً على حروف المعجم واسمه الاشراف على معرفة الأطراف

وأطراف الكتب الستة لمحمد بن طاهر المقدسي (٢) جمع فيه أطراف الصحيحين والسنن الاربعة قال ابن عساكر في مقدمة كتابه الاشراف سبرته واختبرته فظهرت فيه أمارات النقص والفيته مشتملا على أوهام كثيرة وترتيبه مختل. لهذا عمل كتابه الاشراف ولهذا السبب أيضاً لخصه الحافظ محمد بن علي الحسيني الدمشقي (٣) ورتبه أحسن ترتيب واسم كتاب المقدسي اطراف الغرائب والافراد، وللحافظ يوسف بن عبد الرحمن المزي (٤) أطراف الكتب الستة أيضاً وفيه أيضاً أوهام جمعها ابو زرعة أحمد ابن عبد الرحيم (٥) وقد اختصر أطراف المزي الذهبي (٦) كما اختصره أيضاً محمد بن علي الدمشقي الآنف ذكره ولابن الملقن الاشراف على أطراف السنة .

ولابن حجر اتحاف المهرة باطراف العشرة يعني الكتب الستة والمسانيد الاربعة في ثماني مجلدات . وقد أفرد منه تأليفه المسمى بأطراف المسند المعتلي يقع في مجلدين

دور التهذيب بعد القرن الرابع

ان جمع السنن من أفواه الرواة والنظر في رجال الاسانيد وانزالهم منازلهم وبيان عليل الحديث من صحيحه كاد ينتهي بانتهاء القرن الرابع كما انطفأت اذ ذاك جذوة الاجتهاد وركن الناس الى التقليد في الدين فأكثر الكتب التي تجدها بعد ذلك العصر سلكت مسلك التهذيب أو جمع الشتيت وبيان الغريب ، أو نحت منحى الابداع والترتيب أو طرقت سبيل الاختصار والتقريب وجل من تكلم في الاسانيد بعد المائة الرابعة كان عالة على مادونه أئمة الحديث في القرون السالفة

ولا يسبقن الى ذهنك — وأنت الفطن اللبيب — أنه لم يسبق القرن الخامس جمع وتهذيب فان ذلك قد وجد ولكن لم يشع شيوعه بعد القرن الرابع ونحن من سنتنا في هذه الرسالة مراعاة الامور الدائمة ولا نلتفت لليسير النادر

«١» توفي سنة ٥٧١ «٢» سنة ٥٠٧ «٣» سنة ٧٦٥ «٤» سنة ٨٤٢ «٥» سنة ٨٢٠ «٦» سنة ٧٤٨

أهم الكتب الجامعة لمتون الحديث في دور التهذيب

الجمع بين الصحيحين قد جمع كثير من الافاضل بين صحيحي البخاري ومسلم ومن هؤلاء محمد بن عبد الله الجوزقي (١) واسماعيل بن أحمد المعروف بابن الفرات (٢) ومحمد بن أبي نصر الحميدي الاندلسي (٣) وربما زاد زيادات ليست فيهما وحسين بن مسعود البغوي (٤) ومحمد بن عبد الحق الاشبيلي «٧» وأحمد بن محمد القرطبي المعروف بابن أبي حجة «٥»

الجمع بين الكتب الستة قد جمع بينها عبد الحق بن عبد الرحمن الاشبيلي المعروف بابن الخراط «٦» وقطب الدين محمد بن علاء الدين المكي «٧» وكتابه مرتب مهذب

وأبو الحسن رزين بن معاوية العبدري السرقسطي «٨» في كتابه تجريد الصحاح ولكنه لم يحسن في ترتيبه وتهذيبه وترك بعضاً من أحاديث الستة فلما جاء أبو السعادات مبارك بن محمد المعروف بابن الاثير الجزري الشافعي «٩» هذب كتابه ورتب أبوابه وأضاف اليه ما أسقطه من الاصول وشرح غريبه وبين مشكل الاعراب وخفي المعنى وحذف اسانيده ولم يذكر الاراوي الحديث من صحابي أو تابعي كما ذكر المخرج له من الستة ولم يذكر من أقوال التابعين والأئمة الا النادر ورتب أبوابه على حروف المعجم وسماه جامع الاصول لاحاديث الرسول فجاء كتاباً فذا في بابه لم ينسج أحد على منواله فقرب الينا البعيد وسهل علينا العسير وهو بدار الكتب السلطانية المصرية في عشرة أجزاء صغيرة ولعل الله يسوق اليه من يبرزه الى عالم المطبوعات فيسدى بذلك الى طلاب الحديث معروفاً جميلا. وقد اختصر هذا الجامع كثيرون منهم محمد المروزي «١٠» وهبة الله ابن عبد الرحيم الحموي «١١» وعبد الرحمن بن علي المعروف بابن الديبع الشيباني الزبيدي «١٢» وهو احسن المختصرات وقد طبع حديثاً بمصر ويقع في ثلاثة أجزاء ولابي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزبادي «١٣» زوائد عليه سماها تسهيل الوصول الى الاحاديث الزائدة على جامع الاصول وان في هذا وما قبله لغنية عن كتب الحديث الاخرى وكفاية

«١» توفي سنة ٣٨٨ «٢» سنة ٤١٤ «٣» سنة ٤٨٨ «٤» سنة ٥١٦ «٥» سنة ٥٨٢ «٨» سنة ٦٤٢ «٦» سنة ٥٨٢ «٧» سنة ٩٩٠ «٨» سنة ٥٣٥ «٩» سنة

نقد مشروع تعميم التعليم الاولي

نشرنا في ج ٧و٨ من م٢١ تقريراً لمشيخة الازهر في نقد تقرير لجنة التعليم الاولي بوزارة المعارف لهذا المشروع . وقد طبع في هذه الايام تقرير آخر في شأن هذا التقرير لصديقنا عبد الله افندي أمين ناظر مدرسة المعلمين للتعليم الاولي في مديرية الجيزة وهو ممن طلب مراقب التعليم العام منهم ابداء آرائهم فيه وقد رأينا أن نقتبس بعض فصول هذا التقرير المفيدة ولما كان الفصل الاول منه قد عقد لنقد تسع فقرات بينت فيها اللجنة سوء حال التعليم العام في القطر المصري ووجه الحاجة الى تعميم التعليم الاولي رأينا أن ننشر أولا هذه الفقرات وهي التي انتقدها ونقفي عليه بنشر رأيه فيها وفي كل منهما فوائد ذات قيمة ثمينة لمن يعنيهم أمر التربية والتعليم . قالت اللجنة مخاطبة وزير المعارف :

الفقرات ٤—١٢ من تقرير اللجنة

٤ — ونعم ماقالت معاليكم في فاتحة جلسات هذه اللجنة حين بينتم أن « فشو الجهل بين جمهور الامة يؤثر تأثيراً سيئاً في حال البلاد ، وأن ضرره لايقتصر على اضعاف الافراد وتأخيرهم بل يكون مانعاً كبيراً وعائقاً عظيما في سبيل الرقي الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ويقضي على أعظم ضروب الاصلاح في مهدها فلا تثمر ثمرتها مادام معظم من يشملهم نفعها لايفهم حقيقتها ولا يدري كيف يستفيد منها »

(٥) والامثلة على ذلك كثيرة متوافرة في جميع فروع الاعمال الادارية لان الحكومة تضطر في جميع أعمالها الى أن تسبق بمراحل واسعة حال التعليم التي عليها جمهور الامة . فنها:

في الزراعة : الوسائل التي تتخذ لمنع قلة محصول القطن — مقاومة دودة القطن ودودة اللوز — اتباع الطرق واستعمال الآلات الحديثة في الزراعة — ادخال أصناف جديدة من المزروعات في البلاد — توسيع نطاق التعاون في الشئون الزراعية — زيادة العناية بالحيوانات — توخي الطرق الفنية في استعمال الاسمدة الخ

في الصحة العمومية : نشر القوانين الصحية الاولية بين الناس فيما يتعلق بهم وبعنازلهم والبلدان التي يقطنون بها - تحسين حال المساكن - وضع تصميمات للمدن والقرى - تقرير أنظمة لتنظيف المدن والقرى - اصلاح موارد مياه الشرب - تقليل نسبة الوفيات في الاطفال - تحسين وسائل العناية بالنساء والاطفال من الوجهة الطبية - التدابير التي تتخذ عند انتشار الامراض المعدية وغيرها مما يستدعي السرعة في تداركه - استئصال شأفة الامراض المتاصلة في البلاد كالبول الدموي (البلهارسيا) والرمد

في الاشغال العمومية : المصارف - اصلاح البور من الاراضي - تعمير الاراضي غير المسكونة - انفاذ أوامر المناوبات وغيرها من أعمال الري

في التعليم : ترقية أبسط أنواع التعليم الزراعي والفني

في الامن العام: ضبط الجرائم والتبليغ عنها ويدخل في ذلك الرشوة - منع اجرام الاحداث وصيانتهم من الفسق - منع سم المواشي - مقاومة الهرب من الخدمة العسكرية والعمل على اصلاح الجيش والشرطة (البوليس) - اصلاح طرق الردع بالعقوبة -

في القضاء : انشاء محاكم الاخطاط وغير ذلك مما له أثر في اصلاح القضاء

في الادارة : توسيع سلطة مجالس المديريات والمجالس البلدية في ادارة شئون البلاد - توسيع نطاق الضرائب المحلية - الاستعانة في المسائل الفنية بمشورة المصالح الاميرية المختصة - الاحتياط لمنع نشوب الحريق بالقرى - اقناع الجمهور بفوائد التدابير التي تتخذها الحكومة كقانون خمسة الافدنة ونحوه - انشاء محلقات القطن - تحديد مقدار الاراضي التي تخصص بزراعة القطن - تسعير المواد الغذائية - انفاذ أوامر لجنة مراقبة التموين - قانون المستنقعات والبرك الخ

في الشؤون الاقتصادية : بث روح الاقتصاد والعمل على تقليل ديون الفلاحين - مقاومة كنز الاموال بلا تثمير - توسيع نطاق صناديق الادخار (التوفير) وأعمال المصارف (البنوك) التجارية - رفع شان الزراع والتجار المصريين حتى يستغنوا عن الوسطاء من الافرنج - ترقية الصناعات - تأسيس صناعات جديدة الخ

في الشؤون الاجتماعية : ترقية شان المرأة - الاهتمام بالاطفال - مقاومة الشحاذة والشرود (التشرد) - تحسين أحوال المعيشة في بلاد الارياف والترغيب فيها

هذه أمثلة عدة - لا نحتاج في سردها الى خبرة خاصة - وهي قليل من كثير من وجوه الاصلاح الاداري والاجتماعي التي تقوم بها الحكومة الان . وجلي أن أول عامل يتوقف عليه نجاحها انما هو تحرير الشعب من رق الجهل وانتشاله(١) من هوة الامية

(٦) وقد جاء في ملحق السير إلدن غورست بكتاب «انجلترا في مصر» تأليف اللورد ملنر بعد ان تكلم على عدم بلوغ الحكومة النجاح المنشود في بعض فروع الادارة ما ترجمته «على ان السبب الحقيقي يرجع الى ما هو أبعد من ذلك ..... وليس هناك علاج ناجع دائم الاثر الا النهوض بالشعب عامة وتهذيبه . وانما يكون ذلك باتهاج خطة سديدة في التعليم سداها بعد النظر ولحمتها الخبرة السياسية» (صفحة ٤١٣)

(٧) وقال المسيو شارليتي مدير التعليم العام في تونس في خطبة ألقاها بمؤتمر افريقية الشمالية سنة ١٩٠٨ ما يأتي «ان التقدم الاقتصادي مرتبط بجميع شؤون الحياة على اختلاف أشكالها . بيد أن الناس لا يستطيعون الوصول الى هذا التقدم والانتفاع بمزاياه الا اذا تربوا تربية تسهل لهم فهم كنهه وتقربه من أذهانهم . فان مسألة التعليم من أدق الامور وأشقها وخاصة في بلد يجب فيه قبل بلوغ أسباب الحضارة الحديثة اجتياز جميع مراحل الطريق الطويلة التي خلفتها عصور الجهل المطبق . فاذا لم يتيسر حل هذه المسألة حلا تاما فلا أقل من الاقتراب من ذلك الحل باتخاذ جميع الوسائل التي يتناولها التعليم والتهذيب والقدوة الحسنة»

٨ وقال الدكتور لورنس بولز الذي كان يشغل وظيفة نباتي بوزارة الزراعة في كتابه «مصر وطن المصريين» صفحة ٢١٤ ما ترجمته: «ان ما لارض مصر من الخصب والقوة لا يزال كامنا دفينا اذ هي لم تخط بعد خطوات تذكر نحو القيام بعملها الطبيعي وهو انتاج المحصولات الزراعية وارسالها الى العالم بأسره ...... ومما لا يعتوره شك أن وادي النيل سيصير في يوم من الايام من أعظم الممالك الزراعية محصولا لان به من مختلف الاجواء ما يناسب كل نوع من أنواع المحصولات المختلفة باختلاف تربة الجهة التي تنمو فيها ويربطها جميعا نهر النيل الذي هو منبع وجودها ومصدر حياتها . ومن هذه البقاع ما ستبقى الزراعة فيه أزمانا طويلة الامد على الحال الفطرية التي تشاهد في الغابات . ومنها ما يرقى حتى ينتج أنفس المحصولات

(١) المنار: النشل والانتشال في العربية أخذ اللحم من القدر وله آلة عقفاء تسمى المنشالة ويطلق النشل على أخذ اللحم عن العظام أيضا ويستعمله كتاب الجرائد من أمثالهم من المعاصرين بمعنى الانقاذ من هلكة حسية أو معنوية ولهذا المعنى في اللغة كلمة فصيحة وهي الانتياش قال ابن دريد :

ان ابن ميكال الامير انتاشني من بعد ما قد كنت كالشيء اللقا

ونحن الى الآن لم نألف افتقار الاعمال الزراعية الى المهارة الفنية. غير أن مشاهدة ورقة بديعة من تبغ هافانا أو القطن الذي يكفي الرطل منه لصنع خيط طوله ٢٠٠ ميل أو النباتات التى تزرع خاصة لاستخراج العقاقير الطبية تكفي لاقناع كل متردد فى عظيم فائدة المهارة الفنية فى الزراعة وجليل اثرها . فالزراعة التي من هذا القبيل ـ أي الزراعة التي تحتاج الى مهارة فنية ـ لها في مصر من الاحوال الملائمة ماليس فى مملكة أخرى . وقد يرى في بديهة الامر أن في هذا القول شيئاً من الغلو ولكننا لم نقله جزافا...... ولكي تنتفع مصر بهذه المزايا الطبيعية يجب أن يكون بها من العمال من يستطيعون أن يعملوا بعقولهم وأيديهم معاً لذلك لا نكون مبالغين اذا قلنا بان حاجات المستقبل ستكون كفيلة بايجاد طائفة جديدة راقية من المصريين أي بايجاد شعب يجمع توقد القريحة الى ما كان لاجداده من قوة الاجسام» وليس هذا الانتقال المنتظر في المستقبل مقصورا على القطر المصري. فان وزارة المعارف الانجليزية تقول في رسالة عنوانها «مسألة المدارس الريفية» ان عصر القوى العضلية قد فات ونحن الآن في عصر انبثق فيه فجر العقول »

٩ — وقد قدم للحكومة أخيراً تقريران من لجنتين ألفتا بامرها : الاولى برئاسة حضرة صاحب المعالي اسماعيل صدقي باشا للنظر في توسيع نطاق التجارة والصناعة ، والثانية برئاسة جناب اللفتننت كولونل بلفور للنظر في تعديل نظام مصلحة الصحة العمومية بمصر. وجلي أن ضروب الاصلاح المقترحة في هذين التقريرين ستلقى في الخطوة الاولى من انفاذها عقبات كبيرة لجهل الناس غاياتها النبيلة

١٠ — فقد جاء في تقرير لجنة توسيع نطاق التجارة والصناعة ما يأتي :

«ان ما سبق لنا ذكره من البيان المختص بالصناعات الصغرى المصرية لهو حجة قائمة وشاهد ناطق على ما بالبلاد من النقص الذي تئن منه أنين الشكلى وترزح تحت أثقاله . فان خلو الاعمال من النظام والترتيب واستهانة العمال باتقان عملهم من الامور الدالة على ضعف التعليم ونقص تهذيب الاخلاق ....

«فاذا سأل سائل ماحال القطر من حيث التعليم العام والتربية الخلقية كان الجواب ان أقل بحث في هذا الموضوع يكفي للحكم بأن ما يتبع الآن من الخطط في التربية والتعليم في مصر يقصر عن الوصول بالبلاد الى الغرض السامي المقصود منهما وعن النهوض بها من الوجهة الخلقية . اذ مما لا نزاع فيه مطلقاً أن التعليم لم يعم حتى الآن جميع طبقات الامة وأن التربية المنزلية لا تقتصر مساوئها على

نقصها وتمكينها الغرض المنشود بل انها مبنية على أساس فاسد غير وطيد الاركان، فهي بدلا من تعويد النشء النظام وحسن التدبير تولد في نفوسهم الاسراف وسوء الادارة في الاعمال . وهي تبث فيهم روح الكسل والاهمال وتصرفهم عن الجد والنشاط . وهي تغرس فيهم التردد في الامور أو قلة العناية بها وعدم النظافة وما أشبه ذلك من النقائص التي تقف حجر عثرة في سبيل تقدم البلاد من الوجهة المعنوية وبذا تعوق تقدمها من الوجهة الحسية أيضاً

«ولما كان من واجب هذه اللجنة اقتراح جميع الوسائل التي تؤدي الى أقصى درجات الرقي الاقتصادي فهي تتشرف بلفت نظر الحكومة الى ضرورة الاسراع في انفاذ مشروعها المختص بتعميم التعليم الاولي وتوجيه مزيد العناية اليه . وترى اللجنة أيضاً أن من الواجب عليها التنبيه الى ضرورة بذل مزيد العناية بأمر التربية وتقويم الاخلاق واصلاح أحوال البيئة المنزلية خاصة فان تربية المرأة في هذا المقام من عوامل رقي الامة بأسرها»

١١ — وأوردت لجنة النظر في تعديل نظام الصحة العمومية قولا موجزاً في وصف الحال الحاضرة في مصر فقالت : «من المعلوم أنه لا يتيسر رفع شعب من الشعوب الى المنزلة التي فيها يعرف لنفسه حقها مادام الجو الذي يعيش فيه ملوثاً بالاقذار . فاننا اذا أجلنا النظر في أنحاء مصر وجدنا أن معظمها تعلوه الاوساخ وتحط فيه رحالها الاقذار . فهي كما كانت في قديم الزمان ملطخة بالامراض على اختلافها ولا أمل في أن يقوم أهلها بما عليهم من رفع شأن بلادهم ما دامت الامراض تثقل عواتقهم وتخيم على رؤسهم . ان نسبة الوفيات في الاطفال رائعة فثلث أبناء الامة يموت وهو في سن الطفولة وغضارة الحياة . هذا الى أن انتشار الحشرات والهوام بين الفلاحين لم يقل على الرغم مما ثبت حديثاً من أن القمل وسيلة لنقل التيفوس والحميات الراجعة التي تفتك بالاهلين فتكا ذريعاً»

وقد اشارت اللجنة بوجوب «شن غارة شعواء للقضاء على الجهل والقذارة واستئصال شأفة المرض والبؤس» ومما يلفت النظر أنها ذكرت الجهل أولا ولم تعلق أملا كبيراً على اصلاح الحال الصحية اصلاحا وافياً بالغرض بتلقين أسباب ذلك لمن بلغوا سن الحلم فقد قالت :

«فان الحقائق التي وقفنا عليها تدل دلالة واضحة على أن رجال فرقة العمال المصريين بعد أن يقضوا مع الجيش مدة يضطرون فيها الى مراعاة أنظمة صحية خاصة لا يكادون يرجعون الى مواطنهم بالقرى الا وهم عائدون الى سيرتهم الاولى . فتراهم لايعمدون الى بث شيء في نفوس قومهم مماتعلموه من أسباب النظافة . وكفى بتاريخ الجيش المصري دليلا على أن ذلك ليس من الغرابة في شيء. فان الجندي المصري بالرغم من تدربه على النظام والترتيب ووقوفه تمام الوقوف على الطرق الصحية المتبعة في المعسكرات والثكنات لايكاد يرجع الى قريته الا وهو مندمج في غمار عشيرته من الفلاحين فلا يمكن تمييزه منهم »

وختمت اللجنة قولها في هـذا المقام بأن أوضحت أن أنجع وسيلة يرجى منها إصلاح الحال لاتكون إلا بالبدء بتعليم الطفل « فان الطفل المتعلم قد يصبح أستاذا لوالديه غير المتعلمين ويكون بمثابة النواة الاولى التي تنبت منها على مدى الايام عوامل رقي الفلاح» .

١٢ — وقد نشرت جريدة (الاخبار) بعددها الصادر في ٢٨ ابريل سنة ٩١٧ مقالة بقلم صحفي مصري (علمونا القراءة أولا) وصف فيها الكاتب حال الفلاح المصري وصفا ممتعا لايخلو من المبالغة وبين فيها أن مصر لا تحتاج الى جامعات جديدة بل الى نشر التعليم الاوّلي بين جمهور أهلها . قال مانصه :

«السواد الاعظم من الامة المصرية من الفلاحين لابسي الجلابيب الزرقاء وأكثر هؤلاء (والحمد لله) لايعرفون القراءة والكتابة . أما الافراد القلائل المقيمون في عواصم القطر فلا يعتد بهم لقلة عددهم بالنسبة لمجموع الامة . فاذا أراد واحد من الفلاحين أن يكتب صكا أو جوابا لايجد من يكتبه له فيضطر أن يسافر من قرية الى أخرى حتى يعثر بشخص يعرف كيف يفك الخط . وكتابة مثل ذلك الشخص لايفك رموزها الا عالم من علماء الآثار القديمة كالعلامة شامبليون الذي تمكن من قراءة الخط الهيروغليفي :

(نحن المصريين لانعرف من أصول الصحة شيئا. وكل من ذهب الى احدى القرى أو العزب يشتم قبل أن يصل اليها بيضعة أميال الروائح الذكية (في أنوف سكانها) المتصاعدة من أكوام السباخ الفائقة كاهرام الجيزة صنع أجدادنا وهي

تحيط بالقرية أو العزبة من كل جهاتها . ويرى مجاري جامع القرية ذات المنظر الجميل تجري الى الترعة التي يشرب منها أهل القرية بدون اشمئزاز . ويرى شكل القرى الكئيب والمنازل المتلاصقة ذات الابواب الضيقة والغرف التي ليس بها منافذ ويرى الفلاح نائما هو وأولاده بجانب جاموسته لا فرق بين الجميع .

« ومن المضحك المبكي أن اسم الدكتور عند الفلاحين كاسم عزرائيل عند المتمدنين . فاذا أتى الدكتور الى بلدة ترى المرضى اختفوا بأسرع من لمح البصر إما أن يحملوا الى جهة في الغيط بعيدة أو يدفنوا في قش الارز أو حطب القطن المكوم على الاسطح . ولا يفهم الفلاح (طبعا) شيئا اسمه ميكروب أو عدوى . ومع أنه لا شئ أكثر من الماء عند الفلاحين تجد أكثرهم قذرا وسخا وكأنه يخشى أن يخلع ملابسه فتحملها تلك المخلوقات الشريفة وتهرب بها لكثرة ما يلاقها بهرشه وكرشه فهو دائما أبدا في قلبها .

« ليس في الدنيا فلاح يحافظ على تقاليد الفلاحة القديمة من عهد قدماء المصريين أو من عهد أبينا آدم الا الفلاح المصري . فلو بعث فلاح من أيام الفراعنة لرأى أخاه فلاح اليوم لم يخن الامانة ولم يمد يده الى آلة من آلات الزراعة التي سلمها اليه بتغيير أو تعديل . فالمحراث والشادوف والطنبور والنطالة الخوص كلها بحالتها العتيقة كما تركها له . ووجده أيضا لم يغير شيئا من طرق الزراعة القديمة فلم يتفنن أو يجتهد ولم يحسن نوعا من أنواع المواشي أو المحاصيل ولا يزال طعمة التاجر والمرابي مهما سنت الحكومة من القوانين الحامية .

« فهل ينتظر من هذا الفلاح وهو كل الامة المصرية أن يقبل على الجامعات التي تدرس الفلسفة والتاريخ او يقرأ الجرائد والمجلات العلمية أو يعلم ما تريد أن تعلمه اياه الحكومة بمنشوراتها أولوائحها ؟ والى أي شيء تحتاج الامة المصرية إذن لترتقي وتعد في مصاف الامم الحية وما هو الدواء الذي يشفيها من مرض الجهل فتصبح أمة وكل فرد من أفرادها يعرف القراءة والكتابة فتتفتح أذهانها وتتعلم وترتقي ؟

« (أظن أن كل فاضل من القراء يفهم ذلك الدواء) »

وهناك جرائد مصرية أخرى ألحت على الحكومة مرارا وصاحت بوجوب الشروع

في تعميم التعليم الاولي والمسارعة الى ذلك حتى تستطيع أن تخطو فيه خطوات واسعة في القريب العاجل» . انتهى نص الفقرات الثلاث مع تصحيح عبارات قليلة صحفية من مقالة الاخبار ويليها ما كتبه عبدالله افندي أمين فيها وهو

التعليم الاولي والاصلاح

نقد الفقرات ٤ و٥ و٦ و٧ و٨ و٩ و١٠ و١١ و١٢

حاولت اللجنة في هذه الفقرات أن تقيم الادلة على ماجاء في الفقرة الرابعة منها من أن « فشو الجهل بين جمهور الامة يؤثر تأثيراً سيئاً في حال البلاد وان ضرره لايقتصر على إضعاف الافراد وتأخيرهم بل يكون مانعاً كبيراً وعائقاً جسيما في سبيل الرقي الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ويقضي على أعظم ضروب الاصلاح في مهدها فلا تثمر ثمرتها مادام معظم من يشملهم نفعها لايفهم حقيقتها ولا يدري كيف يستفيد منها » .

***

ومراد اللجنة من هذا الكلام إقناع أولي الامر بوجوب الاسراع في تعميم التعليم الاولي فحسب . وهو مراد شريف جليل ، غير انه شغلها عما سواه فقاتها أن تقصير الاهالي في قيامهم بنصيبهم من اصلاح الحكومة الاقتصادي والاجتماعي والسياسي لقصور مداركهم ، ليس أكبر من تقصير الحكومة نفسها وهي رشيدة عليمة وبينها وبين الشعب « هوة لاتعبر » (أنظر ١٤ و١٥) في قيامها بنصيبها وحدها من الاصلاح نفسه

ولا شك أن قواعد الاصلاح وأصوله كلها ما كان منها من عمل الحكومة وحدها وما كان منها من عمل الشعب وحده ، كسلسلة متصلة الحلقات يأخذ بعضها بأطراف بعض ويقوي بعضها بعضاً . فلو أن الحكومة كانت مثالا لشعبها فقامت بنصيبها من الاصلاح لكان لهم فيها أسوة حسنة

ولغرس هـذا النصيب في نفوسهم سروراً عظيما به وشوقا الى القيام بنصيبهم من الاصلاح

ولو أن الحكومة أكثرت من مستشفيات الامراض ومستشفيات الارماد المتنقلة والثابتة وانشأت حمامات ومناسل وأحواضاً لخزن المياه وترويقها في القرى لأقبل عامة الشعب على هذه المنشآت اقبالهم الآن وقبل الآن على ما أنشيء من مستشفيات الرمد وهو عظيم جدا، ولآثروها على طب الشعوذة والتجارب الاهليـة الناقصة الفاسدة وعلى الاستحمام وغسل الثياب في مياه الترع والمصارف الراكدة وعلى شرب ماء النيل العكر وأصلح ذلك من أجسامهم ونفوسهم وعقولهم أكبر اصلاح لما فيه من وسائل حفظ الصحة ومن الانصراف عن العادات السيئة والتجارب السخيفة والاعتقاد الفاسد فيها .

ولو أن الحكومة قدرت مثلا مكافأة لمن يبتدع مادة رخيصة جداً اذا مزجت بالتراب جعلته صلباً صقيلاً ترصف به الارض وتيسر لها رصف الطرق الزراعية الرئيسية وغرست على جانبيها الاشجار الضخمة لدفعت عن الشعب عادية التراب وما يحمل من جراثيم الامراض المختلفة وأظلته فدفعت عنه حرارة الشمس ، ولبثت بذلك في نفوس الاهالي يقظة وانتباهاً لامور هم في أشـد الحاجة اليها — انتباهاً لا يمكن أن يكون بالنصح والأوامر وحدها

ان وسائل تربية الشعوب وتهذيبها كثيرة جدا . وكثير من هذه الوسائل من عمل الحكومات وهي أقدر على القيام بها من الاهالي وأولى بها منهم . غير أن سكوت الحكومة وتراخيها وحاجة البلاد الظاهرة الى

العمل النافع فيها يدفع من لا يقوى على الانتظار من أبناء الامة العاملين المخلصين الى القيام بما تحتاج اليه البلاد غير ناظر ولا منتظر المسئول عنها، وان اعترضته في سبيلها العقبات من قبل استمداد الاهالي أو امتعاض الحكومات وحسبنا دليلا على ذلك ماقام به مجلس مديرية الجيزة المحترم من انشائه مستوصفين متنقلين في انحاء المديرية سنة ١٩١١م أيام رئيسه المفطور على الاخلاص والصراحة والغيرة والحزم والعزم والثقة بالنفس وحب الاصلاح حضرة صاحب العزة عبد الرحمن فهمي بك

أنشأ المجلس المحترم حينئذ هذين المستوصفين المتنقلين لما كان يتوقعه من الآثار الجليلة التي يتركانها في صحة الاهالي وأخلاقهم وعاداتهم وعقائدهم وما أعظم ماتركا من ذلك ! فان الذين عولجوا فيهما يعدون بالالوف . ولعل مصلحة الصحة تذكر ذلك. وقد كانت أحق بهذا العمل منه غير أنها سكتت ولا تزال ساكتة حتى مل الانتظار ونفد الصبر

ان اللجنة تعلم علما يقينيا أن التعليم وحده لا يصلح النفوس. فقد نقلت في الفقرة (٢١) من (المستر لكي) قوله « أجل ان التربية العقلية المحضة لاتحدث تغيراً أساسياً في خلق الرجال » وتعلم أن الامة لاتغير مابها حتى تغير مابنفوسها ، فلا بد للحكومة الرشيدة التي توصف بأن بينها وبين عامة الشعب « هوّة لاتعبَر » من أن تسعى جهد السعي في البحث عن العلاج الناجح لتغيير شعبها مابنفوسه — شعبها المخلص الذي ضربت له اللجنة مثلا الشعب الهندي اذ نقلت في الفقرة (١٩) من التقرير . « وأعني بهم الملايين من الفلاحين الفقراء المساكين الصابرين الاذلاء متين »

وما تلك الوسائل النافعة ؟ تلك الوسائل هي الاصلاح الفعلي كإنشاء المستشفيات وترويق المياه وغيرها، لا النصائح القولية والاوامر الكتابية التي لاتغير من نفس ولا تحيي من عمل. لقد آن للحكومة الرشيدة أن تعدل عن الخطة العتيقة البالية وهي الامساك عن وسائل الاصلاح الفعلية خوف زيادة الضرائب ولو زيادة طفيفة تقدر بالمليم، وتعمد الى خطة المعلم الماهر والمربي الحاذق فتكون مثالا حسنا في الاصلاح لشعبها فتأخذ بنصره أخذاً صحيحا الى منازل النفع الحقيقية في الجسم والنفس والعقل من أقرب الطرق وأقومها وألا تظن أن نشر التعليم الاولي يكفي وحده لهداية الشعب وارشاده الى وجوه الاصلاح وحضه عليها من غير أن تقوم هي بالامثلة العملية منها فتوفي نصيبها من الاصلاح حقه

انها ان ظنت ذلك وعولت في كل ماتريد من وجوه الاصلاح على التعليم الاولي وحده وركنت اليه وألقت العبء كله عليه، خابت الآمال وضاع الوقت سدًى

التعليم الاولي والعالي
علم الحاكمين وجهل المحكومين
نقد الفقرات ٢ و ٧٤ و ١٢٥

استكثرت اللجنة في الفقرة (١٢٥)[1] من التقرير ماينفق على التعليم العالي

(١) [نص الفقرة ١٢٥] ليس الامر مقصورا على قلة مجموع الاعتمادات المخصصة بالتعليم بميزانية الحكومة بالنسبة لما في معظم البلاد الاجنبية بل ان معظم تلك الاعتمادات ينفق على التعليم الراقي الذي لاينتفع به سوى طائفة صغيرة ممتازة من الامة لاتدفع سوى قسم ضئيل من النفقات التي يتطلبها تعليم أبنائها . أما سكان الاقاليم الذين تتوقف ثروة البلاد على كدهم ونصبهم فلا يكادون ينالون قسطا من التعليم في مقابل الضرائب

بجانب ماينفق على التعليم الاولي. وانكرت في الفقرة (٢٤)[1] من الخطة التي انتهجتها الحكومة المصرية — وهي متبعة في البلاد من عهد المرحوم محمد علي باشا واضع أساس النهضة الحديثة لمصر ورافع لوائها — بتعليمها الطبقة

التي يقع معظمها على كاهلهم

وإذا استثنينا الاعانة التي تمنح المكاتب في المحافظات ومديرية أسوان وقدرها ٧٣٠٠ جنيه وما ينفق على مدارس المعلمين والمعلمات الاولية الاربع وهو ٢٨٨٠٢ من الجنيهات وصافي ماينفق على المدرسة الاولية الراقية للبنين والمدرسة الاولية الراقية للبنات وقدره ٤٠٠٠ جنيه وصافي ما ينفق على ثلاثة المصانع (الورش) الاميرية وهو ١٨٠٠٠ جنيه والاعانة المخصصة ببعض مدارس صناعية غير تابعة للحكومة وقدرها ١٠٤١٠ جنيهات — اذا استثنينا كل هذه المقادير ومجموعها ٦٨٠٠٠ جنيه أمكن القول بأنه لم يدرج شيء في ميزانية الحكومة لسنة ١٩١٨ — ١٩١٩ لتعليم طبقات الشعب. على أن معظم هذه المقادير يصرف في مدينتي القاهرة والاسكندرية. ثم ان الثمانية والستين من آلاف الجنيهات التي تصرف في تعليم أبناء الشعب يقابلها ٤٩٠٠٠ جنيه تحصل من ايراد الاراضي والعقار الموقوف للانفاق على المكاتب الاهلية . أي أن ما تنفقه الحكومة في الحقيقة من ايراداتها الخاصة في كل سنة على تعليم الشعب نحو ١٩٠٠٠ جنيه فقط

[نص الفقرة ٢٤] قال المستر أسكويث «ان الحكم على مقدار رقي الامة وفوزها في مضمار الحياة يجب أن يبنى على مايتوافر لدى أدنا طبقاتها من الامور الحسية والمعنوية » ويرى أنه لم يبن الحكم على ماوصل اليه القليلون من خيرة أفراد الامة الذين ضربوا في التعليم الراقي بسهم . فاذا أردنا الوقوف على مايتوافر لدى أدنى طبقات الامة المصرية من الامور الحسية والمعنوية وجب علينا أن نلقي نظرة الى انتشار الاكواخ المقذرة المبنية من الطين التي تضم بين جدرانها الانسان وبهيمته والى شيوع القذارة والاوساخ وفشو العلل والامراض وهلاك ثلث الابناء في طفولتهم وانتشار الامية بحال رائعة تعادل ٩٦ في المائة من السكان وضيق المجال أمام الافراد وانتصار

الراقية للأمة التعليم العالي قبل تعليمها عامة الشعب (التعليم الاولي بلا شك) وعدت عملها هذا عملا مقلوبا وضربت لذلك مثلا قول (السير كلنتن دوكنز) في الفقرة (٢)[1] «ان التعليم الاولي في مصر شبيه بهرم مقلوب رأسه الى أسفل »

كدم على القوت اليومي . فهل الى ترقية تلك الاحوال في الامة المصرية من سبيل سوى تعميم التعليم؟ لا . ومن العبث الاعتقاد بأنه يمكن الوصول الى الرقي المنشود بالبدء بتعليم الطبقات الراقية قبل عامة الشعب أو بالاعتماد على ما يحدث من التأثر الذي ينشأ من اختلاط الطائفة القليلة المتعلمة بطبقات الشعب الجاهلة بل ان الضرورة تقضي بالنهوض با لتعليم العام وتتطلب نشر نور العرفان في الامة بأسرها .

قال الشاعر بروننج في قصيدته المعنونة براسلسس مامعناه بالعربية

كتبت على لوح الحقيقة حكمة ان الرقي شريعة الاحياء
مالي أرى الانسان يغمض عينه عن نور تلك الحكمة الزهراء
ألمجد حتى صار أهلا لاسمه ان حق فخر الناس بالاسماء
أم نال ما تصبو اليه طباعه من درك أعلى ذروة العلياء
أم أعمل المكنون من قواته كي يملأ الدنيا من النعماء
أني يتوج بالكمال ولم يزل في العلم معظمه من الفقراء
وكأن أهل العلم بين سواده بعض النجوم الزهر في الظلماء
أو بضعة من نسل عوج حولهم جمع من الاقزام والضعفاء

١) [نص الفقرة ٢] لم يعزب عن أذهاننا من بادئ الامر أن الموضوع يتضمن اعتبارات عدة عظيمة الشأن . فقد قال اللورد مورلي العالم والسياسي الشهير : « ان مسائل التعليم الاهلي كيفما تنوعت طرق حلها ذات اتصال بحياة الامم وفنائها » وقال اللورد كرزن أيام كان حاكما على الهند : « ان طبيب الامة الحقيقي هو ذلك الذي يصف لها أنجع وسيلة لتربية أبنائها » . وتناول كل من اللورد كرومر في كتابه « مصر الحديثة »

فكان هذا الاستكثار من اللجنة مع ذلك الانكار المقرون بهذا المثال نصالا حادة تتناولها الحكومة اذا شاءت ومتى شاءت لتخزبها التعليم العالي وأدلة واضحة جلية على أن الاقاويل والآراء التي نقلتها اللجنة الى تقريرها عن كبار المستعمرين قد تركت فيها أثراً جعلها ترى التعليم العالي بعين جنبية لا تستطيع أن ترى بها محل الحاجة وموضع النفع.

وان من يحسن الظن باللجنة كل الاحسان - مثلي - لا يجد لما فيها يتلمس من المعاذير الا عذراً واحداً وهو ما يخيل الى المفكر في أول الامر من أن البدء بتعليم الولد الصغير التعليم الاولي ثم التنقل به بعد ذلك في مراحل التعليم الارقى موافق سنة النشوء والارتقاء. أجل ان ذلك حق واضح. لكن لا بد معه للولد من وصي رشيد يقلبه كيف يشاء وينقله من حال الى حال كما يريد. وان ذلك الوصي الرشيد يجب ان يكون منه

والسير ألدون غورست في الملحق الذي ذيل به كتاب اللورد ملنر وهو « انجلترا في مصر » البحث في وجوب اتباع خطة سديدة في التربية ترمي الى تحسين حال الامة عامة من الوجهتين العقلية والخلقية (انظر الفقرتين ٦ و١٥) . وقال السير كلنتن دوكنز في ملحقة لكتاب اللورد ملنر (صفحة ٣٩١) : « ان التعليم بمصر شبيه بهرم مقلوب رأسه الى أسفل » . والحقيقة أن حال مصر المالية كانت الى عهد قريب تمنع من اعداد وسائل التعليم على اختلاف فروعه ومن سد حاجة الامة اليه سداً وافياً وقد أوثر انفاق ما يمكن بذله من المال في هذه السبيل على توسيع نطاق التعليم ذي الصبغة الاوربية الذي يتلقاه أبناء الاغنياء. فكانت النتيجة أن تعليم العامة لم يوجه اليه من عناية أولي الامر الا النزر اليسير. لذلك رأينا أن واجبنا غير مقصور على درس موضوع التعليم الاولي من حيث كونه مسألة قائمة بذاتها منعزلة عن سواها وانه لا بد لنا من مراعاة ارتباطه بالخطة القويمة التي تتبع في التعليم بوجه عام ،

ليكون اخبر بحاجاته ومنافعه ومضاره

وان الامة لكذلك يجب ان يكون فيها ومنها ناس كبار العقول يقودونها الى السعادة ويرفعونها الى أوج العظمة . لذلك كان تعليم طبقة راقية من الامة علما راقيا قبل تعليم عامة الشعب العلم القليل موافقا لسنة النشوء والارتقاء في الامم ، وقد ضرب لنا التاريخ امثلة كثيرة قديمة وحديثة دالة على ان أمما كثيرة نهضت من عثارها ونشطت من عقالها بأفراد منها . فالعناية بتكوين افراد افذاذ في الامة تكوينا فائقا احق واولى بالتقديم من تعليم عامة الشعب تعليما اعظم مايقال فيه انه اولي

هذا ما نراه ونشعر به ولم يسعدنا الحظ قط بان سمعنا او قرأنا ان امة بأسرها امسكت عن التعليم العالي جملة حتى تعلمت كلها التعليم الاولي ثم اخذت بعد في اسباب التعليم العالي ، وان اوتيت اوصياء حكماء زعماء بصراء اقوياء من الاجانب

على ان التعليم العالي لا يزال جنينا في بلادنا ، فأين بضع مدارس اميرية عالية تدرس فيها بعض العلوم العالية من جامعات كبيرة تدرس فيها كل علوم البشر ا مع ان العلم الذي يدرس في مدارسنا العالية لم يكن له في البلاد من اثر ظاهر نافع الا ما كان من علم الطب

لقد كان للجنة التي رأت حاجتها الشديدة الى النظر في التعليم بوجه عام (انظر آخر فقرة ٢) ان تفتش عن حل آخر لإمكان تفرغ الحكومة للتعليم الاولي . ذلك بأن ترى مثلا ان في وسع الحكومة ضم مدارسها العالية الى مدرسة جامعة وتأليف مجلس ادارة لها يؤلف من رجال

الحكومة والامة وان تشترك الحكومة والامة معاً في النفقة عليها على نحو الخطة التي خطتها للتعاون بين الحكومة والهيئات النيابية في التعليم الاولي فيكون دراجة لنقل التعليم العالي كله من يد الحكومة الى يد الاهالي فتتفرغ الحكومة كل التفرغ للتعليم الاولي ولا تشغل نفسها بجامعة لها كما جاء في الفقرة (١٣٠)

اما الهوة السحيقة التي لا تعبر بين المحكومين والحاكمين كما ترى اللجنة في الفقرتين (١٤و١٥) فالذي حفرها انما هو التربية المدرسية لا العلم ذاته. فان الولد الذي يُنتزَع من حضن أمه وأبيه وينزع عنه زي بلاده ويلبس الزي الغربي ويدفع الى مدارس قد صبغت بالصبغة الغربية (فقرة ٢ وفقرة ٨٨) فَيَمُرّ فيها طويلا لا تقع عينه فيها الا على كتب سداها ولحمتها الروح الغربي ومعلمين غربيين او ممن خلعوا عنهم رداء الوطنية الصحيحة من قبل، فيشب على عادات واخلاق تزهّده في أمه وأبيه وسائر معاشريه كما تقول اللجنة في الفقرة (١٧) وتبعث فيه الغرور بنفسه. وما أبعد الشقة وأعمق الهوة بينه وبين أهله لو أتيح له أن يتم الدراسة في الغرب فيقيم فيه ردحا من الزمن يفقد فيه لضعفه البقية الباقيــة له من سجاياه الوطنية حتى المحمودة منها!

هذه حال نشاهدها كل يوم في اكثر الشبان والشواب وقد نسوا جميعا معارفهم وعلومهم وبقي لهم من طرق التربية المدرسية اسوأ مافيها او اردؤه فليست الهوة السحيقة البعيدة الغور بين الطبقة الراقية من المتعلمين وبين عامة الشعب من تفاوت بينهم في العلم بل من نقص في تربية الطبقة الراقية النفيسة التي شوهت بتربيــة لا تلائم تقاليدنا وأمزجتنا وعاداتنا

. . بنا دليلا على ذلك ما نجده فيمن يتخرجون في مدرسة المعلمين الناصرية ويرحلون الى أوربا بعد أن يكونوا قد صبغوا بصبغة وطنية محضة فانهم يعودون وهم الى آلهم وعاداتهم وتقاليدهم أقرب منهم إليها قبل أن يغادروا بلادهم لان العلم وسعة العقل والمدارك من شأنها أن تنزع من نفس العاقل الوساوس والاوهام والخطأ الذي يدفع بكثير من ناقصي العلم والمدارك الى استصغارهم أوطانهم وآلهم، وإكبارهم الغرباء وكل ماهم عليه لسبق أحرزوه في شيء من العلم والمدنية، حتى تعمى عليهم الحقائق ويخلط عليهم الحابل بالنابل ويلبس الحق بالباطل

هذا هو السبب الحقيقي في الهوة بين الطائفتين لا العلم العالي الذي تخشى اللجنة انتشاره قبل التعليم الاولي . وانا ارجو بعد ذلك أن يكون هذا الخوف قد زال

***

حضرت مرة مجلسا جمعني بفتى ظريف وبأبيه وعمه وطائفة من اقربائه وكان هذا الشاب في زي ظريف ويحمل عصا ونظارة ودبوسا كلها من ذهب وأعجب من هذا وذلك انه يلبس سوارا من ذهب بساعة من ذهب . وقد جلسنا طائفتين : احداهما فيها أبوه وعمه وناس آخرون ، والاخرى فيها هذا الفتى وكاتب هذه السطور وابن عم له اكبر منه سنا ومقاما . وكان هذا الفتى على أبواب السفر الى أوروبا وقد ضرب له ابوه على نفسه ثلثمائة جنيه في كل سنة يتسلمها بيده وينفقها كيف يشاء وفيما يريد . وهو مع ذلك يراه مقداراً هينا . وكنا اذا فتحنا عليه باب النصيحة والارشاد حاول إغلاقه واستخف بأبيه وهو على ضمم ومرأى منا الاشيء

آخر سوى الفرق بين زيه وزي أبيه والنزعات النفسية فيهما. أما المعارف والعلوم فهو منها خالي الوفاض بادي الانفاض قد نسي تلك القشور التي قد حصلها منها .

فمثل هذا سيعود من أوروبا وقد قطع آخر خيط يربطه ببلاده كلها لا سيما اذا عاد وبيده شهادة . وأي خير يرجى من مثله لبلاده؟ وأين هذا الشاب المسكين المغرور بنفسه من شاب تعلم في مدرسة صبغت بصبغة وطنية كمدرسة المعلمين الناصرية مثلا وأتم الدراسة فيها ثم سافر الى أوروبا؟

الخيال في الشعر العربي

٢

التخييل التحضيري

تتداعى المعاني بوسيلة التذكر للاسباب التي كنا بصدد البحث عنها ، ثم المخيلة تنتخب منها ما يناسب الغرض ، وهذا العمل اعني الانتخاب يسميه علماء النفس تخييلا تحضيريا لانه العمل الذي تتمكن به المخيلة من استحضار العناصر المناسبة للمرام

تقتصر المخيلة عند الانتخاب على ما يدعو اليه الغرض حتى انها تأخذ الجسم مقطوعا من بعض الاعضاء التي لا مدخل لها في المعنى فتتصور الجواد بغير قوائم كما قال المتنبي

اتوك يجرون الحديد كأنما اتوا بجياد مالهن قوائم

والعقرب بغير ذنب كما قال ابو هلال

تبدو الثريا وأس الليل مجتمع كأنها عقرب مقطوعة الذنب

وربما انتزعت العضو من بين سائر الجسم كما أخذ ابن هانئ اليد فقال

ولاحت نجوم الثريا كأنها خواتيم تبدو في بنان يد تخفى

وأخذ ابن المعتز القدم فقال

وارى الثريا في السماء كأنها قدم تبدت من ثياب حداد

واخذ آخر القلب فقال

نقل الجبال الرواسي من مواطنها أخف من رد قلب حين ينصرف

التخييل الابداعي

بعد أن تنتخب المخيلة مايليق بالغرض من العناصر تتصرف فيها بالتأليف الى أن ينتظم منها صورة مستطرفة، ويسمى هذا التصرف تخييلا ابداعيا أو اختراعيا

ويجري هذا التخييل في التشبيه والاستعارة وغيرها

فالتشبيه قد تحذف اداته كما في قول النابغة

فانك شمس والملوك كواكب اذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وعمل الخيال فيه هو احضار صورة المشبه به أعني الشمس والكواكب والغاء وجوه التباين بينها وبين المشبه أعني الممدوح وبقية الملوك حتى يدعي اتحادهما ويصح الاخبار بأحدهما عن الآخر، وبني على هذا الادعاء أن ليس للملوك مظهر ولا تقوم لهم امام هذا الملك سمعة فان الكواكب يتقلص ضوءها ويغرب عن العيون مشهدها عند ماتتجلى الشمس في طلعتها الباهرة

واما ما تذكر فيه اداة التشبيه فلا استطيع أن أعده في قبيل الخيال جملة كما اني لا أعزله عنه في كل حال ، فان كان فيه اخراج المعقول في صورة المحسوس او المحسوس في صورة المعقول أو اخراج الخفي الى ما يعرف بالبداهة أو اخراج الضعيف في الوصف الى ماهو أقوى فيه فتصح اضافته الى الخيال اذ له الاثر القوي في تقريره

وأما عقد المشابهة بين أمرين متفقين في وجه الشبه من غير تفاوت كالتشبيه الذي يساق لبيان الاتحاد في الجنس أو اللون أو المقدار أو الخاصية فلا يصح نسبته الى الخيال الشعري وان وقع في كلام مقفى وانما هو مما ينظر فيه الباحث عن الحقائق كالفيلسوف أو الطبيب

فلو اتفق ان وقف فتى بجانب ظبي وانطلقا في فسيح من الارض ولم يفت أحدهما صاحبه قيد شبر فبدا لك أن تتحدث عنهما فقلت ولو في نظم « كان فلان

في سرعة عدوه كالنزال » لم يكن في هـذا التشبيه شيء من الخيال لان عقد المشابهة بينهما في هذا الحال يشاركك فيه كل من شاهد الواقعة ، وانما يمتاز التخيل بمثل قول الشاعر

وفي الهيجاء ماجربت نفسي ولكن في الهزيمة كالغزال

حيث ان الخيال بحث عن صورة المشبه به وهو الغزال وانتقاها من بين سائر الصور المتراكمة في الحافظة ثم تصور انطلاق المنهزم وهو الشاعر نفسه وبالغ في مقدار سرعته الى أن وقع التشابه بينه وبين الغزال

وان أردت أن تفرق بين التشبيه الذي يدخل في التخيل والتشبيه الذي هو حائد عن طريقته فانظر الى قول المجنون

كأن القلب ليلة قيل يغدى بليلى العامرية أو يراح
قطاة عزها شرك فباتت تعالجه وقد علق الجناح

فترى الخيال هنا قد تجول حتى تصيد معنى القطاة ووقع على الشرك ثم انتزع منهما هذه المعاني وهي وقوع القطاة في الشرك وعلوق جناحها به ومعالجتها له كي تتخلص منه وضم بعضها الى بعض فانتظم ذلك المعنى المركب وانعقدت المشابهة بينه وبين حال القلب الذي وقع في حب العامرية فأخذ يجف وجلاً من لوعة الفراق

ولو نظر شاعر الى ازهار متفتحة بمكان منخفض من الارض وقال مثلا

هـذه الازهار في منظرها وشـذاها مثل ازهار الربا

لاستبردت شعره لاول وهلة وأخذت تهزأ به كما هزأت بقول الآخر

كأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء

بيد أن ذلك التشبيه نفسه لو يصدر من العالم بالنبات في الرد على من يدعي ان هذه الازهار ليس لها لون ولا نفحات عاطرة كالازهار التي تنبت على الربا لاصغيت اليه سمعك وتلقيته منه بكل وقار. وما ذاك الا لان الاول قاله بوصف كونه شاعراً ولم يأت فيه على عادة الشعراء بشيء من التخييل وأما الثاني فانما القاه اليك في صدد البحث عن الحقيقة فلا تنتظر منه أن يصله بشيء من عمل الخيال

والاستعارة يصنع فيها الخيال مايصنع في التشبيه المجرد من الاداة الا أنها تعرض عليك المشبه في صورة المشبه به على وجه أبلغ ولا سيما اذا أضيف اليها بعض معان عهد اختصاصها بنوع المشبه به أعني مايسميه البيانيون ترشيحاً ، ومن أبدع مانسج على منوالها قول البارودي

من النفر الغر الذين سيوفهم ... لها في حواشي كل داجية فجر
اذا استل منهم سيد غرب سيفه ... تفزعت الافلاك والتفت الدهر

أراد الشاعر وصف قومه بأنهم أولو الصرامة التي تفرج الكرب المدلهمة والسطوة التي يرهبها كل خطير فساق اليك هذا الغرض في صورة تنظر منها الى سيوفهم كيف تجرد حول الليلة القاحمة فيسطع الفجر الواضح في جوانبها، وترى فيها الحسام الواحد كيف يسل من جفنه فترتعد الافلاك ذعراً ويلتفت له الدهر حذراً خيل اليك أن الداهية ليلة ظلماء، وأن الفرج الذي ينبعث من مطلع سيوفهم صبيحة غراء، وعبر عن الأولى باسم الداجية وعن الثانية باسم الفجر وهذا التعبير الملوح الى ذلك التخييل هو الذي يعنيه البيانيون بقولهم استعارة مصرحة

ثم خيل الفلك في صورة من له قلب يفزع والدهر في صورة من له وجه يلتفت، والتصريح باسمهما بعد هذا التخييل يدخل به الكلام فيما يلقون عليه لقب الاستعارة بالكناية، ويمكنك أن تفهم الفجر في البيت بمعنى لمعان السيوف وتألقها المشاهد بالابصار على نمط قول بشر

سللت له الحسام فخلت أني ... شققت به لدى الظلماء فجرا

ولكنك تضيع من يدك ما أفاده الوجه الاول من أن النجدة في جانبها، والظفر مقرون بطالعها، اذ لا يلزم من لمعانها في حواشي الداجية أن تطمن في لبنها وتقلبها بالفوز عليها الى صبيحة مسفرة (١)

(المنار) هذان البيتان من قصيدة للبارودي يعارض بها رائية أبي فراس المشهورة « أراك عصي الدمع شيمتك الصبر » وقد أشرنا اليها في ترجمته من مجلد المنار السابع وذكرت البيتين وعلقت عليهما بعبارة لا بأس بذكرها هنا لانها في الاشارة الى ما فيهما من الخيال وهي :

وبالله ما أرق حاشية قوله « لها في حواشي كل داجية فجر » وما أدق غزل خياله فيه . وأما البيت الثاني فانه ليكاد يروع ببلاغته السامع حتى يخيل اليه أن الأفلاك تصدعت مما تفزعت فيلمس رأسه مخافة أن يصيبه كسف منها و يتمثل له الدهر رجلا فجئه العجب ، فالتفت الى السبب، وليكاد يلفته ما يتخيل من التفات الدهر ، ويلم به الدهش والذعر، او يذهب به الوهم الى ان التفات الدهر هو التفات أهله فيحسب كل فرد من الناس قد ألوى عنقه وشخص ببصره منتظراً ما يكون من فعل ذلك السيف المستل، في يد ذلك البهمة الامثل ، وجملة ما يقال في البيتين (١) انهما السحر الذي يأخذ المرء عن نفسه، ويحكم سلطان الخيال في عقله وحسه .

ومن التخييل الذي لا يدخل له الشاعر من طريق تشبيه أو مجاز ما تشهد لصاحبه بالحذق في الصناعة وأنت تشعر بانه عرض عليك الموهوم في حلية المعقول كقول الطائي

ولا يروعك ايماض القتير به فان ذاك ابتسام الرأي والادب

أخبر عن الشيب بانه ابتسام الرأي والادب اللذين هما محبوبان ومحترمان لكل أحد ابتغاء ان تأنس العين لرأيته ولا تنظر اليه نظر الازدراء به، وليس هذا من قبيل التشبيه اذ لم يكن للرأي والادب ابتسام يمهده السامع حتى يقصد الشاعر الى تشبيه الشيب به بل أراد أن يخيل لك أن الشيب ابتسام في الواقع ولهذا تجد في نفسك ما يناجيك بأن صورة هذا المعنى غير مطابقة للحق وان استحكم تأليفها ودق مأخذها

ومنه ما يستملحه الذوق ويسمه نظر المحقق ونجد هذا في قول زهير

لو نال حي من الدنيا بمكرمة أفق السماء لنالت كفه الافقا

فهذا البيت لم ينسج على منوال تشبيه أو مجاز، وليس لك أن تطرحه من حساب التخيلات المقبولة، وبلوغ كف الممدوح الافق لا يتفق مع النظر الصحيح غير أن تعليقه على حصوله لانسان من قبل وايراده عقب حرف الشرط الدال على امتناعه قد خلصه من زلة الكذب وجعله في منعة من أن ينبذه العقل في القضايا الوهمية

فنون الخيال

يتصرف الخيال في المواد التي يستخلصها من الحافظة على وجوه شتى، ولا يسع المقام استيعابها وتقصي آثارها فنلم لك بمهماتها وما يصلح أن يكون بمنزلة أصل تتفرع عليه تفاصيلها

أحدها تكثير القليل كقول عمرو بن كلثوم

ملأنا البر حتى ضاق عنا وظهر البحر نملاه سفينا

فانه اطرد في حلية الفخر حتى وصل الى التعبير عن منعة الجانب، والسطوة التي لا يفوتها هارب، فخطر له أن يثبت له ولقومه من القوة ووسائل الفوز ما يرهبون به عدوهم فذكر انهم ملأوا البر جندا حتى لم يبق فيه متسع ويملأون ظهر البحر بالمنشآت من السفن ليدل بهذا على انهم لا يبالون بالعدو من أي

ناحية هجم ولا يتماصى عليهم ادراكه في أي موطن ضرب بخيامه

والذي صنع خيال الشاعر في هذا البيت انه تجاوز في الاخبار بكثرة قبيلته وسفنه حد الحقيقة وتطوحت به نشوة الفخر الى أن تخيل ان البر قد غص كما تغص الشكنة بجنودهم وان البحر يتموج بسفنهم كموج السماء المصحية بكواكبها الزاهرة

ومنها — تكبير الصغير كقول بشر يصف وقعة الاسد حين قسمه بالضربة القاضية على شطرين

فخر مضرجا بدم كأني هدمت به بناء مشمخرا

فقد تخيل عند ما سقط الاسد الى الارض دفعة انه أتى الى بناء شامخ وتقعه من أساسه فانقضت أعاليه على أسافله ، فالخيال هو الذي بلغ بجثة الاسد الى أن جعلها في المظم بمقدار بناء ارتفعت شرفاته حتى اتخذت من السحب أطواقا

ومنها — تصغير الكبير كقول المتنبي

كفى بجسمي نحولا أنني رجل لولا مخاطبتي اياك لم ترني

وقوله ولو قلم أُلقيت في شق رأسه وخط به ما غير الخط كاتب

فالصب وان تقلب على فراش الهجر أمدا طويلا وأكل الوجد من لحمه حتى شبع وشرب من دمه حتى ارتوى لا يصل في نحافة الجسم الى أن يسعه شق رأس القلم أو يخفى عن عين الناظر اليه وان كانت عشواء وانما هو الخيال أخذ يستصغر ذلك الجسم حتى ادعى في البيت الاول ان مخاطبته للناس هي التي تهديهم الى مكانه فيبصرونه، ولولاها لبقي محجوبا عن أبصارهم وان وقف قبالتهم، وادعى في البيت الثاني أنه لو وقع في شق البراعة وانطلقت به اليد في الكتابة لاستمر الخط بحاله

ومنها — جعل الموجود بمنزلة المعدوم كقول المتنبي

ومطالب فيها الهلاك أتيتها ثبت الجنان كأنني لم آتها

وصف نفسه بالاقدام على مواقع الردى واقتحام الاخطار بجنان ثابت وعزم لا يتزلزل حتى تخيل لقلة المبالاة بها وعدم الفزع لملتقاها انه لم يكن قد خاض غمارها، ورآها كيف تنشب أظفارها، وانما نشأ هذا الخيال من جهة أن المطلوب المدلهمة لا يسلم من روعتها والدهشة لوقعتها في مجرى العادة الامن حاد عن ساحتها، وجذب عنانه عن السير في ناحيتها،

ومنها — تصوير الامر بصورة حقيقة أخرى ، ولنا في هذا المقام أربعة

أحدها (أولها) تخييل المحسوس في صورة المحسوس كما في قول زهير

[illegible] أبرزت وقد تمشت حميا الكأس فيهم والغناء
[illegible] فتى [illegible] أصيبت مقاتلهم ولم تهرق دماء

فهذا الشعر يصور لك من دارت نشوة السكر والغناء برؤسهم فأجهزت على البقية من شعورهم، في صورة قتلى لم تهرق دماؤهم، بل زهقت نفوسهم بمثل خنق أو سقاء سم دب دبيب الخمر في مفاصلهم

(ثانيا) تخييل المعقول في صورة المحسوس كما في قول الشاعر

مررت على المروءة وهي تبكي فقلت علام تنتحب الفتاة
فقالت كيف لا أبكي وأهلي جميعا دون خلق الله ماتوا

تصور المروءة في زي فتاة فتسنى له أن يسند اليها البكاء ويعقد بينه وبينها هذه المحاورة

(ثالثا) تخييل المعقول في معنى المعقول وهذا كمن تخيل للذلة في معنى الكفر فقال

أمطري لؤلؤا جبال سرنديب وفيضي آبار تكرور تبرا
منزلي منزل الكرام ونفسي نفس حر ترى المذلة كفرا

(رابعها) تخييل المحسوس في صورة المعقول، وهذا لم نعثر له على مثال في كلام العرب ولكن التشبيه الذي هو أساس هذا الفن قد جرى في كلام المولدين بإيراد المحسوس في معرض المعقول كقول التنوخي

فانهض بنار الى فحم كأنهما في العين ظلم وانصاف قد اتفقا

وقول الفاروقي

مر مع الاتراب بالخيف من منى مرور المعاني في مغاوز أفكاري

وقد يعمد الشاعر الى بعض المعاني وينفيه عن أفراده المعهودة و يثبته لأفراد مفهوم آخر وتجد هذا في قول بعضهم

ليس من مات فاستراح بميت انما الميت ميت الاحياء
انما الميت من يعيش كئيبا كاسفا باله قليل الرجاء

فقد نفى أن يكون من قضى نحبه ميتا وأطلق اسم الميت على من قاضت نفسه

كآبة وضاق صدره يأساء على طريقة القصر بدعوى أن المعنى الذي علق عليه الواضع اسم الميت انما يتحقق فيمن يعيش في نكد وبلاء لا يرجو خلاصا منه، والذي أخذ به الى هذه الدعوى ما تخيله من أن خواص الراحل الى القبر وهي مفارقة ما كان يتمتع به من طيبات الحياة وانقطاع أمله منها ونكث يده من العمل فيها توجد باجمعها في الكئيب اليائس من صفاء العيش بأشد مما توجد فيمن ركبوا على مطية المنون لانه يزيد عليهم في الشقاء بأنه يصلى نار الحسرة والاسف بكرة وعشيا

وقد يكون الامر مربوطا بعلة محققة ظاهرة فيضرب عنها ويخترع له علة من عنده ونجد هذا في قول أبي العباس الضبي

لاتركنن الى الفرا ق فانه مر المذاق
فالشمس عند غروبها تصفر من فرق الفراق

ادعى ان العلة في الاصفرار الذي يبدو على وجه الشمس حين تتدلى الى الغروب وتنطفىء بورتها انما هو الوجل والالم من مفارقة الناس الذين طلعت عليهم ذلك اليوم حيث اتصلت بينهم وبينها فيما يزعم عاطفة ألفة وإيناس

ومما صنعت على هذا النمط وقد أخذ البرد يتساقط في حديقة

هز النسيم غصون الروض في سحر كما يهز بنان الغادة الوترا
لذ(١) الحفيف على اذن السحاب أما تراه يحثو على أدواحها دررا

وقلت وقد أخذت الريح تنسف في روض

قام هذا الروض يشدو مادحا بلسان البلبل الزاهي سحابا
وتمادى غاليا في مدحه فحثت في وجهه الريح ترابا

وقلت في حال أشجار تراكم عليها الثلج ثم ضربت فيها الشمس فاخذ يتقاطر عن جوانبها

نسج الغمام لهذه الاشجار من غزل الثلوج براقعا وجلابيا
والشمس تبعث في الضحى باشعة تسطو على تلك الثياب نواهبا
فبكت لكشف حجابها أو ماترى عبراتها بين الغصون سواكبا

وقلت في حمرة الشفق

قتل الدجى هذا النهار ودسه تحت التراب مضرجا بدمائه

لخذوا من الشفق الشهادة انه لطخ من الدم نال ذيل ردائه (١).

وربما يصاغ التعليل في قالب التشبيه كقول أبي تمام

كأن السحاب الغر غيبن تحتها حبيبا فلا ترقا لهن مدامع

فلو حذفت اداة التشبيه هنا لكان الباقي بمنزلة العلة الخيالية لنزول الغيث المنسجم من ينابيع السحاب، واقترانه باداة التشبيه يجعله بحيث يسكت عنه العقل ولا يمانعه من أن يدخل في سبيل المعاني الصادقة.

ومما نظمت على هذا المثال وكان الجو يقذف وقت السحر بنثار من الثلج

تطاول هذا الليل والجو مزبد فضاقت بأمواج الثلوج مسالكه

كأني أذيب الصبح بالحدق التي يقلبها وجدي وتلك سبائكه

وقد يقرر الشاعر معنى ثم يقابله بأمر أوضح منه عند المخاطب دون أن يصرح فيه باداة تشبيه بل تكون مصدرة باداة استفهام كقول مسكين الدارمي

وان ابن عم المرء فاعلم جناحه وهل ينهض البازي بغير جناح

أو باداة التوكيد فقط كقول أبي العتاهية

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ان السفينة لاتجري على اليبس

أو تقرن اداة التوكيد بالفاء كقول بشار

فلا تجعل الشورى عليك غضاضة فان الخوافي قوة للقوادم

أو بالفاء وحدها كقول بعضهم

لاتحسبوا أن رقصي بينكم طرب فالطير يرقص مذبوحا من الالم

ولنوجه البحث الى معنى البيت الاول ثم لايشتبه عليك بعد تحرير الغرض منه ان بقية الابيات جارية بمعنى التمثيل، أو ذاهبة مذهب الاستدلال والتعليل

صدر الدارمي البيت بجعل ابن عم المرء بمكان الجناح له ، والشطر الثاني ينفي عن البازي أن ينهض بغير جناح ومعنى الشطرين لايلتئم الا بملاحظة جملة مطوية مابين الصدر والعجز لم يفصح عنها الشاعر لسهولة مأخذها وبعد ملاحظة تلك الجملة يكون مفاد البيت أن ابن عم المرء بمنزلة جناحه فلا يقدر أن يقوم بأعباء الحياة او يدرك فيها غاية شريفة الا بمعاضدته كما أن البازي لاينهض الى الطيران الا اذا ساعده

جناحه فالقصد تمثيل حاجة الانسان الى ابن عمه بحاجة البازي الى جناحه وليس القصد الاستدلال حتى يلتحق ببيت أبي تمام المسوق فيما سلف للاستشهاد على التخييل الذي يراد منه المخادعة وقول الدماميني

فلا تعجبوا يوما لكسر جفونها ... فان اناء الخمر في الشرع يكسر

فالاسلوب في نفسه وارد في الغرضين غير ان فحوى الكلام ومجرى الخطاب وطبيعة المعنى تصرفك الى التمثيل، أو تأخذ بك الى الاستدلال والتعليل

وقد يعمد الى أمرين يعدهما الناس بشدة التباين وغاية الاختلاف فيعقد بينهما تشابها وتجد هذا في قول المعري

وشبيه صوت النعي اذا قيـ ... ـس بصوت البشير في كل ناد

أبكت تلكم الحمامة ام غنـ ... ـنت على غصن دوحها المياد

فالمعهود ان النفس ترتاع لصوت النعي وتتفطر حزنا، وترتاح لصوت البشير وتأنس له طربا، ولكن الحكيم يغوص في اعماق الحوادث، وينظر الى ما تصير اليه من العواقب، فيتراءى له ان ليس في الحياة مايدعو الى لذة، او يستثير النفس الى جزع، فتكون نغمة البشير وصيحة الناعي في أذنه سواء، ولا يرى فارقا ماببن النواح والحداء (له بقية)

باب الاخبار التاريخية والآراء

تفرق العرب واختلافهم في جزيرتهم

كان لما كتبناه في الجزئين الاخيرين بشأن العرب وجزيرتهم استحسان عظيم عند أولي الرأي والغيرة من قراء المنار ومثله ما كتبناه في المجلد الحادي والعشرين في مسألة الخلاف بين الحجاز ونجد — تبين لنا ذلك من حديث من كلمنا في هذه المسألة في سورية اذ كنا فيها عند نشر ذلك ثم من كلمنا في مصر في هذا وذاك

وأكبر معائب العرب بأئمتهم وأمرائهم انهم قد ازدادوا تفرقا وتعاديا وعدوانا وتقاتلا بقدر اشتداد الحاجة الى الاتفاق والتواد والتعاون فيما بينهم، وقد رأينا في جريدة القبلة المكية التي هي لسان حكومة الحجاز ورأيها مقالا في التعادي والتقاتل بين العرب السعوديين ومن يتصل بهم من عرب نجد

والكويت واليمن وبين عرب عسير الادريسيين وعرب اليمن العليا التابعين للامام يحيى ، وهذه الجريدة تلقي تبعة ذلك على الامام ابن سعود وعلى السيد الادريسي اللذين كان بينهما وبين الشريف والملك حسين من التمادي والتقاتل ما كان

نحن عرب نغار على جميع العرب، ومسلمون نفضل بلاد الحجاز على سائر بلاد العرب والعجم ونهتم بأمر حفظها وصيانها فوق اهتمامنا بسائر بلادنا وأوطاننا ، وقد حرم الله تعالى مكة على لسان نبيه وخليله ابراهيم والمدينة على لسان خاتم رسله وسيد ولد آدم محمد عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام . فلا يجوز أن يقع في في هذين الحرمين قتل ولا قتال ولا أن يكونا موضعا للمنازعات الحربية ولا السياسية لانها قد تفضي الى الحرب

لما وقع التقاتل بين الحجازيين والنجديين اقترحنا على امامي أقوى الحكومات الاسلامية العربية المجاورة للحرمين التصدي لاصلاح ذات البين ولو بقتال الفئة الباغية حتى تفيء الى أمر الله ، ولكن مثل هذا الاقتراح لا ترجى فائدته بالاخلاص الذي يطلبه المسلمون الذين ليس لهم هوى ولا منفعة بنصر احدى الطائفتين على الاخرى ، واننا نخشى ان نرى الحرمين في يوم قريب ميدان قتال يتعذر اقامة ركن الحج في أثنائه وتنتهك فيه حرمة بيت الله تعالى وحرمه أو حرم رسوله صلى الله عليه وسلم ، فلتلافي ذلك نعرض على أهل الرأي والحصافة والمكانة من المسلمين الاقتراح الآتي

اقتراح لصيانة الحرمين الشريفين من الحرب

وعمرانها وأمنهما

القطر الحجازي ميزة لا يشاركه فيها قطر آخر من أقطار الدنيا فكل قطر سواه لاهله الامتياز فيه على غيرهم بالحكم والتصرف في حكومته وأرضه ومرافقه ولحكومته أن توالي وتعادي وتحارب وتعاهد من تشاء وتمنع من دخوله عند الحاجة من تشاء وتأذن فيه لمن تشاء بحسب قوانينها والقانون الدولي العام

واما الحجاز ففيه حرم الله وحرم رسوله اللذين حرم الله فيهما ما لم يحرم في

غيرها كأكل الصيد وترويعه وقطع الشجر وغيره من النبات وشرع فيه من العبادات مالم يشرعه في غيره فأوجب على مسلمي جميع الاقطار الحج والعمرة فيه وندب الرسول (ص) شد الرحال الى مسجديه وجعله (أي القطر) خاصاً بالمسلمين كما يدم لا يباح لغيرهم الاقامة فيه كما أوصى صلى الله عليه وسلم في مرض موته. وامتن الله على عباده بجعل جوار بيته حرما آمنا وجعله مثابة للناس وأمناء وقال فيه (ومن دخله كان آمنا) وقال (والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد، ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) وقد ورد في التفسير المأثور عن النبي (ص) والصحابة والتابعين ان خلق الله فيه سواء لا فرق بين المقيم بمكة وغيره ممن يحجه من سائر الاقطار وأنه يجب على أهل مكة أن لا يمنعوا أحدا من الحاج مشاركتهم في سكنى بيوتهم وحرم بعض السلف أخذ الاجرة منهم وكرهها بعض آخر بل رووا في ذلك أحاديث مرفوعة الى النبي (ص) وان رسول الله (ص) توفي وتوفي من بعده أبو بكر وعمر وما كانت رباع مكة تدعى الا السوائب من احتاج سكن ومن استغنى أسكن، وكانوا ينهون أن يكون لبيوتها أبواب لئلا يكون منعا من دخولها . وليس هذا الاقتراح بالذي يتسع لنقل الروايات ومذاهب الائمة فيها وربما خصصنا له مقالا بعد

وقد روي عنهم في تفسير الالحاد والظلم في الحرم تشديد عظيم فلم يحصروه بارتكاب ماحرمه الله هنالك مما حرمه في غيره وما لم يحرمه الا فيه بل جعلوا من معناه مضاعفة السيئات وكون الصغيرة في غيره كبيرة فيه حتى شتم الخادم وكذلك الهم بالسيئة والعزم عليها ولو قبل الوصول الى مكة. وفي الحديث «احتكار الطعام بمكة إلحاد » وفي رواية في الحرم بدل مكة وقال ابن عباس: تجارة الأمير بمكة إلحاد

قصر المسلمون فيما يجب عليهم للحجاز فلم يقوموا به حق القيام ولم ينفذوا وصية الرسول الاخيرة فيه وهو المقصود الاهم من وصيته في جزيرة العرب حتى زعم بعض العلماء انه هو المراد بها خلافا للمتبادر من لفظ الحديث ولامراء في ان الحاجة الى العناية به في هذا الزمان أشد من كل الازمنة الماضية من وجوه كثيرة ليس هذا محل شرحها فاكثر مسلمي هذا العصر تابعون لحكومات غير اسلامية تهتم بحمايتهم وبشؤونهم في سفرهم الى الحجاز فاذا وقع فيه قتال فانها تمنعهم من اداء فريضة الحج في أثنائه واذا كان

لحكومة الحجاز ما لسائر الحكومات من حق قطع العلاقات الودية واعلان الحرب على أي دولة يقع بينها وبينها ما يقتضي ذلك فان هذا يبيح للدولة المحاربة لها الهجوم على الحرمين والاستيلاء عليهما أو حصرهما ومنع الاقوات وغيرها عنهما كما أنه تهديد للدول الاجنبية الى منع رعاياها المسلمين من السفر اليه للحج ولا سيما اذا كانت معادية ، وكل هذا ينافي مصلحة المسلمين العامة وليس فيه منفعة دينية ولا دنيوية ترجح على المفاسد الكثيرة التي اكتفينا بالاشارة اليها عن شرحها وتفصيل القول فيها

وانما المصلحة الاسلامية العامة أن يكون الحرمان الشريفان وما يجمعهما من البلاد قطراً حرا شاملا لجميع الامم والدول ليكون مصونا من الاعتداء عليه وانتهاك حرمته ويكون ركن الحج من أركان الاسلام قائما أبدا — بل ليتحقق ما جعل الله تعالى اياه حرما آمنا وكون من دخله آمنا وكونه لجميع المسلمين سواء العاكف فيه والبادي لا تعدي فيه ولا إلحاد

فنقترح على أهل الغيرة الاسلامية من مسلمي الحجاز وسائر الاقطار أن يسعوا الى هذه المصلحة سعيها وهي تتوقف فيما نرى على وضع نظام لحكومة الحجاز يبنى أساسه على جعل الحجاز قطرا محايدا على الحياد لا تكون حكومته خصما ولا عدوا لدولة من الدول ولا لحكومة من الحكومات فلا تعتدي ولا يعتدى عليها ولا تخاف ولا يخاف منها ، وان تسعى هذه الحكومة بمساعدة أهل النفوذ من مسلمي جميع الاقطار الى حمل جميع الحكومات المجاورة لها وسائر الحكومات التي لها رعايا مسلمون يركبون متون البحار ويشدون الرحال الى الحرمين الشريفين للنسك والعبادة فيهما . ونظن أن جميع الدول تجيب الى هذا ولا تعارض فيه

نعرض هذا الاقتراح مجملا على العالم الاسلامي وفي مقدمته حكومة الحجاز وأشراف الحرمين وعلمائه لبيان الآراء التفصيلية فيه بنشرها في الصحف الدورية والمنار مستعد لنشر ما يأتيه فيه . وان كان لا بد من التذكير ببعض التفصيل فيه فليكن اقتراح انشاء محكمة اسلامية بمكة يكون لكل قطر اسلامي حق تمثيله فيها بعضو من علماء الشرع المنتسبين الى المذاهب الاسلامية التي يستقبل المتبعون لها هذا البيت في صلاتهم ويحجونه لاجل محاكمة من يعتدي في تلك البلاد على مال

غيره أو بدنه أو عرضه أو شرفه ومنه الطعن في المذاهب فان ضمان حرية كل منتم الى مذهب من مذاهب المسلمين في تلك البلاد التي لهم حق اداء النسك فيها يستلزم ان لا يطعن أحد منهم في مذهب الآخر وهو من أكبر الالحاد في الحرم.

بل اذا قيل انه ينبغي أن يكون لجميع الشعوب الاسلامية حق المشاركة في تأمين هذا القطر المقدس وحمايته ومراقبة اقامة الشعائر فيه مع منع الالحاد كما ان عليهم ان يتعاونوا على كفاية أهله الحاجة واغناء أعرابه عن التعدي وعلى نشر الدين والعلم فيهم وجعل المسجدين الاشرفين مثابة للناس في العلم وفي العبادة جميعا — اذا قيل هذا كله — رجونا ان يتقبله جميع المؤمنين الصادقين بقبول حسن ويتكافلوا على القيام به حق القيام

لعل الملك حسينا يقبل هذا الاقتراح ويبادر الى تنفيذه برأي كبار الشرفاء والعلماء في مكة المكرمة بأن يضعوا له مشروع النظام وينشر في جريدة القبلة وترسل منه نسخ الى المدن الاسلامية الكبرى في الشرق والغرب والجنوب والشمال لأخذ رأي أهل العلم والخبرة فيه ويضرب موسم الحج القابل موعدا لتنفيذه بعد جمع الآراء وتمحيصها فيه بعرضها على لجنة تؤلف من خيار حجاج هذه الاقطار علما ورأيا وحينئذ يكون سعي هؤلاء المسلمين لموافقة الحكومات على حياده وأمانه مرجو النجاح في أقرب وقت

وانا نرى ان هذا المشروع اذا تم يسهل ما اقترحناه في الجزء الذي قبل هذا من إنشاء مجلس تحكيم لما يقع من الخلاف بين امراء العرب اذا وفقوا لعقد الاتفاق الذي يتمناه لهم كل عربي بل كل مسلم يعتقد الاسلام ويغار على مصالح أهله ، بأن يكون هذا المجلس في مكة المكرمة بل يترتب عليه تعاون جميع المسلمين على عمران الحجاز وتسهيل طرقه وتكثير موارده وتموين أهله ونشر العلم فيه وغير ذلك من المصالح والمنافع ، والله الموفق

(كلمة للصحف الاسلامية)

نرجو من حرفائنا الكرام أصحاب الصحف الاسلامية في جميع الأقطار أن يثبتوا رأيهم في هذا الاقتراح ويحثوا قراءهم على القيام بما يرونه فيه

وثائق تاريخية، في المسألة العربية

نشرنا في مجلدات المنار — ١٩ — ٢١ عدة وثائق وحوادث يصح ان يرجع اليها في تاريخ ما يسمى المسألة العربية . وسننشر في هذا المجلد وثائق أخرى من رسمية حقيقة أو حكما وغير رسمية ما يعتمد في ذلك ونذكرها بالعدد

١

كتاب من ملك الحجاز الى نائب ملك الانكليز بمصر

هذا الكتاب نشر في العدد ٢٩١ من جريدة (القبلة) الذي صدر بمكة المكرمة في ٢٣ رمضان سنة ١٣٣٨ الموافق ١٠ يونيو سنة ١٩٢٠ بعد مقدمة وجيزة ويليه تعليق عليه في الافتخار به من قبل الجريدة ونحن ننقله عن هذا العدد وان نشر بعده مرة أخرى . وهذا نص ما جاء فيه تحت عنوان (الاسى والحزن)

واذا تأملنا ما هو واقع في ساحل البلاد على البحر المتوسط وشماليه مما تنقله الصحف وترويه البرقيات من الحوادث والبواعث نجد أن قولنا (الاسى والحزن) لا يفي عن تعبير تلك الحالة . وليس لنا ما نقوله عنها الا : ينتقم الله من أنور وطلعت واخوانهم ومن نحا نحوهم وآلهم وشيعتهم . لنا ولكل سكان الدولة التركية من سلطانها الى راعي غنمها بما جروه على تركيا بالقائها في هاوية تلك الحرب المشؤومة التي لا يعلم شأن نتيجتها والتي تنقل لنا تفاصيلها صحف العالم بأسره مما يجعلنا في دهشة وسكون — أن لا نتكلم أو نبحث عما كانت ترمينا به سهام الاغراض على اختلاف نزعاتها مما يجعلنا أن نقول (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله)

ولحسن الحظ منعنا بالوقوف على صورة تحرير من مولانا المنقذ [1] بتاريخ ٢٠ ذي القعدة سنة ١٣٣٦ نقص علينا ما آله شيئا مما نجده عن حالة البلاد العربية وما يقال عن قيامها وخروجها عن الممالك (الانورية) والجنايات (الطلعتية) الخ وهذه صورة الكتاب

﴿صورة تحريرنا لفخامة نائب الملك بمصر بتاريخ ٢٠ ذي القعدة سنة ١٣٣٦﴾

ما رأيته خصوصا بهذا الاثناء من اهتمام فخامتكم وتأكيداتها في ازالة أسباب

(١) [illegible]

دواعي سوء التفاهم الذي لاأرتاب بان المقصود بذلك الاعتناء هو صيانة تأثير حيات مخلصكم خاصة . لذا ولما تكونه للمواد البسيطة أيضا من ذلك المعنى رأيت أن أتبين من حكومة جلالة الملك في الاساس المقرر مع عظمتها في النهضة وما بنيت عليه من مواد الاتفاق المقدم بطيه بيانها بأني ماطلبت لبلاد أمام حكومة جلالة الملك ماطلبته من المواد التي تعهدت عظمتها بها رغبة مني في تأسيس حكومة أو تشكيل دولة لا ستأثر بحاكميتها أو حرصا على جاهها أو رياستها لكن عند مادعتني بريطانيا الى مادعتني اليه وعلمت أن مقاصدها بهذا أيضا تأمين مصلحة المسلمين عامة والعرب خاصة لم يسعني الا الاجابة وطلبي أقله تلك المواد المؤدية في اعتقادي لما يأتي :

أولا : لمحافظة الكيان للعالم الاسلامي بالنظر لما حل وما سيحل بتركيا

ثانيا : صيانة العظمة البريطانية من الاستهداف مما سترى بعكس مقاصدها

ثالثا : سلامتي من الاتهام بالتواطىء معها ضد الاساس المقصود بالنهضة

نعم اني لم أجد من جناب الفاضل الاديب المستر «استورس» عند اجتماعي بحضرته في السنة الاولى بجدة ثم بعده بحضرة الشهم الهمام السير «مارك سايكس» ثم في السنة الماضية بالقومندان الهمام «هوغورث» الموقر ما يشير الى ما يخالف أو يخل بتلك المقررات غير أن ما في طبيعة مشروعنا وتمامه الحياتية من الرقة وما يتصادف من بعض حالات يستدعي سياقها زيادة تمين الامر وتأكد الحقيقة عن الحدود فقط والاباقي المواد فانا نعجز عن أداء شكر الوفاء بها شكراً علا الخافقين خصوصاً أمر الاعانات مما لو فهمت الغلط في مقرراتنا المذكورة أساساً أوحدث ما يوجب تعديلها الامر الذي لا أقول أنه يمس كيان العالم الاسلامي ولكني أظن وبعض الظن اثم أنه لا يخلو من شيء من ذلك . هذا على فكري الخصوصي فتى أضفنا عليه تظاهر عجزي بعدم حصول ما كان يؤمل من النتائج يتحتم علي الانسحاب من الامر والتنازل عنه لاعتقادي الشخصي أن تعديل مقرراتنا المذكورة بصرف النظر عما في اخلاله بالغايات المقصودة الاساسية وعرضتنا لحذر موادنا الثلاثة آنفة البيان وطمس صحيفة تاريخي فهو يزيل ويسقطني من ثقة واعتماد بلادي وأقوامي الاقربين حينما يظهر لهم عكس تلك المقررات التي أعلنتها لهم وصرحت بها شفاهاً وتحريراً في ظرف هذه المدة وأسست عليه الاعمال

وأكون خدعت نفسي وغششتكم بأصدقائي بما وراء هذا من اضطراب البلاد بالفتن والثورات ونحوها مما لا يمكن لي معه حتى الاستفادة لذاتي وما يزيل حسن ظن حكومة جلالة الملك بي وأكيد اخلاصي يجبرني أن أقول من الآن ان مبادي هذه الخطرية على وشك التحسس بها بالنسبة للطلبات المتكررة المختلفة عن أمرهم باعلان استقلال بلادهم ، ولم أجد ما أدفعهم به الا قولي ان استقلالي هو استقلال عموم أنحاء البلاد ولكنهم يقيموا الحجة على دفعي هذا بأوجه أخر. وعليه فان كان ولابد من التعديل فلالي سوى الاعتزال والانسحاب ولا أشتبه في مجد بريطانيا أن يتلقى هذا منا الا أنه أمر يتعلق بالحياة لا لقصد عرضي ولا لفكر غرضي ، وانها لا ترتاب في أني وأولادي اصدقاؤها الذين لا تغيرهم الطوارئ والاهواء. ثم تمينوا البلاد التي تستحسن اقامتنا فيها بالسفر اليها في أول فرصة. وان رأت ذلك ولكن منا كل الحرب الحاضرة تقتضي بتأجيله الى ختامها لحقوق الوفاء والجميل يفرض علينا الثبات أمام ما سيتضاعف علينا من التهمات ونحوه من العموم مما لا مقاومة لدينا أمامها الا حسن النية فالامر اليها . أما عطف الامر وتعليقه بمؤتمر الصلح فالجواب عليه من الآن بأن لاعلاقة لنا به ولا مناسبة بيننا واياه حتى ننتظر منه سلباً أو ايجاباً ولو قرر المؤتمر المذكور أضعاف مقرراتنا وكان ذلك عن غير وساطتكم وقبلناها فنكن من المطرودين من رحمة الباري جل شأنه الرقيب على قولي هذا الذي أتوسل اليه بكل آلائه أن يتولانا جميعاً بعنايات رأفته الاحدية، وقبول ما أقدمه لفخامتك في الختام من جزيل احتشاماتي هو من سجايا شيمكم» انتهى

(القبلة) بالطبع انا لا ندري ما كان من الرد على هذا التحرير السامي ولا عن مواد الاتفاق ولكنا ندري أنه بادني تأمل بسيط يتضح أن هذا التحرير لم يدع نقطة مادية أو معنوية تتعلق أساساً بأساس (النهضة) وسائر محتوياتها وما بنيت عليه في ذاتها ومايتعلق بالعالم سواء في الماضي أو الحال أو الاستقبال . لا . بل بالاختصار نقول انه أحصى ذرات كل مايتعلق بها بسائر الاوجه :

فماذا عسى أن يقول القائلون في هذا التنبأ السياسي ونزاهة الضمير عن الذاتيات والشخصيات في كل مايتعلق بنفس (النهضة) أو بالعالم

وكيف لا نقول بهذا التنبأ في التحرير العالي وهو صادر منذ سنتين تقريباً؟ بتأمل المتأملون ، وفي هذا فليتنافس المتنافسون ؛ ولمثله فليعمل العاملون

ثم كيف لا تقول ذلك ونحن نرى الامم الاخرى تتباهى بالجزئية مما احتواه تحرير مولاه المنقذ ؟

فلا عجب على «القبلة» أن تقول: (لمثل هذا فليعمل العاملون)

ومتى كانت الأعمال على مثل هذا الاساس فلا علينا من الوسواس والخناس من الجنة والناس اه تعليق جريدة القبلة» اه

(المنار) نشرنا كل ما تقدم بحروفه ، ومتى عادت حرية النشر الى ما كانت عليه نقول في هذه الوثيقة التاريخية وأمثالها كلمتنا التي نظن أنها لا تخطر لاحد من محرري جريدة القبلة على بال

٢-٣-٤

حديث الامير فيصل — رواية حكومة مكة عن معاهدتها مع انكلترة — رواية الوزارة البريطانية فيها

جرى حديث للامير فيصل مع صاحب جريدة المفيد الدمشقية في الشام يتضمن ذكر بعض الوثائق الرسمية بين والده ملك الحجاز وبريطانية العظمى نشرته هذه الجريدة في عددها الذي صدر بدمشق في ٢٦ جمادى الاولى سنة ١٣٣٨ (الموافق ١٥ شباط (فبراير) سنة ١٩٢٠) بعنوان (حديث سياسي مع سمو الامير فيصل. وثائق رسمية لم تنشر حتى الآن) وهذا نصه :

(مقدمة جريدة المفيد)

لاريب في ان كل عربي تهمه مصلحة البلاد العامة يتطاول الى الوقوف على سير السياسة العربية ويود معرفة ما قام به سمو الامير فيصل وما هو موقف سموه تجاه السياسة الاوربية وجلالة والده الملك المعظم والامة العربية جمعاء والسوريين خاصة .

وقد تشرف أحد صاحبي هذه الجريدة يوسف بك حيدر بمقابلة سموه فجرى بينهما حديث تضمن من الوثائق السياسية مالا مندوحة من نشره واحاطة القراء بدقيقه وجليله والى القراء ما دار بينهما .

ابتدأ أحد صاحبي الجريدة فقال للامير : رأينا يا صاحب السمو في العدد المؤرخ بثامن جمادى الاولى ١٣٣٨ من جريدة القبلة الصادرة في مكة المكرمة

اعلانا رسميا يقول به والدكم صاحب الجلالة الهاشمية ان لديه معاهدات من الحلفاء الكرام تقضي باستقلال البلاد العربية جميعها وان جلالته ينشرها للملأ عند الحاجة فهل لسموكم ان توضحوا لنا ما هي هذه المعاهدات وما تحوي ؟

سمو الامير — ان المعاهدات التي يذكرها صاحب الجلالة ما رأيتها وقد طلبت منه مرارا ان يجعلها سلاحا لي اذا كانت موجودة ولا أعلم ماسبب تاخيره ارسالها لي واكتفاء جلالته بارسال صورة اتفاقية يقول انها نسخة من تلك المعاهدة وها أنا اعطيك تلك الصورة ويمكنك نشرها ـ وهذا نصها بحروفها :

صورة ما تقرر مع بريطانيا العظمى

بشأن النهضة *)

(١) — تتعهد بريطانيا العظمى بتشكيل حكومة عربية مستقلة بكل معاني الاستقلال في داخليتها وخارجيتها وتكون حدودها شرقاً من بحر فارس ومن الغرب بحر القلزم والحدود المصرية والبحر الابيض وشمالا ولاية حلب والموصل الشمالية الى نهر الفرات وتجتمعه مع الدجلة الى مصبها في بحر فارس ما عدا مستعمرة عدن فانها خارجة عن هذه الحدود وتتعهد هذه الحكومة رعاية المعاهدات والمقاولات التي أجرتها بريطانيا العظمى مع أي شخص كان من العرب في داخل هذه الحدود بأنها تحل محلها في رعاية وصيانة تلك الحقوق وتلك الاتفاقيات مع أربابها أميراً كان أو من الافراد .

(٢) — تتعهد بريطانيا العظمى بالمحافظة على هذه الحكومة وصيانتها من أي مداخلة كانت بأي صورة كانت في داخليتها وسلامة حدودها البرية والبحرية من أي تعد بأي شكل يكون حتى ولو وقع قيام داخلي من دسائس الاعداء أو من حسد بعض الامراء فيه تساعد الحكومة المذكورة مادة ومعنى على دفع ذلك القيام لحين اندفاعه وهذه المساعدة في القيامات أو الثورات الداخلية تكون مدتها محدودة أي لحين يتم للحكومة العربية المذكورة تشكيلاتها المادية .

(٣) — تكون البصرة تحت اشغال العظمة البريطانية لحينما يتم للحكومة الجديدة المذكورة تشكيلاتها المادية ويعين من جانب تلك العظمة مبلغ من النقود يراعى فيه حالة احتياج الحكومة العربية التي هي حكمها قاصرة في حضن

*) تعبر حكومة الحجاز عن ثورته وما ترتب عليها بالنهضة

بريطانيا وتلك المبالغ تكون في مقابلة ذلك الاشغال .

(٤) — تتعهد بريطانيا العظمى بالقيام بكل ماتحتاجه ربيبتها الحكومة العربية من الاسلحة ومهماتها والذخائر والنقود مدة الحرب .

(٥) — تتعهد بريطانيا العظمى بقطع الخط من مرسين أو ماهو مناسب من النقاط في تلك المنطقة لتخفيف وطأة الحرب عن البلاد لعدم استعدادها لها .

قال سمو الامير : ولكني مع الاسف حينما كنت في لوندرة قدمت هذه الصورة الى رئاسة الوزارة فأنكرت وجودها كل الانكار وقالت بأنه لايوجد عهد ولا كتاب كعهد ينطق بمثل هذا التصريح ولكن لدينا رسائل أهمها تبدأ رسالة من السر هنري مكماهون وهذا نصها بحروفها :

كتاب السر هنري مكماهون الى جلالة الملك المعظم بمكة

في ٢٤ اكتوبر سنة ١٩١٥

« لما كانت مقاطعات مرسين والاسكندرونة وبعض أجزاء سورية الواقعة الى الغرب من مقاطعات دمشق وحمص وحماه وحلب لايمكن تسميتها عربية محضة فانه يقتضي اخراجها من الحدود التي بينتموها — وانه بمقتضى هذا التعديل ومن غير اخلال بمعاهداتنا السابقة مع بعض زعماء العرب نقبل الحدود على ما ذكرتموه

«ثم بخصوص الاراضي التي لبريطانيا العظمى حرية العمل فيها من غير اضرار بمصالح حليفتها « فرنسا » فان لي السلطة باسم بريطانيا العظمى أن أعطي التأكيدات الآتية وأجيب عن كتابكم بما يأتي : —

ان بريطانيا العظمى مستعدة بعد التعديلات المذكورة آنفا ان تعترف باستقلال العرب والاخذ بناصرهم وذلك ضمن الحدود التي قدمها شريف مكة

« أما ولاية بغداد وولاية البصرة فعلى العرب ان يسلموا الى مركز بريطانيا العظمى ومصالحها تقتضي اتخاذ تدابير خاصة لادارتهما وحمايتهما من كل اعتداء أجنبي ولارتقاء أهاليهما والمحافظة على مصالحنا المشتركة فيهما (انتهى) »

قال سمو الامير : عندئذ كررت طلب تلك المعاهدة من مكة المكرمة ولكنها وياللاسف لم ترد علي حتى الآن. فلهذا لايمكنني أن أقول ولو ولا

الخارجية البريطانية مخالفة للحقيقة بأقوالها ولا أقول أن حكومة مكة تقول غير الواقع . فاذا كان لدى حكومة مكة المكرمة عهد كهذا فتأخير ابرازه في هذا الوقت الذي وضعت به مسألة العرب على بساط البحث وقد أوشك المؤتمر أن يبت بشأنها مضر جدا لان هذه المعاهدة لم تعقد الا لتبرز في مثل هذا اليوم العصيب ويعمل بموجبها وقد الححت في المدة الاخيرة على جلالة والدي بارسالها وأظنها ستصلني عما قريب فاذا وصلت سيكون لي موقف في النوادي السياسية غير موقفي الحاضر

سؤال : هل دفاعكم في مؤتمر السلم سيكون خاصاً في شؤون سورية أم يتناول المسألة العربية كلها (١)

جواب : ان صفتي في مؤتمر السلام هو تمثيل والدي وحكومته الذي قام مدافعاً عن حقوق العرب باجمعها فاذا تخليت عن جانب من بلاد العرب المحررة من الاتراك أكون قد قصرت بواجبي السياسي وأخللت بما أودع الي من الوظائف فلذا يتحتم علي أن أضع المسألة العربية برمتها موضع البحث وأدافع عنها باسم جلالة الملك .

سؤال : في كتاب السر مكماهون الذي تقدم الكلام عنه ما يتعلق بفلسطين وبغداد والبصرة فما رأي سموكم فيما ينطوي عليه وهل صرحت لكم الحكومة البريطانية بشيء بعده

جواب : اذا وجد ذلك العهد الذي أعلن جلالة والدي وجوده فاظن الحكومة البريطانية ستكون مضطرة الى تشكيل الوحدة العربية والاعتراف بالاستقلال العربي . وأما اذا لم يوجد فحكومة انكلترا ملزمة بمقتضى عهدها الوارد في كتاب السر مكماهون أن تؤلف حكومة في العراق تكفل مصالح العرب والبريطانيين معاً وأن تعترف بان فلسطين والموصل عربيتان داخلتان في ضمن الحكومة السورية . والصداقة التي بيننا وبين الحكومة البريطانية تجعلني اواصل البحث فيما هو واجب على انكلترا أجراؤه في الممالك والبلدان التي هي الآن تحت أشغالها العسكرية . وأملي عظيم بانها ستقوم بعهودها

سؤال : هل تفكرون برفض ما تدعيه الحكومتان الفرنسوية والانكليزية

---

(١) سبب هذا السؤال أن الامير كان عازما على العودة الى أوربة لحضور مؤتمر سان ريمو الذي [illegible] سورية والعراق [illegible] الانتداب [illegible] الاستيلاء عليهما

من الحقوق في أقسام البلاد العربية سواء كان في سورية أو العراق أو غيرهما وما هي خطة سموكم في هذا الامر؟

جواب: اني لا أتصور أن أقابل جميل هاتين الحكومتين بمعاملة غير لائقة، وأنا أعلم بأن لهما منافع أدبية واقتصادية يجب احترامها ولكني في الوقت نفسه أؤمل أن تنظر الينا هاتان الحكومتان بنظر الاحترام والى حقوقنا بنظر الانصاف والعدل، وان لا تطالبانا بما يخل باستقلالنا ورقينا المادي والمعنوي وان لا تجبرانا على اتباع تقاليدهما على العمياء بل نأخذ منهما ما طاب من مدنيتهما الحديثة ونترك ما هو مخالف لمدنيتنا وعنعناتنا التاريخية.

سؤال: نشرنا في المفيد برقية منقولة عن جريدة الاهرام المصرية واردة من جلالة الملك يحدد بها دائرة توكيل سموكم فما ترون فيها؟

جواب: ان الوكيل يدافع في قضيته على قدر قوة ما بيده من الحجج فاذا كانت مستنداته قوية وكان الحاكم عادلا فلا شك بأن الوكيل اذا خسر القضية يكون مسؤولاً - وأنا في هذه الحالة لا فرق بيني وبين وكلاء الدعاوي امام الحاكم فدفاعي تكون على قدر قوتي المادية والمعنوية، وعلى كل فانني أؤمل من رجال الحكومات والامم المتمدنة ان تنظر الينا بعين الحب ولا تهضم لنا حقا كيما نتمكن من خدمة المدنية الحاضرة كما خدم أجدادنا المدنية الغابرة

سؤال: كنا قرأنا في جريدة الشرق التي كانت تصدر في دمشق ابان الحرب نص معاهدة تسمى «معاهدة سايكس بيكو» نشرها جمال باشا زاعماً ان البلشفيك ظفروا بها بين الاوراق الرسمية في بتروغراد عند ما استولوا عليها ثم انقطعت أخبار هذه المعاهدة حتى عادت صحف أوربا منذ بضعة أشهر تردد صداها وقيل ان جلاء الجنود الانكليزية عن سورية منذ مدة كان تنفيذا لنص تلك المعاهدة فهل ذلك حقيقي وهل سمعتم سموكم بها في الاماكن الرسمية أو اطلعتم عليها في أثناء الحرب أو بعدها؟

جواب: حينما نشر جمال باشا تلك المعاهدة أثناء الحرب اطلع عليها والدي في العدد ١٠١ من جريدة المستقبل فسأل جلالته الحكومة البريطانية بواسطة معتمده بمصر عن تلك المعاهدة فأجابته الحكومة الانكليزية بكتاب هذا نصه:

«ان البلشفيك لم يجدوا في وزارة الخارجية في بتروغراد معاهدة معقودة بل محاورات ومحادثات موقتة بين انكلترا وفرنسا وروسيا في أوائل الحرب لمنع

المصاعب بين الدول أثناء مواصلة القتال ضد الترك وذلك قبل النهضة العربية وان جمال باشا اما من الجهل او الخبث غير في مقصدها الاساسي وأهمل شروطها القاضية بضرورة رضى الاهالي وحماية مصالحهم وقد تجاهل ماوقع بعد ذلك من أن قيام الحركة ونجاحها الباهر وانسحاب روسيا قد أوجد حالة أخرى تختلف عما كانت عليه بالكلية منذ أمد مضى »

قال سمو الامير : فيظهر لكم من هذا الجواب ان تلك المعاهدة لم تكن معترفاً بها اعترافاً رسمياً لدى والدي والعرب واذا فرض وجودها فانهم قد انكروها بتاتاً بحيث أصبحت كأنها لم تكن وتصريحات الحكومات بالغاء جميع المعاهدات السرية تجعلنا لانعترف بتلك المعاهدة . اهـ

(المنار) هذا ماصرح به الامير فيصل في دمشق قبل نصبه ملكا على سورية فيها بزهاء ثلاثة أسابيع فهو الى ذلك الوقت لم يكن مطلعاً على شيء غير ماذكر فيه مما دار بين والده وبريطانية العظمى من الاتفاق الذي حمله على الخروج على الدولة العثمانية ومحاربتها مع الحلفاء وكان هو القائد لجيش والده في هذه الحرب بل كان صرح لي قبل التصريح لصاحب جريدة المفيد بأنه لم يطلع على شيء قط وانه حارب بأمر والده اعتمادا على ان بيده شيئا وظاهر ان كلا من الروايتين مباين لمصلحة العرب ومناف لحريتهم واستقلالهم فان تشكيل بريطانية العظمى لحكومة عربية تدخل فيها الحجاز بالشروط المذكورة التي منها حفظها وصيانتها في داخليتها وخارجيتها يجعلها حكومة تابعة للامبراطورية الانكليزية ويخول لجيوش هذه الامبراطورية أن تقيم حيث شاءت منها بحجة منع الثورات والفتن الداخلية ودفع اعادتها بها بحراً وبرا كما هو معروف

واننا كنا قد اطلعنا على النص العربي للمعاهدة المشار اليها في هذه الوثائق وهي بين السر هنري مكماهون بالنيابة عن حكومته وبين شريف مكة وأميرها سنة ١٩١٥ وقد رأينا أن كلا من الروايتين الحجازية والانجليزية اللتين صرح بهما الامير فيصل قد ذكرت بعض ماجاء في تلك المعاهدة بالمعنى على ماتتذكر كله وقد نشر ملخصها أيضاً في مقال للكولونل الانكليزي لورانس مستشار فيصل في أثناء الحرب وبعدها

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب



يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام: إن للإسلام صوى « ومنارا » كمنار الطريق

مصر ٢٩ رجب ١٣٣٩ ـ ١٨ الحمل (ر ١) سنة ١٢٩٩ هـ ش ٨ مارس ١٩٢١

فتاوى المنار

وضعنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة اذ لا يسع الناس عامة، ونشترط على السائل أن يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك أن يرمز الى اسمه بالحروف أو يعبر بما شاء من الالقاب ان شاء. واننا نذكر الاسئلة بالترتيب غالبا وربما قدمنا متاخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه، وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا، ولمن مضى على سؤاله شهران أو ثلاثة أن يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

(النيل والفرات وتعدية التعزية وأهل الفترة)

(س ٤ — ٦) من صاحب الامضاء في بلدة ـ العلاقة ـ مصر

حضرة الاستاذ العلامة صاحب الفضيلة منشيء مجلة المنار الغراء .

سلام عليكم ورحمة الله. اما بعد فهذه رسالة نذكركم فيها بما أرسلناه الى فضيلتكم سابقاً راجين ان تجيبونا عما تتضمنه من الاسئلة بما نعهده فيكم من شافي الجواب وفصل الخطاب

الاول: روى الصحيحان من حديث الاسراء ان النبي (ص) قال فيما يحدث عن الجنة ان بها نهرين ظاهرين هما النيل والفرات وان منبعهما في أعلى سدرة المنتهى ونهرين باطنين ينبعان من أصل السدرة. وقد أصبح مما لاريب فيه ان كلا من النيل والفرات له منابع خاصة فلا نستطيع التوفيق بين الحديث وبين ما اثبته العلم الحديث حتى لقد قال بعض الناقدين في الحديث من العلماء انه موضوع اذ ليس بعد العيان من دليل وقوى ذلك اضطراب روايات الحديث خصوصاً ما روي عن ام هانيء انها صلت مع النبي (ص) العشاء ثم بات عندها

ومعلوم انه لم يكن قبل الاسراء عشاء مع اتفاق اهل السير على انها لم تسلم الا يوم الفتح او بعده

الثاني : تعلّم في احد المجلدين (الرابع او الخامس) عن امام اللغة الشيخ الشنقيطي (رح) أن عزى من التعزية بالميت لا تستعمل الامتعدية بمن خلافا للمشهور من تعديتها بالباء ولكن العرب قد استعملوها متعدية بالباء قال شاعرهم في رثاء محمد بن يحيى (بلسان الندى والجود)

فقالا أقنا كي نعزى بفقده مسافة يوم ثم نتلوه في غد

الثالث : يكاد اهل السنة يتفقون على ان اهل الفترة ناجون وان غيروا وبدلوا وعبدوا الاصنام فكيف يتفق هذا مع ماورد في صحيح مسلم من عدم الاذن للنبي (ص) في الاستغفار لامه وما ورد في الصحيحين وغيرهما من قوله (ص) لاعرابي «ان ابي واباك في النار» وهل ماروونه في تعذيب حاتم وامرىء القيس وغيرهما صحيح يعول عليه ام لا مع ملاحظة عدم قرينة تدل على تأويل الاب بالعم في الحديث السابق؟ ولماذا لم يكن ابواه (ص) من اهل الفترة الناجين؟ هذا ونرجو من فضيلتكم عدم ارجائها حتى لاتحوجونا الى تذكير آخر واقبلوا منا في الختام التحية والمودة الخالصة

الاخ المخلص
احمد عطيه قوره

[الجواب عن الاول]

(خروج النيل والفرات من سدرة المنتهى وكونهما من الجنة)

في حديث أنس عن مالك بن صعصعة انه (ص) لما ذكر سدرة المنتهى قال «واذا أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران فقلت ماهذا ياجبريل؟ قال أما الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات» وفي رواية أخرى لحديث المعراج عند البخاري «فاذا في أصلها أربعة أنهار» وفي رواية «يخرج من أصلها أربعة أنهار» وقد اختلفت الروايات في سدرة المنتهى ففي بعضها أنها في السماء السادسة وفي بعضها أنها في السابعة وفي أخرى أنها في الجنة وقال القاضي عياض هي في الارض . وفي بعض الروايات أن النبي (ص) رفع اليها وفي بعضها أنها هي رفعت اليه حتى رآها . وفي رواية شريك لحديث المعراج في كتاب التوحيد من صحيح

البخاري أنه رأى في السماء الدنيا نهرين يطردان فقال له جبريل هما النيل والفرات، فروايات حديث المعراج مضطربة المتن في هذه المسألة وغيرها كثيرة التعارض والاختلاف كما بيناه منذ سنين .

والظاهر أن من أسباب الاضطراب والاختلاف في هذه الاحاديث روايتها بالمعنى ولم ير جمهور العلماء المتقدمين حاجة الى ردها بالاضطراب ولا تأويل هذه المسألة فيما أولوا قالوا لانها لا تنافي العقل وفاتهم أنها تخالف ما هو أقوى من دلالة العقل الذي يكثر غلطه في النظريات وهو الحس فان الالوف من الناس رأوا منبع النيل والفرات بأعينهم وفي مصر كتاب مطبوع فيه رسم بحيرات النيل التي ينبع منها ومجراه من أوله الى مصبه في البحر المتوسط

قال النووي في شرح مسلم قال القاضي عياض رحمه الله هذا الحديث يدل على ان أصل سدرة المنتهى في الارض لخروج النيل والفرات من أصلها زاد الحافظ في شرح البخاري : وهما بالمشاهدة يخرجان من الارض فيلزم منه أن يكون أصل السدرة في الارض . ورد النووي قول القاضي بظاهر معنى الحديث وكونه لا يمنعه عقل ولا شرع ثم ذكر النووي في شرح حديث أبي هريرة عند مسلم في المسألة « سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة » ان سيحان وجيحان في بلاد الارمن الاول نهر اذنه (اطنه) والثاني نهر المصيصة ثم نقل عن القاضي عياض في تأويل الحديث ان الايمان عم بلاد هذه الانهار وان الاجسام المتغذية بمائها صائرة الى الجنة ثم قال والاصح إنها على ظاهرها وان لها مادة من الجنة واحتج بحديث المعراج اه وقال بعضهم ان المراد بكون النيل والفرات من الجنة هو التشبيه لانهما بماء الجنة في عذوبته وحسنه وبركته أي فوائده على طريق المبالغة ، وهذا لا تكلف فيه اذا فسر به حديث أبي هريرة بأنها من الجنة ولكن الاستعارة لا تظهر في روايات أحاديث المعراج الا بتكلف ولعل سبب ذلك روايتها بالمعنى ويسهل الخطب على القول بأن حديث المعراج كان بيانا لرؤيا منامية أو مثالا لمشاهدة روحية والله اعلم

(مسألة تعدي التعزية بالباء)

البيت الذي ذكره السائل في رثاء محمد بن يحيى البرمكي ليس من كلام العرب

بل لا أصدق أنه من كلام أهل ذلك العصر الا إذا وجدته مرويا في كتب المتقدمين على أن الباء فيه لا يتعين أن تكون للتعدية بل الظاهر أنها للسببية ، أي أقنا لكي نمزي بسبب فقده على أن معاجم اللغة ذكرت الفعل لازما لامتعديا بمن ولا بالباء وللباء وجه قياسي كما علمت

﴿ أهل الفترة وابوا النبي (ص) ﴾

في نجاة أهل الفترة خلاف مشهور وقد استثنى المثبتون لها من ورد النص بأنهم من أهل النار في الاحاديث التي ذكرها السائل وغيرها والا كانت هذه الأحاديث حجة عليهم — وقد شرحنا مسألة أبوي النبي صلى الله عليه وسلم وأبي ابراهيم عليه الصلاة والسلام في تفسير (وإذ قال ابراهيم لابيه آزر أتتخذ أصناما آلهة) الآية. فيراجع في المجلد العشرين من المنار أو المجلد السابع من التفسير

﴿ كعب الاحبار ﴾

(س ٧) من صاحب الامضاء في (زنجبار)

حضرة العلامة السيد محمد رشيد رضا المحترم

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

سيدي سؤالنا عن العلامة كعب الاحبار الذي نسمع بأحاديثه الكثيرة وكان عالما عند اليهود ثم أسلم على يد النبي صلى الله عليه وسلم وعاش الى زمن معاوية ومات وعمره ٢٠٠ سنة أهو شخص حقيقي أو وهمي.

صلاح ناجي الكسادي

(ج) كعب الاحبار شخص حقيقي معروف في كتب الحديث وتواريخها وقد اختلفوا في تاريخ اسلامه قال الحافظ ابن حجر في الاصابة : والراجح ان اسلامه كان في خلافة عمر وروي عنه أن سبب تأخير اسلامه أن أباه كان كتب له كتابا من التوراة وأمره بالعمل به دون غيره وختم على سائر كتبه وعهد اليه ألا يفض الختم فلما رأى ظهور الاسلام وانتشاره فض الختم فرأى في الكتب صفة النبي (ص) وأمته فأسلم. ونقل عن ابن سعد أنه مات سنة ٣٢ وعن ابن حبان في الثقات أنه مات سنة ٣٤ وانه بلغ مئة وأربع سنين. وقد عدلوا روايته وذكروا انه روى عنه بعض الصحابة ابن عمر وأبو هريرة وابن عباس وابن الزبير ومعاوية ولكن قال فيه معاوية : ان

كان لمن أصدق هؤلاء المحدثين من أهل الكتاب وان تقدم ذلك لنبلو عليه الكذب. رواه البخاري عنه في صحيحه وأوله بعضهم بأن المراد عدم وقوع ما يخبر به لا اختلاق الكذب

﴿ أفضل النبيين والسؤال بحقه ﴾

(س ٨ و ٩) ومنه

حضرة صاحب الفضيلة السيد محمد رشيد رضا المحترم زيد في مجده

سيدي السلام عليك ورحمة الله. وبعد فالمرجو من فضيلتكم ان تبين لنا الجواب عن السؤال الآتي وهو:

قد نص القرآن الكريم على افضلية بعض النبيين على بعض في الدرجات ولم نر فيه آية تدلنا صريحاً على من هو افضلهم وماهو نوع التفضيل فاذا كان الافضل محمداً فما الدليل وبماذا كان أفضل

ثم اذا دعا أحد هكذا (اللهم اني أسألك بحق أو بجاه محمد سيد المرسلين أن تسهل لي رزقي اوتغفر لي ذنبي) مثلا فهل هذا الدعاء جائز شرعاً او يعد ذلك شركا. أفيدونا أثابكم الله

(ج) هذا سؤالان لاسؤال واحد واننا نجيب عنهما باختصار لما سبق لنا في موضوعهما من التفصيل في عدة مواضع

﴿ فضل نبينا على سائر النبيين عليه وعليهم الصلاة والسلام ﴾

الفضل في اللغة الزيادة وأفضل الشيئين أو الشخصين مثلا ذو الزيادة في الصفات والمزايا والخصائص والاعمال الشريفة التي من شأنهما الاشتراك فيها فتكون موضوع التفاضل، فالانبياء منهم المرسلون وغير المرسلين والمرسلون أفضل بما خصوا به من الرسالة، وقد كان كل رسول يرسل الى قومه خاصة بشرع مؤقت يليق بحالهم واستعدادهم للهداية حتى استعد جميع البشر للهداية الكاملة العامة فبعث الله محمداً خاتم النبيين للناس كافة وأكمل به دينه الذي بعث به من سبق من رسله وأتم نعمته عليهم فكان رحمة عامة للعالمين وانما تكمل الاشياء بخواتيمها فكان أفضلهم بعموم بعثته وشمول هدايته وكمال الدين على لسانه ويده وحفظ كتابه وآيته وهذه مزايا تتعلق بموضوع الرسالة، والقرآن ناطق بكل منها، ولهذا قال من قال في تفسير قوله تعالى (ورفع بعضهم درجات) انه هو المراد بالبعض، والتلميح قد يختار على التصريح اذا كانت قرائن الحال معينة له، وقال شيخنا

الاستاذ الامام ان نكتة ذكره بين موسى وعيسى عليهم الصلاة في قوله (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) هي التنبيه لكونه هو الوسط كما قال انه جعل أمته وسطا — وخير الامور أوساطها — وقد كانت شريعة موسى مشتملة على المبالغة والشدة في الاحكام الجسدية والامور المادية وتعاليم عيسى مشتملة على المبالغة في احكام الزهد والمواعظ الروحية فجاءت شريعة محمد وتعاليمه وسطا في كل منهما كما بيناه بالتفصيل في مواضع من التفسير وغير التفسير من أبواب المنار، ولما كانت أمم الرسل المعروفة في زمن بعثته محصورة في أمة موسى وعيسى كان ذلك من أقوى القرائن اللفظية على ان من رفعه الله درجات هو النبي الذي بعث بعدهما لان حمله على نبي انقرضت أمته ولم يبق أثر لشريعته بعيد وغير مفيد وتتنزه بلاغة القرآن وهدايته عن ذلك

﴿ سؤال الله بحق خاتم رسله وجاهه ﴾

سؤال الله تعالى ودعاؤه هو روح العبادة وركنها الاعظم والقاعدة التي تلي توحيد الله وعدم اشراك أحد معه في العبادة هي ان عبادته تكون بما شرعه سبحانه فقط أي اتباعاً لا ابتداع فيه. ولم يرد في كتاب الله ولا في سنة رسوله المتبعة التي صحت بالنقل والعمل عن السلف الصالح ان يسئل سبحانه شيئاً بحقوق أحد من خلقه عليه وان كان من عباده المكرمين الذين جعل لهم حقا عليه جزاء على أعمالهم ، ولا بجاهه عنده وان ثبت انه جعل له وجاهة ، فهذا السؤال اذاً بدعة ولكنه ليس شركا في هذه العبادة لان السائل قد توجه فيها الى الله ودعاه وحده ولكنه ابتدع في دعائه بدعة أراد ان تكون سبباً لاجابة السؤال ، وهي ادخال شيء في العبادة لم يأذن به الله بنص ولا فحوى بل يدل الشرع والعقل على بطلانه ، ذلك بأنه ليس لاحد على الله تعالى حق الا ماجعله هو له بفضله وان كان جزاء على عمله فاثابته لعبيده فضل منه عليهم كما ثبت . وقد ورد في الصحيح من ان حق الله على عباده ان يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وحقهم عليه اذا فعلوا ذلك ان يدخلهم الجنة ـ فهذا الحق لزيد العابد المخلص لله تعالى لا يصح ان يكون سبباً لاجابة سؤال عمرو شفاء مرضه أو توسيع رزقه أو مغفرة ذنبه لان من أصول دين الله المعقولة (ان لا تزر وازرة وزر اخرى وان ليس للانسان

الا باسمي) وكذلك ما جعل الله من الوجاهة بفضله لموسى عليه السلام اذ قال فيه (وكان عند الله وجيهاً) لايمقل ان يكون سبباً لمثل ذلك . فالله تعالى قد جعل لكل شيء سبباً وليست هذه الوجاهة ولا تلك الحقوق من أسباب ما ذكر ، على انها لو كانت منها لماصح ان تدخل في العبادة الا باذن منه تعالى كما أذن بغير زيادة ولا نقص. نعم ان من الجاه او الوجاهة الشفاعة وهي من أسباب المغفرة وذلك أن تسأل الله أن يجعلك أهلا لشفاعة رسوله ويغفر لك بها ولكن لم يرد أنها سبب لمصالح الدنيا ولم يكن الصحابة يطلبون من النبي (ص) عند قبره ولا في حال البعد عنه في حياته ان يشفع لهم في شفاء مرض ولا دفع ضرر ولا نزول مطر ولا يسألون الله ذلك بجاهه (ص) وقد طلبوا من عمه العباس ان يستسقي لهم بعده بدلا من استسقائه

ولو كان هذا من عبادتهم لتواتر عنهم أو اشتهر برواية الشيخين وأصحاب السنن لتوفر الدواعي على ذلك

فان قيل: ان شرع مالم يأذن به الله قد عد من الشرك وعد من يقبله ويعمل به من متخذي الشركاء والارباب من دون الله في قوله تعالى (ام لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) وقوله عز وجل (اتخذوا احبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) الآية وقد فسر في الحديث المرفوع اتخاذهم أربابا بطاعتهم فيما يحلون لهم ويحرمون عليهم ، وطالما كرر المنار هذه المسألة (وفي تفسير هذا الجزء قول مفصل فيها)

قلنا ان السؤال وارد ولكن يفرق في مثله بين تنقيح المناط وتحقيق المناط فان الشيء قد يكون بمقتضى الدليل شركا أو كفراً ولا يعد كل من فعله مشركا أو كافراً كما نقلناه عن شيخ الاسلام (ص ١٢١ ج ٢) ولا يسأل ذلك السؤال من يقوله من المسلمين الا وهو يظن انه مشروع بتقليد أو شبهة دليل على صحته كبعض الاحاديث الموضوعة أو الضعيفة التي لا يثبت بها حكم . وكل البدع الدينية ومسائل العبادات التي لا تدل عليها النصوص من هذا القبيل ولم يكفر السلف مسلما بها كما فصلناه في الاجزاء التي قبل هذا ومنهم من يدخل هذه المسألة في باب الاقسام على الخالق بالمخلوق وقد صرح الحنفية بكراهته قال ابو يوسف وأكره ان يقول بحق فلان أو بحق أنبيائك ورسلك وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام. والمراد كراهة التحريم. وقد فصل القول في هذه المسألة شيخ الاسلام ابن تيمية في كتابه (التوسل والوسيلة) وهو مطبوع نقلنا بعض أقواله في المجلد الثاني عشر من المنار وغيره فليراجع السائل ذلك في موضعه

ماوراء القبر

حديث مع اديصن عن الحياة والموت

قابل كاتب أميركي المستر اديصن العالم الاميركي المشهور واستطلعه رأيه في نبأ نشرته الصحف الاميركية وفحواه انه يبحث ويفتش لعله يفوز برفع الحجاب عن حقيقة ماتصير اليه نفس الانسان بعد الموت ويؤيد ذلك بالدليل العلمي. وقد نشرت خلاصة هذا الحديث في مجلة السينتفك اميركان المعروفة بتدقيقها العلمي وقدمته بمقدمة من عندها قالت فيها :

« اذا كان رجل في مقام لودج اواديصن يهتم بموضوع ما فان الجمهور يبالغ في الاهتمام بما يقول وبما يرجو ان يعمل. وعليه فلما أذيع منذ ايام ان اديصن يجرب تجارب لمناجاة الموتى فسحت الصحف مجالا واسعاً لهذا النبأ يفوق ما يستحقه بالنسبة الى الدرجة العليا التي بلغتها أعمال اديصن من التقدم العلمي. وقد أصابت فيما فعلت لان القراء اهتموا مزيد الاهتمام بمجرد علمهم ان اديصن يشتغل بهذه المسئلة » . الى ان قالت « وأهم ما في الامر ان اديصن رغم الاراجيف التي قد تذيعها الصحف عن هذه المسئلة وعلاقته بها يسعى ليعود بنا الى الموقف الصحيح في أمر الحياة بعد الموت وبقاء الانفس وامكان مخاطبة الموتى » . وهذه صورة الحديث . قال الكاتب :

« ان اديصن الذي استنبط المصباح الكهربائي والفونغراف والصور المتحركة وبطرية النكل والحديد والدينامو الكامل وغيرها من المكتشفات والمخترعات التي تدخل أعمالنا اليومية سيوجه سعيه وجهده الى أمر يفوق كل اكتشاف واختراع عما لا يقاس . فان في العالم نحو ١٥٠٠ مليون نسمة سيدركهم الموت عاجلا او آجلا ولكنهم يجهلون كل الجهل مصيرهم بعده . ومثل ذلك يقال عن مجيئنا الى هذه الدنيا . وعليه فالحياة والموت لايزالان سراً من الاسرار ولغزاً من الالغاز التي لم يفتح بها على مخلوق

منذ بضعة أسابيع شاع ان هذا المخترع المتئم يعد طريقة او آلة لمخاطبة

---

(١) نشرت في بعض الصحف المصرية والسورية واعتمدنا ترجمة المقتطف منها مع تصحيح لغوي قليل

الذين انتقلوا من هـذا الوجود الى وجود آخر او عالم آخر . فنشرت صحف اميركا واوربا ان توماس اديصن اندمج في صفوف الروحانيين الذين بينهم الآن كثيرون من كبار العلماء والمؤلفين والمخترعين والطبيعيين والمهندسين ورجال الدين وغيرهم . ووصف الكتاب الفرنسويون الواسعو الخيال آلة اديصن بانها محطة تلفونية او مكتب تلغراف او ما أشبه يقصدها الناس ليخاطبوا منها ارواح احبائهم واصدقائهم في العالم الآخر بطريقة عاجلة أكيدة

وليس في الناس احد اشد اسفاً من المستر اديصن على اذاعة اخبار مثل هذه. فقد قال لي في حديثي معه « اني لا أستطيع تصور شيء يسمونه الروح. تصور شيئاً لاثقل له ولا صورة مادية ولا حجماً. وبعبارة أخرى تصور غير شيء . انا لا استطيع ان اعتقد ان الارواح يمكن ان ترى في أحوال معينة وتحرك الموائد او تقرع عليها او تعمل أعمالاً سخيفة مثل هـذه وكل ما قيل من هذا القبيل حديث خرافة »

واقول هنا انه انما قابلني لازالة ماعلق بالاذهان من الاشاعات التي شاعت عن غرضه من البحث والتنقيب في هذا الموضوع . ولا تزال الآلة التي شاع أنه يصنعها في دور التجربة والامتحان . وقد طلب مني ان أعلن ما يأتي قال:

« فكرت منذ مدة في اختراع آلة او اداة يمكن ان يستخدمها او يؤثر فيها الذين غادروا هذا الوجود الى وجود آخر او عالم آخر. والآن أسمع وع ما اقول لك. انا لا ادعي ان شخصياتنا تنتقل الى وجود آخر او منطقة اخرى. ولا ادعي علم شيء في هذا الموضوع لاني لا اعلم شيئاً فيه ولا احد من الناس يعلم . ولكني ادعي انه يمكن صنع آلة بالغة من الدقة مبلغاً بحيث انه اذا كان اناس في عالم آخر يريدون مخاطبتنا في هذا العالم فان هذه الآلة تكون اوفى بهذا الغرض من تحريك الموائد او النقر عليها او غير ذلك من الوسائل السخيفة المعروفة

والحق يقال ان سخافة هذه الوسائل هي التي تحملني على الشك في صحة مناجاة الموتى التي يدعونها . فلست أدري لم يضيع الاشخاص الذين في العالم الآخر وقتهم في تحريك مثلث من الخشب على مائدة عليهـا حروف الهجاء ، وما غرضهم من تحريك الموائد؟ هذا كله يظهر لي أنه من الاعمال الصبيانية حتى لا أستطيع ان ابحث فيه بعين الجد والاهتمام. وعندي انه اذا شئنا ان نتقدم تقدماً حقيقياً في البحث العقلي وجب ان نقدم عليه بالآلات العلمية وبالطرق

العلمية كما تعمل في الطب والكهربائية والكيمياء وغيرها

واما ما اريد ان اعمله فهو ان اجهز الباحثين في المباحث العقلية النفسية بآلة تلبس عملهم لباساً علمياً . وهذه الآلة ستكون مثل مصراع او تشبه مفتاحاً صغيراً يستطيع به رجل واحد ضعيف القوة ان يفتح مصراعاً تدار به آلة قوتها ٥٠ الف حصان . وستكون آلتي على هذا المثال حتى ان اصغر قوة تكبر بها كثيراً فتساعدنا على بحثنا . ولا اقول اكثر من ذلك عن ماهيتها. وقد مضت علي مدة وانا اشتغل بتفاصيلها وكان يعاونني في عملي هذا صديق فتوفي منذ حين . ولما كان يعلم ما انا ساع اليه فالواجب ان يكون اول من يقدم على استعمال هذه الآلة ان استطاع ذلك

واعلم اني لا ادعي اني اعلم شيئاً عن بقاء الشخصيات بعد الموت ولا اعد بمخاطبة الذين انتقلوا من هذا الوجود وانما اقول اني ساع في تجهيز الباحثين النفسيين بآلة قد تساعدهم في عملهم كما يساعد المكرسكوب رجال الطب في مباحثهم . واذا عجزت هذه الآلة عن ان تكشف لنا شيئاً خارق العادة فاني افقد كل ثقة وايمان ببقاء الشخصيات بعد الموت كما نعرفه في هذا الوجود »

ومما يقال عن المستر اديصن انه لا يصدق المذاهب المعروفة في الحياة والموت لانه يعتقد انها فاسدة الاساس ، قال لي باسطاً مذهبه فيهما « عندي ان الحياة كالمادة غير قابلة للفناء . فقد كان في هذا العالم مقدار معين من الحياة على الدوام وسيبقى هذا المقدار كما هو على الدوام . فانك لا تستطيع خلق الحياة ولا ابادتها ولا مضاعفتها . وفي اعتقادي ان أجسامنا مركبة من ملايين من الكائنات المتناهية في صغرها وكل منها حي مفرد ويرتبط بعضها ببعض لتكوين الانسان . ونحن نقول عن انفسنا ان كلا منا شخص واحد قائم بنفسه ونتكلم عن الهرة او الفيل او الحصان او السمكة كأن كلا منها فرد قائم برأسه ولكني أرى ان طريقة التفكير هذه فاسدة الاساس فان هذه الاشياء كلها تظهر انها بسيطة مفردة لان الكائنات الحية التي تتألف منها أصغر من ان ترى حتى باعظم المكبرات

وقد يعترض على هذا الرأي بانه اذا كانت هذه الكائنات صغيرة الى هذا الحد فلا يمكن ان تكون مؤلفة من أعضاء مختلفة تستطيع القيام بالاعمال التي سأذكرها. فاقول في الرد على ذلك انه لاحد لصغر الاشياء كما انه لاحد لكبرها

واكتشاف الألكترون خير جواب على مثل هذا الاعتراض. فقد ظهر لي بالحساب انه يمكن وجود حي متقن التركيب والتنظيم مؤلف من ملايين من الالكترونات الصغيرة التي لا ترى بما نعرف من المكبرات

وهناك دلائل كثيرة تدل على اننا نحن الخلائق البشرية يتصرف كل منا تصرف جماعة من الاحياء لا تصرف حي واحد. وهذا ما يحملني على اعتقاد ان كلا منا يحتوي على ملايين من الاحياء وان اجسامنا وعقولنا تمثل افعال الكائنات التي تتألف منها

ولننظر الآن في السبب الذي يحملني على القول بأنه لا بد ان تكون اجسامنا مؤلفة من هذه الكائنات. خذ بصمة ابهامك كما يفعل البوليس في بصم ابهام المشبوهين ثم ازل خطوط ابهامك بحرقها بالنار. فمتى نما الجلد ثانية تجد ان خطوطه لم تتغير البتة عما كانت قبل احتراقه وقد امتحنت ذلك بنفسي حتى تحققته. هذا سر من الاسرار ما فتئ مغلقاً حتى الآن. تقول لي ان هذا عمل الطبيعة. وهو جواب يراد به التفصي لا غير اذ لا معنى له بل هو وسيلة لاسكات السائل بذكر كلمة فارغة مكان الجواب. ان كلمة «طبيعة» ما اقنعتني قط: اما جوابي انا فهو ان الجلد لم ينبت ثانية كما كان أولا بمجرد الاتفاق بل ان هناك من وضع رسوم النمو الثاني وعني بمطابقته لرسوم النمو الاول من كل وجه. وانت لا تعلم شيئاً من تلك الرسوم فان دماغك لم يشترك في هذا العمل: وهنا تدخل الكائنات المشار اليها وتشترك في العمل. وانا اعتقد جد الاعتقاد انها تحوك نسيج جلد الابهام بمزيد العناية مستمينة على رسم التفاصيل الدقيقة بذاكرتها العجيبة

ولزيادة الايضاح اقول. لنفرض ان كائناً من سكان المريخ هبط الى هذه الارض ولنفرض ان بصره ليس دقيقاً كبصرنا وان اصغر شيء يمكنه ان يراه بعينيه هو جسر (كبري) مثل جسر بروكلن فهو اذاً لا يرى اجسامنا وقد يحسب الجسر المذكور شيئاً طبيعياً كما نحسب نحن العشب او الرمل او المعادن وغيرها من الاشياء الطبيعية، ولنفرض انه هدم جسر بروكلن وذهب ثم عاد بعد سنين فرأى من هناك فوجد جسراً جديداً مكان القديم وعلى مثاله. فهل يقوده الفكر الصحيح الى افتراض ان الجسر الجديد نما بنفسه مكان القديم وعلى مثاله او الى افتراض انه مد ثانية بفعل فاعل عاقل. لا ريب ان الفرض الثاني

اقرب الى العقل

هذا هو الموقف الذي يجب ان نقفه نحن بازاء الكائنات الحيوية. والمسئلة كلها مجرد افتراض وتخمين كما لا يخفى . فقد يكون ٩٥ في المئة من تلك الكائنات التي تتألف أجسامنامنهاعمالا والخمسة الباقية مديرة للعمل وقديكون غير ذلك . ومهما يكن من الامر فان مجموعها هو الذي يكون شكل أجسامنا الطبيعي وصفاتنا العقلية وشخصياتنا وما اشبه ذلك

وهذه الكائنات هي الحياة بعينها وهي لاتنتأ تعمل وترمم انسجة اجسامنا وتشرف على وظائف اعضائنا. فاذا أصيب الجسم بطارىء افضى الى موته كأن يكون مرضاً عضالا او عارضاً او هرماً فان هذه الكائنات تفارقه ولا تترك وراءها الا بناء خاوياً خالياً . ولما كانت عمالا لا تكل ولا تمل فاما ان تدخل جسم انسان آخر اوتبدأ العمل في صورة اخرى من صور الحياة واشكالها. وسواء كان هذا او ذاك فان هذه الكائنات محدودة العدد وهي نفسها عملت كل شيء في عالمنا هذا ولكن تعدد التراكيب التي تتألف منها هو الذي اوقعنا في الخطأ فحسبنا ان لكل مولود حياة جديدة

وهذه الكائنات خالدة لاتموت فانك لاتستطيع افناءها كما لاتستطيع افناء المادة وجهد ماهناك انك تستطيع تغيير صورة المادة لا غير . فقدكان مقدار الذهب والحديد والكبريت والاكسجين وغيرها في بدء العالم كما هو الآن بلا زيادة ولا نقصان . نعم اننا نستطيع التغيير في تركيب مركبات هذه العناصر ولكننا لم نظفر بتغيير نسب بعضها الى بعض

وهذا هو حال الكائنات الحيوية فاننا لا نستطيع افناءها بل نغير صورها واشكالها . وقدرتهـا متعددة الضروب حتى يصعب علينا تمييز أعمالها في كل الاحوال .وعليه لم يستطع العلماء حتى الآن أن يرسموا حدا بين الاشياء الحية وغير الحية . وقد يكون أن هذه الكائنات تمتد الى الجماد وتعمل فيه والا فما الشيء الذي يجعل البلورات تتكون على أشكال هندسية محدودة ؟

والآن نأتي الى مسئلة الشخصية .أنت لكر بورا (اسم الكاتب) وأنا ديمسن لان في كل منا مجموعاً من كائنات يختلف عن مجموع الآخر .فقدأثبت الطب باثنتين وثمانين عملية جراحية شهيرة عملت حتى الآن ان مركز شخصيتنا هو في تلفيف من تلافيف الدماغ يسمى تلفيف « بروكا » .ومن العقل والصواب :

ان نفرض أن مركز مقر الكائنات التي تدير حركاتنا وتشرف عليها انما هو في ذلك التلفيف . فهو الذي يشعرنا بالتأثيرات العقلية وبشخصيتنا

ولقد قلت ان ماتسميه الموت انما هو مفارقة تلك الكائنات لابداننا . والمسئلة كلها في زعمي هي مسئلة مايجري للكائنات المرشدة التي مقرها في تلفيف « بروكا » . اذ المعقول ان الكائنات الاخرى التي تعمل عملا ميكانيكياً في أجسامنا تتشتت وتذهب في جهات مختلفة طلباً للعمل فيها . وأما الكائنات التي تتكون منها شخصياتنا فتكون انت بها لسكربورا وأكون انا اديسن ويكون زيد زيداً فاذا يجري بها ؟ هل تبقى مجموعة واحدة أو تتفرق في السكون طالبة العمل منفردة لا مجتمعة ؟ فان كانت تتفرق فان شخصياتنا لاتبقى بعد الموت. فقد تقدم القول أن هذه الكائنات تعيش الى الابد وتمنحنا الخلود الذي يرجوه كثير منا ولكن ان كانت تتفرق ثم تتحد بكائنات أخرى لتؤلف أجساماً جديدة منها فان ذلك يضيع علينا شخصياتنا والخلود الذي نرجوه أي خلود تلك الشخصيات بعينها.

ولي الرجاء أن شخصياتنا تبقى . فان كانت تبقى فان الآلة التي أنا ساع في اختراعها لابد أن تفيدنا . وهذا مايحدوني على الانهماك بعملها واخراجها على غاية من الدقة . واني انتظر النتيجة بذاهب الصبر»

(المنار) يؤخذ من حديث هذا المخترع الشهير أنه يعتقد بنظره العقلي واختباره العلمي جواز مايجزم به جميع المليين ايمانا بالغيب وكثير من الفلاسفة والعلماء الروحيين بالدلائل أو الاختبار الذي يعرف باستحضار الارواح ، ويرجو أن يكون ما يجوزه ويقول بامكانه من الحياة بعد الموت والبقاء بعد فناء هذه الهياكل الجسدية حقا واقعا وان كان يرتاب فيه بما شرحه من نظريته الخيالية في سر الحياة وسببها ، وبناء على هذا الرجاء يحاول وضع الآلة الكهربائية التي يرى انها تكون خير وسيلة وأقوى سبب لتأثير أرواح الموتى في الاحياء بمخاطبتها لهم بها ان كان ذلك مما تتوجه اليه وتعنى به كما يدعى أهل المذهب الروحاني الذي عرفه الافرنج في هذا العصر وكان معروفا عند الصوفية في القرون الماضية والعصور الخالية . فتأمل كيف قربت العلوم المادية عالم الغيب من عالم الشهادة . ان في ذلك للمتفكرين ، وقد أقر بجهله بحقيقة الروح ولا غرو (قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا)

تاريخ فنون الحديث

الجوامع العامة ٤

« ا » منها جامع المسانيد والالقاب لابي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي (١) جمع فيه بين الصحيحين ومسند احمد وجامع الترمذي وقد رتبه احمد بن عبد الله المكي (٢)

« ب » ومنها (جامع المسانيد والسنن الهادي لاقوم سنن) للحافظ اسماعيل بن عمر الدمشقي المعروف بابن كثير (٣) جمعه من الصحيحين وسنن النسائي وأبي داود والترمذي وابن ماجه ومن مسانيد احمد والبزار وأبي يعلى والمعجم الكبير للطبراني

« ج » ومنها مجمع الزوائد للحافظ أبي الحسن علي الهيثمي (٤) جمع فيه زوائد مسانيد احمد وأبي يعلى والبزار ومعاجم الطبراني الثلاثة وموجود منه بدار الكتب ثماني مجلدات، وقد شرع بطبعه من زهاء ٢٠ سنة ولعله تم

« د » ومنها مصابيح السنة للامام حسين بن مسعود البغوي (٥) جمع فيه ٤٤٨٤ حديثاً من الصحاح والحسان ويعني صاحبها بالصحاح ما أخرجه الشيخان وبالحسان ما أخرجه أبو داود والترمذي وغيرهما وما كان فيها من ضعيف أو غريب بينه ولا يذكر ما كان منكراً أو موضوعاً وقد اعتنى العلماء بها عناية عظيمة فشرحوها شروحاً كثيرة وكملها محمد بن عبد الله الخطيب وذيل أبوابها فذكر الصحابي الذي روى الحديث والكتاب الذي أخرجه وزاد على كل باب من الصحاح والحسان فصلا ثالثاً عدا بعض الابواب وكان ذلك سنة ٧٣٧ فجاء كتاباً حافلا واسماه مشكاة المصابيح وقد شرح المشكاة كثيرون

« ه » ومنها جمع الجوامع في الحديث لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي جمع فيه بين الكتب الستة وغيرها وقد قصد في كتابه جمع الاحاديث النبوية بأسرها . قال المناوي انه مات قبل ان يتمه ولقد اشتمل كتابه على كثير من الاحاديث الضعيفة بل الموضوعة وقد هذب ترتيبه علاء الدين علي بن حسام الهندي المتوفى بمكة سنة ٩٧٥ في كتابه كنز العمال في سنن الاقوال والافعال وقد اختصر السيوطي كتابه في الجامع الصغير وزوائده

« و » ومنها اتحاف الخيرة بزوائد المسانيد العشرة لاحمد بن أبي بكر

(١) توفي سنة ٥٩٧ (٢) سنة ٦٩٤ (٣) سنة ٧٧٤ (٤) سنة ٨٠٧ (٥) سنة ٥١٦

البوصيري (١) أفرد فيه زوائد—مسانيد أبي داود الطيالسي والحميدي ومسدد وابن أبي عمرو واسحاق بن راهويه وابن أبي شيبة واحمد بن منيع وعبد بن حميد والحرث بن محمد بن أبي أسامة وأبي يعلى الموصلي—أي مازاد من أحاديثها على الكتب الستة وهو مرتب على مائة كتاب.

الكتب الجامعة لاحاديث الاحكام

«ا» منها الالمام في أحاديث الاحكام لابن دقيق العيد (٢) جمع فيه متون الاحكام وشرحه ولكن لم يكمل شرحه ويقال انه لم يؤلف في هذا النوع أعظم منه

« ب » ودلائل الاحكام من احاديث النبي (ص) لابن شداد الحلبي (٣) تكلم فيه على الاحاديث المستنبطة منها الاحكام في الفروع ويقع في مجلدين

« ج » ومنتقى الاخبار في الاحكام للحافظ مجد الدين أبي البركات عبد السلام ابن عبد الله بن أبي القاسم الحراني المعروف بابن تيمية الحنبلي (٤) انتقاه من صحيحي البخاري ومسلم ومسند الامام احمد وجامع أبي عيسى الترمذي والسنن للنسائي وأبي داود وابن ماجه واستغنى بالعزو الى هذه المسانيد عن الاطالة بذكر الاسانيد وان لكتاب فيم شرحه الامام المجتهد الشوكاني محدث اليمن (٥) شرحاً مسهباً بلغ ثمانية أجزاء جمع فيه من فقه الحديث ما لعله يعز عليك في كتاب آخر وقد اسمى شرحه نيل الاوطار - طبع بمصر وتعددت نسخه -

«د» وبلوغ المرام من أدلة الاحكام للحافظ احمد بن علي بن حجر العسقلاني (٦) وممن شرحه شرحاً وجيزاً صديق حسن خان (٧) بلغ شرحه مجلدين - طبع وتعددت نسخه - وقد اشتمل بلوغ المرام على الف واربعمائة حديث من احاديث الاحكام وهو كتاب عظيم القدر طبع في مصر وفي الهند مع حواشي للسيد أحمد حسن الدهلوي المعاصر بين فيها علل الاحاديث المعلولة وخلاصة المعنى

كتب أخرى

من الكتب النفيسة في الحديث (المختارة) لمحمد بن عبد الواحد المقدسي (٨) التزم فيها الصحة فصحح احاديث لم يسبق الى تصحيحها ولم يتم الكتاب وقد رجحه بعض الحفاظ على مستدرك الحاكم ومنها السنن كتابا الكبير والصغير كتابان لاحمد بن حسين البيهقي (٩) قيل لم يصنف في الاسلام مثلهما قال ابن الصلاح ما

(١) توفي سنة ٨٤٠ (٢) سنة ٧٠٢ (٣) سنة ٦٣٢ (٤) سنة ٦٥٢ (٥) سنة ١٢٥٠ (٦) سنة ٨٥٢ (٧) سنة (٨) سنة ٦٤٣ (٩) سنة ٤٥٨

م كتاب في السنة اجمع للادلة من كتاب السنن الكبرى للبيهقي وكانه لم يترك في سائر اقطار الارض حديثاً الا وقد وضعه في كتابه - ومنها بحر الاسانيد للامام الحافظ الحسن بن احمد السمرقندي (١) جمع فيه مائة الف حديث رتبه وهذبه ولم يقع في الاسلام مثله . ومنها الترغيب والترهيب للحافظ المنذري (٢) وهو من أحسن الكتب طريقة في جمع الحديث وبيان درجته وليت كتب الحديث كلها على نمطه - وهو مطبوع -

ترتيب كتب الحديث في الصحة

قد بينا فيما سلف درجة كل كتاب من كتب السنة الشهيرة في الصحة وها نحن أولاء ندلي اليك بفصل جم الفائدة عظيم العائدة ينجلي لك فيه ترتيب كتب السنة من حيث الصحة لتكون على بينة من أمرها فنقول وبالله توفيقنا

قد قسم الجمهور الحديث الصحيح بالنظر الى تفاوت الاوصاف المقتضية للصحة الى سبعة أقسام كل قسم منها اعلى مما بعده فالاول ما أخرجه البخاري ومسلم ويسمى بالمتفق عليه والثاني ما انفرد به البخاري والثالث ما انفرد به مسلم والرابع ما كان على شرطهما مما لم يخرجه واحد منهما والخامس ما كان على شرط البخاري والسادس ما كان على شرط مسلم والسابع ما صححه أحد الائمة المعتمدين وترجيح كل قسم من هذه الاقسام السبعة على ما بعده انما هو من قبيل ترجيح الجملة على الجملة لا ترجيح كل واحد من أفراده على كل واحد من أفراد الآخر فيسوغ أن يرجح حديث في مسلم على آخر في البخاري اذا وجد موجب الترجيح ولقد كتب الشيخ احمد المعروف بشاه ولي الله المحدث الدهلوي (٣) في كتابه حجة الله البالغة فصلا في طبقات كتب الحديث نورد لك خلاصته قال :

طبقات كتب الحديث أربع فالطبقة الاولى منحصرة بالاستقراء في ثلاثة كتب الموطأ وصحيح البخاري وصحيح مسلم

والطبقة الثانية كتب لم تبلغ مبلغ الموطأ والصحيحين ولكنها تتلوها كان مصنفوها معروفين بالوثوق والعدالة والحفظ والتبحر في فنون الحديث ولم يتساهلوا فيه وتلقاها من بعدهم بالقبول واعتنى بها المحدثون والفقهاء وذاعت

«١» توفي سنة ٤٩١ «٢» سنة ٦٥٦ «٣» سنة ١١٧٦

بين الناس كسنن أبي داود وجامع الترمذي ومجتبى النسائي . وهذه الكتب مع الطبقة الاولى اعتنى بأحاديثها رزين ابن معاوية العبدري السرقسطي في تجريد الصحاح وابن الاثير في جامع الاصول وكاد مسند أحمد يكون من هذه الطبقة

والطبقة الثالثة مسانيد وجوامع ومصنفات صنفت قبل البخاري ومسلم وفي زمانهما وبعدهما جمعت بين الصحيح والحسن والضعيف والمعروف والمنكر والغريب والشاذ والخطأ والصواب والثابت والمقلوب(١) ولم تشتهر في العلماء ذلك الاشتهار وان زال عنها اسم النكارة المطلقة ولم يتداول ما تفردت به الفقهاء كثير تداول ولم يفحص عن صحتها وضعفها المحدثون كبير فحص. ومنها مالم يخدمه لغوي لشرح غريب ولا فقيه بتطبيقه على مذاهب السلف ولا محدث ببيان مشكله ولا مؤرخ بذكر اسماء رجاله، ولا أريد المتأخرين المتعمقين وانما كلامي في الائمة المتقدمين من أهل الحديث فهي باقية على استتارها واختفائها وخمولها كمسند أبي يعلى ومصنف عبد الرزاق ومصنف أبي بكر بن أبي شيبة ومسند عبد بن حميد ومسند الطيالسي وكتب البيهقي والطحاوي والطبراني وكان قصدهم جمع ما وجدوه من الحديث لاتلخيصه وتهذيبه وتقريبه من العمل

والطبقة الرابعة كتب قصد مصنفوها بعد قرون متطاولة جمع مالم يوجد في الطبقتين الاولين وكانت في المجاميع والمسانيد المختفية فنوهوا بأمرها وكانت على ألسنة من لم يكتب حديثه المحدثون ككثير من الوعاظ المتشدقين وأهل الاهواء والضعفاء أوكانت من آثار الصحابة والتابعين أو من كلام الحكماء والوعاظ خلطها الرواة بحديث النبي (ص) سهواً أو عمداً أوكانت من محتملات

(١) الصحيح من الحديث مارواه عدل تام الضبط بسند متصل غير معلل ولا شاذ وهذا هو الصحيح لذاته فان خف الضبط فالحسن لذاته وبكثرة الطرق يصحح فيسمى الصحيح لغيره والضعيف مادون الحسن والمعروف ما كان في سنده ثقة خالف ضعيفاً في حديثه . ومروي ذلك الضعيف يسمى المنكر ويطلق المنكر أيضاً على حديث في سنده كثير الغلط أو غافل عن الاتقان أو فاسق . والغريب ما كان في سنده منفرد بالرواية لم يشاركه فيها أحد أولم يكن في الاسناد واحد والشاذ ما كان في سنده ثقة خالف من هو أرجح منه وعلى رأي يطلق على من لازمه ... ما كان فيه تقديم وتأخير كنصب وكعب بن مرة

القرآن والحديث الصحيح فرواها بالمعنى قوم صالحون لايعرفون غوامض الرواية فجعلوا المعاني أحاديث مرفوعة أوكانت مفهومة من اشارات الكتاب والسنة جعلوها أحاديث منفصلة برأسها عمداً أوكانت جملاشتى في أحاديث مختلفة جعلوها حديثاً واحداً بنسق واحد ومظنة هذه الاحاديث كتاب الضعفاء لابن حبان والكامل لابن عدي وكتب الخطيب وأبي نعيم والجوزقاني وابن عساكر وابن النجار والديلمي وكاد مسند الخوارزمي يكون من هذه الطبقة وأصلح هذه الطبقة ماكان ضعيفاً محتملا وأسوؤها ماكان موضوعاً أو مقلوباً شديد النكارة. وهذه الطبقة مادة كتب الموضوعات لابن الجوزي أما الطبقة الاولى والثانية فعليهما اعتماد المحدثين . وأما الثالثة فلا يباشرها للعمل عليها والقول بها الا النحارير الجهابذة الذين يحفظون اسماء الرجال وعلل الاحاديث، نعم ربما يؤخذ منها المتابعات والشواهد — وقد جعل الله لكل شيء قدراً — وأما الرابعة فالاشتغال بجمعها أوالاستنباط منها نوع تعمق من المتأخرين وان شئت الحق فطوائف المبتدعين من الرافضة وغيرهم يتمكنون بأدنى عناية ان يلخصوا منها شواهد مذاهبهم فالانتصار بها غير صحيح في معترك العلماء بالحديث اه

ولابي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري (١) مقالة في ترتيب كتب الحديث جرى فيها على ما ظهر له في ذلك ذكرها في كتاب مراتب الديانة وقد أورد السيوطي خلاصتها في كتاب التقريب فقال . وأما ابن حزم فانه قال أولى الكتب الصحيحان ثم صحيح سعيد بن السكن (٢) والمنتقى لابن جارود (٣) والمنتقى لقاسم بن أصبغ (٤) ثم بعد هذه الكتب كتاب أبي داود (٥) وكتاب النسائي (٦)* ومصنف قاسم بن أصبغ ومصنف الطحاوي (٧) ومسند أحمد (٨) ومسند البزار (٩) وأبي بكر (١٠) وعثمان (١١) ابني أبي شيبة ومسند ابن راهويه « ١٢ » والطيالسي « ١٣» والحسن بن سفيان « ١٤ » والمستدرك للحاكم «١٥» وكتاب ابن سنجر «١٦» ويعقوب بن شيبة «١٧» وعلي

(١) توفي سنة ٤٥٦ (٢) سنة ٣٥٣ (٣) سنة ٣٠٧ (٤) سنة ٣٤٠ (٥) سنة ٢٧٥ (٦) سنة ٣٠٣ * انما لم يذكر سنن ابن ماجه ولا جامع أبي عيسى الترمذي لانه ما رآهما ولا دخلا الاندلس الا بعد وفاته (٧) سنة ٣٢١ (٨) سنة ٢٤١ (٩) سنة ٢٩٢ «١٠» سنة ٢٣٥ «١١» سنة ٢٣٩ «١٢» سنة ٢٣٧ «١٣» سنة ٢٠٤ «١٤» سنة ٣٠٣ «١٥» سنة ٤٠٥ «١٦» سنة ٢٥٨ «١٧» سنة ٢٦٢

ابن المديني(١) وابن أبي عزرة (٢) وماجرى مجراها من الكتب التي أفردت لكلام رسول الله (ص) ثم بعدها الكتب التي فيها كلامه وكلام غيره. ثم ما كان فيه الصحيح فهو أجل مثل مصنف عبد الرازق (٣) ومصنف ابن أبي شيبة ومصنف بقي بن مخلد القرطبي (٤) وكتاب محمد بن نصر المروزي (٥) وكتاب ابن المنذر (٦) ثم مصنف حماد بن سلمة (٧) ومصنف سعيد بن منصور (٨) ومصنف وكيع بن الجراح (٩) ومصنف الزبالي وموطأ مالك وموطأ ابن أبي ذئب (١٠) وموطأ ابن وهب (١١) ومسائل أحمد بن حنبل وفقه أبي عبيد (١٢) وفقه أبي ثور (١٣) وماكان من هذا النمط مشهوراً كحديث شعبة (١٤) وسفيان (١٥) والليث (١٦) والاوزاعي (١٧) والحميدي (١٨) وابن مهدي (١٩) ومسدد «٢٠» وما جرى مجراها فهذه طبقة موطأ مالك بعضها أجمع للصحيح منه وبعضها مثله وبعضها دونه ولقد أحصيت ما في حديث شعبة من الصحيح فوجدته ثمانمائة حديث ونيفاً مسندة ومرسلا يزيد على المائتين وأحصيت ما في موطأ مالك وما في حديث سفيان بن عيينة فوجدت في كل واحد منهما من المسند خمسمائة ونيفا مسندة وثلاثمائة مرسلا ونيفا وفيه نيف وسبعون حديثاً قد ترك مالك نفسه العمل بها وفيها أحاديث ضعيفة وهاها جمهور العلماء

تاريخ علوم الحديث الاخرى

الى هنا كانت العناية موجهة الى تاريخ الحديث من حيث الكتب الجامعة لالفاظه والشارحة لمتونه وان ذلك لغرض من أغراض، وناحية من نواح، فان خيرة المسلمين، وشيوخ المحدثين، كما عنوا بذلك عنوا بالتأليف في شرح غريبه، وبيان ناسخه من منسوخه، واظهار حال رجاله والكشف عن علومه ومصطلحاته

توفي «١» سنة ٢٣٤ «٢» سنة ٢٧٦ «٣» سنة ٢١١ «٤» سنة ٢٧٦ «٥» سنة ٢٩٤ «٦» لا أدري هل هو ابراهيم بن المنذر المتوفى سنة ٢٣٦ أو علي بن المنذر المتوفى سنة ٢٥٦ «٧» سنة ١٦٧ «٨» سنة ٢٢٧ «٩» سنة ١٩٧ «١٠» سنة ١٥٩ «١١» سنة ١٩٧ «١٢» سنة ٢٣٤ «١٣» سنة ٢٤٠ «١٤» سنة ١٦٠ «١٥» سنة ١٩٨ «١٦» سنة ١٧٥ «١٧» سنة ١٥٦ «١٨» سنة ٢١٩ «١٩» سنة ١٩٨ «٢٠» سنة ٢٢٨

من صحيح وعليل ومقبول ومردود ومتواتر ومشهور، الى غير ذلك من جليل الاغراض ومتنوع الاقسام

وسنفرد فصلا لكل نوع من أنواعه الشهيرة نلم فيه بتوضيحه، ونعرج على تاريخه، مقرنين ذلك بذكر أحسن المؤلفات فيه حتى يتجلى لك تاريخ الحديث من جملة نواحيه

علم غريب الحديث

الغريب من الكلام يقال على وجهين أحدهما أن يراد به بعيد المعنى غامضه بحيث لايتناوله الفهم الاعن بعد ومعاناة فكر والوجه الآخر أن يراد به كلام من بعدت به الدار من شواذ قبائل العرب

وهانحن أولاء نحكي لك خلاصة ماقاله ابن الاثير في مفتتح نهايته فانه أحسن من وفى هذا الموضوع قسطه من البيان ضامين اليه ماعثرنا عليه في بطون الكتب التي تعرضت لهذا الشأن

كان (ص) افصح العرب لسانا، وأوضحهم بيانا، وأعرفهم بمواقع الخطاب، وأهداهم الى طرق الصواب، وكان يخاطب العرب على اختلاف شعوبهم وتباين لهجاتهم، كلا منهم بما يفهم، ويحادثه بما يعلم، وكان اصحابه والوفود عليه من العرب يعرفون اكثر ما يقول وما جهلوه سألوه عنه فيوضحه لهم واستمر عصره (ص) الى حين وفاته على هذا السنن المستقيم وعليه سلك الصحابة في عصرهم. وكان اللسان العربي عندهم صحيحاً محروساً من الدخيل الى أن فتحت الامصار وخالط العرب غير جنسهم من الروم والفرس والحبش والنبط وغيرهم من أنواع الامم الذين فتحت بلادهم للمسلمين ورفرف عليها علم الموحدين فاختلطت الفرق وامتزجت الالسن وتداخلت اللغات ونشأ بينهم الاولاد فتعلموا من اللسان العربي مالابد لهم في الخطاب والمحاورة منه، وتركوا ما عداه لعدم حاجتهم عنه واستمر الامر على هذا النهج الى أن انقرض عصر الصحابة — القرن الاول — وجاء التابعون لهم باحسان فسلكوا سبيلهم، وان كانوا في الاتقان دونهم ولم ينقض زمانهم — سنة ١٥٠ — الا واللسان العربي قد استحال اعجمياً أو كاد فلاترى المستقل به والمحافظ عليه الا الآحاد فجهل الناس من هذا المهم ما كان يلزمهم معرفته واخروا منه ما كان يجب عليهم تقدمته، فلما اعضل

الداء، وعز الدواء، الهم الله جماعة من اولي المعارف والنهى ان يصرفوا الى هذا الشأن طرفاً من عنايتهم، فشرعوا للناس موارده، وقعدوا لهم قواعده، فقيل ان أول من جمع في هذا الفن شيئاً أبو عبيدة معمر بن المثنى البصري «١» فجمع من الفاظ غريب الحديث والاثر كتيباً صغيراً ولم تكن قلته لجهله بغيره من غريب الحديث وانما كان ذلك لامرين أحدهما ان كل مبتدع لامر لم يسبق اليه فانه يكون قليلا ثم يكثر والثاني أن الناس يومئذ كان فيهم بقية وعندهم معرفة فلم يكن الجهل قد عم. ثم جمع أبو الحسن النضر بن شميل المازني «٢» كتاباً اكبر من كتاب أبي عبيدة بسط فيه القول على صغر حجمه. ثم جمع عبد الملك ابن قريب الاصمعي وكان في عصر أبي عبيدة وتأخر عنه كتاباً احسن فيه الصنع وأجاد، ونيف على كتابه وزاد، وكذلك محمد بن المستنير المعروف بقطرب «٣» وغيره من أئمة اللغة والفقه جمعوا أحاديث وتكلموا على لغتها ومعناها في اوراق ذوات عدد ولم يكد أحدهم ينفرد عن الآخر بكثير حديث لم يذكره الآخر واستمر الحال الى زمن أبي عبيد القاسم بن سلام «٤» وذلك بعد المائتين فجمع كتابه المشهور في غريب الحديث والآثار افنى فيه عمره اذ جمعه في أربعين سنة وانه لكتاب حافل بالاحاديث والآثار الكثيرة والمعاني اللطيفة والفوائد الجمة. ولقد ظن رحمه الله على كثرة تعبه وطول نصبه انه قد أتى على معظم الغريب وما علم ان الشوط بطين، والمنهل معين، ولقد بقي كتابه معتمد الناس الى عصر أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري «٥» فصنف كتابه المشهور ولم يودعه شيئاً من كتاب أبي عبيد الا ما دعت الحاجة اليه من زيادة شرح وبيان أو استدراك أو اعتراض فجاء مثل كتاب أبي عبيد أو أكثر منه وقد قال في مقدمته أرجو ان لا يكون بقي بعد هذين الكتابين من غريب الحديث ما يكون لاحد فيه مقال وقد كان في عصره ابراهيم بن اسحاق الحربي الحافظ «٦» جمع كتاباً في الحديث بلغ خمس مجلدات بسط فيه القول وأطال بذكر المتون واسانيدها ولو لم يكن في المتن الا كلمة واحدة من الغريب فهجر الناس لذلك كتابه وان كان جم الفائدة. ثم اكثر الناس من التصانيف في هذا الفن كالمبرد «٧» وثعلب «٨» ومحمد بن قاسم الانباري «٩» وسلمة بن عاصم النحوي وعبد الملك

«١» توفي سنة ٢١٠ «٢» سنة ٢٠٤ «٣» سنة ٢٠٦ «٤» سنة ٢٢٤
«٥» سنة ٢٧٦ «٦» سنة ٢٨٥ «٧» سنة ٢٨٥ «٨» سنة ٢٩١ «٩» سنة ٣٢٨

ابن حبيب المالكي ومحمد بن حبيب البغدادي وغيرهم من أئمة اللغة والنحو والفقه والحديث، واستمرت الحال الى عهد الامام محمد بن احمد الخطابي البستي (١) فالف كتابه المشهور في غريب الحديث سلك فيه نهج أبي عبيد وابن قتيبة وصرف عنايته فيه الى جمع ما لم يوجد في كتابيهما فاجتمع له من ذلك ما يداني كتاب أبي عبيد أو كتاب صاحبه فكانت هذه الكتب الثلاثة في غريب الحديث والاثر امهات الكتب وهي الدائرة في أيدي الناس وعليها يعول علماء الامصار الا ان هذه الكتب الثلاثة وغيرها لم يكن فيها كتاب صنف مرتباً ومقفى يرجع الانسان عند طلب الحديث اليه الا كتاب الحربي وهو على طوله وعسر ترتيبه لا يوجد الحديث فيه الا بعد تعب وعناء، ثم هي مع ذلك متفرقة فيها الاحاديث فلا يعلم الناظر في أيها يوجد الغريب فيحتاج الى البحث في كثير منها حتى يجد غرضه.

فلما كان زمن أبي عبيد احمد بن محمد الهروي (٢) وهو من طبقة الخطابي ومعاصريه الف كتابه السائر جمع فيه بين غريب القرآن والحديث ورتبه ترتيباً لم يسبق اليه فاستخرج الكلمات اللغوية الغريبة من أماكنها واثبتها في حروفها مرتباً لها على حروف المعجم ولم يهمه بالاسانيد والمتون والرواة — شأن ما سبقه من الكتب — فان ذلك له علم مستقل به وقد جمع فيه من غريب الحديث ما في كتب من تقدمه واربى عليه فجاء كتاباً جامعاً في الحسن بين الاحاطة والوضع الا أنه جاء الحديث مفرقاً في حروف كلماته. ولقد ذاع صيت هذا الكتاب بين الناس واتخذوه عمدة في الغريب واقتفى أثره كثيرون واستدرك مافاته آخرون

ومازالت الايام تنقضي عن تصانيف وتبرز تآليف الى عهد الامام أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري (٣) فالف كتابه الفائق في غريب الحديث وانه لكتاب قيم رتبه على وضع اختاره مقفى على حروف المعجم ولكن في العثور على معرفة الغريب منه مشقة وان كانت دون غيره مما سبقه لانه جمع في التقفية بين ايراد الحديث مسروداً جميعه أو بعضه ثم شرح ما فيه من غريب فيجيء شرح كلماته الغريبة في حرف واحد فترد الكلمة في غير حروفها فكان لذلك كتاب الهروي أقرب منه متناولا وان كانت كلمات الحديث متفرقة في حروفها

ولقد الف أبو بكر محمد بن أبي بكر المديني الاصفهاني (٤) كتاباً جمع فيه

(١) توفي سنة ٣٨٨ (٢) سنة ٤٠١ (٣) سنة ٥٣٨ (٤) سنة ٥٨١

على طريقة الهروي ماناته من غريب القرآن والحديث، وكذلك صنف أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي «١» كتاباً في غريب الحديث خاصة نهج فيه منهج الهروي بل كتابه مختصر من كتابه لا يزيد عليه الا الكلمة الشاذة واللفظة النادرة بخلاف كتاب أبي موسى المديني فانه لا يذكر منه الا مادعت الحاجة اليه

أقول ثم جاء مجد الدين مبارك بن محمد بن محمد الشيباني المعروف بابن الاثير «٢» الذي لخصت ما تقدم من مقدمة نهايته لجمع ما في كتاب الهروي وأبي موسى من غريب الحديث والاثر وأضاف اليه ماعثر عليه في كتب السنة من صحاح وسنن وجوامع ومصنفات ومسانيد — وانه لكثير — سالكا في الترتيب منهج أصله فكان من ذلك كتابه — النهاية في غريب الحديث والاثر — وقد رمز لما في كتاب الهروي بالهاء ولما في كتاب أبي موسى المديني بالسين . وقد ذيل النهاية محمود بن أبي بكر الارموي (٣) واختصرها عيسى بن محمد الصفوي (٤) فيما يقرب من نصف حجمها وكذلك الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٥) في كتابه الدر النثير تلخيص نهاية ابن الاثير ، وله : التذييل والتذنيب على نهاية الغريب ، وقد طبعت النهاية وعلى هامشها الدر النثير مشكولة وغير مشكولة

علم رجال الحديث

هذا فن جليل القدر عظيم الأثر الحاجة اليه داعية والضرورة به قاضية وليس من عظيم في الحديث وهو عنه بعيد أو باعه فيه قصير وكيف لا يكون كذلك وهو نصف علم الحديث فانه سند ومتن والسند عبارة عن الرواة فمعرفة أحوالهم نصف هذا العلم بلا ريب

والكتب المصنفة فيه كثيرة الانواع متشعبة الاغراض فمن مؤلف في أسماء الصحابة خاصة أو في رواة الحديث عامة ومن خاص بالثقات أو الضعفاء أو الحفاظ أو المدلسين أو الوضاعين ومن مبين للجرح والتعديل والفاظهما ومراتب كل منها ومن كاشف عن المؤتلف والمختلف أو المتفق والمفترق من الاسماء والانساب ومن قاصر على ذكر الوفيات أو موضح لرجال كتاب معين أو عدة كتب مخصوصة وكل كتب فيه العلماء فأحسنوا الكتابة وبلغوا فيها الغاية كما ترى بعد

(١) توفي سنة ٥١٤ (٢) سنة ٦٠٦ (٣) سنة ٧٢٣ (٤) سنة ٩٥٣ (٥) سنة ٩١١

« ا » أسماء الصحابة

الصحابي كل من لقي النبي (ص) مؤمناً به ومات على ذلك ولو تخللت ردة في الاصح وأول من يعرف عنه التصنيف في هذا النوع أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري (١) أفرد أسماء الصحابة في مؤلف وجمعها مضمومة الى من بعدهم جماعة من طبقة مشايخه كخليفة بن الخياط المحدث النسابة (٢) ومحمد بن سعد (٣) الذي بلغ مؤلفه خمسة عشر مجلداً ومن قرنائه كيعقوب بن سفيان (٤) وأبي بكر بن أبي خيثمة (٥) وصنف في الصحابة خاصة جمع بعدهم كالحافظ البغوي عبد الله بن محمد ابن عبد العزيز (٦) وأبي بكر الحافظ الكبير عبد الله بن أبي داود (٧) ثم علي بن السكن (٨) وأبو بكر عمر بن أحمد المعروف بابن شاهين (٩) وابو منصور البارودي وابو حاتم الرازي ابن حبان (١٠) وسليمان بن احمد الطبراني (١١) ضمن معجمه الكبير ثم عبد الله بن منده (١٢) والحافظ ابو نعيم (١٣) ثم عمر بن عبد البر (١٤) الف كتابه الاستيعاب وسماه بذلك لظنه انه استوعب كتب من قبله في كتابه ومع ذلك ففاته شيء كثير فذيل عليه أبو بكر بن فتحون ذيلا حافلا وذيل عليه جماعة في تصانيف لطيفة وذيل أبو موسى المديني (١٥) على ابن منده ذيلا كبيراً . ومازال الناس يؤلفون في ذلك الى ان كانت تباشير القرن السابع فجمع عز الدين ابن الاثير «١٦» كتاباً حافلا سماه أسد الغابة جمع فيه كثيراً من التصانيف المتقدمة الا انه تبع من قبله فخلط من ليس صحابياً بهم وأغفل كثيراً من الاوهام الواقعة في كتبهم ، ثم جرد الاسماء التي في كتابه مع زيادات عليها الحافظ أبو عبد الله الذهبي «١٧» في كتابه التجريد وأعلم لمن ذكر غلطاً ولمن لاتصح صحبته ولم يستوعب ذلك ولا قارب ثم جاء الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني (١٨) فألف كتابه الاصابة في تمييز الصحابة - في ثمانية أجزاء صغيرة - جمع فيه مافي الاستيعاب وذيله وأسد الغابة واستدرك عليهم كثيراً وقد اختصره تلميذه جلال الدين السيوطي في كتاب سماه عين الاصابة

---

(١) توفي سنة ٢٥٦ (٢) سنة ٢٤٠ (٣) سنة ٢٣٠ (٤) سنة ٢٧٧ (٥) سنة ٢٧٩ (٦) سنة ٣٣٠ (٧) سنة ٣١٦ «٨» سنة ٣٥٣ «٩» سنة ٣٨٥ «١٠» سنة ٣٥٤ «١١» سنة ٣٦٠ «١٢» سنة ٣٩٥ «١٣» سنة ٤٦٣ «١٤» سنة ٥٨١ «١٥» سنة ٦٣٠ «١٦» سنة ٧٤٨ «١٧» سنة ٨٥٢ «١٨»

وعد الف كل من البخاري ومسلم كتاباً في أسماء الوحدان أي الصحابة الذين ليس لهم الا حديث واحد وكذلك الف يحيى بن عبد الوهاب بن منده الاصبهاني (١) كتاباً فيمن عاش من الصحابة عشرين سنة ومائة

«ب» علم الجرح والتعديل

هو علم يبحث فيه عن جرح الرواة وتعديلهم بالفاظ مخصوصة وعن مراتب تلك الالفاظ والكلام في الرجال جرحاً وتعديلا ثابت عن رسول الله (ص) ثم عن كثير من الصحابة والتابعين فمن بعدهم وجوز ذلك صوناً للشريعة لاطعناً في الناس وكما جاز الجرح في الشهود جاز في الرواة والتثبت في أمر الدين أولى من التثبت في الحقوق والاموال فلهذا افترضوا على أنفسهم الكلام في ذلك

وقد تكلم في الرجال خلق لا يتهيأ حصرهم وقد سرد ابن عدي (٢) في مقدمة كتابه الكامل جماعة الى زمنه فمن الصحابة ابن عباس (٣) وعبادة بن الصامت (٤) وأنس (٥) ومن التابعين الشعبي (٦) وابن سيرين (٧) وسعيد بن المسيب (٨) وهم قليل بالنسبة لمن بعدهم وذلك لقلة الضعف فيمن يروون عنهم اذ أكثرهم صحابة وهم عدول وغير الصحابة منهم اكثرهم ثقات اذ لا يكاد يوجد في القرن الاول من الضعفاء الا القليل وأما القرن الثاني فقد كان في أوائله من اوساط التابعين جماعة من الضعفاء وضعف اكثرهم نشأ غالباً من قبل تحملهم وضبطهم للحديث فكانوا يرسلون كثيراً ويرفعون الموقوف وكانت لهم أغلاط وذلك مثل أبي هرون العبدري ٩ ولما كان آخر عصر التابعين وهو حدود الخمسين ومائة تكلم في التعديل والتجريح طائفة من الائمة فضعف الاعمش ١٠ جماعة ووثق آخرين ونظر في الرجال شعبة ١١ وكان متثبتاً لا يكاد يروي الاعن ثقة ومثله مالك ١٢ وممن كان في هذا العصر اذا قال قبل قوله معمر ١٣ وهشام الدستوائي ١٤ والاوزاعي ١٥ وسفيان الثوري ١٦ وابن الماجشون ١٧ وحماد بن سلمة ١٨ والليث بن سعد ١٩ ويعد هؤلاء طبقة

«١» توفي سنة ٥١١ «٢» ٣٦٥ «٣» ٦٨ «٤» ٣٤ «٥» ٩٢ «٦» بعد المائة «٧» ١١٠ «٨» بعد التسعين «٩» ١٣٤ «١٠» ١٤٨ «١١» ١٦٠ «١٢» ١٧٩ «١٣» ١٥٣ (١٤) ١٥٤ «١٥» ١٥٦ «١٦» ١٦١ «١٧» ٢١٣ «١٨» ١٦٧ «١٩» ١٧٥

منهم ابن المبارك«١» وهيثم بن بشير«٢» وأبو اسحاق الفزاري«٣» والمعا
عمران الموصلي«٣» وبشر بن المفضل«٤» وابن عيينة«٥» وقد كان في ز
طبقة أخرى منهم ابن علية«٦» وابن وهب«٧» ووكيع بن الجراح «٧»
انتدب في ذلك الزمان لنقد الرجال الحافظان الحجتان يحيى بن سعيد القطان
وعبد الرحمن بن مهدي«٨» وكان للناس وثوق بهما فصار من وثقاهما
ومن جرحاه مجروحاً ومن اختلفا فيه — وذلك قليل — رجع الناس في
مارجح عندهم ثم ظهرت بعدهم طبقة أخرى يرجع اليهم في ذلك منهم
ابن هرون«٩» وابو داود الطيالسي«١٠» وعبد الرازق بن همام «١١
عاصم الضحاك النبيل بن مخلد«١٢»

ثم صنفت الكتب في الجرح والتعديل والعلل وبينت فيها أحوال ا
وكان رؤساء الجرح والتعديل في ذلك الوقت جماعة منهم يحيى بن معين«
وقد اختلفت آراؤه وعبارته في بعض الرجال كما تختلف آراء الفقيه ائمـ
وعبارته في بعض المسائل التي لاتكاد تخلص من اشكال ومن طبقته احمد
حنبل«١٤» وقد سأله جماعة من تلامذته عن كثير من الرجال فتكلم فيهم
بدالاولم يخرج بهم عن دائرة الاعتدال. وقدتكلم في هذا الامر محمد بن سعد (
كاتب الواقدي في طبقاته وكلامه جيد معقول وأبو خيثمة زهير بن حرب (
وله في ذلك كلام كثير وأبو جعفر عبد الله بن محمد النبيل حافظ الجزيرة ا
قال فيه أبوداود: لم أر أحفظ منه. وعلي بن المديني (١٧) وله التصانيف الكـ
في العلل والرجال ومحمد بن عبد الله بن نمير (١٧) الذى قال فيه أحمد هو
العراق وأبو بكر بن أبي شيبة (١٨) صاحب المسند وكان آية في الحفظ وعبـ
بن عمرو القواريري (١٨) الذي قال فيه صاحب جرزة هو أعلم من رأيت بحا
أهل البصرة واسحق بن راهويه (١٩) امام خراسان وأبو جعفر محمد بن عبـ

(١) توفي سنة ١٨١ (٢) سنة ١٨٨ (٣) سنة ١٨٥ (٤) سنة ١٨٦ (٥)
١٩٧ (٦) سنة ١٩٣ (٧) سنة ١٩٧ (٨) سنة ١٩٨ (٩) سنة ٢٠٦ (١٠)
٢٠٤ (١١) سنة ٢١١ (١٢) سنة ٢١٢ «١٣» سنة ٢٣٣ «١٤» سنة ٢٤١ «
سنة ٢٣٠ «١٦» سنة ٢٣٤ «١٧» سنة ٢٣٤ «١٨» سنة ٢٣٥ «١٩» سنة ٢

بن عمار الموصلي الحافظ وله كلام جيد في الجرح والتعديل وأحمد بن صالح (١) حافظ مصر وكان قليل المثل (٢) وهرون بن عبد الله الحمال (٣) وكل هؤلاء من أئمة الجرح والتعديل

ثم خلفتهم طبقة أخرى متصلة بهم منهم اسحق الكوسج (٤) والدارمي (٥) والبخاري (٦) والعجلي الحافظ نزيل المغرب (٧) ويتلوهم أبو زرعة (٨) وأبو حاتم (٩) الرازيان، ومسلم (١٠) وأبو داود السجستاني (١١) وبقي بن مخلد «١٢» وأبو زرعة الدمشقي «١٣» ثم من بعدهم جماعة منهم عبد الرحمن بن يوسف البغدادي وله مصنف في الجرح والتعديل وكان كأبي حاتم في قوة النفس وابراهيم بن اسحاق الحربي «١٤» ومحمد بن وضاح «١٥» حافظ قرطبة وأبو بكر بن أبي عاصم «١٦» وعبد الله بن أحمد «١٧» وصالح جرزة «١٨» وأبو بكر البزار «١٩» ومحمد بن نصر المروزي «٢٠» ومحمد بن عثمان بن أبي شيبة «٢١» وهو ضعيف لكنه من الائمة في هذا الامر. ثم من بعدهم جماعة منهم أبو بكر الفريابي والنسائي «٢٢» وأبو يعلى «٢٣» وأبو الحسن سفيان وابن خزيمة «٢٤» وابن جرير الطبري «٢٥» والدولابي «٢٦» وأبو عروبة الحراني «٢٧» وأبو الحسن أحمد بن عمير وأبو جعفر العقيلي «٢٨» ويتلوهم جماعة منهم ابن أبي حاتم «٢٩» واحمد ابن نصر البغدادي شيخ الدارقطني «٣٠» وآخرون . ثم من بعدهم جماعة منهم أبو حاتم ابن حبان البستي «٣١» والطبراني «٣٢» وابن عدي الجرجاني «٣٣» وكتابه في الرجال اليه المنتهى في الجرح والتعديل

. وقد جاء بعد ابن عدي وطبقته جماعة منهم أبو علي الحسين بن محمد النيسابوري (٣٤) وله مسند معلل في الف جزء وثلاثمائة، وأبو الشيخ ابن حبان (٣٥) وأبو بكر الاسماعيلي (٣٦) وأبو احمد الحاكم (٣٧) والدارقطني (٣٨) وبه ختمت معرفة العلل. ثم من بعدهم جماعة منهم ابن منده (٣٩) وأبو عبد الله

---

(١) توفي سنة ٢٤٢ «٢» ٢٤٨ «٣» ٢٤٣ «٤» ٢٥١ «٥» ٢٥٥ «٦» ٢٥١ «٧» ٢٢١ «٨» ٢٦٤ «٩» ٢٧٧ «١٠» ٢٦١ «١١» ٢٧٥ «١٢» ٢٧٦ـ١٣ـ٢٨١ـ١٤ـ٢٨٥ـ١٥ـ٢٨٩ـ١٦ـ٢٨٧ـ١٧ـ٢٩٠ـ١٨ـ٢٩٣ـ١٩ـ٢٩٢ـ٢٠ـ٢٩٤ـ٢١ـ٢٩٧ـ٢٢ـ٣٠٣ـ٢٣ـ٣٠٧ـ٢٤ـ٣١١ـ٢٥ـ٣١٠ـ٢٦ـ٣١١ـ٢٧ـ٣١٨ـ٢٨ـ٣٢٢ـ٢٩ـ٣٢٧ـ٣٠ـ٣٢٣ـ٣١ـ٣٠٤ـ٣٢ـ٣٦٠ـ٣٣ـ٣٦٥ـ٣٤ـ٣٦٥ـ٣٥ـ٣٦٩ـ٣٦ـ٣٧١ـ٣٧ـ٣٧٨ـ٣٨ـ٣٨٥ـ٣٩ـ٣٩٥ ..

الحاكم (١) وأبو نصر الكلاباذي (٢) وعبدالرحمن بن فطيس قاضي قرطبة (٣) وله دلائل السنة وعبد الغني بن سعيد (٤) وأبو بكر بن مردويه الاصفهاني (٥) ثم من بعدهم جماعة منهم محمد بن أبي الفوارس البغدادي (٦) وأبو بكر البرقاني (٧) وأبو حاتم العبدري ـ وقد كتب عنه عشرة آلاف جزء ـ وخلف بن محمد الواسطي «٨» وأبو مسعود الدمشقي «٩» وأبو الفضل الفلكي «١٠» وله كتاب الطبقات في الف جزء . ثم من بعدهم جماعة منهم الحسن بن محمد الخلال البغدادي «١١» وأبو يعلي الخليلي «١٢» ثم من بعدهم جماعة منهم ابن عبد البر «١٣» وابن حزم «١٤» الاندلسيان والبيهقي «١٥» والخطيب «١٦» ثم من بعدهم جماعة منهم ابن ما كولا «١٧» وأبو الوليد الباجي «١٨» وقد صنف في الجرح والتعديل — وأبو عبدالله الحيدي «١٩» . ثم من بعدهم جماعه منهم أبو الفضل ابن طاهر المقدسي «٢٠» والمؤتمن بن احمد «٢٠» وشهرويه الديلمي . ثم من بعدهم جماعة منهم أبو موسى المديني «٢١» وأبو القاسم بن عساكر «٢٢» وابن بشكوال «٢٣» . ثم من بعدهم جماعة منهم أبو بكر الحازمي «٢٤» وعبد الغني المقدسي «٢٥» والرهاوي وابن مفضل المقدسي «٢٦» . ثم من بعدهم جماعة منهم ابو الحسن بن القطان «٢٧» وابن الأنماطي «٢٨» وابن نقطة ٢٩ ثم من بعدهم جماعة منهم ابن الصلاح «٣٠» والزكي المنذري «٣١» وأبو عبدالله البرذالي «٣٢» وابن الابار وأبو شامة «٣٣» ثم من بعدهم جماعة منهم ابن دقيق العيد «٣٤» والشرف الميدومي وابن تيمية ٣٥ ثم من بعدهم جماعة منهم المزي «٣٦» وابن سيد الناس وأبو عبد الله بن أيبك والذهبي «٣٧» والشهاب بن فضل الله «٣٨» ومغلطاي «٣٩» والشريف الحسيني الدمشقي والزين العراقي «٤٠» ثم من بعدهم جماعة منهم الولي العراقي والبرهان الحلبي وابن حجر العسقلاني «٤١» وآخرون من كل عصر الا ان المتقدمين كانوا أقرب الى الاستقامة وأبعد من موجبات الملامة

ولعلك سئمت الاكثار من ذكر الاسماء — وان كان مقتضى الحال وعين ما يتطلبه المقام — لكن لنا في ذلك غرض جليل ومغزى نبيل وهو أن نكم

١ توفي سنة ٤٠٥ ـ٢ـ ٣٩٨ ـ٣ـ ٤٠٢ ـ٤ـ ٤٠٩ ـ٥ـ ٤١٦ ـ٦ـ ٤١٢ ـ ٧ ـ ٤٢٥ ـ٨ـ ٤٠١ ـ٩ـ ٤٠٠ ـ١٠ـ ٤٣٨ ـ١١ـ ٤٣٩ ـ١٢ـ ٤٤٦ ـ١٣ـ ٤٦٣
١٤—٤٥٦ .١٥. ٤٥٨ .١٦. ٤٦٣ .١٧. ٤٧٥ .١٨. ٤٧٤ .١٩. ٤٨٨ .٢٠. ٥٠٧
٢١—٥٨١ .٢٢. ٣٢٣ .٢٣. ٥٧٨ .٢٤. ٥٨٤ .٢٥. ٦٠٠ .٢٦. ٦١١ .٢٧. ٦٢٨
٢٨—٦١٩ .٢٩. ٥٢٩ .٣٠. ٦٤٣ .٣١. .٣٢. ٦٣٦ .٣٣. ٦٢٥ .٣٤. ٧٠٢
٣٥: ٧٢٨ :٣٦: ٧٤٢ :٣٧: ٧٤٨ :٣٨: ٧٤٩ :٣٩: ٧٦٣ :٤٠: ٨٠٦ :٤١: ٨٥٢

أفواه اولئك الذين تقولوا على السنة انه دخل فيها الغريب عنها اذ قد طال العهد عليها وتناولتها عصور الجهالة وبعثرت منها أحن الزمان وطوارئ الحدثان فنحن نقدم لهم دليلا بيناً وبرهاناً ساطعاً أن السنة خدمها المسلمون خدمة جليلة لم تعهد لدى أمة من الامم ولا في ملة من الملل وان ذلك كان ديدن المسلمين في كل عصر فلم يغفلوها فترة من الزمن حتى يعبث بها أولو الاغراض، وينال منها ذوو الالحاد، بل لازالت محفوظة من يد العابثين، مخدومة من جهابذة المحدثين، فلهم الكلمة على المتقولين، والثناء من عامة المسلمين

الخيال في الشعر العربي

٣

حال المعنى والتخييل

قد يصوغ الشاعر المعنى لاول الخطاب في صورة خيالية فلا يدركه الا من صفت قريحته ورقت حاشية ألمعيته ككثير من الاشعار الواردة على طريق المعميات والالغاز أو من سبق اليه ما يهديه الى المراد ويساعده على فهمه من قرينة حال أو مقال كبعض المحاورات التي يقصد فيها المتخاطبان الى اخفاء الغرض وكتمه عمن يصغي الى حديثهم أو يطلع على رسائلهم

وقد يصرح بالمعنى ثم يدخل به في طريق التخييل وهذا اما ان يخرج الصريح بالتخييل فيفصل المعنى ويضع بازاء كل قطعة منه صورة خيالية كما قال العتابي يصف السحاب

والغيم كالثوب في الآفاق منتشر من فوقه طبق من تحته طبق
تظنه مصمتا لافتق فيه فان سالت عزاليه قلت الثوب منفتق
ان معمع الرعد فيه قلت منخرق أو لألأ البرق فيه قلت محترق

مثل الغيم الضارب في الافق بالثوب المنشور ثم أخذ يقرن كل حال من أحواله بما يقابلها من أحوال الثوب فجعل امساكه عن المطر مظنة الصحة والمتانة، وانسكاب الغيث من خلاله منبئا بفتقه، ومعمعة الرعد اعلانا بانخراقه، ووميض البرق شظايا من

الهب تؤذن باحتراقه، واما ان يستوفى المعنى بالصراحة ثم يأتي بمثاله الخيالي متواصل الاجزاء وهذا كقول بعضهم

رأيتكم تبدون للحرب عدة ... ولا يمنع الاسلاب منكم مقاتل
فأنتم كمثل النخل يشرع شوكه ... ولا يمنع الخراف ما هو حامل

استوفى المعنى الصريح وهو تظاهرهم بالاهبة للحرب وقعودهم عن قتال عدوهم وافتكاك ما ساب من حقوقهم، ثم ضرب له المثل على نسق واحد بالنخل يشرع نصالا مسنونة من الشوك كالمتأهب للذود بها عما يحمل من الثمار فيعمد الخراف لها ويجتنيها بأجمعها دون أن يناله ذاك الشوك بأذى

ومن أبدع ماجاء على هذا النمط قول ابن رشيق القيرواني

رجوتك للامر المهم وفي يدي ... بقايا امني النفس فيها الامانيا
وساوفت لي الايام حتى اذا انقضت ... أواخر ما عندي قطعت رجائيا
وكنت كأني نازف البئر طالبا ... لاجامها أو يرجع الماء صافيا
فلا هو أبقى ما أصاب لنفسه ... ولا هي أعطته الذي كان راجيا

وإما ان يصرح لك بالحال الذي يجعله مناطا للحديث عنه ثم يسوق القول كله على طريق التخييل كقول بعضهم

اني واياك كالصادي رأى نهلا ... ودونه هوة يخشى بها التلفا
رأى بعينيه ماء عز مورده ... وليس يملك دون الماء منصرفا

فقد أراك أول الشعر انه يريد الحديث عن حاله مع المخاطب ثم اطرد في مجال التخييل الذي أفاد به ان الحاجة تحثه على القرب منه، والخطر المعترض في سبيله ينصح له بالاحجام عنه. ومن أبدع الوصف المنسوج على هذا المثال قول شرف الدين التيفاشي

أما ترى الارض من زلزالها عجبا ... تدعو الى طاعة الرحمن كل تقي
أضحت كوالدة خرقاء مرضعة ... أولادها در ثدي حافل غدق
قد مهدتهم مهادا غير مضطرب ... وأفرشتهم فراشا غير ما قلق
حتى اذا أبصرت بعض الذي كرهت ... مما يشق من الاولاد من خلق

هزت بهم مهدهم شيئاً تنيوم ثم استشاطت وآل الطبع للخرق
فصكت المهد غضبى وهي لافظة بعضا على بعضهم من شدة النزق

اسباب جودة الخيال

لا مشاحة ان النفوس تختلف بفطرتها في صحة الذوق وقوة التذكر فيكون من أسباب التفاوت في جودة الخيال ما هو عائد الى الفطرة، والغرض في هذا المقام انما هو البحث عن الامور التي تؤثر في جودة الخيال وتبسط في نطاقه من خارج، ومدارها على أمرين

(أحدهما) تردد النظر في مظاهر المدنية فان امتلاء حافظة الشاعر من المناظر المختلفة والصور التي لا تدخل تحت حصر تجعله أغزر مادة حتى اذا عرض له معنى اقتضى الجمال ايراده في طريقة الخيال لا يعوزه متى التفت الى حافظته ان يلاقيه منها ما يساعده على العمل بسهولة، ثم أنه لغزارة مادته وسعة مجاله تكون مخيلته أكثر عملا في انشاء المعاني وابداعها، وكثرة العمل مما تترشح به هذه القوة النفسية فيكون صاحبها أقدر على صناعة التخيل وأرسخ فيها ممن كانت بضاعته مزجاة وحافظته في املاق

ومن جهة ان غزارة المادة تساعد على كثرة العمل الذي هو الابداع، وكثرة العمل تقوى بها النفس في صناعة التخييل أمكن للشاعر المدني أن يفوق الشاعر البدوي أو القروي في تخييل معان اشتركوا في العلم بالعناصر التي تنتزع منها الصور الخيالية

يبلغ تأثير المدنية في تهذيب المخيلة الى ان يكون الفرق بين عملها في حال البداوة وعملها بعد ان تحضن صاحبها الحضارة أوضح من نار على علم، فهذا علي ابن الجهم الذي قال للخليفة

انت كالكلب في حفاظك للعهـ ـد وكالتيس في قراع الخطوب

هو الذي يقول

فقلن لنا نحن الاهلة انما نضيء لمن يأوي الينا ولا نقري

بيد انه قال البيت الاول أيام كان يسكن البادية وقال البيت الثاني بعد ما نزل بغداد وتراصف في حافظته من الصور والمعاني ما رقت به حاشية طبعه وجعل قريحته تنسج من المعاني البديعة برودا ضافية

(ثانيهما) الحرية اذ لاشبهة ان الاستبداد الاعمى يطبع الناس على الجبن ويلقي في أفئدتهم رهبة تحملهم على ان يجعلوا بينهم وبين الاقوال التي تسخط لها الحكومة القاسية حاجزا لايدنون منه ، فيضيق بذلك مجال الشاعر وربما تنكب الخوض في الاجتماعيات، حذر الوقوع في السياسيات ، ومن ذا ينكر ان الخيال الذي يسخره صاحبه في كل غرض ويطلق له العنان في كل حلبة يكون أبعد مرمى وأحكم صنعا من خيال الشاعر الذي حصرته السياسة في دائرة ورسمت له خطة لايعدوها ، ولقد كنت أعرف أناسا شبوا تحت سلطة تكره للاديب أن يتمتع لهاته في الاحوال السياسية فصرفوا معظم حياتهم في التردد على الغزل والمديح والرثاء وفاضت عليهم قرائحهم في هذه الاغراض بمعان رائقة ولما سمح الوقت بالكلام في مقاصد اجتماعية أو سياسية وقف بهم الخيال في عقبة كؤود أو أتوا بها في نسج واه وهيأة متخاذلة

فالخيال حر في عمله لاتملك السلطة المستبدة مرده ولكنها تمنعه من ان يتجول على مراكب الالسنة والاقلام وهذا مايثبط الشاعر عن اطلاق خياله للعمل ولا يرخي له العنان الا في أغراض يسمح الحال لان يخاطب بها الناس نطقا أو كتابة

فذانك سيان لان يكون الخيال بديع الصنع في كل غرض يتوجه اليه ، وهينا أمر آخر اذا اتفق للشاعر حال تصديه للنظم في غرض يكون له أثر جلي في سهولة التخيل وبعد الرمية الى المعاني الغامضة وهو الاحساس والتأثر

فمن الشعراء من يتكلم عن مشاهدة وتأثر نفسي كأن يرى البطل يلقي بنفسه في مواقع الخطوب أو العالم كيف يتدفق بالحكمة البالغة أو الجواد كيف يبسط يده بالنوال فيشعر باعظامه ويأخذ في مديحه وتمجيده ، ويرى الجبان كيف تصفر أنامله من ذكر الحرب أو الجاهل كيف يتمضمض باللغو أو الباطل، أو البخيل كيف يشد على الدينار رباطا فوق رباط فيشعر في نفسه بمهانته ويتصدى لهجائه. ويعوزه من يعز عليه من قريب أو صديق أو استاذ فيشعر بالتفجع والاسف عليه وتتفجر قريحته برثائه. ويحل بصديقه فاجعة فيحس بالاشفاق عليه فيأخذ في تسليته وتهوين وقعها عليه بالعزاء الجميل . ويدخل الروضة الفيحاء فينعم بمرأى أزهارها وتلحين بلابلها فيهب في صدره ابتهاج وانس ويسترسل في وصفها وذكر ماراقه من مشاهدها

ومن الشعراء من يسوقه الى الشعر باعث طمع أوخوف أوحياء ومن الجلي ان الاحساس والتأثر مما يفتح أمام الخيال طرقاً قلما يمر بها من يحمل نفسه على الشعر المجرد للطمع أو الخوف أو الحياء فانظر ان شئت مثلا الى قصيدة أبي الحسن الانباري التي يقول في مطلعها

علو في الحياة وفي الممات لحق أنت احدى المعجزات

تجد فيها تخيلات فائقة ، والذي ساعده على ذلك فيما أحسب انه أنشاها من تفجع وانفطار بالغ لانه رثى فيها الوزير ابن بقية يوم قتله عضد الدولة مصلوباً، فنظمها ـ وهو لا يرتجي من ورائها فائدة بل يرجس في نفسه الخيفة من أن يناله عضد الدولة بالعقوبة عليها ـ يشعر بأن الباعث له على انشائها التلهف والاخلاص

ولو نظرت الى القصائد التي يخاطب بها الشعراء الملوك تهنئة بانتصار أو فتح وقستها بالقصائد التي يخاطبونهم بها تهنئة بعيد مثلا أو بمولود أو بناء قصر لوجدت الاولى أجود خيالا لان انتصار الدولة مما يفشر في نفوس الامة فرحا ويثير فيها عاطفة اجلال لمن جرى النصر على يده وليست الثانية بهذه المكانة اذ طلوع العيد على الامير وازدياد ولد له أو تشييده لقصر لا تهتز له نفس الشاعر حتى تطير به في جو الخيال، ويقتنص مايلذه الذوق من بدائع الافكار، وانظر ان رمت الوثوق بهذا الى قصيدة أبي تمام التي يهنيء فيها المعتصم بفتح عمورية

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

فانه ذهب بمعانيها مذاهب خيالية لا تطلع له على ما يحاكيها في القصائد التي لم يبعثه لها غير مايرجوه من النوال

وكذلك الشاعر الذي يريد أن يتبرأ من جناية تعزى اليه أو يحاول أن يزيل ما في نفس السلطان من ضغينة أو نية سيئة فانه يبتكر من المعاني ما لا يبتكره في القصائد التي يمدحه بها وهو مقبل عليه

وربما يخوض الشاعر في غرض انما دعاه اليه مجاراة غيره ومباراته في مضمار البيان فيبلغ مبلغ من انساقوا اليه عن احساس وعاطفة نفسية ويقع على تخيلات جيدة ولكن أمثال هذه التخيلات تنهال على ذي التأثر النفسي بدون تعسف حينما يحتاج

الآخر الى أن يحث اليها قريحته ويجاذبها وهي كالمتعاصية عنه

بماذا يفضل التخييل ؟

عرف مما سبق أن التخييل يدور على انتقاء مواد متفرقة في الحافظة ثم تأليفها وابرازها في صورة جديدة ، فيرجع فضله والبراعة فيه الى ثلاث مزايا

احداها أن يكون وجه المناسبة بين تلك الجواهر - أعني المواد المؤلفة منها صورة المعنى - غامضا ، فمزية من يتخيل الكواكب أزهارا باسمة في روضة ناضرة دون مزية من يقول

وضوء الشهب فوق الليل باد كأطراف الاسنة في الدروع

فان المشابهة بين الكواكب والازهار لا تغيب عن كثير من الناس أما التشابه بين النجوم وبين أطراف الاسنة اللامعة عند نفوذها في الدروع لا يحوم عليه الا خيال بارع

ولا فضل لمن يرى الشمعة فيحاكيها بالرمح اذا قسته بمن ينظر اليها فيقول

كأنها عمر الفتى والنار فيها كالاجل

فان محاكاتها بالرمح لا تكاد تخفى على ذي بصر وانما الخيال الفائق هو الذي ينتقل منها الى العمر والاجل حيث يشعر بالمناسبة الدقيقة بينهما وهو أن الاجل يدنو من الانسان حيناً فحيناً ويتقاضى عمره رويداً رويداً الى أن تتقلص عنه أشعة الحياة كلهيب الفتيله يدب في جسم الشمعة وينتقصها قليلا قليلا الى أن يأتي على آخرها وتذهب في الجو هباء منثوراً

ثانيتها - أن يكون التخييل مبنياً على ملاحظة أمور متعددة فالصورة التي يراعى في تأليفها ثلاثة معان مثلا تكون أرجح وزناً وأنفس قيمة من الصورة التي تبنى على رعاية معنيين فمن الشعراء من يصور لك الرمح شهاباً ثاقباً فهل يحق لك أن تساويه بمن يخيله لك ورؤوس الاعداء منصوبة على طرفه بالغصن يوم يكون مكللا بالثمار كما قال ابن عمار يخاطب المعتصم صاحب المرية

أثمرت رمحك من رؤوس كماتهم لما رأيت الغصن يعشق مثمرا

يقف الناس في تصوير الحرب بمعنى الرحى عند قولهم دارت رحى الحرب وكان عمرو بن كلثوم أبسطهم في هذا التخييل باعاً حيث يقول في وصف الحرب .

متى ننقل الى قوم رحانا يكونوا في اللقاء لها طحينا

يكون ثفالها شرقي نجد ولهوتها قضاعة أجمعينا

فالثفال ما يبسط تحت الرحى ليتساقط عليه الدقيق واللهوة القبضة من الحب تلقى في فم الرحى لتطحنها وقضاعة هي القبيلة التي يهددها هذا الشاعر بالحرب الطاحنة ، وكأني به عند ماحضر في نفسه معنى الحرب انساق اليه معنى الرحى لما بينهما من التشابه المعهود ثم تنقل نظره من الرحى الى ما هو من خواصها فوقع على الثفال واللهوة ثم انقلب الى معنى الحرب وألقى نظره الى ماحولها فتراءى له ميدانها مبسوطاً كالثفال والرجال الذين يتهافتون عليها فتتناثر رؤوسهم وتتساقط أشلاؤهم على ذلك الميدان في صورة اللهوة فصاغ الابيات على هذا الوجه الذي يدل على حسن تصرفه في ضم المعاني الى أشكالها

والادباء الذين أروك الحصى في صورة الدر ليسوا بقليل وانما المزية لمن اتسع في صورة هذا المعنى ونظر في تركيبها الى أمور متعددة فقال يصف واديا

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا ألذ من المدامة للنديم
يروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

كأني بالشاعر عند ما صح فتح جفنه على الحصى وهي في ملاستها وصفاء متطرَّفها انصرف خياله الى ما يحاكيها من الجواهر النفيسة ثم الى حال تناسقها في هيأة قلادة وتذكر بهذا موقعها من النفور لخطرت على قلبه الفتاة وشرع يتصور كيف تنظر الى تلك الحصى فيهجم على ظنها بغتة ان قلادتها انفرطت وان ماتراه من الحصى انما هو اللؤلؤ الذي كان متناسقاً في نحرها قد تساقط الى مواطئ أقدامها فلا تمالك أن تضرب يدها على العقد حتى تحفظ البقية من السقوط أو لتتيقن صدق ظنها فتسعى الى التقاطها

ثالثتها — ان يجري الشاعر في استخلاص المعاني وتأليفها على ما يوافق الذوق السليم فهو الحافظ لنظام المعاني كما ان القواعد العربية تحفظ نظام الالفاظ ، ومن الشعراء من تأخذه سنة عن هذا الشرط فيضع المعنى الخيالي على مثال تشمئز منه النفس كما أن ناسج الثياب من غزل اختلفت ألوانه اذا لم يكن صاحب ذوق فائق لم يحكم وضعها وأخرجها في صورة تقذفها العيون . ومثال هذا ان أبا القاسم بن فرناس أنشد الامير محمداً أبياتاً يقول فيها

رأيت أمير المؤمنين محمداً وفي وجهه بذر المحبة يثمر

فقال له مؤمن بن سعيد : قبحاً لما ارتكبته جعلت وجه الخليفة عراثاً تثمر فيه البذور ؟ فغشيه الخجل وجمل جوابه عن هذا النقد الصائب سجلياً .

ووقع في مثل هـذه الزلة كثير من كبار الشعراء فهذا أبو تمام يقول في مدح أحد الابطال

ضاحي المحيا للهجير وللقنا تحت العجاج تخاله محراثاً

فجعل ممدوحه محراثاً كما جعله هاذياً حين قال

لازال يهذي بالمكارم والعلا حتى ظننا انه محموم

وهذا بشار بن برد يقول

وجذت رقاب الوصل اسياف هجرها وقدت لرجل البين نعلين من خدي

فاثبات الرقاب للوصل والرجل للبين من التخيلات المستهجنة

قد يخطر لسائل أن يقول: ان لهؤلاء الشعراء براعة مسلمة واذواقاً لا ارتياب في صحتها وصفائها ، وقد مرت هذه المعاني التي رميتموها بسبة السخافة على أذواقهم فألقت اليها بالتسليم أفلا يكون رضاهم عنها واستحسانهم لها شاهداً ببراءتها مما تدعون من سماجة الوضع ومنافرة الذوق ؟

والجواب ان القبح في هذه المعاني وما كان على شاكلتها محقق بما يجسده الانسان في نفسه من أثر الفكرة لها وعدم الانس لسماعها ، فضلا عن شهادة فريق عظيم لاتقصر بهم سلامة الذوق والمعرفة بحرفة الادب عن طبقة اولئك الشعراء . وهذا ابن رشيق يقول عقب ايراد البيت الاول من بيتي ابي تمام « فلعنة الله على المحراث هينا ما أقبحه واركه » ولم يبق سوى النظر في عدم تنبههم لذلك القبح وكيف خفي عنهم وجهه وهو كاشف لثامه حتى لا يتعلق بادراكه في بعض الابيات الادباء عن غيرهم

والوجه في هـذا ان البصيرة مثل البصر والمشاهد للصورة عن عيان قد يفوته ان يحدق فيها من بعض الجهات فلا يشعر بما فيها من عيب . فكذلك الشاعر قد يصوغ المعنى ولا يأخذه بالنقد من جميع أطرافه فيصدر على عوج قد يبصر به من هو أضعف بصيرة منه ، والعلة في عدم تنبه الشاعر لذلك الخلل قصر المدة فيما بين انشاء القصيدة واراءتها للملأ بحيث لا يتمكن من تجريد نظره الى كل بيت ونقد معناه من سائر وجوهه

وربما أصيب الشاعر من اعتماده على براعته ومكانة سمعته ، اذ كثيراً ما يستفيد الشاعر من المقام والشهرة التي يدركها بين قومه فيتلقون شعره باستحسان فوق ما يتلقون به شعر غيره ممن لم يقم لهم صيت وان كان في نفسه أبعد أمداً وأحكم نسجاً ، فكثرة الاجادة وسعة الذكر قد تؤثر في همة الشاعر في بعض الاحيان فيلقي القصيدة على علاتها ولا يحمل نفسه على التدقيق في نقدها . ومن ثم ترى أكثر الذين يقعون في هذه العثرات انما هم الاكابر الشعراء والمكثرون منهم كأبي تمام والمتنبي ومن كان في طبقتهم

ويؤكد لك أن سيئات الشعراء في هذا الصدد انما لصقت بهم من جهة عدم تقدم المعنى بعد أن تقذفه القريحة نقداً وافياً اما لضيق الوقت أو اغتراراً بما ملكوا من البراعة وأحرزوا من الشهرة، أن أحدهم قد ترسل قريحته معنى فيقع منه موقع الاعجاب حتى اذا أعاد عليه النظر مرة ثانية انكشف له من مساويه ما يجعله في أسف على اذاعته أو في ارتياح من عدم اطلاع الناس عليه

ومن المحتمل أن يصوغ الشاعر المعنى فتأخذ جهة الحسن بقلبه مأخذاً بليغاً ثم يعثر في صورته على وجه من الخلل ولا يتمكن من تلافيه وا كمال نقصه الا برفض الصورة من أصلها ، وحيث يرى أن جهة الحسن أرجح ويرجو أن تسبل على ذلك المغمز فضل ردائها فلا يشعر به الناقدون يبقي صورة المعنى على حالها ويجيزها للرواة وهو بصير بعلتها . ولا أخال أن النابغة حين قال

نظرت اليك لحاجة لم تقضها   نظر السقيم الى وجوه العود

لم يخدش عاطفته أن يضع المحبوبة بمنزلة السقيم ولكنه عز عليه أن يضرب عن هذا التشبيه الذي لا يلحق شأوه وان وخزه لفظ السقيم في ضميره وخزات بالغة

الاهل والعيال

« وهو فصل من كتاب «الاخلاق والواجبات» للمغربي »

ذكرنا في الفصول السابقة واجبات الشخص منفرداً. ونريد ان نذكر في الفصول التالية واجباته مجتمعاً مع غيره من أبناء جنسه . وأول اجتماع له من هذا القبيل اجتماعه مع أهله وعياله . وأهله زوجته . وعياله أولاده . واذا كانوا أغنياء انضم اليهم خادم يكفيهم مؤونة العمل ويقال للمجموع المؤلف

من هؤلاء الافراد في اللغة العربية «عيل الرجل» ـ بتشديد الياء ـ وفسروه بقولهم هم أهل بيته الذين يتكفل بهم ويعونهم من أزواج وأولاد وأتباع . وقد اصطلح كتاب هذا العصر على تسميتهم بالعائلة مع ان كلمة عائلة في أصل وضعها اللغوي بمعنى فقيرة تأنيث (عائل) فقير و (العيلة) الفقر و (عال) افتقر .

وبحث الواجبات العائلية يتضمن بيان ما يجب على الشخص نحو أفراد عائلته المذكورين ويدخل فيهم أحيانا من يعوله من غيرهم كأبيه وأمه او يتيم يكفله او امرأة تأوي الى كنفه ، وتعيش على نفقته .

وقد وجدت العائلة على وجه البسيطة من يوم وجدت المرأة بجانب الرجل وولدت له أولاداً والاعمال التي يراد لها كل من الرجل والمرأة في عائلتهما تختلف باختلاف حال الامة التي يعيشان فيها بداوة وحضارة . رقياً وانحطاطاً . ويغلب في الامم المتحضرة ان تكون وظيفة المرأة ادارة الاعمال البيتية. كما تكون وظيفة الرجل العمل خارجه . فهو يشتغل ويتعب ويستثمر أتعابه ثم يلقي بهذه الثمرات الى زوجته . ويتكل في هنائه العائلي وراحته المنزلية عليها. فالزوجة هي الرئيسة العاملة في المنزل . اما الزوج فهو بمثابة رئيس شرف له . وقد جاء التصريح بذلك في الحديث الشريف مذ قال صلى الله عليه وسلم

*(كل نفس من بني آدم سيد : فالرجل سيد أهله . والمرأة سيدة بيتها)

فانظر كيف جعل سيادة البيت للمرأة . وخصها بها . وان كان لرجلها سيادة أخرى لاتنكر . واذا كانت المرأة هي سيدة البيت ورئيسته كان من أول واجبات الزوج ان يحسن انتخاب تلك الرئيسة : فيختارها من ذوات العقل والدين والتربية الصالحة فانها اذا توفرت فيها هذه الشروط أصبح المنزل فردوس الرجل . ومظهر كرامته في قومه والمنبت الخصب لذريته وأولاده . ومن ثم كان للمنزل والعائلة المقام الاول في نظر علماء الاجتماع . حتى جعلوا نظام الحياة المنزلية أساساً لنظام الحياة الاجتماعية في الامة كلها : فاذا فسد النظام الاول فسد النظام الثاني وانحطت الامة على أثره والعكس بالعكس . قالوا : واذا دخلت احدى المدن كان لك ان تحكم على ارتقاء العائلة فيها بمجرد نظرك الى حالة سكانها وما هم عليه من الاطوار والاخلاق في أسواقهم وحوانيتهم ومعاملهم وقهاويهم وسائر مظاهرهم الاجتماعية : فاذا رأيتهم هنا

على نظام أدبي ثابت حكت باستحكام النظام الادبي في بيوتهم وعائلاتهم . لان هذا أصل ذاك . والا فلا .

قلنا آنفاً ان (المنزل) هو المغرس الاول للذرية والاولاد . فهم ينتقلون منه الى المغرس الثاني أعني (المدرسة) ومنها الى ساحة التجاوب والعمل والسعي في خدمة أمتهم ووطنهم . فاذا طابت تربة المغرس الاول (العائلة) طابت اذ ذاك ثمار أبناء الامة . وغزرت محصولات عقولهم وأخلاقهم، وان خبثت تلك التربة خبثت الثمار . وقبحت الآثار . وساءت الاخبار .

وقال بعض علماء الاجتماع المعاصرين « ان أحقر المنازل اذ تولت رئاسته امرأة مدبرة بشوش كان ملؤه الراحة والهناء والسعادة . كان فيه أشرف العواطف العائلية . كان عزيزاً لدى الرجل لما يستلزمه من دواعي السرور . كان ملاذاً للقلب . وملجأ من عواصف الحياة . كان خير مكان للراحة من عناء الاشتغال ومتاعب الحياة . كان في الشدة مسلياً . وفي الرخاء مخزاً . وفي كل حال نعيا . فالمنزل الصالح اذن خير معاهد التربية لا للشاب وحده بل للكهل أيضاً . وفيه يتعلم الشاب والكهل البشاشة والصبر وضبط النفس وتدرك روح الحياة ومعنى الواجب »

فلتنظر الامم كيف تضع نظام عائلاتها على أساس وطيد ثابت ولينظر الآباء واجبهم الشرعي والاجتماعي من هذا القبيل :

وأول واجب عليهم حسن اختيار سيدة المنزل وقد ورد في الاحاديث النبوية الحض على العناية باختيارها لينجب أولادها ، ويطيب العيش معها . وقد امتن حكيم من حكماء العرب على أولاده في قيامه بهذا الواجب نحوهم مذ قال :

وأول احساني اليكم تخيري لماجدة الاعراق باد عفافها

ومن الواجبات العائلية أيضاً العناية بتربية الاهل والعيال وتعليمهم ما به صلاح أمرهم . وتثقيف عقولهم . وبهذا المعنى فسروا قوله تعالى .

(ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً)

أي حولوا بينهم وبين شقاء العذاب بما تعلمونهم اياه من ضروب الحكمة والعلم النافع . وبهذا المعنى أيضاً ورد قوله صلى الله عليه وسلم

« ارجعوا الى أهليكم فعلموهم

يخاطب قوماً يريدون ممارسة بعض الاعمال فامرهم بالانصراف عنها الى ما هو أهم منها وهو أن يرجعوا الى نسائهم وأولادهم فيعلموهم .

وحض الشارع على التخلق بالاخلاق الفاضلة ان لم يكن لذاتها فلانها تكون وسيلة الى تخلق أفراد العائلة بها فقال صلى الله عليه وسلم :

* عفوا تعف نساؤكم وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم

فن عف عن فعل القبيح كان خليقاً أن تعف نساؤه . ومن بر أباه كان جديراً أن تبره أبناؤه .

أما أحاديث الحض على حسن معاملة الاهل والعيال والرفق بهم وترك الغلظة عليهم فكثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم

* خيركم (١) خيركم لاهله وأنا خيركم لاهلي

* ان من أكمل (٢) المؤمنين ايماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله

* خير الرجال من أمتي الذين لا يتطاولون على اهليهم ويحنون اليهم ولا يظلمونهم

* ان الله سائل كل راع عما استرعاه : أحفظ ذلك أم ضيعه؟ حتى يسأل الرجل عن أهل بيته * أي يسأله كيف كان صنيعه بهم ومعاملته لهم حسنة أم قبيحة فيجازى بحسب ذلك .

* كان صلى الله عليه وسلم في بيته ألين الناس وأكرم الناس ضحاكا بساماً

* كان صلى الله عليه وسلم أرحم الناس بالصبيان والعيال

* من كان له صبي فليتصاب له

أي ليتنزل أن يفعل في ملاغبته فعل الصبيان تطييبا لنفسه ، وادخالا للسرور على قلبه . وروي انه صلى الله عليه وسلم خرج مع أصحابه ذات يوم الى طعام دعوا له فاذا بابن بنته الحسين وهو صبي يلعب مع صبية في السكة فاستنتل رسول الله امام القوم (أي انفرد عنهم وتقدمهم) وأقبل على الحسين ،

---

(١) هذا لفظ الحديث رواه الترمذي عن عائشة وابن ماجه عن ابن عباس والطبراني في الكبير عن معاوية بسند صحيح ورواه ابن عساكر عن علي بزيادة «ما أكرم النساء الا كريم ولا أهانهن الا لئيم» وهو صحيح أيضا. وذكره المؤلف بلفظ خياركم الخ وهو حديث آخر ليس فيه وأنا خيركم لاهلي — فلذلك صححناه (٢) أورده المؤلف بلفظ أحسن. والرواية أكمل وظاهر ان كل ما أوله هذه العلامة * فهو حديث

فطفق يفر مرة ههنا ومرة ههنا . ورسول الله يضاحكه. ثم أمسكه فجعل احدى يديه تحت ذقنه والاخرى تحت فأس رأسه (أي قفا رأسه من تحت قذاله) وأقنعه (أي رفعه) وجعل يقبله وقال :

* أنا من حسين وحسين مني أحب الله من أحب حسينا

أما حسن معاشرته لنسائه الطاهرات فالسنة مستفيضة به. من ذلك ماروي في الصحاح عن عائشة رضي الله عنها قالت« لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما على باب حجرتي والحبشة يلعبون بحرابهم في المسجد وهو يسترني بردائه . انظر الى لعبهم . وكان يقول لي كفي ! فأقول لا ! حتى اكتفيت ·

ومن جملة الرفق والعناية بالاهل والعيال ما ورد في الحديث وهو :

* كان صلى الله عليه وسلم لايكاد يدع أحداً من أهله في يوم عيد الا أخرجه

يعني انه كان في صبيحة أيام الاعياد يخرج كل واحد من أفراد عائلته الى خارج المدينة حيث يجتمع المسلمون لصلاة العيد في مصلاها الخاص فيصلون ويشاهدون الناس في هذا الاجتماع الحافل فيدخل عليهم السرور والفرح برؤية ذلك .

* مشيك الى المسجد وانصرافك الى اهلك في الاجر سواء ·

سوى في الاجر والثواب بين المشيتين مشي الرجل الى عبادة ربه ومشيه راجعاً الى مسامرة عائلته . وكأن الشارع صلى الله عليه وسلم في قوله هذا يعرض بأولئك القساة الذين لا يجعلون من اوقاتهم نصيباً مفروضاً لمباشرة عائلاتهم بل ينفقونها جزافاً في أماكن اللهو والبطالة . وبذلك تسوء عيشة العائلات وتتنغص حياتها بل ربما أدى بها الامر احياناً الى المفاسد وقبيح الاعمال

ومن الواجبات العائلية ترفيه العائلة . والتوسعة عليها بالنفقة، واعداد مايلزم لها من وسائل الراحة والهناء . ومرافق الحياة والعيش . وقد حض الشارع صلى الله عليه وسلم على ذلك في أحاديث كثيرة منها :

* ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله

* شر الناس المضيق على أهله

* أول ما يوضع في ميزان المرء انفاقه على أهله

أي ان النفقة عليهم من أول الاعمال التي يثاب عليها .

* دينار أنفقته في سبيل الله ودينار انفقته في رقبة ودينار تصدقت به على

مسكين ودينار انفقته على اهلك . اعظمها اجراً ذلك الذي انفقته على اهلك

* أطعم زوجك اذا طعمت واكسها اذا اكتسيت ولا تقبح الوجه ولا تضربه (١)

ينهي عن ضربها وكل ما يؤذيها وعن تقبيح وجهها فلا يواجهها بقبيح القول وفظيع الشتم . او المعنى : لا يقول لها « قبح الله وجهك » وهو شتم مألوف بينهم نهى الشارع عنه بخصوصه .

* الويل كل الويل لمن ترك عياله بخير وقدم على ربه بشر .

في هذا الحديث تحذير لارباب العائلات الذين يجمعون المال حلالا وحراماً سداً لحاجات عائلاتهم . وأشباعاً لنهماتهم : فهو صلى الله عليه وسلم يقول : يا لتعاسة ذلك الاب الذي يترك عائلته بعد موته في سعة من الرزق وبحبوحة العيش من مال جمعه حراماً لهم ثم يقدم على ربه يوم القيامة وهو مثقل بتبعات ذلك المال الذي جمعه وخان الناس فيه فيعذبه الله عليه . ويكون قد اشبه الشمعة التي تضيء للناس وتحرق نفسها . فاذا كانت التوسعة على العيال واجباً عائلياً على رب العائلة فان تحري الانفاق عليها من المال الحلال هو ايضاً واجب عائلي عليه تجدر به مراعاته والانتباه اليه .

وأما الأولاد والصبيان فهم ثمرة الحياة ، وريحانة البيت . وأمل العائلة والغاية المقصودة من الزواج . قال صلى الله عليه وسلم

* بيت لا صبيان فيه لا بركة فيه

* ريح الولد من ريح الجنة

* الولد ريحان الجنة

---

(١) المنار : الحديث لا يوجد بهذا اللفظ في الجامع الصغير الذي استمد منه الكاتب معظم ما أورده في كتابه من الاحاديث ويوجد باللفظ الآتي معزو الى الطبراني والحاكم مصححا ورواه أيضا أبو داود والنسائي وابن ماجه والدارقطني وصححه وعلقه البخاري في الصحيح عن معاوية بن حيدة مرفوعا وهو «حق المرأة على الزوج ان يطعمها اذا طعم ويكسوها اذا اكتسى ولا يضرب الوجه ولا يقبح ولا يهجر الا في البيت » قالوا أي المبيت بان يبيت وحده مؤاخذة لها على النشوز وهو عصيان الزوج ولكن لايحل له أن يترك مكالمتها

لكن ينبغي للآباء والامهات ان يعلموا ان اولادهم ليسوا ملكا لهم كلهم اشياءهم وانه لم تمنحهم العناية الالهية لهم ليكونوا بمثابة متاع او قطعة زينة في البيت ينافس بها . ويحرص عليها . وتتلذذ النفس بالنظر اليها فحسب . وانما خلقوا ليقضوا زمن الصبوة في حجر العائلة ثم يخرجوا منها احراراً مستقلين . وينضافوا مدداً الى الرجال العاملين

فالعائلة اذن مكلفة بتربيه الطفل وتهيأته جسما ونفساً وخلقاً للقيام بوظائفه المختلفة في خدمة قومه ووطنه . وان العنايه بالاولاد وتربيتهم هذه التربية الصالحة من أكبر واجبات الابوين التي يفرضها الشرع ونظام الاجتماع عليهم كما أن اهمالهم والتفريط في تربيتهم من أكبر الجنايات التي يمقتها الشرع وتعاقب عليها القوانين المدنية (١) . قال صلى الله عليه وسلم :

* أكرموا أولادكم واحسنوا آدابهم : فان أولادكم هدية الله اليكم

ولا يخفى أن الشكر على الهدية انما يكون في تقبلها بفرح ثم العناية بها . والمحافظة عليها . كما أن التفريط فيها كفران لحق من أهداها . وباعث على غضبه ونقمته

* لان يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع (٢)

* حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرماية وأن لا يرزقه الا حلالا طيباً

هذه أهم علوم الرجل (٣) في ذلك العهد . ومنها الرماية بالسهام . أما اليوم فقد اختلفت الاحوال وتبدلت الاوضاع . واستجدت علوم لم يكن يعتنى بها من قبل ، فالواجب على أولياء الاولاد اليوم أن يعلموهم منها ماهم في حاجة ماسة اليه ، وان الاسلام ليقدر هذا الاختلاف الزماني قدره كما ورد في الاثر

* خلقوا أولادكم بغير أخلاقكم فقد خلقوا لزمان غير زمانكم (٤)

---

(١) المنار : لعله أراد السنن الاجتماعية لا المعنى الاصطلاحي عند الحكومات

(٢) في الاصل بصدقة وهو سهو ولذلك صححناه والصاع مكيال معروف والحديث في الترمذي من طريق ناصح بن عبدالله المحلمي وهو كما قال الذهبي هالك فلذلك أنكر الحفاظ على الترمذي روايته عنه (٣) هذه ليست علوما بل الكتابة فن عملي والسباحة والرماية رياضتان ولا يزال هذا من أهم مايربى عليه الاولاد ولكن رماية هذا العصر بالرصاص لا بالسهام (٤) هذا ليس بحديث بل هو من كلام بعض المولدين فلا لفظ التخليق فيه بهذا المعنى عربي فصيح ولا معناه شرعي صحيح

فاذا كانت الاخلاق تختلف بين زمن الاب وابنه فكيف يكون مبلغ اختلافها بين زمن السلف وزماننا هذا ؟

* أيما امرأة قعدت على بيت أولادها فهي معي في الجنة

يرشد الشارع صلى الله عليه وسلم المرأة في هذا الحديث الى واجبها في تربية أولادها وهي أجدر بهذا الخطاب الشرعي من الرجل : فهو يقول لها: ان تركها الاشتغال بما لا ينفعها والعكوف على تربية أولادها في بيتها خير وسيلة الى دخول الجنان

* مانحل والد ولده أفضل من أدب حسن

كأن هذا تعريض بمن يخص بعض أولاده بالنحل والعطايا ونفيس المتاع وقد ورد النهي عن ذلك صريحا في الاحاديث الاخرى

* اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم كما تحبون أن يبروكم

* ان الله يحب أن تعدلوا بين أولادكم حتى في القبل

و(القبل) على وزان غرف جمع قبلة وهي التقبيلة .

* ساوا بين أولادكم في العطية: فلو كنت مفضلا أحداً لفضلت النساء

لعل السبب في استحقاق النساء للتفضيل انهن سريعات التأثر . رقيقات الشعور . شديدات الغيرة : فهن لذلك أجدر بالعطايا . وأنواع البر واللطف (الهدايا) من أخوتهم الذكور . ومع هذا فان الشارع نهى عنه خشية التنافس والتحاسد بين الاولاد . وفي الحديث اشارة لطيفة الى وجوب العناية بالنساء ومراعاة شعورهن وعواطفهن ، ومن هذا القبيل ماورد في الحديث وهو انه صلى الله عليه وسلم .

* كان يكسو بناته خمر القز والابريسم

يفعل ذلك مواتاة لرغبتهن ، ومراعاة لميلهن وتنافسهن في لبس الحرير والنفيس من الثياب . والاسلام لايفرق بين الذكر والانثى في الحب والعناية والتربية كما رأيت وسيأتي في بحث (النساء والايتام) زيادة بيان لذلك وان من أهم الاغراض التي جاء الاسلام من أجلها هدم ماكان عليه أهل الجاهلية من هضم المرأة واذلالها . والتفريط أحيانا بحياتها . حتى عابهم القرآن في ذلك. وعيرهم به . فقد قال تعالى :

(واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم * يتوارى من القوم

من سوء مابشر به: أيمسكه على هون أم يدسه في التراب)

هـذا هو حال أهل الجاهليـة قبل الاسلام : كانوا اذا ولد لاحدهم انثى اكفهر وجهه . واستخفى عن اعين الناس حياء وخجلا ثم فكر في كيف يتخلص من هذا الضيف الثقيل ؟ ايصبر عليه ؟ أو يئده تحت التراب ؟ فجاء الاسلام ناعيا عليهم حالتهم هـذه . وبشر بالمرأة . ووجوب العناية بها . واعطائها حقها من الوجود ونصيبها من الحقوق . ومما قاله صلى الله عليه وسلم في هذا المعنى :

لاتكرهوا البنات فأنهن المؤنسات الغاليات

وكان صلى الله عليه وسلم يصلي فتتشبث به (أمامة) ابنة ابنته زينب. فكان يحملها على عاتقه: فاذا سجد وضعها واذا قام حملها .

وانما نهى الشارع صلى الله عليه وسلم عن تفضيل بعض الاولاد بالعطية تمادياً من التحاقد والتحاسد بينهم كما مر آنفاً . بل قد يحقدون أحياناً على أبيهم نفسه والاب مأمور بأن لايتعاطى من الاسباب مايثير شيطان العقوق في نفس ولده ومن قوله صلى الله عليه وسلم في ذلك

• رحم الله والداً اعان ولده على بره

• اعينوا أولادكم على بركم: من شاء استخرج العقوق من ولده

أي انه في مكنة الاب أن يحمل ابنه على العقوق وترك الطاعة . وذلك يكون بتفضيل أخيه عليه بوصية أوعطية أو تقريظ أو ابتسامة احياناً . فليكن الاب حكيماً فطناً ضابطاً لعواطفه وتوزيعها بالعدل بين اولاده . والا جر على نفسه وعائلته من بعده تعباً وبلاء .

وكما يطالب الولد ببر والده يطالب الوالد نفسه ببر ولده . وبر كل منهما بحسبه. وقد وصف صلى الله عليه وسلم قوماً من الابرار فقال :

• انما سماهم الله الابرار لانهم بروا الآباء والامهات والابناء. كما ان لوالديك عليك حقا كذلك لولدك

ومن جملة بر الوالد لولده ماذكر صلى الله عليه وسلم في قوله :

• لايعد الرجل صبيه ثم لايفي له

فان هذا فضلا عن كونه يحمل الولد على احتقار والده واعتقاد الـكذب فيه يسهل أمر الـكذب عليه ومن شابه اباه فما ظلم فينشأ كذابا لايصدق بقول . ولا يفي بعهد .

ومما به اليه الشارع من أمر تربية الاولاد أن لا يتشاءم الوالد بأحد أولاده ولا ييأس منه اذا رآه عنيدا شرسا ذا شرة وأذى : فقد يتحول كل هذا فيه اذا أحسنت تربيته الى أخلاق فاضلة كالشجاعة . وقوة الارادة . وكبر العقل . والشمم وطلب المعالي. قال صلى الله عليه وسلم

* عرام (١) الصبي في صغره زيادة في عقله في كبره

والعرام الشراسة والاذى والاشر والبطر ومفارقة القصد والخروج عن الحد . وقيل هو الفساد

ومن وصاياه صلى الله عليه وسلم ايضاً لآباء الاولاد ما جاء في قوله :

* الولد ثمرة القلب وانه مجبنة مبخلة محزنة

ومعنى ذلك أن الآباء لفرط حبهم اولادهم وحرصهم على خيرهم قد تتغلب عليهم صفات (الجبن) فتراهم يجبنون عن التعرض للاخطار خشية ان يموتوا فتضيع صغارهم من بعدهم — و (البخل) فهم يبخلون ويشحون بالمال فلا ينفقونه في وجوهه الواجبة أحياناً لئلا يموتوا بلا ارث يتركونه لصغارهم يتمتعون به في كبرهم — و (الحزن) : فهم اذا اعتل الولد وساءت حاله وجموا وحزنوا واستولى عليهم اليأس والقنوط وهذا معنى (مجبنة) (مبخلة) (محزنة) وهي من صيغ المبالغة في الوصف . وماذكر من هذه الاوصاف وان كان أمراً فطريا أو طبيعيا في الآباء والشارع يعترف به فهو ينبه الى خطره . ويوصي الآباء بالرفق والاعتدال خشية ان تستحكم فيهم هذه الملكات، فتقودهم الى الشرور والآفات

ومما ورد في فضل الولد قوله صلى الله عليه وسلم :

* اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له بخير

* ان الرجل لترفع درجته في الجنة فيقول انى لي هذ ؟ فيقال له باستغفار ولدك لك

. والحنو على الولد والرأفة به والصبر على ما يبدو منه احياناً من العناد والطيش ودواعي الصبوة امر طبيعي في الآباء يحتملونه بصبر ورضا . الا من

(١) المنار: الرواية كما في الجامع الصغير عرامة وهي بالفتح كالعرام بالضم

ندر منهم: فقد رأى الاقرع بن حابس رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل ولده الحسن فقال له: ان لي عشرة من الولد ماقبلت واحداً منهم فقال صلى الله عليه وسلم «ان من لايرحم لايرحم»

وقال معاوية رضي الله عنه للاحنف بن قيس: ما تقول في الولد؟ قال: «ياأمير المؤمنين: ثمار قلوبنا. وعماد ظهورنا. ونحن لهم ارض ذليلة. وسماء ظليلة، وبهم نصول على كل جليلة. فان طلبوا فأعطهم. وان غضبوا فأرضهم يمنحوك ودهم. ويحبوك جهدهم. ولا تكن عليهم فضلا ثقيلا. فيملوا حياتك، ويودوا وفاتك. ويكرهوا قربك» فقال له معاوية: لله أنت يا أحنف لقد أرضيتني عمن سخطت عليه من ولدي. ثم وصله بعطية عظمى

﴿ كلمة للمنار في هذا الفصل ﴾

هذا الفصل من كتاب الأخلاق والواجبات للشيخ عبد القادر المغربي صديقنا ورفيقنا في طلب العلم بطرابلس الشام ألفه حديثا لحكومة دمشق الشام ليقرأ في مدارسها وهو كما يرى القارئ في حسن أسلوبه وكثرة فوائده الجامعة بين حاجة العصر وهداية الدين، ولما أرسل الينا هذا الفصل منه لننشره في المنار كتبنا اليه منتقدين اغفاله تخريج احاديثه وكثرة الضعاف فيها مع امكان الاستغناء عنها بالصحاح فكتب الينا انه قدر ما كتبناه اليه قدره وان عذره الاضطرار الى الاختصار مع كون الكتاب كتاب آداب لا كتاب حديث وان احاديثه منقولة من الجامع الصغير وهي مخرجة فيه «سوى أحاديث قليلة مسندة غالبا الى راويها» وان التصريح بتضعيف بعض الاحاديث يسقط تأثيرها من النفوس و يظن الطالب أن الضعيف بمعنى الباطل مع أنه ليس كذلك اصطلاحا للمحدثين ـ وان العلماء تساهلوا في أحاديث الفضائل ولا سيما اذا كانت موافقة لاصول الاسلام الخ

لاجل هذا رجعنا عما كنا عزمنا عليه من تخريج احاديث هذا الفصل وبيان مراتبها من القوة والضعف في أسانيدها كعادتنا. وما قاله في ضعف الاحاديث يصدق على الكثير منها و يختلف اصطلاحهم فيها حتى ان الضعيف في مسند الامام أحمد أقوى من الضعيف في زوائده دع الكتب التي يتساهل أصحابها في التعديل كابن حبان والحاكم والدقة وافق الفقهاء على العمل بها في أحاديث الارشاد والفضائل بشروط بيناها

في المنار من قبل أهمها موافقتها الثابت المقرر في الدين وعدم اشتداد ضعفها فان منها ماسبب ضعفه مخالفة الراوي له لبعض الثقات أو ضعف ضبطه ولو في آخر عمره بل عد بعضهم كثيرا من رجال الصحيحين في الضعفاء . مثال ذلك حديث « ان الله سائل كل راع عما استرعاه » في ص٢٩٩ اخرجه النسائي وابن حبان عن انس من طريق معاذ ابن هشام وقد عد بعضهم معاذا في الضعفاء وقال ابن معين فيه صدوق ليس بحجة ، على أنه قد روى عنه الستة

ومنها ماضعفه شديد يقرب من الموضوع أو يدخل في بابه وقد ذكرنا مثالا في الجزء الذي قبل هذا في سياق الكلام على التصوف وتساهل بعض الفقهاء في الاحاديث الواهية والموضوعة كحديث دعاء الوضوء ومنه في هذا الفصل حديث « عفوا تعف نساؤكم » الخ نقله في الجامع الصغير عن الطبراني في الاوسط من حديث عائشة بهذا اللفظ مع تتمة وعلم عليه بالضعف وعن الحاكم عن ابي هريرة بلفظ « عفوا عن نساء الناس » الخ فالاول الذي اختاره المؤلف في اسناده يزيد بن خالد الفمي كذاب . قاله الشيخ محمد الحوت وعدته شرح المناوي على الجامع الصغير واسند هذا القول الى الهيثمي وليس لهذا الرجل ذكر في ميزان الاعتدال . وقال في الحديث الآخر : صححه الحاكم ورد عليه الذهبي فيه سويد عن قتاده ضعيف وقال المنذري هو ابن عبد العزيز واه انتهى ولعل الصواب انه سويد بن ابراهيم الجحدري ابو حاتم الحناط فانه هو الذي قالوا انه يروي عن قتاده فيخلط ويأتي عنه باحاديث لم يأت بها أحد غيره وهو ضعيف وبالغ ابن حبان في جرحه فقال انه يروي الموضوعات على الثقات . وذكر المنذري أن الطبراني رواه من حديث ابن عمر أيضا باسناد حسن ، فلهذه الروايات كان عنده مما يتأدب به ولذلك أورده في الترغيب والترهيب لان معناه صحيح موافق لاصول الشريعة في التربية بالعمل فلا تضره مثل هذه العلل .

ومثل ذلك ما كان في سنده انقطاع كحديث « ان من أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله » وكذا ماكان في سنده مجهول كحميد بن عامر في حديث « من كان له صبي فليتصاب له » ولكن لا يحتج بمثلها في تشريع بعد

في الاحكام والحلال والحرام ، ولا في أصول العقائد والايمان وعالم الغيب . ولا يعتد بشيء منها اذا خالف النصوص الصحيحة أو القواعد الثابتة في الشرع والامور الثابتة في الوقائع أو يقتضى البرهان العقلي أو الدليل العلمي القطعي فان مخالفتها من علامات الوضع . وأكثر اعتماد المبتدعين على أمثال هذه الروايات الشاذة أو المنكرة التي لا يثبت لها اسناد

وفي هذه الاحاديث ماليس في الجامع الصغير ولم يعز الى كتاب آخر كحديث «ارجعوا الى أهليكم فعلموهم » وحديث « كان (ص) في بيته ألين الناس واكرم الناس ضحا كا بساما » ولا أذكر اني رأيت هذا الحديث في الشمائل ولا غيرها وفيه وصفه (ص) بالضحاك ولم يكن ضحاكا وانما كان ضحكه تبسما : وحديث «أيما امرأة قعدت على بيت أولادها » الخ وحديث «لا يعد الرجل صبيه» الخ وهو جزء من حديث رواه ابن أبي الدنيا في الصمت ولعله في الجامع ولا أذكر أوله لاراجعه فيه، وفيها ما اورده بغير الفاظه التي في الجامع الصغير كحديث «اذامات ابن آدم» الخ عزاه في الجامع الصغير الى البخاري في الادب المفرد ومسلم وأصحاب السنن الثلاثة عن أبي هريرة بلفظ « اذا الانسان » وليس في آخره كلمة بخير . وحديث « انا من حسين الخ فانه فيه بلفظه المشهور «حسين مني وانا منه أحب الله من أحب حسينا الحسن والحسين سبطان من الاسباط» عزاه الى البخاري في الادب المفرد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن يعلى بن مرة ، وحديث « اكرموا أولادكم وأحسنوا آدابهم» فانه ذكره بهذا اللفظ وعزاه الى ابن ماجه عن انس . وقد زاد المؤلف فيه ما ليس في سنن ابن ماجه ولا الجامع الصغير وهو «فان أولادكم هدية الله اليكم » ولم يذكر من أي كتاب نقله

ومما اقتصر فيه على الضعاف مع وجود الاحاديث الصحاح ماأورده في المساواة بين الاولاد من حديث النعمان بن بشير « اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم كما تحبون ان يبروكم » وقد عزاه في الجامع الصغير الى الطبراني وأشار الى ضعفه ، ثم ذكر بعده بحديث حديث «ساووا بين أولادكم » الخ وعزاه في الجامع الصغير الى الطبراني والبيهقي وأشار الى ضعفه وذلك أن في اسناده سعيد بن يوسف وهو ضعيف وذكر ابن عدي في الكامل أنه لم يرو له أنكر منه، وقد ترك حديث النعمان بن بشير

المروي في الصحيحين «اتقوا الله واعدلوا في أولادكم» وفي رواية بين أولادكم وله قصة في انكار النبي (ص) على من ميز احد لاخوة على الآخرين. وانما فعل المؤلف هذا لان في الاحاديث التي اختارها زيادة فائدة في المعنى مقصودة في بابها. وقد ذكرت في الحواشي تنبيهات أخرى ماأحببت ان تؤخر الى هذه التعليقات العامة

واني أحب لصديقي أن يراجع جميع أحاديث الكتاب ويقابلها بالكتب التي نقلها منها ويذكر في حواشي الصحائف مأخذ كل حديث ليس في الجامع الصغير بنصه ، ويصرح بأن كل حديث لم يعزه الى كتاب فهو في الجامع الصغير فان هذا ادعى الى ثقة الناس بهذه الاحاديث في كل قطر ، وهذا العمل لا يقتضي زيادة كثيرة في أوراق الكتاب لقلة الاحاديث التي ليست من الجامع الصغير، وان يدقق النظر في تحرير الالفاظ ولا يتساهل في ذلك اعتمادا على ما ذكره بعض المحدثين من جواز رواية الحديث بالمعنى فان هذا ليس لمن ينقل من الكتب مثلنا وانما هو خاص بمثل الصحابي أو التابعي يسمع الحديث فيتحرى بيان المعنى الذي فهمه منه فلا يضره اختلاف بعض الالفاظ كقوله « اعدلوا في أولادكم » أو « بين أولادكم »

مختارات من الجرائد الغربية . في حل المسألة الشرقية

جاء في جريدة الباتري (الوطن) في ١٧ مايو سنة ١٩١٩

نهاية الدولة التركية ـ عدم عقد شروط صلح معها — تقسيم الولايات العثمانية

تقسيم الدولة

قالت النيويورك هرالد في عددها الصادر هذا الصباح ان من المرجح عدم عقد شروط صلح مع تركية وان كان ذلك غير مطابق للقواعد المرعية ، لا ان المؤتمر يفكر بكل اهتمام في هذا الامر مرتكنا على ان تركية لم يعد لها حكومة دولية حقيقة وانه لم يبق للعالم المدني الا الاقتناع بتركية الدولة العثمانية

ستنال اليونان أكبر جزء من تركية أوربة ، وأما الآستانة مع مضايق البحر

فتتبع لعصبة الامم تحت وصاية أمريكة التي تعطى في هذا الابان نفسه الوكالة على أرمينية الى ان تصير هذه البلاد صالحة لان تحكم نفسها بنفسها

ثم ان اليونان سيصيبها جزء ليس بقليل من آسية الصغرى وأما باقي ولايات هذه الجهة فتكون تحت وكالة فرنسة وايطالية بالنيابة عن عصبة الامم وانكلترة تأخذ بلاد العراق وفرنسة تأخذ سورية أما العرب فقد قرر الحلفاء منحهم الاستقلال

وراثة الخلافة

ان انحلال تركية أوجد مسألة أيلولة الخلافة كما انه وضع حدا لنهاية نفوذ فرنسة في الشرق ـ لقد كان لنا عدة قرون أكبر نفوذ بسياستنا الودية مع تركية ، وقد حلت ألمانية محلنا عند ما أهملنا المحافظة على هذا النفوذ ، وكان في امكاننا استرجاع مكانتنا الاولى على أثر صولة النصر الا اننا لم نغتنم هذه الفرصة بل قبلنا تسوية مجحفة بمصالحنا ـ فما يكون نصيب فرنسة بالنسبة الى البلاد المقسمة التي وضعت تحت وصاية انكلترة وأمريكة ، ان ما خصص لنا انما هي سورية بعد استثناء فلسطين وفلسطين منها وحرماننا من البوغازين المهمين أعني بهما ثغري اسكندرونة وحيفا

وجاء في جريدة لافنير (المستقبل) في ١٨ مايو سنه ١٩١٩

تعديل الخريطة — اعادة نظام النمسة وانحلال تركية

عزم المؤتمر على فحص المسئلة التركية وقد بدأ هذا الفحص بارسال مدرعات وجيوش دولية لاحتلال أزمير التي تقرر ضمها الى اليونان وتم ذلك فعلا

تقرر أيضاً ضم سورية الى فرنسة ولكن لم ينفذ هذا القرار وجعل العراق وفلسطين تابعتين لانجلترة وقد تم ذلك ثم ينتظر الحاق اضالية وقونية بايطالية والاستانه وأرمينية بامريكة

أما التركي فانه بحسب تخويل الشعوب حق تقرير مصيرها قد صار ازالته من الخريطة والمأمول ان هذه المخالفة لمشروع عصبة الامم لاتتم لانه ليس من حسن السياسة تحريك عواطف الوحدة الاسلامية في أنحاء العالم واضمارها في الاستانة

كان لدى الدول فرصة وحيدة لوضع تركية تحت سيطرة دولية ثم رؤي اتباع طريقة أخرى وهي تقسيم البلاد وتجنيسها بجنسية الحكومات التي لها عليها حق الوكالة أو الوصاية لاحق التملك الحقيقي

اننا بتضحية تركية وبتشريح هذه المملكة اوجدنا أوجهاً للنزاع والشقاق بين دول اوروبة في المستقبل اذ ان الرجل المريض سينقل عدوى مرضه الى اوروبة ولاجل تعميم العدوى دخلت ايضاً امريكة في المرسح ولنا أن نتساءل ما شأن امريكة في تركية ؟ ولماذا لم تكلف الدول صاحبة الشأن حماية مضايق البحر ؟ هل تدخلنا نحن في مراقبة ترعة بناما ؟

ان الحل الوحيد هو عدم تخصيص الاستانة لدولة معينة من الدول واذا كان لا بد من وضع مراقبة على تركيه فليس ثمت أحسن طريقة من جعل هذه المراقبة دولية مشتركة، وكل طريقة أخرى تكون مخالفة للعدالة وللروح المصري والصوالح الاوروبية في الشرق

وجاء في جريدة الفيغارو في ١٨ مايو سنه ١٩١٩

الارث العثماني

بعد انكسار المانية العسكري وانهزام دولتي تركية والنمسة والمجر اصبحت هاتان الدولتان الاخيرتان مزعزعتي الاركان وتولد عن ذلك مسئلة من أصعب المسائل وأعقدها ألا وهي تسوية الارث العثماني

ان سقوط الدولتين المذكورتين انقذ الشعوب التي ليس لها رغبة ولم يعد لها صبر على احتمال نير الحكم الاستبدادي الذي رزحت تحته اجيالا طويلة

فالذين تؤول اليهم تركة تركية هم أولا اليونان الذين بعد ان تخلصوا من ذلك الملك الغاشم انضموا الى قضية الحلفاء = ثم الارمن الذين بسبب السياسة الخرقاء الموعز بها من عمال الالمان قاسوا أشد انواع العذاب واوشكوا ان ينقرضوا ويليهم السوريون الخ

فاليونان القاطنون في تركية اوروبة سينضمون الى دولتهم التي ستتسع كثيراً على أثر هذا الانضمام كما ان ولاية أزمير = حيث يكون العنصر اليوناني = ستنضم ايضاً الى دولة اليونان بناء على التوكيل المعطى لهذه الدولة وبحسب الشروط المعينة لذلك

وأما مشروع انشاء أرمينية الكبرى مع ضم أطنة ومرسين اليها ليكون لها منفذ على البحر المتوسط فالمنظور أن امريكا تكون الوصية على هذه البلاد كي تساعدها على ارتقائها ونموها كما أنها ستكون على الراجح هي الوصية على الاستانة وعلى المضايق التابعة لها ايضاً — فاذا قبل الرئيس ويلسون هذه الوكالة باسم الشعب الامريكي لا يكون قبوله نافذاً ونهائياً الا بعد موافقة مجلس الشيوخ الامريكي عليه

وفرنسة تكون الوصية على سورية بالنظر لعلاقتها القديمة بها لكن لا بد ان تكون هذه الوصاية شاملة للبلاد السورية باكلها وليس على سورية مقسمة ولا ريب في أن المخابرات التي جرت في ذلك كان فيها بعض التراخي من قبل فرنسة لكن من الضروري ان تؤيد حقوقنا بكل حزم وعزم

بلاد الاناضول ستعطى لايطاليا مع ميناء اضاليا

ثم ان فلسطين والعراق يكونان تحت مراقبة انجلترة

هذا هو التقسيم الذي تم الاتفاق عليه بادئ بدء وبقي في آسية الصغرى جزء مأهول بسكان اتراك يحتوي على بروسة وانقره وقد طلب من فرنسة حماية هذا الجزء لان بروسة حيث يقيم السلطان تكون عاصمة المملكة العثمانية الجديدة وتمنى ان لا يتبع الحلفاء سياسة التجزئة في آسية الصغرى والذي نراه هو أن تكون دولة تركية المقبلة تحت اشراف مستشارين اوروباويين وبمعاونتهم.

(المنار) هذا نموذج مما كان ينشر في جرائد الحلفاء منذ عامين بيانا للرأي العام في بلادهم عقب الحرب التي كانوا فيها هم المنتصرين، وكان أكثر الناس من جميع الامم يظنون ان ماتقوله هذه الجرائد هو القول الفصل الذي لا مرد له لانه صدى سياسة دولهم المنتصرة التي لها الدهر عبد والزمان غلام، وقد وضعوا المعاهدات لجعل تلك الاماني حقوقا ثابتة ولكن الزمان جاء بما لم يكن في حسبان أحد من المطلوب والمشكلات التي عجز جميع دهاة السياسة عن حل عقدة واحدة من عقدها الكثيرة وقد جف ريقهم من كثرة ما نفثوا فيها ودميت أظافرهم من تكرار محاولتهم لها، فكان ذلك حجة بالغة على جهل المغرورين بالقوة والعظمة الباطلة الذين يرتكسون في البأس عند سماع كل صيحة هائلة، (فاعتبروا يا أولي الابصار)

أماني المبشرين ، أو مخادعتهم للموسرين

كتبت احدى الجرائد التبشيرية الاميركية مقالا للدكتور صموئيل م زويمر المعروف في مصر تحت هذا العنوان

« الاسلام يرحب بالنصرانية »

ان الجاحدين من أهل الاسلام أصبحوا الآن مبشرين في الشرق الادنى وان دور الاولياء والكهنة قد انقضى فاصبح المسلمون يرحبون بالانجيل المسيحي

هذا ما كتبه الدكتور صموئيل زويمر من القاهرة الى (الانتليجنسر)مبيناً أن الاضطراب السياسي في الشرق الادنى لم يكن ناجماً عن عوامل اقتصادية أو رغبة في الحكم الذاتي بقدر ما كان ناجماً عن عدم القناعة الدينية وقد أقام برهاناً على أقواله ان اللورد رادستوك الموظف في جمعية الشبان المسيحيين YMCA قد ألقى عدة مواعظ دينية في المدن والقرى المصرية ابان الاضطرابات الاخيرة قوبلت بكل ترحيب وحفاوة بالرغم من تلك الاضطرابات السياسية ومن ظهور بزته الافرنجية ، فيدل هذا على ان الفرص سانحة جداً للتبشير بين الطبقات كافة والمسلمين الذين يعتنون المجموع الاعظم خاصة ، وان الابواب التي كانت مستعدة بأن تفتح اصبحت الآن مفتوحة على مصراعيها لقبول الدعوة لان الابحاث اللاهوتية ابتدأت تأخذ طوراً جديداً في الوقت الحاضر واصبحت صفات السيد المسيح تحصر في الجرائد اليومية . ومما يشجع على ذلك اننا نرى اقبالا لم يسبق له مثيل على تعاليم المسيح من تلاميذ المدارس الابتدائية حتى معلمي الجامع الازهر وكافة طبقات الشعب فقد جاء في مؤلف لاحد علماء الاسلام في القاهرة فصل عن السيد المسيح بين فيه الكاتب جلال المسيح وتأثيره العظيم على التاريخ

ان الاسلام لا يعترف رسمياً بتصلب المسيح وآلامه فاصبحت خشبة الصليب هي العثرة في سبيل ابحاثهم ولكن هذه التعاليم لم يعد يستغربها عقل المسلم

قد تكون عرضة لنسيان أن الشرق الادنى نال قسطه من (جنسيماني) « مكان في القدس حيث دفن المسيح » فان الحرب قد حفرت حفراً عميقة في حياة البشر وقلوبهم حيث نرى الملايين من الايتام والارامل ولا نرى بيتاً في تركيا الا ونشاهد فيه فراغاً .

غلب الاسلام في ساحة الحرب فاسبح مخدوعاً في مظاهره مضطرباً في برنامجه وعليه فانه أصبح ناضجاً مستعداً لقبول التعاليم المسيحية اذ بات يفهم أن الله لم يعد يحارب لاجل الاسلام كما كان يحارب قبلا وان تلك الخطط الثوروية والمطالب التي كانوا يلبسونها ستاراً من الوطنية لاذلال غير المسلمين من الشعب لم تجدهم نفعاً فان اليهودي وجع الى فلسطينه وأصبح المسيحي في مصر وسوريا يرفع رأسه بعد أن كان ذليلا مهاناً .

ان المسلمين أنفسهم يدرسون حياة محمد وتعاليمه درس الناقد وان ما جاء في تفسير القرآن الذي كان ينشر تباعاً في مجلة المنار التي هي من أمهات المجلات في القاهرة دليل على ما ذكرناه

ان الطلاء الابيض ابتدأ يزول فالمتعلمون من المسلمين يقرأون الكتب الافرنسية والانكليزية وعلى الاخص كتابات « لامنس » و « كايتاني » و « موير » و « ماكوليوت » وغيرهم ثم ان « س خدا باخش » من كلكتا ترجم مؤخراً كتاب الدكتور ويل في تاريخ الاسلام ونشره باللغة الانكليزية منتقداً التربية الاسلامية اكثر مما كان ينتقدها في خطاباته ومحاضراته الشائقة غير هياب ولا وجل . وعليه فان الفرصة سانحة للتبشير وبث التعاليم المسيحية كيما ننتاش النابتة ونخلص المرأة المستعبدة ثم نبث معنى الحياة الزوجية

قد يرى المبشرون في هذا الجهاد انصاراً لهم من الفئة المتعلمة من المسلمين الذين أصبحت ميولهم وأفكارهم غير متجانسة مع ديانة آبائهم .

الرق قضي عليه والحجاب في حالة القضاء عليه وأما تعدد الزوجات وشريعة الطلاق فان الظروف الحاضرة كفيلة بزوالها . انتهى

(المنار) يغلب على ظننا ان الغرض الاول من هذه الكتابة استنداء أكف الموسرين من الغيورين على تنصير المسلمين ليجودوا بالمال، ولا يبعد أن يكون الكاتب مغروراً متمنياً يرى أن أمانيه حقائق ثابتة كالسياسيين الذين يظنون أنهم قضوا على الاسلام بكسر الدولة العثمانية ، واقتسام البلاد العربية ، والحق ان المسلمين كانوا قبل الاحداث التي ذكرها أشد تعظيما للمسيح عليه السلام منهم الآن وان أوربة قد جنت بهذه الحرب الوحشية وبمعاهدات الصلح على المسيحية وعلى المدنية الغربية أقبح جناية فاصبحت جميع الامم الشرقية نافرة منها أشد النفور فان لم يكن الكاتب شعر بهذا الى اليوم — وهو مالا نظنه — فلينتظر فانا منتظرون

باب الانتقاد على المنار

مسألة فناء النار أو انتهاء عذاب أهلها

راجعنا أفراد من قراء المنار فيما نقلناه عن كتاب (حادي الارواح) في مسألة الخلاف في فناء النار وبقائها وما رجوناه من اقناعه لبعض المنكرين لعدم نهاية عذابها مع عدم تضرر المؤمنين بقول الجمهور به . ورأينا بعضهم فهم من كلام ابن القيم أنه يرجح القول بفناء النار ويختاره واننا وافقناه على ذلك بما قفينا عليه ، ولم نر أحداً منهم فهم قولنا حق الفهم ولا قوله ، وقد تيسر لنا افهام من كلمنا في ذلك مشافهة حتى اتفقنا فيه رأياً

وكتب الينا بعض اخواننا في ذلك مستعظماً للامر ظاناً أنه كلام يهدم الدين ، ويؤيد شبه المرتدين ، ويجرئ عصاة والفساق على ارتكاب الفواحش والمنكرات ، وقد كتبنا اليه بعض التوضيح لقولنا والتذكير بما لعله ذهل عنه وفتحنا له باب الرد على ما أنكره وازالة شبهات من يظن أنه يفتتن به ، فشرع في ذلك ثم رأينا أن نبين له ولغيره من القراء المسائل الآتية ونذكرهم ببعض ما سبق لنا من القول في أمثال هذه المسائل

(١) ان المسألة خلافية بين المسلمين لا اجماعية وقد نقل الامام الطحاوي فيها ثمانية مذاهب في عقيدته عزا اثنين منهما الى أهل السنة أحدهما ان الله تعالى يبقيها ما يشاء ثم يفنيها ، والآخر قول الجمهور المشهور ، وابن القيم لم ينقل الاسبعة أقوال ، وقد ذكر الخلاف في كثير من كتب العقائد والتفسير والحديث ، ومقتضى كلام الطحاوي ان مذهب بعض الصوفية فيها كذهب الجهمية ليس من مذاهب السنة

(٢) ان الطحاوي لما ذكر القولين اللذين عزاهما الى أهل السنة قال : ولينظر في دليلهما . فجاء بعده ابن القيم وبسط دلائلهما ، ولم يجزم بهذا ولا ذاك بل فوض الامر فيه الى ارادة الله ومشيئته وهو قول ٨ أو ٩ لاهل السنة

(٣) ان المنار لم ينشر مطويا فالكتب التي ذكر فيها الخلاف متداولة بين الناس ولا سيما الدر المنثور في التفسير بالمأثور للحافظ السيوطي وشرح عقيدة السفاريني وما زاد حادي الارواح على غيره الا تلك المسائل الدقيقة في حكم الثواب والعقاب ورحمة الله تعالى وحكمته في الجزاء والتفرقة بين صفات الذات كالحكمة والرحمة وصفات الافعال كالرزاق والمحيي والمميت والمنتقم وهي التي نوهنا بفضله

واثنينا على سعة علمه ومعرفته لاجلها دون أصل المسألة المشهورة قبله -

(٤) اننا قد بينا غير مرة في المنار أن المعتمد عندنا في التفسير وأصول الدين وفروعه ظواهر النصوص مجتمعة وفي اختلاف العلماء ما كان عليه جمهور السلف ان علم بالنقل الصحيح ، واننا اذا أوردنا في المنار أقوالا أخرى فانما نقصد بذلك دفع بعض الشبهات عن الدين أو تقريب بعض مسائله الى بعض من لايقنعهم غيره بحسب اختبارنا . وعلى هـذه القاعدة جرينا في تفسير آية الانعام فان فيها بعد ذكر الخلود الاستثناء بمشيئة الله تعالى وتعليل هـذا الاستثناء بقوله تعالى (ان ربك حكيم عليم) وقد فوضنا اليه سبحانه الامر في ذلك وبينا ان مشيئته في ذلك مجهولة لنا ولا يعلمها حق العلم غيره سبحانه وانما تتعلق بما يقتضيه علمه وحكمته ووعدنا بتحرير الدلائل في المسألة عند تفسير آيتي سورة هود فيها

وقد سبق لنا تحقيق مثل هذا التفويض في تفسير قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام في قومه (ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم) وبينا فيه ضعف من اضطرب فيه من المفسرين لصراحة العبارة في جواز المغفرة لمن اتخذه وأمه الهين من دون الله ومنه أقوال بعض مفسري الاشعرية باستحسان غفران الشرك كما صرح به أبو السعود والآلوسي وأطنب الرازي في ذلك وأتى بعدة وجوه في تأييد مذهبهم رددناها عليه أقوى رد بفضل الله علينا ، وبينا وجه تذييل الآية بصفتي العزة والحكمة دون المغفرة والرحمة بما لم نطلع على مثله لاحد

(٥) ان قيل انه تعالى بين في سورة النساء انه لايغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فهذا تقييد للمشيئة ينقض قول الاشعرية . قلنا انما يدل هذا على أن العقاب على الشرك حتم مقضي ولكنه لا يدل على أنه سرمدي لا نهاية له بل هذه مسألة أخرى ، وجمهور العلماء يقيدون المشيئة بغير هذا النص أيضاً اذ صرحوا بأنه لا يغفر لمن يوحد الله ولا يشرك به اذا لم يؤمن بملائكة الله ورسله واليوم الآخر ، ولا لمن جحد أي أمر مجمع عليه معلوم من دين الاسلام بالضرورة ، ويؤلون النص في جواز غفران مادون الشرك كالنص في خلود متعمد القتل في جهنم بناء على مذاهبهم فأكثر التأويل لتصحيح المذاهب المتبعة لا للجمع بين النصوص وتقديمها على جميع المذاهب ، والآيات تثبت

اطلاق المشيئة الا انها لاتعارض غيرها من صفات الله ومدلول كلامه .

(٦) ان مرادنا بقولنا : ان هذا البحث لا يضر المؤمنين بقول الجمهور مقلدين كانوا أو مستدلين — ظاهر جلي وهو أنهم يردون القول المخالف لمن قلدوهم أو لدلائلهم فلا يترتب عليه أثر في أعمالهم، ونزيد على ذلك انه لايضر أحداً من المؤمنين مطلقاً وان سلمه لان جواز تعلق مشيئة الله تعالى بانتهاء عذاب الكفار بعد لبثهم في النار احقاباً لايصح أن يكون سبباً لترك المؤمن الصادق لشئ من الواجبات ، ولا لارتكابه لشيء من المحرمات ، ولكن في كتب الفقه والكلام والمواعظ والادب وخطب المنابر كثيراً من الاقوال التى ازالت حرمة الاوامر والنواهي من قلوب الجم الغفير من الناس وكان من أثرها ما نراه من ترك الصلاة ومنع الزكاة والمجاهرة بالفطر في رمضان وفشو السكر والزنا والقمار . . . كالكلام في تخلف الوعيد والعفو والمغفرة والكفارات والشفاعات والكرامات ، وقد شرحنا ذلك مراراً ورددنا شبهات الغالين فيها وبينا ما له أصل منها وما هو موضوع باطل كحديث اعتاق ستمائة الف عتيق من النار في كل ليلة من رمضان . . . ولم يكتف خطباء الفتنة وعلماء التقاليد بتلقين الدهماء هذه الموضوعات بل تعدى بعضهم لرد ما يرد عليها كأنها من أصول الدين كقول بعضهم اذا كان عدد عتقى رمضان يزيد على عدد عصاة الارض كلهم ولا سيما في زمن النبي (ص) فان الله تعالى يكمله من الجن :

واني بما اتفق لي من الاختبار الواسع للناس و بقدر ما أوتيت من العقل والفهم اجزم بأنه يندر أن يكون الخوف من العذاب الابدي سبباً لاستجابة كافر لدعوة الدين ، بل هذا قلب للمعقول لانه يتوقف على التصديق بالعذاب المذكور قبل الايمان بالرسول وبما جاء به ، وهذا قلما يقع الا لافراد من المعاندين كبعض كبراء مشيخة قريش في زمن البعثة .

(٧) لا انكر ان بعض المارقين والملاحدة المشاغبين قد تزيدهم أمثال هذه المباحث رجساً الى رجسهم من حيث تزيد المؤمنين ايماناً بالله تعالى (يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به الا الفاسقين) الذين فسقوا من نور الفطرة والاستعداد للهداية كما تفسق الرطبة من قشرتها وانما ارجو أن يهتدي بهذا البحث بعض المرتابين من أهل النظر الذين يؤمنون بأن لمعالم الهاً عظيماً حكيما ، وربا رؤفاً رحيما : وان من حكمته الجزاء على الاعمال النفسية والبدنية ،

وان جزاءه عدل وفضل، ويستحيل عليه الجور والظلم، وهم ينظرون ويتفكرون ، وإذا ظهر لهم الحق يقبلونه وله يذعنون، وأما اولئك المارقون المستهزءون من أهل الرقاعة فلا يلتفت اليهم ولا يبالي عاقل بامرهم، ألا ان يشفق عليهم ويحزن لكونهم من امته أو ابناء جنسه

(٨) ان الشبهة التي أشرنا اليهاليست واردة على بقاء دار العقاب التي تسمى النار والجحيم والهاوية وجهنم وغير ذلك من الاسماء فقد تبقى وينقلب عذابها عذبا كما زعم الشيخ محيي الدين بن عربي وشيعته أو لتعذيب خلق آخر من المكلفين مثلا — ولا على أصل العقاب فيها فطالما أقنعنا المنكرين لهذا بأنه حق وعدل . وانما يقول أصحابها وهم من المنتسبين الى أديان مختلفة : ان المختبر لاحوال البشر يعلم علماً يقينيا ان أكثرهم ينشأ متديناً بالدين الذي نشأ عليه بين قومه وأهل ملته تقليداً لهم وتسليما ثم يعرض لبعضهم الشك والريبة في دينه وفي سائر الاديان بالتبع ويتفق لبعض آخر الاطلاع على دين آخر والاقتناع بحقيته فيتبعه. ولكن يقل جدا أن يظهر لاحد حقية دين ويجحد به كبراً وعناداً كما وقع لبعض كبراء أقوام الرسل عليهم السلام في عصرهم، ثم ان المتدينين يعملون بما يعلمون من أديانهم على تفاوت عظيم بينهم في العمل سببه تأثير التربية والقدوة وطريقة التعليم له ؛ ويعلم ايضاً ان بعض المرتدين عن اديانهم بشبهات نظرية او علمية يؤمنون بالله ولا يشركون به شيئاً ؛ وان بعض المتدينين بالاديان الكتابية كغيرها يشركون بعبادة الله تعالى اشياء كثيرة من الاحياء والاموات كما ان بعض المرتدين احسن من بعض المتدينين اخلاقا واعمالا وانفع منهم للناس وللاوطان؛ ويقولون اننا مع هذه الحال نرى اهل كل دين يقولون ان الموافقين لهم في دينهم لانهم ولدوا فيهم وتربوا بينهم هم وحدهم اصحاب النعيم المؤبد الذي لانهاية له وان جميع المخالفين لهم سيكونون في عذاب اليم مؤبد لانهاية له سواء عرفوا حقيقة دينهم او جهلوها؛ بل يعلم اكثر اهل البصيرة والاختبار ان اكثر المخالفين لهم لا يعرفون حقيقة دينهم ؛ وان من يعرف شيئاً منه يقلد يعرفه على وجهه عندهم ؛ وان ليس كل من يعلم شيئاً منه على حقيقته يقوم عنده الدليل على صحته — ونتيجة ماتقدم ان اكثر افراد البشر مقلدون في دينهم لمن تربوا معهم وتعلموا منهم ؛ وان غير الاكثر اهل نظر واستدلال يرجحون ماثبت عندهم بحسب درجات نظرهم واستدلالهم على غيره في العقائد

والاعمال بـــ فالذي اصاب الحق من المقلدين لافضل له في اصابته اد لا عمل له فيه ولا اجتهاد ، والمقلدون في هذه الاعصار انما يتبعون جهوراً مقلداً فلا يكاد يتفق لاحد منهم ان يصيب الحق في جميع المسائل ، واذا كان التقليد حجة لصاحبه فيما وافق الصواب وعذراً فيما خالفه كما يقول اكثر اهل كل ملة في انفسهم فلماذا كان ذلك خاصا بهم والله رب الجميع وهو الحكم العدل

ثم إنهم يقولون لاهل كل دين أنتم قد تفرقتم في دينكم وكنتم شيعاً تحكم كل شيعة على الاخرى بالكفر أو الابتداع والضلال فاذا كان الواجب على جميع البشر أن يتبعوكم وكان كل من لايدين بدينكم خالدا في العذاب بالمعنى الذي تقولون فاي مذاهب الشيع يجب عليهم الاخذ به لينجو من الهلاك الابدي؟ إن قصارى قول كل شيعة بل كل فرد منكم أن من يدين الله بدينه ويموت على عقيدته هو الناجي المثاب بالنعيم الابدي وان عاش العمر الطويل قبله على غير ذلك ، وان كل من مات على غير عقيدته يخلد في العذاب الاليم الابدي وان عاش العمر الطويل قبله على الايمان بالله وحده و بالبعث والحساب وعمل البر والاحسان بتعاليم دين آخر أو باجتهاده

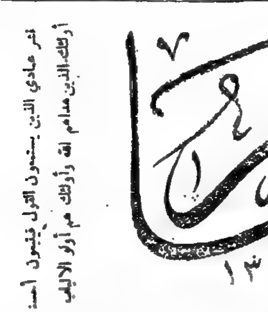
فورد الشبهة بعد هذا البيان ان أكثر أفراد هذا الانسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم وكرمه وفضله على كثير من خلقه تفضيلا انما خلقهم تعالى لاجل أن يعذبهم عذاباً شديداً أليما مهينا أبديا تمر الالوف والملايين من الاحقاب والقرون وهو لايزداد الا شدة واستمراراً، وان هذا العقاب جزاء عادل على مسائل اعتقادية قليلة كان أكثرهم جاهلا بها وغافلا عنها لانه لم يدعه أحد اليها البتة ، وقد بلغت بعضهم على وجوه مختلفة منكرة لاعلى وجه صحيح يحرك داعية النظر فلم ينظر فيها . وبعضهم نظر وبحث فلم يتبين له أنها الحق . وبعضهم ليس أهلا للنظر برسوخه في تقليد أهل دينه واطمئنانه به ـ وان هذا العقاب الابدي الاليم لاينافي ماثبت في العقل والنقل من عدل الله تعالى وحكمته وسعة رحمته وكونه أرحم الراحمين بل أرحم من الوالدة الرءوم بطفلها الرضيع . هذا مايقولون انهم لايعقلونه فيؤمنوا به وليس في طاقتهم ان يعتقدوا صحة دين يحكم به ويحتمه

(٩) اني احمد الله تعالى ان وفقني لاقناع كثير من الناس مختلفي الدين والجنس

بحكمة الله وعدله في عقاب المجرمين كما وفقني لاقناع من لا أحصي لهم عددا من المرتدين والمعطلين الماديين بوجود إله خالق واحد وبالرسالة وبكثير من أصول الدين وحكم فروعه وموافقة الدين الاسلامى للعقل ولمصالح البشر في دنياهم. واني ابتليت بمراجعة الناس لي في ذلك من أيام طلبي العلم لانني كنت كثير البحث فيه بالميل الفطري حتى إن بعض الشيوخ في طرابلس الشام كان يراني في السوق فيسألني عن بعض مشكلات الشريعة ووجه مطابقتها للعقل أو للمصلحة العامة. وحدثني دانش بك الذي كان امين السر لمحمود باشا الداماد والد الامير صباح الدين بك التركي الشهير حين جاء من مصر في أوائل العهد بهجرتي اليها أن الاستاذ الامام قال له: أنني لا أعرف أحدا أقدر من هذا الشاب صاحب المنار على التوفيق بين الدين وبين العقل والمدنية. ثم أقول بعد هذا وحمد الله عليه عودا على بدء انني لم أعجز عن إقناع منكر لشيء من أصول الدين أوحكمه كما عجزت عن اقناع المنكرين لابدية العذاب الاليم الشديد انكار اشتباه وارتياب لا جحود وعناد ، فان الجاحد المعاند لهوى في نفسه لا يقتنع بالضروريات بله المشكلات ، ولكنني اذا قلت لبعضهم ان لبعض السلف والخلف من المسلمين قولا بانتهاء العذاب وقولا بتفويض الامر فيه الى الله تعالى قالوا انا نجزم بأن عظمة الله تعالى وحكمته ورحمته تجل عن تعذيب هؤلاء العباد الضعفاء الجاهلين الى غير نهاية فأي الامرين أجدر بهؤلاء ؟ آلجزم بأن عدم نهاية العذاب الشديد لمن ذكر من أصول الدين التي يعد غير المؤمن بها مرتدا لا يعتد باسلامه أم اقناعه بأن اعتقاده لا ينافي الاسلام وان له أسوة بمن سلف من المؤمنين ولو الجهمية الذين لا يكفرهم أهل السنة بما خالفوهم فيه عن استدلال وتأول ؟

(١٠) بعد هذا كله أصرح هنا بأن مسألة فناء النار أو انتهاء عذابها الاليم الشديد مع بقائها ليست عندي من المسائل التي ادعو اليها وأناضل عنها ولا أبالي أن أنشر لمن يرد عليها ما يكتبه على علاته من غير نقد لما أراه منتقدا منه بشرط ألا يطيل بما لا حاجة اليه في الموضوع أو بما سبق ذكره لابن القيم في حجج القائلين بالقول الآخر ، وان يبين صفة من لا ينتهي عذابهم ومن لا ينتهي نعيمهم التي استحق بها كل منهما ذلك وأنني لو يوفق أحد لشيء يقنع من ذكرت ، والله الموفق للصواب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب



فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى « ومنارا كمنار الطريق »

٣٠ شعبان ١٣٣٩ـ ١٧ الثور (ر٢) سنة ١٢٩٩ هـ ش ٨ ابريل سنة ١٩٢١

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة اذ لا يسع الناس عامة، ونشترط على السائل أن يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك أن يرمز الى سمه بالحروف أو يعبر بما شاء من الالقاب ان شاء. وأننا نذكر الاسئلة بالترتيب غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه، وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا، ولمن مضى على سؤاله شهران أو ثلاثة أن يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ القرآن المتواتر والقراءات السبع وخاصة قراءة حمزة ﴾

(س١٠ — ١١) من الشيخ عبد القادر حمزة من كفر الشيخ عامر

بسم الله الرحمن الرحيم

الى سيدي الاستاذ الامام السيد محمد رشيد رضا

السلام عليك وعلى سائر الاسرة والاحباب (وبعد) فأعرض على نور علمكم مسائل أشكلت علي مآخذها وتعارضت أدلتها لتنيروا لنا سبيل الحق فيها على صفحات منارکم أو في كتاب خاص الي أطال الله حياتكم لهداية المسلمين آمين

١ — تواتر القرآن مجمع عليه من جميع طوائف المسلمين فهل هذا التواتر هو لما اتفق عليه القراء — وهو جمهور القرآن — ويكون ما اختلفوا فيه صحيحاً غير متواتر لاختلافهم فيه من جهة ولأن كل قراءة جاءت عن واحد وعرفت به وأضيفت اليه كقولهم قراءة حفص . قراءة حمزة . قراءة ابن كثير. مثلا؟ أو أن كل قراءة من هذه القراءات متواترة؟ قد شارك كل قارىء منهم في قراءته من لا يحصى من أمثاله غير أن المصنفين اقتصروا على واحد من رواة القراءة — وهذا عذب لولا ما يكدر صفوه من ابهام المسلمين بالاهمال في بيان تواتر كتابهم الذي هو أصل دينهم ويكدره أيضاً صنيع الطبري — وهو أمام في القراءة والتفسير والحديث والفقه — من رده في تفسيره لكثير من القرآت التي يثبتونها بسبعية .. كقراءة حمزة « فأزالهما الشيطان عنها » من سورة البقرة

وقراءة ابن عامر: وكذلك زُيِّن لكثير من المشركين قتلُ أولادَهم شركائِهم:
الى غير ذلك مما لا يحصى كثرة في تفسيره والرجل أجل من أن يقول في قراءة
متواترة انها مردودة لكذا .. ولاجماع الحجة من القراء على خلافها !!!

٢ ـ في ترجمة حمزة بن حبيب الزيات من كتاب ميزان الاعتدال للذهبي وتهذيب التهذيب للعسقلاني نقل كلام الحفاظ في رد قراءة حمزة ككراهة يزيد بن هرون وأحمد بن حنبل لها · وتمني عبدالرحمن بن مهدي سلطاناً يوجع به ظهر من يقرأ بها وحكم أبي بكر ابن عياش بأنها بدعة وباعادة صلاة من يصلي خلف القاريء بها الخ مما لا يقوم في وجهه قول الثوري ان حمزة لم يقرأ حرفاً الا بأثر . فلا يدفع ذلك قدح النقاد فيها لان في الآثار الصحيح والمعلول فيقال فيها انها بدعة ويوجع ظهر من قرأ بها وتبطل الصلاة خلفه الخ لانها رويت بآثار معلولة غير صحيحة فكيف من هنا يكون حمزة شيخ القراء وأحد السبعة وينعقد الاجماع بآخرة على تلقي قراءته بالقبول كما زعم الحافظ الذهبي . اه

(الجواب) ثبت في الصحاح ان النبي (ص) كان كلما نزل عليه شيء من القرآن يقرأه على أصحابه فيحفظه من يحفظه ممن حضر منهم ويأمر كتاب الوحي بكتابته وحفظه . وكان النبي (ص) يقرأ كل ما أنزل عليه في الصلوات فيسمعه الصحابة (رض) في الجهرية منها ، وكانوا هم يقرؤن في صلواتهم وغيرها ماحفظوه ، وثبت أيضا أن جبريل أمين الوحي عليه السلام كان يعارض النبي (ص) القرآن في كل ليلة من ليالي رمضان في كل سنة اي كان كل منهما يعرض على الآخر كل ما نزل من القرآن وان جبريل اقرأه القرآن على حرف واحد فاستزاده حتى أقرأه على سبعة أحرف وان المعارضة في آخر رمضان من عمره (ص) كانت مرتين أي بالسبعة الاحرف .

وثبت أيضاً أنه كان في الصحابة طائفة كبيرة يوصفون بالقراء لعنايتهم بحفظ القرآن وكثرة قراءته وانه قد جمعه كله في عصر النبي (ص) أربعة من الخزرج بالتلقي قراءة وكتابة. وهو أقوى ماوجه به الحصر في الخبر الوارد في ذلك ومن المعلوم بالبداهة ان المهاجرين كانوا أشد عناية بحفظه ولا سيما السابقين الاولين

وثبت ايضا انه لما استحر القتل (اشتدوحمي) بالقراء في قتال مسيلمة الكذاب باليمامة خشي عمر ان يقتلوا في كل مكان فيقلوا فأشار على ابي بكر بجمع القرآن كتابة فأمر ابو بكر زيد بن ثابت كاتب رسول الله (ص) بجمعه فجمعه مما كانوا

يكتبونه فيه من الحجارة الرقاق وعظام الكتف وعسب النخل لجمعه في الصحف بالترتيب الذي تلقوه عن النبي (ص) وكانت هذه الصحف عند أبي بكر ثم عند عمر مدة حياتهما ثم عند حفصة أم المؤمنين الى ان نسخت عنها المصاحف بأمر عثمان في عهد خلافته وبعث بها الى الآفاق ليرجع اليها القراء والحفاظ حتى لا يختلفوا في القرآن فيضلوا كما ضل من قبلهم

وقد أجمع المسلمون سلفاً وخلفاً على أن كل ماوافق رسم المصحف الامام الذي كتب في خلافة عثمان باقرار علماء الصحابة واتفاقهم من القراءات المروية عن النبي (ص) رواية صحيحة بعبارة عربية فصيحة فهو قرآن وقد توفرت الدواعي على تواتر ذلك كله بما ذكر عن أهل الصدر الاول ثم بما كان يخص به الخلفاء وعمالهم حفاظ القرآن من العطايا. واختلاف الروايات عن النبي صلى الله عليه وسلم سببه الاحرف السبعة التي نزل القرآن بها ، وقد اختلف العلماء في معناها، والمختار أنها أوجه القراءات وهي كما بينا في التفسير قسمان احدهما لفظي كقطع الهمزة ووصلها والامالة ومقابلها وتذكير بعض الكلم وتأنيثها مما تختلف به لغات قبائل العرب ولهجاتها وسببه تسهيل قراءة القرآن عليهم ، وثانيهما معنوي وهو ماأفاد معنى جديداً بتغيير القراءة كملك يوم الدين ومالك يوم الدين فان الملك في اللغة هو المتصرف بالتدبير والحكم والمالك المتصرف بالاعيان ولا ولا ملك ولا مالك يوم الدين غير الله تعالى ، ومما انفرد به تفسيرنا دون جميع ما اطلعنا عليه من التفاسير توجيه القراءات وبيان فوائدها اللفظية والمعنوية

وقد ذهب بعض العلماء ان القراءات السبعة المشهورة هي الاحرف السبعة التي ثبت في الصحيح نزول القرآن بها ورد ذلك المحققون فالصحيح انها منها لا كلها، واختلفوا في المصاحف هل هي جامعة للاحرف السبعة أم كتبت بحرف واحد أم بعدة أحرف وهي الموافقة للرسم؟ وهذا الاخير أظهر هذه الاقوال ، ولا يتضمن اضاعة شيء من القرآن لان الاحرف السبعة لم تكن كلها حتما على كل مسلم وانما كان الكثير منها رخصة حتى لا تشق قراءة القرآن على غير قريش من العرب فانه نزل بلغة قريش ورخص لغيرهم قراءته بما يسلس على ألسنتهم وهي رخصة عارضة قد زال سببها منذ العصر الاول بغلبة لغة قريش وتربية أولاد المسلمين من جميع العرب والعجم على القراءة بها، وبقي المروي من غيرها أثرا علمياً فما وافق منه رسم المصحف مع صحة روايته وعربيته ثبت كونه قرآنا دون

غيره وقد عني العلماء بجمع كل ما ثبت من ذلك ومنهم من يرجح ما صح عنده بالرواية من تلك القراءات ويرد غيره كابن جرير الطبري وقد يكون صحيحاً عند غيره بشروطه الثلاثة، ومثله من أنكر بعض قراءات حمزة في مثل اطالة المد والامالة وتخفيف الهمزة كالأئمة الذين ذكروا في السؤال لعدم ثبوت روايتها عندهم ، فعدم ثبوت بعض الاحرف السبعة عند بعض العلماء لا ينافي ثبوتها عند آخرين حتى بالتواتر ، وقد كان عصر هؤلاء العلماء عصر الرواية ومبدأ عصر التدوين والتصنيف الذي صار يسهل فيه العلم بالمروي لغير الرواة بمراجعة الكتب التي ثبتت نسبتها الى مؤلفيها الثقات كدواوين السنة وغيرها

وقد نقل الحافظ في شرح حديث الاسبعة الاحرف من الفتح أقوال المحققين فيها وفي القراءات ومنه في سياق كلام لابن أبي شامة : والحق أن الذي جمع في المصحف هو المتفق على انزاله المقطوع به المكتوب بأمر النبي (ص) وفيه بعض ما اختلف فيه الاحرف السبعة لا جميعها. وذكر أمثلة من ذلك - ثم ذكر عن ابن أبي هاشم أن السبب في اختلاف القراءات السبع وغيرها ان الجهات التي وجهت اليها المصاحف كان بها من الصحابة من حمل عنه أهل تلك الجهة وكانت المصاحف خالية من النقط والشكل (قال) فثبت أهل كل ناحية على ما كانوا تلقوه سماعاً عن الصحابة بشرط موافقة الخط وتركوا ما يخالف الخط امتثالا لامر عثمان الذي وافقه عليه الصحابة لما رأوا في ذلك من الاحتياط للقرآن فمن ثم نشأ الاختلاف بين قراء الامصار مع كونهم متمسكين بحرف واحد من السبعة (يعني لغة قريش). وقال مكي ابن أبي طالب : هذه القراءات التي يقرأ بها اليوم وصحت رواياتها عن الائمة جزء من الاحرف السبعة التي نزل بها القرآن - أي لا كلها ولا واحد منها فقط .

وجملة القول ان العلماء الذين صنفوا الكتب في القراءات والمصاحف والحديث قد احصوا كل ما روي عن الصحابة في القرآن والقراءات والتفسير من متواتر ومشهور وشاذ ولكن العمدة في ثبوت القرآنية ما تواتر ولو في بعض الامصار دون بعض. والقاعدة الكلية فيما جروا عليه في اقراء الناس في الامصار هي كما قال الكواشي : كل ما صح سنده واستقام وجهه في العربية ووافق لفظه خط المصحف الامام فهو من السبعة المنصوصة (أي في الحديث) فعلى هذا الاصل بني قبول القراءات عن سبعة كانوا أو سبعة آلاف . ومتى

فقد شرط من هذه الثلاثة فهو الشاذ اهـ

ثم ان المشهور عند علماء الاصول والفقهاء أن القراءات السبع المسندة الى القراء السبعة الذين اشتهروا في الامصار بالاقراء (أبي عمرو ونافع وابن كثير وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي) متواترة. ولكن استثنى بعضهم منها ما ليس من قبيل الاداء كصفات المد والامالة وتخفيف الهمزة التي خولف فيها الاصل كما ترى في جمع الجوامع وصرح بعضهم بأن بعض رواياتهم في هذا غير متواترة لانها مروية عن الآحاد أو من طرق ضعيفة وان القاعدة الثلاثة التي ذكرنا عبارة الكواشي فيها آنفا محكمة في هذه القراءات كغيرها ونقل الحافظ هذا المعنى عن شرح المنهاج للسبكي وعن ابي شامة وقال في آخر هذه النقول: ونحن وان قلنا ان القراءات الصحيحة اليهم نسبت وعنهم نقلت فلا يلزم أن جميع ما نقل عنهم بهذه الصفة بل فيه الضعيف لخروجه عن الاركان الثلاثة ولهذا ترى كتب المصنفين مختلفة في ذلك فالاعتماد في غير ذلك على الضابط المتفق عليه اهـ

فعلى هذا يكون مثل هؤلاء القراء السبعة كمثل أصحاب الكتب الستة في السنن من حيث شهرتها وكثرة المتلقين لاحاديثها عنهم وان كانوا لم ينفردوا بروايتها ولا كانت تكون مجهولة لولم يدونوها في كتبهم ومن حيث ان ما صححوه منها لم يقلدهم العلماء به تقليداً ، بل كان جميع مادونه الشيخان في صحيحهما معروفاً عند جماهير المحدثين من شيوخهما وغيرهم في عصرهما وبعد عصرهما ومرويا عن غيرهما وقد ناقشهما بعضهم في توثيق بعض رجالهما وفي غير ذلك مما هو معروف، وطعن بعض المحدثين في بعض قراءات بعض القراء كحمزة لا ينافي صحة قراءته مطلقا ولا صحة ما أنكروه منها كطعن بعضهم في صحة بعض أحاديث البخاري واتفاق سائرهم بعد هذا الطعن على صحة ما طعن فيه كله أو أكثره ذكر الحافظ الذهبي في الميزان الخلاف في جرح حمزة وتعديله في قراءته فمعظم المسائل أمر الجرح دون التعديل ومنه قول ابي حنيفة غلب حمزة الناس على القرآن والفرائض وقراءة الاعمش عند رؤيته مقبلا قوله تعالى (وبشر المخبتين) وقول الامام سفيان الثوري: ماقرأ حمزة حرفا الا بأثر. وقد بين أبو بكر بن عياش مراد من قال ان قراءته بدعة بقوله لما فيها من المد المفرط والسكت والامالة واعتبار الهمزة في الوقف. وقال الحافظ الذهبي مع ذلك: واليه المنتهى في الصدق والورع والتقوى. وقال: وقد انعقد الاجماع بأخرة على تلقي قراءة حمزة بالقبول، ثم قال وخشب

حمزة شهادة مثل الامام سفيان الثوري له. ونقل الحافظ ابن حجر هذه الاقوال في تهذيب التهذيب وأقرها والعبرة في الجرح والتعديل من حيث الترجيح على مايستقر عليه حكم أئمة الناقلين المحققين بعد العلم به كما بالك بحكم الاجماع. وصفوة الجواب ان عدالة حمزة لاغبار عليها وان قراءته غير مطعون فيها على الاطلاق بل طعن في مثل اطالة المد من لم يثبت عند غيره فلم يكن حمزة منفردا بشيء منه، على انه من النوع الذي اختلف في تواتر بعضه، ولا ضرر فيه لانه لايترتب عليه اثبات معنى ولا نفيه

ب — ذكاة الحيوان والصيد

(س١٢-١٣) منه ١ - ورد في الصحيح التذكية بالحجر فهل كان ذلك حزا أو صدما وهل في معنى الحجر في ذلك المحدد الكليل كمول الزراع (الفأس) ومعول النحت اذا أنهر الدم بالصدم الشديد والطرق عند فقد المدية الحديدة فيحل بذلك الحيوان ويغتفر للضرورة عدم احسان القتلة لعدم السكين

٢ - جاء فيه أيضاً النهي عن حذف البندق لعلة انه لايصيد صيداً ولا ينكي عدواً وجاء فيه التفصيل في صيد المعراض فأحل ماأصاب بحده وحرم ماقتل بعرضه فماذا ترون فيما حدث الآن من الصيد بمقذوف البارود. فهل يلحق بمحذوف البندق مع أنه يصيد وينكي أو يفصل فيه نظير تفصيل المعراض فيقال أن صيد صغير الحيوان كالارانب والطير بما يسمونه رشا وهو ما كان في حجم حبة القمح مثلا حل الحاقا بحد المعراض وماكان بأكبر لم يحل الحاقا بعرضه وكذلك في كبار الحيوان فما صيد بمثل البندقة حل وما صيد بمقذوفات المدافع لم يحل

أرشدني أرشدك الله الى ما فيه رضاه

(الجواب) من فقه جملة ماورد في الكتاب والسنة في تزكية الحيوان وصيده وأن أصل معنى التذكية في اللغة اماتة الحيوان بقصد أكله وحقيقته ازالة حرارته الغريزية كما قال الراغب في مفردات القرآن — علم ان الشرع لم يجعل للتذكية صفة معينة هي شرط لحل أكل الحيوان ولكنه حرم التعذيب وأمر بالاحسان في كل شيء حتى القتلة والذبحة وقد فصلنا ذلك فيما كتبناه في تأييد فتوى للاستاذ الامام في المجلد السادس ثم لخصناه في تفسير آية محرمات الطعام من سورة المائدة فليراجعه السائل يجد فيه غناء ان شاء الله تعالى. وأما ما اشتبه فيه من الفرق بين

الصيد بالبندق والرش والرصاص يعرف حكمه من حديث صيد المعراض فان النبي (ص) قال لعدي بن حاتم اذ سأله عنه « اذا رميت بالمعراض فخزق فكل وان أصابه بعرضه فلا تأكل » والرش والرصاص كما في حديث الصحيحين يخزق دون بندق الطين . وأما المدافع الكبيرة فلا يصطاد بها ولكن قد تصطاد آبال الغزلان وبقر الوحش بالمدفع الرشاش (المتراليوز) والمعراض عصا محددة الرأس أو الطرفين وقد يكون في طرفها حديدة كانوا يرمون به الصيد فيقتله وفي لفظ لحديث عدي عند البخاري « ما أصاب بحده فكله وما أصاب بعرضه فهو وقيذ » قال وسألته عن صيد الكلب فقال « ما أمسك عليك فكل فان اخذ الكلب ذكاة » ونقل الحافظ في شرحه عن الامام الاوزاعي وغيره من فقهاء الشام حل ماقتل بعرضه أيضاً . وقال البخاري وكرهه سالم والقاسم ومجاهد وابراهيم وعطاء والحسن اه فحديث أخذ الكلب ذكاة وقول ابن عباس : ما أعجزك من هذه البهائم بما في يديك فهو كالصيد وفي بعير تردى في بئر فذكه من حيث قدرت عليه (وهو في البخاري) دلائل على ما فسرنا به الذكاة

هذا وان كثيراً من علماء الشرق والغرب قد أفتوا وألفوا الرسائل في حل صيد بندق الرصاص بعد حدوثه فمن علماء الحنفية الشيخ محمد بيرم من علماء تونس الاعلام ومن علماء الحديث الامام الشوكاني الشهير من مجتهدي اليمن والسيد صديق حسن خان صاحب النهضة العلمية الدينية الاستقلالية الحديثة في الهند فانه قال في باب الصيد من كتابه (الروضة الندية ، شرح الدرر البهية) للشوكاني مانصه :

وقد نزل صلى الله عليه وآله وسلم المعراض اذا اصاب فخزق منزلة الجارح واعتبر مجرد الخزق كما في حديث عدي بن حاتم المذكور (وكان ذكر رواية الصحيحين له) وفي لفظ لاحمد من حديث عدي قال قلت يارسول الله انا قوم نرمي فما يحل لنا قال « يحل لكم ماذكيتم وماذكرتم اسم الله عليه فخزقتم فكلوا » فدل على أن المعتبر مجرد الخزق وان كان القتل بمثقل فيحل ماصاده من يرمي بهذه البنادق الجديدة التي يرمى بها بالبارود والرصاص لان الرصاص تخزق خزقا زائداً على خزق السلاح فلها حكمه وان لم يدرك الصائد بها ذكاة الصيد اذا ذكر اسم الله على ذلك . وعبارة الماتن (الشوكاني) في حاشية الشفاء : أقول ومن جملة مايحل الصيد به من الآلات هذه البنادق الجديدة التي يرمى بها بالبارود والرصاص

فان الرصاصة يحصل بها خزق زائد على خزق السهم والرمح والسيف ولها في ذلك عمل يفوق كل آلة — وذكر مثالا لذلك — وما روى من النهي عن أكل مارمي بالبندقة كما في رواية من حديث عدي بن حاتم عند احمد « ولا تأكل من البندقة الا ماذكيت » فالمراد بالبندقة هنا هي التى تتخذ من طين فيرمى بها بعد أن تيبس . ثم ذكر بعده الخذف بالحصى وكونه مثل بندقة الطين

حقيقة الصيام وحكمه وفوائده[1]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

الدين هداية روحية مدنية ، ورابطة اجتماعية أدبية ، والصيام ركن من أركانه الدينية ، وشعيرة من شعائره الملية ، ورياضة من رياضاته النفسية والبدنية ، تتربى به الارادة ، ليكون لها السلطان على الهوى والعادة ، وبهذا يكون سببا لتحصيل ملكة التقوى ، وهي اتقاء ما حرم الله في السر والنجوى ، وفي العلانية بطريق الاولى

ذلك بان الصيام حرمان للنفس من التمتع بشهوتي الطعام والشراب والشهوة الموجبة للغسل من طلوع الفجر الى غروب الشمس بنية العبادة التى شرعها الله تعالى لهداية عباده وتربيتهم بما يساعد هداية الفطرة السليمة والعقل على كبح جماح الشهوات المفسدة لها ، فمن راض نفسه على ترك الشهوات الضرورية المباحة كالطعام الحلال عند الجوع والماء الزلال على الظمأ والملامسة الزوجية مع قوة الداعية يكون أقدر على

---

(١) طبع هذا المقال جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في رسالة خاصة لتوزيعه على المسلمين في شهر رمضان

اجتناب الشهوات المحرمة الضارة كأكل أموال الناس بالباطل والتعدي على أعراضهم وغير ذلك ولاسيما اذا كان ذلك الترك للضروريات تقصد به طاعة الله تعالى وتكتسب به ملكة مراقبته فيكون الوازع نفسياً في الفعل والترك، وكفى بذلك عزة للنفس وطاعة للرب، فهذه غاية الصيام من حيث هو هداية روحية وعبادة دينية

وأعظم فوائده من حيث هو رياضة بدنية ازالة مرض تمدد المعدة أو تخفيفه وهو مرض قلما يسلم منه أحد من المترفين وغيرهم من معتادي الامتلاء من الطعام والشراب، وافناء الفضلات والمواد الراسبة التي هي سبب أمراض كثيرة ولاسيما تصلب الشرايين الذي يوهن القوى ويعجل الهرم،

وأعظم فوائده الاجتماعية انه يساوي بين الملوك والسوقة وبين الاغنياء والفقراء، ويذكر الواجد الموسر بحاجة العادم المعسر، ويلزم أفراد الامة النظام الدقيق في مواعيد أكلهم اذ يتناوله الملايين منهم في وقت واحد

هذا تعريف الصيام وغايته الشريفة وفوائده العظيمة بجملة موجزة، وليس هو عبارة عن تغيير مواقيت الاكل بجعلها بالليل بدلا من النهار كما يزعم الجاهلون بحقيقته، الغافلون عن سره وروحه، وقد قال أحد حكماء الغرب في كتاب ألفه في تربية الارادة ان أقوى ذرائع تربية الارادة الصيام ولذلك شرع في جميع الاديان، وهذا موافق لما ذكرنا من نص القرآن، وقوة الارادة أعلى ما يتفاضل فيه الناس من صفات النفس وجميع الرجال العظام كانوا من أولي الارادات القوية والعزائم الثابتة، فمن كان قوي الارادة فى أصل الفطرة زادته تربيتها بالصيام وغيره كمالا فيها، وعليه على توجيهه

الى اقامة الحق والثبات على الفضائل، ومن خلق ضعيف الارادة، بضعف المزاج وسوء الوراثة،أصلحت هذه التربية من فساده حتي يفوق ويفضل من أفسد سوء تربيته ، ما كان صالحا من سلامة فطرته

ينال الصائم من فوائد الصيام بقدر ما يقصد مما يعقل منها ، وفاقا للقاعدة الشرعية المعقولة « الامور بمقاصدها » فلايقال اننا نرى كثيراً من الصائمين ليس لهم حظ يذكر من تلك الفوائد،وفى الحديث الصحيح « رب صائم ليس له من صيامه الا الجوع »[1] ومثل هـذا كمثل الدواء الذي اتفق الاطباء على فائدته فى معالجة بعض الامراض أو الوقاية منها بشروط يشترطونها اذا تناوله مالم تتحقق فيه تلك الشروط لجهله بها أو حرم فائدتها بسبب آخر أو استفاد منه ثم أفسد تلك الفائدة،كمن فسدت أمعاؤه فعالجها بدواء مطهر أزال الفساد ثم اتبعه بطعام غليظ قبل تمام الشفاء ، وهكذا شأن من يصوم عن الحلال من طعام وشراب مجاراة للناس لا احتسابا لوجه الله وطلب مرضاته بتهذيب نفسه ثم يأكل أموال الناس بالباطل أو ينال من أعراضهم أو يصيب غير ذلك من المحرمات ، وفى الحديث الصحيح فى الكتب الستة « الصيام جُنَّة فاذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فاذا شاتمه أحد أو قاتله فليقل اني صائم » (والجنة بضم الجيم الوقاية)

ولهذا المعنى كانت النية شرطا فى صحة الصيام وسائر العبادات وقال صلى الله عليه وسلم « انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ مانوى » رواه البخاري فى فاتحة صحيحه. وليست النية المفروضة فى العمل الا ملاحظة

(١) رواه ابن ماجه في سننه بسند صحيح

الغرض المراد منه والباعث عليه، لا قصد نفس العمل بتصوره عند الشروع فيه كما قال الكثيرون ، فان هذا أمر ضروري فى كل عمل اختياري اذ لا يمكن الشروع فيه مع غفلة النفس عنهُ وعدم توجهها اليه . ولكن نص على طلبه في الصيام بوجه خاص لانه أمر سلبي وهو ترك الشهوات المعلومة والترك هو الاصل فلا يتوقف على قصد الا اذا عارضت داعية الفعل داعية استمرار الترك ، وهذا انما يكون بعمل نفسي وهو ترجيح الترك وقصد الاستمرار عليه ولهذا احتيج في جعل الترك المخصوص — وهو الصيام — في الزمن المعين — وهو النهار — الى توجه خاص قبل الشروع ليكون عبادة مستغرقة لهذا الزمن وهو معنى حديث حفصة في السنن الاربع « من لم يُجمِع الصيام قبل الفجر فلا صيام له » أي من لم يعزم عليه في الليل لا يصح منه — فنية نفس الصيام هي العزم على كف النفس عن المفطرات مدة النهار وهي غير النية فيه التي تصاحب هذا العزم فهذه أخت الاحتساب وهو الاخلاص لله وابتغاء مرضاته وثوابه بالاتيان بالعبادة على الوجه الذى شرعها الله تعالى لاجله وهو فى الصيام ما تقدم بيانهُ فى فاتحة هذا الكلام ، وفى الحديث المتفق عليه فى الكتب الستة « من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » وفي رواية — ايمانا واحتسابا ونية. وقد يصوم الانسان رياء أو تطبباً أو تعودا لا تعبداً ، والتعبد بالصيام لا ينافي قصد منافعه البدنية والاجتماعية من حيث ان الله هدانا اليها لانه شرع لنا العبادة لمنفعتنا لا لإعناتنا وإتعابنا

فينبغي لكل مؤمن أن يلاحظ بصيامه باعث الايمان بالله والاذعان لدينه الذي شرعه لخير العباد لانه غني عنهم وعن صيامهم وسائر أعمالهم، وان

يلاحظ طلب مرضاته وثوابه بطاعته ، وشكره على جعل تربيته له وهدايته لمنافعه في الدنيا سبباً لنيل نعيمه وكرامته في الآخرة ، وأن يتذكر عند التألم من الجوع والعطش ان الله تعالى يريد أن يهذبه ويقوي عزيمته باحتمال الآلام التي تطاق اختيارا ، حتى يسهل عليه حمل مثلها وما هو أشد منها اذا اضطر اليه اضطرارا ، وحتى يكون انساناً كاملا لا تعبث به الشهوات الجسدية ولا الاهواء النفسية. وان عبد الشهوة التي لا يستطيع مخالفتها يجني على بدنه فينهك صحته ، ويجني على ماله فيتلفه ، ويجني على عرضه فيثلم شرفه ، ويجني على وطنه فيضيع حقوقه ، ويجني على دينه فيخسر دنياه وآخرته

وينبغي للصائم اذا كان ملكا أو أميراً أو غنياً كبيراً أن يلاحظ في صومه فوق ما ذكر ان الله تعالى يحب أن يهذب بهذا الصيام نفسه باشعاره المساواة بينه وبين الضعفاء والفقراء من العمال والصناع لكي يتقي الكبرياء والبخل والقسوة ، ويزداد علماً بقيمة ما أوتيه من الجاه والحرمة ، وما امتاز به من النعمة ، فيشكر الله تعالى على ذلك باحترام من دونه ، والافاضة على الفقراء والمساكين من فضل ماله ، فيحبه الله ويحببه الى خلقه ، ويرضي كل ذي حق بحقه ، وان لم يفعل هو وأمثاله هذا يحنق الفقراء عليهم ، وربما يمدون أيدي الاذى اليهم ، بل ذلك واقع ومنذر بأعظم انقلاب اجتماعي في الارض ، ولا يدرؤه الا الاهتداء بالاسلام ، ولا سيما إقامة ركني الزكاة والصيام ، كما ينبغي للصائم الفقير والخامل الذي لا يؤبه له أن يعلم أن الله قد ساوى في هذه العبادة وغيرها بينه وبين الملوك والامراء وكبار الاغنياء تكريماً له بدينه ، كما أوجب عليهم أن يشاركوه بفضل أموالهم ، فيكرم نفسه ولا يرضى لها بالذلة والمهانة .

ما أجمل الصائمين عند ما يتحلقون حول موائد الطعام المرفوعة عند اناس وصحافه الموضوعة على الارض عند آخرين وهم ينتظرون في كل قطر وكل بلد تلك الدقيقة أو الثانية التي يسمعون فيها صوت المدفع أو كلمة المؤذن، والاحشاء خاوية ، والشفاه ذابلة ، والافواه جافة ، ولا أحد يمد يده الى ما أمامه من كأس دهاق، وأنواع ذَواق (١) ، حتى اذا ماطرق المسامع ذلك الصوت المنتظر، امتدت الأيدي الى ما أعد لها مثل اللمح بالبصر، وانطلقت في أثرها الالسنة بالثناء والدعاء : اللهم لك صمت ، وعلى رزقك أفطرت ، ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الاجر ان شاء الله تعالى (٢)

وفي الحديث المتفق عليه «للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه » وليست الفرحة عند الفطر باعطاء النفس الحيوانية حقها وشهوتها المحللة لها فقط وان كان هذا حاصلا ولا غضاضة فيه، بل الاصل في هذه الفرحة ما يشعر به كل من أدّى عملا شريفاً عند اكماله له ولا سيما اذا كان شاقا وانتقل منه الى ما يلذ وترتاح له النفس، وقد جعل الله تعالى لصيام كل يوم لذة وجعل عاقبة صيام الشهر كله عيداً، كما جعل يوم اتمام أركان الحج عيدا، لأن في كل من الصيام والحج مشقة بدنية مقرونة بلذة روحية

ياحسرة على الخاسر المحروم من هذه النعمة الروحية والرياضة البدنية والرابطة الاسلامية ، تعس عبد الشهوة ، تعس ضعيف الارادة ، الذي

(١) الدهاق (ككتاب) الملأى والذواق (كسحاب) مايذاق من طعام وشراب وهما مصدران في الاصل والمراد بانواع الذواق ما يضعه الموسرون على الموائد في رمضان لأجل الافطار به من التمر والزبيب والمربى والجبن والزيتون ويعتبر فيه القلة (٢) كان النبي (ص) يقول هذا اذا أفطر رواه ابو داود في سننه

يفطر فى شهر رمضان ، ويقطع هذه الصلة بينه وبين ربه ، ويفصم عروة هذه الجامعة التي تربطه بأخوة الملايين من أهل دينه ، فاذا كان يفطر لانه يشق عليه ترك طعامه وشرابه ودخانه مثلا فما اشبهه بالعجماوات، من الأنعام والحشرات، وليتأمل ما أجمع عليه علماء التربية فى هذا العصر فى نظام الكشافة من الولدان ، وكيف يروضون أبدانهم باحتمال التعب وركوب أنواع المشاق، واذا كان يترك الصيام إرضاء للملاحدة والمرتدين، ويرضى أن يكون من مقلدتهم العميان المنكوسين، الذين قال فيهم الشاعر

عمي القلوب عموا عن كل فائدة لانهم كفروا بالله تقليدا

فهو شر مكانا وأضل سبيلا، وان غش نفسه أوغشه شياطينه بانتحال الالقاب الخادعة الخاطئة الكاذبة كالحرية والمدنية واستقلال الفكر وتحكيم العقل ، ولو حاسب نفسه بفكر مستقل وعقل سليم من الغرور وتلبيس الاهواء والشهوات لعلم انه مغرور يغش نفسه ويخدعها بهذه الاسماء التي يستر بها نقصها وعبادتها لشهواتها

الافطار فى رمضان بغير عذر معصية من الكبائر ، واستحلاله واستقباحه والانكار على شرعه للناس كفر بواح، والمجاهرة به معصية أخرى من أكبر الكبائر، لان ضرر الافطار وحده قاصر لايتعدى المفطر، وضرر المجاهر متعد، فان المجاهرة استهانة بالشرع ، وهدم للشعيرة الدينية التي يشترك المسلمون فيها ويمتازون من غيرهم ، حتى كأن المفطر ليس منهم، وقدوة سيئة لضعفاء الايمان أقوياء الشهوات البهيمية تجرؤهم على الفطر وعدم المبالاة بالدين ولا باحترام المسلمين، فالمجاهر بهذه الجريمة من الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويسعون فى الارض فسادا بازالة

المقوّمات المعنوية والمشخصات الاجتماعية التي تمتاز بها أمتهم وتستقل دون غيرها، وبالفسوق من الآداب والفضائل الشخصية التي ترتقي بها نفوس افرادها ، وتحفظ حقوق جماعاتها

أي أمة تعيش عزيزة كريمة بغير آداب ولا فضائل؟ وكيف يمكن ان تبنى الفضائل على غير قواعد الدين ؟ واذا كان الدين أقوى روابط الاجتماع بين أكثر البشر ولا سيما الشعوب الاسلامية منها وكانت الامم العزيزة القوية تنفق الملايين من الجنيهات على دعاة دينها لاجل استمالة أهل الاديان الاخرى اليه — واذا كان بعض كبار ساستها قد صرح بان أول خطوات الاستعمار مدارس المبشرين التي تبطل ثقة نابتة الامة الجديدة بدينها فتحدث الشقاق المعنوي بينها، فتضعف وحدتها بانقسامها وتفرقها ـ واذا كان كل خبير واقف على سير الاجتماع فينا يعلم علم اليقين أن كل هذه المفاسد الدينية والادبية لم تتسرب الى أفكار المتفرنجين منا الا من الطامعين في تقطيع روابطنا الملية ، واضعاف مقوماتنا الاجتماعية — اذا كان ماذكرنا كما ذكرنا لا مرية فيه فهل يبقى عند العالم به ريب بأن المجاهرين بهدم ركن من أقوى أركان دينهم والمحتقرين لشعيرة من أعظم شعائره هم من أكبر الجناة على أمتهم والمفسدين المحققين لطمع الطامعين فيها؟ فكيف اذا كانوا مع ذلك هادمين لسائر الاركان ، ويتركون الصلاة والزكاة كما يتركون الصيام ؟

تنبهوا أيها الغافلون، وأفيقوا أيها النائمون، ولا تغشوا أنفسكم بانكم تستغنون عن الرابطة الملية ، بالرابطة الوطنية، وتستبدلون الآداب الفلسفية ، بالآداب الدينية ، على ان الدين لا يمنعكم من الاتحاد الوطني على

المصالح والمنافع الوطنية، ولا من اقتباس الحكمة والعلوم العقلية ، ولا شيء من هذه المصالح و ملوم بمانع من عبادة الله تعالى واقامه شعائر دينه ، وترك ماحرمه من الفواحش والمنكرات . كالسكر والزنا والقمار ، وهي الموبقات التي قلما يسلم من شرورها أحد من هؤلاء المتفرنجين المدعين للفلسفة والوطنية ، وهي الوباء القاتل للوطن، والمذهب للدين والشرف،

أيها الغافل عن نفسه وعن أهله وقومه حاسب نفسك حساب القاضي الذكي العادل المتهم الجنان المخادع تظهر لك جناياتها عليك وعلى أهلك وقومك بترك أركان الدين وفرائضه،ثم اجتهد في جعلها صالحة مصلحة، وقدوة حسنة في الدار وفي مكان العمل وكل مكان. فان غلبتك شهواتك فاجتهد في كتمانها قبل ان تظفر بها بان لا تظهر الفطر في رمضان لأحد ، ولا تخدعنك وسوسة شياطين الانس أو الجن بتسمية شدة الوقاحة قوة ارادة ، فان كنت مرتدا عن هذا الدين فقوة الارادة الحقيقية ان تصرح بهذه الردة وتلتزم ما يترتب عليها من أحكام الزواج والارث وغير ذلك.

ان الامم الحية تعظم كل ما ينسب اليها حتى انها تبذل الارواح في الحرب تكريما لعلمها الممثل لها وماهو الا قطعة من نسيج لا قيمة لها تذكر فما بالك أيها الغافل تحتقر أشرف ماتنتمي اليه وهو الدين بهتك حرمة رمضان في المطاعم،أو التدخين في الشوارع، لاشك انه سبب ذلك الغفلة والذهول، فتى تنبهت ، تبت وأنبت ، والسلام على من اتبع الهدى، ورجح الحق على الهوى .

تاريخ فنون الحديث

٥

كتب الجرح والتعديل

الكتب المؤلفة في الجرح والتعديل ذات مسالك مختلفة فمنها خاص بالثقات أو الضعفاء أو المدلسين، ومنها جامع لكل اولئك. ثم منها ما لا يتقيد برجال كتاب معين أو كتب مخصوصة ومنها ما يتقيد بذلك ونحن ذاكرون من كل نوع كتبه المشهورة بتوفيق الله وارشاده

١ الكتب الجامعة بين الثقات والضعفاء — من الكتب المشتملة على الثقات والضعفاء جميعاً طبقات محمد بن سعد الزهري البصري «١» وهو من أعظم ما صنف يقع في خمسة عشر مجلداً جمع فيه الصحابة والتابعين فمن بعدهم وقد اختصره السيوطي في كتابه انجاز الوعد المنتقى من طبقات ابن سعد، وكذلك طبقات خليفة ابن خياط «٢» ومسلم بن الحجاج «٣» وتاريخ ابن أبي خيثمة «٤» وهو كثير الفوائد، وتواريخ البخاري «٥» وهي ثلاثة كبير وهو على حروف المعجم وابتدأه بمن اسمه محمد وأوسط وهو على السنين وصغير، ولمسلمة بن قاسم ذيل على الكبير وهو في مجلد ولابن أبي حاتم «٦» جزء كبير انتقد فيه على البخاري وله الجرح والتعديل مشى فيه خلف البخاري وللحسين بن ادريس الانصاري الهروي «٧» - ويعرف بابن خرم - تاريخ على نحو التاريخ الكبير للبخاري، ولعلي بن المديني «٨» تاريخ في عشرة أجزاء حديثية ولابن حبان «٩» كتاب في أوهام أصحاب التواريخ في عشرة أجزاء أيضاً

ولابي محمد بن عبد الله بن علي بن الجارود كتاب في الجرح والتعديل، ولمسلم رواة الاعتبار، وللنسائي التمييز، ولابي يعلى الخليلي «١٠» الارشاد، وللعماد بن كثير (التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل) جمع فيه بين تهذيب المزي وميزان الذهبي مع زيادات وتحرير في العبارات وهو أنفع شيء للمحدث والفقيه

١ توفي سنة ٢٣٠ ٢ ٢٤٠ ٣ ٢٦١ ٤ ٢٧٩. ٥ ٢٥١ ٦ ٣٢٧ ٧ ٣٠١ ٨ ٢٣٤ ٩ ٣٥٤ ١٠ ٤٤٦

التالي لأثره، ومنها تاريخ الذهبي والتكملة في أسماء الثقات والضعفاء لاسماعيل ابن عمر المعروف بابن كثير الدمشقي(١) وطبقات المحدثين لعمر بن علي بن الملقن(٢) ذكر فيها المحدثين الى زمنه والكمال في معرفة الرجال له

٢ كتب الثقات — منها كتاب الثقات للعجلي (٣) وكتاب الثقات لخليل ابن شاهين والثقات لابي حاتم بن حبان البستي وكتاب الثقات الذين لم تذكر أسماؤهم في الكتب الستة لزين الدين قاسم بن قطلوبغا(٤) وهو كبير في أربع مجلدات

ومن هذا النوع الكتب المبينة لطبقات الحفاظ وقد ألف فيها جمع فنهم الذهبي وابن الدباغ (٥) وابن المفضل وابن حجر العسقلاني والسيوطي — ذيل على تآليف الذهبي — وتقي الدين بن فهد وذيل مؤلفه محمد بن محمد الهاشمي(٦)

٣ كتب الضعفاء — منها كتاب الضعفاء للبخاري والضعفاء والمتروكين للنسائي ولابي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي (٧) وكتابه كبير وقد اختصره الذهبي ثم ذيله كما ذيله علاء الدين مغلطاي (٨) والضعفاء لمحمد بن عمرو العقيلي (٩) وكتابه مفيد، وللامام حسن بن محمد الصنعاني ولمحمد بن حبان البستي وكتابه كبير، ولابي أحمد بن عدي كتاب الكامل وهو أكمل الكتب في ذلك وأجلها وعليه اعتماد الائمة وله ذيل يقال له الحافل لابي العباس أحمد بن محمد الاشبيلي المعروف بابن الرومية (١٠) والضعفاء للدارقطني وللحاكم ولعلاء الدين المارديني(١١) وميزان الاعتدال للحافظ الذهبي وهو أجمع ما جمع ـ طبع في الهند ثم بمصر ـ وقد ذيل عليه الحافظ زين الدين العراقي في مجلدين وقد التقط منه الحافظ ابن حجر من ليس في تهذيب الكمال وضم اليه ما فاته في الرواة وتراجم مستقلة في كتابه المسمى لسان الميزان وله كتابان آخران وهما تقويم اللسان وتحرير الميزان ويوجد عدا ذلك كتب كثيرة

٤ كتب المدلسين — أول من أفرد المدلسين (١٢) بالتصنيف الامام حسين ابن علي الكرابيسي(١٣) صاحب الشافعي ثم صنف فيه النسائي ثم الدارقطني ونظم الذهبي في ذلك ارجوزة وتبعه تلميذه احمد بن ابراهيم المقدسي فزاد عليه من

(١) توفي سنة ٧٧٤ (٢) ٨٠٤ (٣) ٢٦١ (٤) ٨٧٩ (٥) ٥٤٦ (٦) ٨٩٠ (٧) ٥٩٧ (٨) ٧٦٢ (٩) ٣٢٢ (١٠) ٦٣٧ (١١) ٧٥٠

(١٢) المدلس من لا يذكر اسم شيخه بل يروي عمن فوقه بلفظ يوهم السماع منه ولا يكون كذبا قطعيا كقوله عن فلان وقال فلان ـ والحديث المدلس (بفتح اللام) من أقسام المنقطع (١٣) ٢٤٥

جامع التحصيل للعلائي شيئاً كثيراً مما فاته ثم ذيل الحافظ زين الدين العراقي (١) في هوامش كتاب العلائي أسماء وقفت له زائدة ثم ضمها ولده ولي الدين الى من ذكره العلائي وجعله تصنيفاً مستقلا وزاد فيه من تتبعه شيئاً يسيراً وصنف ابراهيم ابن محمد الحلبي (٢) كتابه التبيين في أسماء المدلسين زاد فيه عليهم قليلا وجميع ما في كتاب العلائي ثمان وستون نفساً زاد عليهم ابن العراقي ثلاث عشرة نفساً وزاد عليه الحلبي اثنتين وثلاثين نفساً وابن حجر العسقلاني تسعاً وثلاثين نفساً لجملة ما فيه اثنتان وخمسون نفساً ومائة وللسيوطي رسالة في أسماء المدلسين

٥ المصنفات في رجال كتب مخصوصة — منها رجال البخاري لاحمد بن محمد الكلاباذي (٣) ورجاله أيضاً لمحمد بن داود الكردي (٤) ورجال مسلم لاحمد ابن علي المعروف بابن منجويه (٥) ورجاله أيضاً لاحمد بن علي الاصبهاني (٦) وممن جمع بين رجالهما محمد بن طاهر المقدسي (٧) جمع بين كتابي ابن منجويه والكلاباذي وأحسن في ترتيبه على الحروف واستدرك عليهما وكذلك جمع بينهما هبة الله المعروف باللالكائي (٨) وممن افرد رجال السنن لابي داود حسين بن محمد الجياني (٩) وجمع رجال الموطأ السيوطي ورجال المشكاة لصاحبها محمد بن عبد الله الخطيب ورجال الاربعة — موطأ مالك ومسند الشافعي ومسند أحمد ومسند أبي حنيفة — لابن حجر العسقلاني ورجال السنن الاربع — سنن الترمذي والنسائي وأبي داود وابن ماجه — لاحمد بن أحمد الكردي (١٠) وممن جمع رجال الكتب الستة أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد بن سرور المقدسي (١١) في كتابه الكمال في معرفة الرجال وتهذيبه لجمال الدين يوسف بن الزكي المزي (١٢) وهو كتاب كبير يقع في ثلاثة عشر مجلدا لم يؤلف مثله واكمال التهذيب لعمر بن علي بن الملقن (١٣) وزوائد الرجال على تهذيب الكمال للسيوطي . وللتهذيب مختصرات كثيرة منها الكاشف للحافظ الذهبي قال فيه : هذا مختصر في رجال الكتب الستة الصحيحين والسنن الاربع مقتضب من تهذيب الكمال للمزي اقتصر فيه على ذكر من له رواية في الكتب الستة دون من عداهم مما في كتاب المزي ومنها تهذيب التهذيب لابن حجر وهو أكمل من كاشف الذهبي وقد

(١) توفي سنة ٨٠٦ (٢) ٨٤١ (٣) ٣٩٨ (٤) ٩٢٥ (٥) ٤٢٨ (٦) ٤٩٨ (٧) ٥٠٧ (٨) ٤١٨ (٩) ٤٩٨ (١٠) ٧٦٣ (١١) ٦٠٠ (١٢) ٧٤٢ (١٣) ٨٠٤

أضاف اليه ابن حجر بعض التراجم التي عثر عليها كما اختصره في كتابه تقريب التهذيب. وقد جمع الحافظ أبو المحاسن الدمشقي (١) في كتابه التذكرة رجال العشرة

«ج» وفيات المحدثين

كثير من الكتب الجامعة لرجال الحديث يتعرض في الاكثر لذكر الوفيات وقد أفرد الوفيات بالتأليف جمع من العلماء فقد ابتدأ ابو سليمان محمد بن عبد الله الحافظ بجمع وفيات النقلة من وقت الهجرة فوصل الى سنة ٣٣٨ ثم ذيل على كتابه ابو محمد بن عبد العزيز الكتاني الحافظ (٢) ثم ذيل على الكتاني هبة الله بن احمد الاكفاني ذيلا صغيراً يشتمل على نحو عشرين سنة وصل فيه الى سنة ٤٨٥ ثم ذيل على الاكفاني علي بن مفضل المقدسي (٣) الى سنة ٥٨١ ثم ذيل على ابن المفضل عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (٤) ذيلا كبيراً في ثلاث مجلدات سماه التكملة لوفيات النقلة ثم ذيل على المنذري تلميذه عز الدين احمد بن محمد الى سنة ٦٧٤ وذيل على عز الدين احمد بن ايبك الدمياطي الى سنة ٧٤٩ وذيل على ابن ايبك الحافظ زين الدين عبد الرحيم العراقي (٥) والكل مرتب على حسب وفياتهم في السنين والشهور لا على ترتيب حروف الهجاء

ومن الكتب المفردة بوفيات النقلة تاريخ البرزالي القاسم بن محمد الدمشقي (٦) وقد ذيل عليه تقي الدين بن رافع من سنة ٧٣٧ الى سنة ٧٧٤ وذيل ذيل تقي الدين بن حجر. ومنها وفيات الشيوخ لمبارك بن احمد الانصاري. ولابراهيم بن اسماعيل المعروف بالحبال (٧) كتاب الوفيات

«د» معرفة الاسماء والكنى والالقاب

من رواة الحديث من يكون مشهوراً باسمه دون كنيته أو لقبه أو مشهوراً بكنيته أو لقبه دون اسمه وقد ألف العلماء في بيان أسماء ذوي الكنى وبيان كنى المشهورين بالاسماء وكذلك ألفوا في بيان ألقاب ذوي الاسماء كما ألفوا في نحو ذلك حتى لا يشتبه راو بآخر ولا يظن لقب شخص أو كنيته اسما لثان فيعد الثقة ضعيفاً أو الصادق كاذبا أو يعكس الامر

---

(١) توفي سنة ٧٦٥ (٢) ٤٦٦ (٣) ٦١١ (٤) ٦٥٦ (٥) ٨٠٦ (٦) ٧٣٨ (٧) ٤٨٢

فمن ألف في النوع الاول علي بن المديني والنسائي والحاكم وابن عبد البر وكثيرون غيرهم وللحافظ الذهبي كتاب المقتنى في سرد الكنى وهو من أجل الكتب المؤلفة في هذا النوع

وممن كتب في بيان كنى المعروفين بالاسماء ابو حاتم بن حبان البستي

وممن صنف في الالقاب ابو بكر الشيرازي (١) وابو الفضل الفلكي في كتابه منتهى الكمال وابن الجوزي (٢) وابن حجر العسقلاني

﴿ المؤتلف والمختلف والمتفق والمفترق والمشتبه من الاسماء والانساب ﴾

من الاسماء والانساب ما يأتلف في الخط صورته ويختلف في اللفظ صيغته كسلام بتخفيف اللام وسلام بتشديدها ويسمى المؤتلف والمختلف ومنها ما يتفق خطه ولفظه ولكن يفترق شخصه كالخليل بن احمد اسم لعدة أشخاص ويسمى المتفق والمفترق ومنها ما تتفق فيه الاسماء خطا ونطقا وتختلف الآباء أوالنسب نطقاً مع ائتلافها خطاً أو بالعكس كمحمد بن عقيل بكسر القاف ومحمد بن عقيل بفتحها وشريح بن النعمان وسريج بن النعمان الاول بالشين المعجمة والحاء المهملة والثاني بالسين المهملة والجيم ويسمى هذا النوع بالمشتبه

ومعرفة هذه الانواع مهمة . قال علي بن المديني أشد التصحيف ما يقع في الاسماء ووجهه بعضهم بانه شيء لايدخله القياس ولا قبله شيء يدل عليه ولابعده، ولانه يخشى ان يظن الشخصان شخصاً واحداً اذا اتفقت الاسماء وفي ذلك مافيه من الخلط بين الرواة

ولقد ألف المحدثون في كل هذه الانواع فصنف في النوع الاول ابو احمد العسكري لكنه أضافه الى كتاب التصحيف له ثم أفرده بالتأليف عبد الغني بن سعيد (٣) فجمع فيه كتابين كتابا في مشتبه الاسماء وكتابا في مشتبه النسبة وجمع شيخه الحافظ الدارقطني (٤) كتابا حافلا ثم جمع احمد بن علي الخطيب (٥) ذيلا سماه المؤتلف تكملة المختلف ثم جمع الجميع ابو نصر علي بن هبة الله بن ما كولا (٦) وجمله كتابا حافلا سماه الاكمال واستدرك عليهم ما فاتهم في كتاب آخر جمع فيه أوهامهم وبينها وكتابه من أجمع ماجمع في ذلك وهو عمدة كل محدث بعده وقد استدرك عليه محمد بن عبد الغني المعروف

(١) توفي سنة ٤٠٧ (٢) ٥٩٧ (٣) ٤٠٩ (٤) ٣٨٥ (٥) ٤٦٣ (٦) ٤٨٧

بابن نقطة الحنبلي (١) مافاته أو تجدد بعده في مجلد ضخم ثم ذيل عليه منصور ابن سليم (٢) في مجلد لطيف وابو محمد بن علي الدمشقي (٣) وذيل على ذيليهما علاء الدين بن مغلطاي (٤) لكن أكثره في أسماء الشعراء وانساب العرب وقد جمع الذهبي في ذلك كتاباً مختصراً جداً اعتمد فيه على الضبط بالقلم فكثر فيه الغلط والتصحيف المباين لموضوع الكتاب وقد وضحه الحافظ ابن حجر في كتابه تبصير المنتبه بتحرير المشتبه وهو مجلد واحد ضبطه بالحروف وزاد عليه شيئاً كثيراً مما أهمله الذهبي أو لم يقف عليه وقد ألف فيه أيضاً يحيى بن علي المصري المؤرخ (٥) ومحمد بن أحمد الابيوردي (٦) وعبد الرزاق المعروف بابن الفوطي (٧) في كتابه تلقيح الافهام في المختلف والمؤتلف وعلي بن عثمان المارديني (٨)

وممن ألف في النوع الثاني أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب في كتابه المتفق والمفترق وكذلك ألف الخطيب في النوع الثالث في كتابه تلخيص المتشابه ثم ذيل عليه هو أيضاً بما فاته وكتابه كثير الفائدة

علم ناسخ الحديث ومنسوخه

اذا سلم الحديث المقبول من المعارضة سمي محكماً وان عورض بمثله وأمكن الجمع بين المتعارضين بلا تعسف فذلك مختلف الحديث وان لم يمكن الجمع وثبت تأخر أحدهما فالمتأخر يقال له الناسخ والمتقدم يطلق عليه المنسوخ

وقد ألف في ناسخ الحديث ومنسوخه جمع كثير منهم أحمد بن اسحاق الديناري (٩) ومحمد بن بحر الاصبهاني (١٠) وأحمد بن محمد النحاس (١١) وأبو محمد قاسم بن أصبغ (١٢) ومحمد بن عثمان المعروف بالجعد الشيباني وهبة الله بن سلامة (١٣) ومحمد بن موسى الحازمي (١٤) في كتابه الاعتبار في ناسخ الحديث ومنسوخه وأبو حفص عمر بن شاهين (١٥) وقد اختصر كتابه ابراهيم بن علي المعروف بابن عبد الحق (١٦) في مجلد وللامام عبد الكريم بن هوازن القشيري كتاب في ذلك أيضاً

---

(١) توفي سنة ٦٢٩ (٢) ٦٧٣ (٣) ٦٨٠ (٤) ٧٦٣ (٥) ٤١٦ (٦) ٥٠٧ (٧) ٧٢٣ (٨) ٧٥٠ (٩) ٣١٨ (١٠) ٣٢٢ (١١) ٣٣٨ (١٢) ٣٤٠ (١٣) ٤١٠ (١٤) ٥٨٤ (١٥) ٣٨٥ (١٦) ٧٤٤

علم تلفيق الحديث

هو علم يبحث فيه عن التوفيق بين الاحاديث المتناقضة ظاهراً اما بتخصيص العام تارة أو بتقييد المطلق أخرى أو بالحمل على تعدد الحادثة الى غير ذلك من وجوه التأويل ويطلق عليه مختلف الحديث

وممن ألف فيه الامام محمد بن ادريس الشافعي (١) ولكنه لم يقصد استيعابه وعبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة «٢» وأبو يحيى زكريا بن يحيى الساجي «٣» والطحاوي «٤» ولابي الفرج بن الجوزي «٥» التحقيق في أحاديث الخلاف وقد اختصره ابراهيم بن علي بن عبد الحق.

علل الحديث

معرفة علل الحديث من أجل علوم الحديث وادقها واشرفها ولا يقف عليها الا من رزقه الله فهما ثاقباً وحفظاً واسعاً ومعرفة تامة بمراتب الرواة وملكة قوية بالاسانيد والمتون ولهذا لم يتكلم فيه الا القليل من أهل هذا الشأن، وعلل الحديث عبارة عن أسباب خفية غامضة قادحة فيه من وصل منقطع أو رفع موقوف أو ادخال حديث في حديث أو نحو ذلك وكل هذا مما يقدح في صحة الحديث

وممن كتب في هذا النوع ابن المديني «٦» وابن أبي حاتم «٧» وكتابه قيم والخلال «٨» والامام مسلم «٩» وعلي بن عمر الدارقطني «١٠» ومحمد ابن عبد الله الحاكم «١١» وأبو علي حسن بن محمد الزجاجي وألف فيه أيضاً ابن الجوزي

علم مصطلح الحديث

أول من ألف في علوم الحديث أو مصطلحاته في غالب الظن القاضي ابو محمد الرامهرمزي (١٢) في كتابه المحدث الفاصل بين الراوي والسامع وقد وجدت قبله مصنفات لكن في بعض فنون الحديث فقط وكتابه أجمع ماجمع في زمانه

«١» توفي سنة ٢٠٤ «٢» ٢٦٣ «٣» ٣٠٧ «٤» ٣٢١ «٥» ٥٩٧ «٦» ٢٣٤ «٧» ٣٢٧ «٨» ٣١١ «٩» ٢٦١ «١٠» ٣٧٥ «١١» ٤٠٥ «١٢» ٣٦٠

وان لم يستوعب،ثم توسع العلماء في هذا الفن وأول من تصدى لذلك الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري وقد اشتمل كتابه على خمسين نوعا لكنه لم يرتب ولم يهذب وتلاه ابو نعيم الاصبهاني فعمل على كتابه مستخرجا وأبقى أشياء للمتعقب ثم جاء احمد بن علي المعروف بالخطيب (١) فصنف في قوانين الرواية كتابا سماه الكفاية وفي آدابها كتابا سماه الجامع لآداب الشيخ والسامع وقل فن من فنون الحديث الا وقد صنف فيه كتابا فكان كما قال ابن نقطة كل من أنصف علم ان المحدثين بعد الخطيب عيال على كتبه ثم جاء بعد الخطيب من أخذ من هذا العلم بنصيب فجمع القاضي عياض (٢) كتابا لطيفاً سماه الالماع وابو حفص الميانجي جزء سماه ما لا يسع المحدث جهله ثم ألف الحافظ ابو عمرو عثمان بن عبد الرحمن المعروف بابن الصلاح (٣) كتابه الشهير المطبوع ذكر فيه خمسة وستين نوعا وقد اعتنى به العلماء عناية عظيمة بين معارض له أو منتصر أو ناظم له أو مختصر أو شارح له أو مستدرك عليه ومن المختصرين له محيي الدين يحيى بن شرف النووي (٤) في كتابه الارشاد ثم اختصر مختصره في كتابه التقريب والتيسير وقد شرح السيوطي التقريب بكتابه تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي وهو من أجل الشروح. وقد عمل الحافظ زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي (٥) ألفية لخص فيها علوم ابن الصلاح وزاد عليها أولها

يقول راجي ربه المقتدر عبد الرحيم بن الحسين الاثري

وقد أتمها سنة ٧٦٨ وعمل عليها شرحا سماه فتح المغيث أتمه سنة ٧٧١ وقد عمل برهان الدين ابراهيم بن عمر البقاعي (٦) حاشية عليه سماها النكت الوفية بما في شرح الالفية أورد فيها ما استفاده من شيخه ابن حجر وقد بلغ الى نصفه وشرح الالفية كثيرون ولعل أحسن الشارحين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (٧) وقد نظم السيوطي ألفية جمعت كثيراً من الفوائد أولها

لله حمدي واليه أستند وما ينوب فعليه أعتمد
ثم على نبيه محمد خير صلاة وسلام سرمد

---

(١) توفي سنة ٤٦٣ (٢) ٥٤٤ (٣) ٦٤٣ (٤) ٦٧٦ (٥) ٨٠٥ (٦) ٨٨٥ (٧) ٩٠٢

وهذه ألفية تحكي الدرر منظومة ضمنتها علم الأثر
فائقة ألفية العراقي في الجمع والايجاز واتساق

ومن المتون الجامعة الممتعة نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر لشهاب الدين احمد بن علي بن حجر العسقلاني وقد شرحها بكتابه نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر وهو شرح وجيز جليل، وقد شرحها كثيرون كما نظمها أحمد بن صدقة «١» ومحمد بن اسحاق المقدسي «٢» وقد ألف كثيرون في علوم الحديث كمحمد بن المنفلوطي «٣» وابن الملقن «٤» وابن الحريري «٥» ولكن ماذكرنا مستقى كل من كتب وفيه الغنية عن غيره

ولا يفوتنا قبل ختم هذا الفصل كتاب توجيه النظر في أصول الأثر لمعاصرنا الشيخ طاهر الجزائري فانه كتاب جمع تحقيقات لطيفة ومسائل دقيقة ووفى المصطلح من الابانة حقه وان كان جمعا مما سبقه وقد كان من أهم الكتب التي عولنا على الرجوع اليها في كتابة هذه الرسالة

﴿ تخريج أحاديث مؤلفات مخصوصة ﴾

لله در علماء الحديث سموا في توفير الراحة لطلاب العلم فسهلوا لهم عسيره وكشفوا لهم عن غوامضه وكفوهم العناء ومؤونة البحث والتنقيب علموا انك ستتناول كتابا من كتب التفسير الشهيرة أو من كتب الفقه السائرة أو ما نحا نحو ذلك وان سيمر بك أحاديث مختلفة لم يذكر لها سند ولم تنسب لاصل من أصول السنة وأنك ستقف عند ذلك تتطلب درجة الحديث لتعرف قيمة الاستدلال به وايصاله الى الغرض الذي سبق له وانهم ان وكلوك الى نفسك كلفوك شاقا وأوردوك صعبا وربما لم يكن لك في فنون الحديث باع فأمسكوا بالكتاب وجمعوا ما فيه من الاحاديث وعزوها الى رواتها وبينوا درجاتها فما عليك سوى نظرة تحظى فيها بالبغية واني ذاكر لك من ذلك ما وصل الى علمي

١ تخريج أحاديث الكشاف – في التفسير – لجمال الدين محمد عبد الله الحنفي (٦) في مجلد

«١» توفي سنة ٩٠٥ (٢) حوالي ٩٠٠ (٣) ٧٠٢ (٤) ٨٠٤ (٥) ٨٣٣
(٦) ٧٦٢

٢ الفتح السماوي بتخريج أحاديث البيضاوي — في التفسير — للشيخ عبد الرءوف المناوي «١»

٣ الطرق والوسائل الى معرفة خلاصة الدلائل شرح مختصر القدوري — في فقه الحنفية — لاحمد بن عثمان التركاني «٢»

٤ تخريج أحاديث الهداية ـ كتاب شهير في فقه الحنفية ـ لمحمد بن عبد الله «٣» وكذلك لعبد الله بن يوسف الزيلعي «٤» وقد طبع بالهند

٥ تخريج أحاديث الشرح الكبير للوجيز ـ في فقه الشافعية ـ لسراج الدين عمر بن علي الانصاري «٥» ويقع في سبع مجلدات وقد لخصه ابن حجر العسقلاني في ثلث حجمه مع زيادات عليه

«٦» تخريج أحاديث المنهاج ـ في فقه الشافعية ـ لسراج الدين عمر بن علي المعروف بابن الملقن

٧ كتاب المغني عن حمل الاسفار في تخريج مافي الاحياء من الاخبار ـ أي كتاب احياء علوم الدين ـ لعبد الرحيم بن الحسين العراقي «٦» وقد طبعه الحلبي في مصر بهامش الاحياء فأحسن صنعاً

٨ ادراك الحقيقة في تخريج أحاديث الطريقة ـ في الموعظة ـ لعلي بن حسن ابن صدقة المصري ثم اليماني فرغ من تأليفه سنة ١٠٥٠

الخاتمة

سنعقد في هذه الخاتمة فصولا يجدر بعشاق الحديث معرفتها ويهمهم الوقوف عليها فنقول وبالله توفيقنا وعليه اعتمادنا

متى يحتج بالحديث ؟

قد رأيت أكرمك الله أن آتي بكلمة موجزة تكون لديك بمثابة ميزان تعرف به ان كان الحديث مقبولا فيسوغ لك الاحتجاج به أو مردوداً فترفض الاعتقاد والعمل به فأقول ينقسم الحديث الى مقبول ومردود، فالمقبول مارواه عدل ضابط لما يرويه بسند متصل مع خلوه من الشذوذ والاعلال. والشذوذ مخالفة الثقة من هو أرجح منه والاعلال وجود أمر خفي يقدح في صحة

«١» توفي بعد ٩٠٠ «٢» ٧٤٤ «٣» ٧٧٥ «٤» ٧٦٢ «٥» ٧٠٤ «٦» ٨٠٦ .

الحديث كوصل منقطع أو رفع موقوف، ثم المقبول ان سلم من المعارضة يسمى محكماً وان عورض بمثله فان أمكن الجمع بغير تعسف فهو مختلف الحديث وان لم يمكن الجمع وثبت تأخر أحدهما عرف المتأخر بالناسخ والآخر بالمنسوخ وان لم يثبت فان أمكن الترجيح بين الحديثين صير اليه والا توقفنا عن العمل بهما والحديث المردود ماوجد فيه أحد أمرين الاول عدم الاتصال في السند والثاني وجود أمر في الراوي يوجب طعناً فيه . ودرجات الطعن في الراوي عشرة الكذب والتهمة به وفحش الغلط والغفلة عن الاتقان والوهم — بأن يروى على سبيل التوهم — ومخالفة الثقات والفسق وجهالة الراوي والبدعة وسوء الحفظ. وللعلماء تفصيل في هذه الدرجات فالمحققون يقبلون رواية المبتدع في غير ما يؤيد بدعته وقال بعضهم ما لم يكن داعية ، ولهم في العمل بالحديث الضعيف الذي لم يشتد ضعفه أقوال وشروط يجيزونه بها أو يقدمونه على القياس كما يعلم من كتب أصول الحديث وأصول الفقه

كيف نأخذ السنة الآن؟

كانت السنة في القرون الاولى تؤخذ من أفواه الشيوخ وقلما كان الرواة يثقون بالمخطوط وكان اتصال سند الراوي بالرسول (ص) مع عدالة المروي عنهم وكمال ضبطهم أمراً لامحيص عنه حتى يحوز الحديث درجة الصحة فلما ان صنفت كتب الصحاح المشهورة وذاعت في الاقطار المختلفة قامت شهرتها مقام تواترها فلم تبق حاجة لاتصال السند منا الى مصنفيها في كل حديث دون فيها وأصبح الاعتماد على الكتاب فوق الاعتماد على الشيوخ . قال أبو عمرو بن الصلاح(١) اعلم أن الرواية بالاسانيد المتصلة ليس المقصود منها في عصرنا وكثير من الاعصار قبله اثبات ماروى اذ لايخلو اسناد منها عن شيخ لايدري مايرويه ولا يضبط مافي كتابه ضبطاً يصلح لان يعتمد عليه وانما المقصود بها بقاء سلسلة الاسناد التي خصت بها هذه الامة ، أقول وهذا هو الغرض بعينه في عصرنا والعصور السالفة قبله في محافظة الشيوخ على سلسلة السند الى مصنفي الكتب الشهيرة كالبخاري ومسلم

انما الواجب على أمثالنا أن يتثبتوا من أمور ثلاثة . كون الكتاب الذي يروون الحديث عنه صحت نسبته الى مؤلفه أو تواترت والبحث في سند

(١) توفي سنة ٦٤٣

الحديث الذي روي به في ذلك الكتاب وخلوه من الغلط والتحريف والدخيل وسبيل معرفة الثالث ان تقابل نسخة من الكتاب الذي يراد الاخذ عنه بنسخ أخرى منه مختلفة في الرواية - ان كان ثم اختلاف فيها - أو بنسخ متعددة منه - ان لم يكن اختلاف في الرواية - فاذ ذاك يطمئن القلب الى تلك النسخة وتتبين له درجة صحتها وخلوها من العيوب فيقوم ذلك مقام تعدد الرواة

وعلى ذلك ينبغي لمن رام طبع كتاب من كتب السنة أن يقابل الاصل الذي لديه بأصول متعددة حتى تسكن لصحتها نفوس القارئين ويكفيهم بذلك مؤونة المقابلة ان كان من العدول الثقات

وان مما يؤسف له ان كثيراً من كتب الحديث التي طبعت لم تعط من العناية في التصحيح ماينبغي لفن جليل كالحديث ولم تضبط بالشكل الذي هو أيسر الامور واقل ما يراعى في سنة الرسول فعسى أن يتنبه لذلك الطابعون بعد ويولوا هذا الفن من عنايتهم مايلائم كبير مقامه وعظيم شأنه

الاستنباط من السنة وأثره فيها

لم تكد المائة الثالثة تؤذن شمسها بالغروب حتى أخذ مصباح الاجتهاد ينكمش ضوءه ويتضاءل فيه بل كاد ينمحي أثره . فبعد ان كانت عقول النابهين مطلقة السراح في رياض القرآن والسنة تستنبط منها الاحكام وتفصل بها في الحوادث وتحكمها في الامور الجلى أصبح الناس منصرفين عنها لاهين بأقاويل الفقهاء ينتصر كل لامامه ويسعى في تاييد مذهبه وان خالف صريح السنة فانقسم الناس في الفروع شيعاً واحزابا وقامت معركة الجدل والمناظرة بينهم واستمرت عدة قرون وكانت عاقبتها ان اعتصم كل بما اعتقده واطمأنت نفسه اليه، وعول في العمل عليه، ورفض أن ينظر في أقوال خصمه الا ليدحضها أو يضع من شأنها فتناسى الناس بذلك المحيط الشاسع والقاموس الواسع الذي من مائه نبعت عيون فقههم ومن هباته كونت مذاهبهم اعني بذلك الكتاب والسنة

لقد كان الاستنباط من السنة أكبر عامل على احيائها وخير مشجع على خوض غمارها فانكب الناس عليها دارسين وآخذين وناقدين ومؤلفين ولم يتركوا

ناحية منها الا تبينوها ولا شبهة الا دحضوها ولا فرية الا قتلوها

فلما ركنوا الى التقليد وتركوا الاجتهاد جانبا شغلتهم كتب الفروع عن السنة وشغفوا بدراستهم لها عن ورودها ورأوا - خطأ أو صوابا - ان فيها بغيتهم، وان السنة فرغت منها حاجتهم . ومالهم وللسنة وقد أوصدت في وجوههم أبواب الاخذ منها وحظر عليهم ان يقولوا سوى ماقاله الاصحاب فما لهم يتعبون ولا يجنون، ويكدون ولا يستفيدون

نعم كان من الناس من يتطلبها لما فيها من أخلاق ومواعظ وآداب ورقائق أو تبركا بحديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه

على ان ذلك لم يمنع من وجود اعلام نابهين في العصور المختلفة درسوا السنة حق دراستها وعرفوها حق معرفتها وأطلقوا لانفسهم حرية الاخذ عنها كابي عمر بن عبد البر وابن حزم الاندلسي وابن تيمية الحراني وتلميذه ابن القيم وابن حجر العسقلاني وأبي بكر السيوطي والشوكاني وكثير غيرهم فهؤلاء وأمثالهم ممن تقدم ذكرهم تحت عنوان الجرح والتعديل - قاموا للسنة بخدمات جليلة وزادوا الناس التفاتا اليها وشغفا بها فلهم منا جزيل الثناء ووافر الشكر

حال السنة في عصرنا الحاضر

كان خليقا بالازهر وفروعه - وهو كعبة العلوم الدينية - ان تكون للسنة فيه عناية كبيرة ومقام عال بين علوم الدين ولكن للاسف بخس الحديث في هذا المعهد الكبير حقه - بعد ان انتهت اليه الرياسة فيه على عهد الحافظ ابن حجر وتلاميذه فلا يوليه الازهريون اليوم من نشاطهم وطويل وقتهم ما أولوا الفقه وأصوله وعلوم العربية فلا نراهم يدرسون سوى صحيح البخاري وصحيح مسلم على قلة قراءتهم للثاني واقتصار الكثيرين على مختصر الاول مع حجرهم على الافكار ان تفهم الا مافهمه الشيوخ وسلوكهم في تفسير الاحاديث مسلك تأييد المذاهب وتنزيل المعاني عليها كأنما الفروع أصل من أصول السنة أو المنبع الاول للتشريع الاسلامي

ثم ان دراستهم لهذين الصنوين لا تعدو المتن الى السند فلا يبحثون فيه ولا يتعرفون رجاله ولا يتبينون ان كان متصلا أم منقطعا مع انهم يدرسون قبل ذلك مصطلح الحديث فما الفائدة فيه اذا لم يطبقوه في دراسة المتون والاسانيد - ربما قالوا ذلك من باب العلم بالشيء ولا الجهل به، وربما قيل لهم

أهذا هو علم السنة المطلوب شرعاً

ولقد أخذ بعض الاساتذة الاجلاء يدرس الكتب الستة في العطلة الصيفية وبدأ منها بكتاب الموطأ ونرجو ان يوفق لاتمامها وأن ينفخ ذلك في روع الازهريين حب التفوق في الحديث والعناية بكتبه

وقد وجد بين الازهريين في هذه الايام أفراد عنوا بدراسة السنة دراسة كاملة وأطلقوا لانفسهم حرية البحث والفهم وراضوا أنفسهم في كتب السنة المختلفة وانهم لبشير خير بتبدل الاحوال واحلال العناية بالحديث محل الاهمال

ولما كانت مجلة المنار سلفية المنهج وكانت عنايتها موجهة الى محاربة البدع والرجوع بالدين الى ما درج عليه الرعيل الاول من السلف، وكان ذلك داعيا للعناية بالسنة والبحث فيها وفي فنونها والاستدلال بها في الفتاوى وغيرها، كان لها أثر صالح في نشر السنة وتكثير سواد الطالبين لها في الاقطار الاسلامية المختلفة

ولا يوجد في الشعوب الاسلامية - على كثرتها واختلاف أجناسها - من وفى الحديث قسطه من العناية في هذا العصر مثل اخواننا مسلمي الهند أولئك الذين وجد بينهم حفاظ للسنة ودارسون لها على نحو ما كانت تدرس في القرن الثالث حرية في الفهم ونظر في الاسانيد كما طبعوا كثيرا من كتبها النفيسة التي كادت تذهب بها يد الاهمال، وتقضي عليها غير الزمان، وان أساس تلك النهضة في البلاد الهندية افذاذ اجلاء تمخضت بهم العصور الحديثة وانتهجوا في تحصيل العلوم نهج السلف فنبه شأنهم وعلا أمرهم وذاع صيتهم وتكونت جميات سالكت سبيلهم وعملت على نشر مبادئهم فكان لها ذلك الاثر الصالح، والسبق الواضح، ومن أشهر هؤلاء الاعلام ولي الله الدهلوي صاحب التصانيف في اللغتين العربية والفارسية وأشهرها كتاب حجة الله البالغة، والسيد حسن صديق خان ملك بهوبال صاحب التصانيف الكثيرة أيضا وقد سبق ذكرها في هذه الرسالة ومن حسنات الثاني طبع فتح الباري في شرح البخاري للحافظ ابن حجر ونيل الاوطار للامام الشوكاني وتفسير الحافظ ابن كثير مع تفسيره فتح البيان. طبعت هذه الكتب على نفقته في المطبعة الاميرية بمصر فكانت من أنجح وسائل احياء السنة، وفي الهند الآن طائفة كبيرة تهتدي بالسنة في كل أمور الدين، ولا تقلد أحدا من الفقهاء ولا المتكلمين، وهي طائفة المحدثين، وقد كان لعلم السنة سوق رائجة في اليمن بعد كساد سوقها بمصر بعد القرن العاشر

وان من آكد الامور على المسلمين وأحقها بالرعاية وأولاها بالعناية العمل على احياء السنة ونشرها بين المسلمين فانها داعية الى التوحيد في العمل والاعتقاد ومزيلة مابين الفرق المختلفة من الشحناء والعداء لانها رجوع الى أصل الدين وكل يقر به وينتمي اليه وفي ذلك تقوية شوكتنا وانهاضنا من كبوتنا التي طال أمدها واستفحل أمرها

كيف تقرب الى الناس تحصيل السنة؟

بينا تحت عنوان – الجمع بين الكتب الستة – ان ابا السعادات مبارك ابن محمد المعروف بابن الاثير الجزري جمع بين الاصول الستة التي بينا فيما سلف أمرها واسمى كتابه جامع الاصول لاحاديث الرسول وتكلمنا على هذا الجامع بما يغنينا عن اعادته هنا وذكرنا اذذاك ان لابي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزبادي زوائد عليه سماها تسهيل الوصول الى الاحاديث الزائدة على جامع الاصول فلو اننا جمعنا بين الجامع وزوائده على نحو ما جمع بين الكتب الستة وعقبنا كل حديث ببيان درجته وذكر من طعن فيهم من رجال سنده وجعلنا للكتاب ذيلا يذكر فيه اولئك المطعون فيهم مرتبة اسماؤهم حسب الحروف الابجدية مشفوعا كل شخص بما قاله أئمة النقد فيه من جرح وتعديل على نحو مافعل المنذري في كتابه الترغيب والترهيب

لو اننا فعلنا ذلك لكنا مقربين الى الناس تحصيل السنة وجاعليها على طرف الثمام يتناولونها من كثب ويقتبسون منها بلاعناء ولا اجهاد فكر ولا كثرة بحث

وان هذا العمل الجليل وذلك القاموس الكبير يستطيع ان يقوم به فرد مارس الحديث ممارسة طويلة وكان له بفنونه خبرة مع حكمة وعزم وأناة وصبر

وينبغي ان يقوم بطبعه شركة تبغي بعملها فضلا من الله ورضوانا حتى تنفق عليه بسخاء وتبرزه في خير حلة وأجمل جلباب

ولو شفع ذلك بشرح واسع يلائم روح العصر الحاضر يقوم به جماعة كل فيما نبغ فيه ويبذل حياته في اتقانه لكان ذلك من خير الامور وأجل الخدمات

ولا اظن فرداً يقدر على ذلك كله مع الاحسان لان السنة فيها طب واحكام وآداب واخلاق واحاديث صفات وكل هذي فروع واسعة لا يتضلع في واحد منها الا من بذل فيه جهده، وحبس على تعلمه نفسه. فعلى الطبيب ان يشرح ما

ورد في الطب، وحري بالفقيه الحاذق ان يبين احاديث الاحكام، وجدير بالواعظ الاديب ان يوكل اليه الكتابة على احاديث الآداب والاخلاق والمواعظ والرقائق، وعلى المتكلم ان يوضح احاديث الصفات سالكا طريقة اهل السنة من السلف الصالح . وهكذا يقوم كل خصيص بفن بشرح ما يناسب فنه من احاديث الكتاب على شرط ان يكون متشبعاً بروح الدين عليما بشؤون العصر الحاضر خبيراً بالامور المحدثة والمعاملات المستجدة

ويوجد كتابان جليلان يسد كل منهما حاجة طالما تاقت النفوس الى سدها احدهما المنتقى لابن تيمية مع شرحه نيل الاوطار للشوكاني وثانيهما الترغيب والترهيب للمنذري فالاول يغني كل من رام الوقوف على احاديث الاحكام وشرحها شرحا وافيا مع ذكر اقوال العلماء فيها والثاني يغني الوعاظ المرشدين ويهبهم مادة واسعة ليس فيها من شبهة ولا يمتري صحتها فترة، وحري بالفقهاء والمشتغلين بالقانون ان يدرسوا الاول دراسة وافية ويتعرفوه معرفة كاملة، وجميل بالناصح الامين ان يجعل الثاني اسوته في ارشاده وان يحفظ من احاديثه ما يعينه على القيام بعمله ويسهل عليه أداء مهمته

ماذا نعمل لنشر السنة ؟

كل عمل يقوم به جماعة متماسكة خليق ان يبقى ويظهر له في الناس اثر بين، واما ما يقوم به الافراد فانه يبقى ما بقي العزم فيهم ماضياً وعامل الاخلاص في نفوسهم قائماً، ثم هو بعد ذلك ضئيل الاثر قليل الجدوى وماذا تبلغ نفس واحدة من نفوس المسلمين، الذين تجاوز عددهم مئات الملايين. فاذا مارمنا للسنة نشراً ولسلطانها بسطاً ولعبيرها اذاعة فعلينا ان نكون جمعية دينية يكون أفرادها من خلاصة المعتصمين بالسنة والمتشبعين بروح هذا الدين ويكون مركزها في صرة البلاد الاسلامية وقطب الرحى منها أعني بلادنا المصرية. ويكون لتلك الجمعية فروع في الممالك الاسلامية ويكون للفروع أغصان في الولايات الصغيرة والمدن الكبيرة ويكون شعارها قوله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) وقوله (ص) (شيئان لن تضلوا بعدي ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسوله)

وان هذه الجمعية يقوم صرحها على أمور أربعة اخلاص وعزم وحكمة وصبر، ومتى وجدت هذه الامور سهل تكوين ثروة لها تكون مادتها وعضدها

في نشر مبادئها، وأرى ان تكون الثروة من اشتراكات يدفعها الاعضاء في الجمعية وفروعها وأغصانها ومما يجود به أهل البر والاحسان واذا سعى الاعضاء وضموا الى جانبهم بعض الملوك أو الامراء كان ذلك خير مشجع لهم ومتم لعملهم

وعلى الجمعية ان تقوم بطبع كتب الحديث القيمة مقدمة الاهم على المهم وعلى كل عضو أن يقوم بتعليم العامة والخاصة وارشادهم الى ينبوع هذا الدين كتاب الله وسنة رسوله (ص) ولا يقصر ارشاده على الوعظ في المساجد بل يعممه في الاندية المختلفة والمجتمعات العامة ودور العلم ومدارسه فان في هذه نفوساً أحوج الى الموعظة وأجدر بالارشاد من الركع السجود

وليكن للجمعية حرص بالغ على ان تضم اليها المدرسين والمعلمين والخطباء والوعاظ فان اولئك اذا رشدوا هدوا كثيرين فيذيع ايثار السنة بين الناس ويكثر أنصارها حتى يكونوا أمة بيمينها القرآن وبيسارها السنة وانهما سيفان ماضيان يكتسحان الالحاد، ويقضيان على الفساد، ويبصران طريق الرشاد وينتاشان المسلمين من الضعف والذلة، الى حيث المنعة والعزة

فالهم بصرنا بديننا، واهدنا سبيل سلفنا، واجعل عملنا خالصاً لوجهك، لا نبغي به الاخدمة دينك، ورفعة سنة نبيك صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه الطاهرين، ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين... تم تأليف هذه الرسالة ليلة الجمعة ٣ جمادى الآخرة سنة ١٣٣٩ هـ ١١ فبراير سنة ١٩٢١م ؟ محمد عبد العزيز الخولي

(المنار) حمد الله عمل صديقنا مؤلف هذه الرسالة وأجزل ثوابه وأحسن مآبه وحشرنا واياه في زمرة أنصار السنة وان جميع الاعمال التي اقترح تأليف الجمعية لها في خاتمة رسالته هي بعض ما كنا نبغي من جماعة الدعوة والارشاد، الا طبع الكتب فانه عمل أصحاب المطابع والشركات، وقد كان عزيز مصر العباس أعز الله به العلم والدين، ملتزما امدادها الدائم من أوقاف المسلمين، الاوقاف الخيرية العامة، وأوقاف أسرته المالكة الخاصة، فكان من سيئات الحرب العامة ومفاسدها، ان قطعت الحكومة المصرية اعانة الاوقاف التي كان قد أمر بمضاعفتها، فوقف عمل الجماعة وأقفلت مدرستها، ولا نيأس من روح الله ان يمن باعادتها، ويوفق أهل البصيرة من أغنياء المؤمنين بمساعدتها، فهم ولله الحمد كثيرون، ولكن أكثرهم غافلون

الخيال في الشعر العربي

٥

التفاضل في التخييل

اتينا في الفصل الذي كنا بصدد تحريره على الوجوه التي تفضل بها صور المعاني التخييلية اعني غرابة الجامع بين الاجزاء المؤلفة ثم التوسع في الخيال وبعده عن البساطة مع الالتئام بالذوق السليم ، فيصح لمن انتصب للموازنة بين الشعراء في التخييل أن يتخذ هـذه الوجوه مدخلا للحكم وأساساً يبني عليه في التفضيل

تعقد الموازنة تارة بالنظر الى معنى خاص يتناوله كل من الشاعرين وهذا اما أن تتحد الواقعة فيه أو تختلف . وتارة تجري في غرض خاص يصوره كل منهما بغير مايصوره به الآخر، فهذه ثلاث حالات تضاف اليها حالة رابعة وهي المفاضلة بين الشاعرين يختلفان معنى وغرضا، وحالة خامسة وهي أن تقام الموازنة بين الشاعرين على ان يقضى لاحدهما بالافضلية المطلقة

(الحالة الاولى) اعني ماتعقد فيه الموازنة بالنظر الى معنى خاص والواقعة واحدة كقول أبي عبد الله بن الزين النحوي يصف بركة نثر عليها الياسمين:

نثر الغلام الياسمين ببركة مملوءة من مائها المتدفق
فكأنه نثر النجوم باسرها في يوم صحو في سماء ازرق (١)

فاذا قسته بقول علي بن ظافر في هذه البركة نفسها

زهر الياسمين ينثر في الما ء أم الزهر في اديم السماء
ظل يحكي عقود در على صد ر فتـاة في حلة زرقاء

رأيت كلا من الشاعرين شبه الياسمين بالنجوم بادية في السماء وتشبيه ابن الزين في هذا الوجه اجود لانه ذهب به الخيال الى تفاصيل لم يأت عليها ابن ظافر فاذا التفت الى تشبيه ابن ظافر في البيت الثاني رأيت خطور هيأة النجوم والسماء

(١) المنار: فيه تذكير نعت السماء وقد أراد باليوم مايعم الليل وكان يمكنه التعبير به

عند مشاهدة الياسمين يطفو فوق الماء، أقرب من خطور عقود الدر تتقلدها الفتاة المتبرجة في حلة زرقاء، فيكون تشبيه علي بن ظافر أجود لندرة المشبه به وقلة ابتذاله بمشاهدة كل ذي عين باصره . ولولا أن ابن الزين أسند نثر النجوم الى الظلام ونبه على كثرة الياسمين بقوله: نثر النجوم بأسرها - لا تنفت عنه المزية وكان تشبيهه من التخيلات الموضوعة في طريق كل من خطر على باله أن يذهب في تصوير المعنى من باب التشبيه . ومن هـذا الضرب قول ابن المنجم يصف مطلع الهلال عند غروب الشمس

وعشاء كأنما الافق فيـه ... لازورود مرصع بنضـار

قلت لما دنت لمغربها الشمـ ... ـس ولاح الهلال للنظار

أقرض الشرق صنوه الغرب دينا ... رآ فأعطاه الرهن نصف سوار

مع قول ابن قلاقس ولم يطلع على ماقاله ابن المنجم

لا تظنوا الظلام قد أخذ الشمـ ... ـس وأعطى النهار هذا الهلالا

انما الشرق أقرض الغرب دينا ... رآ فأعطاه رهنه خلخالا

فقد سار الشاعران في التخييل على طريق واحد وزاد ابن المنجم على ابن قلاقس نظرة في السوار فلم يأخذ منه الا المقدار الذي يطابق حال الهلال وهو الشطر فكان تخيله أحكم وقعاً

(الحالة الثانية) وهي ماتكون الواقعة فيها مختلفة كقول بعضهم

خلقنا لهم في كل عين وحاجب ... بسمر القنا والبيض عيناً وحاجباً

مع قول ابن نباتة

خرقنا بأطراف القنا في ظهورهم ... عيوناً لها وقع السيوف حواجب

فقد اتفق الشاعران على تصوير المعنى وهو تأثير السيوف والرماح في أجسام الاعداء ولكن تصوير ابن نباتة أجود لانه يزيد على الاول بما فيه من الايماء الى انهزامهم وتوليهم بظهورهم حتى تصنع فيها الرماح والسيوف عيوناً وحواجب

ولا يغيب عنك ان تفضيل بيت ابن نباته انما يتم اذا تماثلت الواقعتان أو كان كل من البيتين صادراً عن تخييل محض . واما اذا قصد كل من الشاعرين وصف الواقع وكان الاعداء المشار اليهم في البيت الاول لم ينهزموا بل ثبتوا للطعن في وجوههم الى ان وقعوا على مضاجعهم اولم يتلهم السلاح بعد ان ولوا

مدبرين لم يكن لك ان تفضل عليه بيت ابن نباتة من جهة التخييل وان اشار الى معنى يعود الى مدح قومه بالشجاعة والمهارة في الطعن والضرب

ومن قبيل هذا الضرب قول عبد الرحمن القنداقي في وصف حال الندى وتقاطره من زهر النرجس

والندى يقطر من نرجسه كدموع اسكبتهن الجفون

وقول ابن زيدون في مثله

تلهو بما يستميل العين من زهر جال الندى فيه حتى مال اعناقا
كأن أعينه اذ عاينت ارقي بكت لما بي فجال الدمع رقراقا

ومما يفضل به هذان البيتان على بيت القنداقي ايماؤهما الى سبب ارسال الازهار للمدامع وهو معاينتها لارق الشاعر واشفاقها عليه

(الحالة الثالثة) وهي ما يقصد الشاعران فيه الى غرض واحد ويختلفان في المعنى الذي يصورانه فيه، ومثال هذا ان يكون الغرض وصف شخص بالندى فيقع الاختلاف في الطريق الذي يقرر به هذا الوصف كما قال بعضهم

سألت الندى هل أنت حر فقال لا ولكنني عبد ليحيى بن خالد
فقلت شراء قال لا بل وراثة توارثني عن والد بعد والد

وقال الآخر

ولما رأيت البحر في الجود آية ومن جوده الدر الثمين المقلد
سألته من في الناس علمك الندى فقال أمير المؤمنين محمد

ومثل هذا مما يرجع بالتفضيل فيه الى القوانين السابقة فما كان أقل خطوراً على الذاكرة أو أوسع نطاقاً في التخييل أو ألذ وقعاً على الذوق فهو المشهود له بمزية الرجحان . ومن الجلي أن تشبيه الكريم بالبحر من المعاني التي وعاها كل قلب وتناولها كل لسان فصاحب البيتين الاخيرين بنى محاورته على أمر اشتهر ذكره عند الحديث في هذا الغرض وانما زاد عليه شيئاً من التخييل فتكون المحاورة الاولى أبدع لانها قائمة من أول حالها على شعور غريب فضلا عما امتازت به من الايماء الى دعوى قصر الندى على الممدوح وهذا ما يجعلها أبلغ في الدلالة على ما يرمي اليه الشاعر من غرض الوصف بالسخاء

ويدخل في هذا القسم قول عنترة

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل السيوف لانها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

مع قول بعضهم

ولقد ذكرتك في السفينة والردى متوقع بتلاطم الامواج
وعلى السواحل للاعادي جولة والليل مسود الذوائب داجي
فعلت لاصحاب السفينة ضجة وانا وذكرك في ألذ تناجي

فنفرض الشاعرين واحد وهو انهما ذكرا الحبيب في حال تقتضي لشدة هولها عظائم خطرها دهشة القلب وتفرغه لانتظار الفرج أو الاحتيال على وسيلة النجاة ، وانما يصح لنا أن ندخل للمفاضلة بين الشعرين اذا كانا من التخييل المحض فنقول ان شعر عنترة أبلغ لانه صور ذكره للحبيب في حال انتشاب الخطر به بحيث ترتوي الرماح وتقطر السيوف من دمه الذي هو مادة حياته ثم تمنى بادة الاتصال بالسيوف التي هي مهبط المعطب حين خيلت له ثغره الباسم ببريقها ، أما شاعر السفينة فأقصى غمراته توقع الهلاك بما أحاط به من اسبابه القريبة ،رتبة من تذكر الحبيب وقد انشب به الردى مخالبه أعظم من مزية من يتذكره وهو يبصر الخطر ولم يبسط اليه يده : فان كان كل من الشاعرين حكى واقعة عرضت له في حياته فلا تفاضل بينهما الا من جهة تأليف اللفظ وصفاء ديباجته

(الحالة الرابعة) وهي ما يختلف فيه الشعران معنى وغرضاً ، وعقد المفاضلة في مثل هذا النوع قلما يخطر على بال الاديب ، ولو قصد الى ذلك لوجد المسلك وعرا اذ من المحتمل أن يكون كل من الشعرين ورد على ابدع غاية ممكنة في المقصد الذي سيق اليه وان كان أحدهما أوسع نطاقا في الخيال . فلو نظرت الى قول بشار

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا واسيافنا ليل تهاوى كواكبه

سهل عليك الدخول الى المفاضلة بينه وبين قول ابن المعتز

وعم السماء النقع حتى كأنها دخان وأطراف الرماح شرار

ولو عمدت الى الموازنة بينه وبين قول أحمد بن دراج يصف حالة وداعه لزوجته وابنه الرضيع

تناشدني عهد المودة والهوى وفي المهد مبغوم النداء صغير
عيي بمرجوع الخطاب ولحظه بموقع أهواء النفوس خبير

أو قول بعضهم

لئن بكيت دماً والعزم من شيمي على الخليط فقد يبكي الحسام دما

لم تجد الطريق الى التفضيل أمراً ميسوراً . وليس لك أن تعول على ابتهاج النفس واهتزازها وتجعل تفاوته ميزاناً للتفاضل لان شدة الابتهاج لسماع الشعر قد تكون تابعة للعواطف والاهواء ، فمن رقت عاطفته لولده الصغير حتى كاد قلبه يذوب لنظراته المكحولة بالتبسم يهتز لقول أحمد بن دراج « ولحظه بموقع اهواء النفوس خبير » بأشد مما يهتز لغيره، ومن لم يذق حلاوة العطف على البنين وكان كلفاً بمواقع الحروب مغرماً بالحديث عن آثارها يلتذ ببيت بشار أكثر من التذاذه ببيت ابن دراج وما ذكر بعدها

فلا أنكر ان يكون بين التخيلات المختلفة في المعنى والغرض فرق جلي وتفاوت واسع من جهة التركيب أو الغرابة فيبني عليه الاديب حكمه بالتفضيل وانما أعني أن الاشعار المتفقة في معنى أو غرض تجد المدخل للمفاضلة بينها سهلا اذ يتبين لك التفاوت بينها في التركيب أو الغرابة من غير اطالة نظر وعلى فرض اتحادها في ذلك يمكنك الرجوع الى وقعها على حاسة الذوق واخذها بالروح التي يتقوم بها المراد من الكلام ، وأما المختلفة في المعنى والغرض فيتيسر القضاء فيها متى كان التفاوت بينها جلياً .وأما اذا كانت في مراتب متقاربة في الغرابة والتركيب والتمكن من روح المعنى أو الغرض الذي افرغ فيها فباب الحكم فيها لا يطرقه الا الماهرون في هذه الصناعة حيث وصلوا الى أن هذا الشعر لم يتجاوز في الغرض الذي عبر عنه الدرجة الوسطى مثلا وان الآخر انتهى في وجهته الى غاية ليس وراءها مرتقى

وقد يكون مناط التخييل امراً واحدا ويختلف نظر الشاعرين بتوجه احدهما الى حال او صفة قد اخذ نظر الآخر بغيرها فيصير التخييل بهذا من قبيل التخييل في امرين مختلفين في خفاء التفاضل بينهما وهذا كما قال الوزير ابو فارس يصف النهر من جهة منظره

فنمنم ما بين الغروس كأنه وقد رفرفت حصباؤه حية رقطا

وقال ابو القاسم الابرش يصفه من جهة خريره

وقال النهر يشكو من حصاه جراحات كما أن الجريح

وقد يجيد احد الشاعرين من جهة الغرابة ويجيد الآخر من حيث التركيب كقول الصنوبري يصف الشمعة

كأنها عمر الفتى والنار فيها كالأجل

مع قول الارجاني يصفها ايضا

تنفست نفس المهجور اذ ذكرت عهد الخليط فبات الوجد يذكيها

فان تشبيه الشمعة حين تدب فيها النار وتتناقص شيئاً فشيئاً الى ان تذهب في الجو هباء منثورا بعمر الفتى حين ينقضي ساعة فساعة الى ان يلتقي الاجل بآخر نفس منه فيعود الى الفناء ـ تشبيه ادق واخفى من تشبيهها بسبب ذكر عهد الخليط فقدحت الذكرى في مهجته وجداً بات يحترق بلوعته الملتهبة ولكن هذا التشبيه اوسع نطاقا وأحلى مساقا

وربما فاق احدهما من جهة الغرابة وفاقه الآخر من جهة المطابقة لحال المعنى كقول ابن الخطيب يصف ليلة

وعشت كواكب جوها فكأنها ورق تقلبها بنان شحيح

وقول عنترة

اراعي نجوم الليل وهي كأنها قوارير فيها زئبق يترجرج

فتشبيه ابن الخطيب ادق واخفى وتشبيه عنترة اشد مطابقة لحال النجوم

(الحالة الخامسة) وهي ما يجري فيه تفضيل احد الشاعرين على آخر باطلاقه وهذا لا يستقيم الا ممن اتى على معظم شعرهما حتى عرف الذين يستوفي في تخيلاته شرائط الجودة اكثر من غيره ولا سيما اذا اهتدى للمقايسة بينهما في كثير من المعاني أو الاغراض التي يتفقان فيها

ومن الخطأ الحكم بتفوق شاعر على غيره لمجرد تخييل بديع يتفق له في بيت أو ابيات فربما ترجح شاعر في معنى مرة وفاقه غيره في معان اخرى فلا يصح لك متى وقفت على قول ابن زمرك

وجرد من غمد الغمامة صارما من البرق مصقول الصفيحة صافيا

ورأيته متوغلا في الخيال اكثر من قول ابن الخطيب

لك الله من برق كأن وميضه يد الساهر المقرور قد قدحت زندا

ان تقضي بتفضيل ابن زمرك على ابن الخطيب اذ قد يكون لابن الخطيب تخيلات اخرى ادرك فيها شأوا لم يلحق ابن زمرك غباره بل تجد له في هذا المعنى نفسه تخييلا سبق فيه الى الغاية القصوى وهو قوله

ومبض رأى برد الغمامة مغفلا فمد يدا بالتبر اعلمت البردا

ومما يصدق أن تكتفي في تفضيل الشاعر باجادته في البيت أو الابيات انك ترى حازما الاندلسي قد فاق ابن هانئ في وصف التقاء الصبح بآخر الليل حيث يقول الاول

كأن بياض الصبح معصم غادة جنت يدها ازهار زهر الدجى لقطا

ويقول الثاني

كان عمود الصبح خاقان عسكر من الترك نادى بالنجاشي فاستخفى

وترى ابن هانئ يقول في وصف الثريا

وولت نجوم للثريا كأنها خواتيم تبدو في بنان يد تخفى

ففاق حازما حين قال

كأن الثريا كاعب ازمعت نوى وامت بأقصى الغرب منزلة شحطا

وقد لوحنا فيما سلف الى بعض الاسباب التي تقوم للشاعر فيفضل في بعض المعاني أو الاغراض من هو كفؤ له أو أرسخ منه قدماً كالتفاوت في قوة الباعث على النظم فمن يخاطب انساناً وقد ماجت مهجته بعواطف وده الخالص واضرمت النوى في فؤاده شوقا اليه يقع على دقائق من المعاني يقف دونها من يخاطبه تفصيا من ملامة أو تعرضاً لمسألة ليست بذات بال . ويضاف الى هذا أن أحد الشعراء قد يمتاز بمعرفة العناصر التي يؤلف منها المعنى كما امتاز البارودي عن بعض ادباء عصره بمشاهدة الكهرباء واشراقها في اجرام كروية فقال يصف الثريا

وكأنها اكر توقد نورها بالكهرباءة في سماوة معتم

وقد يستوي الشاعران في الاطلاع على العناصر البسيطة ولكن أحدهما يشاهدها مؤلفة في صورة لم يشهدها الآخر فيساعده استحضار تلك الهيأة على انتزاع معنى لا يخطر على بال غيره ، فصفوان ابن ادريس الاندلسي عاش في مطر يرى فيه المقلة الزرقاء تلوح عليها حمرة الرمد فقال يصف الورد مفتحاً على شاطىء الخليج

والورد في شط الخليج كأنه رمد ألم بمقلة زرقاء

ومن الشعراء من لم يأخذ في حافظته صورة المقلة الزرقاء وعليها مسحة من الرمد كمن نشأ في ناحية الجنوب وانما رأى المقلة الرمداء ولون الزرقة ينفرد احدهما عن الآخر . وانظر الى ابن الرومي حين قال له بعض اللائمين لم لا تشبه تشابيه ابن المعتز وانت أشعر منه ثم قص عليه تشبيهه للهلال بزورق من فضة

ليه حولة من عنبر، وتشبيه الآخرين بمداهن من ذهب فيها بقايا غالية ـ قال الرومي (لا يكلف الله نفساً الا وسعها) ذاك انما يدعف ماعون بيته لانه ابن يفة وأنا أي شيء أصف ؟ ولكن انظروا اذا انا وصفت ما أعرف أين يقع لي من الناس

وقد يتفق الشاعران في معرفة العناصر والهيأة المؤلفة ويكون احدهما د علقة بها وأكثر تردداً عليها فيكون خطورها على قريحته اكثر من خطورها ، قريحة من شاهدها مرة أو مرتين . كنت رأيت مرة الآلة المصورة وعرفت يف ترسم الصورة في زجاجتها ولم يسنح لي أن أستمد منها معنى خيالياً حتى نزل راري في بعض البلاد أحد المولعين بها وتكررت ملاحظتي لها فربما جال في طري معنى الخطأ في فهم الحقيقة فجمت على صورة الآلة والزجاجة فقلت

عذرتك اذصورت في تدمك الهدى ضلالا وصورت الضلال رشادا
فإن زجاجات المصور تقلب الـ سواد بياضاً والبياض سواداً

***

د يستمد الشاعر من غيره تخييلا يضيف اليه مايوسع في نطاقه ولهذا ثلاثة أحوال (أحدها) أن يكون الاصل من المعاني النادرة والزيادة تساويه في غرابتها تنقص عنه وهنا لا يكون صاحب الزيادة ارجح ممن أنشأ أصل المعنى فطلما من المحتمل ان شبهه لهذه الزيادة وادراجه لها في صورة المعنى انما تيسر له ، تلقيه لذلك الاصل الذي أقامه له الشاعر الاول بحيث لا يكون في قريحته مل قوة على تحصيل هذا الاساس بنفسه ومثال هذا قول علي الكوفي يصف النجوم

كأن التي حول المجرة أوردت لتكرع في ماء هناك صبيب

ول البارودي يصفها أيضاً

وكأنها حول المجر حمائم بيض عكفن على جوانب مشرع

فلم يزد البارودي عما خيل اليك الكوفي سوى أن جعل تلك النجوم اردة حمائم بيضاً

ومن هذا القبيل قول المعتمد بن عباد يصف نهرا في روض

ولربما سلت لنا من مائها سيفاً وكان عن النواظر مغمدا

وقول أبي القاسم البخاري

والنهر شق بساط الروض تحسبه سيفا ولكنه في السلم مشهور

فهذا البيت اخذ في ضمنه معنى البيت الاول وانما زاد عليه بأن السيف يجرد في حال السلم

(ثانيها) أن يكون المعنى الاصلي غريباً وتكون الزيادة ادل منه على البراعة، ويصح لك في هذا الحال أن تقضي بفضل الثاني اذ في يدك ما ينهض بحجتك على أن في قريحته قوة تمكنها من انشاء الصورة من اصلها ، ومثال هذا قول الخفاجي

كأن الدجى لما تولت نجومه مدبر حرب قد هزمن له صفا

وقول البارودي يصف الليل ايضاً

متوشح بالنيرات كباسل من نسل حام بالحجين مدرع
حسب النجوم تخلفت عن امره فوحى لهن من الهلال باصبع

فان كان البارودي قد تنبه الى تشبيه الليل بامير حرب من بيت الخفاجي فقد زاد عليه ما هو اغرب منه اعني ظنه ان النجوم تخلفت عن أمره ثم اشارته اليها باصبع من الهلال

(ثالثها) ان يكون الاصل من المعاني التي تتناولها العزائم لاول لفتة اذ اصبحت مبذولة ابتذال تمثيلك جيل الطلعة بالقمر والمقدام بالاسد، ويسوغ لك بدون شبهة ان تعد التخييل فيما يرجح به وزن صاحب الزيادة البديعة ، فالذين شبهوا الزهر بالدراهم كثير ولكن ابن زمرك اضاف الى ذلك ان جعل النسيم جابيا لها فقال

كانما الزهر في ساحاتها سحرا دراهم والنسيم اللدن يجبيها

ومن المتداول تشبيه الاقاح بالثغور وقد بنى عليه ابن رشيق ان جعل الشمس ترشف منه ريق الغوادي فقال

باكر الى اللذات واركب لها سوابق اللهو ذوات المزاح
من قبل ان ترشف شمس الضحى ريق الغوادي من ثغور الاقاح

ومن المعهود تشبيه الليل بالغراب فتناوله عبدالرحمن القنداقي الاندلسي ورفعه في الحسن درجات فقال

وانبرى جنح الدجى عن صبحه كغراب طار عن بيض كنين

وقد يذهب الشاعران الى محاكاة امر فيحاكيه احدهما ناظرا اليه بانفراده ويحاكيه الآخر ناظرا اليه في حال اقترانه بامور اخرى ، فلا يحق لك متى

قايست بينهما ورايت الاول احكم ان تقضي لصاحبه بالرجحان اذ قد تكون محاكاة الثاني انما جاءتها الجودة من ملاحظة ما اتصل به من المعاني ولولا هذه المقارنة لم يقدم صاحبه على هـذه المحاكاة . وربما تسمع ان ابا جعفر الاندلسي خيل اصوات الحمام في الصباح بالخصام فيبدو لك ان تشبيهها بالغناء أو النواح اقرب الى الجودة واشد مطابقة لحالها ولكنك اذا وقفت على قوله

فالصبح قـد ذبح الظلام بنصله ... فغدت تخاصمه الحمائم فيـه

ادركت جودة التخييل التي احرزها بما انضم اليه من تمهيد سبب الخصام وهو اعتداء الصبح على الظلام وقتله بالنصل ذبحا

يعدون في تخيلات (فكتور هيغو) تشبيه الموج بالغنم فاذا قيل لك ان الشاعر العربي معروف الرصافي قـد شبهه بالرجال حسبت انه وقع التشبيه الى الحضيض حتى اذا قرأت قوله يصف قصر البحر في بيروت

كأن الموج في الدأما رجال ... وهذا القصر بينهم خطيب
تخاطبهم مبانيه فيعلو ... من الامواج تصفيق رحيب

تيقنت ان الرجل قد ذهب في التخييل البديع الى الدرجة القصوى . فتشبيه الموج بالغنم هو احكم من تشبيهه بالرجال متى نظرت اليـه مستقلا ولكنك اذا راعيت ما انضم اليه من تشبيه القصر القائم على ضفة البحر بالخطيب وتلاطم الامواج بالتصفيق لم يكن في وقوعه على ذوقك اقل تاثيرا من تشبيهه بالغنم السائمة (١)

باب المراسلة والمناظرة

بحث أبدية النار

حضرة مولانا السيد السديد ، الاستاذ الاكبر الشيخ محمد رشيد : ادام رشده الرب الفعال لما يريد ، آمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته (وبعد) فقد اطلعت على جزئي المنار الاخير الاول والثاني من المجلد الثاني والعشرين فأتيت بهما وبمو . الفرق بين

(١) المنار: بل هو أكبر تأثيرا ، وأعز نصيرا

الجنة والنار المنقولة عن ابن القيم رحمه الله بدوام الجنة وفناء النار بخلاف ما عليه المسلمون(١) من دوامهما بدوام الله تعالى وهو الحق الموافق للمعقول والمنقول والحكمة وأما الشبه التي ذكرها ابن القيم فما هي الا سراب وقد عجبنا من تحسين فضيلتكم لتلك الوجوه وأنها تفيد المارقين وأنها الموافقة للغة دون الاصطلاح الكلامي مما كاد يكون صريحا في الميل لها ، ومما زادني عجبا قول فضيلتكم في نهاية تعقيبها بأنها تنفع المارقين ، ولا تضر المؤمنين بقول الجمهور مستدلين أو مقلدين ، فكيف الجمع بين متنافيين في عقيدة يجب توحيد الحق فيها(٢) على أن ابن القيم نفسه لم يجزم بتلك الوجوه بدليل قوله عقبها (فان قيل فالى أين انتهى قدمكم في هذه المسألة العظيمة الشأن التي هي أكبر من الدنيا بأضعاف مضاعفة ؟ قيل الى قوله تبارك وتعالى (ان ربك فعال لما يريد) الخ وليس في هذه الآية ما يدل على فناء النار أصلا واذا جاز تأويلها مع آيات التأبيد الكثيرة فأي مانع يمنع من تأويل قوله تعالى في الجنة (عطاء غير مجذوذ) بأنه غير مقطوع مادامت الجنة كما قيل في العذاب فالفرق بينهما تحكم بدون موجب أصلا ودعوى أن الجنة مقتضى صفات الذات والنار مقتضى صفة الفعل ليست بشيء لان العذاب الدائم مقتضى صفة القهر الدائمة كما سيأتي وقد ذكر بن القيم تلك الوجوه أيضاً في كتابه شفاء العليل وتوقف فيها ثم قال أثرها (ومن كان عنده فضل علم فليحدثه) اشارة الى عدم كفايتها في الدلالة مع لاجتهاد في تحسينها كل التحسين بذكر أشياء حسنة في نفسها لكنها بعيدة عن المقصود، ولقد وجدنا تلك الوجوه يناقض بعضها بعضاً فتارة يذكر فيها استحالة دخول الكافر الجنة كقوله تعالى (ولا يدخلون الجنه حتى يلج الجمل في سم الخياط) وتارة تجوز العفو عن الكافر بعد تطهيره بمكثه طويلا في العذاب وبعد فناء النار ، ولا معنى للعفو والتطهير الا ادخاله الجنة بعد ذلك تخالف في ذلك صريح قوله تعالى (ان الله لا يغفر أن يشرك به) هذه بعض ملاحظاتي على ذكر تلك الوجوه الفاسدة والشبه الكاسدة بمجلة المنار الاغر ولم يكن بد من البحث وراء الحقيقة فنقول بالاختصار: ان تلك الوجوه ترجع الى خمسة أمور

(١) المنار: أي جمهورهم والا كان خطأ فالخلاف معروف

(٢) : بينا في الجزء الماضي مرادنا بهذا القول وغيره مما لم يفهمه المنتقدون من كلامنا وكلام ابن القيم أيضا

(أولها) مخالفة ابدية النار للعقل (ثانيها) النقل لا يفيد الابدية (ثالثها) الابدية مخالفة لكون دائرة رحمة الله أوسع من دائرة غضبه (رابعها) لامانع من توبة الكافر بعد مباشرته بالعذاب ولو بعد حين (خامسها) مخالفة الابدية للحكمة وسنبين بطلان الجميع ان شاء الله فنقول

(أما الاول) فهو ان هؤلاء الكفار لما زاولوا الكفر أو المعاصي عناداً أو اهمالا مرة بعد مرة مع الاصرار عليها حتى [...] ت ملكة راسخة في [...] ذواتهم خبثاً دائماً واصروا على كفرهم وعصيانهم أبد الآباد وعزموا على أن يدوموا عليه ولا يتركوه بحال من الاحوال، كما يرشد الى ذلك قوله تعالى (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) ودعوى أن ذلك بالوقوف فقط وعدم العذاب بالفعل(١) مردود بأنه لافرق بين رؤية العذاب واقتحامه على أنهم لم يطلبوا الرجعة عند رؤيته فقط بل طلبوها مرارا بعد مكثهم في العذاب لقوله تعالى زجراً لقائل منهم (رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا انها كلمة هو قائلها) وقوله تعالى (ربنا اخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون * قال اخسئوا فيها ولا تكلمون) ونحو ذلك من الآيات الكثيرة في هذا الصدد. فكان دوام العذاب جزاء وفاقا على قدر الجريمة والمعصية. الا ترى لو أن ملكا وضع قانونا لرعيته بين فيه عقاب كل جريمة واقتضى نظام رعيته وأمن كل واحد منهم على نفسه وماله وعرضه انه جعل عقوبة جريمة القتل مثلا السجن الدائم مع الاشغال الشاقة واعلن ذلك على رعيته ثم ارتكب بعد ذلك واحد منهم تلك الجريمة فعاقبه عليها بمقتضى قانونه الذي علم الجاني قبل اقدامه على الجناية فالعقل لا يستقبح ذلك بل يعده العقلاء عدلا وحسنا فكذلك صنع الله الحكيم في خليقته جعل عقاب الكفر عذابا اليما دائماً في دار الآخرة لانه جحود بنعمة من لاتتناهى كبرياؤه ولا تنحصر عظمته، وقد بين كل ذلك على لسان رسله ونصب الادلة في الانفس

(١) المنار: يشير الى ان الله تعالى قال فيهم هذا حين وقفوا على النار فطلبوا الرد الى الدنيا ثم هو يقول ان هذه دعوى مردودة بعدم الفرق بين رؤية العذاب والوقوع فيه. ولكن الدعوى حق وما ردها به باطل فليس سواء ذوق العذاب ورؤيته. ومن الغريب استشهاده على طلب الرجوع الى الدنيا بعد المكث في العذاب بما حكاه الله تعالى في قوله (رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت) وأول الآية (حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون) الخ وأما الشاهد الثاني ففي محله

والآفاق ووعد أولئك الكفار انهم ان تابوا (أي في الدنيا) يغفر لهم ماقد سلف فضلا وكرما وقال سبحانه (قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف) ثم انه لاشك أن الملك اذا وضع قانوناً وجعل فيه لكل جريمة عقاباً فاذا لم يجزم الناس بأن ذلك الملك يوقع عقاب كل جريمة على فاعلها كان جعل تلك العقوبات في ذلك القانون عبثاً ولا يفيد فائدته المطلوبة ولولا قوله تعالى (ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) ماكان العقل يجيز العفو عن غير المشرك ولكنه حيث قال وقوله الحق قلنا بجوازه

(واما الثاني) فلا شك انه جاء مالا يحصى في القرآن والسنة المتواترة مما يدل على خلود الكفار في النار والعذاب دلالة واضحة لاخفاء فيها ودعوى عدم صراحة الآيات والاحاديث في دوام العذاب فهو بفرض تسليمه يرد بأنها ان لم تكن صريحة فيه فهي فيه ظاهرة وقد صرح الاصوليون بأن دلالة الظواهر الكثيرة على مايظهر منها قطعية. على أن قوله تعالى (ولهم عذاب مقيم) بعد قوله (وما هم بخارجين منها) كما ينفي موتهم فيها مع بقائها ينفي فناءها حيث وصف نفس العذاب الحاصل بالنار بأنه مقيم اي دائم ، ولولا هذه النكتة لم يكن له فائدة بعد قوله (وماهم بخارجين منها) كما لا يخفى

(وأما الثالث) فبني على أن الكفار أكثر من المؤمنين كما يقتضيه قوله تعالى (ولكن أكثر الناس لايؤمنون) فيكون المعذبون الخالدون أكثر من المنعمين فكيف تكون دائرة رحمته أوسع من دائرة عقابه؛ نقول ان هذه الكثرة بالنسبة الى بني آدم فقط وبنو آدم قليلون بالنسبة الى الملائكة والحور والولدان (وما يعلم جنود ربك الا هو * ويخلق ما لاتعلمون) فيكون أهل الرحمة أكثر أهل من أهل الغضب على ان أهل النار مرحومون في عذابهم فان ما عند الله من كل شيء لايتناهى وبعض الشر أهون من بعض ، وهم مختلفون في العذاب وان ظن كل واحد من أهلها انه أشد الناس عذابا لكن الكلام انما هو في الواقع ونفس الامر ، على ان الجميع ما داموا في دائرة الوجود والحياة فهم في دائرة الرحمة والفيض العميم ، فان كلا منهما من النعم التي يحافظ عليها الانسان ويتجشم لاجلها أبشع الادوية

(وأما الرابع) فلم يقل أحد ان التوبة تنفع في الآخرة فأما من تاب في هذه الدار دار العمل من الكفر فقد أبدل الكفر القبيح بضده الحسن اختيارا

منه وامتثالا لامر الله تعالى فهناك كفر قبيح زائل وايمان حسن ثابت وقد انضم الى هذا الايمان ندم على ذلك الكفر في دار ينفع فيها العمل أو يضر ويمكن للعبد باختياره ان يتدارك ما فاته من الاعمال الحسنة وان يندم على ما عمله من الاعمال القبيحة فيصير الكفر بهذا الايمان كأن لم يكن قال تعالى (ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) فلا بدع في مغفرة الله جودا وكرما ورحمة وفضلا، واما في الدار الآخرة التي هي دار الجزاء على الاعمال لا دار عمل فلا تنفعهم التوبة أصلا فقد اختلفت الداران وامتاز الفريقان (فريق في الجنة وفريق في السعير) وانتهى الأمد بعد الذي ضربه الله على لسان رسله للعمل وقبول التوبة وقد رأينا في هذا ان الدواء ينفع وقتا محدودا فاذا فات ذلك الوقت واستحكم الداء فلا ينفع الدواء

(وأما الخامس) وهو أهمها فسنبين بعون الله تعالى من وجوه الحكمة في دوام عذاب الكفار وعدم فنائها ما يكون ناقضا للاساس الذي بنى عليه ابن القيم تلك العلالي من مخالفة دوام العذاب للحكمة فنقول :أما حكمة النهي عن الشرور والوعيد عليها أي وعيد الكفار بتأبيد العذاب وغيرهم بالعذاب المؤقت فهي ارادة تقليل وقوعها حتى لا يفسد الكون ويتم له ما قدر من الاجل ونحن نرى المؤمن المصدق بوعيد الله ورسوله تصده الشهوات والشياطين عن الازدجار بالوعيد مهما بلغ من الشدة والصرامة اغترارا بكون العذاب مهما طال ينقطع فكيف بالكافر المكذب بالوعيد اذا كان العذاب الذي توعد به منتهيا أفيصح أن يكون توعدهم به زاجرا لهم عن كفرهم كزجر الوعيد بالعذاب الدائم؟ أفيبعد أن يكون العليم الحكيم قد علم أنه لو لم يجعل عذابهم دائما لما آمن من الناس من يكون ايمانهم مانعا من مصير الكون الى الخراب والفساد قبل انتهاء الاجل المقدر له؟ ثم في دوام عذاب الكفار دوام ظهور آثار طائفة من أسمائه تعالى كالقهار والمنتقم كما أن في بقاء نعيم المؤمنين بقاء آثار جملة أخرى منها كالجواد والكريم ومعلوم أن جميع مدلولات أسمائه تعالى صفات كمال يجب بقاؤها له وفناء النار وأهلها ينافي ذلك ،ولا جائز أن يقال يمكن أن يخلق بعد هذا الفناء خلق يكلفون فيعاقب المخالف منهم فيكون مظهر أسماء القهر لان هذا لم يقل به أحد ولم يدل عليه دليل(١) ثم من المعروف المألوف أن الانسان بعد

(١) (المنار) أليس من أسمائه تعالى الخالق البارئ والخلاق فكيف جزم بتعطيل أعلقها وخالف قوله في صفتي القهار والمنتقم على ان القهار ليس بمعنى المعذب =

طول النعيم عليه يصير نعيمه كاحد العادات ليس فيه كبير لذة واذا كان مسبوقا بالآلام نسيت الآلام بتتابع النعيم فلو فنيت النار وأهلها لخفت لذة أهل الجنة وقلت قيمة نعيمهم في نظرهم بعد طول العهد فكان في دوام تعذيب الكفار الذي استحقوه بكفرهم الذي لاحد لخبثه بعد اقامة الحجج وازاحة الاعذار دوام عظيم اغتباط المؤمنين بنعيمهم واستمرار كمال شكرهم لربهم ومعلوم ان المؤمنين اكثر جدا من الكافرين اذ منهم الملائكة الذين لايحيط بعشر معشار عشرهم الا خالقهم جل وعلا، وقد تقرر في المعقول أن ايجاد الشر القليل لاجل الخير الكثير خير وقد اعترف هو (ابن القيم) بنحو ذلك فظهر أن لدوام عذاب الكفار عدة حكم

(١) جعل العقاب بحيث يترتب على العلم به غايته التي أريد لاجلها من منع انتشار الكفر الى حد يفسد الكون قبل أجله المسمى

(٢) جعل العقاب مناسبا للجريمة في عدم التناهي لما علم من أن خبث الكفر لاحد له

(٣) دوام ظهور آثار الاسماء الالهية التي بها تتحقق الالوهية

(٤) دوام ابتهاج المنعمين بنعيمهم بالمقايسة بينه وبين ما فيه المعذبون وقد يشير الى هذا قوله تعالى (وبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا، وأن الذين لايؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما) فأدخل اعداد العذاب الاليم لغير المؤمنين في بشارة المؤمنين وما هذا الا لانه يعظم اغتباطهم بنعيمهم بالمقايسة بينه وبين عذاب أعدائهم. هذا وبقي أن بعض القاصرين يقول اذا كان المخلوق لا يسمح ببقاء عدوه في العذاب الصارم الطويل مهما بلغت عداوته له وان سمح عد غليظ القلب فكيف يسمح أرحم الراحمين بدوام العذاب البالغ غاية الصرامة؟ فنقول هذا قياس للغائب على الشاهد وهو فاسد فان المخلوق يتألم قلبه برؤيته المعاقب فاذا سعى في ازالة عقابه كان ذلك بالحقيقة سعيا في ازالة الالم عن نفسه والله تعالى متنزه عن القلب والانفعالات كما لايخفى. وبقي أيضا أن ماينقل عن بعض السلف وما يذكر في بعض كتب الصوفية بعدم الخلود في النار فذلك محمول قطعا على عدم خلود عصاة المؤمنين الموحدين في

= والانتقام يصدق بكل عقاب ورد عليه أسماء أخرى كالعفو والغفور أيضا

النار ومتى كان الكلام محتملا تعين حمله على ما لا يعارض القطعيات. هذا ما عن لي ذكره في هذا الموضوع الخطير مؤملا تحقيق الحق فيه والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ؟

ابراهيم محمد عريقات
امام وخطيب مسجد عز الدين
بيرنبال غربية

(المنار) قد أحسن الكاتب بالتزامه شروط المنار بحصر الكلام في موضوعه وجل ما ذكره قد سبق للمنار قول فيه وفي كثير من مسائله نظار أشرنا الى بعض ما يتعلق بالتفسير وأسماء الله منه لذاته لا لتعلقه بموضوع الرسالة فاننا وعدنا بعدم مناقشة المنتقدين في أصل هذه المسألة ، ولا يمنعنا هذا من ان نوجه نظره الى التأمل في الحكم الاربع هل الاولى واقعة والثانية ثابتة؟ وما حد الكفر المذكور فيهما؟ وهل اسماء الافعال كالقهار والمحيي والمميت ابدية كاسماء الذات خلافا للعلماء الذين قالوا بأبدية اسماء الذات فقط وما دليل ذلك؟ وهل تعذيب بعض العباد ليتنعم غيرهم أو ليزداد نعيمه بعذابهم من الحكم التي لا تنافي العدل ولا الرحمة وقوله تعالى (جزاء وفاقا) وقوله (لا يظلم مثقال ذرة) وأمثاله؟ وكون العقاب بالعدل والثواب بالفضل؟ وهل ملائكة الجنة من الذين ينعمون فيها جزاء على أعمالهم وما القول في ملائكة النار اذا ؟! نرجو أن يتأمل أخونا الكاتب الفاضل في ذلك كله حق التأمل وان شاء بعد ذلك ان يبين ما يحققه فيه بمقال فعل

رسالة أخرى بغير عنوان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تنزه عن الخطأ والنسيان ، وجعل ذلك في الانسان دليلا على كمال ربوبيته وانه الواحد الديان ، وأشهد ألا اله الا هو منزل القرآن بالوعد والوعيد على سيد الاكوان ، محمد خاتم النبيين وامام الغر المحجلين ، صلى الله عليه وعلى آله ومن اقتفى أثره واتبع سنته الى يوم الدين ، أما بعد فقد رأيت لاستاذنا العلامة صاحب المنار نقلا في فناء النار معزوا لابن القيم رحمه الله في كتابه حادي الارواح اعقب به تفسيره آية الانعام (ويوم يحشرهم الخ)

فدهشت من قول ابن القيم وأنكرت عليه ذلك القول كما أنكرت على استاذنا صاحب المنار نقله في مناره ونشره بين الناس وقد كتبت له في ذلك

وكتب لي وقد ذكر الاسباب التي دعته لايراد ما نقل : ولما رآني مصرا انكاري خاشياً عواقب هذه النقول على العامة كتب لي حفظه الله بأن أكتب مايدفع الضرر الذي أخشاه ربما يرود هو للموضوع نفسه في تفسير آية هو اذا كنت أظن أن المدة الى ذلك الوقت تطول ، فكتبت ماسيأتي مستعيناً متحريا الاختصار المفيد راغباً عن التطويل الممل الا مادعت اليه الحاجة. وقد البدء في كتابة ما أردت أقدم شكري لاستاذي العلامة السيد محمد رشيد سعة صدره لي وقبوله تصدي واحترامه رأيي (مع أني تلميذه) ولو لم يكن هذا الانتقاد الا بيان فضل الاستاذ السيد محمد استاذنا في سنة سنة أما أما الله لايحبون الحق ويخافون أن تظهر عيوبهم أو تنتقص شيوخهم — لو لم يك الا ذلك لكفاه فخراً ولا سيما أن المنتقد تلميذه وقد افسح له صدر منبا للانتقاد عليه وعلى شيخنا ابن القيم العلامة رحمه الله ، فليحي المنار وصاحبه رافعاً راية الحق مرشداً الناس اليه بالقول والعمل والسلام .

قال استاذي صاحب المنار بعد تفسير الآية على الوجه الا كمل وقد استو ذلك بالاسهاب المحقق ابن القيم في كتابه حادي الارواح فقال (فصل) وأما ابدية النار الخ وساق اقوالا سبعة وكأنه لم يرض الا القول السابع وهو فناؤ وقال — قال شيخ الاسلام وقد نقل هذا القول عن عمر وابن مسعود وأ هريرة وأبي سعيد وغيرهم وساق رواية عبد بن حميد في تفسيره. وطفق يقو السند بمـا يشيد من ذكر بعض الشيوخ ويقول وحسبك بهذا الاسناد جلا ونحن نقول له حسبك أن الحسن لم يسمع من عمر وان اعتذر عن ذلك بقوله وان لم يسمع من عمر الخ وجزم الحسن بصحة الخبر عن عمر ، بل صحته عن نفسه لو صح لم يجز التعلق به في مسألة سمعية اعتقادية غيبية ، زد على ذلك عمر ليس رسولا ولو كان رسولا وروي عنه بمثل هذا الاسناد المعلول لما لنا الاخذ به والتعويل عليه فما بالك وعمر رضي الله عنه ليس رسولا السند اليه صحيحاً وكيف يقول عمر هذا القول ويروى عنه وهو الذي عر شدته في الدين وهو الذى ضرب ابا هريرة في صدره بين ثدييه ضربة ألقاه استه وفي يده نعلا رسول الله (ص) اذ بعثه يخبر « من لقي الله يشهد ألا الا الله مستيقنا بها قلبه دخل الجنة » فذهب ابو هريرة مجهشا الى النبي (ص شاكيا له من عمر جاء عمر في خلف ابي هريرة فقال (ص) ماحملك على مافعلت

يارسول الله بأبي أنت وأمي أبعثت أباهريرة الخ فقال (ص) نعم قال فلا تفعل فاني أخشى أن يتكل الناس عليها فخلهم يعملون قال رسول الله (ص) فخلهم. هذا معنى مارواه مسلم في صحيحه: فهل عمر بعد هذا يقول مارواه عنه ابن حميد والحسن وأي الاسنادين أصح وأيهما أحق أن نأخذ به عن عمر: على أن شدة عمر في الدين لاتخفى على أحد ممن شم رائحة الاسلام

وقد روى عنه أنه كان يقول ياليت أم عمر لم تلد عمر وكان يقول ليتني شجرة تعضد ونحو هذا كثير في السير ثم كيف يقول هذا القول أبو هريرة وهو صاحب القصة ويتكلم في فناء النار وهو وغيره من الصحابة كانوا أحرص الناس على قول رسول الله (ص) وارغبهم عن الخوض فيما ليس لهم به علم وقد كان يكون عند بعضهم الخبر عن رسول الله (ص) يكتمه خشية افتتان الناس به فلا يفشيه الا عند موته تأثما؛ يعلم هذا كل من قرأ الصحيحين وغيرهما من كتب السنة ولست اظن ان ابن القيم لم ير ذلك وهو الامام الحافظ المطلع على ما لعلنا لم نطلع عليه ولم نره للآن ولكن لم يكن معصوما من الخطأ والنسيان. ومن لم يكن عنده علم باصطلاح المحدثين وتحريهم صحة السند وقولهم في الرجال وقبولهم الحديث الصحيح وردهم مالم يصح ولو كان في سنده أقل علة — من لم يكن عالما بذلك فحسبه مقدمة صحيح مسلم ليعلم ماشرطه وهو دون البخاري وهذا كله دائر حول حديث الرسول (ص) لاعمر ولا غيره

فلهذا يرى مريد الحق أن هذه الروايات غير صحيحة عن الصحابة رضي الله عنهم وهي أشبه بقول اليهود الذين غرهم في دينهم ما كانوا يفترون وأرادوا تغرير المسلمين وخدعهم: وقوله قال النبي (ص) ص١٨ من الجزء الاول منار (أما اهل النار الذين هم أهلها الخ فلم ندر حاله ولم يسنده ولم يعزه

... ثم قال ولا يناقض هذا قوله تعالى خالدين فيها وقوله (وماهم منها بمخرجين) هكذا قلت والصحيح وما هم بخارجين منها ولم أدر ممن الخطأ في الآية. لان (وما هم منها بمخرجين) قيلت في أهل الجنة من سورة الحجر فليعلم

يقول رحمه الله لا تناقض بين أخباره تعالى عن أهل النار بأنهم خالدون فيها وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم (بعد التصحيح) وبين فنائها: أي أن خلودهم فيها يكون مادامت — وبالله العجب ومن أين له عدم دوامها وقد دلت الآيات والاحاديث على بقائها باللزوم وان كانت لم تصرح ببقائها لانها

ليست مقصودة بالذات ولانها لم تخلق الا لاهلها فما داموا فيها فهي دائمة فهم المحور الذي يدور عليه الجزاء بقاء وفناء لا النار التي لم تكن لولاهم ولم توجد الا لهم فكيف عكس الامر رحمه الله وجعل الاخبار دائرة حول النار ولها. فان قيل انهم خلقوا لها كما قال تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس الخ) قلنا هذا يدل على بقائها أيضاً وكان خلقهم أدل على بقائها اذ قال الله تعالى (وماهم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم) وقد أخبر الله تعالى عن بقاء النار وأهلها بكل لفظ اخبر به عن بقاء الجنة واهلها يعلم هذا من قرأ القرآن وتدبره فكما قال تعالى في الجنة خالدين فيها ابداً كذلك قال في النار فلا يستطيع أحد بعد هذا ان يوجد فرقاً بين الخبرين واللفظ واحد ولئن قال في الجنة (عطاء غير مجذوذ) فقد قال في النار (عذاب مقيم) بل قال في الجنة بهذا اللفظ (نعيم مقيم) ولا ريب ان النعيم المقيم هو وغير المجذوذ شيء واحد في الدلالة زد على ذلك أن الله تعالى اخبر أن اهل النار لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وهذا نحو قوله لايدخلونها أبداً وليس بعد هذا قاطع لاطماع الطامعين في الجنة الهاربين من النار فقد عبر لهم بأعظم محال وهو دخول جسم عظيم في خرق صغير ، ومتى يلج الجمل في سم الخياط ويسوغ في العقل دخوله فيه حتى يسوغ دخول الجنة لمن ليس من اهلها ولم يخلق لها ايكذب الله نفسه أم تكون عبثاً حكمته . يقول (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس؟ ثم يعيدهم الى الجنة) هذا محال وقد ذكرنا ماقالوه في الاستثناء (بالا ماشاء الله) ورد أقوالهم كلها ولم يختر الا الوجه الذي يدل على مخالفة الا لما قبلها وذكر المشيئة هنا وفي هود دال على ثبوت هذه الصفة لله تعالى لاغير وانه لامكره له فيما يفعل وقد اكد هذا المعنى في سورة هود بقوله تعالى (ان ربك فعال لما يريد)وكثيراً ماتذكر المشيئة في القرآن لهذا الغرض كقوله تعالى (وما تشاءون الا ان يشاء الله) ومن اهل العربية من قال في استثناء سورة سبح (سنقرئك فلا تنسى الا ماشاء الله) ـ وهو كالذي هنا ـ لم يشأ الله أن تنسى شيئاً وذكر ابن جرير هذا القول وقال وهو كقوله (خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك) ولا يشاء قال وانت قائل في الكلام لاعطينك كل ماسألت الا ماشئت والا ان أشاء ان أمنعك والنية ألا تمنعه ولا تشاء شيئاً قال وعلى هذا مجاري الايمان يستثنى فيها ونية الحالف التمام اه

وترى المحدثين يقولون في السند صحيح ان شاءالله ويذكرونها غير مقصود بها تعليق شيء عليها بل يذكرونها فيها وقع تبركا واستذكاراً أن ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن وهو سبحانه لا يشاء الا ما وافق الحكمة

فأنت أيدك الله ترى أن الاخبار عن الصحابة غير ثابتة ولو ثبتت لما كان فيها دليل على الفناء بل تؤول على الخارجين منها وترى الآيات القرآنية مصرحة بخلود وأبدية أهل النار فيها وان الجنة محرمة عليهم ودخولها محال عليهم كدخول الجمل في سم الخياط ولئن لم تدل هذه الآيات على كثرتها وذكر ألفاظ بقاء اهلها فيها وتنوعها من الخلود للاقامة للابدية الى غير ذلك — لئن لم تدل على بقاء النار وعدم فنائها بالمطابقة فلعمر الله لتدلت عليه باللزوم والاضطرار كدلالة وجود السقف على الجدار : فما داموا خالدين فيها أبداً فهي خالدة أبداً الا ان ادعى مدع أن خالدين وأبداً ومقيما وما شاكلها لاتدل دائما على البقاء وعدم التحول فيكون لنا اذن أن نرد هذه الدعوى بالكتاب والسنة أيضاً واللغة التي بها نزل كتاب الله . وسننقض ماعدده ابن القيم رحمه الله من الاوجه في فناء النار وما أورده من الشبه ان اتسع المنار لذلك وما قصدنا الا ازالة شبه الذين يغترون بقوله والبقية تأتي ان شاء الله

عبد القاهر محمد ابو السمح
معلم برمل الاسكندرية

(المنار) نشرنا هذه الرسالة بنصها وفيها تكرار وتطويل بالاستطراد ليس من الموضوع كالكلام في شدة عمر في الدين وضربه لابي هريرة على تبليغ الصحابة حديثا صحيحا حدث به بعد ذلك ونقله أئمة الحديث وغيرهم حتى الكاتب لمن يخشى عليهم من الغرور والاتكال مالم يكن يخشى على اصحاب الرسول (ص) ورضي عنهم ، وكان جمهور الصحابة ينكرون على عمر هذه الشدة ولا حاجة الى هذه الخطابيات مع انكاره صحة الرواية عن عمر وعدم الاحتجاج بقوله فان دفع هذه الخطابة سهل بأن يقال اذا كان عمر قد قال ذلك فما قاله وحاله ما ذكر الكاتب الالثبوته عنده واعتقاده انه لافتنة في ذكره وكذا أبو هريرة فلعله في بقية الرد يجتنب التكرار والاستطراد وحكاية أقوال ابن القيم على الطريقة التي جرى عليها في هذه اسبذة فان القراء لا يراجعونها ليفهموا المراد وخيرمنها ان يقسم الكلام الى مسائل يبين ما يراد الحق فيها

الرحلة السورية الثانية

٥

حال مسلمي بيروت الاجتماعية

قد أصاب مسلمي بيروت في سني الحرب ما أصاب سائر الطوائف في جميع البلاد من تأثير مفاسدها التي أشرنا اليها في الفصول السابقة ولكن حسنات حالهم الاقتصادية فسبقوا غيرهم بمراحل وهم وان كانوا مع اخوانهم في الوطن فرسي رهان في البراعة بالتجارة قد امتازوا على النصارى واليهود في زمن الحرب بكون نقودهم في صناديقهم ونحل نقود أولئك في المصارف الاوربية التي انقطعت المعاملة بينها وبين البلاد العثمانية وبكونهم أجرأ على المجازفة فاتسع جاههم وعظم ربحهم واشتروا أملاكا عظيمة في بيروت ولبنان وليس بعلوم ما نعني من عقد هذا الفصل وانما عقدناه للالمام بحالتهم العلمية والاجتماعية

كانت بيروت في السنين الخالية دون دمشق وطرابلس في العناية بالعلوم العربية من شرعية وأدبية وانما كان يمتاز فيها في الجيل أو الاجيال الواحد بعد الواحد كالشيخ محمد الحوت الكبير الذي فاق علماء سورية المتأخرين بالعناية في علم الحديث والشيخ أحمد البربير في اللغة والادب وانتهت الشهرة في الجيل الماضي الى ثلاثة من فقهائها وأدبائها الشيخ عبد الباسط الفاخوري المفتي والشيخ يوسف الأسير والشيخ ابراهيم الأحدب وهذان طرابلسيا المولد والنشأة واختارا الاقامة في بيروت بعد ان تخرجا في طرابلس بالشيخ عبد الغني الرافعي الشهير. وليست بيروت الآن بأقل من طرابلس في عدد طلبة العلوم الشرعية والعربية ولا في أصنافهم فيها ولكن دمشق تفضلهما في ذلك بما ستذكره بعد.

وأما الحال الاجتماعية فقد نجد فيها للمسلمين ثلاثة أمور ذات شأن كبير (أحدها) في ترقي النساء المدني (والثاني) الاستعداد للاتفاق مع النصارى والاتحاد الوطني معهم (والثالث) الميل الى مجاراة من حولهم في التعليم والتربية المدنية وانتا نقول في كل منها كلمة

مسلمات بيروت

كانت المسلمات في بيروت أشد محافظة على التقاليد القومية من أمثالهن في سائر المدن السورية فلم تؤثر فيهن عوامل التفرنج الذي غلب على

النصارى لا النافر الصالح منها ولا الضار المفسد ولا سوامل التترك الذي سرى الى مسلمات دمشق ، فكن أشد مسلمات سورية جمودا وكان رجالهن راضين بذلك، ثم رغبوا في تعلم البنات فأنشأوا لهن مدارس ابتدائية وانشأت الحكومة العثمانية مدرسة للبنات في بيروت كان جميع تلميذاتها من المسلمات لان النصارى لا يرغبون الا في مدارس الافرنج ثم وجد في بعض شبان المسلمين الذين تعلموا في المدارس الاوربية والامريكية وأثر فيهم التفرنج ميل فرنجة النساء كان الرأي الاسلامي العام يقاومهم فيه وما زال صديقنا الاستاذ الشيخ مصطفى نجا مفتي بيروت زعيم هؤلاء المقاومين على عنايته بتعليم البنات واشرافه عليه في عدة مدارس حتى انه شديد الانكار على تعليمهن العزف بآلة (البيانو) التي لا يكاد يخلو منها بيت من بيوت الطبقات الوسطى في مصر دع الطبقات العليا في الثروة . ولما عني الاتحاديون من الترك بافساد آداب مسلمات سورية جريا على خطتهم التي جعلوا من أوائل قواعدها أن الامة لا يمكن تحويلها من حال الى حال الا بهدم عقائدها وأخلاقها وآدابها وتقاليدها — وجهوا كثيراً من هذه العناية الى مسلمات بيروت وحاولوا تعويدهن السكر والتهتك مع مخالطة الرجال فكان الرأي العام وتشدد المفتي وانصاره مضعفاً لتأثير هذه العاصفة التي كان يخشى ان تدمر الدين والآداب تدميراً لا تقوم للامة بعده قائمة الا باصلاح جيل جديد اذا تيسرت وسائل الاصلاح

لا شك في أن عاداتنا وتقاليدنا القومية في النساء والرجال منها ما هو حسن وهو بقايا آداب الشرع واصلاح الدين ومنها ما هو قبيح ضار يجب تغييره بالتدريج — وفي أن ما يراد من التغيير والتجديد في الامة منه ما هو حسن نافع لا يمكن للامة الاسلامية ان تجاري سائر الامم في سعة العيش والعزة والاستقلال بدونه، ومنه ما هو قبيح ضار مفسد لامري الدين والدنيا جميعاً ، ومن سنن الاجتماع المطردة في البشر أن الافراط في الامور المتقابلة تظهر به مزية الوسط المعتدل بينها وان استمداد الجمهور الاعظم هو الذي يرجح أحد الطرفين المذمومين أو الوسط المحمود في العمل، والذي رأيته أن حظ بيروت في المسألة النسائية كان أقرب في هذا الطور الى الاعتدال

في كل طبقة من المحافظين والمتفرنجين والمتوسطين افراط وتفريط واعتدال ففلاة الاتحاديين أمرهم فرط اذ كانوا يرون التعجيل بابطال جميع

العقائد والعبادات والعادات وتكوين الامة تكويناً جديداً في كل ش
وزعيمهم الدكتور ناظم وطلعت باشا . وكان من المعتدلين منهم أنور با
اذ كان يرى احترام الشعائر الدينية والاستفادة من الرابطة الاسلامية بدلا
قطع روابطها ويعتقد بعض عارفي أمره أنه صار بمقامه في برقة صحيح المعتقد
محافظاً على الصلوات ايماناً واحتساباً لا سياسة ورياء وبذلك اتسعت مسافة الخلا
بينه وبين أولئك الثلاة وزعيميهم . ومن رجالهم المعتدلين عزمي بك الذ
كان والياً على بيروت في زمن الحرب وقد رأيت الناس فيها معجبين بما كا
عليه من الحزم والعزم والعدل والدقة في النظام ويرون انه لو كان عند الدو
كثير من أمثاله لتاقت بها دول أوربة

وجه عزمي بك عنايته في بيروت الى ترقية المسلمات في الحضارة العصر
بالتدريج الذي تؤمن معه الفوضى الادبية وتعويدهن حضور مجامع الرجا
العلمية والادبية وسماع ما يلقون فيها من الخطب المفيدة والشعر العصر
واسماعهم ما تجود به قرائح المتعلمات منهن ، ومشاركتهن لهم في الامو
الاجتماعية — ولولا أن وجد في بيروت احمد مختار بك بيهم يساعده على ذلك
لضاع عزمه وخاب سعيه على ما أوتي من قوة ارادة وسلطة كادت تكون مطلق

كان لاحمد مختار بك بيهم جماعة من المزايا لم تجتمع في وطنه لغيره في عصره
كان على كرامة بيته ومكانة عشيرته ذكي الفؤاد طلق اللسان جريء الجنان
صادق الوطنية والغيرة القومية عالي الهمة كبير المروءة حسن المعاشرة عارفا
بزمانه وفيا لاصدقائه ، فكان بذلك من زعماء مسلمي بيروت الذين يرجع
اليهم في المهات كما كان محترماً عند سائر الطوائف بآدابه وحسن معاشرته
فكان الناس يحبونه ويحترمونه ويحسنون الظن باخلاصه حتى فيما ينكرونه من
شذوذ في بعض اعماله وميله الى التفرنج ، فلم يكونوا يتهمونه بأنه يقصد بهذا
اضعاف مقومات امته ومشخصاتها الملية ولا تقوية النفوذ الاجنبي فيها فهذه
المكانة التي كان يعرفها لنفسه في قومه جرأته على مواتاة عزمي بك ومساعدته
على ماقصد اليه بل استعان كل منهما بنفوذ الآخر على عمل يريانه نافعاً للمسلمين .
بل لابد لهم منه في حياتهم المدنية العصرية ، بل كانا يريان ان نساء المسلمين لابد
أن يتركن الحجاب ويجارين غيرهن من نساء الملل في الحضارة العصرية وان الخير
لنا أن نبني ذلك على أساس متين ، أي جامع بين مصلحة الدنيا وصلاح الدين ،

والافضل التيار المصري فعله فينا بغير اختيار منا فكان اثره اكبر من نفعه

أنشأ الزعيمان نادياً للنساء في سنة ١٣٣٥ (١٩١٧ م) وألفا له جمعية من كرائم المتعلمات منهن باسم (جمعية الامور الخيرية لفتيات المسلمات) ثم أسس هؤلاء الكرائم مدرسة لتعليم البنات ، وكان النادي يعقد اجتماعات نسائية يحضرها النساء والمستحسنون لهذا العمل من الادباء والاطباء ويلقون فيها الخطب والدروس التي اصطلح كتاب العصر على تسميتها بالمحاضرات، ويسمعون من اعضاء النادي الكرائم مايلقينه فيه ويتحدثون معهن في المسائل الادبية والاقتصادية والصحية وتدبير المنزل والتربية ، وانما يكن مع الرجال سادلات على وجوههن النقاب الاسلامبولي الاسود لاسافرات، ويجلسن في جانب والرجال في جانب. فهن قد سبقن في بدايتهن نساء مصر الى هذه المحافل والمجامع التي كان يتمناها قاسم أمين واخوانه من زهاء ربع قرن مع مبالغتهم في الحجاب وكثافة النقب، حتى ان بعض الاوانس من أعضائه حضرن حفلة ذكرى مرور قرن على المعلم بطرس البستاني في الجامعة الامريكانية ببيروت وألقت فيها انسة سلام وعادلة بيهم فيها ما جادت به قرائحهن في الموضوع على الجم الغفير من الرجال والنساء

دعاني احمد مختار بك رحمه الله (١) الى زيارة هذا النادي والقاء النصائح والحكم فيه تعضيداً له وارشاداً للسيدات المسلمات فانهن يتمنين الاستفادة مني كالرجال . وقد جرت العادة بأن ألقي في بعض مساجد بيروت وجامعها خطباً ودروساً في كل زيارة من زياراتي لها فاجبته الى ذلك ،

زرت النادي أولا ثم أجبت دعوته الى القاء نصيحة عامة فيه وكان هذا في يوم مشهود حضره بالدعوة كثير من النساء والرجال ومنهم من لم يكن يلم به ولا يسمح لاحد من اهل بيته بالالمام به والقيت فيه خطابا مطولا ذكرت فيه خلاصة وجيزة عن حال النساء في مصر وفوائد نهضتهن وغوائلها، وما ينبغي للمسلمات السوريات في بيروت وغيرها من الاعتبار بها، وبينت فيه حالة العصر الاجتماعية وماينبغي للمرأة المسلمة فيه من الجمع بين فضائل دينها وآدابه ومعرفة مايجب عليها لبيتها ووطنها وامتها، وما يجب من تقديم الاهم فالاهم وهو تدبير المنزل وتربية الاولاد ومايتوقفان عليه من العلوم الكثيرة. فنال هذا الخطاب استحسان جميع

(١) توفي في العام الماضي فكان لوفاته وقع أليم في بيروت ... فيه سائر البلاد السورية وقد احتفل بجنازته بما لم يسبق له مثل في ذلك القطر

الاحزاب المختلفة في هذا الموضوع . وانني انشر هنا ما ألقته رئيسة (جمعية الامور الخيرية للفتيات المسلمات) التي تدير المدرسة والنادي السابق ذكرها ترحيباً بي ، وسأنشر في فرصة اخرى بعض ما ألقي في حفلاته السابقة ليقف قراء المنار على افكارهن ودرجة تقدمهن

ترحيب الرئيسة الفاضلة

سيدات النساء وسادة الفضل

ان جمعية الامور الخيرية للفتيات المسلمات ترحب اليوم بضيفها الكريم العالم الفاضل صاحب السيادة الاستاذ رشيد رضا فهو الخطيب البليغ الذي طالما لهجت الالسن بذكر مناره الذي أضاء العالم الاسلامي بابحاثه العلمية المفيدة ، وقد رأيناه عند اجتماعنا به للمرة الاولى في مدرستنا خير نصير للمرأة اذ افاض علينا من بعض حكمه مايجعلنا نزداد نشاطا بأن نعيد مجد السلف الصالح فنستمد منه تلك القوة الادبية والمعارف السامية التي طالما تاقت النفوس اليها . ولنضم الى ذلك ما يلائم حالتنا وتقاليدنا من الرقي العصري ، حباً بالاستفادة من ينابيع علمه وفضله فقد قامت هيئة جمعيتنا بدعوة حضرته ليلقي على مسامعنا محاضرة علمية تكون خير ذكرى يحفظها نادينا لسيادته .

فباسم جمعيتنا أقدم الشكر لسماحته ولكل من يعاضد صروح العلم والادب ونخص منهم بالشكر حضرة الوطني الغيور الوجيه الفاضل السيد عارف النعماني الذي تبرع بمبلغ مائتي ليرة لمدرستنا لتصرف في سبيل تعليم الفتيات البائسات اللواتي يدعين الى الله بأن يديمه عضداً للاحسان . فسلام على كل روح أرقت لاعلاء الوطن وأهله . بيروت ١٢ ربيع ١ سنة ١٣٣٨ خديجة بيهم

خطبة النابغة الفاضلة الآنسة عنبرة سلام

سيداتي الكريمات وساداتي الافاضل

خلق الانسان للجهاد في هذه الحياة، فهو لا يزال يكافح الخطوب وينازل العثرات ، فتارة يروح تحتها، وتارة تكون له الغلبة عليها . وهو دائماً في نزاع مستمر مع القوى المحيطة به . ولكنه اما ان يجاهد في كسب معاشه وموارد رزقه فيدل على أنه انسان حي في جسم المجتمع البشري، واما أن يقوم بالنصرة العامة على طرق مختلفة، وأشد هذه الطرق صعوبة ما كان يقصد منها تغيير معتقدات فاسدة كنت في نفوس الناس أجيالا طويلة حتى قيض الله نابغة يعالج

هذه المنتقدات ويكافحها بأحسن منها فهو العالم الحكيم والمجاهد العظيم .

لقد مضى على الامة الاسلامية حين من الدهر كانت تكتنفها به الجهالات وتعمل في أعضائها ايدي الفساد فقد ابتلاها الله بمن أضاعوا رشدها وأضلوها سواء السبيل . أولئك قوم نصبوا أنفسهم لهدي الامة فضيقوا عليها المسالك وأفهموها الدين بصورة لاتنطبق على الدين الحنيف بشيء، فخدروا أعصابهـا، وأضعفوا بنيانها، حتى جاد الله عليها بحكماء ينبهون أعصاب العامة ويهدءون روع العقلاء، فأنجبت الافغان للامة ركناً وسنداً . وتعدتها مصر الكريمة عضداً ومرشداً، ولم تكن سوريا بأقل منها حظاً، بل هي تفتخر بأن كان من أبنائها من غدا للامة هادياً، ولضعفها مداوياً، تتجه نحوه آمال المسلمين في أقطار المعمور فيجدون به مضيء سبيلهم والآخذ بأيديهم الى محجة الصواب . ان الامة الاسلامية بحاجة الى من يفهمها الدين المبين بأسهل الطرق وأقربها تناولا . اننا بحاجة شديدة الى علماء يوفقون بين الدينيات ومبادىء العمران التي وضعت عليها اساسات الدين فلا يجعلون الدين بمعزل عن كل مامن شأنه ان يدعو الى الحضارة والتقدم حتى يخال للناظر البعيد (كاللورد كرومر مثلا ذلك الرجل العظيم الذي لم يكلف نفسه مؤنة البحث بل اكتفى أن حكم على الاسلام بالمسلمين) انه ينافي روح العصر والمدنية وهو الدين الكريم الذي ملأ الارجاء نوراً ونفخ في العالم روح حياة مدنت الامصار

ولن تنسى الامة الاسلامية ماأحدثتها في نفسها تعاليم المرحوم السيد جمال الدين الافغاني الذي نسميه بحق المصلح الكبير وفيلسوف القرن الاخير . والذي جدد للاسلام رونقه وبهاءه . وقد لاقى في حياته الاصلاحية من العثرات ما يثني عزم الضعيف ويشحذ همة العظيم . فر عليها جيماً مطلياً شأن الدين ومثبتاً فلسفته الدينيـة على أمتن الاركان حتى شهد له فلاسفة العالم الاوربي بمقدرته الفائقة وعلو كعبه في مباحثه الدقيقة فأحلوه من الاكرام المقام الاسمى وكان من النوابغ الذين لاتجود بهم الطبيعة في كل حين.

ثم داوم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ذلك الجهاد بتعاليم ترق للنفوس فتغذيها بأبدع الاساليب ففسر آيات الكتاب المجيد بصورة سهلة رائقة وعبارات بسيطة واضحة لم يسبق لها مثيل اهتز لها العالم الاسلامي اجلالا واعجاباً وان من فتاويه الكثيرة لما يأخذ بالالباب . ولست بالمحدثة الشهيرة فأحدثكم عن تعاليمه

ومباديه، أو أروي فلسفته وفتاويه، بل يروق لي أن أذكر هنا قصة صغيرة تدل على الاساليب البسيطة التي سار عليها الاستاذ الامام وتدرج في سبيلها الآن سماحة خلفه استاذنا الكبير: «أسلم أحدهم مرة فجاء الاستاذ الامام يطلب اليه فقيهاً يعلمه أصول الدين فمضى عليه عدة أيام وهو يملي عليه الشروح عن الماء الطاهر منه وغير الطاهر أو المطهر. فجاء بعدها يشكو أمر هذه الشروح الطويلة الى الاستاذ رحمه الله فأجابه «اذهب يابني فالماء الذي تشرب منه توضأ به». على هذه الطريقة السهلة الفنية يثبت في أذهان القوم الدين القويم، ويسايرهم الى الاصلاح على صراط مستقيم. وقد جاهد رحمه الله في اصلاح شأن الامة في عدة سنين ما أفسده عليها غيره في قرون، فقال عنه السيد الافغاني « انه لمصر أعز من جيش وأقوى من أسطول» وكان للامة بأجمعها معززجيوش عمرانها وقائد أساطيل تجدد بنيانها.

ولم تحرم الامة بعدهما يداً قوية على الاصلاح ولاعدمت همة عالية تلم شعثها وتقوم معوجها، فكان من فضيلة الاستاذ الكريم الذي تتشرف بالاحتفال به اليوم ومن مناره الاغر أمتن رابطة بين المسلمين في انحاء الارض المترامية الاطراف. يؤثر في نفوسهم بجهاد متواصل عرفه له الخاص والعام: فقام أهل الهند يحتفلون به ذاك الاحتفال الكبير يظهرون به مشاعرهم نحو المجاهد العظيم. وقامت البلاد الاسلامية تردد صدى آرائه السامية وتقدم لجهاده ألوية شكرها وثنائها. وأقر له بالفضل كثيرون، وشهد بجهاده العظيم الطبيعيون، فذكر الدكتور شميل في كتابه فلسفة النشوء والارتقاء مايعانيه استاذنا الكريم في سبيل افهام جهلة المسلمين وعامتهم واصلاح أحوال دينهم ودنياهم. واننا جميعاً نعتقد بان اصلاحاته آمالنا لما له في القلوب من المقام الرفيع ولان لعلماء الدين من المقدرة على السير بالامة الى أحسن سبيل والاخذ بها في معارج الرقي ما ليس بقدرة غيرهم القيام به. فعلى علماء الامة تعلق الامة الرجاء، يتقدمهم نبراسها المضيء بمناره الوضاح.

وان لي اخيراً رجاء أقدمه لسماحة صاحب الفضيلة والفضل وهو توجيه عامة المسلمين الى حالة المرأة وحثهم على الاهتمام العظيم بأمر رقيها واصلاح شأنها لانها أم الامة وبيدها تغرس شجيرات الخير والصلاح فليأخذوا بها في سبيل الفلاح بطريقة مثلى وليمدوها للسير الى ما تتطلبه طبيعة الايام مع المحافظة التامة على اخلاقنا الاساسية فيكون لها في رقي الامة شأن وتكون في اصلاحها .

العون والمساعد . واني أرجو الله أن يبقى لهذه الامة عالمها الكبير يحمل لواء جهاده العظيم في رأسه قبس تستضيء به الامة جمعاء في مشارق الارض ومغاربها

٤ ديسمبر سنة ١٩١٩ عنبره سلام

المسألة المصرية في طورها الاخير

[illegible] سعد باشا زغلول الوفد المصري وفي لجنة لورد ملنر وما كان من أمرها مع الوفد ولجنة الوفد التي جاءت من باريس لعرض المشروع على الامة وخلاصة رأي الامة فيه

ثم ان تقرير لجنة ملنر صدر رسميا بنصه في ١٢ جمادى الآخرة هذه السنة (٢٠ فبراير سنة ١٩٢١) وفيه فوائد وعبر كثيرة رعا نلم بشيء منها في فرصة أخرى ، وتلا صدوره بلاغ رسمي من الحكومة البريطانية هذا نص ترجمته

القاهرة في ٢٦ فبراير سنة ٢٩٢١

الى حضرة صاحب العظمة السلطان بسراي عابدين

ياصاحب العظمة

لم أتأخر عن ابلاغ حكومة جلالته الرأي الذي أبديتموه عظمتكم مرارا عن ضرورة وصول الحكومة الى قرار في موضوع اقتراحات اللورد ملنر يتفق مع أماني مصر والشعب المصري تلك الاماني التي اشتهر عطف عظمتكم عليها

ويسرني أن أبلغ عظمتكم قرار حكومتي واني متأكد ان هذا القرار يطابق رأي عظمتكم وهي تعيين وفد رسمي لاجل الشروع في تبادل الآراء مع حكومة جلالته فيما يختص بالاتفاق المنوي عقده

واني أود بصفة خاصة أن أوجه نظر عظمتكم الى روح حسن النية الذي أظهرته حكومتي بقبولها التساهل في أمر الغاء الحماية قبل المفاوضات الرسمية

وستقدرون عظمتكم أن هذا التساهل الكبير دليل صريح على الاهمية التي تعلقها حكومتي على اقامة علاقاتها مع الشعب المصري على أساس ودي دائم

وهذا نص قرار حكومتي الذي كلفت ابلاغه الى عظمتكم

« ان حكومة جلالة الملك بعد درس الاقتراحات التي قدمها اللورد ملنر استنتجت ان نظام الحماية لا يكون علاقة مرضية تبقى فيها مصر نحو بريطانية العظمى . ومع ان حكومة جلالته لم تتوصل بعد الى قرارات نهائية فيما يختص

باقتراحات الوفد ملنر فانها ترغب في الشروع في تبادل الآراء في هذه الاقتراحات مع وفد يعينه عظمة السلطان للوصول اذا أمكن الى ابدال الحماية بعلاقة تضمن المصالح الخصوصية التي لبريطانية العظمى وتمكنها من تقديم الضمانات الكافية للدول الاجنبية وتطابق الاماني المشروعة لمصر والشعب المصري »

واني أغتنم هذه الفرصة فأكرر لعظمتكم تأكيد احترامي الفائق » (انتهى)

وبناء على هذا البلاغ والاتفاق غير الرسمي في لندره على ان يكون عدلي باشا يكن هو رئيس الوزارة التي تتولى تأليف الوفد الرسمي الذي يعقد الاتفاق بين انكلترة ومصر لستقالت وزارة محمد توفيق باشا نسيم وألف عدلي باشا الوزارة بالامر السلطاني كما ترى :

﴿ الامر السلطاني لعدلي باشا يكن بتأليف الوزارة ﴾

عزيزي عدلي يكن باشا

لقد كان من أقوى بواعث السرور لدينا ابلاغ أمتنا المحبوبة قرار الحكومة البريطانية الذي تبلغ الينا بواسطة حضرة صاحب المقام الجليل مندوبها السامي فيما يتعلق بالغاء الحماية وتعيين وفد رسمي من جانبنا للمفاوضة في وضع اتفاق بين البلدين وانا لنبتهج لهذا القرار الذي فتح الطريق لتحقيق الاماني القومية

وبما لنا في ذاتكم من الثقة الكاملة قديماً وما نعهده فيكم من الروية الصائبة التي تستدعيها مهام الامور قد اقتضت ارادتنا السلطانية توجيه مسند رآسة مجلس وزرائنا مع رتبة الرآسة الجليلة لعهدة لياقتكم . . وأصدرنا أمرنا هذا لدولتكم للاخذ بتأليف هيئة وزارة جديدة تقوم باتخاذ الوسائل السياسية التي تقتضيها الظروف الحاضرة وعرض مشروعه لجانبنا لصدور مرسومنا العالي به

واني أضرع الى الله عز وجل بان يجعل التوفيق رائدنا فيما يعود على بلادنا ورعايانا بالخير والسعادة بحوله تعالى وقوته

٦ رجب سنة ١٣٣٩ (١٦ مارس سنة ١٩٢١)   (فؤاد)

(جواب حضرة صاحب الدولة عدلي يكن باشا)

ياصاحب العظمة : أتقدم لعظمتكم بجزيل الشكر على ما أوليتموني من الثقة العالية اذ تفضلتم بتكليفي بتأليف الوزارة في الظروف الحاضرة وشرفتموني بتقليد رتبة الرآسة .. لقد كان لي من جليل عواطف عظمتكم اكبر مشجع على قبول [illegible] المهمة ووضع اخلاصي كله في خدمتكم وفي خدمة البلاد

لذلك أتشرف بأن أعرض على عظمتكم أسماء الوزراء الذين تتألف منهم الوزارة وقد قبلوا مشاركتي في العمل حتى اذا صادف ذلك الاستحسان العالي يصدر الامر الكريم بالتصديق عليه

حسين رشدي باشا نائب مجلس الوزراء عبد الخالق ثروت باشا وزير الدخلية
اسماعيل صدقي باشا وزير المالية أحمد زيور باشا وزير المواصلات
جعفر والي باشا وزير المعارف العمومية أحمد مدحت يكن باشا وزير الاوقاف
محمد شفيق باشا وزير الاشغال العمومية والحربية والبحرية
نجيب بطرس غالي باشا وزير الزراعة عبد الفتاح يحيى باشا وزير الحقانية

ان الوزارة ستجعل نصب عينيها في المهمة السياسية التي ستقوم بها لتحديد العلاقات الجديدة بين بريطانيا العظمى وبين مصر الوصول الى اتفاق لا يجعل محلا للشك في استقلال مصر وستجري في هذه المهمة متشبعة بما تتوق اليه البلاد ومسترشدة بما رسمته ارادة الامة وستدعو الوفد المصري الذي يرأسه سعد زغلول باشا الى الاشتراك في العمل لتحقيق هذا الغرض

ومما يوجب الارتياح أن تصريح الحكومة البريطانية بان المفاوضات ستجري على اساس الغاء الحماية من شأنه ان يسهل مهمة الوزارة من هذه الوجهة فان ذلك التصريح الذي يدل على حسن استعداد بريطانيا العظمى مما يدعو الى الامل بأن المفاوضات التي ستحصل بهذه الروح ستفضي الى اتفاق محقق للاماني الوطنية وتكون فاتحة عصر جديد بين البلدين شعاره المودة وتبادل الثقة وسيكون للامة على لسان الممثلين لها في الجمعية الوطنية القول الفصل في هذا الاتفاق

وبما أن هذه الجمعية ستكون أيضاً بمثابة جمعية تأسيسية فان الوزارة ستأخذ على عاتقها تحضير مشروع دستور موافق للمبادىء الحديثة للانظمة الدستورية وستحاط الانتخابات لهذه الجمعية بكل الضمانات التي تكفل تمام حريتها وتنظم بكيفية تحقق تمثيل رأي الامة تمثيلا صحيحاً

وفي هذا المقام تعرب الوزارة عن اعتقادها بأن الظروف الحاضرة تبرر الاسراع في الرجوع الى النظام العادي وبأنها ستتمكن بفضل نفوذ عظمتكم من رفع الاحكام العسكرية والغاء الرقابة في القريب العاجل . وانا نعتمد على حكمة الامة في تسهيل هذا العمل الذي يحقق نجاحه اعز أماني الوزارة

واننا لندرك حق الادراك ماتحتاج اليه البلاد من الاصلاحات الكبرى

بيد أننا لتمسكنا باشتراك الامة في وضعها نمتنع عن كل تغيير جوهري قبل تنفيذ النظام النيابي الجديد . على أننا بتأييد عظمتكم لنا سنعنى بادارة أمور البلاد وننشط في خير الطرق واصلحها للمحافظة على مرافقها وتوسيع نطاق رقيها وستكون المسألة الاقتصادية الحاضرة موضوع اهتمامنا العظيم .

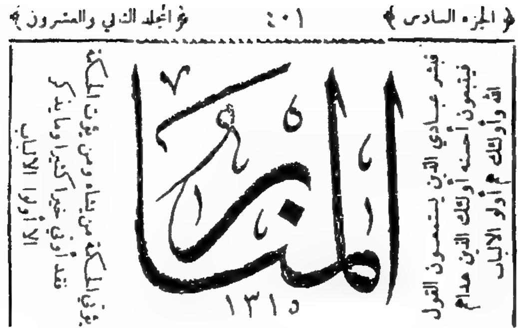
هذا وان الوزارة على يقين من أن هذا المنهاج يوافق المقاصد التي مازالت عظمتكم تصبو اليها لخير رعاياها وهي مع ماتشعر به من عبء المسئولية الملقاة على عاتقها تأمل الوصول بمهمتها الى النجاح المنشود ممتزة بعطف وتعضيد عظمتكم ومعتمدة على ثقة البلاد .

وانی لعظمتکم العبد الخاضع المطيع والخادم المخلص الامين

القاهرة في ٧ رجب سنة ١٩٢٣ (١٧ مارس ١٩٢١) عدلي يكن

وقد قابل الشعب هذا البيان بالسرور والابتهاج لتصريحه بالسعي الى الاستقلال الذي لاشك فيه بالاتفاق مع الوفد الذي يرأسه سعد باشا زغلول وفقا لرغائب الامة بل تنفيذا لمطلبها والغاء الاحكام العرفية التي كان قد اشتد ختامها بمحاكمة الوطنيين الذين اتهموا بالارهاب والانتقام من المخالفين لهم في اثر مظاهرات سنتي ١٩١٩ و ١٩٢٠ وحكم بالاعدام على أفراد منهم في مقدمتهم عبد الرحمن بك فهمي سكرتير الوفد المصري ذو المكانة العالية في وطنيته ولكن بدل بحكم الاعدام الحكم عليه بالاشغال الشاقة خمس عشرة سنة . وقد سميت هذه الوزارة وزارة الثقة وقام الشعب لها وفي مقدمته طلبة المدارس الذين هم دمه الحي وعصبه الحساس بمظاهرات عظيمة . وقد بلغت رئيس الوفد المصري سعد باشا زغلول بيانها الوزارة ودعته لتأييدها في عملها — وكان في باريس — فعاد بمن بقي معه من أعضاء الوفد ليتولى العمل في الوطن بعد ان يقف على حال الشعب وآرائه بعد ان غاب عنه زهاء عامين فتلقته البلاد بضروب الحفاوة والاحتفال ما لم يسبق لها نظير فيها وربما عز نظيره في غيرها أيضا ، فكان ذلك أكبر مظاهر الوحدة واجماعا من السواد الاعظم على زعيم واحد ولكن جراثيم التفرق والاختلاف التي لقح بها الوفد في أوربة جعلته فريقين احدهما يتظاهر عدلي باشا والآخر يظاهر رئيسه لم تلبث ان فعلت فعلها قبل ان تتم الاحتفالات بالرئيس وسنبين ذلك بما يزيل كل تلبيس ضللت الصحف به الجمهور





— قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صُوى و « منارا » كمنار الطريق —

٢٩ رمضان ١٣٣٩ ـ ١٥ الجوزاء (ر٣) سنة ١٢٩٩ هـ ش ٦ يونيو سنة ١٩٢١

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة اذ لا يسع الناس عامة. ونشترط على السائل أن يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك أن يرمز الى اسمه بالحروف أو يعبر بما شاء من الالقاب ان شاء. وانا نذكر الاسئلة بالترتيب غالبا وربما قدمنا متاخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه. وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا، ولمن مضى على سؤاله شهران أو ثلاثة أن يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

أسئلة مغربية، من عاصمة البلاد الاسبانية

(س ١٢ — ١٤)

الحمد لله

فضيلة العلامة الاستاذ الشريف السيد محمد رشيد رضا الحسيني حياكم الله

توجد جماعة من المسلمين بأسبانيا دعتها دواعي اقتصادية وسياسية ان يكون لباسها اللباس الافرنجي بسائر أنواعه من البرنيطة وغيرها.

ولقد اطلعت على فتوى العلامة المقدس الاستاذ الامام مفتي الديار الاسلامية بمصر برد الله ضريحه وأسكنه من الجنان فسيحه. الا ان الجماعة المذكورة على مذهب الامام مالك رضي الله عنه وعمدة كتب المالكية الفقهية هو مختصر أبي الضياء خليل وما كتب عليه، والشيخ المذكور يقول في كتاب الردة «وشد زنار» كتب عليه الزرقاني ما نصه: ونحوه مما يختص بالكافر كلبس

رنيطة نصراني وطرطور يهودي ان سمي بذلك الكبيرة . قال بناني محشيه المراد ملبوس الكفار الخاص بهم ، وكلام المصنف ان فعل ذلك محبة في ذلك الزي وميلا لاهله واما ان فعله هزلا ولعبا فهو محرم اه

نحن نريد زيادة ايضاح في المسألة سواء كان ذلك داخل المذهب المالكي أو خارجه من بقية المذاهب الفرعية وذلك فيما يتعلق بالالباس لا من جهة الحب فيه والميل لاهله بل من جهة الاقتصاد والتسهيل ليس الا

كذلك نريد بيان الحكم في مسألة الصيام والافطار على حساب النتائج المصرية والتونسية لتعذر رؤية الهلال علينا هنا في حينه ، والشيخ خليل يقول « لا بمنجم » فهل يجزي الصيام والافطار بمقتضى تلك النتائج أم لا بد من الرؤية أم ماذا

وكذا نريد الحكم في حلق اللحى هل يحل شرعا أم لا ، واذا كان يحل فهل الحديث الوارد في الموطأ الذي من ضمنه « اعفوا اللحى وقصوا الشوارب » صحيح أم لا واذا كان صحيحا فما حجة من يحلقها من المسلمين بما فيهم من حملة الشريعة الاسلامية في جل الاقطار؛

وحيث شاء الله تعالى انفرادكم في هذا العصر بالتوسعة في العلوم الدينية وغيرها وتمكنكم من زمام الفتاوى أملنا من فضيلتكم الكريمة انارة ظلمتنا على صفحات مجلة المنار - افتونا مأجورين ولكم الفضل سلفا ، والله المسؤل ان يديمكم مصباحا يستضاء به (في) الاسلام بجاه النبي عليه الصلاة والسلام

مدريد — في ٢٢ فبراير سنة ١٩٢١ مخلص الود لكم

محمد البلغيثي العلوي الحسني

تمهيد للاجوبة عن هذه الاسئلة

تشديد الفقهاء وعاقبة تقليدهم

اعلم أيدنا الله واياك بروح منه وجعلنا من المعتصمين بهداية كتابه وسنة رسوله (ص) وسيرة السلف الصالح من هذه الامة الوسط - أن فقهاء المذاهب كلها قد توسعوا في فروع الشريعة بأقيستهم واختلاف افهامهم وتأثير الازمنة والامكنة التي كانوا فيها فجعلوا الحنيفية السمحة التي رفع الله منها الحرج وبناها على أساس اليسر دون العسر من أعسر الشرائع فهما وأثقلها على البشر حملا حتى هجر جل أهلها دراستها وترك أكثرهم العمل بأكثر أحكامها. وما جاء هذا

به الا من توسع هؤلاء المصنفين في تلك الكتب المطولة في الفقه التي يقل
ها ذكر القرآن والأحاديث النبوية ويكثر فيها قال فلان وصحح فلان ورجح
ن . ومن معجزات هذا الدين ان كل ما صح في كتاب الله تعالى وما بينه من
نة رسوله (ص) في منتهى اليسر والسماحة ، كما صح في وصف هذه
شريعة، وكل ما أشرنا اليه من العسر انما هو اجتهاد من أولئك المصنفين في
فقه بعد عصر السلف الصالحين وأكثرهم غير مجتهدين ، ولا على سيرة من
عوا اتباعهم من المجتهدين ، فمن تقيد بتقليد هؤلاء يتعذر أو يتعسر عليه
ن يكون مسلماً قائما بأمر دينه كما يجب ؛ ولقد كان الاعرابي في عصر السعادة
سلم بين يدي الرسول ويتعلم دينه في مجلس واحد ويقسم انه لا يزيد على ما علم
وجوبه عليه ولا ينقص منه فيقول النبي صلى الله عليه وسلم فيه « أفلح ان
صدق - أو - دخل الجنة ان صدق » كما ورد في الصحيحين وغيرها

وأنت تعلم أن الائمة المجتهدين من علماء الامصار المتبعين لم يجيزوا لانفسهم
ن يكونوا شارعين وان يكون كلامهم دينا يتبع لان من انتحل هذا فقد جعل
نفسه شريكا لرب العالمين كما بيناه في التفسير من هذا الجزء والذي قبله. وانما
ستنبطوا ما استنبطوا لاجل فتح أبواب الفهم في النصوص مع ارشاد الناس
لى انه لا يجوز لاحد ان يقلدهم فيه ، وانما يعمل من ظهر له مع النظر في الكتاب
والسنة انه هو الحق الذي شرعه الله ، وقد بين ذلك المزني صاحب الامام
لشافعي في أول مختصره الفقهي بقوله بعد البسملة « اختصرت هذا الكتاب من
من علم محمد بن ادريس الشافعي رحمه الله ومن معنى قوله لاقربه على من أراده
مع اعلاميه نهيه عن تقليده وتقليد غيره لينظر فيه لدينه ويحتاط فيه لنفسه
وبالله التوفيق »

وكان جميع الائمة على هذا ولو لم يكونوا عليه لما صح ان يكونوا أئمة هادين
مهتدين وقد دخل القعنبي على الامام مالك وهو في مرض موته فرآه يبكي
فسأله عن سبب بكائه فأخبره أنه ما بلغه من ان الناس يعملون بأقواله مع انه
قد يقول القول ثم يظهر له خطؤه فيرجع عنه ، فقد خشي ان يعتل الناس به
عن شرعهم ونصوص كتاب الله وسنة رسوله (ص)

واذكر مع علمك بهذا ان مذهب المجتهد عبارة عن الطريق الذي سلكه
في فهم الشريعة من الدلائل وأصول الاستنباط المعروفة في الاصول ، فهذا

ما يصح للفقيه على مذهبه ان يجري عليه اذا كان مقتنعا بصحته وليس معناه أن يأخذ فروعه المستنبطة فيجعلها أصولا للدين يستنبط منها أحكاما ويقيس عليها أخرى بحسب فهمه ويسمى هذا شرع الله في الايمان والكفر وعبادة الله والحلال والحرام، مع ماعلم من أمر التشريع وجعل انتحاله واتباع منتحله من الشرك والافتراء على الله. وبهذا تعلم ان هؤلاء المقلدين المؤلفين في الفقه ليسوا متبعين في كل ما قالوه في كتبهم لمذاهب الائمة الذين يدعون ان هذا الفقه فقههم

مثال ذلك ان مذهب الامام مالك اتباع نصوص الكتاب والسنة في العبادات والوقوف مع ظواهر النصوص وفهم أهل الصدر الاول لها وعملهم بها ـ ولاسيما أهل المدينة في زمنه ـ دون الدوران فيها مع العلل والحكم وما يسمونه المعنى المناسب. ومذهبه في أحكام المعاملات والعادات مراعاة مقاصد الشرع والمصالح العامة المعروفة من أصوله لامجرد ظواهر الالفاظ كما بينه العلامة الشاطبي في الاعتصام (١) وغيره وهو معروف مشهور عنه ـ وترى بعض الفقهاء خرجوا عن أصل مذهبه المذكور في مسائل كثيرة من العبادات بحجة اتباعه والعمل به وأكتفي بشاهد من الشواهد على ذلك :

رأيت رجلا مالكيا مصريا لا أعرفه يذكر لفقيه مالكي أعرفه ما ذكره هؤلاء من الشروط في ماسح الخف وفي الخف الذي يجوز المسح عليه ككونه من الجلد وكونه مخروزا وانه اذا كان ملصقا لايجوز المسح عليه الخ

فقلت له ماالدليل على هذه الشروط في المذهب ؟ قال قاعدة الامام مالك في الاتباع في العبادات والتزام ماثبت في الكتاب السنة وهكذا كانت الخفاف في عصر النبي (ص) قلت ان هذا مخالف لمذهب الامام مالك كل المخالفة فانه لم يرد في الكتاب ولا في السنة ان الخف الذي يجوز المسح عليه يجب ان يكون جلدا وأن يكون مخروزا، ولا دليل على ان الخفاف كلها كانت كذلك، واذاثبت كونها كذلك بالفعل فذلك لايدل على الشرطية لاعند أهل الاتباع المحض ولاعند أهل الرأي في التعبد. مثال ذلك المطابق له المسح على العمامة قد ثبت في السنة فهل يشترط في مسحنا العمامة أن تكون كعمامة الرسول (ص) في صفات نسيجها ككونه من القطن أو الصوف وكونه من نسيج اليمن أو غيرها وكون طولها كذا ذراعا ؟

(١) ص ٣١١ من الجزء الثاني

ان من الاصول التي لا يتمارى فيها عاقلان ان أمثال هذه الصفات والاحوال التي كان عليها النبي (ص) وأصحابه في لباسهم وأكلهم وشربهم وهيئاتهم حتى في وقت أداء العبادة لا تعد من فرائض الدين ولا من شروط صحة العبادة ولا من المندوبات الشرعية لمجرد كونهم عليها وانما يتحقق كون الشيء واجبا أو شرطا أو مندوبا بنص شرعي يدل عليه دلالة صحيحة والجمهور لا يعدون فعله (ص) دالا على الوجوب الا اذا كان بيانا لمجمل

وجملة القول ان جماهير المصنفين من خلف هذه الامة قد خالفوا سلفها وعسروا يسر شريعتها حتى أدخلوا الامة في جحر الضب الذي حذرهم منه الرسول (ص) في الحديث المتفق عليه « ولتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » وقد سير المسلمون قرونا على الحبس في جحر الضب ثم ضاقوا به ذرعا حتى خرج بعضهم منه من غير الباب الذي دخلوا منه فرقوا من الاسلام وحسبوا انه هو جحر الضب لا سواه وانه لا قبل لهم به — ودعاة الاصلاح يريدون أن يخرجوهم الى حقيقة الاسلام وهو الباب الذي دخلوا منه اذ أوهمهم المصرون انه هو الاسلام . وما الاسلام الا القرآن وسنة الرسول في بيانه على الوجه الذي كان عليه جماعة السلف الذين أمر الرسول بلزوم جماعتهم فكان اجماعهم حجة فيما اتفقوا على انه دين

وفي هذا المقام احتج على المقلدين بعلم امام من الائمة المجتهدين واجعله شاهدا ثانيا على ما ذكرته من مضي مذاهبهم ومخالفة من يدعون اتباعهم لها .

قال الامام الشافعي رحمه الله في أول باب الاجماع من رسالته بعد تفصيل الكلام في الكتاب والسنة « وقامت الحجة بما قلت بأن لا يحل لمسلم علم كتابا ولا سنة ان يقول بخلاف واحد منهما » فقال لا يحل لمسلم ولم يقل لمجتهد وهو نكرة منفية تفيد العموم ثم بين في هذا الباب لمن سأله عن الحجة على العمل بالاجماع ان الجماعة التي أمر الرسول (ص) بلزومها هي جماعة الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم وهم الذين لا تعزب سنة رسول الله (ص) عن عامتهم (أي جملتهم وسوادهم الاعظم) وقد تعزب عن بعضهم . وقال في آخر الفصل « فلم يكن للزوم جماعتهم معنى الا ما عليه جماعتهم من التحليل والتحريم والطاعة فيهما » وهذا ظاهر كالشمس وهو غير الاجماع الاصولي الذي لا تقوم عليه حجة

اذا تمهد هذا فهاك أجوبة الاسئلة :

(الجواب عن مسألة الزي)

ان ماقاله الفقهاء في الزنار ونحوه لا ينطبق على حالكم في لبس ثياب الافرنج لانها ليست من الزي الديني ولا تلبسونها بالقصد الذي قالوه ونوضح المسألة ببعض ماسبق لنا تفصيله في المجلد الاول والسادس وغيرهما فنقول

ان الاسلام لم يقيد المسلمين بزي خاص فقد كان النبي (ص) يلبس زي قومه الذي كانوا عليه في الجاهلية في عامة أيام رسالته وقد عرض له لبس أزياء غيرهم من الامم فلبسه بيانا للجواز كالجبة الرومية من لباس النصارى كما ثبت في الصحيحين وجبة الطيالسة الكسروانية من ملابس المجوس كما ثبت في صحيح مسلم . فالاصل في الازياء الاباحة كامثالها من العادات وقد تعتريها الاحكام الخمسة بما يعرض عليها من دفع ضرر يقيني أو ظني أو وقوعه أو تحصيل نفع كذلك . ومما سبق لنا بيانه غير مرة ان بعض كبار العقول من المسلمين قد تنبهوا ونبهوا لما في مسألة الزي من التأثير السياسي والاجتماعي فكرهوا ان يقلدوا غيرهم من الامم في أزيائهم في أثناء الفتوحات العربية وغيرها لئلا يندغموا في الامم التي فتحوا بلادها بسبب قلتهم فيها ولانهم جاؤا ليكونوا أئمة هادين متبوعين لا تابعين مقلدين، وقد اتبعهم الاوربيون في هذا المعنى

وأول من تنبه لذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد روى مسلم انه كتب الى جيشه وهم في أذربيجان مخاطبا قائده : ياعتبة بن فرقد! انه ليس من كد أبيك ولا من كد أمك فاشبع المسلمين في رحالهم مما تشبع منه في رحلك واياكم والتنعم وزي أهل الشرك الخ قال النووي في شرح مسلم : وقد جاء في هذا الحديث زيادة في مسند أبي عوانة الاسفرايني باسناد صحيح قال: أما بعد فأتزروا وارتدوا وألقوا الخفاف والسراويلات وعليكم بلباس أبيكم اسماعيل، واياكم والتنعم وزي الاعاجم، وعليكم بالشمس فانها حمام العرب وتمعددوا واخشوشنوا واقطعوا الركب(؟) وابرزوا وارموا الاغراض اه وقوله تمعددوا معناه تشبهوا بجدكم معد بن عدنان في أسباب القوة والصلابة ، وهذا نحو مما يعرف في تاريخ اليونان عن الاسبرطيين والتشبه بهم في مصارعة الشدائد.

ثم ان المسلمين لبسوا كل زي في بلاد أهله وفي بلادهم وقد لبسوا في زمن المنصور بأمره قلانس كقلانس الكفار ولم ينكر ذلك أحد من العلماء كما أنكروا

على السلطان محمود العثماني استبدال زي الافرنج بزي قومه المعروف ثم زال الانكار ، وللمسلمين في الاقطار المختلفة أزياء كثيرة طبعت صورها حديثا في صحيفة كبيرة احدى ادارات الجرائد الانكليزية وفيها يرى الناظر ما يرى من المشابهة بينها وبين أزياء الملل الاخرى

وما قاله الفقهاء في حكم من لبس ملابس الكفار فهو مبني على مدرك نظري معروف وهو ان من يلبس ملابس أهل ملة مما هو خاص بدينهم تفضيلا لتلك الملة على ملته كان مرتدا وهذا اللبس بشروطه دليل على الردة عنها والانضمام الى غيرها ولكنه غير مطرد واذا صح للفقيه ان يذكره للتنبيه والتذكير والتنفير فلا يسوغ للمفتي ولا للقاضي أن يأخذ به عند الفتوى او الحكم في النوازل والدعاوي المعينة على علاته ولا يسع فالاولى أن يحمله على تفضيله من يلبس لبس أهل ملة لسبب من الاسباب التي لا تنافي الدين ولا تخل بالايمان كالاسباب الصحية ومنها اتقاء الحر والبرد أو الاقتصادية أو السياسية كالعيون والجواسيس أو العسكرية أو الاجتماعية كمن وجد مع قوم وهو يعلم انه اذا ظهر بزي مخالف لزيهم يتأذى باحتقارهم اياه أو تشهيرهم به أو كثرة التطلع اليه والاستغراب لزيه وقد ورد في السنن النهي عن لبس الشهرة والوعيد عليه في حديث أبي ذر عند ابن ماجه والضياء وحديث ابن عمر عند أبي داود وابن ماجه وحسنوهما ، وأكثر من يغير زيه من المسلمين الذين يذهبون الى أوربة فانما يغيرونها لسبب الاخير ولا سيما التغيير بلبس القبعة المعروفة بالبرنيطة فانه لم يبق فارق بين كثير منهم وبين الاوربيين الا فيما يوضع على الرأس، والبرنيطة هذه ليست شعارا دينيا للافرنج ولا هي خاصة بهم وقد ثبت ان بعض عرب اليمن صنعوها للوقاية من الشمس ويسمونها المظلة ولا يخطر ببال أحد ممن يلبسها من المسلمين أنه فضل على دينه دين القوم فلا وجه اذا لجعلها امارة على الردة ولا للقول بتحريمها بل هذا التحريم شر من لبسها وأشد خطرا على دين القائل به لان معناه ان الله تعالى أنزل وحيه بخطاب يقتضي ترك لبسها اقتضاء جازما ويخبر بأن جزاء من لبسها العقاب في الآخرة. وهذه جرأة على الافتراء على الله تعالى والقول عليه بغير علم وهذا كفر يتعدى شره الى حمل الناس على العمل به فهو أغلظ من الشرك القاصر ضرره على صاحبه كما قاله بعض العلماء في تفسير آية (٧ : ٣١ قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما

بطن والاثم والبغي بغير الحق وان تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لاتعلمون) اذ قال ان غلظ هذه المحرمات جاء فيها على طريق الترقي وانما كان الاخير أغلظ مما قبله لانه شرك متعمد وما قبله شرك قاصر - ومن اتبع قائله به بغير علم من نبأ الوحي فقد اتخذه ربا وشريكا لله كما علم بالتفصيل من تفسير هذا الجزء من المنار والجزء الذي قبله . وقد حققنا مسئلة الردة في بعض الفتاوى من أجزاء هذا المجلد وفى مجلدات أخرى من المنار

(الجواب عن مسألة الصيام والفطر
بقول أهل الحساب أصحاب النتائج)

هذا السؤال غريب من مثل سائله الفاضل فهو يعلم ان حكم الشرع في صيام رمضان والافطار منه منوط برؤية الهلال اذا تيسر والا فبا كمال عدة شعبان في الصيام وعدة رمضان في الافطار ثلاثين يوما ، وحكمة ذلك جعل العبادة ابتداء وانتهاء مما يتيسر العلم بمواقيته لكل جماعة ولكل فرد من الامة وحكمة عدم نوط هذا التوقيت بالحاسبين من علماء الفلك هو أن لا يكون أمر العبادة متوقفا على أصحاب الفنون الذين لا يوجدون في كل مكان وان لا يكون لامثال هؤلاء الافراد حكم فيها ولا رياسة أو شبه رياسة دينية بسببها . ولعله لايعلم ان اهل مصر وتونس أنفسهم لا يعملون بهذه النتائج في الصيام والافطار بل باثبات رؤية الهلال أو اكمال العدة ولكن قد يستعينون بها على الاستهلال فيرصدون الهلال في الليلة الذي تنص على انه يرى فيها وفى المكان الذي يرى فيه بالنسبة الى مغرب الشمس

وقد استغربنا بناءه السؤال على تعذر رؤية الهلال عليهم في أسبانية وهو لم يبين سببه وقد كانت هذه البلاد (الاندلس) في حكم الاسلام وكانوا يرون الهلال فيها ولعل السائل ومن معه يقيمون في فندق أو دار لا يمكنهم الصعود الى سطحها أو لا يرى مكان الهلال من الافق للواقف على سطحها ويتعذر عليهم رؤيته من سطح آخر أو من ضواحي البلد ، فاذا تعذر عليهم ذلك بالفعل فلا يبعد أن يقال انهم يعملون بحسابهم أو حساب من يثقون بعلمه اذا قال ان الهلال في ذلك البلد أو في افقه يولد في وقت كذا ويمكن رؤيته بالابصار في ليلة كذا — فالليلة التي يمكن أن يرى فيها الهلال بالفعل هي أول الشهر الشرعي.

واختلاف المطالع ثابت قطعاً فلا يصح اعتماد من في أسبانية على نتائج مصر أو تونس بجعل أول الشهر فيها هو أول الشهر في مدريد

(الجواب عن مسألة حلق اللحى)

هذه المسألة وامثالها مما سيأتي ليست دينية مما يعبد الله به فعلاً أو تركا وانما هي من الامور العادية المتعلقة بالزينة والتجمل والنظافة وقد سميت في الاحاديث الواردة فيها سنن الفطرة أي العادات المتعلقة بحسن الخلقة ففي حديث أبي هريرة عند الجماعة (أحمد والشيخين وأصحاب السنن الاربعة) قال رسول الله (ص) « خمسة من الفطرة الاستحداد (أي حلق العانة) والختان وقص الشارب ونتف الابط وتقليم الاظفار » وفي حديث عائشة مرفوعاً عند أحمد ومسلم والترمذي والنسائي « عشر من الفطرة : قص الشارب واعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الاظفار وغسل البراجم ونتف الابط وحلق العانة وانتقاص الماء » أي الاستنجاء قال مصعب بن شيبة راويه : ونسيت العاشرة الا أن تكون المضمضة

وورد في اللحية والشارب أخبار معللة بعلة أخرى وهي مخالفة المشركين والمجوس ففي حديث ابن عمر في الصحيحين ومسند أحمد مرفوعا « خالفوا المشركين : وفروا اللحى واحفوا الشوارب » زاد البخاري وكان ابن عمر اذا حج أو اعتمر قبض على لحيته فما فضل أخذه . أي قصه . وفي حديث ابي هريرة عند أحمد ومسلم « جزوا الشوارب وارخوا اللحى خالفوا المجوس »

وقد كان النبي (ص) في أول الاسلام يحب مخالفة المشركين وموافقة أهل الكتاب ثم صار بعد الهجرة يأمر بمخالفة أهل الكتاب حتى في الامور الاجتماعية والعادية لان المسلمين كانوا في أول الاسلام مع المشركين في مكة فكان يجب أن يمتازوا عنهم وكانوا بعد الهجرة مخالطين لاهل الكتاب فكان يحب ان يمتازوا عنهم . مثال ذلك امره بصبغ الشيب ففي حديث ابن عباس في الصحيحين وسنن ابي داود والنسائي « ان اليهود والنصارى لايصبغون فخالفوهم » وفي لفظ عنه للترمذي « غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود »

والامر في مثل هذه الامور العادية ليس للوجوب الديني والنهي عنها ليس للتحريم كما قال الامام الطبري والظاهر أن الامر فيها للارشاد الذي يتعلق

بمنافع الدنيا ومصالحها كحديث « كلوا الزيت وادهنوا به » رواه ابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة بسند صحيح وتتمته « فانه طيب مبارك » وعنه وعن غيره بأسانيد ضعيفة وتتمة أخرى . هذا ما يوافق أصولهم والمشهور عند أكثر الفقهاء ان هذه الخصال كلها مستحبة الا الختان فقد قالوا بوجوبه للذكور وقالت المالكية بوجوب اعفاء اللحية وقال الجمهور باستحباب ارسال شعر الرأس وفرقه واستحباب صبغ الشيب وخضابه لمخالفة الكفار كما ورد. فأما ما وصف بأنه من سنن الفطرة فالغرض منه أن تكون الامور الفطرية أي أمور الخلقة على أحسن حال في حسن المنظر والنظافة والصحة . واما ماذكر لمخالفة أهل الملل فلاجل ان يكون لمسلمين مشخصات وعادات حسنة خاصة بهم من حيث هم أمة جديدة جعلها دينها اماما وقدوة لسائر اهل الملل في اصلاح امور الدين والدنيا وقد كان الفساد الديني والاجتماعي عاما في جميع الامم باجماع المؤرخين

اما قص الشارب واقل ما قال الفقهاء فيه ان تظهر الشفتان واكثره استئصاله ولو بحلقه فحكمته ظهور الفم وجماله ومراعاة الصحة والنظافة فان شعر الشاربين يعلق به الغبار ودسم الطعام وما فيه من جراثيم الامراض فاذا شرب صاحبه من اناء دخل شعره فيه فيؤثر في الشراب كما يؤثر الشراب فيه وقد يتعذر الاسراع بتنظيفه، كما يؤثر في الملاعق اذا اكل بها ماثما ولا يزال اكثر الناس يضطرون الى الشرب من اناء واحد والاكل من صحفة واحدة كاهل العصور القديمة ولا يخفى ما يترتب على ذلك . واما كون اعفاء اللحية من سنن الفطرة فمعناه انه زينة خص بها الرجل الذي هو اكمل من المرأة خلقا فامتاز به عليها كامتياز أكثر ذكور الحيوان على اناثها، ولم ترد مبالغة في اعفائها كما ورد في احفاء الشارب بل قال ابن السيد حمل بعضهم قوله «اعفوا اللحى» على الاخذ منها باصلاح ماشذ منها طولا وعرضاً واستشهد بقول زهير، على آثار من ذهب العفاء، وهو شاذ وظاهر الرواية ان المراد به ترك حلقها كما كانت تفعل الاعاجم أو قصها قصاً يقرب من الحلق بحيث تزول هذه الزينة وما فيها من المهابة . قال الحافظ في شرح ماذكرنا من زيادة البخاري في حديث ابن عمر المذكور آنفاً: الذي يظهر أن ابن عمر كان لايخص هذا التخصيص بالنسك بل كان يحمل الامر بالاعفاء على غير الحالة التي تتشوه فيها الصورة بافراط طول شعر اللحية أو عرضه فقد قال الطبري : ذهب قوم الى ظاهر الحديث فكرهوا تناول شيء من اللحية من

طولها ومن عرضها وقال قوم اذا زاد على القبضة يؤخذ الزائد - وذكر عنه الاستدلال بحديث ابن عمر وغيره ثم قال - ثم حكى الطبري اختلافاً فيما يؤخذ من اللحية هل له حد أم لا فأسند عن جماعة الاقتصار على أخذ الذي يزيد منها على قدر الكف وعن الحسن البصري أنه يؤخذ من طولها وعرضها ما لم يفحش وعن عطاء نحوه قال وحمل هؤلاء النهي على منع ما كانت الاعاجم تفعله من قصها وتخفيفها قال وكره آخرون التعرض لها الا في حج أو عمرة وأسنده عن جماعة واختار قول عطاء وقال ان الرجل لو ترك لحيته لايتعرض لها حتى فحش طولها وعرضها لعرض نفسه لمن يسخر به واستدل بحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي (ص) كان يأخذ من لحيته من طولها وعرضها ، وهذا اخرجه الترمذي ونقل عن البخاري أنه قال في راويه عمر بن هارون لا اعلم له حديثاً منكراً الا هذا وقد ضعف عمر بن هارون مطلقاً جماعة . وقال عياض تكره حلق اللحية وقصها وتحذيفها وأما الاخذ من طولها وعرضها اذا عظمت فحسن بل تكره الشهرة في تعظيمها كما تكره في تقصيرها ، وتعقبه النووي بانه خلاف ظاهر الخبر في توفيرها والمراد منه

وجملة القول أن حديث مالك في المسألة مؤيد بأخبار الصحيحين والسنن فهو صحيح واكثر العلماء على كراهة حلق اللحى وقصها وترك الشارب الى ستر الشفتين والمسألة عادية دنيوية لادينية تتزكى بها النفس لتكون أهلا لجوار لله وثوابه في الآخرة كما قلنا . وان كان فعلها بنية الاتباع وتقوية رابطة الامة مما يثاب عليه كسائر العادات والمباحات التي تحسن فيها النية، ولكون هذه المسائل غير دينية لم يعن المسلمون بالخضاب وصبغ الشعر كما عنوا بارسال اللحى مع صحة الاحاديث بالامر به وكونه زينة ومخالفة لاهل الكتاب بل كرهه بعضهم وحرمه آخرون بالسواد، وقد صح أن ابا بكر كان يخضب بالحناء والكتم وفي حديث أبي ذر عند أحمد وأصحاب السنن الاربعة وصححه الترمذي « ان احسن ما غيرتم به هذا الشيب الحناء والكتم » والكتم (بوزن الجبل) نبات يخرج صبغه اسود ضارب الى الحمرة ثم صرح كثيرون باستحباب صبغ الشعر وخضابه مطلقاً وبعضهم بما عدا السواد لحديث امره (ص) بتغيير شيب أبي قحافة مع قوله « وجنبوه السواد » ولاحاديث اخرى لا يصح منها شيء مرفوع وقد سبق لنا تحقيق ذلك في المنار وحديث « جنبوه السواد » لا يدل

على تحريم السواد ولكنه لم يستحسنه (ص) لشيخ بلغ من الكبر عتيا كأبي قحافة وكان شعر رأسه ولحيته كالثغامة في بياضه كما قال بعضهم فالعلة ذوقية واضحة كما يأتي عن ابن شهاب قريبا. وذكر الحافظ في الفتح ان الذين اجازوا الصبغ بالسواد تمسكوا بالأمر المطلق بتغييره مخالفة للاعاجم (ثم قال) وقد رخص فيه طائفة من السلف منهم سعد بن ابي وقاص وعقبة ابن عامر والحسن والحسين وجرير وغير واحد (اي من الصحابة) واختاره ابن ابي عاصم في كتاب الخضاب له واجاب عن حديث ابن عباس عند ابي داود « يكون قوم في آخر الزمان يخضبون بالسواد كحواصل الحمام لا يريحون رائحة الجنة » بأنه اخبار عن قوم هذه صفتهم وذكر عن ابن شهاب انه قال : كنا نخضب بالسواد اذ كان الوجه جديدا فلما نفض الوجه والاسنان تركناه.

وجملة القول ان اكثر العلماء كرهوا الخضاب بالسواد وحمل النووي الكراهة للتحريم وهو كثير التشديد وقد حقق ابن الاثير وغيره ان الخضاب بالحناء والكتم معاً يكون اسود وقد صح استحسان النبي (ص) له قولا وفعلا اذ رأى من خضب به وان أبا بكر كان يخضب بهما معا أو منفردين ، وهل يعقل اذا صح أن سواد خضابه يضرب الى الحمرة ان يكون السواد الحالك سببا للحرمان من رائحة الجنة ؟ أو ليس الموافق لاصول الشريعة ان صح هذا ان نقول انه علامة لقوم من المبتدعة المجرمين في آخر الزمان يحرمون الجنة باجرامهم لا بخضابهم كما جعل حلق الشعر علامة للخوارج - والا كان سعد بن أبي وقاص احد العشرة وسيدا شباب اهل الجنة أول من يتناولهم هذا الوعيد الشديد؟

أوليس من علامة وضع الحديث ترتيب الثواب العظيم أو العقاب الشديد فيه على التافه من العمل ؟ وقد قال ابن الجوزي بأن هذا الحديث موضوع وخطأه من صححوه وحسنوه من حيث السند على ان فيه عبد الكريم غير منسوب قيل ان كان الجزري فقد روى عنه الشيخان نقول ومنع ابن حبان الاحتجاج بما يتفرد به كهذا الحديث وان كان ابن أبي المخارق فضعيف. وقد اضطروا الى تأويل الوعيد فيه بالتكلف

وأما قول السائل اذا كان الحديث صحيحا فما حجة من يحلق لحيته من المسلمين بما فيهم من حملة الشريعة - فجوابه ان المسلمين قد ترك الكثيرون منهم ماهو أعظم شأنا من قص الشارب واعفاء اللحية من السنن والآداب

الاسلامية من دنيوية اجتماعية ودينية وكثيرا من الفرائض أيضا . وقد يحتجون لشيء من ذلك الا اذا قال أو عمل به بعض شيوخهم في الفقه أو التصوف وقد يقولون ان جمهور علمائهم يقولون باستحبابه لا وجوبه مثلا والصواب أن كل قوم يعملون بما ألفوا واعتادوا من هذه السنن حتى ان بعض السلف تهاونوا في بعضها ولاجل هذا توسعنا في المسألة بذكر سنة الخضاب التي لم يتعودها الا القليل منهم منذ عصر السلف فقد روي ان الامام أحمد رأى رجلا قد خضب لحيته فقال اني لأرى رجلا قد أحيا ميتا من السنن وفرح به . وروي عنه في ذلك أقوال أخرى . ونضرب له مثلا من المقابل أعني من هذا لا في مسألة عملية تتعلق بعقيدة التوحيد وهو ما ورد من حظر البناء على القبور والامر بهدمها وحظر تشريف القبور ولا سيما قبور الصالحين واتخاذها مساجد ووضع السرج عليها والامر بتسوية القبور المشرفة المرتفعة عن الارض بالتراب - كل ذلك صح في الاحاديث وعلته انها من أعمال الشرك والوثنية التي سرت الى أهل الكتاب من الوثنيين - ولكن المسلمين تركوا العناية بالتصوير والصور والتماثيل حتى ما لا دخل له في الوثنية وأمور الدين بوجه من الوجوه وان كان من أهم منافع الدنيا ومصالحها كالالة والعلم والحرب — وعنوا بقبور الصالحين حتى اتخذوها مساجد وشرفوها ورفعوا بناءها وحبسوا الاوقاف عليها ووضع السرج والمصابيح عليها وصاروا يشدون الرحال اليها ويطوفون بها تعبدا فوقعوا في كل محرم الشرع بناءها وتعظيمها لاجله والفقهاء يقرونهم على ذلك والقضاة يحكمون بصحة أوقافهم وهم يقرؤن الاحاديث الصحيحة في لعن من فعل ذلك

أكبر أسباب تهاون المسلمين بأمور دينهم وآدابهم ومشخصاتهم الملية في أكثر البلاد أمران (احدهما) ترك العلماء فريضة الدعوة الى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر (وثانيهما) عدم وجود حكومة اسلامية تحافظ على الشعائر الدينية ، ومقومات الامة ومشخصاتها الملية ، ولذلك لا ترى مثل هذا التهاون في بلاد نجد وبلاد الافغان وكذا بلاد اليمن التي لم يتولى الترك الحكم فيها كجبال الزيدية ولكن بعض هؤلاء المتدينين قد غلوا في دينهم حتى وقعوا في مثل ما انكروا وفيما هو شر منه كتحريم ما لم يحرم الله ورسوله افتراء على الله وقولا عليه بغير علم وتكفير المسلمين بما ليس كفرا ولا محرما

وقد فتن أهل البلاد العثمانية والمصرية بتقليد الافرنج والتشبه بهم كما هو

معروف ومن المجرب ان كثيراً من الذين يتركون ازياءهم من المسلمين ويلبسون الزي الافرنجي يتهاونون بأمور الدين ويتجرؤن على الفسق والفجور وان اختلاف الزي كان من اسباب ضعف الرابطة الملية والقومية ، وقاعدة سد ذرائع الفساد ثابتة في شرعنا ، ومن غيرزيه لاجل التوسل به الى المعاصي كان تغييره معصية ومن خاف على نفسه ذلك فليس له أن يقدم عليه ، والذين لا يبالون بهذا اذا كان لعدم اذعان انفسهم للأمر والنهي فليسوا على شيء من الدين — ولعل هذا ماكان يحذره بعض الفقهاء المشددين حتى في العادات ولكن الجرأة على التحريم والتكفير للاشخاص المعينين خطر على صاحبه أعظم من الخطر الذي يحذره وينكره الغلاة فالافراط في الدين كالتفريط فيه كلاهما ينتهيان الى الجناية عليه والاضاعة له فنسأل الله الحفظ والسداد

الحقائق الجلية فى المسألة العربية

مقالة للعبرة والتاريخ

تمهيد ومقدمة

كتبنا في سنة ١٣٣٤ (١٩١٦) مقالا عنوانه (المسألة العربية — مقالة للتاريخ) لم يتيسر لنا نشره الا بعد زهاء سنة كاملة من وقت كتابته فنشر في الجزء الاول من المجلد العشرين بعد أن أشرنا اليه في تقريظ جريدة القبلة من جزء المنار الذي صدر في آخر المحرم سنة ١٣٣٥ (من المجلد التاسع عشر) ولكن بعد أن حذفت منه المراقبة الانكليزية ما حذفت ، وأكرهتنا على تبديل ما كرهت ، ولا أعني بالمراقبة الانكليزية مراقبة قلم المطبوعات في وزارة الداخلية المصرية التي كان رأسها انكليزي أمر بالتشديد في مراقبة المنار بما لا يشدد في مراقبة سائر الصحف لانه في اعتقادهم أشد تأثيراً في أنفس المسلمين بما له من النفوذ الديني(١) وانما أعني مراقبة السلطة الانكليزية التي كانت تحول اليها مراقبة المطبوعات في الداخلية ما يكتب في مسائل معينة من أهمها المسألة العربية والحجاز . على

١) من أغرب هذا التشديد اننا قد كنا ننقل بعض ماينشر في الجرائد اليومية فنمنع من نشره بالمنار ألبتة أو يحذف بعضه حتى حذف بعض تقرير مشيخة الازهر الرسمي في انتقاد مشروع التعليم الاولي عند نشرنا اياه نقلا عن الجرائد

أننا راعينا في تلك المقالة مقتضى الحال وأحكام الزمان. فسكتنا عن بعض الحقائق وبينا بعضها بالتصريح ، واضطررنا في البعض الآخر الى الايماء والتلويح. واننا نذكر في هذا المقال الذي نكتبه بعد الغاء المراقبة على الصحف في مصر بعض الحقائق ونرجيء بعضها الى فرصة أخرى ، قاصدين مع بيان حقائق التاريخ الموعظة والذكرى ، فنقول

اننا كنا نتوقع وقوع الحرب الاوربية الكبرى قبل وقوعها بزمن بعيد ولا سيما بعد حرب البلقان خلافا لجماهير المفكرين الذين كانوا يستبعدونه أو أو يحيلونه ظناًمنهم أن الدول العظمى وصلت الى درجة الكمال في العقل والفضيلة ومراعاة المصالح الانسانية العامة بحيث يحلون جميع المشكلات بالاساليب السياسية دون الحرب ولم يصدق هؤلاء بامكان وقوع هذه الحرب الا بعد اشتعال نارها بالفعل

وكنا نعتقد أن الدول الاوربية الاستعمارية تريد الاستعجال بحل المسألة الشرقية اغتناماً لفرصة تهور الاتحاديين وتنفيرهم للعناصر العثمانية بغلوهم في العصبية التركية ، وقد شرحنا هذا الاعتقاد في المقالات العشر التي كتبناها بعنوان (المسألة الشرقية) بمناسبة استيلاء ايطالية على سواحل برقة وطرابلس الغرب ونشرناها في المؤيد ثم في المنار ، وكان نشرها في المؤيد مثيراً لبعض وكلاء الدول الاوربية وحاملا لهم على مراجعة العميد البريطاني بمصر وايعاز العميد الى رئيس الوزارة المصرية بايذان صاحب المؤيد بالامر ووجوب مطالبته اياي بتخفيف الحملة عن الدول بجملتها وحصر الكلام في ايطالية ومسألة طرابلس

وقد حملنا في المنار على الحكومة الاتحادية بما كانت وضعته من أساس الاتفاق مع الدولة البريطانية على جعل العراق منطقة نفوذ اقتصادي لها ومشروع الاتفاق مع فرنسة على مثل ذلك في سورية كما حملنا عليها في اتفاقها السري مع ايطالية واعتقدنا أن الاتحاديين يريدون تنفيذ وعيدهم في العرب بعد أن أنذرنا غير واحد من زعمائهم بأنهم يبيعوننا ويرقون شعبهم بثمننا . ولاجل هذا اندفع العرب العثمانيون الى طلب الاستقلال الاداري من الدولة لولا يأسهم من طريقة اللامركزية

ولما أعلنت المانيـة الحرب على روسية جزمنا بأن قد وقعت الحرب العامة المنتظرة وان دولتنا ستصلى نارها مع المانية لما كنا نعلم من الروابط بين زعماء

الاتحاديين وبينها وتوقعنا أن تكون الحرب سبباً لحل حكومة الاتحاديين على تنفيذ ما كانوا يعدون به العرب من الاصلاح واعطاء الحقوق عقب المؤتمر العربي الاول بباريس ، لان الشدائد هي التي تذهب الاحقاد، وتبعث على الاخلاص في الاتحاد ، وخفنا أن يكون ما احدثوه من العصبية الجنسية سببا للتنازع الموجب للفشل،ولاجل هذا كتبنا تلك المقالة التي نشرناها في الاهرام ثم في المنار بوصية الشعب العربي بأن يسكت في اثناء الحرب عن مطالبة الدولة بالاصلاح ويكون مع الترك يداً واحدة وكلمة واحدة فيما تقتضيه حالة الحرب من حصر كل القوى في الاستعداد للنفر ... وكان لها ما كان من القبول والتأثير الحسن

وعد الانكليز باستقلال العرب ومساعيهم معنا

في هذه الاثناء بلغنا بعض رجال الدولة البريطانية هنا بأن حكومتهم عزمت على العطف على العرب ومساعدتهم بنفوذها الادبي عند الدولة العثمانية على ما يطلبون من الاصلاح اذا بقيت الدولة على الحياد الذي تتظاهر به واما اذا انضمت الى المانية في الحرب فانها تساعدهم على الاستقلال وتكوين دولة عربية

ولما اصطلت الدولة بنار الحرب وقع الرعب في قلوبنا وكان أخوف ما نخاف عليه بلادنا العربية لانها خالية من الحصون والمعاقل الحربية وبعيدة عن مركز القوة والسلاح في الدولة،ولم تلبث أن استدعانا بعض رجال الدولة البريطانية هنا وبلغونا ثانية أن دولتهم قررت باتفاق الاحزاب مساعدة العرب على الاستقلال في جميع بلادهم وانها لا تبغي أخذ شيء منها واذا اضطرت الى محاربة الترك فيها فانها تترك لهم كل ما تدخله منها بعد اخراج الترك منه ـ وأنهم يحبون أن يعرف العرب هذا ويكونوا مطمئنين آمنين على أنفسهم من جانب البريطانيين فلا يتخذونهم أعداء، وقد جاءنا نبأ من مصدر عال في السودان بمثل ما بلغنا بمصر عن بلاغ من لندن. ثم أطلعونا على منشور يريدون نشره في البلاد العربية بهذا المعنى فلم نر عبارته مفيدة ما وعدونا به بل هي ايهام محض فاقترحنا عليهم أن يصرحوا فيهم بالمراد تصريحاً لا يحتمل التأويل ككونهم يتعهدون باستقلال هذه البلاد اذا ظفروا في الحرب وبعمل حلفائهم على ذلك وبعدم أخذ شيء من البلاد العربية لا باسم الفتح والامتلاك ، ولا الحماية ولا الاحتلال ، ولا بأي اسم من امثال هذه الاسماء ، وبأنهم يخرجون من البلاد التي دخلوها كالقدر

البصرة والتي سيدخلونها من بعد بلا شرط ولا قيد . وبعد التشاور بينهم ومراجعة حكومتهم العليا بلندن في ذلك حذفوا هذه القيود . وكانوا يرجون منا مساعدة بناء على تلك الوعود فكتبنا لهم مذكرة بعد مذكرة في الاحتجاج على ماظهر لنا منهم وبيان خوف العرب على بلادهم من انكلترة دون سواها واعتقادهم أنها هي الخصم لهم وتحذيرهم من الغرور بما تكتب جرائدهم وبعض الجرائد المداهنة لهم من وصفهم بأنهم أصدقاء العرب وان العرب اصدقاؤهم - وبيان مكان الدولة العثمانية من الاسلام والمسلمين وما يخشى من نزوله من عداوة العالم الاسلامي لهم وفي مقدمته مسلمو الهند وجعلهم الباً واحداً عليهم اذا هم استولوا على بلاد العراق وسورية ومنها البلاد المقدسة وما يترتب على ذلك من صيرورة الحجاز تحت رحمة تصرفهم مع محاربتهم للدولة التي يعترف لها السواد الاعظم من المسلمين بانها دولة الخلافة اذ يعتقدون حينئذ حقية ما تتهم به دولتهم من عزمها على ازالة الحكم الاسلامي من الارض - وان السلطة الاسلامية في نظر المسلمين اهم المعززات وثانية عقيدة التوحيد لانها سياجها وحفاظها وان هذا هو السبب في تعلق مسلمي الارض بالدولة العثمانية وحبها . وبينا لهم في أول تلك المذكرات ان الاستيلاء على البلاد العربية وحفظ السلطة الاجنبية فيها ليس بالامر السهل ولا بالمركب المذلل بل يحتاج الى قوة حربية كبيرة جداً لمنع الثورات الخ

كان غرضنا من هذه المذكرات اقناع الدولة البريطانية بأنه لا يمكن لها أن تقنع العالم الاسلامي بأن قتالها الدولة العثمانية ليس عدواناً على الاسلام وسلطانه لاجل تقليص ظله من الارض بل لتحيزها الى أعدائها الالمان عليهم وعلى احلافهم الا اذا أعطت العهد والميثاق بالاعتراف باستقلال البلاد العربية التي هي مهد الاسلام وفيها معاهده المقدسة الحرمان الشريفان والمسجد الاقصى في القدس ومعاهد العلم ومشاهد الائمة للشيعة في النجف وكربلاء وهي مظهر حضارة الاسلام العربية، وموطن الخلافتين الاموية والعباسية ، مع بيان ما في ذلك من الفوائد السياسية والاقتصادية والادبية التي شرحناها لهم بالصدق الخالي من شوائب الايهام ، وستنشر هذه المذكرات في يوم من الايام ، مع مكتوبات أخرى في المسألة عظيمة الشأن

خاب سعينا الى ما سعينا اليه من عهد أو وعد رسمي بذلك ولم نغتر بالايهامات التي كانت تصدر أحياناً من برقيات روتر وأقوال بعض الجرائد

الانكليزية بوعد بريطانية العظمى بالعطف على العرب وماينتظر من سعادة البلاد العربية اذا تحررت من سلطة الترك واعادت مجد هارون الرشيد والمأمون . وعلمنا مما دار بيننا وبين رجالهم الذين بمصر ومن مذاكرتنا مع السر مارك سايكس الذي أرسلته السلطة العليا من لندن الى مصر والعراق لدرس المسألة العربية سنة ١٩١٥ أن القوم ثابتون على طمعهم في بلادنا وهو ما كنا نعلمه قبل الحرب بسنين كثيرة ونوهنا به في المنار مراراً وكان لهم شيء في مساعدتنا اياهم على اقناع العرب بما أشرنا اليه آنفاً ولو بكتابة شيء ما في جريدة الكوكب التي أنشئت لاجل هذا الخداع فخاب أملهم فينا كما خاب أملنا فيهم

ما كان بين الانكليز وأمراء العرب

ولى الانكليز وجوههم شطر أمراء العرب وزعمائهم في الجزيرة والعراق وسورية للاستعانة بهم على مناوأة الدولة العثمانية بالخروج عليها أو خذلانها فأعرض عنهم امام اليمن ووالى الدولة في الحرب كما عاهدها في السلم ، ووافاهم أمير نجد وسيد عسير على الوقوف على الحياد . ووالاهم شريف مكة باعلان استقلال الحجاز ومقاومة طغمة الاتحاد والترك الطاغية الباغية اولا ثم بمناوأة الدولة ومحاربتها ومساعدة الجيش الانكليزي على فتح بيت المقدس والشام ، وقد انخدع أهل سورية والعراق بدعوة الموالاة والمحالفة وصدقوا التغرير الذي كان يوجه اليهم في المنشورات والجرائد ولاسيما جريدة الكوكب — ووافق ذلك شدة طغيان الاتحاديين وتنكيلهم بعرب سورية والعراق تقتيلا وتصليباً وتغريبا وتعذيباً فوجد المضطهدون منهم مهرباً وملجأ من العذاب ففروا اليه بآمال كبيرة اذ ظنوا أن حوادث الزمان قد مهدت السبيل بهذه الحرب واشتغال الدول الاوربية الطامعة بعضها ببعض لاستقلال البلاد العربية واعادة حضارة العرب الزاهية العالية التي يفتخر بها التاريخ ، ولعمري ان الفرصة قد كانت سانحة لو وجد في البلاد العربية زعماء أكفاء يغتنمونها من غير أن يجنوا على الجامعة الاسلامية باسقاط الدولة العثمانية

ثورة الحجاز والاتفاق مع بريطانية

كانت حركة الشريف الاولى في الحجاز من النتائج التي تقتضيها المقدمات التي سبقتها بحسب سنة الاجتماع وكان يمكن أن يكون أقرب مايقال فيها ماقلناه عقب حدوثها

اما أن تنفع واما ألا تضر — واكبر مايرجى منها ان تتخذ وسيلة لجمع كلمة العرب في الجزيرة وتنظيم القوة لحفظ البلاد العربية من السقوط تحت سامة دولة أجنبية اذا غلبت الدولة بالتبع لانكسار حليفتيها الكبريين المانية والنمسة . وكان هذا مايجب القيام به على من استطاع اليه سبيلا من كل عربي وكل مسلم أيضا ولو كان من الترك الذين يهمهم شأن الاسلام . ولما ذهبت الى الحجاز عقب ثورته لاداء فريضة الحج صرحت لاميره (وملكه اليوم) برأيي وما أعجبني من جعل خروجه وعدائه خاصا بالاتحاديين الذين فرقوا الكلمة ونكلوا بالعرب السوريين وغيرهم في الوقت الذي هم احوج فيه الى التأليف والاتحاد وما يجب من اتقاء عداوة الترك واضعاف الدولة وحصر السعي في جمع كلمة العرب وايجاد قوة جديدة لهم من السلاح وغيره استعدادا لحفظ حياتهم والنهوض بأمر استقلالهم اذا انكسرت الدولة وحفظ حقوقهم معها اذا هي انتصرت كما يتمنى كل مسلم . وقد ظهر لي منه الموافقة على هذا الرأي وخطبتي التي ألقيتها أمامه في احتفال العيد العام بمنى وتصديقه اياي في كل مقاصدها برهان رسمي على ذلك مطبوع في جريدة القبلة ومجلة المنار [1].

على انني لما عرضت عليه الشروع في مخاطبة أئمة الجزيرة حوله الى الوحدة وجمع الكلمة قال انه يرى تأخير ذلك الى أن يستولي على المدينة المنورة لئلا يظن جيرانه انه يخطب ودهم خوفا منهم لارجاء وسعيا للمصلحة العامة — ولم يرضني هذا الجواب فقلت له يمكن أن يكون السعي من قبل بعض وجهاء العرب لا باسمكم بشرط موافقتكم اذا هم وافقوا فأبى الا ارجاء ذلك : وبعد أن عدت الى مصر اخبرني واخبر غيري بعض من كان في خدمته انه قال : من هؤلاء الكلاب حتى اتفق معهم ؟ اليوم يوجد في الدين الامير فلان والامام فلان وغدا لا يوجد لا هذا ولا ذاك — وذكر أسماءهم — ولكن هذا الناقل ممن بلونا عليهم الكذب وقد كذب لنا وعلينا وله وعليه . وقد يصدق الكذوب وكان ماقاله هو الواقع بل كان من الواقع ان تقاتل مع ابن سعود بدلا من ان يتحدا

ثم إن الشريف بعد ان بايعه أهل الحجاز باسم ملك العرب واعترف له حلفاؤه

(١) راجع ص ٢٨٢ ـ ٢٨٨

من الانكليز والفرنسيس فالت الحجاز فقط - جاهر بعداوة الدولة العثمانية والترك وبذل الجهد في قتالهم فخاب املنا في وقوف ثورته عند الحد الادنى مما رجوناه منها بعد ان رفض السعي الى الحد الاعلى أو المباح به وقد اشرنا الى ذلك بقولنا في بيان الحالة السياسية في الحجاز من الرحلة الحجازية (ص ٢٨٠ من المجلد العشرين) عند الكلام على ما كان يراد من مبايعة الشريف بالخلافة وسعينا الى مقاومة ذلك:

« بت ليلتي أفكر في هذه المسألة ... وكان رأيي في مسألة الخلافة هو ما قيل لي في هـذه الليلة عن رأي الامير دون من حوله وقد أكبرته لذلك وكان أعجبني من منشور به الاول جعل عداوته قاصرة على الاتحاديين الذين لا الشعب التركي كله ولا الدولة العثمانية أيضا - وكذلك كانت الثورة في أول عهدها - »

فمفهوم هذه الجملة الاخيرة ان الثورة الحجازية تحولت عند كتابة هذه النبذة من الرحلة عما كانت عليه من ذلك في أول عهدها ومنه الوقت الذي كنت فيه بمكة، وهذا كل ما كان يمكن التلميح اليه تحت عين المراقبة (وذلك في ربيع الآخر سنة ١٣٣٦ - فبراير سنة ١٩١٨) ولمحت قبله في (ص ٢٨٠) الى الحديث الذي دار بيني وبين الشريف الامير في شكل حكومة الحجاز الجديدة بقولي اني ذكرت له رأيي مفصلا تفصيلا، وقولي لأن ان ذلك تفصيل كان في بيان محاورات أتصله لمنصب الخلافة وما يترتب عليه من المفاسد مع كونه هو مبايعا للسلطان محمد رشاد - وحديث « اذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما » (رواه مسلم في صحيحه) - وكون بيعة أهل الحجاز له لا تصح لأنهم ليسوا أهل الحل والعقد في الامة الاسلامية وهم خاضعون لسلطته وحكمه غير أحرار في اختيارهم - وكراهة العالم الاسلامي كله لثورة الحجاز وغير هذا مما لم يكن التصريح به ممكنا في عهد المراقبة . وقد كان الشريف يؤمل أن أكون من أنصار الثورة وأعمال الحجاز وكان هذا ما يجب علي لو جرت الاعمال على ما أعتقد صلاحه كما صرحت له عند وداعه ولما لم أفعل أظهرت حكومته لي العداء وأمرت بمنع المنار من دخول الحجاز بحجة اني طعنت في رجالها بما يرفع الثقة منها ونشر ذلك في جريدة القبلة وشهد لجد - فلما علمت به كان أول ما خطر على قلبي قوله تعالى (ان الله يدافع عن الذين آمنوا) فانه يدفع عني اتهام كثير من الناس اياي

بمشايعة هذه الثورة مطلقا واردت نشر بلاغ المنار في المنار نفسه منعتني المراقبة الانكليزية على أنه كان نشر في جريدة (وادي النيل) في الاسكندرية وسمح بعض رجال المكتب العربي في الصالح بحملي على تأويل لما كتبت افترحوه فلم أقبل وكذلك نشرت على سبب ما كتبته وفرض الصحيح منه مما لا يرضى الشريف على أن غضبه كان لسبب آخر

والسبب الذي جرأ أمير مكة بالامس وملك الحجاز اليوم على ما فعل وجعله لا يبالي بالترك ولا بأمراء جزيرة العرب هو الاتفاق الذي عقده مع بريطانية العظمى قبل الثورة فانه كان يظن ان سيحكم به جزيرة العرب وسورية والعراق بقوة بريطانية العظمى التي لا تعلوها قوة في العالم وقد أشرنا الى ذلك في بيان صفاته من الرحلة الحجازية بقولنا (ص٣٥٧ م ٢٠) «ومنها ان ثقته بالدولة البريطانية وتدبيرها وقوتها وعظمتها لا حد لها ولا سلطان لشيء عليها فهذا لم يكن يمكن لاحد اقناعه بغير ما اعتقده وجرى عليه لا ببرهان العقل ولا بحجج النقل، وله في جريدة القبلة أقوال في ذلك غريبة نقلنا بعضها وفيما لم ننقله ما هو أغرب منه حتى ما نشر بعد خذلانها له ولولده فيصل غير مرة - وهذا الايمان والتسليم لها في حالتي الرضا والغضب هو الذي عطفها عليه وعلى أولاده أخيرا كما رأى بيانه. على انه كان يكتم نص هذا الاتفاق حتى عن أولاده حافظا اياه مع المكتوبات الرسمية الاخرى في الكيس الازرق الذي لا تمتد له غير يده. وقد كان بعض البريطانيين اطلعني على نص هذا الاتفاق بالعربية قبل الثورة وسألني عن رأيي فيه فقلت واجما متألما: هذا اتفاق لا يرضى به الا عدو للعرب أو حمار لا يفهم معناه. فاحمر وجهه ووقعت بيني وبينه مناقشة حادة فيه الا أني تألمت في نفسي لجريان كلمة حمار على لساني. وما رأيته قريب مما بلغه الشريف فيصل في دمشق لجريدة المفيد ونشر فيها ونشرناه في الجزء الثالث من هذا المجلد الا أن فيه تصريحا بأن غربي سورية ليس عربيا وانه لا يدخل في الاتفاق لما تدعيه فرنسة من الحقوق فيه وان ما عداه من البلاد العربية التي لا ينازع انكلترة أحد في نفوذها فيه هو الذي تعترف باستقلال ما يستولي عليه الشريف منه بشروط منها استثناء ولاية البصرة الخاصة بالانكليز وكون جميع ما تحتاج اليه هذه البلاد التي تستقل باستيلاء الشريف

عليها من الموظفين وغير الموظفين مما يحتاج اليه لادارة البلاد فاعا يطلبه من انكلترة ـ واعترافه بجميع ما بينها وبين أمراء العرب وزعمائهم من الاتفاقات والمكاتبات (وان لم يطلع على شيء منها) فالشروط خمسة هذا مضمونها ولا أدري هل عدل شيء منها أم لا ، وقد قيل ان لديه معاهدات ومكاتبات أخرى وانما العبرة بالعمل ، فهو الذي لا يماري أحد فيه ، وسيأتي ذكر ما انتهى الى شوطه وشوط أولاده فيه ، على انه قد ظهرت قوادمه وخوافيه

ما ائتمر به السوريون بمصر

اجتمع فريق من أشهر مفكري السوريين المقيمين بمصر في أوائل عهد الحرب لاجل التشاور في مستقبل سورية ودعوا كاتب هذا المقال لحضور اجتماعهم فكان رأي جمهورهم ان الحلفاء سيكونون هم المنتصرين وسيستولون على بلادنا فينبغي ان نخاطبهم فيما نحب ان تكون عليه حكومة البلاد في ظلهم احتياطا اذ يرجى ان يتساهلوا الآن فيما لا يتساهلون بمثله بعد النصر — فعارضت في ذلك جازما بأنه لا يجوز لنا ان نخاطب أحدا في شأن بلادنا ونفرض انه سيكون مستوليا علينا . — وقد تكرر هذا الاجتماع في عدة مجالس من دورهم تمحصت فيها الآراء وكان الرأي الذى انفرد كاتب هذا المقال بعرضه عليهم والاحتجاج على صحته والنضال عنه هو وجوب السعي الى الاستقلال التام وتكوين دولة عربية اذا انكسر الترك وحلفاؤهم، واما آراء سائر السوريين من النصارى فكانت تنحصر في رأيين ثم عدل بعضهم رأيي فصارت ثلاثة (الاول) انضمام سورية الى بعض الدول الاوربية وتجنسها بجنسيتها وتجعلها جزءا منها (الثاني) ان تكون مستقلة في ادارتها تحت حماية دولة أوربية (الثالث) ـ وهو رأيي المعدل ـ ان تكون مستقلة اذا أمكن تحت رعاية الدول العظمى وبشرط ان يكون لها مستشارون ومراقبون من بعض تلك الدول. وأنا لم أوافق على هذا التعديل لان الاستقلال فيه صوري لا حقيقي ، ولم أقبل في وقت من الاوقات ان يكون لاجنبي في بلادنا أدنى سلطان ، ثم وجدنا من غير هذه اللجنة أفرادا وافونا على طلب الاستقلال التام المطلق كما سنذكر بعد

وقد وضع هؤلاء المؤتمرون مواد أساسية لشكل حكومة البلاد في تقدير استقلالها التام ومواد أخرى للاستقلال الاداري تحت الحماية في تقدير وقوعها وكتبوا لعشرين عضواً ممن عقده ووزعت فيهم ما كان في المؤتمرين وبعد مدة ما دارت المناقشة فيها وعدل بعض موادها. ولما ردت نسخة الاستقلال التام وتكوين دولة عربية في نسختي كتبت في حاشيتها ما يأتي (الاحتجاج) بعد أن ذكروا ما يحتج به طلاب الانضمام الى الدولة الاجنبية وطلاب الاستقلال الاداري في ظل دولة أجنبية وهذا نصه:

« ويحتج أصحاب الرأي بأن من وطن نفسه على أن يكون تابعاً لغيره لا يرجى له الارتقاء والوصول الى الكمال الانساني كما في الاستقلال والحرية الذي تبذل الامم دماءها وأموالها في سبيله. وان هذا العصر عصر تكوين الجنسيات فاذا كانت الامم العزيزة البالغة أعلى درجات الحضارة لا ترضى لجنس من الاجناس أن يساوي جنسها باختيارها سواء كان من عناصر دولتها أو مستقلا دونها، وسواء كان مثلها أو فوقها أو دونها في العلم والمدنية — فهل يعقل أن ترضى أمة من الامم أن ترفع شعباً ضعيفاً تستولي عليه بالقوة حتى تساويه بأبناء جنسها؟ هذا محال لا مطمع فيه فالواجب على السوريين وهم أرقى الامة العربية علماً وحضارة الا يحقروا أنفسهم وأمتهم ما دام قد خلصهم الله وانتشلها من الاستبداد، ولا يرضوا بأن يكونوا دون أمم الجبل الاسود والبلغار واليونان، بل يجب أن يقدروا ذلك قدره ويوجهوا أنفسهم الى أعلى ما تطلبه الامم من الكمال، ويبذلوا كل ما في وسعهم لنيل الاستقلال. فان نالوا بالسعي الى تقدم تم القصد، وان صدهم المقدار كان لهم عذر» اهـ وهذه النسخة محفوظة كغيرها عندي وثم نسخة عليها تعليق مهم بقلمي عند باشا من باشوات أولئك المؤتمرين. وقد كان ذلك كل ما أثمره اجتماعهم في أواخر سنة ١٩١٤ وأوائل سنة ١٩١٥ وقد سعينا الى الاتفاق مع غير هؤلاء من كبار السوريين على طلب الاستقلال لبلادنا وتكوين أمة عربية فلم نقنع الا نفراً قليلا من النصارى في مقدمتهم اسكندر بك عمون الخالد الذكر باستقلال فكره وكرم أخلاقه، وكان هذا قبل تأليف الحزب السوري الذي يمثل الوطنية الحق بعد جهاد في تأليفه دام مدة أشهر حتى انتصر طلاب الاستقلال من مؤسسيه على طلاب الاحتلال

اتفاق سنة ٩١٦ على قسمة البلاد العربية

وضع هذا الاتفاق كل من السر مارك سايكس المستشرق أحد أعضاء مجلس النواب البريطاني وموسيو جورج بيكو الذي كان قنصل فرنسة الجنرال في بيروت الى عهد اعلان الحلفاء الحرب على الدولة العثمانية وبعد أن أقنعا دولتيهما به الفا وفدا وحضرا الى مصر ثم سافرا الى جدة لاجل التمهيد لقبوله عند الدرربين وملك الحجاز . وقد الفا في أوائل رجب سنة ١٣٣٥ وأواخر ابريل سنة ١٩١٧ جمعية من السوريين فيها ثلاثة أو أربعة من المسلمين وواحد من وجهاء الدروز وباقي أعضائها من المسيحيين لاجل الاتفاق بين أبناء ملل البلاد على ما سيكون عليه في ظل هذا الاتفاق قبل اعلانه . (وفي هذه المرة لم يطلب السر مارك سايكس مقابلتي لانه يئس من استخدامي لمقاصده مما دار بيني وبينه المامه الاولى بمصر سنة ١٩١٥) وشاع في تلك الاثناء أنه قد ألفت جمعية سورية بمصر لاجل السعي لاحتلال فرنسا سواحل سورية وجمعية اخرى لانشاء حكومة مسيحية في سورية تحت اشراف فرنسة ورعايتها او حمايتها

ولدي مذكرات في بعض ما سمعته في تلك الايام من بعض أعضاء جمعية السر مارك سايكس ونبرهامن [illegible] لرجال من اهم المشتغلين بالسياسة منهم في (٢٨ يونيو) انه فهم من السر [illegible] ون اعطاء سواحل سورية كلها لفرنسة لانها البلاد [illegible] ون قد احتلوها [illegible] حروب الصليبية المشهورة [illegible] [illegible] واحل سورية لفرنسة وقد ذكر سايكس [illegible] تخدير عده بذلك ولقنه ما اقترحه ان يقوله لموسيو جورج بيكو وقنعه به فلم يخالف بحرف منه ، (ولكن هذا الرجل [illegible] وهمهم أنه هو الذي اقنع والحق ان الملك لم يعارض فيه فاحتاج الى اقناع) ثم بعد بضعة أيام اخبرني بذلك رجلان آخران ممن كانوا يلتفون سايكس أو من أعضاء اللجنة التي الفها ثم بعد سماعنا هذا باسبوع أو أسبوعين جاء القاهرة أحد القواد الذين كانوا مع الامير فيصل فالقيناه معتقداً ان الملك راض للانكليز والفرنسيس على ما قررا في شأن سورية والعراق ، ثم سمعت هذا الخبر بعينه بعد شهر من مسلم آخر كان مشتغلا بهذا العمل مع اللجان . ثم اخبرنا بعض من كانوا مع الامير فيصل انه رأوا كتابا من والده يذكر فيه ذلك

ويملأه بأن فرنسة تحفظ له سواحل سورية من التعدي عليها الى ان يصير للدولة العربية اسطول يحميها به على انها تدفع مبلغا معينا للدولة العربية في كل عام مادامت محتلة في تلك السواحل

وجملة القول انه قد تألف بمصر في سنة ١٩١٧ جمعيات ولجان بايعاز الانكليز والفرنسيس بعضها لوضع أساس الاتفاق بين الطوائف على ما سيكون عليه نظام البلاد بعد تنفيذ ما علم بالاجمال أن الدولتين الحليفتين اتفقتا عليه ومنه جعل فلسطين وطناقوميا لليهود وبعضها لوضع أساس الاتفاق بين العرب واليهود ومن هذه الجماعات جمعية فندق كنتيننتال ولم يكن فيها الا مسلم واحد وقد كنت كل ما سمعت من أحد خبراً من الاخبار في هذا الشأن احادثه بالتي هي أحسن الا أن يكون مسلماً فانني انذره سوء عاقبة السعي مع الساعين في هذه السبيل وما يعقبه من لعنة الملايين له الى يوم الدين

وفي أول سنة ١٩١٨ ظهر الاتفاق بين الدولتين بمظهره الرسمي وقد وصل الى مصر في منتصف شهر فبراير منها بريد أوربة شارحاذلك فأمرت المراقبة بمنع الخوض فيه في الجرائد الى أن تمهد له السياسة ما ترجو أن يكون به مقبولا عند جماهير السوريين المختلفي الاحزاب والآراء . وكانت وصلت الي في هذا البريد جريدة المستقبل العربية التي تصدرها في باريس جمعية موسيو شكري غانم السورية بنفقة الحكومة الفرنسية مفصلة لاعلان هذا الاتفاق في لندرة ثم في باريس كما ذكرناه بعد ذلك في الجزء الاول من مجلد المنار الحادي والعشرين (فليراجعه من شاء عند مطالعة هذه المقالة في ص٣٤)

وعلى اثر ذلك جاءني من أحد وجهاء السوريين المشتغلين بالسياسة مع الانكليز كتاب يدعوني فيه الى شرب الشاي في داره « مع أخلص المحبين » في مساء ٢٠ فبراير سنة ١٩١٨ فأجبت الدعوة وانا متوقع أن تكون لتأييد الاتفاق الانكليزي الفرنسي على قسمة البلاد العربية بين الدولتين وعازم على مقاومة ذلك موطناً نفسي على النفي من مصر بهذه المقاومة مستمداً الله . وقد رأيت في المكان ما قوي حدسي ، رأيت أشهر رجال الحزب الانكليزي والحزب الفرنسي والحزب الحجازي وحزب الاتحاد اللبناني وأفراداً من المستقلين طلاب الاستقلال . وبعض العراقيين من الضباط وغيرهم ومن مقدمتهم طالب بك النقيب والاستاذ الكاظمي ونسيب بك السعيد: وبعد شرب الشاي وما يتبعه من الحلوى والفاكهة اقترح على شاعر

العرب الكاظمي أن يسمع الحاضرين ماتجود به قريحته من الشعر الاجتماعي فاعتذر بانحراف صحته ثم ارتجل أبياتا صفق لها القوم تصفيق الاعجاب مرارا لانذكر منها الآن الا قوله

قد منعنا الحق الصراح وأعطي غيرنا حقنا بلا استحقاق

ثم اقترح علي الدكتور فارس نمر أحد أصحاب المقطم(١) ان يلقي خطابا في موضوع الحال الحاضرة فأجاب

خطاب الدكتور نمر في شأن اتفاق سنة ١٩١٦

قال الخطيب في فاتحة خطابه انه مضطر الى مخاطبة الحاضرين في بيان الحال التي انتهت اليها مسألة وطنهم بصراحة فوق المعتاد ثم أشار الى مادار بين الدولتين في مسألة البلاد العربية وقال ان رجالهم العظام صرحوا بأنهم لا يمكنهم ان ينفعوا سورية حول البساط الاخضر في مؤتمر الصلح الا اذ كان زعماؤها متفقين على أمر مستقبلهم فهم يتهموننا بعدم الاتفاق وان الفرصة الآن سانحة لنا اذا أردنا انقاذ بلادنا من حكم الترك واذا فاتت هذه الفرصة فلا يمكن ان تعود لنا ولا لابنائنا واحفادنا (قال) وأنا أقول اننا لسنا مختلفين بقدر مايظنون أو يقولون ولا مجال للخلاف في هذا الامر الجوهري للبلاد وهو انقاذها من ظلماء الترك .... وأما الخلاف فيما عدا ذلك من مستقبل البلاد فأمره سهل متى تم لنا انقاذ البلاد - (وقال) اني قرأت تقرير جمعية الاتحاد اللبناني فرأيت ان الخلاف بينها وبيننا بسيط يمكن تلافيه بتعديل خفيف فهي تريد استقلال لبنان ونحن نبغي استقلال لبنان وسورية والعراق أي البلاد العربية (وهنا صفق له الكثيرون) ثم نوه بأننا كلنا عرب ومصلحتنا واحدة

(وبعد هذا التمهيد بالاسباب حاول ان يأخذ قراراً من الحاضرين بالامرين اللذين زعم السر مارك سايكس بخطابه في الجمعية السورية بباريس انه يمكن للسوريين الاحرار في المهاجر الاتفاق عليهما وهما قلب الحكم التركي وازالته - واعتماد السوريين على مساعدة فرنسة في السير بأنفسهم في طريق الحياة - أي كاعتماد العراقيين على انكلترة في ذلك ! (راجع ص ٣٥ م٢١) فقال:

(١) وانما صرحت هنا باسم الخطيب مع التزامي كتمان اسماء الافراد في هذا المقام ولا سيما من كنت منتقدا لرأيهم وعملهم في مسألتنا في كل ما كتبت لان هذه الخطبة قد ذكرت اخيرا في خذل كبير خطب فيه الخطيب و ردت عليه كما يأتي

ألسنا كلنا متفقين على انقاذ بلادنا وتحريرها من ظلم أعدائنا الاتراك واخراجهم منها ؟ - وصار يلتفت الى الحاضرين من كل جانب فقال له بعضهم نعم وسكت الاكثرون - فقال - ليس بعد هذا أمر يقتضي الاتفاق عليه من الآن الا اظهار رغبتنا ورجائنا في حلفائنا الكرام ولا سيما انكلترة وفرنسة ان يساعدونا على اتمام مقاصدنا وان نحسن الظن بهم ونقوم بما تقتضيه السياسة من اظهار الثقة بهم وان ظهر لنا من أقوالهم وأعمالهم ما لا ينطبق على أفكار البعض منا - فمن العقل الآن أن نترك البحث في ذلك ومتى صار السوري في سورية واللبناني في لبنان والعراقي في العراق فمنذ ذلك يكون المجال امامنا واسعا في البحث عن مستقبل البلاد

ثم قال انه سمع من بعض الحاضرين كلمات تدل على سوء الظن والتشاؤم ومنه قول الكاظمي

قد منعنا الحق الصراح وأعطي غيرنا حقنا بلا استحقاق

وقال ان هذا في غير محله وان حقنا لنا لم يأخذه أحد بغير استحقاق الخ

خطاب الكاتب صاحب المنار

ولما اتم خطابه ظهر لي ان شيء في هذا الاجتماع المدبر عين اليقين وان المراد منه ان يؤخذ من جمهور زعماء السوريين - وكذا العراقيون على قلتهم هنا - اقرار بما قررته الدولتان كما أخذ من جمعية موسيو غانم بباريس وهو انهم يطلبون من الحلفاء اخراج الترك من بلادهم ويفوضون أمرها الى انكلترة وفرنسة - فنهضت في اثره متصديا للرد عليه فصفق الاكثرون - وألقيت خطابا حماسيا تدفق من قلب يقطر دما افتتحته بقولي اني اضطررت الآن الى مواجهة صديق بالرد عليه في وجهه لمصلحة الوطن كما اضطررت من قبل الى مواجهة صديق آخر بالرد عليه في وجهه لمصلحة الوطن وهو سليمان افندي البستاني ، وان كثيرا من الحاضرين هنا قد كانوا من شهود الاحتفال الذي أقيم للبستاني في فندق الكونتننتال عقب زيارته لسورية ومصر وارادة العودة الى الآستانة (وذكرت ملخص موضوع خطابه وردي عليه في ذلك الاحتفال) ثم قلت

ان صديقنا الخطيب المفوه قال انه قد اضطر الى مخاطبتكم بصراحة غير معتادة وانا أقول اني مضطر الى مخاطبتكم بما هو أصرح مما خاطبكم لانه لا ينبغي أن يكتم عنكم شيء من أمر وطنكم الذي تعدون أرقى اهله علما واختبارا كما قلت

في تعليل ردي على صديقي البستاني في ذلك الاحتفال المشهور

قال الخطيب ان الدولتين الحليفتين قد صرحتا بلسان مندوبين رسميين لهما بأنهما لاتستطيعان مساعدتنا في مؤتمر الصلح اذا بقي العدو في بلادنا الا اذا اتفق زعماؤنا في أوربة ومصر وأمريكة على الأمرين اللذين ذكرهما تبعاً للسر مارك سايكس أحد ذينك المندوبين وهذا ما كتمه الخطيب عنكم

أما أنا فأقول لكم ان الدولتين الحليفتين قد اتفقتا على قسمة بلادكم بينهما لاستعبادكم باستعمارها فقد جاءتني جريدة المستقبل الباريسية منذ ثلاث فاطلعت فيها على تفصيل هذا الاتفاق (وخلاصته هو كما نشرناه بعد في الجزء الاول من المجلد الحادي والعشرين) فقاطعني الدكتور نمر قائلا انهم صرحوا بأنهم لايعاملوننا بالضغط والتوسع الاستعماري ووافقه الدكتور شهبندر فقلت للدكتور نمر لاتقاطعني قبل ان أتم كلامي – قال أريد تفسير العبارة وايضاحها كما قيلت . قلت آخر ما تريد ان تقوله الى أن أتم كلامي – قال سحبت كلامي . فمضيت في كلامي وهذا ملخصه

ان الترك ضعفاء وجاهلون مثلنا فلا يستطيعون أن يستعبدونا اذا نحن تنبهنا لحقوقنا وأما انكلترة وفرنسة فهما أقوى منا في كل شيء فلا نستطيع أن نتفصى من عقدهما اذا هما استولتا علينا — هم أقوى منا في العلم هم أقوى منا في المال هم أقوى منا في السياسة هم أقوى منا في الحرب — وذكرت الجيوش والسلاح والاساطيل البحرية والجوية — فانى لنا أن نتفصى من سلطانهم القاهر ؟

نعم قد قالوا انهم لا يريدون أن يثقلوا علينا بالسيطرة الاستعمارية وان فرنسة تقود السوريين الى الحياة والاستقلال كما تفعل بريطانية في العراق واعل مرادهم أنهم يجعلون لنا اميراً منا وكثيراً من المستخدمين، وهذا تصريح بأنهم يريدون استعمار بلادنا والسيادة علينا وانما يهونون علينا الخطب بأنه استعمار هين لين لاقاس شديد . ونحن نريد أن نكون احراراً مستقلين، لاعبيداً مسودين، سواء علينا أكان السيد رحيما بعبيده أم لا . على أن هذه الطريقة اللينة في الاستعمار هي امثل الطرق التي اهتدوا اليها بالتجربة ولكنها امثل وخير لهم لا للشعوب التي يسودونها ، فانها تخدر اعصاب الجماعير وتخدع عامة الامة بأن حكامها منها ليكونوا خاضعين لها راضين بأحكامها، وبذلك يتعذر على الزعماء العارفين الدفاع عنها والمطالبة بحقوقها، لانهم اقلتهم تسهل مراقبتهم وازال

غلاب بهم ، اذا لم تكن وراءهم امة تؤيدهم . قال القوس اسكيروس في
كتابه اميل القرن التاسع عشر : ان شر الحكومات الحكومة المستبدة القيمة
على ذلك بنحو مما اشرنا من تخديرها لاعصاب الامة حتى لا يبقى لها عامل
فكر في الخروج مما هي فيه . والشواهد على هذا في مستعمراتهم في الشرق
والغرب ظاهرة جلية كتونس والجزائر والولايات المستقلة وغير المستقلة في الهند.
في رأيت اهل الولايات الهندية التي يسمونها مستقلة أبعد من غيرها عن فهم
معنى الاستقلال والتفكر فيه دع الاستعداد له والسعي اليه، وعلمت ان رؤساء
حكوماتها اطوع للانكليز من غيرهم واشد قبولا لكل ما يقترح عليهم . واما
الولايات التي يدير امرها الانكليز بأنفسهم فهي التي تتأمل وتنتقد وترجو
الاستقلال وتستعد له وتعتقد ان ستناله في يوم من الايام

ومن عجائب السخرية ان هؤلاء الناس يدعون تحرير الامم والشعوب وأنهم
يريدون بـ[illegible] بلادنا قودنا الى الحرية والاستقلال والمستقبل الزاهر الجميل!
يسمون الحقائق باسماء الاضداد ، وما ادري بأي مقود اوربي يريدون ان يقودونا
الى الاستقلال الذي لا نصل اليه بقيادتهم الا بعد الموت والورود على النار ؟ ومتى
كانت الشعوب تقاد الى الاستقلال كانقياد الدواب حاملة الاثقال؟ يأخذون منا
المال ويجودون علينا بالالفاظ والاسماء التي تخفف وقعها على قلوب الجاهلين،
كالحماية والرعاية والاستشارة والمساعدة والانتداب وغيرها)

(وقلت) اني اعتقد اعتقاداً يقيناً انه اذا كان في بلادنا رجل واحد من
هؤلاء الناس اعطي حق المراقبة على حكومتها وسمي عبد السوريين او عبد
العرب فانه يكون هو السيد المالك بالفعل وتكون جميع الامة مستعبدة له .
الحرية والاستقلال معنى واحد يقابله العبودية وهي حقيقة واحدة لا يتغير
معناها بتغيير اسمائهما. ولو انهم اتفقوا على ان تكون بلادنا مستقلة استقلالا
تاما في سياستها سائر شؤونها وقالوا لنا اتفقوا على صفة حكمها وادارتها لنساعدكم عليه
بما يتعين باتفاقكم لكان لهذا الطلب معنى، ولكنهم اتفقوا على اغتيالها وامرونا
ان نتفق على طلب هذا منهم لتكون حجة على انفسنا باننا بخعنا انفسنا بأيدينا ثم
نسمي الموت حياة والاستعباد استقلالا . اما والامر كذلك فالاليق بكرامتنا
والواجب على كل مسلم ان يقبع في كسر بيته (أي في زمن الحرب والحكومة

العرفية) وينتظر الفرج من الله تعالى

واني أختم خطابي بفكاهة تناسب المقام عسى أن يكون أسلوبها الفكاهي مخففاً لمرارة ما سمعتم من تهديد الخطر الاكبر لوطنكم : حكي أن رجلا مسلماً تنصر في جبل لبنان وذهب الى (دير قرحيا) الشهير واسلم في سلك رهبانه، واتفق أن كان الرجل مترفاً وان وجوده في الدير كان في أيام الصوم الكبير فكان لا يجد من الطعام الا العدس المسلوق ونحوه من النبج الخالي من الدسم فاشتد به القرم (شهوة اللحم) فسرق في ليلة دجاجة من دجاج الدير وذبحها وشرع في سلقها بعد أن نام الرهبان فاتفق أن مر بعضهم وشم الرائحة من حجرته فطرق بابه وكلمه فلم يجبه فشكاه الى الرئيس فجاء الرئيس بنفسه وسأله عما في القدر فقال سمكة يا أبونا، قال من اين جاء السمك في جنح الليل من البحر البعيد الى هذا الجبل . قال أما قال سيدنا يسوع بالايمان يكون لكم كل شيء ؟ قال الرئيس بلى واننا نحب أن نرى هذه السمكة التي جاءت ببركة الايمان بسيدنا يسوع لنزداد ايماناً بمشاهدة هذه العجيبة — وكشف القدر فرأى الدجاجة، قال هذه دجاجة يا أخ حنا لا سمكة، قال قل سمكة يا سيدنا . قال كيف أقول سمكة وأنا أراها دجاجة وهل يغير الحقائق تغيير الاسماء؟ قال اتقول ان تغيير الاسماء لا تأثير له يا أبانا؟ قال نعم لا يغير حقيقة المسمى، قال اذاً ماذا كان اسمي انا ؟ قال محمد . قال وما اسمي الآن ؟ قال حنا . قال اذا كانت الاسماء لا تغير الحقائق فانا مسلم اشهد ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله وآكل الدجاجة واسافر من الدير صباحاً — فاذا كانت الدجاجة انقلبت سمكة فاستعباد المقتسمين لبلادكم ينقلب استقلالا والسلام

فضحك الحاضرون وصفقوا تصفيقا شديدا وانصرفت وقال لي بعض من شيعني الى باب الدار من أعضاء حزب الاتحاد اللبناني انك قد أرحتنا بكشف الخبا وكانوا قد طلبوا مني الخطابة فأبيت والمسألة مرتبة

محاورة مع ضابط بريطاني

بعد مرور سبوع [illegible] هذا [illegible] الانكليزيون من حاضرية يترقمون [illegible] اعتقالي فيه [illegible] صديق سافوا لي مع [illegible] السلطة العسكرية او مدنية لا احد بمقالة لمنار وراقب في [illegible] جرى بينه وبين [illegible] بيني وبين ضابط بريطاني في مكتب [illegible] الكتب محاورة كان من المسائل فيها [illegible] أخصها [illegible]

(قال) هل سمعت شيء مادار بباريس بشأن سورية وخيبة النصر [illegible]

سايكس ؟ قلت نعم (قال) ما رأيك فيها ؟ (قلت) انها تسوء السوريين جداً ولاسيما المسلمين وعللت له ذلك بما هو معلوم بالضرورة . قال كان الغرض من تلك الخطاب والتصريحات ارضاء السوريين فهل جاءت بضد المراد منها؟ قلت انها جاءت بالاثر الطبيعي الذي يجب أن يترتب عليها وان كان المراد ضده — قال : ان السر مارك سايكس صرح في خطابه بأن الحجاز قد استقل فلا يعقل ان يرفض استقلال سورية التام والحجاز مستقل . قلت هذه مسألة نظرية ذكرت مع كلام ينقضها وهو أن انكلترة وفرنسة اتفقتا على اقتسام بلادنا ... قال انهم صرحوا بترك العزم على السيطرة الاستعمارية . قلت لامعنى لهذا وقد اقتسمتم البلاد الا انكم تريدون الرفق والاحسان في ادارتها ونحن نريد الحرية والاستقلال الصحيح ، لا الاستعمار اللين اللطيف . وذكرت له اجتماع السوريين وما قلته فيه بشأن الدولتين وقسمتهما للبلاد وهذا التصريح (وهو به عليم) فأجاب جوابا ذكر فيه القسمة ثم عاد الى حصر الكلام في سورية وفرنسة :

قال ان قسمة البلاد بيننا وبين فرنسة يراد بها مناطق النفوذ المالي بمعنى أن أحدنا لايعارض الآخر في منطقته بالاعمال المالية وقد صرح وزراء فرنسة رسميا بأن حكومتهم لاتنوي فتح شيء من البلاد ولا قهر شعب على الخضوع لها فهي تريد مساعدة السوريين مساعدة صداقة لاقهر وتغلب . قلت ان هذا الكلام يقوله وزراء كل دولة من دول الفريقين المتقاتلين لاقامة الحجة على الفريق الآخر ولاقناع الاحرار والاشتراكيين حتى من امتهم بما لايرضون الاستمرار على الحرب بدونه — ولاجل هذا تطلبون منا تفويض أمرنا اليكم لتقولوا ان هذه الامة أو الشعب يطلب منا مساعدته على تحريره ومساعدته على استقلاله فلا مندوحة عن اجابة طلبه حبا في الانسانية

قال ماذا كان ينبغي ان يقال في هذه المسألة ليرضيكم ؟ قلت لو كانت الدولتان تريدان استقلال بلادنا لعرفتا كيف ترضياننا ، ذلك بأن تقولا اننا قررنا ان تكون البلاد العربية دولة مستقلة كبلجيكا واننا لانعقد الصلح الا اذا كان هذا الشرط مما يقرره مؤتمره — قال ان فرنسة لم يمكنها ان تصرح بأكثر مما صرحت به ولكن دعنا من الاقوال الى الاعمال . ماذا تريد ان نعمل لنثبت لكم حسن قصدنا في بلادكم ؟ ان جيشنا الآن في فلسطين ويجوز أن يتمكن من الزحف على دمشق وأخذ سورية ومن المعلوم ان سورية في حالة سيئة من

الفقر والضعف وان كثيراً من رجالها الاحياء منفيون ومهاجرون فهل تأمن اذ تركناها وشأنها بعد اخراج الترك منها أن تقع في الفوضى والاختلال وزيادة الحاجة والفتن؟ - قلت ان الكلام فيما ينبغي فعله في سورية ماجاء وقته لانكم لم تفتحوها ولو فتحتموها وسألتموني لطلبت رؤية البلاد ومن فيها وحينئذ اما ان اقول اتركوها ففيها من الرجال من يقوم بأمرها وأما ان أطلب مساعدة مالية موقتة، ولكننا نرى ان ماتخافون وقوعه من الفتن في سورية ان تركت وشأنها وقع بالفعل في روسية فهي في فوضى لاأمن فيها على نفس ولا مال ولا مصرف (بنك) ولا معبد ولا مصلحة ثم انتم لاتقبلون من المانية دعوى ابقاء جنودها فيها بحجة من أمثال هذه الحجج لحفظ الامن واعادة النظام مع أن البلاد الروسية متاخمة للبلاد الجرمانية ويخشى أن تنتقل العدوى منها اليها - فسكت وانتهت المناظرة بذلك

ملخص حال السوريين بمصر في زمن الحرب

وجملة القول ان السوريين المقيمين بمصر واللاجئين اليها كانوا زمن الحرب في امر مريج وقدعبث الاجانب باكثر الذين يتمرسون بالسياسة منهم فكانوا يخدمونهم بكل مايريدون وقدخاننا اكثر الذين كانوا عاهدونا وأقسموا أغلظ الايمان على السعي لاستقلال البلاد العربية وعدم الرضا باحتلال الاجانب لشيء مامنها فارتد افراد من اشهر الاستقلاليين وآمن افراد من الاحتلاليين وتذبذب آخرون ممن كان يظن فيهم الثبات ومنهم من كان نصف استقلالي يرى انه ينبغي مشايعة الاجنبي على أخذ بعض البلاد العربية في مقابلة مساعدته ايانا على استقلال البعض الآخر غافلا عن استحالة ذلك فلم توجد جماعة تسعى للاستقلال التام الناجز بصدق وثبات على كثرة ماتألف من اللجان والجميات الاجمية الاتحاد اللبناني. بل سميت بعض الجاعات الاحتلالية جمية الاستقلال. وكان مماسمعته باذني من اثنين من مؤسسيها في (٢٠ و٢١ ربيع الاخر سنة ١٣٣٥ و١٢ و١٣ فبراير سنة ١٩١٧) انهما امرا مع آخرين بالذهاب الى سورية من طريق العريش لتأليب العرب وحلهم على الثورة والخروج على الترك فكتبت الجمية تقريرا بينت فيه انه يجب العمل في سورية باسم الشريف سواء كان بدعوة البدو الى القتال أو بغير ذلك فان لم يفعل الانكليز ذلك وقعوا في مثل الغلط الذي ارتكبوه في العراق فادى الى قتال العرب لهم وتأخير فتحه وان العرب في سورية سيفعلون ذلك اذا لم يكن حملهم باسم الشريف. وكان

المتكلم من صنف الضباط قال واننا اقنعناهم بذلك بالتقرير المشترك وبالكلام ــ وصدقه رفيقه وهو ممن جاهد بالخطابة والكتابة في هذه السبيل وارسل الى بلاد الدروز مرتين لاستمالتهم الى الانكليز وكنا قبل ذلك غششنا به واعطيناه اعتمادا فكان من الخائنين واراد ان يتوسل بالاعتماد للايقاع بنا

المذكرة الاستقلالية للرئيس ولسن

قد كان أول سعي مشترك مع جماعة للاستقلال التام بعد مابيناه من الجهاد السابق مذكرة كتابية لرئيس جمهورية الولايات المتحدة في إثر ظهوره في ميدان العمل ونداثه بحرية الامم وقعها كاتب هذا والشيخ كامل القصاب واسكندر بك عمون والدكتور مشاقه والدكتور شهبندر وخالد بك الحكيم بينا فيها ان البلاد السورية وسائر البلاد العربية لا ترغب الا في الاستقلال التام ولا تقبل غيره باختيارها وانها اذا استفتيت في ذلك وكانت حرة في الجواب فان سوادها الاعظم يصدق ما نقوله عنها اذ نحن من أعلم أهل البلاد بحال أمتهم . وقد جاء استفتاء اللجنة الاميريكية بعد ذلك مصدقا لهذه المذكرة ولعلنا ننشرها بعد

عهد السبعة

ولا أترك في هذه الخلاصة التاريخية ما نشر في بعض الجرائد السورية وسمي بعهد السبعة وحقيقته ان الالمان أرسلوا بعد كسر الروس وعقد الصلح معهم جيشا ألمانيا الى البلاد العثمانية عن طريق سيباستبول فخافت انكلترة ان تكون وجهته العراق فكان من أعمالهم الاحتياطية بذلك ان أقنع بعض المشتغلين بالسياسية منهم بمصر سبعة من الذين كانوا يجتمعون بهم بأن يسعوا الى مساعدتهم على تكوين قوة حربية للدفاع عن البلاد العربية على ان تتعهد بريطانية العظمى بالاعتراف لهم بكل ما يأخذونه من بلادهم بالسيف فيكونون مستقلين فيه . ولما لم توجه تلك القوة الالمانية الى العراق سكت الانكليز عن هذا العمل وأعرضوا عنه

فصل ثان في المسألة العربية بعد انتصار الحلفاء

كل ما سبق بيانه بالايجاز من أعمال الحلفاء وتمهيدهم السبل لاستعمار البلاد العربية كان في أثناء الحرب التي كانت كفتهم فيها مرجوحة وكان الخوف عليهم أقوى من الرجاء لهم ولذلك كانوا يحاولون اقرار أهل البلاد اياهم ومساعدتهم

لهم على استعبادهم مع الشكر لهم على ذلك لانهم سموه تحريرا للبلاد من ظلم الترك وما كان الترك مستعبدين للناس ولا سالبين لشيء من أملاكهم ولا حريتهم الدينية والشخصية ولا أولي جنف في الضرائب بل هم في كل ذلك أوسع حرية ورحمة من جميع الحلفاء في مستعمراتهم . ولولا فظائع بغاة الاتحاديين الاخيرة واستغلال الحكام من الترك والعرب لوسوسة عبد الحميد على نفسه قبلهم لكانت ذنوب الترك كلها سلبية أي انهم ليسوا معمرين ولا مرقين لشعوب دولتهم في العلوم والفنون والاعمال ولا محسنين لعمارة الارض واستغلالها

وقد سبق لنا قول في انتهاء الحرب وكيف كانت لمصلحة الحلفاء وتكرر ذلك في المنار (١) ومقالة في (المسألة السورية والاحزاب) بعد الحرب (٢) وفيها بيان استفتاء اللجنة الامريكية لأهل البلاد السورية في مستقبلهم وما يسمى الانتداب ، ومقالة في (استقلال سورية والعراق) (٣) وأقوال أخرى في شؤون سورية بعد الاحتلال المختلط فيها ووثائق تاريخية تراجع في مجلدي المنار ٢٠ و٢١ . وقد نشرت الجرائد العربية في سورية ومصر وأمريكة الشمالية والجنوبية الشيء الكثير مما كان من أمر المحتلين قبل الشروع في تنفيذ اتفاق سنة ١٩١٦ وبعده ولا سيما الثورات والقتال في كل من سورية الشمالية والجنوبية (فلسطين) — ولا تزال في ازدياد -- واعلان المؤتمرين السوري والعراقي لاستقلال القطرين وجعل فيصل ملكا على سورية واختيار أخيه عبد الله ملكا للعراق وما كان من زحف الجنرال غورو على دمشق واخراجه لفيصل منها ثم جعله البلاد السورية عدة دول تحت سلطته ، كما نقلت عن برقيات أوربة وجرائدها بعض أخبار الثورة الكبرى في العراق التي كانت تقاتل أكثر من مئة ألف جندي من العساكر البريطانية واضطرار انكلترة بذلك الى العدول عن جعل العراق تابعة للهند الانكليزية واعلانها العزم على تأسيس دولة عربية بريطانية في بغداد وتأليف حكومة وطنية موقتة فيه والاستعداد لانتخاب جمعية وطنية تؤلف الحكومة الثابتة وتختار الامير أو الملك لها وترشيحهم الشريف فيصل للعراق وبث الدعوة له ، وتأليف حكومة جديدة في شرق الاردن تابعة لحكومة القدس الصهيونية الانكليزية

(١) راجع ص ٦ من فاتحة المجلد ٢١ ومقالة عاقبة الحرب فيه (ص ٣٣٧)
(٢) ص ١٩٧ منه (٣) ص ٤٣٤) منه

وجعل الامير عبد الله أميرا عليها بعد ان جاءها من الحجاز بقصد الاستعداد لاخراج فرنسة من سورية وبث الدعوة لذلك وجدد المبايعة لاخيه «الملك فيصل»

كل ذلك معروف بالتفصيل لقراء المنار في مصر وسورية وأمريكة وسنزيده هنا بيانا وتحقيقا لم نسبق الى مثله فيما نعلم كما ينتظره الكثيرون منا ونحمد الله انه كسابقه حجة بينة على اننا كنا على الحق والصواب فيما كنا نصرح به في مصر في أثناء الحرب وبعدها وفي سورية مدة السنة التي أقناها فيها من اتفاق الحلفاء الانكليز والفرنسيس بمساعدة الشريفيين على استعمار بلادنا السورية والعراقية على ما بينهم من التنازع والخلاف السري والعلني في ذلك. وقد انفردنا بالسبق الى معرفة ذلك والمجاهرة به والتعرض بذلك للخطر وعدم انخداعنا لاحد في ذلك ولا خداعنا لاحد بل كنا نقول الحق وننصح باتباعه لقومنا ولخصومنا . وهذه منة من أكبر منن الله تعالى علينا ما كنا لولا فضله وتوفيقه أهلا لها في تلك المواقف التي زلت فيها اقدام الافراد والشعوب والدول

نصحنا للانكليز والفرنسيس ومذكرتنا للويد جورج

نصحنا للانكليز قولا وكتابة فيما نعتقد ان فيه الخير لنا ولهم وللانسانية وكان آخر تلك النصائح مذكرة ارسلناها الى مستر لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية منذ سنتين كاملتين بينا له فيها ان ما كنا نصحنا به لرجالهم بمصر قد ظهر صدقه وان ماجروا عليه مع حكومتهم في المسألة العربية مخالفا له كان هو الخطأ — بما وقع في العراق وسورية ومصر والهند — وان انكلترة ستكون هي المغبونة بقسمة تراث العالم الاسلامي بين الحلفاء بعداوة الشرق وحسد الغرب لها وان عداوة اكثر من ثلاثمائة مليون من المسلمين احتقاراً لهم بضعفهم ليس من العقل والحكمة لانهم لا يكونون أضعف من ميكروبات الامراض والاوبئة ــ وانهم سيكونون به اتحادا اسلاميا يساعدهم فيه الروس والالمان ويكون خصما لهم في زمن هم مستهدفون فيه لعداوة أكثر شعوب أوربة. وان الخير لامتهم في تأسيس الصداقة بينها وبين العالم الاسلامي باستقلال الشعوب العربية (وفي مقدمتها الشعب المصري) والتركية والفارسية جميعا..

ونصحنا لرجال فرنسة في بيروت بمثل ذلك بعد ان ذكرنا لهم ملخصه ولم نطلب منهم الاستقلال سورية وربح صداقة الامة العربية كلها بذلك واتقاء ما يقع عليهم من الغبن بعداوتها ومنه ان سورية لا تسلم لهم في المستقبل وقد

قال لنا موسيو روبيردوكيه سكرتير الجنرال غورو ان هذا الرأي جيد وهو من المكنات دون الخياليات ولكنه يحتاج الى تمحيص وتفصيل بين عقلاء الفريقين بكثرة البحث ولا سيما في طريقة تنفيذه في الحال الحاضرة

الشريف فيصل في عهده الاخير بسورية(١)

ونصحنا للشريف الاكبر — كما تقدم — ثم لنجله الامير فيصل — فأما الاول فله خلق مطبوع معروف فسهل على مخاطبه ان يعلم مايقبله ويجري عليه ومالا يمكن ان يقبله وأما الثاني فقلما يعرف له رأي مستقر أو يثق مختبره بأنه أقنعه بشيء وان كان غير المختبر له يظن أنه أقنعه بكل شيء للين عريكته ولطف معاشرته وكثرة موافقاته وقلة معارضته وكراهته مواجهة أحد بما يكره الا اذا غلبه الغضب وهو سريع الفيئة بعد الغضب وقد عاشرته زهاء نصف سنة كنت ألقاه في أكثر أيامها ولم أقف له على عقيدة راسخة في السياسة الا استحالة اخراج فرنسا وانكلترة من البلاد العربية الآن ووجوب العمل مع احداهما وخدمة البلاد بمساعدتها في ظل وصايتها ، والاستعانة بموادتها على تخفيف وطأتها على انه لا يصرح بهذا تصريحا جليا وهذه نظرية كل من والوا الاجانب في هذا الطور الذي نحن فيه كحقي بك العظم وداود بك عمون فلا ارى فرقا بينهما وبين الامير فيصل والامير عبد الله وان كان أتباع الاميرين يعدون هذين من الخائنين لقومهم ووطنهم والاميرين من المحررين لها ولعلنا نكتب مقالا في ترجمة الشريف فيصل وسيرته في سورية يجعل حقيقته ماثلة لكل قارئ

جاء الامير فيصل سورية من فرنسة (في ٢٣ ربيع الآخر سنة (١٣٣٨) ١٤ يناير (ك ٢ سنة ١٩٢٠) وهو يعتقد انه باتفاقه مع كليمنصو على قبول الوصاية الفرنسية مع تخفيف شروطها قد خدم سورية أجل خدمة ولكنه لم يستطع ان يقنع به إلا الخاص بذلك وهو الذي عمل له كل شيء وحاول أن يؤلف حزبا من المحافظين الراضين به على ذلك وكان ذلك حزب عبدالرحمن بك اليوسف الفرنسي النزعة الذي يسمى بالحزب الوطني ولكنه لم يستطع مساعدته ولا الاستعانة به ، بعد أن تعرف اليه

(١) انما لقبناه هنا بالشريف لانه اللقب المشهور الثابت له وقد صار أميرا مؤقتا لمنطقة من سوريه من قبل الحلفاء ثم ملكا عليها بنصب المؤتمر السوري العام وموافقة أهل الشام ثم مهاجرا سياسيا في أوربة ثم مرشحا من بريطانية العظمى لدولة العراق

ونكر لحزبه، وظل سلطان الحزب الاول عليه أقوى من سلطانه على الحزب على ما أوقعه فيه من الشقاق فالحزب هو الذي منعه من العودة الى أوربة وحمله على قبول اعلان استقلال سورية وجعله ملكا عليها وارضاه بجعل ملكها ارثا في ذريته وبجعل الراية الحجازية راية لسورية مع زيادة نجم ابيض في الزاوية الحمراء التي هي رمز علم شرفاء مكة فيها وجعل القواعد التي بنى عليها المؤتمر السوري اعلان الاستقلال قائمة على اساس الاعتراف بانه قد حارب الترك من قبل والده مع جيوش الحلفاء لاجل تحرير البلاد العربية وتحقيق استقلالها الذي كان ينشده احرارها وارادوا ان يكون هذا حجة على الحلفاء وانذاك عززوه بتصريحات وزراء الحلفاء التي كانوا يفوهون بها في ايام الحرب كما تقدم بيانه من قبل. وقد كان الواضعون قرار المؤتمر من اعضاء حزب الاستقلال السوري قد عرفوا الحقائق في هذه الشؤون اذ زالت تلك الظلل والغواشي التي كانت تحجبها عن ابصارهم ثم عرفها كل احد بعد رفض الحلفاء التصديق على الاستقلال وما كان من أعمالهم العسكرية والادارية في سورية الجنوبية والشمالية . يدل على ذلك ما كان يلقى في المؤتمر السوري العام بدمشق من الخطب في انكار تلك الاعمال والطعن فيها وما كان بين المؤتمر وبين الملك فيصل ووزارتيه مما نلم به بعد

ولقد علم الذين قاموا بدعوة اعلان الاستقلال وتهيئة أسبابها ومقدماتها بعد ممارسة الحوادث ان فيصلا قائد الحلفاء موكول اليه حفظ الامن في المنطقة الشرقية الى أن يفرغوا من ابرام مايريدون من أمر مستقبل البلاد — وانه توقرسية ومالية فان الانكليز كانوا يدفعون له راتبا وكانوا يعطونه حصة المنطقة الشرقية من جمرك حيفا وصار الفرنسيس يعطونه مثل ذلك من جمرك بيروت بعد المواددة، وقطعوه عند الحادثة ، — وانه يائس من الاستقلال التام الناجز وان كان أولى من غيره بحبه — وانه لين سلس كان في أول العهد يسير في البلاد كما يشاء البريطانيون ثم جاءها أخيرا من فرنسة يدعو الى الاتفاق مع الفرنسيس — فارادوا ان يستفيدوا مما أوتي من قوة وضعف بما ارادوا من اغتنام فرصة الحرية التي نالتها المنطقة الشرقية باسمه وتحت قيادته باعلان الاستقلال التام لسورية المتحدة بجميع مناطقها

ويجعلوا الحلفاء تجاه أمر واقع بصفة مستقلة لهم معترفة بفضلهم وملكية تدعى قواد حلفهم،

فان ساعد القدر على قبولهم ذلك فهو المراد والا فان حال البلاد مهم بعده لا يخشى ان يكون شرا مما كان قبله . وذلك انهم حينئذ ينفذون الاستعمار الذي سموه انتدابا بالقوة العسكرية فيكون وجودهم فيها مخالفا للحقوق الطبيعية والاساسية ولمعاهدة الصلح الكبرى وما فيها من عهد عصبة الامم المصرح فيه بأن البلاد المشروط في استقلالها قبول الانتداب يجب ان يكون لاهلها الحق الاول في اختيار الدولة المنتدبة وشكل الحكومة التي ترضاه . وبهذا يكونون غاصبين ويكون للبلاد الحق الذي لا يرد في معارضتهم عند كل فرصة ممكنة . واما اذا قبل الشعب الانتداب باختياره فانه يكون قد قتل نفسه بيده

مجمل ما كان بعد اعلان الاستقلال

أعلن الاستقلال بصفة نادرة المثال و بلغ امر اعلانه للدول فجعله الحلفاء محلا للنظر وكان جواب انكلترة لفيصل انها تعترف له بصفته حاكم على رأس حكومة مستقلة لكن يجب ان تقرر الصفة الرسمية في مؤتمر رسمي ودعته الى حضور مؤتمر (سان ريمو) فتردد أولا لان الرأي العام لم يرتح الى سفره وفي مقدمته المؤتمر السوري الذي كان يلح عليه بوجوب الاستعداد للدفاع عن البلاد وتؤيده جميع الاحزاب . ثم اقتنع الاكثرون باستحسان السفر بعد إلحاح انكلترة به وقد طلب من الجنرال غورو في ٨ يوليو (تموز) تعيين سفينة تقله الى أوربة فاجابه بانه يجب عليه قبل سفره أن يجيبه الى مطالب طلبها منه، من أهمها اباحة استعمال الخط الحديدي من رياق الى حلب لنقل الجنود الفرنسية والذخائر الحربية وانذره انه اذا سافر قبل تنفيذ هذه المطالب من طريق آخر فان فرنسة تكون حرة في أعمالها ، ولم يقبل تفويض النظر فيها الى لجنة مختلطة من العرب والفرنسيس والانكليز حسب الاتفاق مع الرئيس كليمانصو

انذار الجنرال غورو للملك فيصل

ثم أرسل اليه الجنرال غورو في ١٤ يوليو انذاره المعروف الذي صرح فيه بمطالبه الخمس وهي الاعتراف بالوصاية الفرنسية على سورية بلا شرط ولا قيد وتسليم الخط الحديدي المذكور آنفا للسلطة العسكرية الفرنسية والثاني الخدمة العسكرية الاجبارية وجعل عدد الجيش المتطوع كما كان في العام الماضي وتسريح سائر الجنود - ومعاقبة

المجرمين المؤسسين للعصابات والمحرضين على فرنسة — وقبول ورق البنك السوري الذي سنته فرنسة بجملة نقدا وطنيا رسميا. وجعل آخر موعد لاجابة هذه المطالب نصف الليل الذي ينتهي به اليوم ١٨ من الشهر

لم يكن في وسع الملك فيصل المبادرة الى اجابة هذه المطالب لان المؤتمر السوري العام والاحزاب السياسية كانا كانت غير راضية منه ولا من حكومته لعدم قيامهما معه بما يجب من الاستعداد لحفظ الاستقلال والدفاع عنه ولهذا اضطروه الى اسقاط وزارة علي رضا باشا الركابي ثم رأوا ان وزارة هاشم بك الاتاسي التي خلفتها لم تكن أقوى منها فحاولوا اسقاطها ، ولما شعروا بهذا الانذار الذي أعقبه الضعف والاهمال وسوء الادارة اشتدهياجهم وسخطهم وسرى الهياج الى سائر طبقات الاهالي الذين اندفعوا الى الاستعداد للدفاع عن البلد وصاروا يطعنون في الملك فيصل جهرا ويتحدثون بالايقاع به حتى انه وضع من كان لديه من الجند الحجازي حول داره لحمايتها — وسعى الى الجنرال غورو ملتمسا منه تعديل مطالبه فأبى —

وفي غرة ذي القعدة — ١٧ يوليو كتب الى رئيس الوزارة بأن الملك يرغب أن ألقاء مع جميع أعضاء المؤتمر في داره مساء فأجبنا الطلب وقابلناه مع وزرائه فشرح لنا الحرج الذي وصلت اليه حال البلاد وتهييج العوام بغير عقل وخذلان انكلترة حتى لا يرجو منها أقل مساعدة كما أبرق اليه عوني بك رستم من لندن وان الحكومة عاجزة عن الجنرال غورو لاتستطيع الادلاء بما في أوربة وله عليها حجج بعضها حق وبعضها باطل ينشرها حيث شاء . ثم طلب من الاعضاء أن يكتب له كل منهم رأيه على حدته في كتب مختومة وعاهدهم على انه يعمل بها ولا يطلع احداً عليها، فانصرفوا وهو يحسب أن سيكتبون ولكنهم لم يكتبوا اليه وعدوا اقتراحه خداعا يريد ان يحتج به على قبوله المطالب الفرنسية ويجعل التبعة على المؤتمر...

ثم ان المؤتمر عقد في (٣ ذي القعدة ١٩ يوليو — تموز) اجتماعا سريا غير رسمي تبارى فيه الخطباء في الطعن في الحكومة لاتهامهم ثم قررت التسليم بمطالب الجنرال غورو ثم عقدوا جلسة رسمية اكتظ مكان المستمعين بحضورها من الوجهاء ورؤساء الاحزاب وأعضائها وقرروا فيها بالاجماع ان قرار المؤتمر التاريخي المتضمن لاستقلال

سورية ووحدتها ورفض الهجرة الصهيونية وملكية فيصل قرار واحد اذا نقض بعضه نقض كله وان كل حكومة تقبل الوصاية لا تكون حكومة شرعية وأنه لا يعتد بمعاهد لا يقبلها المؤتمر - وقد طبع هذا القرار ونشر في العاصمة

وفي اليوم التالي (٤ ذي القعدة ٢٠ يوليو) أصدر أمره بتأجيل عقد المؤتمر شهرين لا المجالس النيابية تعقل في مثل هذه الحال الحربية - وقد قرأ وزير الحربية الامر على المؤتمر وكان معه رئيس الوزارة وانصرفا واجمين مغتمين ، وكان بعض الاعضاء يريد امثال هذا الامر فأقنعتهم بأن هذا خير للمؤتمر واني سررت به ولولاه لاقترحت على الاعضاء ان يقرروا ذلك من تلقاء أنفسهم ، ذلك بأن دمشق كانت في أشد الهياج والسخط على ملكها ووزارته سواء في ذلك الاحزاب والجماعات والافراد وكانوا يرجون من المؤتمر مالا قبل له به — وما ثم الا إلزام الملك والوزارة برفض انذار الجنرال غورو والدفاع عن البلد ان هوجمت بغيا وعدوانا اواسقاطهم واقامة حكم عسكري مفوض (دكتاتور) يدافع عن البلاد بكل الوسائل الممكنة ، ولا يوجد في البلد من هو أهل لذلك به والثورة الداخلية غير مأمونة وكل ما يترتب على ذلك من الغوائل يكون حينئذ في عنق المؤتمر الذي لم يأت أثما ولا ادخر في الخدمة وسعه وقد أصبحت الامة كلها راضية عنه بعد ان كادت الدسائس تغيرها عليه ، واني عالم أن التجنيد الاجباري الذي قررته الحكومة بضغط المؤتمر والحاحه قد كان عبثا صوريا وانها لم تقصد به الا ايهام الامة مايرضيها وايهام فرنسة ما يحملها على التساهل فيما تطالبه ويطالب منها !

انفض المؤتمر وكانت المراسلة بين الملك فيصل والجنرال غورو على قبول مواد انذاره متصلة فلما أصر على قبولها كلها أمر الملك قبل كل شيء بتسريح الجيش السوري من ثكناته ومواقعه الحربية واهمها مضيق مجدل عنجر الحصين في طريق جيش الجنرال غورو الزاحف على الشام فسرح الجيش بغير نظام فترتب على ذلك نهب الاسلحة والذخائر واحدث ثورة في شوارع دمشق وهاج الشعب هياجا شديدا وكثر التصريح في الشوارع بالهتاف للمؤتمر وبسب الملك فيصل وأبيه والتنديد بخيانته ووجوب قتله وقد اضطرت الحكومة بمن بقي عندها من الجند لحفظ الامن ان تقا

الثورة بالسلاح حتى انها استعملت المدافع الرشاشة في ذلك وقتل كثيرون — قيل ٥٠ وقيل ٧٠ — وجرح كثيرون — قيل ١٥٠

قبلت الحكومة برياسة الملك فيصل جميع مطالب الجنرال غورو ومنها قبول الوصاية بلا شرط ولا قيد فاصبحت بذلك ساقطة مع ملكها غير شرعية بقرار المؤتمر المذكور آنفا. ثم انها علمت في اليوم التالي لتسريحها الجيش (وهو ٢١ يوليو) ان جنود الجنرال غورو زاحفة على دمشق وعلمت بعد المراجعة بين الملك وبينه ان حجته على الزحف ان جواب القبول تأخر عن موعده وهو الساعة الثانية عشرة من نصف الليل وكان قد أصدر أمره للجيش بالزحف ولا يمكنه ايقافه بعد وقد احتل المواقع الماصية كمجدل عنجر — وهي تقول انما كان الذي تأخر وصوله اليه هو ما طلبه من التفصيل لامر التسليم بعد أن وصل اليه البلاغ الرسمي بقبول الشروط في عاليه ، وان سبب تأخر برقية التفصيل انقطاع السلك البرقي باستعمال الجيش الفرنسي له

عظم الخطب على فيصل ووزرائه لما رأوا انهم سلموا بقبول الوصاية مع تلك الشروط المخزية ليدفعوا الاحتلال عن دمشق ويبقوا فيها متمتعين في ظل الوصاية وخدمتها ما كانوا عليه بعد أن قالوا في عدم امكان قبولها ما قالوا من المبالغات ونبذ فيصل من يقبلها بأقبح الالقاب — وعلموا أنهم خسروا كل شيء وظهر لهم أن منتهى الكياسة في التسليم أن يكون آخر ما ينفذ من الشروط تسريح الجند — فصدر الامر لباقي الجيش بالتوقف عن الانسحاب فوقف غربي (خان ميسلون) ووقف الجيش الفرنسي الزاحف وراءه على بعد مرمى القنابل منه وجعلت هذه فرصة لاستئناف المفاوضة في ايقاف الزحف على دمشق وتولى ذلك ساطع بك الحصرى (وزير المعارف) فسافر الى الجنرال غورو فلم يلق نجاحا

وفي يوم الخميس (٦ ذى القعدة — ٢٢ يوليو) زار فيصل وزارة الحربية وكلم جموع المتطوعة وحثهم على الجهاد وكان جمع الزعماء ورؤساء الاحزاب وبلغهم انه أعلن الحرب رسميا ونشر ذلك في الجرائد وصلى الجمعة في يومها في الجامع الاموى وصعد المنبر بعد الصلاة وحث الناس على الجهاد معه لحماية الدين والوطن — فقال كثير من الناس انه يريد بهذا استعادة مكانته وكان الناس في هيج عظيم واقبال على التطوع

وبذل اكل مايلزم للمدافعين من طعام وذخيرة - ولكن الوقت لم يعد يتسع لعمل مفيد

ثم ذهب فيصل مساء الجمعة الى (الهامة) وجعلها مركز قيادته و بلغنا انه أرسل أمتعته الخاصة وذخائره الى (درعا) وان الحكومة أرسلت أوراقها ودفاترها اليها أيضا. ثم انه ذهب في مساء السبت الى محطة الكسوة بمن معه من وزرائه وخواصه ومنهم بعض الشبان وأرسل اليه طعام العشاء من دار عبد الرحمن بك اليوسف وذلك بعد انتهاء معركة خان ميسلون التي قتل فيها وزير حربيته يوسف بك العظمة وفرقت الطيارات شمل من كان معه من العسكر النظامي ويقال انهم كانوا زهاء خمسمائة جندي ، وعاد في المساء جميل بك الالشي حاجبه الاول وكان ذهب مع موسيو كوس (الذي كان ضابط الارتباط الفرنسي في دمشق وصار بعد الاحتلال رئيس البعثة الفرنسية للانتداب مدة من الزمن) الى الجنرال غورو للاتفاق معه باسم الملك على صفة دخول دمشق وقد عاد معه في سيارته مبتهجا مسرورا !

وفي صباح يوم الاحد (٩ ذي القعدة ٢٥ يوليو) رأيت نوري باشا السعيد فأخبرني ان الجيش الفرنسي يدخل الشام بين الساعة ٩ والدقيقة ١٠ ويعسكر في (المزة) من ضواحي البلد وان الملك يدخلها الساعة ١٠ ونصف ولكنه لم يدخلها الا في منتصف ليلة الاثنين وألف وزارة جديدة من الموالين أو المائلين الى فرنسة رئيسها علاء الدين بك الدروبي ، وقد كانت عودته الى دمشق من الغرائب. ورأيت نوري باشا في صباح الاثنين أيضا فأخبرني بأن القائد الفرنسي قبل الوزارة الجديدة وانهم لا يعترفون بالملك . فقلت له وكيف ندعه به الى العاصمة ؟ .. قال لم يكن هذا برأيي وانما هو رأى جماعة الذين ورطوه وفي مقدمتهم الدكتور فلان — وفي يوم الثلاثاء بلغته السلطة المحتلة وجوب الخروج من الشام قبل نصف الليل . بلغني ذلك بعد العشاء فذهبت الى داره لوداعه على ما كان وقع من الجفاء بيننا من قبل الانذار الفرنسي ، الذي لا علاقة له بالودة الشخصية فوجدت في الدار أفرادا من الشرطة بلغني انهم حرس على أثاث الدار لئلا يؤخذ شيء منه !! ومكثت معه نصف ساعة أعجبني فيها صبره وأمله، وكان ذلك في الساعة الحادية عشرة ليلا وقد خرج بعد وداعي له بنصف ساعة وحمله قطار خاص بمن معه الى درعا

يوسف بك العظمة

ولا بد لي من كتابة كلمة في هذه الخلاصة التاريخية بشأن يوسف بك العظمة الذى كنت معجبا بما أوتي من الذكاء والنظام والهمة والنشاط والوطنية وحسن السلوك منذ عرفته معتمدا للحكومة العربية في بيروت الى ان عين وزيرا للحربية باقتراحي وسعيي مع بعض الاخوان: استبد يوسف بالعمل في وزارة الحربية وكان يكتم أعماله حتى عن رئيس الوزارة بل يعمي الامر الاعلى الملك فيما أظن ولما اشتدت الازمة سألته هل هو مستعد للدفاع؟ قال نعم اذا وافق الملك ولا خطر لنا ما نخشى ان يلجأ الى الاجانب..

ولما عين ياسين باشا الهاشمي قائداً لم يقم القائمة عقب الانذار وأظهر للوزارة ما فيها من النقص أي على خلاف ما كان يقول ثم انه وافق الوزارة على قرار التسليم لمطالب غورو — بعد هذا كله رأيته في بيت الملك مع الوزراء فكلمته وجدته كلاما شديدا واذ كرته ببعض كلامه فقال ووجهه متجهم كوجه الميت اني مذنب وأتحمل تبعة عملي وكدت البارحة انتحر من الغم فلا تزد علي . ولما خرج الى الدفاع عن بقي معه من بقايا جيشه تزين ولبس ملابسه الرسمية ووطن نفسه على الموت — فكان شرفه الذى امتاز به أنه لم يقبل ان يعيش ذليلا بل أراد أن يكفر بدمه عن ذنب التقصير المبني على الثقة والغرور

كان فشل هذه المدافعة بخان ميسلون أمرا جليا لا يجهله مثله ولا مثلي ممن لا يعلم من الحرب شيئا ولذلك رغب الي الكثيرون ان اخطب في المتطوعين وفي بعض المساجد في الحث على الدفاع فامتنعت — كما أبيت مرارا أن أخطب في الاحتفالات السياسية — وقلت لبعض الخواص اني لا أغش أحدا ولا أستطيع أن أقول في هذا المقام ما أعتقد لانه يضر الآن ولا ينفع وقد نصحت للعاملين في كل شيء في وقته فلم يفد — على ان ما اندفعت اليه الامة من أمر الدفاع شريف ولا بد منه

خلاصة آراء فيصل والامة وغورو

وخلاصة الخلاصة ان فيصلا كان يعتقد ان الوصاية على البلاد أمر مقضي وانه لا يمكن ايجاد قوة وطنية تحفظ الاستقلال فكان لذلك يجتهد في ارضاء كل ذي مكانة وتأثير الى ان يضع الحلفاء القرار الاخير الذي كان يرى انه قادر على السعي الى حمل وطأة الوصاية فيه خفيفة، ولذلك لم يهتم بأمر الاستعداد للدفاع بتنظيم قوى الشعب ولا بالجيش

النظامي ولم يكن يعتقد انه يهاجم هذه المهاجمة فلهوجمهم لم يجد بدا من الخضوع. فهو لم يستعد للقتال ولو دفاعا وما اضطر اليه من ايجاد جيش دفاعي جيش منظم بادر الى تسريحه عند الحاجة اليه، وقد أعلن الحرب في الوقت الذي كان يفاوض في أمر التسليم وهو لا يزال يرى أن رأيه كان هو الصواب وأن كل ما خالفه خطأ وانه أخطأ لعدم الاستبداد بتنفيذ ما كان يراه بالقوة. وقد صرح بخطئه وعمله مرارا في أوربة وبلغنا انه يريد ان ينشر فيه كتابا رسميا

وأما زعماء الامة الذين خالفوه فقد بينا انهم علموا بعد طول الاختبار ان الدولتين شرعتا في تنفيذ ما اتفقتا عليه من استعمار بلادهم فالاولى أن تقاومهم الامة بالحجة وبالدفاع عن نفسها اذا جوهها بالقوة ليكون مركزهم قويا امر كز المغتصب وقبول الانتداب يجعله شرعيا

وأما الجنرال غورو فكانت سياسته اخراج الشريف فيصل من سورية مهما تكن حاله لانه ناصبهم وأغرى العصابات والعشائر بهم وصارله نفوذ في البلاد يمكن أن يكون خطرا عليهم في كل وقت ولاسيما اذا اشتد الخلاف بينهم وبين انكلترة التي يعدونه من صنائعها المخلصين لها. فهو قد حارب الامير فيصلا القائد الحجازي الذي يعده أجنبيا عن سورية لانقاذ سورية من نفوذ دولة الحجاز ولو باسم الانتداب والوصاية الفرنسية، وعد ما أخذه من السلاح والذخائر الحربية غنيمة حربية، وكل ذلك بين ظاهر في الاقوال والمكتوبات الرسمية

الطور الاخير للمسألة العربية

ان ما تنقم على الدولة البريطانية من معضلات المشكلات المالية والسياسية والاستعمارية والاجتماعية واعيائها دون حل عقدها أو عقدة منها قد اضطرها الى ترك جزيرة العرب لامرائها أمراء اصطناع من أمكن اصطناعه منهم والتمهيد للتدخل الاقتصادي والفني بالتدريج ثم الاستعانة بأوليائها ملك الحجاز واولاده في سورية وفلسطين والعراق بعد الاعراض عنهم وعدم المبالاة بصراخ جريدة القبلة بمكة بالاستعطاف والاستعانة والتذكير بالعهود والوعود والمحالفة والحسنات البريطانية، وعد خليفتها الملك الخروج عن مرضاتها مساويا للردة والخروج عن رحمة الله تعالى وتمثله في ندائها بقول الشاعر

• فان كنت مأكولا فكن انت آكلي •

والغرض الاول من هذه السياسة والادارة الموقتة تخفيف النفقات عن كاهل دافعي الضرائب في بريطانية العظمى الى أن تنحل عقد المشكلات وتوسس وسائل القوة في داخلية البلاد العربية بأقل ما يمكن من النفقة ، والثاني دفع إغارة العرب من وراء الاردن على فلسطين ومساعدتهم لاهلها على اليهود الصهيونيين، والثالث إخضاع العراق والاستعانة بحكومته الجديدة على مقاومة الترك وحلفائهم من مسلمي الشرق وبولشفيك الروس اذا اصروا على تنفيذ فكرة الجامعة الاسلامية ومقاومة الاستعمار الانكليزي في البلاد العربية والعجمية . وبلغنا انهم أعادوا الراتب الشهري لملك الحجاز بعد دعوة ولده فيصل الاخيرة الى لندن لجعلوه ١٨ ألف جنيه أو ٢٠

عمل وزير المستعمرات بمصر وفلسطين

جاء مستر تشرشل وزير المستعمرات البريطانية مصر في شهر مارس الماضي ونظر في مسألة حظائر الطيران فيها وقابل فيها الوفد العراقي الانكليزي الذي استحضر لاجل الاتفاق معه على أمور العراق المالية والعسكرية ثم سافر الى فلسطين فآذن أهلها بدوام السلطة الانكليزية على البلاد وتنفيذها لوعد بلفور بجعلها وطنا قوميا لليهود ، وقابل الشريف عبد الله بن الحسين ملك الحجاز وجعله حاكما لشرق الاردن بالتبع لحكومة فلسطين واستمداد السلطة من معتمدها السامي واعطاه من القوة العسكرية والطيارات ما يمكنه من اخضاع كل من يشذ من عرب تلك البلاد عما يراد بها وتأمين ما تنشئه السلطة البريطانية فيها من أسباب المواصلات ووسائل القوة وأولها محطة التلغراف اللاسلكي وحظيرة الطيارات ، ويلي ذلك مد السكة الحديدية العسكرية من فلسطين الى العراق وقد قرروا اعطاءه حصة جمرك حيفا للداخلية وهي ١٢٠ ألف جنيه في السنة

تكريم وجيه عراقي لجعفر باشا العسكري

كان في اعضاء الوفد العراقي جعفر باشا العسكري الذى كان احد قواد الشريف فيصل في حرب فلسطين وسورية وعهد اليه الانكليز في العراق بتأسيس الجيش الوطني بعد أن ذهب الى بغداد لاجل بث الدعوة لجعل الشريف فيصل ملكا للعراق وكان قد تجاء بمصر منذ اشهر شاب من وجهاء البصرة المشايعين للانكليز وهو

(عبد القادر بك آل باش اعيان) وقد دعا هذا الوجيه طائفة من وجهاء مصر وسورية والعراق الى حفلة شاي في فندق شبرد تكريما لجعفر باشا في ١٨ مارس وما جاء تي رقعة الدعوة خطر لي انه ربما كان لها معنى سياسي ولما جئنا الفندق دعينا الى حديقته لاجل تصويرنا مع المحتفل به مجتمعين فأبيت ذلك مع أفراد آخرين. وبعد شرب الشاي استنشد شاعر العرب الشيخ عبد المحسن الكاظمي فارتجل قصيدة تناسب المقام ، واثنى عليه أسعد افندي داغر الشاعر السوري المصري بأبيات مرتجلة في المجلس ثم دعي الدكتور فارس افندي نمر أحد أصحاب المقطم الى الخطابة فأجاب

خطاب الدكتور نمر في المسألة العربية

بدأ الخطاب بالثناء على الدولة البريطانية والشهادة لها بالرغبة في ترقية الشعوب وتحريرها والاخلاص للعرب فيما وضعوه من بدعة الانتداب قال ولكنني على هذا الاعتقاد فيهم قد انتقدت عليهم تقسيم سورية وانتقدته ورأيته ضاراً بالسوريين مفرقا لهم ولم اكتم ذلك عنهم بل عاتبت عليه وضم اليه السر مارك سايكس المحب المخلص للعرب وكان ذلك في هذا الفندق الذي نحن فيه .... فأجابني قائلا اننا فعلنا هذا لمصلحة العرب أيضا لأنهم اذا ظلمهم احد الفريقين وشدد عليهم الوطأة احتجوا عليه بلين الفريق الاخر وحسن ادارته وعدله !!

ثم ذكر مسألة مصر والعراق وعزم الانكليز على منحهما الاستقلال وما يجب من نبذ كل خلاف في هذه السبيل والاجماع على تأييد الحكومتين اللتين تؤسسان في القطرين لانهما تجربة اذا فشلت تقضي على الامة العربية والشرق كله بأنه غير أهل للاستقلال بنفسه . ثم ختم الخطاب بقوله انه يعتقد أن جميع الحاضرين على رأيه - فصفق له بعض الحاضرين وتعقبته بالرد عليه:

خطبة الكاتب في المسألة

افتتحت خطابي بقولي انني متطفل بالخطابة لم أدع اليها ثم قلت : انه كان الظاهر من هذه الدعوة انها شخصية يريد بها المحتفل تكريم صديق له لا سياسية كما ظهر من خطاب الدكتور نمر . ولو ان الخطيب بين رأيه في الموضوع الذي تكلم فيه ولم يحاول حمل الحاضرين على اقراره عليه وطلب الموافقة عليه بالاجماع لكنا في سعة من السكوت ولكنه قال انه يظن ان الجميع على رأيه وقد صفق

له أفراد وسكت الباقون فيمكن ان يقال ان السكوت رضى واقرار ، والاجماع السكوتي مختلف فيه عند علماء الاصول بعضهم يقول انه حجة بشرطه والآخرون يقولون انه ليس بحجة

وقد سبق لحضرة الدكتور خطاب في اجتماع مثل هذا طلب فيه الموافقة على ماقاله في اتفاق سنة ١٩١٦ على اثر اعلان الحلفاء له وهو مطالبتهم بطرد الترك من بلادنا وتفويض أمرها اليهم وتحسين الظن بهم فاضطررت الى معارضته وتفنيده كما اضطررت الآن وحال ذلك دون موافقة ذلك الحفل على ما اقترحه . ويظهر الآن انه لا يزال على رأيه الاول بعد ان مزق الحلفاء شمل سورية وجعلوها بضعة ممالك أودول دينية فأوقدوا فيها نيران الثورات والفتن بحيث لم يفعلوا بشيء من بلاد أعدائهم مثل هذا التمزيق والتنكيل في بلاد أصدقائهم :

وأغرب ما جاء في خطابه الآن مانقله عن السر مارك سايكس الذي شهد له بالاخلاص في حب العرب مع العلم بانه هو واضع معاهدة اتفاق سنة ١٩١٦ على اقتسام بلادهم واستعبادها ، وهو ان هذه القسمة التي قال الخطيب انه كان قد استاء منها لم يبعثهم عليها الا شدة حب العرب ومراعاة مصالحهم بما تكون قسمة بلادهم بين سيدين مالكين وسيلة الى احتجاجهم على من اساء منهما وظلم بفعل من أحسن ورحم ، ولكن ماذا يعملون اذا اتفق الفريقان على الاساءة والظلم ؟ وها نحن اولاء نرى وطأة بريطانية العظمى في القسم الجنوبي من سورية اشد من وطأة فرنسة في القسم الشمالي منها اخلافا للعهود والمشهور في الاستعمار الذي يشهد فيلسوف فرنسة الاجتماعي غوستاف لوبون بتفضيل المنهج البريطاني فيه على المنهج الفرنسي كما بينه في كتابه روح السياسة او فلسفة السياسة - ذلك بأن بريطانية زادت على ما شاركت فيه فرنسة من الاستئثار بادارة البلاد أن جعلتها وطنا قوميا لغرباء اليهود الصهيونيين وقررت تمليكهم رقبة ارض البلاد باعطائهم الاراضي الاميرية فيها التي هي ملك بيت مال المسلمين وأملاك السلطان عبد الحميد التي اغتصبها من الاهالي وتريد أن تجعلهم اكثر اهل البلاد بالتدريج حتى تخرج عن كونها عربية . وقد بحت اصوات أهل البلاد من اقامة الحجج والبراهين فلم تغن عنهم شيئا وقد سبق لي في سنة ١٩١٥ جدال عنيف مع السر مارك سايكس في هذا الفندق عينه منه مذ يسرون ببلادنا

وأما مشروع تأسيس حكومة وطنية في العراق تابعة لوزارة المستعمرات

الانكليزية فهو لايغر أحداً من العرب لانهم يطلبون الاستقلال لا الاستعمار الاجنبي ، وغرض الدولة البريطانية منه معروف صرح به ناظر المستعمرات وهو استعمار البلاد بأقل ما يمكن من النفقة لامكان دافعي الضرائب عن المعارضة للحكومة فيه .

قرن الخطيب مشروع حكومة العراق بمشروع استقلال مصر الذي يطلبه الوفد المصري وأين هو منه ؟ ان المصريين يطلبون أن تكون بلادهم دولة مستقلة في داخليتها وخارجيتها ذات مجلس نيابي منتخب وحكومة مسؤلة لديه وسفراء وقناصل في الممالك الاجنبية وأن يعقد بينها وبين انكلترة اتفاق أو محالفة تحفظ هذه بها مصالحها وتكون ممتازة بها على غيرها من الدول فاذا كانت انكلترة تسمح بمثل هذا في العراق يكون اقتراحه وجيهاً جديراً بأن يقبل بالتحفظ الواجب

(ثم بينت ان الامة العربية قد عرفت الحقائق فلا تنخدع بخلابة الالفاظ ولا يعوزها الا جمع الكلمة واتحاد كاتحاد الشعب المصري بين ابناء الملل والمذاهب والا أضاعت نفسها)

قلت : واني أذكر في هذا المقام حديثاً لي مع مدير المخابرات البريطانية بدمشق اذ كان تفضل بدعوتي الى شرب الشاي عنده فجئته مع بديع افندي الحوراني — ولعله ممتعنا — ودار الحديث بيننا على المائدة في المسألة المصرية ثم في المسألة السورية قال : أترى ان سورية تستغني عن مساعدة أجنبية ؟ قلت لعلكم تظنون ان مثلي يستحي أن يدعي ان بلاده وصلت في الارتقاء والعمران الى الدرجة التي تجرئه على القول بأنها تستغني عن مساعدة فلا مندوحة له عن الاعتراف بحاجتها الى ذلك فتقوم عليه حجتكم بوجوب الوصاية عليها . أنا أقول ان الامم والشعوب كالافراد لايستغني بعضها عن مساعدة بعض — فهذه بريطانية العظمى التي وصلت الى ما يعلم كل الناس من الحضارة وسعة الملك وحسن الادارة والنظام قد اعترف ملكها السابق السياسي العظيم (ادورد) بانها محتاجة الى مساعدة رجال من الالمان على تنظيمها — روت ذلك مجلة بريطانية عن أميرة انكليزية (هي الكونتس ورك) قالت انه شرب الشاي عندها قبل وفاته بثلاثة أشهر فذكرت له في تحاورها معه بغضه لابن أخته (غليوم) عاهل الالمان في ذلك وذكر لها اعجابه بما وصلت اليه الادارة الالمانية من الارتقاء والنظام وتمني

لو أن معه رجالا منهم يتولون ادارة بلاده فلو حكموه لجاؤا لا يحرسونه، وقد ترجمت هذه المقالة بالعربية ... جريدة المقطم المصرية (١) فاذا كانوا ... بقول بأنكم محتاجون الى مساعدة أمة أخرى فهل أقول أنا اننا لا نحتاج الى مساعدة غيرنا ممن نعترف بأنهم أعلم منا وارقى ... ولكننا ... ان المسألة مسألة تسمى لا مساعدة ، انكم تطمعون في استعمار البلاد والسيادة عليها وتسمون ذلك مساعدة لاقامة الحجة وتهوين الخطب عليه. ان المساعدة بمعناها اللغوي المعروف من اعمال الخير والبر التي لا مشاحة فيها ولا تنازع ولا اختصام فاذا ساعدت فقيرا على معيشته باعطائه جنيها فلا اقاوم ولا اخاصم من يعطيه جنيها او عشر جنيهات . فما بالكم تختصمون وتتنازعون في قسمة البلاد التي تدعون الرغبة في مساعدتها؟ ثم ان الاقناع بقبول المساعدة الحقيقية لا يكون بقوة السلاح فما بالكم تحتلون البلاد بالجيوش المسلحة بجميع انواع الاسلحة وتفتكون بمن لا يخضع لكم من شعوبها!

ثم سألته بشرفه واستقلاله الفكري اي المنطقتين خير في حفظ الامن العام والحرية الشخصية وعدم التعصبات الدينية والمذهبية ؟ المنطقة الشرقية التي يتولى ادارتها العرب الذين يعد عهدهم بالادارة أم المنطقة الغربية التي يتولاها الفرنسيون ؟ فاعترف بتفضيل المنطقة الشرقية في ذلك : فقلت اذا يكون ... الى ... تحتاج الى مساعدتهم ... فسكت وضحكنا

... كنت أحب أن أطيل القول في هذا الخطاب بما أشرت اليه من ... لا شك ... بين ... والتنويه بحال الشعب المصري الذي ضربته مثلا ... للشعب العربي وبما يتقيننا من وحدة الزعامة ولكن خشيت من الحاضرين الذين فوجئوا من السياسة بما لم يكن ينتظره اكثرهم ، ورأيت ان أترك وقتا لغيري فاكتفيت بالاشارة

وقد قام ... محمد افندي كامل الخطيب الكاتب المصري المشهور فالقى خطابا بليغا ... فيه ... المقام للغة مما كنت أحب التصريح به من وجوب التعاون ... لأهل الشعب المصري المتاز ... الشعوب العربية

(١) راجع جزء مارس سنة ١٩١٦ من المقطم ... من المنار. ونص عبارة الملك مترجمة « وياحبذا لو حكمنا الالمان لمدة كافية لاصلاح ادارتنا.. ولكن المصيبة انهم اذا أتوا ليحكمونا تعذر علينا الخلاص منهم »

وتوسم أيضاً في السياسة الانكليزية ومالها من المصلحة والمنفعة في اجابة الشعب المصري والامة العربية الى الاعتراف لها بحقها في الاستقلال التام - فكان لخطابه تأثير حسن عام . وتلاه جندي بك ابراهيم صاحب الوطن فتكلم في المسألة الاولى وأجاد

وبعد أن ختم صاحب الدعوة الاحتفال بالشكر المعتاد وشرع الحفل المجتمع في الانصراف وقف الدكتور عبد الرحمن شاهبندر على كرسي واستوقف الناس لسماع كلمة منه فوقفوا وبدأ كلمته بأن السيد رشيد رضا يغلب عليه التشاؤم وهو يحب ترجيح التفاؤل، ثم اثنى على المصريين ومصر ملجأ الاحرار بما يرجو ان يزيد الولاء بينهم وبين اخوانهم السوريين فأجاد

واني اعترف بصدق كلمة صديقي الدكتور شاهبندر وان كنت انكرت في نفسي ذكرها في ذلك الموقف وأقول انني كنت منذ اشتغلت بالسياسة غيدارا في السياسة الاوربية والمطامع الاستعمارية (الغيدار هو الذي يسيء الظن فيصيب) يغلب علي التشاؤم من مساعيهم ولم أر فيها مجالا للتفاؤل وحسن الظن كما شرحته في هذا المقال ، وانني لم اختلف مع صديقي الدكتور شاهبندر في مسألة من المسائل انني كنت فيها متشائماً وكان متفائلا الا وظهر انني كنت المصيب فليتذكر أول خلاف في اثر قدومه من العراق الى مصر وأوسطه وآخره في دعوته اياي مع آخرين الى امضاء تقريره المعهود دون موافقة في هذا الاحتفال

خاتم المقال بالتفاؤل بالمآل

واختم هذا المقال بقولي اني مؤمن يرى اليأس من روح الله والقنوط من رحمته كفرا، واني لا يمنعني التشاؤم وسوء الظن في الطامعين من عمل ولا سعي فانا لا أزال أرجو اقناع الدولتين المقتسمتين لبلادنا الخاضعتين لحقوقنا بأن الخير لهما وللمدنية والانسانية ان يتركونا احرارا في بلادنا حاكمين في شعوبنا وان يساعدونا على ما نريد من عمران بلادنا بما نطلب المساعدة عليه ويكتفوا منا بالمنافع الاقتصادية والادبية . ومن سوء الحظ ان كان سعيي السابق مع غلاة المستعمرين منهم ، وأرجو ان أوفق للسعي مع احرار المنصفين منهم وهم ولله الحمد كثيرون

وأود لو يعلم هؤلاء الاحرار حقيقة أمور الشرق من أحرار أهله ولا يكتفوا ببلاغات السياسة الاستعمارية وما يختزله أهلها من أقوال مديري المخابرات لهم

أود لو يعلم أحرار فرنسة الكرام أن ملك الحجاز وأولاده لا يمثلون الامة العربية بل السواد الاعظم من العرب ومن مسلمي الاعاجم غير راضين عنهم وانه ليس من مصلحة فرنسة معاداة هذه الامة في هذا البيت منها ولا بجعلها خصما للترك ، وانه لا يمكن أن تنال دولتهم عطف العالم الاسلامي مع مقاومتها للعرب

وأود لو يعلم أحرار انكلترة ومنصفوها المستقلون ذلك فلا يغتروا باستخدام مستعمريهم لاهل هذا البيت ويظنوا انهم هم الذين يخضعون لهم هذه الامة ويرضونها باستعمار بريطانية لبلادهم. على أن الايام ستعلمهم مالم يكونوا يعلمون

وأود لو تعلم الشعوب العربية أن الانتداب الذي فهموا معناه لم يعد أمراً مقضيا ، وأن عصبة الامم لن تكون ألعوبة بيد المستعمرين ، وان الرجاء في استقلالهم واستقلال أمثالهم وبناء قواعد الصلة بين الشرق والغرب على أساس العدل وتبادل المنافع من غير سيطرة ولا سيادة للمستعمرين على المستضعفين رجاء قوي يزيده العلم به والسعي اليه قوة ولا بقاء للعمران بدونه — (فاما الزبد فيذهب جفاء واما ماينفع الناس فيمكث في الارض ، كذلك يضرب الله الامثال)

وأود لو يعلم سادة الامة العربية وكبراؤها انهم لو جمعوا كلمتهم في هذه الفرصة لاسسوا لانفسهم وحدة حلفية يحفظ بها استقلال كل منهم ويعود به مجد الامة العربية وتحيا حضارتها الشريفة التي فاقت حضارة جميع الامم بجمعها بين الراحة المقصودة من الحضارة وبين الفضيلة ولكنهم أجابوا داعي شيطان التفريق وتغريره لهم بالمال والمآل (يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا) ولم يجيبوا داعي الوحدة وهو داعي الله تعالى الذي يدعوهم باسم الله تعالى لما يحييهم ، فهذا وقت الوحدة الداخلية ، امام الدواهي الخارجية ، لا وقت فض مشكلات حدود البلاد ولا تحكيم العصبية الدينية والمذهبية ، وليعتبروا باخوانهم الترك ، الذين قضت عليهم معاهدات الحرب بالزوال والمحق. كيف تحولت حالهم بجمع الكلمة. والدفاع عن البيضة. الى ان صار الحلفاء القاهرون لهم ولاحلافهم الذين كانوا أقوى وأعز منهم يعدونهم خطرا عليهم ، ويتسابقون الى لاسترضائهم أو التزلف اليهم، ولكن الترك قد وجد فيهم الزعيم الذي جدد لهم الفخار، ولم يوجد في العرب الا الزعيم الذي سجل عليهم الخزي والعار ، (فاعتبروا يا أولي الابصار)

﴿ قرار لعصبة الامم في الانتداب ﴾

قررت لجنة عصبة الامم المختصة بالنظر في الوصايات العليا المفروضة على الاقطار المنفصلة من الدولة العثمانية في ٨ دسمبر (كانون الاول) سنة ١٩٢٠ التحفظات الآتية لتقدمها للهيئة العامة وهي

(١) لايسمح للدولة المنتدبة باستخدام وسيلة لزيادة قوتها العسكرية

(٢) يجب على الدولة المنتدبة أن لاتستخدم القوة التي يمنحها اياها الانتداب لتمتلك هي أو أصدقاؤها بموارد البلاد الطبيعية وتستعمرها لحسابها الخاص أو لحسابهم

(٣) يوضع نظام أساسي لجميع الاقطار ذات الوصايات العليا وتنظر فيه عصبة الامم (الهيئة العمومية) قبل تنفيذه

(٤) يجب أن تنشر جميع صكوك الوصاية قبل أن ينظر المجلس فيها

﴿ مصابنا بولدنا الهمام ﴾

لجمنا في الليلة الرابعة عشرة من شهر شوال بوفاة ولدنا الصغير (الهمام) بعد مرض طويل بل امراض متوالية أولها وعكة برد ورطوبة تلاها سعال عادي انقلب سعالا ديكيا حرمه المنام والطعام عدة أسابيع اذ كان يقيء ما يأكله غالبا فضعف جسمه وقل احتماله واصابته في هذه الحال الحصبة وانتهت بالتأثير المعهود لها في الامعاء وكل ذلك من موانع قبول الغذاء، وبقي أياما كثيرة لا يطلب الا الماء، فلله ما أخذ وله ما أعطى، ان العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول الا ما يرضي ربنا، وانا بفراقك يا (همام) لمحزونون «انا لله وانا اليه راجعون. اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها» اللهم اجعله فرطا لنا وذخرا، واجعل مصابنا به أجرا ورحمة، ولا تجعله فتنة . واجعلنا من الصابرين المهتدين

(تاريخ هذا الجزء من المنار وما بعده)

بدأنا بتحرير هذا الجزء وطبعه في أوائل رمضان ثم عرض لنا في أواخر رمضان وأوائل شوال من انحراف الصحة ومرض جميع الاولاد وسهرنا على تمريضهم ثم وفاة صغيرهم الهمام ما اقتضى تأخير صدوره الى آخر شهر شوال. وقد بقي من المجلد أربعة أجزاء ستصدر ان شاء الله تعالى في أواخر الاشهر الآتية ذي القعدة وذي الحجة والمحرم وصفر فيكون أول جزء من المجلد الثالث والعشرين في ربيع الاول كما صدر أول جزء من هذا المجلد فيه



— قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى « ومنارا » كمنار الطريق —

٢٩ ذي القعدة ١٣٣٩ — ١١ الاسد (ص ٢) سنة ١٢٩٩ هش ، ٤ أغسطس سنة ١٩٢١

الخيال في الشعر العربي

٦

الغرض من التخييل

عادة النفس الارتياح للأمر تشاهده في زي غير الذي تعهده به ، والتخييل يأتيها من هذا الطريق فيعرض عليها المعاني في لباس جديد ويجليها في مظهر غير مألوف

فللتخييل فائدة عامة لاتنفك عنه وهي تحريك نفس السامع لتلقي المعنى بارتياح له واقبال عليه ولو كان من قبيل الحديث المألوف او المعلوم بالبداهة . وانظر ان رمت الثقة بهذا الى قول الشاعر

أخذنا باطراف الاحاديث بيننا وسالت باعناق المطي الاباطح

فالمعنى الذي صيغ البيت لتأديته انا أخذنا نتناوب الحديث والابل تسير

مسرعة في الاباطح . وهذا كما رأيته معنى مبذول وحديث لا يختص به عابر سبيل دون آخر ولولا ان الشاعر اورده في هذه الصورة التي خيلت اليك بطاحا تتدفق بسيل من اعناق المطايا لم ينل عندك هذا الموقع من الحظوة والاستحسان

قد يكون للمعنى في ذاته وجه يدعو نفس السامع الى النفور عنه ، وصناعة التخييل تبقي له أثرا لذيذا في النفس فتأتيها اللذة من ناحية غير الناحية التي يجيء منها النفور، فلو سمع اشياع ابن بقية قول عمارة اليمني شامتا به وهو مصلوب

ونكس رأسه لعتاب قلب   دعاه الى الغواية والضلال

لوجدوا لهذا البيت في أنفسهم ألما بليغا يدخل عليها من جهة القدح في كرامة رجل امتلأت صدورهم باجلاله، وهذا الالم لا يمنع من ان يبقى البيت في نفوسهم أثر لذة تسرى اليها من جهة التخييل وان كانوا لها كارهين . ومما قلت في بعض المحاظرات: قد يهذب السياسي حاشية ظلمه فيكون كالبيت البليغ يؤثر في نفس من يهجى به لذة وألما

قد يبدو لك ان هذه الفائدة العامة انما تتحقق فيما اذا كان المعنى معروفا للسامع من قبل التخييل كوصف حال القمر والكواكب والبرق والسحاب والرياض والانهار، والمقلة والثغر والقلم والدواة، او حال الرجل من كرم وشجاعة وعلم وغيرها من الخصال اذ يصح ان يقال ان التخييل قد عرض على السامع هذه المعاني في صور حديثة. واما الوقائع والاحوال المجهولة فلم يعرفوا لها صورة من قبل حتى تعد الصورة الخيالية جديدة وتحدث في النفس لذة زائدة عن لذة العلم بأصل المعنى

والجواب ان المعنى الذي تتلقاه من الشاعر دون ان تسبق لك معرفة به قد يلقيه اليك بوجه صريح ثم يدخل به في الخيال كما هي الطريقة الشائعة في التشبيه والتمثيل ، وعد التخييل في هذا صورة جديدة بالنسبة الى الصورة التي تقدمها التصريح أولا مما لا تعتريك فيه شبهة

وقد يلقيه لاول الخطاب في صورة خيالية وهذا مما يصح عده في الصور المستجدة اذ للمعاني صور اصلية وهي التي ترتسم في النفس لاول ما تدرك المعنى بمشاهدة او وجدان فالنفس تشعر حال تلقيها الصورة الخيالية ان المعنى الذي تحمله اليها صورة أخرى هي الصورة البسيطة التي يعبر عنها القول الصريح

ولعلك تقول بعد هذا ان صور المعاني تختلف ما اختلفت العبارات

سواء كانت تصريحية او تخييلية فالصورة التي يعطيها قولك: زيد يكتب غير الصورة التي يفصح عنها قولك زيد يخط بالقلم على القرطاس ، وكل منهما صريح لامدخل فيه للخيال واذا كان التخييل يلذ للنفس من جهة انه يكسو المعنى لباساً جديداً فيمكن لنا ان نصوغ للمعنى عبارة صريحة غير التي يعرفها المخاطب فيأخذ بها صورة جديدة، ولا يفوز التخييل بهذه الفائدة ويختص بها دون التصريح

والجواب ان الصور التي تنشأ من العبارات الصريحة وان تفاوتت في مواقع البلاغة واختلفت بالايجاز والاطناب لا تعد كما تعد الصورة الخيالية غريبة عن المعنى المراد، الا ترى انك تعرض المعنى الواحد في صور خيالية متعددة والشعر واحد فيجد السامع عند كل صورة داعية لذة ، ولو القيت المعنى في عبارة صريحة ثم بدا لك ان تخرجه في عبارة أخرى تنا كليها في الصراحة والمخاطب واحد لقيت في نفس المخاطب سآمة لانك لم توافها بصورة غريبة تخيل بها انك تعبر عن معنى غير ما ألقيته عليها أولا

فلا انكر ان الصور في العبارات الصريحة تتفاوت بحسب اختلاف العبارات في كيفية تأليفها ومقدار ما تشتمل عليه من المعاني الزائدة عن اصل المراد وان هذا الاختلاف هو الذي يجعلها متفاضلة في مقامات البلاغة وانما اذهب الى ان تلك الصور وان احكمت فـقتها واضفت اليها من المعاني ما يرتفع به شأنها لاتهيج في نفس السامع هزة الطرب التي تثيرها العبارات الخيالية

فالعبارات الخيالية تشارك العبارات الصريحة في جودة نسجها واشتمالها على المعاني التي ترتقي بها في مدارج البلاغة وتزيد عليها باراءتك المعنى في صورة بديعة تتعشقها النفس وتهتز لوقعها طربا

ثم ان التخييل لايخلو في أكثر احواله من صوغ المعنى في صورة ما تكون معرفة المخاطب له أقوى وفهمه اليه أسرع ، وهذا مما يجعل ائتناس النفس أوفر ، وارتياحها له أكمل

ولا احسبك تقع من هذا الوجه في شبهة او تقف في حيرة حين ترى الوجه السابق يقتضي ان لذة التخييل جاءت من غرابة الصورة وهذا يقتضي ان انبساط النفس لها جاء من جهة ألفها وكثرة التردد عليها فان غرابتها بالنظر الى المعنى المراد لا تنافي ان تكون معرفتها بهيآتها او عناصرها اجلى لدى المخاطب في ذاتها . فالشاعر الذي يقول

كان شعاع الشمس في كل غدوة   على ورق الاشجار اول طالع
دنانير في كف الاشل يضمها   لقبض فتهوي من فروج الاصابع

قد خيل اليك حال تدفق الاشعة وقت الغداة وتجليها على الاوراق في صبغتها الصفراء في صورة دنانير يضم عليها الاشل يده ليقبض عليها فتنساب من بين أصابعه متساقطة الى الارض . وهذه الصورة بالنظر الى مساق الحديث وهو حال الاشعة غريبة ولكنها في نفسها جلية اذ السامع للبيتين وان لم يشاهد من قبل دنانير تتناثر من يد الاشل فان المواد المؤلفة منها الصورة كالدنانير ويد المرتعش من أوضح معلوماته .

والتخييل بعد هذا اغراض خاصة يرمي اليها الادباء ويتفاوتون في التمكن منها ولا يسع هذا المقال سوى ان نلم بمهماتها فنقول .

قد يقصد الشاعر من التخييل تقوية الداعية الى الاخذ بالشيء حيث يصوره بصورة مالا يستغنى عنه كما قال بشار

فلا تجعل الشورى عليك غضاضة   فان الخوافي قوة للقوادم

ضرب المثل للشورى في تثبيت الرأي واقامته على وجه السداد بالخوافي من الجوانح حيث تساعد القوادم على الطيران . وهذا التمثيل يلقي في نفس السامع انه محتاج الى الشورى حاجة القوادم الى الخوافي ويؤكد داعيته الى العمل على سنتها او الحث على الثبات والصبر على الامر حيث يخرجه في مثال مالا يمكن بطبيعة هذه الحياة الخلاص منه كما قال بشار أيضاً

اذا كنت في كل الامور معاتبا   صديقك لم تلق الذي لاتعاتبه
فعش واحدا او صل أخاك فانه   مقارف ذنب مرة ومجانبه
اذا انت لم تشرب مرارا على القذى   ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

فالابيات مسوقة في الارشاد الى تحمل مايصدر عن الاخوان من جفاء او هفوة فضرب لهم المثل بالمشارب حيث لا مندوحة للانسان من ورودها وهي لاتصفو له سائر حياته بل يصادفها في بعض الاحيان كاشفة له عن وجه كالح وماء كدر ، يلجئه الظمأ الى الشرب منها ، واغضاء الجفن عن اقذائها ، فهذا التمثيل يريك انك لاتستطيع ان تعيش مستقلا عن الاخوان وان ليس في طبيعتهم ان يسيروا في مرضاتك بحيث لاتلاقي منهم طول حياتك الا ما يلائم طبيعتك ويوافق بغيتك ، ومقتضى هذا ان تمد يدك بعرى صحبتهم وتغضي عما يعرض

لهم في بعض الأوقات من جفاء او يزلون فيه من عثرات

او التحذير مما يرغب فيه كما قال ابو نواس

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت   له عن عدو في ثياب صديق

لو ذهب الى ذم الدنيا صراحة وهي حلوة خضرة لم يأخذه السامع بأخذ التسليم وأنكر ان يكون في لذيذ المذاق جميل المنظر ما يجب الحذر منه فعدل الى اخراج الذم في مثال يريه كيف يتربى الشر بزي الخير ويظهر المؤذي في بهجة ما يعد نافعا

او تخفيف الرغبة فيه وتقليل الاهتمام به كما قال المعري

وان كان في لبس الفتى شرف له   فما السيف الا غمده والحمائل

فمن تمثلت له الملابس بمنزلة الغمد والحمائل من السيف لم يطمح بنظره الى تنميقها او يجهد سعيه في اتخاذها من النسيج الفاخر وانما يصرف همته الى ما تسمو به النفس من علم وفضيلة كما ان البطل لا يعبأ بالغمد والحمائل وانما يقبل على السيف فينفق وسعه في اجادة صنعه وارهاف حده

او التسلية كقول صاحبنا الامير شكيب يسلي البارودي وهو في المنفى

ان يحجبوك فما ضر النجوم دجى   ولا زري السيف يوما طي اغماد

لا بأس ان طال نجز السعد موعده   فاعذب الماء شربا في فم الصادي

اراد ان ينفث في نفس مراسله كلمة تنحل منها عقدة الضجر وتطرد عنها غيم الوحشة فذكره بأن ما جرى عليه من التغريب والاخفاء عن أعين من ألفوه وألفهم قد ابتليت بمثله الكواكب فلم يعبها بنقيصة ومنيت به السيوف فلم يضع من قيمتها فتيلا . ورام بعد هذا تخفيف ما عساه ان يساور قلبه من لوعة الحنين الى الوطن، والهم بما طال عليه من الامد، فاقام له مثلا من حال الماء حيث يكون مذاقه في فم من بعد عهده به ـ وهو الظمآن ـ اشهى

ومما صنعت في غرض التسلية

بثثت شعاع علمك في نفوس   تسوق اليك ما استطاعت حنوة

كذا الاقمار تكسو الارض نورا   ولولا الارض مالقيت خسوفا

او ازالة ما يخالط النفس من النفور عن الامر اوعده عيبا كما قال الفرزدق

تفاريق شيب في الشباب لوامع   وما حسن ليل ليس فيه نجوم

ضرب المثل لشعر الاسود تتخلله شعرات من الشيب بحال ليل داج تتألق في سمائه الكواكب ليخيل ان الشيب مما يحدث في الخلقة حسنا ويزيدها بهجة

حتى يضع الانس به مكان التجافي عنه . ومن هذا القبيل قول قابوس

يا ذا الذي بصروف الدهر عيرنا   هل عاند الدهر الا من له خطر
أما ترى البحر تطفو فوقه جيف   وتستقر بأقصى قعره الدرر
وفي السماء نجوم لاعداد لها   وليس يكسف الاالشمس والقمر

او الدلالة على ان الذي تحكى عنه صفة قد بلغ فيها غاية قصوى لتستدعي له في نفس المخاطب اجلالا واشفاقا او تحقيرا له او جفاء عنه ، ويرجع الى هذا الغرض كثير من التخيلات الواردة على طريق المبالغة في المدح والفخر والاعتذار والهجاء والوشاية وامثلتها كثيرة الدوران في كتب الادب والبيان

وقد يكون المعنى مما لم تتداوله الافكار وليس من البعيد ان يلاقيه المخاطب بالتعجب الذي هو مطية الانكار ، فيجيء التخييل عقب هذا لازالة التعجب منه وبيان ان وقوعه داخل في حوزة الامكان وهذا كما يقول أبو تمام الاندلسي

لايفخر السيف والاقلام في يده   قد صار قطع سيوف الهند للقصب
فان يكن أصلها لم يقو قوتها   فان في الخمر معنى ليس في العنب

ادعى في البيت الاول ان القطع الذي عهدت به السيوف قد انتقل الى الاقلام التي تهزها يد ممدوحه فلم يبق للسيوف خصلة تفاخر بها ، وليست هذه الدعوى من الجلاء بحيث تفتح لها النفوس باب القبول بسرعة واول مايطعن فيها ان الاقلام مشتقة من القصب وهي اوهن من الصادع السيف ومضاء فاحتاج الى تأييدها بما يدفع الشبهة ويحشرها في زمرة الاقوال المسلمة فضرب لها المثل في البيت الثاني بالخمر التي هي عصارة العنب وقد امتازت عن بقية العصير باطفاء نور العقل واطلاق اللسان يخبط في فلاة الهذر خبط عشواء فصارت بهذه الخاصية حقيقة قائمة بنفسها ومالكة لقوة لم تكن في جنسها

وقد يكون المعنى مما تألفه العقول ولا يتشبث به في سياقه مايجر السامع الى ارتياب اوبحمله على انكار وانما يقصد الشاعر الى ايراده في مثال اوضح حتى يقع من نفوس السامعين في قرار مكين ومثال هذا قول سيف الدين بن المشد

ان ترق الى المعالي أولو الفضـ   ـل وساخت تحت الثرى السفهاء
فحباب المدام يعلو على الكا   س محلا وترسب الاقذاء

فارتفاع الفضلاء الى المراتب العالية وهبوط أهل السفه الى ما تحت الثرى

لبس في نفسه بأمر يتعجب منه او يتلقى بانكار فحاكاته بارتفاع الحباب على وجه الكاس ونزول الاقذاء الى اسفله انما كانت مؤكدة له ومفصحة عن مناسبته للحكمة وانطباقه على سنة الله الجارية بارتفاع العناصر الخفية ورسوب الاجرام المتعفنة . ومما صنعت على هذا النمط

لا يألف العز شعبا لج في وسن — من الخلاعة لا مسعى ولا أملا
كالدر يزهو على صدر الفتاة وان — دب النعاس الى اجفانها اعتزلا

ومن الدواعي الى التخييل تخصيص بعض السامعين او القارئين بفهم المعنى اما لفضل ألمعيته او لان في يده من القرائن المساعدة له على الفهم ماليس في يد غيره فلو حاورك انسان في أمة من الناس ائتمنوا على فريق من أموالهم رقباء فأردت ان تذكر له ان أولئك الرقباء لم يحرسوها بعين الامانة حتى تناولها قوم ملأوا منها حقائبهم ونثروها في سبيل شهواتهم فكتبت اليه على مثال ما كنت قلت

ياربانا خانها الحراس اذ — غرقت احداقهم في وسن
سرقت ريح الصبا منك شذى — طاب وانسابت به في الدمن

لم يستطع فهم ما أردت من الكلام الا من دارت بينك وبينه تلك المحاورة .

وقد يذهب الشاعر الى التخييل لقصد التهكم كما قال المعري يتهكم بمن يحكي ان أول من شاب ابراهيم عليه السلام

ما اقبح المين قلتم لم يشب أحد — حتى أتى الشيب ابراهيم عن أمم
كذبتم ونجوم الليل شاهدة — ان المشيب قديما حل في الامم

فكأنه يقول هذه الرواية الملفقة ليست اهلا لان تقابل بغير هذا الرد القائم على الخيال . ويقرب من تخييل نجوم الليل بالمشيب قول احمد بن دراج القسطلي يصف المجرة

وقد خيلت طرق المجرة انها — على مفرق الليل البهيم قتير

وربما لا يجد الشاعر داعيا الى مسلك التخييل بمدبسط النفس سوى التنبيه على ما بين المعاني من المناسبات الخفية او مجاراة البلغاء واقامة الشاهد على الحذق في هذه الصناعة ، ومما يرمي الى أحد هذين الغرضين ما يتعلق به الادباء في وصف بعض المناظر الفطرية كالكواكب والحدائق او الصناعية كالشمعة والسفينة

محمد الخضر

الطور الجديد للمسألة المصرية

بدأنا مرة بعد أخرى بكتابة مقال مفصل في المسألة المصرية ثم كنا نترك نشره لسبق الجرائد اليومية ايانا الى نشر مقالات كثيرة في معنى ما كتبنا ما غادرت متردما، بل جاؤا بالدرة، وأذن الجرة ـ كما قيل في المثل ـ فان كان أكثرها كثر لم يخل من تحرّف لجدل او تحيز الى فئة فذلك أحرى باستقصاء أصول المسألة وفروعها — فنكتفي اذا باستخلاص الزبد من المخيض واستنباط النتيجة من المقدمات ، بكلمات وجيزة تحز في المفصل، وتعطي قارئها من الموعظة والاعتبار والحكم ما لعله لايجده كله في غيرها

مقدمة وتمهيد

(١) قد سبق الذكاء الفرنسي الدهاء الانكليزي الى معرفة مكانة مصر من ارتباط الشرق بالغرب وما فيها من ينابيع الثروة فمد اليها حسامه نابليون الاول نابغة عصره في الذكاء والاقدام، ولكن الدهاء الانكليزي قطع ذلك الساعد الذي مد الحسام، ثم اعانت العلوم والفنون الفرنسية محمد علي الكبير على تكوين دولة جديدة عربية ، فعارضتها انكلترة بنفوذ الدولة التركية ، حتى وقفت مدها ، وأرجعتها الى ما وراء حدها، ثم تعاون الدولتان على ارهاق مصر في زمن اسماعيل ، ثم سبقت ادهاها الى احتلالها في عهد توفيق

(٢) كانت نهضة مصر في عهد محمد علي مادية بحضة الحاكم الاعلى لها شارع ومنفذ ومالك متصرف في البلاد وأهلها تصرف السيد المالك بماله وعبيده ، وما كان يرجى ان تتكون في ظل هذا الحكم بهذا العصر أمة ، ولا ان تعتز دولة ، بل يهدم مستبد مفسد ، ما بناه مستبد مصلح ، كما هدم اسماعيل المبذر، ما أسسه محمد علي المعمر. حدثني المرحوم حسن عبد الرازق باشا ان قيمة اطيان القطر المصري كلها ما كانت تزيد في آخر مدة اسماعيل عما كان عليه وعلى البلاد من الدين للاجانب .

(٣) ان غايات الاضداد تتصل بمباديها ففي عهد اسماعيل الذي انتهى اليه الاستبداد في محق ثروة البلاد وافساد الاخلاق — زرع وبث غرس الاصلاح الاجتماعي والسياسي والادبي بارشاد حكيم الشرق وموقظه السيد جمال الدين

الافغاني مؤسس الحزب الوطني الاول في مصر ومعلم الكتابة والخطابة والسياسة والفلسفة . ولكن بريطانية العظمى كانت بالمرصاد لهذا الاصلاح المعنوي، فناوأته كما ناوأت ذلك الاصلاح المادي ، فأغرت توفيق باشا بنفي السيد جمال الدين من البلاد بعد ان كان قد عاهده — وهو ولي العهد — على العمل بما اقترحه من الاصلاح ، ومنه جعل حكومة البلاد نيابية وتعميم التعليم وغير ذلك ، ولكنه قال عند خروجه من مصر انه ترك فيها من يتم ما بدأ وهو مريده الذي احاط بمبادئه ومقاصده الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده

(٤) تجدد في البلاد عهد الاصلاح المادي والمعنوي معا في اول امارة توفيق اذ تولى الوزارة مصطفى رياض باشا ذو الفطرة الطاهرة والوطنية الصادقة التي لم تر مصر في تاريخها الحديث وزيرا يدانيه في مجموع اخلاقه وفضائله واستقلاله وعدله واصلاحه الاداري وان وجد فيها من الوزراء وغيرهم ألوف فاقوه في العلوم القانونية بأنواعها مع المشاركة في بعض الفنون التي لم يكن يعرفها — فقام هو باصلاح المالية والادارة خير قيام . وولى الشيخ محمد عبده ادارة المطبوعات ورئاسة تحرير الجريدة الرسمية فتوسل الشيخ بهذا الى اصلاح لغة الصحف والدواوين ثم الى اصلاح التعليم الرسمي وغير الرسمي كما فصلناه في ترجمته وترجمة رياض باشا ولكن كان من سوء حظ مصر ان وقف سير هذا الاصلاح بالثورة العرابية المشؤومة المنتهية بالاحتلال الاجنبي قاتل الامم ومفسد الشعوب ومذل البشر

(٥) توسل الانكليز الى الاحتلال بسلب أمير البلاد توفيق واستدراج السلطان صاحب السيادة عليها واستخدام اسمه ونفوذه ، وخداع اوربة بإيهامها أنهم يقصدون حماية رعاياها وحفظ أموالها ومصالحها ، وبإيهام هؤلاء وأولئك بأن الاحتلال موقت لا تقصد بريطانية العظمى فيه لنفسها شيئا . ولا تنوي سيادة ولا أثرة، وانما تنوي خدمة مصر واوربة والانسانية . ويا سلما خدعوا البشر بمثل هذا الايهام . ولم تعرف عامة أمم الارض رياءهم وخداعهم الا في هذه الايام ، ثم صاروا يمكنون نفوذهم بالتدريج ، ويسيطرون على الادارة والقضاء والتعليم ، ويفسدون اخلاق العامة بالاباحة التي يسمونها الحرية الشخصية ، واخلاق الخاصة بخدمة الحكومة ذات الرواتب العظيمة ، ويمنون على الشعب بأنهم المنقذون له من ظلم الترك واعوانهم ، والممدون له الاستقلال الذاتي

حتى اذا ما استتب لهم [illegible] بانت [illegible] مطامعهم [illegible] البحر متوجهة اليه من صلاح الرأي و[illegible] لتكون البلاد [illegible] ثروة لهم ، ولكنهم ندموا أخيرا انهم [illegible] حالوا دون تحصيل بعض الاهالي للثروة الواسعة في بلادهم كما يعلم مما يأتي

(٦) ظل الانكليز يعدون [illegible] مصر الى مستعمراتهم مدة ثلث قرن وينتظرون الفرص كدأبهم ، حتى اذا ما اشتعلت نار حرب المدنية المادية الملعونة وآذنوا الدولة العثمانية بالحرب [illegible] لانفسهم ما كان لها من السيادة على مصر ، واعلنوا حمايتهم عليها ، وأطلقوا أيديهم في رجالها ، وأموالها وغلالها ، وحميرها وجمالها ، بل تصرفوا في كل شيء للحكومة والامة واستخدموه في حرب الدولة العثمانية صاحبة السيادة الشرعية على البلاد التي لم تكن تستخدم في سيادتها أحدا في نفسه ولا تصادره في شيء من ماله ، حتى ان الحملة التي وجهت الى فتح فلسطين في آخر حرب صليبية — كما وصفها رئيس الوزارة البريطانية (لويد جورج) — قد سموها الحملة المصرية ، وقد كانت هذه التسمية حقا وان قصد بها معنى آخر خفي — وهو الاخذ بثأر قلب الاسد وسائر الصليبيين الذين كسرهم مسلمو مصر [illegible] بقيادة صلاح الدين (قدس الله روحه) وانتزاع البلاد المقدسة من [illegible] حملة مصرية من [illegible] شبان [illegible] مصر وجل المال الذي [illegible] على السكك الحديدية و[illegible] من مال [illegible] [illegible] الامراء المنسوبين الى نبي الاسلام ، عليه وآله [illegible] الصلاة والسلام ، ولو قصدوا بالتسمية معناها الحق ، لما صح [illegible] المصريين [illegible] يثأروهم بهذا الفتح [illegible] لهم [illegible] مثل هذا الحظ [illegible] في حكم السودان [illegible] الثاني له بعد [illegible] [illegible] [illegible] وحملوا [illegible] على [illegible] على هذا [illegible] بينهم [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] البلاد [illegible] في شرفه

ونزاهته واستقلاله ، على ما كان من ضعف ارادته معهم واستسلامه

الحماية البريطانية والوزارة الرشدية

(٧) أعلنت بريطانية العظمى الحماية على مصر بالاتفاق والمواطأة مع وزارة رشدي باشا التي كان عدلي باشا أحد أركانها. وهذه الوزارة هي التي مكنت للانكليز في البلاد، ومكنتهم من استخدام كل ما تملك الحكومة والامة من الاعيان والمنافع والاناسي والدواب والانعام، ولولاها لما استطاع الانكليز ان يستخدموا زهاء ألف شاب مصري وينتفعوا بما يقدر بألوف الالوف الكثيرة من الجنيهات، وقد نقل عنها أنها لم تفعل ذلك الا عن وعدة وعدوها اياها وهي منح البلاد الاستقلال الاداري بعد انتهاء الحرب، وما كان رجالها اول من خدعته الوعود البريطانية فنقول انهم لا يفقهون السياسة وأخاديعها — ولما انتهت الحرب وزال الخطر عن بريطانية العظمى واحلافها، وشعرت بأن أزمة سياسة العالم صارت في قبضة يديها، قلبت لمصر ظهر المجن وشرعت تمهد السبيل لضمها الى املاكها، والاجهاز على لغتها العربية التي طالت محاربتهم لها واستبدال اللغة الانكليزية بها، وجعل السلطان الغالب في هيئتي حكومتها التشريعية والتنفيذية للانكليز وغيرهم من الاوروبيين، والقبض على ناصية الثروة والمواصلات التي هي شرايين الحياة الادارية والمالية في الامة — وقد ظهرت مبادئ هذه المقاصد في عمل اللجنة التي أنفت لوضع نظام لالغاء الامتيازات الاجنبية وحصر النفوذ الاجنبي في البريطانيين وقد كان عدلي باشا عضوا فيها . فلما رأت ذلك وزارة رشدي ظهر لها ان هلاك مصر بالاستعباد للانكليز واقع على يديها، فكبر عليها الامر، وسدت في وجهها منافذ الحيل، حتى ظهرت مبادئ النهضة الوطنية الجديدة على يد سعد باشا زغلول ورجاله

تأليف سعد الوفد ومساعدة رشدي وعدلي

(٨) ان خبر تأليف سعد باشا للجنة وطنية تسمى لاستقلال مصر باسم الوفد المصري معروف، ومشايعة وزارة رشدي باشا له غير مجهولة، وقد كانت قيمة مساعدتها حتى السلبية عظيمة، وأعلى الايجابية عدم مقاومته عند أخذ وثائق التوكيل من ممثلي الامة للوفد بطلب الاستقلال التام . وقد حاول مستشار الداخليـة الانكليزي منع هذه الوثائق فلما لم يستطع استخدام الوزارة فيه كان عمله أبتر ناقصا فكان هذا من اظهر الشواهد على عجز الانكليز عن

التصرف في الامة بأنفسهم، فهم لم يعملوا شيئاً ضارا ولا نافعا الا بأيدي المصريين . ولم تكن مساعدة الوزارة لسعد باشا عن تواطؤ وتعاهد على السعي معه الى الاستقلال التام الذي التزمه اذ لم تكن ترجو هذا وانما رأت ان قيامه بهذا الامر يكون وسيلة لها الى أحد الامرين اما الحصول على استقلال اداري واسع مع الارتباط بالامبراطورية بالحماية أو السيادة على ما كانت وعدت به عند اعلان الحماية - واما اثبات وطنية افرادها لتعلم الامة أن موافقتها للدولة البريطانية على اعلان الحماية ومساعدتها اياها على استخدام قوى الحكومة والامة في الحرب كان عن اجتهاد في خدمة البلاد يغفر لها خطأها فيه حسن النية والتكفير عنه بمساعدة الامة على طلب الاستقلال

الاستمداد للاستقلال وأسبابه

(٩) ان استمداد الامم للانقلابات الاجتماعية التي يظهر بها انتقالها من طور الى طور انما يتم بأعمال شتى في أزمنة مختلفة تكون كالمقدمات للنتيجة فلا يعلم عند النظر في كل منها منفردا ماسيفضي اليه او ماسيترتب عليه عند اتصاله بغيره على وجه مخصوص ، وان رجال الاستعمار من الافرنج يراقبون الشعوب التي يسودونها ليحولوا بينها وبين الاعمال التي تجتمع بها كلمتها فتكون أمة مستقلة بالاستمداد بالقوة، الذي لا بد ان يتبعه الاستقلال بالفعل فيصرفونها عن هذه الاعمال ويشغلونها بضدها بقدر علمهم واجتهادهم ،وقد يخونهم العلم فيعملون بأنفسهم لاعداد الامة للاستقلال مالا تستطيع عمله اوبما لا يأتي منها وهم لايشعرون ، فلم يكن لورد كروس (وقد كان اوسع انكليز مصر علما وخبرا وحزما) يعلم بأن اباحته للمصريين حرية الانتقاد على حكومتهم وأعظم رجالها سيكون سببا من أسباب جمع كلمتها اذ كانت الحكومات هي السالبة لاستمداد الشعب بمصر والحائلة دون جعله أمة - وانما كان منتهى اجتهاده في ذلك ان سقوط هيبة الحكومة الوطنية وزوال سلطانها يجعل المصريين خاضعين للانكليز خاضعين لهيبتهم وحدهم ، وهم الذين لا يطمع أحد في اضعاف سلطانهم - ولم تكن السلطة العسكرية البريطانية تعلم ان ذلك التصرف في أموال الفلاحين وسائر الطبقات الواسعة وفي أنفسهم يولد عندهم من الملل بضرر السلطة الاجنبية والشعور بكراهتها وعداوتها ما تشارك به أعلى الطبقات علما وأشدهم شعورا فتجعل الامة كتلة واحدة وكلمة واحدة - بل أقول ان الحكومة البريطانية

العليا في لندن كانت تجهل ماتلده لها الدعوة (البوربغندة) التي نشرتها في العالم كله طول سني الحرب لاقناع الامم كلها بأنها مع حلفائها يقاتلون لتحرير الامم والشعوب وازالة ما يريده الالمان وحلفاؤهم من جعل السلطان القوة دون الحق ـ وهو توجه أنفس الشعوب المستعمرة او المستعبدة بالإسباء المختلفة الى الحرية والاستقلال وبغض المستعبد واحتقاره والخروج عليه مهما تكن النسبة بعيدة بين قوته وضعفها ـ كما كانت تجهل بالاولى ان نفي سعد باشا زغلول ورفاقه من مصر عند اظهارهم الاستعداد لطلب الاستقلال يولد في مصر ثورة اجتماعية عامة . كيف وقد سمعت هذه الحكومة ممن كانت تعده أعلم رجالها بحال المصريين ـ وهو مستشار الداخلية السابق ـ قوله: اذا اشتعلت نار ثورة في مصر فهو يطفئها بيصقة من فمه !

الوحدة المصرية وما حدث من صدعها

(١٠) ظهرت مبادئ استعداد الوحدة المصرية للاستقلال ونبذ السلطة الانكليزية بعد وقوع اسبابه التي أشرنا الى بعضها في زهاء ثلث قرن فكانت كلما قاومها الانكليز تزداد قوة لانها حقيقية لاصورية مدبرة كما ظنوا بادئ ذي بدء ، ولوعلموا انها حقيقية لعالجوها باللين والخدعة ، لابالشدة والصراحة. ولكن هذه الوحدة لم تمش أكثر من عامين حتى فت في عضدها التفرق والانقسام ، ومن العجيب أن أعظم مظاهر الاعتصام والوحدة ، قد كان هو نفسه أعظم مظاهر الانقسام والتفرقة ، الا وهو الوفد المصري الذي اجمعت الامة على الثقة به وجعلت في تصرفه مئات الالوف من الجنيهات،فقد جنى الوفد على نفسه بما جنى على الامة فخابت فيه الآمال،وغلب يأس الجمهور على الرجاء،وآخرون متحيرون يقولون ماعدا مما بدا ؟ وهل لمصر من موسى يأتيها بخبر او يجد على هذه النار هدى؟ وقد يعجبون لقول مثلي بعد هذا التفرق الذي اشرب العداء، ولم يسلم من الهجر والبذاء،على أكابر الزعماء والرؤساء:ان الوحدة المصرية حقيقية، ولم تكن خدعة صورية ، نعم انني قلت ماقلت على علم ، وانني اثبت رأيي بالدليل:

لا تتمحص الحقائق الا بدخولها في جميع الاطوار التي من شأنها التطور بها فما ظهر من التفرق والانقسام في الوحدة المصرية التي أكبرها العالم مدة سنتين يشبه ما كان من اكبار العالم للانقلاب العثماني الذي هتفت له الشعوب العثمانية على اختلاف مللها ونحلها ، ولغاتها وتربيتها ،وتعانقت وآخت

لاجل تنفيذ قانونه ، ثم لم تلبث جمعية الاتحاد والترقي التي احدثته ان هدمته بيدها ، وكذلك هدم الوفد المصري ما حدث على يديه من الوحدة المصرية واجتماع الكلمة عند نفي رئيسه وثلاثة من أعضائه المؤسسين الى مالطة - ثم عند اطلاقهم من اعتقالهم - ثم في مقاطعة لجنة لورد ملنر واجماع الامة على ردها الى الوفد المصري - ثم في استقبال لجنة الوفد التي جاءت لاستشارة الامة في تقرير لورد ملنر - ثم في استقبال الرئيس سعد باشا زغلول بحفاوة عامة اشترك فيها القطر المصري من أدناه الى أقصاه باحتفالات وزينات وخطب وقصائد ومآدب لم يسبق لها نظير : ولم يبق أحد يجهل ان اتحاد الامم هو أعظم قوة لها تتبعها سائر القوى اذا ثبتت ، وينتكث فتلَ كل ما يوجد منها اذا نكثت ، فاسبب هذا التفرق بعد ظهور ثمرة الاجتماع بجنوح بريطانية العظمى الى استمالة مصر وارضائها برفع الحماية عنها والاعتراف بالاستقلال لها ، مقيدا ذلك بقيود تحفظ بها مصالحها ؟

موضوع الاتفاق وسبب الافتراق

(١١) ان ما كان من الوحدة والاتفاق كان على أمر مجمل توجه اليه استمداد جميع طبقات الشعب وهذا التفرق لم يزده الا قوة ولكن الشعب (لما اتفق على طلب الاستقلال التام كان أهل الرأي منه يعلمون أن الكمال يقصد في أول السعي وقلما ينال الا في آخره . وان المسافة بين الاول والآخر في اعمال الامم قد تكون قريبة تحسب بالسنين وقد تكون بطيئة تمد بالاحقاب، ومنهم من كان يرى مع هذا أن كل مايؤخذ من الغاصب فهو ربح ، ومن يرى ان أخذ بعض المغصوب قد يتضمن الاعتراف للغاصب بالبعض الآخر فالواجب الانتظار لاخذ الحق كله ولو بعد حين - فكان هذا خلافا يداخل الاتفاق وان لم يذكر في الوقت الذي لم يظهر من الغاصب فيه جنوح ما الى الاعتراف بشيء من الحق لصاحبه ، دع الوعد ببذله كله او بعضه ، فلما اثمر سعي الوفد بقوة وحدة الامة التي تؤيده جنح الانكليز لارضاء المصريين بالاعتراف لهم بحقهم في ادارة بلادهم واستقلالهم فيها (بشرط اعترافهم هم لبريطانية العظمى بمركز ممتاز في البلاد تحفظ به مصالحها ومنافع اوربة بما اكتسبته من الاهلية لهذا الامتياز بالاحتلال الطويل الذي خدمت البلاد فيه ورقت موارد الثروة فيها وغير ذلك مما تدعيه سواء كان صحيحا أم لا) ودعي الوفد المصري من باريس

الى لندن لاجل المفاوضة في التقرير الذي وضعه لورد ملنر وزير المستعمرات البريطانية لحل اشكال القضية المصرية ـ لما كان ذلك ـ ظهر في المسرح عدلي باشا يكن أحد أركان الوزارة الرشدية التي استقالت في سبيل تأييد الوفد فكان وسيطا بين الوفد ولجنة ملنر التي فوضت الحكومة البريطانية اليها أمر المفاوضة وسبر غور الوفد ـ وظهرت بتلك الوساطة مبادي الخلاف الكامن الذي أشرنا اليه ، وانتهى بالتفرق والشقاق الذي نشكو منه ؛ فانه شيء جديد له اصل تليد ، كان يتخال بذور الاستقلال المطلق بذور الاستقلال المقيد بقيد الامبراطورية فنبت ذلك اولا في مصر ونبت هذه بعده في أوربة ثم في مصر ، فكان كالزوان بين القمح

لقد فتن الجمهور المصري تبعا لوفده بمشروع ملنر وبعد طول البحث فيه والتمحيص له استقر رأي سعد باشا على أنه «حماية مقنعة» الغرض منه جعل مركز الغاصب المبطل شرعيا بقبول الامة المصرية هذه الحماية المقنعة ـ ورأى عدلي باشا أنه مشروع جدير بأن يبنى عليه الاتفاق بين انكلترة ومصر وانه يمكن تبديل بعض ما يشتد سعد باشا في انكاره منه ـ وكان سعد باشا يرى عدم المفاوضة في هذا المشروع ـ ثم رأى بعد مفاوضة لجنة ملنر التي استدرج اليها انه لا يجوز جعله أصلا للاتفاق بين مصر وانكلترة ولا أساسا للمفاوضات الرسمية الا اذا ألغيت الحماية وقبلت التحفظات التي وضعها الوفد بعد مشاورة الامة والاطلاع على رأيها . واشتد النزاع بينه وبين ملنر مرارا حتى هم بقطع المفاوضات وكان عدلي باشا يعيد المياه الى مجاريها بلطفه وكياسته فأرضى بذلك الانكليز وعلقوا آمالهم به وأغضب سعد باشا ، وسعد شديد الشكيمة حديد المزاج اذا غضب جرح فأدمى ، وعدلي باشا رقيق الطبع من أبعد الناس عن النضال والخصام ، ولكن مال اليه بعض اعضاء الوفد وآثروه على رئيسهم في شخصه وفي طريقته ، فاجتهدوا أولا في التأليف بينهما ، ولولا ذلك لظهر مانجم من الشقاق بينهما في أوربة . على ان سعد باشا انبأ لجنة الوفد بمصر ببرقية من باريس بأن عدلي باشا مشاق الوفد فلم تنشر ذلك اللجنة وتدارك ذلك الاعضاء هنالك فاصلحوا بينهما أصلاحا التزم فيه عدلي بألا يعمل عملا الا بالاتفاق مع الوفد ، وحمل سعدا على كتابة برقية تنسخ البرقية الاولى فنشرت هذه دون تلك ـ ويقال انهم أقنعوا سعدا بأن يؤلف عدلي وزارة تتولى المفاوضة

مع انكلترة ويكون الوفد بالمرصاد لما يقرره الفريقان فان كان مرضيا أيده والا استأنف جهاده وسعيه

ثم ظهر الخلاف بين سعد والمشايعين لعدلي من أعضاء وفده فغادره خمسة منهم وعادوا الى مصر فسبقهم اليها نبأ منه بمخالفتهم له فاستقبلهم جند الوطنية من الشبان اسوأ استقبال منذ بلغوا مرفأ الاسكندرية الى أن آووا الى بيوتهم واسمعوهم اذى كثيرا مشوبا بالوعيد والنذر، وأخذوا منهم كتابا بأنهم على رأي الرئيس ومعه ، ولكن لم يمنعهم ذلك من بث الدعوة لعدلي باشا والطعن في سعد باشا والتنفير والصد عنه وكان منهم الغالي والمعتدل في ذلك

الوزارة العدلية

(١٢) من القضايا التي صارت معروفة للجمهور ومسلمة بين الخصوم أنه لما كان الوفد المصري وعدلي باشا في لندن تقرر لدى الحكومة البريطانية ان يؤلف عدلي باشا بعد عودته الى مصر وزارة تتولى المفاوضة الرسمية وعقد الاتفاق بين بريطانية العظمى ومصر على أساس تقرير ملنر بشرط الغاء الحماية فقط ، والشائع ان أعضاء الوفد الذين تحولوا ثمة عن سعد الى مشايعة عدلي قد تواطئوا معه هنالك على تأييد الوفد له اما بجذب سعد اليهم واما بنبذه بأكثر الآراء ، ولولا هذا التواطؤ لم يقبل عدلي باشا ان يدخل في هذه المهمة وينقض عهده فانه رجل شديد الاحتياط في حفظ كرامته وشرفه واتقاء القيل والقال، دع الاستهداف للطعن والنضال، وانهم حاولوا هذا هنا فلما لم يستطيعوا اليه سبيلا تحيزوا الى عدلي جهاراً، واننا نلخص خبر الوزارة بموجز من القول

سبق ان ذكرنا في المنار الصفة الرسمية لتأليف الوزارة وانها كانت بسبب البلاغ البريطاني لعظمة السلطان في شأن المفاوضة باستبدال علاقة أخرى بالحماية البريطانية على مصر تربطها بالامبراطورية وقد اشتهر ان السلطان كان يرغب ان تتولى وزارة محمد توفيق باشا نسيم ذلك لانها كانت احظى الوزارات عنده ولما استقالت لاجل هذا العمل عهد الى محمد مظلوم باشا بتأليف الوزارة المطلوبة فلم يمكن ، ويقال انه ذكر غيره ثم علم أنه لا يمكن ان يقوم بهذا الامر الا عدلي باشا

ولما ألف عدلي باشا الوزارة ذكر في جوابه عن الامر السلطاني بتأليفها خطتها السياسية الناطقة انها « ستجعل نصب عينيها في المهمة السياسية التي

ستقوم بها لتحديد العلاقات الجديدة بين بريطانية العظمى وبين مصر الوصول الى اتفاق لايجعل محلا للشك في استقلال مصر . وستحري في هذه المهمة متشبعة بما تتوق اليه البلاد ومسترشدة بما رسمته ارادة الامة وستدعو الوفد المصري الذي يرأسه سعد باشا زغلول الى الاشتراك في العمل لتحقيق هذا الغرض»

وقع هذا القول على ابهام عبارته واضطرابها (١) أحسن موقع من الامة فان آمالها كانت محصورة في الوفد الذي ينطق باسمها فرأت أنه قد وجدت في البلاد حكومة تؤيد الوفد وتعمل معه فأصبحت الامة والحكومة كلمة واحدة ويدا واحدة بعد ان كانت الحكومة خصما للامة منذ تمكن الاحتلال الانكليزي وأنشب براثنه فيها الى هذا العهد، لاجل هذا صفقت الامة لهذه الوزارة وقابلتها بمظاهرات الثقة بها والهتاف لها مع الهتاف للوفد ولرئيسه سعد باشا

التفرق والشقاق بين المصريين

(١٣) ثم ان الوزارة آذنت سعد باشا – وهو في باريس – بتأليفها وخطتها وطلبت منه الحضور الى مصر للتعاون معها على العمل فبادر فقابلته الامة من أعلى طبقاتها الى أدناها في جميع البلاد من أدناها الى أقصاها ، بمظاهر من الحفاوة والتكريم ، لم يسبق لها شبه ولا نظير ، فكانت الامة كالمجمعة على ما قامت به جميع هيئاتها النظامية المنتخبة وسائر ممثليها من تكريمه واعلان الثقة به في المحافل العامة والمآدب الخاصة ، ولكن هذا الاجماع لم يكن تاما تاما سالما من الشذوذ الخفي بل كان بعض أعضاء الوفد الذين خرجوا من أوربة ممتاضين وبعض الحاسدين الذين زادهم مارأوا حسدا يخفون في أنفسهم مالا يبدون للناس فلما تعذر التوفيق بين الوفد والوزارة أو بين رئيسيهما ظهر ما كان خفيا وصار أعضاء الوفد الغاضبون لرئيسهم يتسللون من (بيت الامة) (٢) لواذا ، وينفضون الى الوزارة ثبات وافرادا ، ثم استمالوا هم والوزارة اليهم آخرين منهم ، وهي

(١) ان نفي ايجاد محل الشك في الاستقلال في الاتفاق لايقتضي ان يكون اتفاقا على الاستقلال التام المطلوب فانه تمي بينه وبين استقلال مبهم ثلاث مراتب – الجمل والمحل والشك – فاذا كان الاتفاق على ان تكون مصر كبعض امارات الهند أو الجزائر التي تسمى مستعمرات مستقلة فانه يصدق عليه ماذكر. والاسترشاد بما رسمته ارادة الامة لايقتضي اتباع ارادتها وعدم تجاوزه

(٢) بيت الامة لقب وضع لدار سعد باشا زغلول .

وطيس الخلاف والجدل ؛ وصرح رئيس الوفد بعدم الثقة بتولي الوزارة للمفاوضة مع الحكومة الانكليزية والاتفاق معها على مستقبل مصر ، فعارضته الوزارة وقاومته بكل مالدى الحكومة من حول وقوة ؛ تظاهرها في ذلك السلطة المحتلة ، ومن ورائها الامة البريطانية بحكومتها وجرائدها ، وبالها من قوى هائلة تستغيث من هولها الامم ، وتخشى صولتها كبرى الدول ، بمظهر بذلك صدق ماقيل من انه قد تقرر في انكلترة ان يتولى عدلي باشا الوزارة ويؤيده الوفد ثم يكون هو الذي يعقد الاتفاق بين بريطانية العظمى ومصر على قواعد تقرير ملنر بشرط الغاء الحماية واستبدال علاقة بريطانية أخرى بها

فوقع بذلك الشقاق في الامة ، وانشقت عصا تلك الوحدة التي ليس لمصر من دونها حول ولا قوة ، فكان هذا أول طلائع الظفر البريطاني الذي ينال جميع المطلوب بالصبر والجلد ، مع الدأب في العمل

وقل من جد في أمر يحاوله واستعمل الصبر الا فاز بالظفر

فنعم كان هذا الشقاق الذي شوه تلك السمعة الشريفة التي نالتها مصر في العالم كله بوحدتها واتفاق كلمتها مدة عامين ؟ هل هو شقاق في المذهب السياسي ام تنازع على الزعامة والرياسة بين الافراد وانتصار كل فريق لزعيم لتفضيله اياه في الزعامة للمصلحة العامة او المنفعة الخاصة ؟ ومن المذنب المسؤول ؟ وأي الحزبين هو الظافر وأيهم المغبون ؟

موضوع الشقاق وزعماؤه

(١٤) من القضايا التي صارت معروفة لكل أحد ان وحدة الامة المصرية التي كان يمثلها سعد باشا زغلول رئيس الوفد المصري قد انصدعت فصارت الامة في طريق السعي الى استقلالها فريقين — وأن زعيم الفريق الاكبر او الاكثر هو سعد باشا ويميز عن افراد حزبه بالسعديين ، وان زعيم الفريق الاصغر أو الاقل هو عدلي باشا ويميز من أفراد حزبه بالعدليين ، وان كل قوة سعد مستمدة من الامة ، وان جل قوة عدلي مستمدة من الحكومة المصرية التي هو رئيسها والسلطة البريطانية الموجدة لهذه الحكومة — وان هذا الصدع قد كان من قبل الزعماء الذين أسسوا بناء الوحدة بما كان من استعداد الامة له وهم زعماء هذه الوزارة وزعماء الوفد الذي تأسس بمساعدتها بما وقع من الخلاف بينهم فهم المسؤولون — وان التنازع على رئاسة الوفد الرسمي الذي يتولى عقد الاتفاق

بين بريطانية العظمى ومصر اذا أمكن قد كان من أسباب هذا الخلاف

هذه قضايا لامراء فيها والمدليون يتهمون سعدا بأنه لا عذر له في الامتناع من تأييد الوزارة الا حب الرئاسة وقد اذاع كتابهم في جرائدهم وغيرها أن المسألة شخصية، وهذا عار كبير على الامة بأسرها . وسعد باشا يحتج بأنه يجب ان يكون هو الرئيس للوفد الرسمي لانه هو الممثل للامة التي وعدت الحكومة باتباع ارادتها في قضيتها السياسية والوزارة الحاضرة ليست الا وزارة الحماية الانكليزية فهي مظهر السلطة البريطانية فاذا كانت هي التي تتولى ادارة المفاوضة ثم الاتفاق مع بريطانية فكأن ملك الانكليز هو الذي يتفق مع نفسه، وأن ما تعتذر به الوزارة أو تحتج به على ماتعترض عليه من جعل رئاسة الوفد الرسمي لرئيسها — وهو أن التقاليد المتبعة في جميع الدول ان رئيس الحكومة هو الذي يرأس كل جماعة رسمية يكون فيها وهو الذي يعقد المحالفات والاتفاقات مع الحكومات الاخرى — عذر باطل وحجة داحضة فان ماذكروه من تقاليد الحكومات المستقلة النيابية التي يمثل رئيسها الحكومة والامة جميعا اذ لا يكون رئيسا لها الا بتأييد مجلس نوابها الممثل للامة ، وهذا مباين لحال الوزارة المصرية

ويقول المدليون ان الوزارة أجابت سعد باشا الى جميع ما اشترطه لتأييد الوفد لها الا مسألة الرياسة فيها يكن له من حجة على طلب هذه الرياسة لنفسه، فليس له أن يوقع الشقاق في الامة لاجله، وناهيك بقبول كون أكثر أعضاء الوفد الرسمي من أعضاء وفد الامة الذين يختارهم رئيسه وكون الثقة بشخص عدلي باشا لانزاع فيها — وسعد باشا وحزبه يردون هذا القول بكلام لم ينشروه كله في الجرائد فينكرون اجابة ما عدا شرط الرياسة من شروط الوفد فقد كان أهم الشروط اصدار المرسوم السلطاني ناطقا بتحديد الاساس الذي تجري فيه المفاوضة على ما يتفق مع مطلب الامة ومبادئ الوفد كالنص على إلغاء الحماية البريطانية على مصر حتى امام الدول الاجنبية وعلى الاستقلال الدولي التام المطلق في الداخل والخارج ، ويليه شرط إلغاء الحكومة العرفية والمراقبة على الصحف لتكون الامة وصحفها حرة في أقوالها وافعالها لا مسيطر عليها في ابداء رأيها الا القانون، فلم ينفذ شيء من ذلك —

ويقولون أيضا ان الرئيس لم تبق له ثقة باقتدار عدلي باشا على تحقيق مقصد الامة المصرية بعد ان تمحصت قضيتها لانه يرضى بدون ما ترضاه، ولاثقة له بأعضاء الوفد المتحيزين اليه فهذا كله مما كتب. وهو يفيد أنه لم يبدا اشتراط كون أكثرية الوفد الرسمي من أعضاء الوفد غير الرسمي مبدءا ، فاذا ألف عدلي الوفد الرسمي بجعل ثلثه من رجال الحكومة الذين على رأيه والثلثين من أعضاء الوفد غير الرسمي وكان نصفهم من المتحيزين اليه تكون بيده الا كثرية الساحقة ،واذا كان مع هذا هو الرئيس الذي يتولى ادارة المفاوضة فلا يبقى لرأي سعد باشا معه تأثير — فلهذا اشترط ان يكون هو الرئيس للوفد الرسمي لالمجرد حب الرياسة فانه ليس فوق ما خولته إياه الامة من الزعامة فيها والرياسة لها غاية تطلب

واظهر حجة لبعض العدليين ، رضيها بعض المعتدلين ، هي ان الوفد الرسمي الذي ترضى بريطانية العظمى أن تتفق معه لابد أن يكون من قبل عظمة السلطان فاذا جاز ان يرسم السلطان لغير رئيس حكومته بتأليفه فلا يجوز ان يجعل سعد باشا هو الرئيس له اذ لاصلة بينه وبينه يعرف بها رأيه وفكره ودرجة اخلاصه له وهؤلاء ينكرون على سعد باشا عدم زيارته للسلطان عقب عودته ، وهو يعلم أيضا ان الحكومة البريطانية لاترضى برئاسة سعد باشا — فاذا كان الامر كذلك فلا ينبغي لسعد باشا ان يوجه كل نفوذه في الامة الى منع ما اتفقت عليه الحكومتان بمحاولة اسقاط عدلي باشا والجائه الى استعمال نفوذ حزبه ونفوذ الحكومة الى جزائه على عمله بمثله الذي ادى الى شق عصا الوحدة وخسارته بل خسارة البلاد ما كان من اجماع الامة على زعيم واحد وهو هو (سعد باشا) وكان يكفيه الابقاء بيده ولا يشاركه في المفاوضة ويقف له ولوفده الرسمي بالمرصاد فان جاء بالاستقلال التام الذي يرضاه هو والامة لم يكن عليه أدنى غضاضة في قبول ذلك وتوجيه نفوذ زعامته الى النهوض بإعباء هذا الاستقلال الذي يشهد الجميع بأنه كان حجر الزاوية له ، وان وقع الاتفاق الرسمي باسم من كان عونا له لاخصما . وان جاء بحماية مقنعة او استقلال صوري مقيد بقيود الامبراطورية البريطانية ومغلل باغلالها فليحمل عليه بحمل الامة على رد هذا الاتفاق وعدم التصديق عليه ، فاذا لم ينفذ الاتفاق حينئذ

نكون باقين في موقفنا بل أقوى مما كنا بعد اعتراف انكلترة لنا بما اعترفت به ، واذا نفذ نكون قد ربحنا ما تركته لنا من حقوقنا من حيث لم تتقيد الامة بالاعتراف لها بشيء باثباتنا حينئذ ان الوفد الرسمي المفاوض لا يمثل الامة أولم تقره الامة على ما عقده

والسعديون يردون على هؤلاء بأنهم موقنون بأن عدلي لا يأتي الا بالحماية المقنعة، وبأن السكوت او ترك المعارضة يفضي الى نجاح الوزارة في اغتصاب الثقة بها من الامة بنفوذ الحكومة المعزز بالرجال والمال ثم الى التصديق على ما تعاقد عليه مع الحكومة البريطانية فاذا اجتمعت القوتان على ادعاء هذا التصديق والاقرار له و كونه مبنيا على تلك الثقة والتفويض فماذا تعمل الامة الضعيفة بعد ذلك — فهذه صفوة حجج الفريقين في جوهر الموضوع وموضع النزاع وما نحن لما عدا ذلك من المراء والجدل بناظرين

الموازنة بين الرئيسين

(١٥) عدلي باشا يكن — رجل عزيز النفس كريم النحيزة مهذب الاخلاق رقيق الطبع أبي مترفع في غير كبرياء ، مبالغ في حفظ كرامة نفسه ، مع المراعاة لكرامة معاشره وجليسه ، واسع الحلم ، نزيه النفس واللسان، قليل الكلام ،وهو كبير بيت يكن الذي هو أكبر بيوتات السلائل التركية في مصر بل هو البيت الاول بعد بيت الامارة ممن تولوا الاحكام والمناصب العالية — وهو كبير في نفسه كما أنه كبير في بيته، حريص على حفظ شرفه — فهو بهذه الصفات جدير بمنصب السفارة والوزارة وبرئاسة الوزراء ، وقد أوتي من العلم العصري ما يحتاج اليه المنصب وقلما يوجد بمصر من يقسر كبراء الافرنج حتى الانكليز منهم على احترامه مثله، بل هو قوي الشبه بكبراء الانكليز في ترفعه وآدابه وشمائله

ولكنه لم يؤت من طلاقة اللسان في الخطابة ، ومن بلاغة القول في الكتابة ، ومن الاقدام على مكافحة الخطوب ومصارعة الاخطار ما يؤهله لزعامة الامة أو التأثير فيها والسير بها في سبل الارتقاء الاجتماعي ، ولا لقيادتها في ميادين الجهاد السياسي ، بل هو غير مستعد للتصدي لاحداث أدنى تأثير في الامة بنفسه ، ولعله لولا المناصب العالية التي تولاها — كادارة الاوقاف العامة ومحافظة العاصمة

والوزارة – لما كان يعرفه الا القليل من طبقات الامة الوسطى دع الدنيا ، وهو لا يعرفهم بالأولى

سعد باشا زغلول – هو رجل من بيت وسط من مديرية الغربية عربي السلالة – كما أخبرني صديقي المرحوم عبد الرحمن زغلول ابن أخي سعد باشا – طلب في حداثته العلم في الازهر وكان من حسن الحظ ان اتصل في أثناء ذلك بالاستاذ الامام وتلقى عنه وعاش معه زمنا وتخرج به فهو استاذه الاول ومربيه على ما خلق مستعدا له من الاستقلال في الرأي والفهم وقوة الارادة والشجاعة وصناعة الحجة وحب الحق ، وادرك أيام موقظ الشرق ومصلح مصر السيد جمال الدين الافغاني وحضر بعض أنديته وسماره ، ولما تولى الاستاذ الامام ادارة المطبوعات ورياسة تحرير الجريدة الرسمية (الوقائع المصرية) جعله محررا في القسم الادبي الاصلاحي الذي زاده فيها فتمرن على الكتابة في المسائل الاجتماعية والسياسية والادبية والاقتصادية واطلع على جميع شؤون الحكومة ، فان ادارة المطبوعات كانت في ذلك العهد مسيطرة على الجرائد وسائر المطبوعات ومراقبة على الحكومة تنتقد جميع اعمالها في جميع فروعها – ، وفي اثناء ذلك حدثت الثورة العرابية – فهو قد نشأ وترعرع وشب في حجر العلم والسياسة والانقلاب الفكري والاجتماعي والسياسي

ثم اشتغل بالمحاماة والتزم فيها جانب الحق فكان لا يقبل الوكالة في دعوى يرى ان صاحبها مبطل ، وبرع في الخطابة واقامة الحجة والاطلاع على القوانين والخبرة بشؤون الناس وأخلاقهم ومعايشهم وحيلها ثم صار قاضيا في أعلى مناصب القضاء الاهلي فاشتهر بدقته في التحقيق واستقلاله في الرأي وعدله في الاحكام حتى شهد له مستشارو الاستئناف من الاجانب والوطنيين كتابة بأنه رقى المحاماة وشرف القضاء بعدله واستقلاله . وهي شهادة لم ينلها فيما نعلم أحد من صنفه ، ثم صار وزيرا للمعارف ثم وزيرا للحقانية ثم وكيلا منتخبا للجمعية التشريعية .

وكان في كل منصب من هذه المناصب الكفوء الكريم والممتاز بين أهله فيه ، ولا نعرف أحدا في وطنه يشاركه في هذه المجموعة من المزايا بل قل ان يوجد له ند يضارعه في فرد من أفرادها – فهو بها أجدر افراد هذه الامة بزعامتها الاجتماعية والسياسية

الا أنه ينقصه من صفات الزعماء السياسيين — كما يقولون — ما يسمونه المرونة السياسية وهي تشمل سعة الصدر والحلم والمداراة والتمويه والخداع وان شئت قلت والبراعة في الافك والكذب الذي يحتمل التأويلات الكثيرة والتملق والبراعة في الاستمالة والتزلف عند الحاجة. وهو لغلبة ملكة القضاء على كل ملكاته لا يستطيع كل ذلك ولو تكلفه فهو لا يبالي بمن خالفه فيما يعتقد ولا يحفل بمداراته ، مهما يكن عظيماً وقد كان الاستاذ الامام يقول ان سعداً خلق ليكون قاضياً ، ووصف سيرته في القضاء واستقصاءه فيه الدلائل ودقته في الاستنباط وحرصه على العدل . وخصومه يسمون هذه الملكة غلظة وكبراً أو يطلقون أمثال هذه النعوت على بعض لوازمها .

وقد زادوا في هذه الايام في نعته انه مستبد لا يخضع للشورى فهو يعمل باسم الوفد ما يراه وان خالف قرار الاكثرين . وهذا خلاف ما نعرف فيه ونعهد منه ، فاذا أردنا انصاف القائلين بهذا بحمل كلامهم على الصدق ولا سيما فيما ينقلونه من الوقائع المعينة فلا نرى جامعاً يجمع بينه وبين ما هو معروف عنه من الانصاف والاستقلال ومعرفة قيمة النظام ومراعاة القوانين الا ما حدث في الوفد من الشقاق واختلاف النيات والا فان مثل سعد لا يخفى عليه أن شعبه الذي يفتخر بحق بارتقائه وأهليته لتولي أمور نفسه بنفسه في حكم دستوري لا يمكن أن يقبل في عمل من أعماله رئيساً مستبداً لا يجري على نظام الشورى ولا متكبراً لا يحترم آراء من معه وان هذان الخلقان لا يخفيان على أحد

على اننا قد سمعنا بآذاننا وسمع الجماهير مثلنا خطبه في المحافل والمجامع العظيمة وقرأها أكثر ممن سمعوها فهم يشهدون بأنه كان يعزو فيها كل عمل الى أعضاء الوفد ويذكرهم بمنتهى الادب والاحترام ويقدمهم احياناً على نفسه ، وعلمنا أنه زار من لم يزره ممن عادوا من أوربة قبله مغاضبين لهم العلم بأنه كان أشدهم زراية عليه وصداً عنه ، وفضله على نفسه في احدى خطب المجامع الحافلة . ولم يكن هذا بجاذبه لذلك العضو الى الوفاق بل لم يزده الا حقداً وضغناً ، واعراضاً وطعناً

الحكم في الشقاق بين أعضاء الوفد ورئيسه

(١٦) انني أعرف بعض أعضاء الوفد المصري معرفة صحبة ومرادة، وأعرف بعضهم

معرفة مواجهة ومعارفة، وأجهل حال غير المشهورين منهم جهالة تامة، فأنا أحكم بصدق الوطنية لبعضهم على علم وخبر، وأحكم به للآخرين على قاعدتي أصل البراءة وحسن الظن، وقد سمعت ما قاله المختلفون على رئيسهم سعد باشا وقرأت ما كتبوا — فرأيت أنهم قد أخطأوا في اجتهادهم ، حتى على تسليم جميع أقوالهم ، فكيف اذا كان القول الوسط المعقول في هذا الاختلاف هو القول في كل اختلاف بين فريقين في أمر من الامور العامة والمصالح السياسية والمسائل الاجتهادية التي تختلف فيها الآراء والانظار . وهو ان يكون كل فريق مخطئا في بعض ما اختلفوا فيه ومصيبا في بعض، فان جاز عقلا ان يكون أحدهما مصيبا في كل ما خالف فيه الآخر — فأي الفريقين هنا أجدر بأن يحكم له بالصواب ؟ ألفريق الذي يخطئه السواد الاعظم من الامة بعد معرفة كل ما أدلى به من الحجج وما أدلى به خصمه ؟ ولا يؤيده الانفر قليل جدا أكثرهم من أصدقاء افراده او من اتباع أصحاب العصبية منهم ؟ ام الفريق الذي يؤيده السواد الاعظم ويرمي مخالفيه بأشنع التهم وينبزهم بأفظع الالقاب؟

أقول ان المؤيدين لاعضاء الوفد الذين شاقوا الرئيس نفر قليل جدا في مجموع الامة مع العلم بأن الذين أيدوا الوزارة العدلية كثيرون جدا، فان الذين أيدوا الوزارة لا يؤيد جميعهم ولا أكثرهم أعضاء الوفد المشايعين لها ، بل أكثرهم يرى ان سعد باشا هو زعيم الامة بحق وانه هو المرجع الذي يعول عليه عند تحكيم الامة فيما يأتي به وفد الحكومة الرسمي من الاتفاق مع الحكومة البريطانية ، ولئن كان المشاقون لسعد أول من أيد عدلي و يعتقد أهل الرأي انه لولاهم لما كان ما كان — فان المؤيدين له بعد ان أصر على السير في القضية بدون اتفاق مع سعد والوفد انما أيده اكثرهم بنفوذ الحكومة لا بنفوذ هؤلاء الاعضاء ـ فهم قد نزلوا بمشاقتهم لسعد عن مقام الزعامة العامة في الامة الى أدنى ما كانوا عليه قبلها فان كانوا تركوا سعدا لحفظ كرامتهم الشخصية التي تقول عنه أنه لم يكن يعطيها حقها . ولتأييد المصلحة العامة التي قالوا انهم رأوه باستبداده غير أهل لها ـ فقد كانت خسارتهم الشخصية بهذا الترك أعظم ، وصاروا عن القيام بخدمة المصلحة العامة أعجز ـ فهذا هو وجه تخطئتي لاجتهادهم حتى على تقدير تسليم جميع أقوالهم ؛ وانما اكتب هذا لاجل التذكير وبيان وجه العبرة لمن يعتبر من

بخلافه أمثنا بما كان من اغلاط الزعماء والعلماء بالمصلحة العامة فيما نستقبله من حياتنا السياسية التي لا نزال فيها اطفالا بالنسبة الى الامم التي طال عهدهم بالتمرس بأعمالها والجهاد في ميادينها.

يقولون ان العمل معه صار متعذرا، فان لم تقل ان المتبادر انه صار متعذرا بعد المشاقة اذ كان متيسرا قبلها ، قلنا ان الاخلاص في العمل للامة والحرص على وحدتها لا يمكن أن يكون بغير جهاد شاق، وصبر واحتمال وايثار ،وقد قيل في المثل «ان صنع مالك الهوى - ارشدتك الحيل » فلي هذا لم يكن من المتعذر ان يتفق بعضهم بعضا بالتشاور والتظاهر على الرئيس - وهم معه - فيما يرونه منه مخلا بكرامة بعضهم ، أو الاستبداد بالامر دونهم ، كما تظاهروا عليه في الانتقاد الصريح في الجرائد والخروج من الوفد ، فان كانوا توهموا انه كان من الممكن اسقاطه واستبدال غيره به قبل مجيئه من أوربة وما قابلته به جميع طبقات الامة من أدنى البلاد الى أقصاها من الحفاوة والغلو الذي كاد يكون من العبادة ، فوقوع هذا التوهم بعد ذلك كله من أغرب الخطأ ولا سيما من هؤلاء الاذكياء العلماء بأخلاق الامم وسنن الاجتماع

لقد كان زعماء جمعية الاتحاد والترقي الذين شبهناهم بهم في أول المقال أهدى سبيلا منهم في المحافظة على زعامتهم ونفوذ جماعتهم في الدولة والامة ، فقد كان ينكر بعضهم على بعض فيتناظرون في الافكار ، ولكن لم يكن ذلك ليتعدى انديتهم ولا ليفرق جماعتهم ، وبذلك كان لهم الفوز على جميع الاحزاب المناوئة لهم على قوتها ، والوفد المصري لم يكن له في الامة خصوم يعتد بهم ويخشى عليه منهم ، حتى كانوا هم الذين شقوا عصاهم بأيديهم ، وسنجد ألوفا من العاذلين لنا على هذه الطريقة — ولا نتسامى الى منصب القضاء فنتولى هذه الرأفة — الرأفة في الحكم عليهم ، أولئك الذين يتهمونهم بأنهم قصدوا بذلك لخدمة أنفسهم ، وما نحن لهذه التهمة بشارحين ، لاننا نكتب للوعظ والارشاد ، لا التحيز الى الزعماء والتحرف للاحزاب ،

مكانة الزعامة في الامة ومكان سعد منها

(١٦) ان اجتماع كلمة السواد الاعظم من الامة على زعيم يمثلها ليس من الملكات الموروثة ولا من المقاصد التي تنال بسعي الافراد او الجماعات ، الا بمساعدة الزمان

بوقائعه وأحداثه وإشعاره الامة بمعنى الزعامة والحاجة اليها ، وإعداده الزعيم الكفؤ للنهوض بها ، وتمثيل وحدتها فيها استعدت له وتوجهت اليه، فاذا وفقت الامة الثقة بزعيم كفوء للزعامة وجب على جميع أهل الرأي والمكانة فيها أن يؤيدوه في العمل، ويقيلوا عثرته اذا عثر ، ويقوموا عوجه اذا زاغ وانحرف، وان لا يشترطوا في المحافظة على زعامته العصمة ، فان الكمال المطلق لله وحده ، فبذلك يرجى نفعه ، ويؤمن ضرر خطاه وضعفه ، ولا يحل لهم ان يؤاخذوه على ماينقمون منه بخذله ولا بالطعن في كفاءته لما يعقب ذلك من تنكيث قوى الوحدة ، وصدع بناء الزعامة ، ورب نكث يتعذر ابرامه، ورب صدع لا يرجى التئامه ،

وقد سبق القول بأن زعامة سعد كانت بالاكثرية الساحقة من السواد الاعظم، ولم تكن اجماعا سالما من الشذوذ كما كان يتوهم ، لان اجماع الامة التام على رجل واحد في الظاهر والباطن محال في سنن الاجتماع وأخلاق البشر، وقد رأينا ان مظاهرات الحفاوة بقدوم سعد كانت تحجب عن الابصار ما على بعض الوجوه من وجوم اكتئاب، وأن صيحات الهتاف له كانت تشغل الآذان عما ينفث من الالسنة من هينمة إنكار ، بل كان يتخلل تلك الحفلات، مايشير الى ما سيكون بعدها من الحملات، وقد سمعت في بعض المظاهرات اعتراضات فلسفية عليها، وشهدت احتفالين أقامهما جيراننا وجهاء مصر القديمة صرح في أكبرهما بما أختصره وان كان من لباب الموضوع :

دعيت الى الخطابة في هذا الاحتفال فأبيت لزهدي في الظهور على مثل هذه المنابر التي يتزاحم عليها طلاب الشهرة ، ورغبتي عن الكلام في السياسة في محافل أكثر شهودها من العامة ، وعجزي عن الاطراء ، الذي يألفه الجمهور في هذا المقام ، وكان من الخطباء فيه القمص مرجيوس خطيب قسوس القبط المشهور ، فخالف جميع الخطباء والشعراء الذين أخلصوا المدح والاطراء للرئيس سعد باشا بما جاء به من التربيج وأمشاج القول المتضمن لتوقع الخلاف بين سعد وعدلي ووصف سعد بالشذوذ والصلابة والاشارة الى علاج مايتوقع فارتأى ان تقتدي فيه الامة المصرية بطريقة (الفاتيكان) عند انتخاب البابا وهي أن الكردينالات الذين لهم حق الانتخاب يحبسون في حجرة يوضع لهم فيها قوت قليل ولا يسمح لهم بالخروج منها

لا بعد الاتفاق على انتخاب أحد المرشحين

ولما سمعت خطابه آذنت الذين كانوا يراجعونني في اقتراح إلقاء شيء في الحفلة بأنني قبلت فدعيت فصعدت المنبر وألقيت خطابا بينت فيه تحقق تكوين الزمان للامة المصرية بالعصبية القومية ، وان اتحاد الكلمة انما يحصل اذا مثلتها جماعة واحدة وهي ما يسمونه الزعامة والرياسة ، ومتى تكونت الامة وشعرت بنفسها وجهت هذا الشعور الى الزعيم الذي يمثلها ، كما ينبت الرأس في الجنين عند تمام تكوين أعضائه وكم ينشأ في الامة من رجال جديرين بالزعامة ولا تعرف الامة قيمتهم ، لانها لم تنبت أمة الا بالصورة الظاهرة كما تسمى صورة الاسد في الورق أو الجدار أسداً وقد كان الاستاذ الامام يقول ياويح الرجل الذي ليس له أمة ، ولا يعقل أن توجد أمة راشدة لا يوجد فيها رجل بل رجال حقيقيون بالزعامة فيها . وقد كان الاستاذ الامام من الرجال الذين يقل في الامم الراقية أمثالهم ، بل قال فيه الاستاذ الدكتور براون من أكبر علماء الانكليز المدرسين في احدى جامعاتهم الكبرى (كمبردج) : انني لم أر في الشرق ولا في الغرب مثله . ولم تكن الامة قد تكونت في عهده تكوناً تعرف به كنه قيمته ، وتعمل بارشاده وزعامته ، وهذا تلميذه الزعيم الكبير الذي نحتفل به اليوم قد كان أهلا لهذه الزعامة منذ سنين كثيرة ولم تكن الامة تعرف فيه ذلك على شهرته ، لانها لم تكن تعرف نفسها فتعرف زعيمها . ثم ذكرت من صفات سعد ما اقتضاه المقام ، وهو في معنى ما تقدم في موضعه من هذا المقال .

وهنا تلطفت في الاشارة الى الرد على ما رماه به القصص سرجيوس من الشذوذ والتعصب لرأيه ، وقلت ان الذي نعهده منه بالاختبار الاستقلال في الرأي واحترام الحقيقة والاعتراف بها اذا ظهرت له ، وقد شهدنا له في داره محاورات في مسائل علمية واجتماعية كان ينصف فيها مناظريه ومحاوريه بكل ارتياح ، ويعترف بصحة رأيهم اذا ظهر له انه الصواب ، وربما كنا منهم أو معهم في بعض الاحيان

واستطردت في الخطاب الى الرد على من ينكرون فائدة هذه الاحتفالات والمظاهرات بأنها هي القوة الوحيدة الى جعل عقيدة الاستقلال شعورا عاما شاغلا لقلوب جميع أفراد الامة من جميع طبقاتها في زمن قصير ، وفي تربية أطفالها

ونابتتها عليها ، فان هتاف الالوف الكثيرة من الرجال والنساء والاطفال في الجوامع والشوارع والبيوت للاستقلال التام ولمصر الحرة وزعيمها المطالب باستقلالها وحريتها والوفد العامل معه قد علم جميع الاميين من الطبقات الدنيا وأشعرهم بما لم يكن يعلمه ويشعر به إلا أهل التعليم العالي والتربية الاجتماعية السياسية .

وانتقلت من هذا الى بحث قلت انه أشبه بالدرس منه بالخطابة ، وهو ما يجب على الامة من العمل للمحافظة على دوام وحدتها وتكافلها في سبيل المطالبة باستقلالها ، وما يجب لحفظ الاستقلال والنهوض بأعبائه اذا نالته وأهم ذلك وأعلاه ما يسمى المسألة الاقتصادية بحفظ ثروة الامة ؛ وليس هذا من موضوع مقالنا هذا فنلخص فيه ما قلناه في ذلك الخطاب وطالما كررناه في المنار وفي بعض المقالات التي نشرناها في المؤيد والجريدة ومن أشهر هذه المقالات ما عنوانه (الى أي شيء أنت يا مصر أحوج)

وجملة القول إن مكانة الزعيم الذي يمثل وحدة الامة في اول العهد بتكونها السياسي ودخولها في ميدان الجهاد القومي للحرية والاستقلال لهاشأن عظيم في جهادها فيجب ان يحرص على تقويتها لئلا ينصدع بناء الوحدة في أشد اوقات الحاجة إليه ولا يخفى على أهل البصيرة ان تقويم عوج في الزعيم الموثوق به من السواد الاعظم ايسر من إسقاطه واستبدال غيره به ، وان تأييد الوحدة به على ضعف وعوج فيه ، خير من شق عصاها بخذله والتفرق عنه

فان استطاع خصوم سعد اسقاطه من مكانته ، باقناع الامة بعدم كفاءته فمن ذا الذي يستطيع اقناعها بكفاءة زعيم آخر من بعده ، اذا فرضنا انه يوجد فيها كثيرون من مثله « ومثل كثير في الانام قليل » ؟ ومن ذا الذي يستطيع في كل وقت ان يحدث لها احداثا كالاحداث التي مهدت السبيل لزعامة سعد ؟ كغفلة رقباء الشعوب وحراسها ، ورعاة الامم وسواسها ، وقطاع طرق الاستقلال والحرية عليها ، تلك الغفلة التي اوقعت انكلترة فيها سكرة الحرب أولا ونشوة الظفر آخرا فكانتا من أثر السكرتين في رجالها بمصر ما وقعوا فيه من الاغلاط الايجابية والسلبية التي جمعت كلمة الشعب ثم حكومته أول مرة في تاريخ الاحتلال . وقد أشرنا في هذا المقال الى ما كان من فائدة ذلك في تكوين الوحدة المصرية وجمع الكلمة على سعد في

ومنزلته الشخصية، ولقد تم ذلك وكمل في وزارة عدلي التي هي وزارة رشدي جيء بها في وقت آخر وثوب آخر، اذ لولا هذه الوزارة لما امكن للشعب ان يحتفل بعودة سعد الى البلاد تلك الاحتفالات العامة التي لم يسبق لها نظير — ولكن والأصفياء قد صدق في هذا المقام قول الشاعر لخاتم شيء بيننا نقصه * على أنه يعيذها التمام وما تلاه من النقص انما كلنا في طور واحد من اطوار حياة هذا الشعب الاجتماعية يعني فصل من فصول تاريخه، فعسى أن يفيده بعد ترقيه ان يلدغ من جحر مرتين، وخير تجمل الفوز منه قلب توسين

جهاد سعد الاخير

ما (لا نا ل) وعلم سعد باشا بما كان من التجربة الاخيرة والاختيار ان الامة التي اجتمعت كلمتها على طلب الحرية والاستقلال وجعلته لسانها الناطق، وقائدها الذي لم يمكنها اعلان رأيها واظهار شعورها الا بمؤاتاة الحكومة الوطنية لها، وان تأثير الحكام في أنفس هذا الشعب وما ورثه وتربى عليه من الخضوع لهم منذ التاريخ القديم لا يزول كله في أول نهضة قومية جديدة، وان وافق أصول شرعها الالهي (وأمرهم شورى بينهم) وأصول الحقوق العصرية التي يسمونها الدمقراطية الحديثة، وانه لم يقدر هذا قدره كما ينبغي الا بعد الحوادث الاخيرة، اذ لم يكن يخطر ببال أحد أن يصد عنه نفوذ الوزارة الالوف الكثيرة، حتى من أولئك الذين اقاموا له أكبر الحفلات، واتخذوا له المآدب، وأن يشايعهم على ذلك أكبر الجرائد، فلهذا وجه كل عنايته الى تقوية روح شخصية الامة والفكرة الدمقراطية فيها بحملاته الشديدة على الوزارة العدلية في خطبه البليغة، وبلاغاته واحتجاجاته المختلفة على سلوكها فيما سماه «اغتصاب الثقة من الامة»

فهو يمثل للامة وزارة عدلي باشا متفقة مع الدولة البريطانية على جعل سلطانها (أي حكمها وسلطتها) على مصر شرعيا بعقد معاهدة على أصول مشروع ملنر الذي رفضه هو والامة يلغى فيها لفظ الحماية ويقرر معناه بصفة شرعية، بعد ان كان عدوانا تبطله الحقوق الاساسية والقوانين الدولية، وترضى فيها البلاد بضرب من الاستقلال في الادارة يتعذر تنفيذه لما وضع في سبيله من المؤثرات والعقبات الكأداء، على

أنه عرضة للالغاء أو الاسترداد ، مادامت قوة الاحتلال العسكرية راسخة الاقدام في البلاد ، وناهيك بما أنشأوا فيها من ميادين الطيران الحربية والتجارية ، لجعلها ملتقى جميع قوى الامبراطورية البريطانية

وأقول إن من أقوى حججه له على ان الانكليز يريدون خداع مصر وارضاءها باستقلال صوري حظها منه دون حظ سائر مستعمراتها المستقلة تعظيمهم لشأن حادثة الاسكندرية التي يمكن حدوث مثلها في كل بلد من البلاد يوجد فيه اجناس مختلفون او احداثه ببذل قليل من المال ، فقد هيجوا جاليات الاجانب والدول الاوروبية بها على المصريين وخوفوهم منهم على ارواحهم وأموالهم ، اذا لم تكن الجيوش البريطانية بمدافعها وطياراتها حامية لهم ، واتخذتها برقياتهم وجرائدهم اياها حجة بالغة على ان المصريين غير أهل للاستقلال بالادارة والحكم

حادثة الاسكندرية ، وما ادراك ما حادثة الاسكندرية ، هي الحادثة التافهة التي عظم شأنها غلاة الاستعمار بكيدهم وعبثهم بالامم والدول ، ولعبهم بها كلعب الصبيان بالكرة ، حتى جعلوها من أعظم حوادث الكون التي يقضي العدل بأن تكون القاضية على حرية الامة المصرية بأسرها — وهي ان بعض السوقة والعوام مروا في مظاهرة وطنية ببعض بيوت الروم (اليونانيين) وكانوا يهتفون لمصطفى باشا كمال باسطنة الوجدان الديني الذي لا يدع عددا من جريدة اسلامية في تونس خاليا من الاشادة بذكره ، والتعظيم لأمره ، فأطلق عليهم الرصاص بعض اليونانيين فأصاب بعضهم وجر ذلك الى تشاجر بين الوطنيين واليونانيين ومن يشتبه بهم من الغربيين قتل به أفراد من الفريقين وجرح آخرون والمصابون من الوطنيين أكثر ، وقد استنكر ذلك واظهر الاسف لوقوعه جميع المصريين من جميع البلاد في جميع الجرائد ، وأصدر الزعيم الاكبر سعد باشا زغلول وصية للامة بأن تبالغ في مجاملة الاجانب وحسن معاملتهم ولا تعتدي عليهم وان هم اعتدوا عليها

لكن السياسة التي تستحل كل منكر في سبيل مطامعها جعلت هذه الحادثة : برهانا قاطعا على بغض جميع المصريين الذين استنكروها وقبحوها لجميع الاجانب وتصميم عليهم وتربصهم بهم الدوائر ليفتكوا بهم ، ولو كان المصريون متعصبين على

الاجانب وملاقين لهم ، لظهر أثر ذلك في كل بلد فيه أجانب ليس لهم من القوة عشر ما للاجانب في الاسكندرية التي تكاد تكون بلدا أجنبية ولا سيما في اثناء ثورة سنة ١٩١٩ على الانكليز أنفسهم ، والهجوم على رشاشاتهم ومدافعهم ، وقد كانت السلطة في كثير من البلاد لعامة الامة في تلك الاثناء لا للحكومة الوطنية ولا للمحتلين — ولو كان المصريون كذلك لما نال اليونان في بلادهم هذه الثروة الواسعة التي ليس لهم مثلها في بلادهم ولقد كانوا قبل الاحتلال مع سائر الاجانب أعظم كسبا وأقوى نفوذا . ولو كان المصريون كما ذكر لامكنهم ان يبلغوا من النكاية باليونان بمقاطعة تجارتهم وزراعتهم مالا يبلغه الاعتداء على اشخاصهم

فحق لكل مصري ان يعد سلوك الانكليز في تكبير هذه الحادثة دليلا على نيتهم فيهم ، وهم يعلمون انه اذا كان الاستقلال يتوقف في وجوده أو بقائه على امتناع وقوع مثل هذه الحادثة فلا معنى لان هذا مما يمكن حدوثه واحدثه في كل آن . ومن غرائب تهافت هؤلاء البارعين في تصوير الحوادث بغير صورها والاستفادة منها في كل زمن بحسبه ان حادثة الاسكندرية كانت في الزمن الذي تروي لنا برقيات انكلترة وجرائدها أنباء الارلنديين (السين فين) اخوان المصريين في رفض العبودية البريطانية في تدميرهم المباني التجارية وغيرها واغتيالهم لمن استطاعوا اغتياله من السالبين لحريتهم ، ولم نسمع ان أحدا منهم احتج بهذه الافاعيل الفظيعة مثل ما احتجوا على المصريين في حادثة تعد بالنسبة اليها ضئيلة ويكثر وقوع مثلها في كل أمة ، ولكن علوض هذا التهويل في الحادثة كثير من عقلاء اليونان وغيرهم من فضلاء الاوروبين وشهدوا حقا بفضائل المصريين واكرامهم للاجانب وحسن معاشرتهم لهم ، ولو سكت هؤلاء او جروا في أباطيل تيار السياسة الكاذبة لغرسوا في قلوب المصريين وسائر الشرقيين من بغض الاوروبيين وسوء الاعتقاد فيهم ما لا يمكن ان يتلافى مستقبله الاحتلال العسكري البلاد بل لا يزيده الا اشتعالا ، وهل يوجد بشر يحب الانسانية يوافق هذا ويرضاه ؟

وجملة القول ان جهاد سعد باشا موجه الآن لتقوية الامة واعدادها لرد ما يتوقع من تقييد وفد الحكومة البلاد به بضمها الى الامبراطورية البريطانية بأي اسم من

الاسم؛ وأي شكل من اشكال الحكم الذاتي بحيث يكون الاتفاق الجديد بين الحكومتين إن تقذ مظهرا من مظاهر القوة لاشبهة فيه من الحق وتستمر الامة على جهادها له حتى تنال حريتها تامة كاملة باذن الله وقوتها التي لاتعلوها قوة ، ورحمته التي لاتضيع حقا الاعلى من فرط في حقه وترك الجهاد في سبيله فكان هو المضيع له بمخالفة لسنن الله في العمران

هذا الذي شرحناه كنا نعجب جد العجب من طلب سعد لرياسة الوفد الرسمي وتولي المفاوضة لاننا نعتقد أنه لايخفى عليه ان الدولة البريطانية يستحيل أن تسمح بحرية مصر واستقلالها التام بمجرد المفاوضة السياسية ونقول في انفسنا لم يريد ان يعرض نفسه للفشل واذا كان لا يرضى بجعل الحماية شرعية باسم آخر ? أم يظن ان الاتفاق على تولية أمر المفاوضة كان في جمل ذلك الحال السياسي ممكنا وواقعا؛ ولما اعترض بعض الكتاب كأمين بك الرافعي على دخوله في المفاوضة الرسمية كنا محبذين لرأيه اذا كان تعيين رأينا الى ان صار شرة فالزعيم الامة لان الزعامة الممثلة للوحدة فوق كل شيء في هذا المقام . ولم نجد مخرجا من هذا العجب والحيرة الا بما جاءتنا به الجرائد الانكليزية من التصريح برفض سعد لمشروع ملنر برمته وعدم الرجاء بعقد اتفاق معه يرضى بريطانية العظمى — فظهر لنا من ذلك انه كان يخفي في نفسه شيئا أوسع دائرة من دائرة الجدل وجدل الشقاق لان اظهاره يفسد الخطة التي كان يرى انه لابد منها وهي — أي الخطة — اما حمل الحكومة بقوة وحدة الامة على تقييد نفسها بالمرسوم السلطاني الذي طلبه حتى تكون الحكومة والامة كتلة واحدة لايخشى ان يفرقها الدهاء الانكليزي لينال مراده من جعل مركزه في مصر شرعيا — وإما جعل الحكومة عاجزة عن عقد اتفاق مع الدولة البريطانية لاترضاه الامة ويكون حجة عليها . ولو تحقق الشق الاول من خطته لكانت الامة المصرية وحكومتها وسلطانها كتلة واحدة كاملة واحدة ، واذ لم يتم فتأييد الوفد الرسمي والوزارة يحبط الشق الثاني — فتعينت معارضتها . ولم يكن التصريح بذلك لاعضاء الوفد المتفقين مع عدلي باشا من قبل ممكنا كما علم مما سبق من التفصيل ، بل لم يكن من الممكن أيضا ان يصرح سعد للامة عقب عودته أن الدولة البريطانية تريد منا كذا وكذا وترى انها لن تجد اليه سبيلا

الا بقوة حكومة وطنية تصدع بناء الوحدة التي هي قوتنا في اظهار حقنا امام قواها الكثيرة التي تعتمد عليها في سلب هذا الحق منا لان هذا التصريح ينافي الخطة التي استنبطناها على كونه غير معقول — فان معناه دعوة الحكومة جهرا من أعلاها الى أدناها الى مقاومة الدولة البريطانية ، وهو تصريح لايأتي من عاقل

النتيجة

(١٨) هذا ما ظهر لنا من سياسة سعد باشا وخطته بعد التروي والتمحيص ، ولعل هذا قد خفي على الالوف من الناس بضروب الجدل والمطاعن، وأ كثر من أيد وفد الوزارة الرسمي انما أيدوه في طلب الاستقلال التام المطلق لمصر والسودان الذي هو جزء من المملكة المصرية لا يقبل الانفصال وكثير منهم يعتقدون أن مطلب سعد وعدلي واحد وان عدلي اذا لم يوفق الى هذا المطلب فانه يقطع المفاوضة و يعود بالوفد الرسمي ادراجه خلافا لما يعتقد السعديون كافة . فالاحتمالات في نتيجة سعي الوفد الرسمي ثلاثة أو أربعة لكل منها عاقبة

الاحتمال الاول — عقد الاتفاق مع الحكومة البريطانية على اعترافها باستقلال مصر مع السودان استقلالا دوليا تاما مطلقا من كل قيد ينافيه مع محالفة بين الدولتين أساسها مبادلة المنافع كسائر المحالفات الدولية ، فان وفق الوفد لهذا فان الامة تتلقاه بالقبول والثناء وتكريمه بمثل ما كرمت به سعد باشا بل أعظم ويكون ذلك اجماعا صحيحا من الامة — وان فرض أن شذ سعد باشا عنها في ذلك وظل معارضا لعدلي باشا فانها تنبذه ظهريا وتحكم عليه بأنه يعمل لنفسه لا لها

فيادارها بالخيف ان مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

الاحتمال الثاني — أن ييأس عدلي باشا من الاستقلال التام المبين في الاحتمال الاول اومايقرب منه فيقطع المفاوضة ويعود بالوفد أدراجه — وعاقبة هذا انه تعود وحدة الامة الى خير مما كانت عليه وتستأنف الجهاد السياسي في سبيل حريتها ، ويتفق سعد وعدلي ورشدي ثانية في ذلك ويكون الرجاء في النجاح عظيما ، فان يد الله على الجماعة كما صح في الحديث ويد الله لاتغلب . وقد رأيت من المحسنين الظن في هؤلاء الكبراء كلهم من كان يعتقد ان الخلاف بينهم صوري تواطؤا

مالية لأجل المصالحة ، ويتوهم كثير من العارفين أخلاق عدلي باشا ووطنيته ان يقطع المفاوضة بل يرجحون ذلك على نجاحه فيها

(الاحتمال الثالث) — ان يصح رأي سعد ويعقد الوفد الرسمي الاتفاق الذي يقيد مصر ويجعلها في سلك الامبراطورية البريطانية باسم من الاسماء المرونة والمخترعة. وعاقبة هذا ان تتحول قلوب أكثر الذين كانوا يحسنون الظن بعدلي والرشدي عنهما ويكبر حزب سعد بل تكون الامة كلها معه الا من لا يذكر من طلاب الوظائف والذين هم من الحكومة ولكن لا يعلم أحد الا الله ما يترتب على اصطدام قوة الامة وقوة الحكومة المؤيدة بقوة الاحتلال اذا حاولت الوزارة تأييد الاتفاق بالقوة ، ولا يظن أحد يعرف قيمة عدلي ورشدي بأنهما يفعلان ذلك ولكن قد يفعلانه في حال الاحتمال الرابع المذبذب بين هذا وبين الاول وهو :

(الاحتمال الرابع) ان يعقد الاتفاق على اعتراف انكلترة باستقلال سياسي دولي تام لمصر في داخليتها وخارجيتها وحقوق في السودان لاتتبع مصر في الادارة وارتباط بالامبراطورية بمعاهدة لا يعرض مصر للخطر في سلم ولا حرب، وأعظم الاخطار تعهد مصر بأن تجعل قواها ومواصلاتها تحت تصرف الجيش البريطاني وهو ما سبق للمقطم جميع الجرائد الى بيانه. ففي مثل هذه الحالة تجد الوزارة من الانصار ماتقاوم به السواد الاعظم الذي يقوده سعد باشا ونسأل الله حسن العاقبة وانقاذ هذه البلاد من كل محنة انه سميع مجيب .

السياسة ورجال الدين في مصر

يعلم رجال الاستعمار ما لا يعلم رجال الدين في البلاد المستعمرة بالفعل او بالقوة من سلطان الدين على الارواح ، وتأثيره في الارادة الباعثة على الاعمال ، فهم يعنون أدق العناية في كل شعب يظله سلطانهم بازهاق روح دين الشعب الذي علق عبر دينهم او تحويله عن مذهبه اذا كان مخالفا لمذهبهم ويثون فيه دعاة مذهبهم الديني ويؤيدونهم بما لديهم من حول وقوة ، ومن مناهضتهم لدين الشعب وإبعاد رجاله عن اعمال الحكومة ومناصبها وتحري جعل أصحاب الوظائف الشرعية

الشرع وينفرا عن الدين، واما رجل ذكي ميال للاصلاح يشغلونه بوظيفة وراتبها ورجاء الترقي فيها عن عمل حر لا سبيل مراقبته فيه وصده عنه - ولا يقبلون مثل هذا اذا كان لهم مندوحة عنه - واما رجل مشهور بصلاح او علم ولكنه فقير جبان حريص على رزقه، فيستفيدون من شهرته عند الحاجة

كذلك يحولون بين المستمسكين بعروة الدين والغيرة عليه و بين الترقي في مناصب الحكومة اذا انتظموا في سلكها بمقتضى نظام البلاد من حيث يكلون أمر مناهضة التعليم الديني ومراقبة المتدينين من عمال الحكومة ولاسيما عمال وزارة المعارف الى أهل الدين المتعصبين له منهم . ولا يثقون الا بمن يظهر لهم عدم المبالاة بدينه و براتبهم فيما يعلم من مقاصدهم ونياتهم في ذلك

ومن الشواهد على ذلك ان مستر دنلوب الذي جعلوه مسيطرا على وزارة المعارف في معظم عهد الاحتلال هو قسيس من رجال المذهب البروتستانتي، ولا يطمع عالم من الازهر بأن يكون وزيرا بجانبه او رئيس ادارة او قلم تحت سيطرته الا

ومن الشواهد الجلية أيضا منع مجلة المنار من السودان ومصادرة نسخها التي أرسلت مسجلة واحراقها بالنار وذلك قبل الحرب التي أوجدت في زمنها المراقبة على الصحف في كل مكان، وقد علمنا من الثقات الذين كانوا في السودان أن المنع كان اجابة لرغبة بعض المبشرين ، وقد شكونا الامر الى السر ونجت باشا اذ كان الحاكم العام للسودان فما أشكانا وهو هو المعدود من أوسع الانكليز صدرا وأبعدهم رويةً وا كثرهم مداراة واستمالة للناس

وا كبر الشواهد عندنا على ذلك مانقلت من قلم لورد كرومر في كتابه (عباس الثاني) وهو هو الواسع الصدر الذي ضمن الحرية الشخصية في طول مدته ضمانا تاما كان من أ كبر أسباب شهرة الانكليز الحسنة في الشرق كله، نقلت من قلمه في هذا الكتاب ماشف عما كان منطويا عليه من التعصب الديني الذي كان يغشيه بالرياء الفرنسي الذي يوصف به البريطانيون واظهر للناس ان من أصول سياستهم ظلم كل مسلم تربى تربية اسلامية وتخلق باخلاق الاسلام بابعاده عن مناصب الحكم في بلاده وحصر هذه المناصب في المتفرنجين بالتربية الاوروبية الذين رماهم اللورد

نفسه في كتابه (مصر الحديثة) بأقبح النعوت ونبزهم بشر الالقاب. وهاك نصريحه منه في ذلك

قال اللورد في أواخر الفصل الرابع من كتابه هذا بمناسبة الكلام على استقالة وزارة رياض باشا الاخيرة ماترجمته : « ان فشل تجربة رياض باشا لقنتني درسا هو ان لافائدة من محاولة قيادة الرأي العام الاسلامي في مصر بواسطة رجل مثل رياض باشا . على ان التجربة كانت في غير محلها فلو انها نجحت لكانت الحالة السياسية تغيرت تغيرا حسنا الا انها لسوء الحظ فشلت فشلا تاما

« ولو أجربت مرة ثانية تكون نتيجتها فشلا ثانيا فان من الواضح ان المسلم غير المتخلق بأخلاق الاوروبيين لايقوى على حكم مصر في هذه الايام فلذلك سيكون المستقبل الوزاري للمصريين المتربين تربية أوربية». فهذا قوله في رياض باشا الذي لم يتول الوزارة في هذا العصر رجل مثله في عدله وحسن ادارته واخلاصه وقد اثنى عليه لورد كرومر في خطبته الشهيرة (بالاوبرة الخديوية) وفي أحوال أخرى بما لم يثن على غيره ؛ ولكن ذنبه عنده انه كان يراعي الشعور الاسلامي ويحافظ على كرامة الاسلام

وقد اعتذرت جلة المقتطف عن تصريح اللورد في كتابه هذا بمثل هذا الكلام — ولم تذكره — بأنه كتب كتابه هذا لقومه ولم يخطر بباله عند كتابته انه سينشر في مصر وغيرها من بلاد الشرق

وهذه السياسة قد لقنها المسيطرون البريطانيون للوطنين المصريين بالعمل فصار يعرفها كل أحد ، وكان من تأثير ذلك مالا محل لشرحه هنا ، وانما غرضنا ان نثبت ان المسلمين حقيقة وهم المؤمنون بعقائد الاسلام المتخلقون بأخلاقه المحافظون على شعائره وعباداته الحريصون على مجده وكرامته لم يكن لهم حظ كبير من حكومة بلادهم ولا سيما اذا تربوا في المعاهد الدينية كالازهر والتزموا زي علماء المسلمين

وغرضي من بيان هذه الحقيقة أن اذكر الغافل عنها بأنها أقوى أسباب بعد علماء الازهر في عهد الاحتلال عن الاشتغال بالمصالح العامة وسياسة البلاد ، وكان الانكليز يظنون انهم أمنوا جوذا من القيام بثورة قومية للمطالبة بحقهم من الحكم في

بلادهم بدلا من الاجانب الذين افتاتوا عليهم فيها وحلوا محلهم في كل فروع أعمال حكومة بلادهم ومصالحها . وان من أكبر أسباب كراهة الانكليز لسعد باشا زغلول كونه جاور في الازهر في حداثته مدة سنين ولكنهم لم يظفروا بطائل من نبزه بلقب التعصب الديني على حسب عادتهم « رمتني بدائها وانسلت » لانه قد اشتهر بالتساهل الديني بما لم يشتهر به غيره من الوزراء وكان هو الوزير الذي أدخل تعليم الدين المسيحي في مدارس الحكومة في عهد وزارته للمعارف فجاء بعمل لا نظير له في حكومة من حكومات أوربة نفسها دع غيرها . والقبط يعرفون ظاهره وباطنه ويعتقدون انه اذا تم الاستقلال لمصر على يده وكان صاحب النفوذ اللائق به في حكومتها المستقلة فان حظهم منها سينيلهم مالم ينالوا في عهد الاحتلال .

وقد كان الانكليز آمنين من انقلاب سياسي في البلاد بسعي الذين يتربون على الطريقة الافرنجية ولا سيما الانكليزية لاعتقادهم ان هؤلاء لا يهمهم غير اهوائهم وشهواتهم الشخصية فبدا لهم مالم يكونوا يحتسبون وجاءت النهضة الحديثة من قبل الشبان الذين نشؤا في المدارس الاوروبية التربية سواء كانت بمصر او أوروبة وانتقلت من هؤلاء الى الازهريين وغيرهم من شبان المعاهد الدينية . فكان لهؤلاء الشبان ولقليل من الشيوخ تأثير يذكر في نهضة سنة ١٩١٩ ولما سكنت الحركة وكان من الضغط على كثير من رجالها وشبانها في عهد وزارة توفيق باشا نسيم ما كان وضع للازهريين وسائر طلاب المعاهد الدينية نظام خاص حظر على أهلها ان يشتغلوا بالسياسة وفرض على المشتغل بها منهم عقاب ليس هذا محل بيانه

ولما تنفس الزمان لمصر في هذا العام وسمحت السياسة بما سمحت به من المظاهرات للوزارة العدلية ثم لسعد باشا زغلول على أمل اتفاقهما في العمل كان لعلماء الازهر ظهور لم يكن لهم من قبل

قد ظهر في ميدان الوطنية السياسية الشيخ محمد بخيت الذي كان من أقوى أنصار الاحتلال في عهد إعلان الحماية الانكليزية على البلاد وقد ولي منصب افتاء الديار المصرية فخدم السلطة المحتلة به أي خدمة فبرأيه ورأي شيخ الازهر في ذلك العهد حذفوا اسم السلطان العثماني من خطبة الجمعة مع اعتراف البلاد له بمنصب

الخلافة ولم تجد بريطانية في أمبراطوريتها الهندية من رجال الدين كهذين الشيخين يستعين بهما على حذف اسم الخليفة من الخطبة — وهما اللذان أكرها علماء الازهر على اعانة الصليب الاحمر

وانفرد المفتي الشيخ بخيت باصدار تلك الفتوى الطويلة العريضة في تقبيح البلشفية والتنفير منها حسب اقتراح السلطة المحتلة، وقد سبقت جريدة التيمس الانكليزية الى خبار العالم بالفتوى البخيتية وموضوعها قبل صدورها بمدة طويلة. ولذلك قامت عليه قيامة الجرائد الوطنية ورد عليها الازهريون وغيرهم .

ولما اشترك الازهريون بالحركة الوطنية عند قيام الوفد بها كان الشيخ بخيت حربا لهم حتى قيل انهم هددوه واسقطوه في مظاهراتهم وطمنوا فيه بخطبهم وأسمعوه ما يكره في نفس الازهر في اثناء تشييع جنازة الاستاذ الشيخ ابراهيم القاياتي رحمه الله تعالى

وأما في هذه الكرة فقد اتفق مع الشيخ عبد الحميد البكري شيخ مشايخ الطرق الصوفية على الاحتفال بسعد باشا في دار الثاني الواسعة وانضم اليهما كثير من الشيوخ المدرسين في الازهر فكانوا من أرفع أنصار سعد باشا صوتا

ولما اشتد الخلاف بين سعد ووفده والوزارة العدلية مال الشيخ بخيت بأعوانه من الشيوخ الى تأييد الوزارة مع حفظ خط الرجعة مع سعد أو الصلة به وسعد يرى تأييد الوزارة منتهى القطيعة له وللوفد بل للامة فمن أيدها لايبقى له حبل ولا خيط يصله به ، فمن ثم عد الشيخ خصما وهدم ما بناه في هذه المدة القصيرة من المنزلة الوطنية وكثر طمن السعديين فيه من حيث صار العدليون يكبرون مقامه ويلقبونه مع أنصاره من الشيوخ بأئمة الدين الذين يجب تقليدهم في السياسة كما يقلدون في الدين.

ولكن زعيم هؤلاء الأئمة أو إمامهم لم يلبث ان جنى على نفسه جناية أدبية تؤثر في صيت مثله ومقامه ما لا تؤثر الجنايات القانونية. ذلك بأن الشيخ بخيتا افترص تألم الامة المصرية على اختلاف أحزابها من نبز بعض الافرنج لها بلقب التعصب الديني من جراء ماسمي حادثة الاسكندرية اذ زعموا ان بغض المصريين للاجانب بسبب مخالفتهم لهم في دينهم هو الذي حملهم على الاعتداء عليهم —

أفترص ذلك بنشر مقالة بليغة في فلسفة التعصب اعتقد ان سيكون لها أكبر وقع في قلوب جميع أحزاب الامة وطبقاتها لما فيها من الحقائق المتجلية في أبهى معرض من البلاغة والفصاحة بجمعها بين الجزالة وعلو الاسلوب والسهولة التي تتناولها افهام العامة.
فهي تشرح معنى التعصب وتبين كنهه وأسبابه ودواعيه وكونه من سنن الاجتماع والعمران سواء كان مناطه الجنس والنسب، أو اللغة أو الوطن أو الدين، وأنه كغيره من الغرائز والملكات الانسانية له حد اعتدال يكون نافعا للامم والشعوب بالتزامه والوقوف عند حده، وطرفا أفراط وتفريط يعرض الضرر للامة بتجاوز حد الاعتدال الى أي منهما، فالاعتدال في التعصب أن يكون تعاون الجماعة أو الامة الذين تجمعهم رابطة على ما يحفظون به حقوقهم ومصالحهم ويرفعون به شأنهم في العلوم والاعمال التي يرتقي بها البشر وتتنافس فيها الامم — من غير تقصير فيما ينبغي لذلك يحول دون الغاية وهو التفريط ولا إسراف يحمل على ظلم الخارج عن هذه الرابطة والاعتداء عليه لانه مخالف وهو الافراط.

وكل من تجلت له هذه الحقيقة من مرآة الشعب المصري يجزم بأنه لا يزال أقرب الى التفريط فيما ينبغي له من حفظ جامعته القومية والوطنية واعلاء شأنهما بمساماة الشعوب العزيزة منه الى الافراط الحامل على العدوان على المخالفين وهضم حقوقهم كما يفعله جميع المستعمرين من الافرنج — فنشر المقالة في هذا الوقت كان عملا نافعا من وضع الشيء في محله في الوقت المناسب له

ولكن المقالة ليست من انشاء الشيخ محمد بخيت الناشر لها في الاهرام ولا هو بالذي يقدر على كتابة مثلها في أسلوبها ولا تحرير الحقيقة التي شرحت فيها، بل هي من مقالات الاستاذ الامام (الشيخ محمد عبده) الشهيرة التي نشرت في جريدة (العروة الوثقى) التي أنشأها هو واستاذه موقظ الشرق وحكيم الاسلام السيد جمال الدين الافغاني (قدس الله روحهما) في باريس عقب احتلال الانكليز لمصر لمقاومة الاستقلال ودعوة المسلمين الى الاتحاد، وكان السيد هو المدير السياسي والاستاذ هو المحرر الاول لها. وقد نشرنا هذه المقالة في المنار من زهاء عشرين سنة معزوة الى الاستاذ الامام ثم نشرتها جريدة المؤيد نقلا عن المنار. ثم نشرناها في الجزء الثاني

من تاريخ الاستاذ الامام الحاوي لاشهر منشآته من مقالات ومكتوبات . ثم طبعت أعداد العروة الوثقى برمتها في بيروت ونسخها تباع في مصر، وبلغنا ان بعض الشبان يحفظونها عن ظهر قلب ، ولا غرو فالمقالات الاجتماعية في العروة الوثقى من المحفوظات التي يستعان بها على طبع ملكات الانشاء العالي في النفس ، كما انها من أفضل ما يوقظ الافكار ، ويبعث فيها روح الغلة والاعتبار ، وينبهها لما يساور هذه الامة من النوائل والاخطار ، مع بيان عللها وأسبابها ، وطرق معالجتها والتفصي منها ، وقد كان تنحل الشيخ بخيت لهذه المقالة منها على ماذكرنا من شهرتها أغرب ما ينتقد عليه ، ويسدد سهام اللوم والتثريب اليه

نشرت المقالة في الاهرام ، فلم تلبث ان كانت الشغل الشاغل للالسنة والاقلام ، وانبرت الجرائد اليومية لمؤاخذة الشيخ على هذه السرقة المفضوحة ، وطفقت الجرائد الهزلية تخترع النكت للضحكة المبكية في ضبرته والزراية عليه ، وقد كان مما قرن به هذا الانتحال من الخذلان ان الشيخ بخيتا حرف في المقالة بعض الجمل وغير وقدم وأخر ، وكان محمد بك ابو شادي المحامي الشهير أشد من انتقده اذ كتب في جريدة وادي النيل الشهيرة مقالا تهكميا في جعل موافقة مانشره اليوم لما نشر بقلم الاستاذ الامام منذ أربعين سنة ومن باب توارد الخواطر وقد اودعه المقالة بحروفها ، مع التنبيه الى ماحرف الشيخ بخيت منها ، بجعل المحرف مقابلا للاصل في جداوين متوازيين ، ونشر عروس افندي عبده أخو الاستاذ الامام لابيه المقالة في جريدة الامة مقرونة بمايقتضيه المقام من الاستغراب والنقد . وقدحدثنا بعض العلماء الثقات أن بعض الناس في دمنهور طفق يقرأ المقالة عندوصولها اليه في اليوم الذي نشرتها فيه جريدة الاهرام فقال له أحد السامعين : على رسلك وألق السمع الي لاتمم لك قراءة ماشرعت فيه فاني أحفظه وأتم قراءة المقالة من حفظه فلم يكن بينه وبين مافي الاهرام الا تلك الجمل القليلة التي شوه حسنها التحريف

ولو ان الشيخ بخيتا نشر هذه المقالة مع مقدمة بين فيها ما أشرنا اليه آنفامن كونها أفضل مايرد به على اتهام المصريين بالتعصب الديني الضار بحمله على ايذاء المخالف في الدين لانه مخالف وعزاها الى صاحبها أو الى العروة الوثقى اذًا كان

يثقل على طبعه تنويهه بفضل الاستاذ الامام باسمه — لكان جديرا له وللمصلحة العامة — أما الاول فظاهر وأما الثاني فهو ان علم الناس بصاحب المقالة ذي المكانة العالية المعروفة التي يتضاعف ارتفاعها في الانفس عاما بعد عام يزيدهم رغبة في قراءتها وتأملها والانتفاع بها ، ولا شك في ان قراءة الناس للمقالة قد زاد بعد ان نشر في الجرائد ما نشر من انكار انتحالها على الشيخ بخيت وعزوها الى الاستاذ الامام .وقد قلت لاستاذ شهير من أهل العلم والادب زارني في اليوم التالي لليوم الذي نشرت فيه المقالة : هل قرأت المقالة التي نشرتها جريدة الاهرام أمس للشيخ بخيت؟ قال رأيتها وقرأت اسطرا من اولها ولم أتمها، ولم اضيع وقتي في قراءة مايكتب الشيخ بخيت في التعصب والبحث في تعريفه بمثل مايبحثون في الازهر بتعريفات الفنون . وقد كان مما حرف من المقالة بيان معنى التعصب لغة وعرفا فقدمه الشيخ عن موضعه لجهله في أول المقالة محرفا ، قلت ان هذه المقالة هي مقالة العروة الوثقى الشهيرة التي تعرفها — وذكرت له تصرف الشيخ فيها فقال اذا أعود فاقرأها —

ألا أن فعلة الشيخ بخيت هذه من الغرابة بمكان وان كان أكثر ما يكتب أمثاله ليس الا نقلا لما كتب من قبلهم ، واغرب ما حدثنا به غير واحد من الثقات عنه انه قال إن المقالة له ،وانه كان هو والمرحوم الشيخ احمد أبو خطوه يكتبان المقالات ويرسلانها الى الشيخ محمد عبده في باريس فينشرها والعروة الوثقى غير معزوة اليها ! ! وهذا تخلص عرض له في المجلس لم ير له مخرجا سواه ، وقد كرم نفسه ان ينشره في الجرائد ولو نشره لسمع من تفنيده وما يحتف بهذا التفنيد فوق ما منعه توقعه من نشره

وان تعجب أيها القارئ لهذا الجواب ، فاسمع ما هو أجدر منه باسم العجب العجاب ، وهو ان الشيخ بخيتا قال في ملأ من الناس ان فتواه في البلشفية قد كانت وسيلة الى أمر عظيم وهو تطبيق قواعد البلشفية وقوانينها على الشرع الاسلامي ، ذلك ان انور باشا سعى لدى زعيم البلشفية (لينين) الشهير ان يساعده على نشر البلشفية بسبب هذه الفتوى وفتوى أخرى لشيخ الاسلام في الاستانة مختصرة في معناها فاضطر (لينين) الى تغيير قواعدها وجعلها موافقة للشريعة

على هذا وكان الشيخ بخيت هو والشيخ احمد ابو خطوة هما المحررين لتلك المقالات الاصلاحية التي نشرت في بضعة عشر عددا من العروة الوثقى فهزلها العالم الاسلامي وكادت تحدث فيه انقلابا عظيما على منع بريطانية العظمى إياها من دخول مصر والهند وغيرهما من الاقطار الاسلامية وفرضتها غرامة تذكر على من توجد بيده. سمعت شيخنا الشيخ حسينا الجسر يقول: ما كنا نشك في ان العروة الوثقى ستحدث ثورة كبرى في العالم الاسلامي اذا طال أمرها الخ. وحدثنا الثقة أن الزعيم الكبير السيد سلمان الكيلاني نقيب الاشراف ببغداد في ذلك العهد كان يقول كلما قرأ عددا من العروة الوثقى لعله لايجيء العدد التالي له الا والانقلاب المنتظر قد وقع — او ما هذا معناه — هذا الروح القوي المؤثر المتجلي في تلك البلاغة العالية كان العالم يزعم ان مصدره اتصال كهربائية السيد جمال الدين الافغاني بكهربائية الشيخ محمد عبده نابغتي الشرق والاسلام في هذا العصر ، ذلك أول اتصال الذي تألق برقه فأضاء طريق النجاة للشرق وكاد يكون صاعقة محرقة لمستعبديه — ولكن الشيخ بخيت يقول اليوم لافراد من الناس ان هذا الروح روحه كان ينفخ فيه وهو في شرخ الشباب بما كان له ذلك التأثير في العروة الوثقى . ولكن ما باله قد زهق مدة أربعين سنة فلم يظهر له أثر في خطابة مؤثرة ، ولا في صحيفة من الصحف المنتشرة ؟ وما باله اليوم وقد طفق يعيد ما بدا ، لم يحدث من التأثير الا التهكم والاذى ؟ وما بال مقالة الشيخ الثانية ، ليس فيها أدنى نسمة من ذلك الروح ، ولا أقل مسحة من جمال ذلك الاسلوب؟

نشر الشيخ مقالة ثانية في التعصب انتقم بها من الذين صوبوا اليه سهام الازراء والغميزة ، ومن الامة المصرية أو الاسلامية بجملتها أن سكتت لهم ولم يناضلهم عنه أحد منها ، افتتحها بقوله تعالى (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون) وجاء بعد ذلك بجملة طويلة من كتاب تهذيب الاخلاق لابن مسكويه وكتاب رياضة النفس من احياء الغزالي في صفات النفس وما في اعتدالها من الفضائل ، وما في الخروج عن الاعتدال الى طرفي الافراط والتفريط من الرذائل ، وجعل ذلك مقدمة لنفي الاعتدال وجميع مزاياه من افاضل من المسلمين وإثبات ضدها لهم بما كرره من قوله لو أن المسلمين كذا لما فعلوا كذا وكذا من

المعاصي والرذائل ولا سيما التباغض والتحاسد وكل ما يصح ان يوصف به من خاضوا فيه بما خاضوا مما لايتسع المقال لنقله ولا لنقده ، لا ان نقول انه ليس فيه من موضوع التعصب الا اثبات أفراط المسلمين فيه كغيره من الاخلاق والصفات، وهذا تصديق الاجانب الذين رموا المصريين بالافراط والتعصب وزيادة لو فطنوا لجعلوا الشيخ حجة أو فتوى على عدم استحقاقهم للاستقلال ، وهو ينقض أو يناقض الغرض السامي الذي نراه لنا انه نشر مقالة العروة الوثقى لاجله كما تقدم !!!

هذا ما كان من أمر الشيخ بخيت في تصديه وتصدي... عامة السياسية مع رجال الدين وكنا نود لو يوفق في هذا العمل لما يرفع من شأن علماء الازهر ويثبت لمن راجت عليهم دسائس الاجانب في استحسان عزل رجال الدين عن السياسة وسائر المصالح المدنية أنهم أهل لكل ماينفع الامة بأفكارهم واقلامهم وأعمالهم لأن هذا ما نراه لهم وسبق لنا القول فيه مرارا ، فلا غرو اذا ساءنا جعل الشيخ مضغة في الافواه ، وان كان هو عقبة في سبيل الاصلاح الديني المدني الذي نسعى اليه حتى مقاومة البدع كما يعلم من ردنا على ما كتبه في تأييد بدع يوم الجمعة وغير ذلك فالشيخ بخيت لايصلح للسياسة

وأما قرينه في هذه الحركة الشيخ عبد الحميد البكري فهو يعد من رجال الدين بالوراثة ومشيخة الطرق التي هي وظيفة رسمية لتقاليد معروفة ، وانما كانت تربيته وتعلمه مدنيين لا دينيين ازهريين وهو محافظ على فرائض الدين وآدابه وأخلاقه فلما يوجد مثله في الجمع بين العيشة المدنية كالمتفرنجين مع هذه المحافظة على الدين باداء الفرائض واجتناب المعاصي والرذائل ، وهو كما نعلم غير راض عن بدع أهل الطرق وان رضي ان يكون شيخا تقليديا لهم ، ويتمنى لو يستطيع الى اصلاح حالهم سبيلا ، ثم انه يحب الاصلاح الديني المدني الذي ندعو اليه وهو معتدل الفكر في ذلك من كثرة قراءته للكتب الفرنسية في الاجتماع والادب والسياسة، وقلما تذاكرنا معه في مسألة الاوكنا على اتفاق او انتهينا الى اتفاق ، فهو في مكانة بيته وفي استقامته وآدابه واعتدال أفكاره أهل للزعامة الا أنه ينقصه من شروطها ما قلنا انه ينقص عدلي باشا فهو يشبهه في المبالغة في حفظ كرامته الشخصية والبيتية وفي الاحجام عن كل ما من شأنه أن يثير خصاما أو يعقب ملاما ، وفي عدم تعود الخطابة والكتابة والجدل

والحاجة ، وقد عجبنا من دعوته في هذه المهمة على خلاف مايعرف من طباعه على انه تصدى أولا لامر متفق عليه وهو الاحتفال بوكيل الامة ورئيسها قبل ظهور الخلاف لجعل احتفال العلماء به في داره الواسعة بل قصره الفخم ، ثم جارى الشيخ بخيتا على تأييد الوزارة مع حفظ الصلة او خط الرجعة مع سعد باشا ووفده، ثم جارى الامير عزيز حسن ورضي ان يعقد في باحة قصره اجتماع عام يرأسه الامير للاحتجاج على تصريح وزير المستعمرات البريطانية المستر تشرشل

ولكنه لما علم ان سعد باشا سيخطب في هذا الاجتماع بعد ان صارت خطبه كلها تتضمن الرد على الوزارة والدعوة الى عدم الثقة بها — ترك الدار للمدعوين من جميع طبقات الامة الممثلين لها وسافر الى الاسكندرية ولم يحضر اجتماعهم . فاذا لم يكن هذا اعتزال منه للسياسة ومشاغباتها بل ظل عازما على الاشتغال بها مع رجال الدين او غيرهم فالذي أراه انه لايمكن أن يمضي في ذلك ويثبت الا أن يكون رئيسا لجماعة من المتعلمين المعتدلين العارفين بحال العصر بشرط ان يسيروا بنظام مدون بحيث لايعملون عملا الا بقرار مدون، وأنا ممن يرشحونه لهذه الرياسة ان هو أقدم ، وارجح انه لايفعل

تبجح البخيتيين وغرورهم بلقب أئمة الدين

اذا اراد رجال الدين الاشتغال بسياسة أمتهم ومصالحها العامة فأحوج ما يحتاجون اليه من الاستعداد لذلك التوسع في تاريخ الملل والامم المعاصرة وما وقع فيها من الانقلابات الدينية والمدنية وما دعا الشعوب الاوروبية الى الفصل بين الدين والسياسة وازالة سلطان البابوات وتأثير ذلك في البلاد الاسلامية كبلادهم وبلاد الدولة العثمانية التي كانوا تحت سيادتها على تجلي سلطانها بلقب خليفة المسلمين ، ويجب ان تكون أولى الفوائد أو الحقائق المأخوذة من هذا التاريخ ان يعلموا أن شعبهم المصري، تمه وسواده الاعظم من المسلمين لايقبل أن يخضع لشيوخ يزعمون انه يجب اتباعهم والخضوع لهم في أقوالهم وآرائهم في السياسة والمصالح المدنية لانهم من رجال الدين ، وان انتحلوا لانفسهم ألقاب الائمة أو جاد عليهم بها في وقت من الاوقات من ينتفع بهم في مظاهرته على خصمه

أقول هذا لاني أراه اول شرط من شروط نجاحهم الذي اوده وأتمناه وقد

على سكرتير الوفد المصري فيما عزاه الى حزبهم من خطأ لا أرى ما ابوخاه من الفائدة في نقد هذا المقال يتوقف على بيان الخلاف بين هؤلاء الشيوخ وبين الوفد، وهذه الفائدة بيان خطأ الكاتب فيما كتب كما خطأ في الباعث على هذه الكتابة وهو ماعلم من التمهيد آنفا

نشر هذا المقال في جريدة الاخبار بامضاء (عبد ربه مفتاح من علماء الازهر) وقد وصف فيه الشيوخ الذين خطأهم ناموس الوفد (سكرتيره) ورماهم بما ينافي الوطنية (كما يفهم من كلام الكاتب) بقوله انهم « اشرف وأرق طائفة في الامة بل في العالم الاسلامي وانهم قادة الامة وامناؤها على وحي الله تعالى الذي به السعادة الابدية او شقاؤها السرمدي » (كذا)

ثم قال بعد هذا الوصف : أيها القوم انّ لكل مقام مقالا ، وان مقام التكلم مع رجال الدين وفيهم مثل فضيلة الشيخ بخيت وسماحة السيد البكري شيخ مشايخ الصوفية وابن أبي بكر الصديق امين هذه الامة (؟) يجب الا يكون كما تكتبون . رجال الدين في كل زمان ومكان هم أمناء الله على دينه فمصيبة كبيرة وفتنة عظمى اذا رميناهم بالمروق من الوطنية من أجل انهم خالفوا في الرأي شخصا معينا »

ثم قال « هبوا العلماء اخطأوا في هذا أليس النبي صلى الله عليه وسلم يقول « اتقوا زلة العالم » ويقول «لحوم العلماء مسمومة » فلما ذا استمرأتموها فأ كلتم منها حتى التخمة ؟ اه

أقول يالعجب من هذا العجب والغرور والدعوى العريضة والجرأة في رواية الحديث والاستدلال بكل ماجرى على الالسنة منه وان كان موضوعا

من أين علم الاستاذ الكاتب ان هؤلاء الشيوخ الذين وقعوا مع الشيخ بخيت على ما ارتآه في المسألة المصرية هم أشرف وأرق طائفة في الامة بل العالم الاسلامي وهذا شيء لايمكن ان يعلمه الا الله تعالى ؟ وان أريد به ظاهر ماعليه الناس من العلوم النافعة والاعمال الصالحة ، دون السرائر التي عليها المعول في الواقع ، فهل طاف الاستاذ الكاتب العالم الاسلامي كله واختبر جميع علمائه وصلحائه واحاط علما بدرجات علومهم وكنه أعمالهم وشرفهم في بلادهم ووضع شيوخه الذين يرأسهم الشيخ بخيت في كفة ميزان وسائر أولئك العلماء والصلحاء كافة في ... كفة ... كفة أولئك ...

ثم ما معنى التنويه هنا بنسبة السيد البكري الى الصديق رضي الله تعالى
نه ؟ أيجعل هذا كشيخة الطرق مما يفضل به جميع العالم الاسلامي وهو يعلم
كما يعلم كل من يعرف الناس ان في المنسوبين الى الصديق والى بنت الرسول
ملى الله عليه وسلم وغيرهما من الصحابة البر والفاجر ، وان مشيخة الطريق هي
ما يعد على الشيخ عبد الحميد البكري ولا يعد له لانها مشيخة بدع وخرافات
ما أنزل الله بها من سلطان ؟

ايه : ايه : أيها الاستاذ أربع على ظلمك ، وقف عند حدك ، وراقب ربك
ي هذه الالقاب والنعوت التي تكيلها جزافا ، واعلم ان أمانة الله على وحيه
رتبة عالية لاتنال بشهادة تؤخذ من الازهر وامثاله ، ولا بكسوة تشريف
ن الامراء والسلاطين ، أين آثار شيوخك في قيادة الامة التي حملتهم اياها من
لدعوة الى كتاب الله وسنة رسوله ومحاربة البدع والخرافات والالحاد والشبهات
بها ؟ راجع ما كتبه حجة الاسلام الغزالي في الفرق بين علماء السوء وعلماء
لآخرة لتعلم انه ليس كل من علم شيئا من هذه العلوم الشرعية وآلاتها العربية
كما وصفت ، وراجع مراجعة خاصة ما كتبه هو وما كتبه الشعراني في الميزان
بحديث «العلماء أمناء الرسل مالم يخالطوا السلطان » الخ

ايه : ايه : أيها الاستاذ من أين علمت ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ما اسندته
ليه ؟ هل رويت هذا بالسند عن الشيخ بخيت وأمثاله الذين فضلتهم على جميع
لامة والعالم الاسلامي فأديت الامانة التي تلقيتها عنهم ؟ أم تلقيت هذا من
فواه الذين يتجرءون على الرسول بغير علم فيسندون اليه كل مايسمعونه من
, أو يقرأونه في كتاب ؟ أليس هذا مما صرح الفقهاء والمحدثون بحظره وتعزير
رتكبه ومنعه ، كما بينه ابن حجر في الفتاوى الحديثية ؟

أما حديث « اتقوا زلة العالم » فقد رواه العسكري في الامثال والديلمي
ن حديث عمرو بن عوف بزيادة « وانتظروا فيئته » وأورده السيوطي في
لجامع الصغير بلفظ : اتقوا زلة العالم وانتظروا فيئته ، وأبو نعيم في السنن وابن
دى في الكامل وراويه الذي انفرد به هو كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف
ن زيد المزني عن أبيه عن جده (١) قال الحافظ الذهبي : قال ابن معين ليس

(١) الحديث أورده الشيخ الحوت في كتابه رسالة في بيان الضعيف من
احاديث الجامع الصغير ؛

بشيء . وقال الشافعي وأبو داود : ركن من أركان الكذب . وقال مطرف بن عبد الله المدني رأيته وكان كثير الخصومة لم يكن احد من أصحابنا يأخذعنه. وقال له ابن عمران القاضي : يا كثير ! انت رجل بطال الخ . وقال ابن حبان: له عن أبيه عن جده نسخة موضوعة. وقال ابن عدي :عامة ما يرويه لا يتابع عليه اه. وهو ممعنى حديث رواه البيهقي من حديث مجاهد عن ابن عمر وفيه « ان أشد ما أتخوف على أمتي ثلاث زلة عالم وجدل منافق بالقرآن ودنيا تقطع أعناقكم فاتهموها على أنفسكم » اه من تمييز الطيب من الخبيث وهو في معناه حجة على الاستاذ الكاتب وان كان لا يحتج به كما هو ظاهر

وأما جملة « لحوم العلماء مسمومة » فلا أعلم ان أحداً رواها حديثا بل وجدت في كلام لابن عساكر فأما ان يأتينا الاستاذ عبد ربه بنقل في روايتها حديثا وأما ان يكون هو الواضع لهذا الحديث وهو موضوع بلاشك. ونسأل الله تعالى ان يصلح هذه الامة ويلهمها رشدها ويقيها شر الغرور القاتل انه على ذلك قدير .

وكتب هذا في الباخرة كليوباترة بالقرب من سواحل ايطالية

المعتصم بالله آل رضا

قد وهب الله تعالى لصاحب هذه المجلة غلاما سويا سماه المعتصم بالله . وكانت ولادته عند مطلع الفجر من يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ذي القعدة الحرام الماضي الشمسي في ٢٥ من برج السرطان (ص ١) سنة ١٢٩٩ هجرية شمسية (الموافق ١٨ يوليو (تموز) سنة ١٩٢١ ميلادية) فنسأله تعالى أن يحييه حياة طويلة طيبة وينبته نباتا حسنا صالحا ويجعل له من اسمه أوفر نصيب فيكون قرة عين لوالديه وآله وأمته ، وان يستجيب دعاءنا عند مصابنا بأخيه الهمام قبل ولادته بأربعة أسابيع فيكون خلفا صالحا لذلك الفرط المتقدم (الذي ظهر عليه في طفوليته من امارات الذكاء والنجابة والفصاحة ما يندر ظهوره من مثله) فيكون خيرا منه في ذلك كما وعد الصابرين المحتسبين ، وان يجعلنا على ذلك من الشاكرين آمين

خواطر

الاستاذ الشيخ محمد الخضر

١ – ان كبر عقلك فاصبح يعلمك مالم تعلم ، واتسع خيالك فبات يلقي عليك من الصور البديعة ما يلذه ذوقك ، فانت ما بين أستاذ يمحض نصيحته ، ونديم لا تمل صحبته

٢ – يبسط الشعر ظله الظليل ، ويقف بقناديل الكهرباء على سواء السبيل ، أتتجبر انت من البؤس وهو أحمر من الامضاء ، وتوقد سراج حكمة يهدي بعد موتك الى المحجة البيضاء

٣ – حسبت العلم ضلالا فناديت الى الجهل ، وآخر يزعم التقوى بلها فكان داعية الفجور ، ولولا ما نلقيانه في سبيلنا من هذه الارجاس ، لكنا خير أمة أخرجت للناس

٤ – هذه الدنيا كالعدسة الزجاجية في الآلة المصورة ، تضع الرأس موطئ القدم ، وترفع القدم الى مكان الرأس ، فزنوا الرجل بمآثره ، ولا يغرنكم ما يبدو لكم من مظاهره

٥ – يصنع الصانع الحلي ، وتصنع ماتتجمل به النفوس في محافل العلى ، فان ظلت تتهافت على صانع الخواتم والسلاسل ، فاعلم انها مابرحت لاهية عن هذه المحافل

٦ – سميت الاستخفاف بالشرع حرية ، فقلت برع في فن المجاز فتهكم بمن أصبح عبدا للهوى ، وسميت النفاق كياسة فقلت خان الفضيلة في اسمها وحاذر النظر في فهمها

٧ – كان لسان الدين ابن الخطيب جنة أدب تجري تحتها انهار المعارف فآتت أكلها ضعفين ، ولكن تنفست عليه السياسة ببخار سام فخنقته ، وشبت نار الحسد في القلوب القاسية فاحرقته

٨ – سرت والنور أمامك فانطلق ظلك على أثرك ، ثم وليته قفاك فكان الظل يسعى وأنت على أثره ، وهكذا العقل يستقبل الحقيقة فيتبعه الخيال ، فاذا أدبر عنها انقلب الخيال الى امام ، وقاده في شعاب الباطل بغير لجام

الوثائق التاريخية في المسألة العربية*

٥

مذكرة الامير فيصل في مؤتمر الصلح

جاء في عدد جريدة الطان الذي صدر في ١٠ فبراير (شباط) سنة ١٩١٩ تحت عنوان (نشرة اليوم) ما ترجمته

(مطامع الحجاز)

من الاسف أن نضطر الى العودة الى البحث عن الحجاز . ان سكرتير الوفد الحجازي قد رد على النشرة التي نشرتها الطان مساء يوم الخميس (أي ٦ الشهر) بكتاب طلب الينا نشره فلا يسعنا والحالة هذه الا تلبية طلبه

كتب الينا عوني عبد الهادي يقول ان جريدة الطان نسبت الى ملك الحجاز مرامي توسع لم تدر في خلده البتة . وردف سكرتير الوفد تكذيبه هذا بالتأكيدات القطعية بقوله « ان الملك حسينا لم يفكر قط بجعل مكة عاصمة جميع البلاد العربية التي تملصت أخيرا من النير التركي فهو يفهم أحسن من أي شخص آخر الاسباب التي لا يمكن للحجاز بسببها أن تتعرض للامور السياسية الخاصة بهذه البلاد . فالمناقضة والابهام اذن والحالة هذه ليستا في الميل والرغبة في ضم البلاد التي أظهرها ملك الحجاز بل هي بالاحرى في الشدة التي استعملتها بعض الصحف ونسبت بها الى هذا الملك أفكارا ودعاوي لم تخطر على باله

« ان ملك الحجاز لم يعلن الحرب على تركيا الا لتخليص اخوانه في الجنسية الذين كانوا يقاسون ظلم الترك من النير المخيف الذي كان يثقل كاهلهم كما يتضح من المنشورات التي أذاعها فيما بعد ، فهي لا يظهر منها انه بانضمامه الى الحلفاء ضد تركيا التي ارتمت في أحضان ألمانيا وحلفائها يرمي الى سياسة التوسع ، بل صرح مرارا عديدة بأنه لا يرغب في ضم شبر أرض من البلاد العربية الى مملكته سواء كان من سورية أو العراق . بل الفكر الذي يرمي اليه هو أن يرى كل هذه البلاد التي مسها الضر الشديد من جراء فظاعة الترك حرة مستقلة ، وهو غير مرتبط بأية وثيقة كانت خصوصية او عمومية مع أية دولة كبرى ، ويرغب في أن تترك الشعوب العربية حرة لتقرير مصيرها طبق مبادئ الدكتور ولسون »

*) تابع لما في الجزء الثالث

هذا ما قاله السكرتير حسين (عوني) عبد الهادي

على أن فرنسا وحدها تشعر بالرغبة في تأمين الحرية للشعوب العربية خصوصاً منهم سكان سورية التي كانت تحميهم سابقاً في الوقت الذي لم تكن حقوق الامم راشحة فيه بعد. وجريدة الطان نفسها بتوجيهها الانظار الى الحجاز الذي يحاول أن يوسع سلطته على سورية انما أرادت أن تدافع عن حرية العرب السوريين، ثم ان سكرتير الوفد الحجازي يؤكد أن الحجاز لا يروم أن يضم اليه شبر ارض من البلاد العربية لا من سورية ولا من العراق!

وجوابنا على هذا

ان واجبات اللياقة والضيافة لا تسمح لنا أن نجيب على هذه التصريحات بالوجه التي وضعت فيها ومن حسن الحظ ان مندوبي الحجاز أنفسهم أخذوا على أنفسهم الرد عليها فلنترك لهم الكلام بتحليل مستند حرره أنفسهم

ان هذا المستند الذي قد يمكننا طبعا نشره على علاته اذا أرادوا قد نشر بعنوان (مذكرة من الامير فيصل) الذي هو ابن ملك الحجاز ورئيس المندوبين الحجازيين الموجودين الآن في باريس وقد جعل تاريخها اول يناير سنة ١٩١٩ وقدمها الى الدول العظمى بمناسبة المؤتمر وهي بيان للمطالب الحجازية أفرغت في قالب من الوضوح والبلاغة يعودان بالمدح والثناء على الذي حررها، واننا نسر والحق يقال أن ننشر للجمهور بياناً واضحاً بدرجة هذا البيان وسيطلع كل شخص ذي ذمة عليه بكل سهولة دون أن يحوجنا الى تفسير كل دقائقه

مذكرة فيصل لمؤتمر الصلح الاول

استهل الامير فيصل مذكرته ببيان الاقسام المختلفة التي يدعوها آسيا العربية فقسمها الى ستة أقسام ورتبها الترتيب الآتي (سورية والعراق والجزيرة والحجاز ونجد واليمن) وقال انها تختلف اختلافاً كثيراً بعضها عن بعض ويتعذر دمجها في دائرة حكومية واحدة ولذلك حاول أن يعين المصير الذي ينبغي أن يكون لكل واحدة منها

ابتدأ أولا بسورية فقال ما يأتي (اننا نعتقد أن سورية هذه المقاطعة الصناعية الزراعية [illegible] ثابتة. هي بلاد متقدمة تقدماً كافياً من الوجهة السياسية يمكنها معه أن تقوم بأعباء أمورها الداخلية [illegible]

بعينا هذا لنمونا القومي ونحن مستعدون لعرف ما يلزم من النقود في مقابل هذه المعاونة ولا يسعنا أن نضحي في مقابلها أي جزء كان من الحرية التي أحرزناها قبلا بأنفسنا وبقوة سلاحنا) اه

وعلى ذلك فان سورية بناء على مذكرة الامير فيصل ستمنح استقلالا ذاتياً بما يتعلق بأمورها الداخلية ويدمج في خدمتها اخصائيون من الاجانب بدون أن يسمح لاية دولة أجنبية أن يكون لها أقل نفوذ في البلاد ، فمن يا ترى يقوم باعباء علائق سورية الخارجية ؟ الجواب على ذلك أن الظواهر تدل بأن ملك الحجاز يقوم بهذه المهمة وناهيك بما جاء في المذكرة من عبارة (نمونا القومي) وعبارة (الحرية التي أحرزناها بأنفسنا) كأن الحجاز وسورية لاتكونان في نظر العالم سوى دولة وحكومة واحدة .

ثم انتقلت المذكرة من سورية الى العراق والجزيرة يعني الى جزئي مقاطعة بين النهرين وهنا أقرت النيابة الحجازية برنامجا مخالفا تمام المخالفة للاول ، ثم انها قد طلبت أن تكون الحكومة عربية (بالمبدأ والروح) الا أنها لم ترفض تدخل دولة أجنبية فقد جاء في المذكرة (ان العالم يرغب في سرعة استثمار ما بين النهرين ولذلك نرى أن شكل الحكومة في هذه البلاد لابد أن يكون مستندا الى الرجال والموارد المادية التي تقدمها دولة أجنبية عظمى) اه . ان في هذا تنازلا لبريطانيا العظمى التي حفظت لنفسها السهر على ما بين النهرين في الوقت الذي كانت تعترف فيه لفرنسا بحق السهر على سورية .

ثم جاء بعد ذلك ذكر المقاطعات الثلاث الواقعة في شبه جزيرة العرب وهي الحجاز واليمن الواقعتين على ساحل البحر الاحمر ونجد التي هي المنطقة الداخلية فلم يسلم الامير فيصل بمذكرته فتح باب المناقشة في مصير هذه البلاد ، وبين بعد ذلك أن الحجاز ستبقى محكومة طبق الطرق العرفية وقال (اننا نقدر هذه الطرق تقديرا يفوق تقدير أوروبة لها . ولذلك نطلب المحافظة على استقلالنا التام ، وأما اليمن ونجد فالارجح انهما لاتعرضان مسئلتهما على مؤتمر الصلح وهما سيتناقشان في مسائلهما بعضهما مع بعض ويقومان بترتيب علائقهما مع الحجاز وغيره)

ان هذه اللهجة ترجعنا سنة الى الوراء اذ يخيل لسامعها انه يسمع المركوبلن يتكلم عن مصير كورلندة الروسية

بقيت مقاطعة فلسطين فقد قالت عنها المذكرة الحجازية ان الاكثرية العظمى من أهالي هذه البلاد عربية وان العرب متفقون مبدئيا اتفاقا تاما مع اليهود » غير أن العرب لا يسعهم أن يخاطروا وأن يأخذوا على أنفسهم مسؤولية الاحتفاظ بالتوازن في خليط العناصر والاديان الذي كان على الدوام في هذه المقاطعة الوحيدة يدفع العالم للمشاكل ، ان العرب يتمنون أن يعطى مركز ممتاز في هذه المقاطعة لموكل عظيم في الوقت الذي تمنح البلاد فيه حكومة محلية نيابية تقوم بانماء عمران البلاد من الوجهة المحلية) اه

البرنامج الحجازي يقضي بتعرض دولة عظمى في كل من فلسطين ومابين النهرين وليس هناك حاجة لبيان أن في هذا تنازلا للمصالح الانكليزية .

ان هذه المطابقة لاتبرهن — كما كان قد صرح كاتب أسرار مندوبي الحجاز — على أن ملك الحجاز غير مرتبط بأي نوع من الوثائق الخصوصية مع أية دولة

وقد اختتم الامير فيصل مذكرته بقوله (انني بتشديد الاشارة إلى الفروق الموجودة في حالة بلادنا الاجتماعية لا أود ان أقول بأن هناك إختلافا حقيقيا في المرامي والمصالح المادية والمعتقدات أو الاخلاق على وجه يجعل ارتباطنا متعذرا ، ان أهم عقبة يجب علينا تذليلها هو الجهل المحلي الذي تقع معظم مسؤليته على عاتق الحكومة التركية) اه فالمقصود اذاً تشكيل حكومة واحدة ينبغي اعداد أساسها بجمع شمل كل البلاد العربية التابعة للسلطنة العثمانية القديمة تحت زعامة ملك الحجاز الموجود في مكة ، ان الانسان اذا أمعن النظر في هذه الطلبات الرسمية تمكن من تقدير تكذيب ما أرسله الينا كاتم أسرار مندوبي الحجاز حق قدره عند ما كتب الينا (انه لم يدر في خلد ملك الحجاز البتة أن يجعل مكة عاصمة للبلاد العربية التي تملصت من النير التركي)

وعلى هذا فقد برح الخفاء وظهرت سياسة الحجاز التي كانت مفرغة في قوالب المبادئ الويلسنية كما كانت سياسة الحدود الالمانية في مقاطعة كرانيا وبلاد البلطيق كأنها مشروع لضم البلاد أو من قبيل وضع أمبراطورية بدوية مكان امبراطورية تركية

ان مذهب الوحدة العربية يخدم مطامع فئة قليلة من المتعصبين العرب والاوروبيين كما كان مذهب الوحدة الالمانية يخدم مطامع السلطة البروسية العسكرية فاذا كان هناك رغبة في نشر السلام في الشرق فينبغي اجتناب الوقوع

في هذه الحبائل . ان الوحدة العربية اذا كانت ممكنة التحقيق فانها لا تكون بالفتح والسيطرة ، ولا بالجمعيات السرية أو المساعدات المالية المستنكرة . بل لا يمكن تأسيسها الا أن تجتمع فيابعد الحكومات التي قد تكون تعلمت فيابعد كيفية الحكم الذاتي وتكون أقبلت وأدركت بكل حرية منافعها المشتركة . ان كل سياسة أخرى تكون جائرة وعمياء من شأنها ان تثير في العالم الاسلامي حركات تقضي مصلحة حلفائنا البريطانيين العظمى ان يجتنبوها» اه كلام الطان التي توغلت في الاستنباط لما لقومها من الطمع في استعمار سورية ، واندفعت هي وغيرها من الجرائد الفرنسية تحذر الانكليز من تأسيس جامعة عربية تمتد الى افريقية وتميد سلطان الاسلام الذي تتبجح هذه الجرائد بأن الحلفاء تركوه كالطير المقصوص الجناح من مملكة مراكش الى مملكة الاستانة!! وكانت في غنى عن تحذير الانكليز فهم أحذر من الفرنسيس وأدهى وانما يريدون السيطرة على جميع بلاد العرب ليحولوا دون تأسيس الجامعة العربية والفرنسيس يخافون عاقبة ذلك أكثر مما يخافون من ارتقاء عرب آسية ومصر ان يسري الى سائر عرب افريقية. فن حماقة هذه الجرائد انها تنفر العرب من أمتها من غير فائدة تجنيها من ذلك فالانكليز يسخرون من نصائحها ويعملون ولا يقولون

(٦)

﴿ استسلام الحجاز لبريطانية العظمى ﴾

جاء في آخر مقالة افتتاحية من عدد ٢٤٠ من جريدة القبلة الذي صدر بمكة في ١٥ ربيع الاول سنة ١٣٣٧ ما نصه

« وها مقطمنا الاغر ينقل لنا في عدد ٩٠٢٨ الصادر بتاريخ ٢٦ صفر ١٣٣٧ من تصريحات أم صحف العالم ولسان حال الشعب البريطاني الذي أثبت فضله على العالم ومنته على مجتمعه ولا حرج بمواقفه وثباته واقتداره السياسي والحربي والمالي امام أهوال سنيننا هذه الاربع من حسن نواياها وآمالها وما تريده ثقة واعتمادا على معاشر العرب بقولها من بحث : سياستنا القديمة التي كانت ترمي الى تسديد تركية وشد أزرها على اعدائها وأخذنا نحاول البحث عن بديل حر يحل محل السلطنة العثمانية البالية الفاسدة ، ومن هؤلاء الابدال الذين يحلون محل تركيا العرب أما سواهم ففلسطين الجديدة وأرمينية الجديدة)

« نرحب ونؤهل ونسهل بمن أنزلنا محل ثقته، وتوسمنا بالاهلية لمصادقته،

ولا ريب فان على مثل هذا يتنافس المتنافسون ، ولمثله فليعمل العاملون

الف الف أهلا وترحيبة وأضعافها شكرا لحسن الظن، وانا لانجيبه بما قال أحد أشياخ جاهليتنا: أحمالي صغير وحمالي كبيرا ،ولكن نقول ان العرب اليوم هم كالاشبال أو أفراخ الشياهين والبازي المحتاجة لصيانة آبائها.

«ومع هذا فستجدهم أيها الداعي المحسن الظن ان شاء الله تعالى من حيث تريد، وترام بعنايته بيت القصيد. فاليكم بني يعرب ما أوتيتوه من طموح الانظار اليكم، وآمال أجل شعوب العالم فيكم، فانظروا ماذا تأمرون بعد ما وصفكم ذلك الشعب بما وصف، فأجيبوا داعي المكرمات ، وحققوا في نجابتكم التصورات، وكونوا خير أمة أحيت مندرس معالم سؤدد أسلافها للناس ، ولاتهم أرفع واسمى من أن تذكره نكبات التخاذل وموارد الانعاس، أو تسيئوا بقولنا الظن وعكس القصد. وأيم الله انه الحق ، ونكرر ما أشرنا اليه في أعدادنا السابقة بانا معاشر الحجازيين ولا شيء من الرياسة أو السيادة ان كانت في سوري أو في يمني أو في حجازي ونحوه، ولا يهمنا ورب الكعبة الا توليكم لبلادكم كتولي الشعوب الحرة لبلادها. وان داء الشامي هو داء اليماني وان في شقاء الآخر شقاء للاول . وان مايصيب أحدهما يصيب الآخر من خير أو عكسه . ومتى تفطنهم في ان أبسط دليل على هذا قيام الحجازيين ونهضتهم وهم ولاشيء مما اصاب اخوتهم من الضيم الذي سارت بأنواعه الركبان علمتم أنهم ادركوا تلك الغاية الجليلة واغتنموا تلك الفرصة لتحليهم بجلائلها،وان يمنعهم بدعة العيش التي هم بها من مسمم من أنين المضطهدين من اخوانهم عار عظيم لايغسله الا دماؤهم وكان بفضله ما كان فلاتعقموا النتيجة ولاتهدروا تلك الدماء الزكية والنفوس الابية » اه كلام القبلة بنصه السقيم

(٧)

﴿ كلام التيمس في اتفاق سنتي ١٩١٦ و١٩١٧ ومذكرة فيصل ﴾

جاء في عدد التيمس الاسبوعية الصادر في ١٤ فبراير سنة ١٩١٩ من ضمن مقالة عنوانها (الوفود والصحافة — تحفظ شديد) ما ترجمته

اتفاقية سنة ١٩١٧

وهنا تظهر أيضا الاتفاقية السرية التي عقدت في أواخر فبراير سنة ١٩١٧ معينة مناطق نفوذ بريطانية وفرنسة وروسية في آسيا التركية. ان هذه الاتفاقية

اعترفت باحداث دولة عربية مستقلة أو بحلف من دول عربية وبعد تعيين منطقة نفوذ روسية اعترف بأن تأخذ فرنسة الساحل السوري وولاية اطنه والاقليم الذي حده من الجنوب خط عنتاب — ماردين حتى الحدود الروسية المستقبلة، ومن الشمال خط يمتد من آلاداغ الى قيصرية — اق داغ الى يلدز داغ فزاره فاجين فخربوط، وأن يكون لبريطانية الجزء الجنوبي من العراق مع بغداد وفي سورية ثغرا حيفا وعكا

«وبحسب الاتفاق بين فرنسة وبريطانية العظمى تكون بين المقاطعة التي بين الاقليمين الفرنسي والبريطاني دولة عربية مستقلة تعين فيها مناطق نفوذ وتكون الاسكندرونة ميناء حرة

أما الفرنسيون فيذهبون الى أن حقوقهم على سورية لاتستوفى مالم تعتبر سورية كتلة واحدة وان هذه الحقوق ليست — كما أشير اليها بمزاح — مبنية على شهرة البعثة السورية التي بقي صداها يرن في الآذان الفرنسوية بأغنية النغمة المعظمى « مسافر الى سورية » ليست مبنية على هذا فقط بل للفرنسيس أساس أمتن من ذلك ناشئ عن الموقف الخاص الذي انتحلته فرنسة الجمهورية عدوة الاكليروس بقولها انها حامية للمصالح الكاثوليكية في الشرق . وقد كانت فرنسة دائما تحمد نفسها على موقفها في سورية، وكانت على حملاتها على الاكليروس تسعى لحفظ النفوذ الادبي الذي لها في تلك الاصقاع بما احدثته من الملاجئ الدينية والخيرية والتهذيبية، وهنالك عدد من الاسباب الاقتصادية الثابتة أيضاً تهتم به فرنسة بالطبع، وعامة التجارة السورية تكاد تكون في الايدي الفرنسية . وان رأس المال الفرنسي هو الذي بدأ بتجهيز تلك البلاد بالسكك الحديدية والطرقات — فسورية بالنسبة الى ليون ومرسيلية هي اشبه شيء بنسبة افريقية الغربية الى ليفربول

مطالب الامير فيصل في المؤتمر

«وفي الحقيقة ليس في مطالب فيصل مايعارض مطامع الفرنسيس في سورية مباشرة — ففيصل يرغب في الاستقلال التام للحجاز وحده فقط، وأما سائر الشعوب العربية فانه يرغب لها في الاستقلال عن تركيا — وهو لاجل الحصول على هذه الغاية سل سيفه من غير ان يحصل على اي وعد من الحلفاء فانه لم تعط له وعود الا بعد ان أخذ في التحاحر

« وقد اشار بأن تقسم البلاد العربية الى سلسلة حكومات صغيرة مجتمعة بحسب المصالح الاقتصادية والعشيرية (نسبة الى العشائر) وان تدير هذه الحكومات دولة من الدول المعظمة ، وكل دولة من هذه الدول الصغيرة تختار بحريتها الدولة المعظمة التي تقتضي حالتها ان تكون لها الوصاية على تلك البلاد »

« ورغب فيصل بأن تطلب كل البلاد العربية دولة واحدة للوصاية عليها ، وكذلك رغب اشد الرغبة بان لا يرغم أي جماعة من العرب على وصاية لا يرضون بها »

« ولنفرض ان هذه الخطة طبقت فمن الطبيعي ان تستثنى فلسطين ولبنان بالنظر الى المصالح القومية الخاصة ، وان نجاح هذه الفكرة وتطبيقها يتوقفان ولا شك على كيفية تحديد الدول العربية المتنوعة » اه كلام التيمس التي تتبجح جريدة القبلة باطرائها

---

(٨)

الغرض من مجيء المستر تشرشل الى مصر وفلسطين ومقابلته لوفد العراق

كان لاصحاب الاوهام سبح طويل في الغرض من هذه الرحلة لوزير المستعمرات البريطانية حتى جاء البيان لذلك فيما نشره المقطم في العدد الذي صدر منه في ١٩ مارس سنة ١٩٢١ تحت عنوان (مهمة المستر تشرشل) وهذا نصه:

رد المستر لويد جورج على سؤال وجه اليه في مجلس النواب عن مهمة المستر تشرشل في مصر فقال « ان المستر تشرشل سافر الى مصر ومعه ستة اوسبعة من موظفي مصلحة الشرق الاوسط ومن القسم المالي في وزارة الحربية ومن وزارة الطيران . وانه لا ينتظر ان يجتمع بأحد من زعماء العرب و يتوقع ان يقضي نحو عشرة أيام في مصر و بضعة أيام في فلسطين ثم يعود الى لندن فيعرض اقتراحاته على الوزارة . وقال سياسة الحكومة ستعرض على المجلس

وارسل المستر تشرشل كتاباً الى السر جورج ربشي رئيس جمعية الاحرار في لندن قال فيه انه لا يمكننا أن نستمر في انفاق الاموال الطائلة على العراق العربي بل يجب انقاص عدد القوات هناك انقاصاً كبيراً جداً في الحال ومع ذلك

تقتضي نفقات تختلف من عشرة ملايين الى احد عشر مليون جنيه في العام وهو أكثر كثيراً مما يحق لنا إنفاقه في تلك الجهة ولا سيما اذا ذكرنا عظم خصب املاكنا في غرب افريقية وشرقها والفرص السانحة لنا فيها لترقيتها لخير الامبراطورية بالنسبة الى الشرق الاوسط فاذا لم نوفق الى ايجاد مشروع أحسن وأرخص كثيراً من المشروعات التي امامنا الآن اضطررنا الى الجلاء عن العراق العربي ولكن الضرر والخزي اللذين يلحقان بنا من جراء هذا العمل يجب ان لا يقال شأنهما ولا يصغر أمرهما . فقد قبلنا الوصاية على تلك البلاد وتعهدنا ان ندخل فيها انظمة من الحكم تفوق الانظمة التي قوضنا أركانها وتقضاها كثيرا فاذا نكصنا بعد هذا على اعقابنا وارتددنا بالعار الى الساحل كان ذلك حادث لا يتفق مع نبالة القصد وحسن السمعة اللتين عرفتا عن بريطانيا العظمى . واني أؤمل انه اذا انشأنا حكومة عربية تؤيدها قوة عسكرية متوسطة تمكنا من القيام بما يجب علينا من غير ان نوقر عاتق الخزينة البريطانية بنفقات لا مسوغ لها . على ان اقدامنا على انشاء حكومة عربية في بغداد فتح علينا باباً لم نر مناصاً من ولوجه وهو معالجة المسألة العربية كلها من حيث علاقتها بالمصالح البريطانية . فاذا لم تدبر الشؤون العربية بطريقة تضمن استتباب السلام والسكينة بين قبائل العرب في هذه الوهلة حال ذلك دون سحب عدد كبير من جنودنا من العراق العربي وانقاص نفقاتنا وعاقها كثيرا

ونشرت التيمس تلغرافاً لمكاتبها من مرسيليا قال فيه ان المستر تشرشل قيل ان يبحر منها قال : « من أكبر الاغراض وحلتي ايجاد التفاهم بين انكلترا وفرنسا في الشرق وهو تفاهم عظيم الاهمية للفريقين وسأدرس الحالة في العراق وآسيا الصغرى فانه يتعين علينا ان نعيد السلام والنظام الى نصابهما في تلك الجهات مهما بلغت كلفتهما وننقص المصروفات الطائلة التي تنفقها بريطانيا وفرنسا فيها ولا ينال هذا الغرض المزدوج الا اذا نظمت الدولتان مساعيهما ونفقتاهما واني ذاهب الى مصر ومصمم على ادراك هذا الغرض — انتهى

[المنار] أبين لنا الوزير بصراحته التي يقل مثلها في رجال قومه أن اضطرارهم الى ادارة أمور العراق بآلة حكومة وطنية لتخفيف النفقات أن يستعجلوا بوضع

الارهاق البريطانية في اعناق سائر البلاد العربية في الجزيرة المقدسة ، ولهذا عادوا بالحلف على أوليائهم من شرفاء مكة ويقال ان من أغراضهم التي يسعى لها الملك حسين والامير أو انك فيصل أن يعقد اتفاق بين أمراء اليمن ونجد يجعل فيها ملك الحجاز ممثلا لهم في السياسة الخارجية ليكون كل ما تتفق عليه معه انكلترة نافذا عليهم . على ان الانكليز يربطون أولئك الامراء باتفاقات معهم خاصة تضمن لكل منهم استقلاله الاداري الداخلي في بلاده وتساعده عليها باعانة مالية سنوية بشروط أهمها أن لا يعقد أي اتفاق مع دولة أخرى وان تكون انكلترة صاحبة الحق الاول في جميع المنافع الاقتصادية في بلاده !!

(٩)

آراء الامير فيصل في المسألة العربية والانتداب البريطاني

تلغراف خصوصي للمقطم

لندن في ١١ فبراير الساعة ١٠ : ٧ ليلا

اتيح لي ان احادث الامير فيصلا بلندن في المسألة العربية وارسلت اليكم بهذا التلغراف خلاصة اقواله لي وهي : —

« انني متفق تمام الاتفاق مع الفئة البريطانية الآخذة في الازدياد والقائلة بأنه حان لبريطانيا ان تكف عن بذل ارواح جنودها وبدر أموالها في العراق، أما غرضي من رحلتي الى أوروبا فهو اقناع الحلفاء بأن الزمان آن لتنفيذ الشروط التي خضنا الحرب عليها . وليس هنالك أقل رغبة عندنا في الاضرار بالمصالح البريطانية ولا التنصل مما قضى به الاتفاق علينا فاننا على عكس ذلك نعتقد ان محالفتنا مع بريطانيا العظمى دائمة ونرجو ان تظل كذلك وعندنا ان بقاءها هو في مصلحة الفريقين »

« أما البلاد التي يشملها الاتفاق فقد حددت تخومها تحديداً صريحاً جليا فليس ثمت مجال للخطأ والالتباس ونحن مستعدون لتأليف حكومة تستطيع ان تدير شؤون تلك البلاد على قواعد ترضي جميع الذين لهم شأن او مصلحة فيها »

« لقد أرسل الرئيس ولسن لجنة الى سورية للوقوف على آراء أهلها ورغبتهم في شكل الحكم الذي يرومونه ولكن تقرير هذه اللجنة لم ينشر قط فلماذا منع نشره »

« ان البطء في انشاء حكومة تتوفر فيها أسباب الكفاءة آل طبعاً الى هياج الخواطر ولكن انتقاض العرب الاخير لايدل على رغبتهم في قطع علاقاتهم ببريطانيا وانما وقع لان بريطانيا سارت عامين على غير هدى فوقع الالتباس ونشأ الخلاف وسوء التفاهم وخاف العرب ان تستعمر حكومة الهند بلادهم »

« ان الذي يرومه العرب هو حكومة عربية تستمد النصائح والمساعدة البريطانية ومع اننا نعارض في ان نكون مسودين فلا نصر على الجلاء التام ولكننا نقول ان مصاريف كل حامية او ادارة ملكية من جانب بريطانيا يجب ان تدفع من أموالنا . ولم يختلف اثنان على هذا . أما الحكومة العربية التي ينوى انفاذها فتضمن جميع المصالح السياسية والاقتصادية التي هي لبريطانيا العظمى . وكل قرض تحتاج اليه الحكومة العربية يكون مكفولا بمرافق البلاد الطبيعية الغنية . نعم ان البلاد اليوم اشبه شيء بالقفار ولكن الخبراء الزراعيين يجمعون على انها أخصب تربة في العالم اذا عني بفلاحتها وريها وزرعها . وهذا علاوة على مافيها من الكنوز المعدنية فانها عظيمة جدا وفيها مجال متسع للارتقاء والنمو ولاسيما منابع الزيت الكثيرة في انحائها »

« ان البلاد تفتقر الى الاموال التي تنشلها من وهدة الفوضى والدمار التي ألقاها فيها سوء حكم الغزاة الترك ولكن هذه الاموال لاتضيع سدى بل تشغل وتستثمر بربح كبير »

« واذا فتح مجال العمل امام الحكومة العربية بالانصاف والعطف فانه توفر على الحلفاء بذل الرجال والمال في المستقبل علاوة على الذي بذلوه من الاثنين حتى الآن »

(١٠)

حكومة شرقي الاردن بين السر هربرت صموئيل والامير عبد الله

عمان في ١٨ ابريل — وصل المندوب السامي الى عمان أمس مصحوبا بالكولونل لورنس والمستر ديدز واللورد ادوارد هاي فجرى للسر هربرت صموئيل استقبال ودي واحتفى به الامير عبد الله الذي كان مصحوبا بالمستر ابرمسون الممثل الاكبر لبريطانيا العظمى في جهة وادي الاردن وقد عين فيها حديثا وقد قدمت أربع طيارات من فلسطين ونزلت بجوار المعسكر في ميدان الطيران الالماني السابق .

واجتمع اليوم صباحا عدد كبير من فرسان البدو والدروز والمتاولة وقاموا ببعض الالعاب على ظهور خيولهم — روتر

عمان في ١٨ ابريل — ألقى السر هربرت صموئيل امام سرادق الامير عبدالله الخطاب التالي على ألوف من رجال قبائل العرب وهو : —

« اسعدني الحظ بأن قابلت في دار الحكومة بالقدس صاحب السمو الامير عبد الله لما زار فلسطين هو والمستر تشرشل احد أعضاء الوزارة البريطانية . والحكومة البريطانية تسر بفرصة التعاون مع الامير عبدالله في البلقاء (ماوراء نهر الاردن) وتثق بصداقته وحسن نيته كل الثقة وتقدر الصداقة وحسن الثقة اللتين امتحنتا في هذه الحرب الضروس الطويلة حق قدرهما. وتدرك الخدمات التي قامت بها الجيوش العربية في ذلك النضال وتقدرها حقها، وترغب في ان التحالف الذي نشأ في اثناء الحرب توثق عراه في أيام السلم .

كان الموظفون البريطانيون يساعدون في ادارة البلقا (ماوراء الاردن) منذ شهر أغسطس الماضي وسيظلون يعملون كمستشارين للامير وموظفيه من قبلي في انحاء البلاد المختلفة . وسيجدسموه في المستر ابرامسون كبير المندوبين البريطانيين موظفاً ذا مقدرة وخبرة عظيمة وهو وجميع الموظفين المشتركين معه في طول هذه البقعة وعرضها رجال يعطفون على الشعب ويميلون الى آداب اللغة العربية وسيتمكنون من المساعدة على زيادة ترقية البلاد . وسيفرغ قصارى الجهد لتدبير كلما تحتاجون اليه من القروض وفتح أسواق فلسطين لحاصلات بلادكم وتسهيل نقلها اليها . وسينظر بعين العناية في حاجة أهل البلاد التي نحن فيها على اختلاف طبقاتهم سواء كانوا من سكان المدن أو الفلاحين أو قبائل العرب حبا في زيادة هنائهم وبحسب حاجاتهم المتعددة ولادراك ذلك يجب ان تكون المحافظة على النظام والامن العام في المقام الاول من الاهمية .

ويؤمل ان يحتفظ بقوة احتياطية تكون أكثر كفاءة وأشد حولا مما كانت الحال قبلا وتستخدم مع الجندرمة في توطيد سلطة الامير عبدالله والحكومة المحلية ويسرنا ان نلبي رغبات الامير عبدالله فنتقدم عند الضرورة طيارات وسواها من المعونة الفنية لاغراض محلية وستؤول هذه التدابير الى استتباب السكينة في المقاطعات وتمكن أيضاً من اتخاذ التدابير لكبح جماح كل من يعكر صفو الامن في الاراضي المجاورة غرباً وشمالا .

والحكومة البريطانية مصممة على ان لاتصير البلقاء (ما وراء الاردن) مركزاً للعداء سواء كان لفلسطين او لسورية ونحن نعلم اننا في اخراجنا هذا التصميم الى حيز الفعل نستطيع الاعتماد على معونة الامير عبد الله . ومن بواعث الارتياح الشديد لحكومة جلالة الملك ان تجد نفسها متحالفة محالفة معينة مع ممثلي الشعب العربي في جميع البلدان العربية . ومن البراهين الاخرى على ضمان هذا التحالف ودوام مودته سياستنا في البلقاء (ماوراء الاردن) ووجودي بينكم اليوم ممثلا لجلالة الملك لويد جورج . واني ارجو ان يتخذ من التدابير منذ الآن ما يرفع هذه البلاد الى مستوى من اليسر والرخاء لايقل عنه في البلدان المجاورة او عما كان عليه في الازمان الغابرة

« ثم اجاب الامير عبد الله بما يأتي : - « اشكر سعادتك على خطابك الرقيق وأقول بالاصالة عن نفسي وبالنيابة عن الحاضرين انني واثق بأن الامة العربية ستبرهن على انها خليقة بتحقيق كل ماوضع فيها من الآمال بمساعدة حليفتنا العظيمة . واني اطلب من الله ان يحفظ الملك جورج والملك حسين ويطيل سعادتهما »

وقد قوبل الخطابان بالحماسة ثم عرض المندوب السامي الحرس من الفرسان الهنود وقدم اليه مشايخ القبائل وشاهد الامير عبد الله والسر هربرت صموئيل في المشاتل ضروباً من فروسية الجركس واقتلاع الفرسان الهنود للاوتاد - روتر

انكلترة والعراق

جاء في تلغراف خصوصي للمقطم من لندن في ٢٨ فبراير : ان الحكومة البريطانية ابلغت انه اذا عرضت رئاسة الحكومة في ولايات العراق الثلاث على الامير فيصل فانه يرتاح الى المساعدة والمشورة المنصوص عليهما بباب الانتداب في عهد جمعية الأمم وليس ذلك فقط بل يرى نفسه أنه لايستطيع القيام بمهام هذا المنصب من غير معونة وهذه المعونة تكون عبارة عن خدمة عدد معين من الضباط العسكريين والضباط السياسيين وبعض الخبراء الفنيين للمعاونة في تنظيم قوات العسكرية المحلية وانشاء دوائر الحكومة الملكية وترقية الصناعات والاعمال

خلاصة من خطبة المستر تشرشل التي ألقاها عن أمور الشرق الادنى في مجلس النواب يوم ١٤ يونيو عند عرضه ميزانية الشرق الادنى عن عددي المقطم المؤرخين ١٧ و٢٣ يونيو سنة ١٩٢١

قال الوزير : ان المؤتمر الذي عقده في القاهرة مع خبيرين من العراق وفلسطين

قرر وجوب التعجيل في انقاص الجنود في العراق من ٣٣ أورطة الى ٢٣ على ان يصير الانقاص ١٢ أورطة في اكتوبر فوفروا بذلك نحو ٥ ملايين جنيه، وان ميزانية الجيش في العراق وفلسطين لهذا العام ٢٧½ مليون جنيه واذا نجحت تدابير الحكومة فانها لا تتجاوز في السنة القادمة ١٠ ملايين .

وقال ان ميل الحكومة البريطانية الى حل مسائل الشرق بواسطة آل الشريف في العراق وشرق الاردن يجب ان يرقب تأثيره في سواهم . وتكلم عن ابن سعود وقومه ووصفهما لسامعيه ، ثم قال ان الحكومة البريطانية . قررت ان تواصل دفع الاعانة لابن سعود (وهي تبلغ ٨٠ الف جنيه) وان الملك حسينا اعرب عن استعداده لمفاوضة الامير ابن سعود.

ثم أعلن عزم الحكومة على انشاء دولة عربية في العراق يختار ملكها ، وقال ان الامير فيصلا غادر مكة الى بغداد فاذا وقع الاختيار عليه فانكلترة تؤيده وتشد ازره وتسعى للتوفيق بين العرب والاسرائيليين في فلسطين وتسهر على منع رجال الاحزاب الذين هاجروا الى شرقي الاردن من دخول سورية وقال الوزير : وليس في تعاوننا مع آل الشريف معارضة لمصالح فرنسية وأثنى على الامير عبد الله ثناء طيباً وقال انهم عهدوا اليه باعادة النظام وتعهد بمنع الاعتداء على الفرنسيس ثم قال: اننا لا نريد اكراه العراق على قبول ما لا يختاره أهله ، وعسى العراقيون ان يحسنوا الاختيار بحرية وحكمة بارشاد السر برسي كوكس — قال— وهناك سياستان في معاملة الجنس العربي احداهما ابقاء العرب منقسمين وانشاء ادارة من اعيانهم تعتمد على الغيرة والتنافر والثانية انشاء دولة عربية حول بغداد الخ . قال وهذه هي السياسة التي تصلح دون سواها

وتكلم عن جعفر باشا العسكري في حرب طرابلس والدردنيل وانه أنعم عليه بوسام القديسين ميخائيل وجورج وقال ان نفقات الجيش العربي تسدد من ايرادات العراق قال : واذا نجح تدبيرنا فالدولة العربية وحاكمها العربي تكون قائمة في بغداد قبل انقضاء السنة الحالية

بلاغ المندوب السامي البريطاني في بغداد

من جريدة دجلة عدد ١١ المؤرخ ٣٠ شوال سنة ١٣٣٩ (٦) تموز سنة ١٩٢١

لاشك في انه غير خاف على العموم انه في يوم ١٦ يونو (الموافق ٩ شوال)

انتهى الى بغداد بيان خطاب ألقاه جناب المستر تشرشل في مجلس العموم البريطاني يوم ١٤ يوليو الموافق (٧شوال) وقد شرح فيه وزير الدولة لسامعيه الحالة السياسية في بلدان الشرق الادنى ثم أعطى بيانا شافيا عن سياسة حكومة جلالة الملك فيما يتعلق بهذه البلدان . ان ما ورد في ذلك الخطاب بشأن العراق قد صار نشره في الحال باذن مني بصفة كوني المندوب السامي في الجرائد الانكليزية والعربية في بغداد والبصرة وقد ظهر ان ما نشر قد أتى ببيان واضح عن سياسة الحكومة البريطانية . على انه بعد نشر ذلك البلاغ قد عرض علي تكراراً بأن العموم يرغب جدا بتصريح مني بصفة كوني المندوب السامي ورئيس الحكومة العراقية المؤقتة أشرح فيه النقط المهمة كما وردت في الخطاب المذكور فبناء على ذلك رأيت ان من الواجب علي أن أقوم بذلك فأقول :

(١) مما يذكر انه بعد بداءة الحرب العظمى قطعت العهود مراراً لاهالي العراق ولجلالة ملك الحجاز بأنه لن يسمح بوجه من الوجوه أن تعود العراق أو أي مقاطعة من المقاطعات المحررة الى السلطة التي كانت تابعة لها عند نشوب الحرب وان الحكومة البريطانية تتعهد المحافظة على هذه العهود بحزم وثبات وتشعر انها تكون مقصرة في القيام بواجباتها بموجب هذه العهود فيما لو أهملت تقديم المساعدة للعراق في هذا الدور الابتدائي من حياته وانها تتركه بإهمال كهذا فريسة للاضطراب وعدم النظام . وفي ذات الوقت ان بريطانية العظمى غير مستعدة للاستمرار على حمل العبء المالي الثقيل والتبعة (المسؤلية) السياسية بمراقبة الادارة (ادارة العراق) للحد الذي كان ضروريا ريثما تعاد الامور الى أحوال السلم

ان الحكومة البريطانية كانت دائما ولا تزال ترى ان أفضل طريقة للقيام بعهودها وواجباتها هي بمساعدة أهالي العراق على اقامة حكومة وطنية منهم بمساعدتنا فتنشأ بذلك دولة عربية مصادقة تكون بغداد عاصمة لها . أما حكومة جلالة الملك نفسها فترى ان أفضل أنواع الادارات للعراق هو حكومة دستورية برئاسة وازع (حاكم) مقبول لدى أهالي البلاد . على ان حكومة جلالة الملك ترغب في ان تبين بوضوح كما سبق فبينت تكرارا بأن ليس لها من قصد أو رغبة ما في اكراه الشعب على قبول وازع ما معين بل الامر بالعكس فانها ترغب في وجود الحرية التامة في الاختيار وبداء الرأي

ومع ذلك ان الحكومة البريطانية بصفة كونها الدولة التي تحملت مصاريف طائلة في العراق في أثناء السبع السنوات الاخيرة لا يمكنها ان تقف موقف المتفرج الاكثرات امام هذه المسألة فلها الثقة بأن الشعب العراقي سيستعمل الحكمة والحرية معاً في اختياره الوازع

وهنا أود أن أشير بإيجاز الى قدوم صاحب السمو الامير فيصل الى العراق فأقول ان موقف حكومة جلالة الملك في هذا الصدد هو كما يأتي :

ان عائلة الشريف هي العائلة التي نشرت اللواء العربي في صف الحلفاء أثناء الحرب التي لعبت دوراً ذا شأن في ربحها . وان القضية التي من أجلها دخلت في صفوف المحاربين كانت قضية حرية العرب بعني عين القضية التي قد تعهدت بريطانية العظمى بمظاهرتها ونجاحها في العراق . فبناء على ذلك عند ما سأل أنصار عائلة الشريف في العراق عن موقف الحكومة البريطانية إزاء دعوتهم للامير فيصل ليأتي العراق أجيبوا على ذلك بأن حكومة جلالة الملك لن تضع عثرة في سبيل ترشيح سمو الامير لعرش العراق واذا وقع عليه انتخاب الشعب فيلقى تأييد بريطانية له . فبناء على ذلك بينما وزير الدولة (المستر تشرشل) يردد رغبته في ان يستعمل أهالي العراق الحرية في الاختيار يرى ان ليس هناك من سبب الامتناع من ان يبين بوضوح بأن حكومة جلالة الملك تعتبر ان الامير فيصلا هو مرشح موافق لا بل حقاً أوفق مرشح في الميدان ونرجو ان ينال معاضدة أكثرية الشعب العراقي :

واذا تم انتخاب الامير فيصل تعتقد حكومة جلالة الملك انه يكون قد توصل بذلك الى حل ينطوي على أكبر الآمال في مستقبل سعيد مقبل البلاد

ان حكومة جلالة الملك تعلم أن قد بحث في حلول أخرى ممكنة منها (أولا) تأسيس جمهورية و (ثانيا) عرض أمير تركي . أما في ما يخص الاول فمن رأي حكومة جلالة الملك ان درجة العراق من الرقي غير موافقة قطعيا لتأسيس جمهورية . وأما فيما يخص عرض أمير تركي فهذا حل ليست الحكومة مستعدة لافساح المجال له

ومن المؤمل ان العبارات التي أوردت أعلاه تفسر بوضوح سياسة حكومة جلالة الملك وهي سياسة قد استحسنها بالاجمال الجمهور البريطاني والصحافة البريطانية حسب ما بينت في خطاب المستر ونستون تشرشل واني أوافق عليها كل الموافقة

باب المراسلة والمناظرة

فناء النار والرد على ابن القيم

٢

قسمنا الموضوع في الكلام على فنائها ثلاثة اقسام الاول في الآثار التي استشهد بها العلامة ابن القيم على فنائها الثاني على الآيات الثلاثة الثالث على مقتضى الصفات ومجال العقل فيها

أما الاول فقد تكلمنا عليه في النبذة الاولى وبينا أن الآثار لا تصح عن عمر ولا عمن روى عنه من الصحابة (رض) وقلنا حتى لو صح لما كان حجة في هذه المسألة الكبرى الاعتقادية. وأما الكلام على الآيات الثلاث فمداره على تحقيق معنى الخلود المستثنى منه أولا والمشيئة ثانيا والمقصود من الاستثناء ثالثا وهل هذه الآيات من المحكم أو من المتشابه

أما الخلود المذكور في هذه الآية (آية الانعام) وآية هود وجميع آيات القرآن فهو لا يعرف الا من كتب الامة وقد رأينا لسان العرب الذي هو اكبر قاموس واعظم معجم عربي يقول: (الخلد) دوام البقاء في دار لا يخرج منها خلد يخلد خلدا وخلودا بقي واقام ودار الخلد الآخرة لبقاء أهلها فيها اه. ومما يدل على انهم يستعملون الخلد مجازا فيما لا يبقى الطول مدته قول صاحب اللسان: والخلد من الرجال الذي اسن ولم يشب كانه مخلد لذلك وخلد يخلد خلدا وخلودا أبطأ عنه الشيب كأنما خلق ليخلد قال والخوالد الاثافي في مواضعها والخوالد الحجارة والجبال والصخور لطول بقائها بعد دروس الاطلال اه. فانظر الى قوله فيمن ابطأ عنه الشيب (كأنما خلق ليخلد) وقوله (لطول بقائها) للاثافي والحجارة والجبال فانهم شبهوها بما يبقى ولا يزول وتصوروا فيها لطول البقاء مايصح ان يطلق عليه لفظ الخلود الذي لم يوضع الا لدوام البقاء كما ذكر معناه الاول أول المادة ومنه تعلم أن الفناء مناقض له كل التناقض لانه تعلم البقاء الذي اخبر الله به وعدا ووعيدا في سبعانة آية من كتابه في الجنة والنار ففرق قوم بين الاخبار بدون دليل يصار اليه ويقوم حجة على خصمهم تقول لهم ياقوم هداكم الله في كل من الجنة والنار قال الله «خالدين فيها أبدا» و«خالدين فيها» دون أبدا، فبأي شيء فرقتم بين الخلودين والابدين فلا تجد الا

تدليلات واهية وكلاما طويلا ضرره اكثر من نفعه كأنهم لم يجدوا غير الخلاف صناعة ولا سوى الكلام بضاعة حتى اضطر ان يجاريهم من لم يكن منهم ابن قيم الجوزية وحسبنا الله ونعم الوكيل

واما الابد فقال في اللسان في مادة أبد: والابد الدائم والتأبيد التخليد وأبد بالمكان يأبد بالكسر أبودا أقام به ولم يبرحه اه . فعلى هذا لايستدل بما اصطلح عليه الناس (كالمصريين) في التأبيد اذ جعلوا له مدة محدودة ولم ينزل القرآن بلغتهم ولا عبرة باصطلاح ولا عرف يخالف اصل اللغة التي نزل بها كلام الحكيم الخبير :

فاسمع لقوله تعالى يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفئن مت فهم الخالدون ، كل نفس ذائقة الموت) فانظر كيف قابل الخلد بالموت الذي هو الفناء وتأمل معناه تجده كما قال صاحب اللسان انه دوام البقاء فكانه يقول لرسوله وما جعلنا لبشر من قبلك دوام البقاء أفئن مت فهم الباقون ، كل نفس ذائقة الموت الخ وهذه الجملة الثانية مؤكدة لمعنى ما قبلها فغفر الله لنا ولهم وهدانا واياهم سواء السبيل

واذ قد عرفنا[1] معنى الخلود الوارد في الآية وانه هو الذي به علمنا دوام بقاء المؤمنين في الجنة كما علمنا به دوام الكافرين في النار وانه هو الاول في الالفاظ الدالة على معنى البقاء والابد بعده في الترتيب ولا يعرف في اللغة لفظ أدل على البقاء منهما في المخلوقات على ما أظن

وأما ما ذكر في الاساس من مثل قولهم : رزقك الله عمرا طويل الآباد بعيد الآماد : فهو مبني على التوسع وتصوير مالا يكون في حيز الكائن على حد قول الشاعر : « وتخافك النطف التي لم تخلق »[2] ومثل هذا كثير في قولهم[3] ولكننا نسألهم في أصل وضع الخلود والابد وقد عرفت معناهما عن اللسان فيما تقدم (٤) على ان الله تعالى اخبر بكل لفظ مفيد

---

(١) المنار : ليس في بقية الكلام جواب لقوله واذ قد عرفنا

(٢) المصراع من بيت للمتنبي وهو

وأخفت أهل الشرك حتى انه لتخافك النطف التي لم تخلق

واسناد الخوف الى النطف فيه من المجاز العقلي (٣) جعل عبارة الاساس من المجاز وهي فيه من الحقيقة ومزية الاساس على سائر كتب اللغة التفرقة بين الحقيقة والمجاز

(٤) المنار : ما نقله عن اللسان في تفسيرهما لا يدل على معنى البقاء الذي

الدوام والبقاء عن كانا الدارين: كلا لفريقين فقال لهم فيها دار الخلد وقال عذاب مقيم

اذا عرفنا ما تقدم أمكننا أن ننظر في الاستثناء المذكور في آية الانعام جاعلين نصب أعيننا ماورد في آيات الله تعالى من وعده للمؤمنين ووعيده للكافرين وكذلك الاحاديث الصحيحة المصرحة بخروج عصاة المؤمنين من النار. أما الآيات المصرحة بدخول الكافرين النار فهي كثيرة وعلى كثرتها محكمة لاناسخ فيها ولا منسوخ ولا متشابه(١) ولا يصح أن نؤول كل هذه الآيات ونركب كل صعب وذلول حتى نجعلها كلها من باب الوعد الذي ليس وراءه شيء لتفلتها في سلك آية وجد فيها ذوو الشبه ما يوافق اهواءهم ويشطون به هم غيرهم ويشغلون به الافهام وكم مني الاسلام بهم ونفذت فينا سهامهم حتى اختلفنا في كتابنا كما اختلفوا في كتابهم وكان ذلك قدرا مقدورا قال تعالى (ويوم يحشرهم جميعا يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا اجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله ان ربك حكيم عليم) فالمعنى خالدين فيها يا أهل النار(٢) (وهم من مر ذكرهم) الا ماشاء الله من هذا الخلود (٣) أن يخرجهم من داره (٤) لانه حكيم لايخلد الا الكافر الذي اخبر عنه في كثير من آياته ، عليم بمن يخرج من أهل الايمان الموحدين . فالآية قد جمعت وعدا ووعيدا وكثيرا ما يذكر الله في آياته أحدهما بعد الآخر على حد قوله تعالى (والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم ابواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين * والذين آمنوا وعملوا الصالحات الخ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ا) وكقوله تعالى (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا * الا من

= لانهاية له فان المقيم في دار لا يخرج منها كالمالك لداره ليس بباق هذا البقاء لاهو ولا داره بل كانوا يطلقون هذا على من شأنه المكث وعدم التحول كما يتحول البدوي والذي يقيم في الدور المستأجرة . واما البقاء الذي لانهاية له اصطلاح شرعي لا لغوي فلم يكن هذا المعنى معروفا عند عرب الجاهلية

(١) لا معنى لنفي النسخ لانه خاص بالاحكام

تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً) فما يخبر سبحانه بوعيد وانذار ألا ويعقبه بوعد وبشارة (ليجزي الذين أساؤا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) فلما أنذر قوماً في هذه الآية بالخلود في النار على استمتاع بعضهم ببعض وموالاة بعضهم بعضا وكان بعض المؤمنين الذين ألموا ببعض الذنوب ولحقهم من الوصف شيء يحزنهم ذلك حتى يؤديهم الى اليأس لاجرم استثنى الله تبشيرا لهم واخبارا بحكمته وعلمه وعدله في آية واحدة ولا يبعد هذا بهم فقد ورد أن بعض الصحابة لما سمع قوله تعالى (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون) قالوا وأينا لم يظلم نفسه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم ذلك الشرك وقرأ (أن الشرك لظلم عظيم) فلولا أن فسرها لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالآية الاخرى ليئسوا وقنطوا ومثل ذلك ماجرى عند نزول قوله تعالى (وإن تبدوا ما في أنفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله الخ ثم انزل الله لهم (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) الخ

اذا تقرر هذا وعلم أن الانذار في آية الانعام بالخلود شديد وأن السكوت عليه قصور لو كان في كلام الناس لعد معيبا فكيف بأبلغ الكلام الذى أنزل رحمة للعالمين. فهل بعد هذا يستنكر ذو فهم وتأمل في كلام الله أن يجمع بين وعد و وعيد ونذارة وبشارة في آية واحدة، على أن النذارة بالخلود لمن يستحقونه كما أشار بذلك الحكيم للحكماء الذين يفهمون وان البشارة لمن يستحقون (؟) ممن عرفنا خبرهم في القرآن والاحاديث والله أعلم بهم وبما اقترفوا وجزاء ما كانوا يقترفون : هذا ما أفهمه في الآية مع استحضاري الآيات الاخرى والاحاديث ولم يشف غليلي مارأيته من وقف المتوقف وتأويل المتأول، وهذا هو وجه الاستثناء لاماقالوا من انه يأتي على ما في القرآن حاش لله أن يكون خبر واحد يهدم بناء أخبار أدعمت على العلم والحكمة حتى لو كان مجردا عما أشرنا اليه من وجوه البلاغة والاعجاز ولان نؤوله ليوافقها لكان أسهل من أن نؤولها كلها

ومن العجب أنه قد حضر عندي أخ في الله من أهل العلم وتحاورنا في الموضوع فكان هو فانيا وأنا بقائيا فما زال يؤول كل آية جئت بها دالة على البقاء بحذق

وبراعة « على طريقة الازهريين » حتى جئت له بآية الاعراف (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط) الآية فوجم فقلت ماذا ؟ أجب فقال انتظر ، ثم بعد هنيهة قال ربالبه ما قال : نعم هو كما قال الله تعالى مادامت النار لا يدخلون الجنة ولكنها ستفنى . فقلت ثم ماذا بعد ما تفنى أيدخلون الجنة وتزول الاستحالة بفناء النار ؟ فضحكت من تأويله فلينظر الناصح لنفسه البصير بكلام ربه وليجعل الرحمة في محلها كما اخبر الله بها عن نفسه وينظر الى المشيئة بعين الحكمة ولا ينظر الى صفة دون صفة بعين عشواء . واذ قد ألمنا الى ذكر شيء من وجوه الاستثناء فلنتكلم على المشيئة المستثناة وإن كانت هي أحق بالكلام قبل الإستثناء لذكرها أول الفصل ثانية

اخبرنا الله تعالى في آيات كثيرة أن مشيئته موافقة لحكمته وانه لا يشاء عبثا ولا ظلما قال تعالى (يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا اليما)[1] فهذه الآية تدل

---

(١) فسر بعضهم الرحمة هنا بالجنة وبعضهم بالتوفيق لما تستحق به والمعنى أنه يدخل المؤمنين المتقين في جنته وأعد للظالمين لانفسهم بالكفر وكبائر المعاصي عذابا أليما اذا ماتوا على ذلك الظلم ولم يتوبوا منه . وليس فيها ما ذكر من معنى الحصر في ان رحمته لا يدخل فيهما الا الذين لم يتصفوا بالظلم المقابل للعدل - وانما معناها أن ما أعده للظالمين من حيث هم ظالمون هو العذاب الاليم ان ماتوا على ظلمهم ولم ينلهم العفو وما كل ما أعد لقوم ينالهم كلهم والوعيد باعداد العذاب دون الوعيد بوقوعه كقوله تعالى (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين) وقد روي تخصيص تعدي الحدود هنا بمخالفة أحكام المواريث المذكورة قبله وأهل السنة مجمعون على جواز العفو عن العاصي بذلك وبغيره والظالم بغير الشرك بالله وهم يؤولون هذه الآية الجازمة بخلود العاصي في النار والعذاب المهين كما يؤول القائلون بانتهاء عذاب الكفار الآيات الواردة فيهم . وغرضنا هنا بيان أن الحصر الذي قال الكاتب انه لا مجال للشك فيه غير صحيح وقد ذكر الله تعالى أن ممن أورثهم الكتاب من المصطفين من عباده من هو ظالم لنفسه فالظلم كالفسق والاجرام يطلق في القرآن على الكفر تارة وعلى المعاصي أخرى. وآية الفتح التي جعلها الكاتب مثل هذه الآية وردت في تعليل ==

دلالة صريحة لا مجال للشك فيها على أنه لا يدخل في رحمته الا غير الظالمين وانما الذي عرفنا انه لا يشاء الاهم قوله والظالمين اعدلهم عذابا اليما فالناس قسمان ظالم وعادل والدار داران جنة ونار فلما ذكر الظالمين وما اعدلهم عرفنا أن القسم الذي شاء ادخاله في رحمته ضدهم وهم المؤمنون أو المقسطون أو كما تسميهم أفلا يصح أن تنزل المشيئة المذكورة في آية الانعام وهود على هذا التقسيم الظاهر وأن الله لا يشاء فناء النار الذي يهدم كل زجر ووعيد في القرآن ويطمع كل ذي كفر وبهتان وجبار عنيد وشيطان

ومثل هذه الآية قوله تعالى (يدخل الله في رحمته من يشاء) فهل يظن عاقل أن معنى هذا يدخل الله كافرا الجنة أو مؤمنا نبيا النار(٢) أم انه لا يفعل الا ما اقتضته حكمته التامة ، وأن مشيئته في هذه الآية وفي أمثالها مقيدة بمثل آية (هل أتى على الانسان حين من الدهر) وغيرها مما سنذكره قال تعالى (ومن يهن الله فماله من مكرم ان الله يفعل ما يشاء) فالنظر الى قوله تعالى عقب الآية أفليس قوله هنا (ان الله يفعل مايشاء) كقوله عقب آية هود (ان ربك فعال لما يريد) التي كاد يشبهها علينا ابن القيم رحمه الله بقوله « ولم نعلم ما يريده بهم » أي الذين شقوا قال وأما الذين سعدوا فقال فيهم « عطاء غير مجذوذ » فبالله ألا فتأملوا أيها المنصفون فوالله لقد أخطأ ابن القيم ان كان يعتقد أن قوله تعالى (ان ربك فعال لما يريد) فيها الماع أو اشارة الى فناء النار ومن يفهم هذا الفهم أو يجوزه بعد ان سمع ما أوردناه وما سنورده قال تعالى (ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار ان الله يفعل ما يريد) ماذا يقول الفنائيون في هذه الآية أيضا أيقولون لا ندري ما ذا يريد الله بأهل الجنة كما قالوا في آية هود والا فما الفرق بين الجنوين فليخبرونا ولهم الثواب(١) فقد علم كل من له أدنى تأمل في القرآن أن

=كف أيدي المؤمنين من القتال يوم فتح مكة وفسرت الرحمة فيها بالاسلام.

(١) ان الفرق عندهم جلي وان كان لا يدل على فناء النار — وابن القيم لا يقول به — وهو أن الخبر الاول جاء عقب الخبر بادخال المؤمنين الصالحين الجنة بغير استثناء والثاني جاء في كون الذين شقوا في جهنم خالدين فيها الا ماشاء الرب تعالى وهذا الاستثناء مبهم فقالوا لا نعلم ما يريده به وبهم ، ومنهم من كان علمهم في القرآن أعلى التأمل لا أدناه وان جاز عليهم الخطأ كما يجوز على غيرهم

ارادة الله تعالى ومشيئته قد علمت في أهل الجنة وأهل النار وأن كلا قد قضي عليه بالخلود في داره التي خلق لها وسعى لها سعيها وظهرت تلك المشيئة في الفريقين بأجلى مظاهرها . فترى أهل النار لا يهتدون ، صم بكم عمي فهم لا يعقلون ، وأهل الجنة موفقون مهديون (وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) قال تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) ألم يبين الله لنا مشيئته هنا ايضا بالمؤمنين والظالمين؟ ألم يكن ختامها هنا كختامها في سورة هود؟ هل يفهم منها هنا إلا كما يفهم من تلك؟ وأن المعنى لا اعتراض على فعل الله لانه هو الحكمة التامة والعدل الاعلى وأنه لا مكره له ولا راد لما قضاه أم يقال ما قرره الفنائيون الذين نظروا لآية واحدة وتركوا سائر الآيات فقالوا : أما الذين سعدوا فأخبرنا الله أن عطاءهم غير مجذوذ وأما الذين شقوا فلم يبين لنا ماذا يريد بهم . والحق انه بين وبين كما سمعت وعلمت :

واما الكلام في آية النبأ فلا دليل فيها لهم وآخرها يرد عليهم اذ يقول الله تعالى (فذوقوا فلن نزيدكم الا عذابا) ولن تفيد الاستقبال حتى احتج بها الزمخشري على نفي الرؤية (رؤية الله في الجنة) في قوله تعالى لموسى (لن تراني) وفرق بين الخبرين فان هذا نفي الرؤية في الدنيا وأما الثاني فنفي في الآخرة وقوله تعالى آخر السورة (ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا) دليل على ان الكافر كان يود لوكان ترابا ولا يعذب خالدا . ولا يقال تمنيه ذلك كاف لرؤيته العذاب فحسب دون الخلود لانه لو كان يعلم ان النار تفنى من الآن كما يقولون لظل على أمله ورجائه في رحمة الله (١) كما فهم ابن القيم من حديث لو يعلم الكافر بسعة رحمة الله ما يئس ولو يعلم المؤمن بأليم عذاب الله أو نحو ذلك لقنط وقوله تعالى (لابثين فيها أحقابا) لا يدل على انقطاعها كما قدمنا فانما المقصود التهويل وان الاحقاب قد تأتي متتابعة ولا تتناهى . أرأيت لو كنا هنا في الدنيا خالدين أما كنا نقول مضت علينا أحقاب وتمد الزمن وهو باق كما يمكن أن نمد شيئا لا يحصى بالالوف والملايين ونحصي نسل من

(١) يرد على الكاتب ما نقله هو عن عمر من تمنيه لو كان شجرة تعضد ... [illegible] الاكبر .

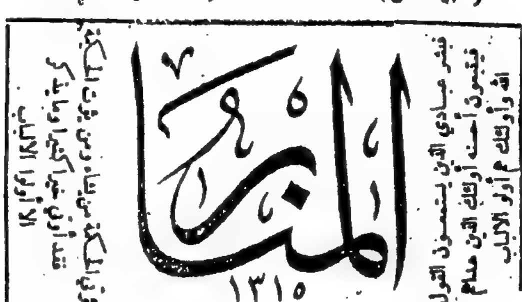
الحساب؛ كالذي يشليون وكلما فرغت الفصول أعدناها من الاول عدا ولم يفرغ المعدود فمن يستنكر ذلك؟ وهل هذا الا من باب قوله تعالى في أهل النار (خالدين فيها ما دامت السموات والارض) والغرض الخلود الذي لانهاية له لان المخاطبين يجهلون بدء الارض والسموات والمجهول أوله وآخره كالذي لا أول له ولا نهاية فلذلك والله أعلم صور لنا الخلود لنعلم عظمه بالنسبة لبقاء الدنيا وعمرنا القصير فيها فأما المؤمن فيفرح بنعيمه الخالد في الجنة وأما المنافق فيحزن حزنا شديدا وتتنغص عليه حياته اذا سمع هذا الوعيد الشديد. فالاول تعلو همته ويقتحم الشدائد بقلب ملؤه الصبر والامل والسرور. وذاك يجاهد ليجذب عنه هذه الزواجر ويفر منها فرار الحمر المستنفرة وهي في أثره حتى ينقلب في هوة العذاب السحيق وبئس المصير

وبعد فاما أن تكون هذه الآيات متشابهة أو محكمة. فان كانت متشابهة فقد كان على الفنائيين أن يقولوا آمنا عملا بقوله تعالى (والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) وما كان لهم أن يكثروا الكلام ويطيلوا الخصام ويقفوا ماليس لهم بعلم من صفات الله واسمائه ويتحكموا في حكمته ومشيئته بعلمهم القاصر(١) وأن لله اسماء وصفات لايعلمها للآن أحد كما ورد في حديث (واسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو انزلته في كتابك او علمته أحدا من خلقك اواستأثرت به في علم الغيب عندك الخ. وحديث الشفاعة اذ يعلم الله تعالى رسوله محامد يحمده بها. ولا ريب أن المحامد تكون على اسماء تقتضيها وتستحقها والله اعلم أفما كان الاولى بهم أن يسكتوا بعد أن يقولوا آمنا به الخ. وان كانت محكمة فالامر ظاهر ولا داعي للخلاف والجدال والقول على الله بلا علم ولنا اسوة بالصحابة الذين كانوا يسألون عما يعنيهم فيقولون يارسول الله ما أفضل الاعمال. ودلني على عمل اذا عملته دخلت الجنة الى غير ذلك ولعل في هذا الآن كفاية وله بقية

عبد الظاهر محمد

---

(١) يرد على هذا أن ابن القيم قال بالتفويض والوقوف عند قوله تعالى ان ربك حكيم عليم) وجعله نهاية الاقدام في السير في هذا المقام وهو ذو العلم الواسع بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.



قال عليه الصلاة والسلام: إن للإسلام صوى « ومنارا » كمنار الطريق

٢٩ ذي الحجة ١٣٣٩ ـ ١٩ السنبلة (ص ٣) سنة ١٢٩٩ هش ٧ سبتمبر سنة ١٩٢١

القياس فى العربية

« للاستاذ العلامة الشيخ محمد الخضر »

الحمد لله الذي جعل العربية أشرف لسان ، وأنزل كتابه المحكم في أساليبها الحسان ، والصلاة والسلام على من بهر البلغاء بلهجته البارعة ، وعلى آله وصحبه العاملين على منوال حكمته الرائعة ، أما بعد فقد كنت أيام دراستي لعلم العربية امر على احكام تختلف فيها آراء علمائه فيقصرها أحدهم على السماع ويأذن الآخر في القياس عليها دون ان يذكروا الاساس الذي قام عليه الخلاف ، فأرى التمسك بمثل هذه الاقوال من التقليد الذي لا ترتاح اليه النفس ولا سيما حين اذكر ان كثيراً من أصحاب هذه الاقوال قد تلقوا العربية من كتب يمكننا الاستقاء منها ، فأخذت ألفت نظري الى الاصول العالية التي يراعونها في أحكام السماع والقياس حتى ظفرت بقواعد وقفت على تفاريق منها في صريح كلامهم وانتزعت شذورا أخرى من موارد أحكام جزئية تقصيت آثارها في ابواب شتى

ولما شرعت في مدينة دمشق بمطالعة بعض الكتب العربية كمغني اللبيب بمحضر طائفة من أذكياء الطلبة كنت أذهب في تقرير مسائل السماع والقياس على تلك الاصول التي لم تدخل بعد في سلك التأليف ، وعند هذا اقترح علي أولوا الجد منهم جمعها وتحريرها ليكونوا على بينة منها خلال المطالعة فطاوعتهم على ما اقترحوا حتى تكاملت في مقالات تشرح حقيقة القياس وتفصل شروطه وتحرر مواقعه واحكامه

تمهيد

لا يكون الكلام عربياً فصيحا الا اذا صحت مفرداته واستقام تأليفها ، أما صحة مفرداته ففي النطق بحروفه على مقتضى الوضع من غير ان تغير بنقص أو زيادة أو ابدال او قلب في هيأة ترتيبها أو حال حركتها وسكونها ، وأما استقامة تأليفها فبانطباقها على أسلوب نسجت عليه العرب في مخاطباتها . ولا تتحقق هذه المطابقة الا برعاية احكام التقديم والتأخير والاتصال والانفصال والحذف والذكر

وهل نتوقف في اطلاق الكلم وتأليفها على معرفة وضعها الخاص ونقلها

الوارد بحيث لانستعملها حتى يثبت لدينا من طريق الرواية كيف نطق بها العرب؟ او أبقى واضع اللغة طريق القياس مفتوحا فيسوغ لنا ان نلحق الكلم بأشباهها في هيأة مبانيها او نسق تركيبها ونسوي بينها في الاحكام اذا أعوزنا السماع؟

هذا موضع تشعبت فيه انظار الباحثين في العربية ، فبعد اتفاقهم على العمل بالقياس وتضافر عباراتهم على انه من مآخذ اللغة غلا بعضهم في التعلق به واتسع في مجاله الى ما يخرج بالكلام عن صبغته العربية ، وضيق آخرون الغاية الى حد يقرب من موقف الجامد على الرواية في اوضاع الكلم وتصرفاتها

وقد انتبذ المحققون بين هذين الطرفين مسلكا يبقي على اللغة شعارها ويبسط في نطاقها بمقدار ما يتسوغه ذوق كل الشيح والقيصوم

ولا تجد عالما مفردا او أهل بلد اطردوا في هذه الجادة ولم يحيدوا عنها في قضية فكانت جميع أقوالهم في محل الاعتدال . بل ترى القول الحق والقياس الوسط يدور بين مذاهبهم فيصيبه هذا تارة ويحرزه مخالفه تارة أخرى ، وذلك شأن العلوم التي يستند في تقرير قوانينها الى اجتهادات العقول

الحاجة الى القياس

وضعت اللغات ليعبر بها الانسان عما يبدو له من المآرب ويتردد في سميره من المعاني ، ومن البين جليا ان المعاني تبلغ في الكثرة الى ان تضيق عنها دائرة الحصر، وتنتهي دونها ارقام الحاسبين ، فلم يكن من حكمة الواضع سوى انه وضع لبعض المعاني الفاظا عينها كالسماء والمطر والنبات ، ولوح الى البقية بمقاييس تصاغ الكلم في قوالبها فتدخل في زمرة ماهو عربي فصيح

ولولا هذه المقاييس لكانت اللغة اضيق على المتكلم بها من مفحص قطاة ليقع في نقيصة العي والفهاهة ، ويكثر من الاشارات التي تخرج به عن حسن السمت والرصانة ، ويرتكب التشابيه محاولا بها تقريب المرام من فهم المخاطب لا كما يستعملها اليوم حلية للمنطق ومظهرا من مظاهر البلاغة

ولو فرضنا صحة ان يوضع لكل معنى لفظ يختص به كأن نجنح الى ان منشىء اللغة هو مبدع الخليقة لكان الحرج الذي تقع فيه الامة ان تضيق المجلدات الضخمة عن تدوينها ، وتعجز النفوس السمتة عن حفظ ما فيه كفايتها

فالقياس طريق يقرب به تناول اللغة ووسيلة تمكن الانسان من النطق

بآلاف من الكلم والمعاني . دون ان تقرن سمعه أو يحتاج في معرفتها الى مطالعة القاموس أو اللسان

وربما يلوح لك ان الالفاظ المرادفة تغني عن القياس في الكلم المفردة لو صرفها الواضع الى المعاني التي لم يعين لها اسماء . فنقول ان للمترادفات مجالا فسيحا وأثرا بليغا في الفصاحة والبلاغة ، فلا يصح ان تكون العربية عارية منها . ثم انها على كثرتها لاتبلغ ان تسد مسد القياس في مثل المصادر والافعال والاوصاف المشتقة وجموع التكسير فضلا عن كون الكثير من هذه المترادفات انما نشأت من لغات متعددة

ما القياس ؟

يسند القياس أحيانا الى العرب أنفسهم فيكون من قبيل التنبيه على علة الحكم الثابت عنهم بالنقل الصحيح ، كما قال النحاة اعرب الفعل المضارع قياسا على الاسم وعمل اسم الفاعل قياسا على الفعل ، ودخلت الفاء خبر الموصول في مثل قولهم « من يأتيني فله درهم » قياسا للموصول على الشرط

ويضاف تارة الى الباحثين عن أحوال اللفظ العربي فيراد منه أحد معان ثلاثة (أحدها) ان تعمد الى اسم ورد استعماله في معنى يشتمل على وصف يناسب التسمية كالخمر فتمديه الى معنى آخر تحقق فيه ذلك الوصف وتجعله من مدلولاته كالنبيذ تمده فيما يتناوله اسم الخمر حيث كان يخمر العقل ويستره ، وهذا النوع من القياس هو الذي يعنيه المحققون من الاصوليين بقولهم لاتثبت اللغة بالقياس

(ثانيها) الحاق اللفظ بأمثاله في حكم ثبت لها باستقراء كلام العرب حتى انتظمت منه قاعدة عامة كصيغة التصغير والنسب والجمع ورفع الفاعل وبناء العلم والنكرة المقصودة في النداء

(ثالثها) اعطاء الكلم حكم ما ثبت لغيرها مما هو مخالف لها في نوعها كما اجاز الجمهور ترخيم المركب المزجي قياسا على الاسماء المنتهية بتاء التأنيث ، واجاز ابن مالك حذف العائد المجرور في الصلة اذا تعين حرف الجر قياسا على حذفه في الجملة الخبرية ، والمعنيان الاخيران هما موقع النظر ومجال البحث في هذه المقالات وآثرت للفرق بينهما التعبير عن الاول بالقياس الاصلي وعن الثاني بقياس التمثيل

والكلم أحوال في نفسها ، وأحوال من جهة ما يتعلق بها ، فيتوجه النظر في القياس الى الاحوال العارضة لها من حيث مبانيها المفردة كاشتقاقها ووضعها ثم الى الاحوال الجارية عليها من جهة نظم بعضها في سلك بعض ، وترجع احوال النظم الى الاتصال والانفصال والتقديم والتأخير والحذف والذكر والعمل والاعراب والبناء والاستعمال. فكان المقصد من هذا التحرير يدور على البحث في القياس الاصلي والقياس التمثيلي ومباحث مشتركة بينهما

المقالة الاولى في القياس الاصلي

ما يقاس عليه

يجمع اللسان العربي تحت اسمه لغات شتى ، ولكنها تختلف فيما بينها اختلافا يسيرا مثل اختلافها في بعض أحوال الكلم من حركة وسكون او اعراب وبناء أو اعمال واهمال أو ترتيب حروفها أو ابدال بعضها من بعض أو زيادة والحذف

تتفاوت هذه اللغات بالجودة وفصاحة اللهجة ، وجميعها مما يصح القياس عليه ، قال ابن جني في الخصائص : اللغات على اختلافها كلها حجة والناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطئ وقال أبو حيان في شرح التسهيل كل ما كان لغة لقبيلة صح القياس عليه وقال البطليوسي في شرح الفصيح المشهور في كلام العرب ماء ملح ولكن قول مالحة مالح لا يعد خطأ وانما هو لغة قليلة . ومن اعتمادهم على هذا الاصل كان الصحيح عندهم جواز القياس في تقديم عامل كم الخبرية عليها لانه لغة حكاها الاخفش عن بعض العرب

ويستند في تقرير الاحكام اللفظية على أقوال الجاهلية كامرىء القيس وزهير، والمخضرمين كحسان ولبيد، والاسلاميين كالفرزدق وجرير وذي الرمة . أما المحدثون ويدخل في زمرتهم بشار بن برد وأبو نواس وأبو تمام فلا يسوغ الاستشهاد على اوضاع الكلم واحوالها التركيبية على شيء من منثورهم أو منظومهم ، ولهذا ترى النحوي يسومهم سوء التخطئة والتلحين حيث وقعوا فيما يخالف القواعد المسلمة ، واذا كان مخرج لقولهم لم تطابقه عبارتهم من مواقع الخلاف أقام لهم العذر بأنهم قد يبنون كلامهم على المذهب الضعيف

ثم اذا عثر على مثل صنيعهم الصادر من الجاهليين أو الاسلاميين لايسعه الا ان يقضي فيه بالشذوذ أو يقتحم في تصحيحه طريقة التأويل

وقال الزمخشري في كشافه بعد ان استشهد بشعر لابي تمام « وهو وان كان محدثا لا يستشهد بشعره في اللغة فهو من علماء العربية فاجعل ما يقوله بمنزلة مايرويه » وتلقى هذه المقالة الشهاب بسماع المقلد فقال في شرح الدرة « اجعل مايقوله المتنبي بمنزلة مايرويه » وقد كشفنا فيما كتبناه في حياة اللغة العربية عن وجه الخطأ في هذه المقالة ، وكيف يحتج بأقوال هؤلاء وقد عثروا في اغلاط كثيرة لايستطيع أحد السبيل الى تخريجها على محل صحيح ، فهذا أبو نواس يقول : —

واذا نزعت عن الغواية فليكن لله ذاك النزع لا للناس

والصواب في مصدر نزع عن الشيء انما هو النزوع

وهذا أبو تمام يقول : —

لعذلته في دمنتين تقادما ممحوتين لزينب وسعاد

والصواب تقادمتا

وهذا المتنبي يقول : —

فان يك بعض الناس سيفا لدولة ففي الناس بوقات لها وطبول

والصواب في جمع بوق بوق كصرد او ابواق

ومن لايعتمد في تقرير احكام اللفظي على استعمال المحدثين يرى ان استناد بعض المتأخرين في تصحيح بعض الكلم الى استعمال أحد أهل العلم غير سديد ، يرد بعضهم على صاحب القاموس في قوله « الا نموذج لحن » بأن الزمخشري سمى كتابا له بالانموذج ، والنووي عبر به في المنهاج عند قوله « انموذج المتماثل » وهو رد غير مبني على أصول العربية اذ لاحجة الا في كلام من ينطق بالعربية عن سليقة ، وهذا الشرط لايتحقق فى أبناء المائة الخامسة كالزمخشري أو المائة السابعة كالامام النووي رضي الله عنه ، وكم من امام في العربية ينطق أو يؤلف بعبارة تخالف مذهبه الصريح ، ألم يشترط ابن هشام في كتاب المغني لدخول هاء التنبيه على الضمير كون خبره اسم اشارة ولم يحتفظ بهذا الشرط فقال في خطبة الكتاب نفسه « وهاأنا بائح » ووقع صاحب القاموس في هذه الهفوة بعينها فشرط لاتصال حرف التنبيه بالضمير

ماشرطه ابن هشام من الاخبار عنه باسم اشارة ولم يقم على ماشرط فقال في خطبة كتاب القاموس « وها أنا أقول »

ويؤكد لك عدم صحة الاحتجاج بما يستعمله علماء العربيـة ان صاحب القاموس صرح بأن كلمة بعض لاتدخلها اللام وهو يعلم كما نقل عقب هـذا الحكم ان سيبويه والاخفش قد استعملاها في كتابيهما

ونحتج بالكتاب الحكيم ونعمل بالقياس على ظواهره ماطابقت مقتضى البلاغة ، ولا نتبع سبيل الذين يحيدون به الى جانب التأويل انتصاراً لما سبق الى ظنونهم وتقرر في مذاهبهم من أحكام فقهية أو عربية ، قال الفخر الرازي في تفسيره : اذا جوزنا اثبات اللغة بشعر مجهول فجواز اثباتها بالقرآن العظيم أولى . وكثيرا ما نرى النحويين متحيرين في تقرير الالفاظ الواردة في القرآن فاذا استشهدوا في تقريره ببيت مجهول فرحوا به ، وأنا شديد التعجب منهم فانهم اذا جعلوا ورود ذلك البيت المجهول على وفقه دليلا على صحته فلأن يجعلوا ورود القرآن دليلا على صحته كان أولى ، وقال ابن حزم في كتاب الفصل : ولا عجب أعجب ممن ان وجد لامرىء القيس أو لزهير أو لجرير أو الحطيئة أو الطرماح أو لاعرابي اسدى أو سلمي أو تميمي أو من سائر أبناء العرب لفظا في شعر او نثر جعله في اللغة وقطع به ولم يعترض فيه ثم اذا وجد لله تعالى خالق اللغات وأهلها كلاما لم يلتفت اليه ولا جعله حجة وجعل يصرفه عن وجهه ويحرفه عن مواضعه ويتحيل في احالته عما أوقعه الله عليه

ومن أمثلة ما اشار اليه ابن حزم انه ورد الفصل بين المصدر المضاف وفاعله المضاف اليه بالمفعول به في قوله تعالى (قتل أولادهم شركائهم) كما قرأ ابن عامر بنصب أولادهم وخفض شركائهم فقضى عليها الزمخشري بالخطأ وقال الذي حمل ابن عامر على ذلك انه رأى في بعض المصاحف شركائهم مكتوبا بالياء ، وذهب السكاكي في مفتاحه الى تلقي القراءة بالتسليم وفاقا لمن يقول ان القرآت السبع متواترة ولكنه تأول الآية على تقدير مضاف اليه يتصل بقوله « قتل » ومضاف عند قوله « شركائهم » والمقدر في الموضعين من نوع المنطوق به فيكون سبك الآية بعد التصريح بالمقدر « قتل شركائهم أولادهم قتل شركائهم » ثم قال وهذا وان كان فيه نوع من البعد فتخطئة الثقات والفصحاء ابعد

والذي نعتمده في مثل هذا ان نتلقى القراءة المتواترة بالقبول ولا نحمل

الآية مالا نطيقه بلاغتها من اعباء هذه التقادير وتمسها كما صنع السكاكي بل نبقيها على ظاهرها ولا نسلم ان الفصل في مثل هذا مخالف للفصاحة ولاسيما بعد ان أورد له ابن جني في الخصائص شواهد متعددة

ولا اخال أحدا يعول في مثل هذا على ذوقه فيقول ان الذوق ينفر من صورة المعنى الذي يفصل فيه بين المضاف والمضاف اليه بأحد معمولات المضاف، فان مثل هذا لا يرجع فيه الى ملاءمة الطبع بل مداره على مايجري به الاستعمال ويثبت في الرواية فما نجده واردا في الكلام الفصيح نعلم انه لا يكدر من مشرب الفصاحة العربية ولا ينلم من سور البلاغة فتيلا

ومما يقرب لك ان حكم الفصل بين الكلم لا يرجع فيه الى الذوق وانه عائد الى مايسمع من كلام المشهود له بالفصاحة في تلك اللغة ان اللغات تختلف فيه اختلافا كثيراً ، ففي اللسان الالماني مثلا يفصلون بين اداة التعريف والمعرف بجمل كثيرة ، وربما كان الفعل مركبا من قطعتين فيضعون القطعة الاولى في صدر الكلام ويلقون الاخرى في نهايته فيتفق ان يكون بين القطعتين كلمات فوق العشرة ، وتراهم يفصلون بين علامة الاستقبال والفعل بجمل متعددة ، ولا شبهة ان ارتباط اداة التعريف بالمعرف أو بعض اجزاء الكلمة ببعض أو علامة الاستقبال بأصل الفعل أشد من ارتباط المضاف بالمضاف اليه. فلا حرج على اللغة ان تبيح الفصل بين المضاف والمضاف اليه ولاسيما حيث تكون علاقة الفاصل بالاسم المضاف ليست من علاقة المضاف اليه ببعيدة كالمفعول به .

وأما الحديث النبوي فقد جرى الجمهور على عدم الاحتجاج به لكثرة ما وقع فيه من الرواية بالمعنى واعتد به ابن مالك وأخذ بالقياس عليه في أحكام شتى معتمدا على ان روايته باللفظ هي الاصل فنعمل بموجبها الى ان يثبت انه نقل بالمعنى ، ومن أمثلة ما احتج عليه ابن مالك بالحديث انه ورد في أبيات متعددة فعل الشرط مضارعا والجزاء ماضيا فاجاز الفراء وابن مالك العمل على هذا الاسلوب ، ومنعه الاكثر بدعوى ان ما وقع في تلك الشواهد من قبيل ما دفعت اليه الضرورة ، فاستدل ابن مالك على جوازه في حال السعة بما روى الامام البخاري من قوله عليه الصلاة والسلام « من يقم ليلة القدر ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه »

وقال ابن حزم عقب الكلام الذي نقلناه عنه في الاحتجاج بالقرآن واذا

وجد — يعني الباحث في العربية — لرسول الله صلى الله عليه وسلم فعل به مثل ذلك — يعني الصرف عن وجهه والتحريف عن موضعه — ولقد كان محمد بن عبد الله قبل ان يكرمه الله بالنبوة وأيام كونه بمكة اعلم بلغة قومه وافصح فيها فكيف بعد ان اختصه الله للنذارة واجتباه للوساطة بينه وبين خلقه ؟ اه وكلام ابن حزم هذا لم يصادف المفصل في رد مذهب الجمهور اذ هم لم يمتنعوا من الاستشهاد بالحديث لقلة فصاحته وانما لم يأخذوا به في العربية لما عرفت من احتمال روايته بالمعنى

والحق ان الاحاديث التي تعددت أسانيدها ولم يختلف لفظها يبعد فيها احتمال الرواية بالمعنى فيصح الاحتجاج بها من غير شبهة

القياس على الشاذ

الحكم الذي ورد به السماع النادر أربعة أنواع (أحدها) ما لا يعارضه قياس ولا سماع آخر، وهذا يكتفون في اطراده بالشاهد الواحد ولا يشترطون له السماع الفاشي، ومن هذا قولهم شنأي في النسب الى شنوءة فقد اكتفى بها سيبويه وغيره وجعلوا القياس في النسب الى فعولة على الاطلاق فعلي، ولم تقع اليهم من شواهده غير هذه الكلمة المفردة

(ثانيها) ما يخالف القياس والسماع، وهذا لا يغني فيه المثال النادر فتيلا، وقد حاد الاخفش عن قصد هذا السبيل حين سمع قولهم . هداوي في جمع هدية فجعله مقيسا في كل ما كان لامه ياء والحال انه لم ينقل منه الا هذه الكلمة الشاذة عن السماع والقياس اذ المسموع والموافق للقياس في مثل هذا بقاء الياء بحالها فيقال هدايا وعطايا ومزايا وبلايا وسرايا ودنايا

(ثالثها) ما يخالف القياس ولا يكون السماع معادما له كما ورد تصغير فعل التعجب في قولهم: ما اميلحه وما احيسنه، فهما واردان على خلاف القياس اذ التصغير من خصائص الاسماء ولم تضرب فيه الافعال بسهم، وصيغة التعجب من قبيل الافعال الماضية، وانما كان تصغير الفعل غير مصادم للسماع لان العرب لم يدلوا على معنى التصغير فيه بصيغة أخرى حتى يقال هذه الصيغة أعني اميلحه واحيسنه مخالفة للمسموع

(رابعها) ما يطابق القياس ويخالف السماع كما ورد خبر عسى ...

« عسى الغوير ابؤسا » وقوله « انى عسيت صائما »

وهذا مطابق للقياس لان الاصل في الخبر الافراد ، ومخالف للسماع اذ المعروف في خبر عسى مجيئه مضارعا مقرونا بأن أو مجردا منها .

وهذان القسمان أعني ماخالف القياس فقط أو السماع دون القياس هما محل الخلاف بين علماء العربية فالكوفيون يعتدون بما ورد من ذلك على سبيل الندرة ويسلمون بالقياس عليه . قال صاحب الافصاح : عادة الكوفيين اذا سمعوا لفظا في شعر أو نادر كلام جعلوه بابا أو فصلا ، والبصريون يمتنعون من القياس على الشاذ ويذهبون في مثله الى ان قائله نحا به خلاف ما يظهر منه ويردونه الى الاصل المعروف عندهم على طريق من التأويل ، وبعض النحاة كابن مالك لا يكلف نفسه تأويله ولا يقبله في موضع المطرد بل يصفه بالشذوذ أو انه خرج مخرج الضرورة ، والى هذه الطريقة اومأ ابن السراج في الاصول بقوله : ليس البيت الشاذ أو الكلام المحفوظ بادنى اسناد حجة على الاصل المجمع عليه وتأويل هذا كتأويل ضعفة الحديث واتباع القياس في الفقه . ومن أمثلة هذا النوع ذكروا في شروط افعل التفضيل ان لا يكون اصل الوصف على وزن افعل نحو ابيض واسود ولما جاء قول الشاعر :

جارية في درعها الفضفاض ابيض من اخت بني اباض

انزله الكوفيون منزلة المقيس عليه ، وتأوله البصريون على انه من « باض فلانا » اذا غلبه وفاقه في البياض ، وابقاه ابن مالك على ظاهره والقاه الى قسم المسموعات الشاذة .

والاصوب في كثير من الشواهد طريقة من يقضي عليها بالشذوذ ولا يذهب فيها مذهب التأويل فان من التأويلات التي يرتكبها بعض البصريين مايكاد الناظر — لتعسفها وبعدها من نظم اللفظ — يقطع بأنها لم تقع في قصد الشاعر ولا حامت حول قريحته .

ومن الاقوال الشاذة ما لا نجد للتأويل فيه مدخلا ، ومن شواهده ان البصريين يمنعون ان تجمع الصفة التي لاتقبل تاء التأنيث جمع مذكر سالم نحو اسود واحمر ، واجازه الكوفيون تمسكا بقول الشاعر :

فما وجدت نساء بني تميم حلائل أسودين واحمرينا

ولا يتخلص البصريون من هذا الشاهد الا بطرحه الى النادر الذي لا يقوم عليه القياس

والتأويل انما يقتحمه البصريون اذا كان الحرف المخالف للمعروف في البيان واردا عن فرد أو فردين ممن يتكلم باللغة المألوفة ، واما اذا ثبت انه لغة قبيلة فلا وجه لتأويله والخروج به عن ظاهره ، ولهذا أبطل ابن هشام تأويلات أبي علي الفارسي وابي نزار لقولهم « ليس الطيب الا المسك » برفع المسك لان أبا عمرو بن العلاء أثبت ان رفع خبر ليس الواقع بعد « الا » لغة تميم . والتحقيق ان الشاذ على قسمين

أحدهما — أن يكون في كلام العرب سائراً على سنة معروفة ووضع عام فتسمع الكلمة أو الكلمتان ممن لا يعرف بالفصاحة وهي تخالف المعروف في الاسلوب فهذا لا يقيس عليه قطعاً ، بل الكلمة ونحوها لا تنتقض بها القاعدة التي يجري عليها الفصحاء في عامة مخاطباتهم ولو نقلت عن فصيح اذ يجوز ان تكون صدرت منه على وجه الغلط أو القصد الى تحريف اللغة ، فان الألسنة الفصحاء قد تقع في منزلة الخطأ ، ويطوع لهم من قصدوا الى تغيير الكلمة عن وضعها المألوف لهزل ونحوه

ثانيهما — ما يرد في الكلام الفصيح وتحقق انه لم يصدر عن خطأ أو تلاعب في أوضاع اللغة مثل آيات الكتاب الحكيم والاحاديث التي تعددت اسانيدها ، فهذا يصح لنا ان نضعه مكان القياس وننسج على مثاله وان اباه البصريون والكوفيون ، فلا نبالي ان نؤكد بلفظ « اجمعين » منفردة عن لفظ « كل » وان منعه اكثرهم لوروده في قوله تعالى (لأغوينهم اجمعين — وإن جهنم لموعدهم اجمعين — لاملان جهنم من الجنة والناس أجمعين)

القياس فيما يفتقر الى التأويل

قد يستعمل نوع من الكلام على وجه شائع ولا يستقيم المعنى الا بتأويله ، ومقتضى مذهب الجمهور المنع من القياس عليه ولو كان وجه تأويله مما يسمه القياس ، وهذا كما قالوا في المصدر الذي كثر مجيئه نعتاً وحالا انه مقصور على السماع ، مع انهم يؤولون ماورد منه على تقدير مضاف أو تخريجه على مجاز . وقالوا ان اسم الزمان لا يخبر به عن الذات ، وأولوا نحو قولهم (الليلة الهلال) على تقدير لفظ طلوع مضافا الى الهلال . والحق ان المنع من القياس في مثل هذا مشروط بما اذا لم يقصد المتكلم الى تأويل قريب ووجه مقيس وهو مذهب ابن مالك ، اما اذا نوى اسم معنى يضيفه الى مابعده واستقام به المراد فانه

يلتحق بسائر الجمل التي يحذف فيها المضاف لقرينة تشير اليه

ومن هذا القبيل انكار الحريري لقولهم « هو قرابتي » وليس بمنكر من القول متى علم المتكلم بان القرابة مصدر وعمد الى اطلاقه على ضرب من المجاز أو التقدير ، ويدخل في هذا الصدد حكم صاحب المصباح على قولهم «اذن المصر» بالخطأ مع ان اسناد الفعل الى زمانه على وجه المجاز ليس بعزيز ، وانما يحكم عليه بالخطأ اذا لم يصدر من بليغ ينحو بالكلام نحو خلاف الظاهر . ويشبه كل هذا قول ابن قتيبة في أدب الكاتب «الملة يذهب الناس الى أنها الخبزة »فيقولون : اطعمنا ملة . وذلك غلط انما الملة موضع الخبزة قال ابن السيد في شرحه «وليس يمتنع عندي ان تسمى الخبزة ملة لانها تطبخ في الملة كما يسمى الشيء باسم الشيء اذا كان منه بسبب أو يخرج على حذف المضاف أي خبز ملة »والصحيح ما عرفته من ان التخطئة في مثل هذا او التصويب مما يرجع فيه الى حال المخاطب اذ الذي يطلق الملة على نفس الرغيف ويظهر لك من قرينة حاله أو صريح مقاله انه اطلقها عن اعتقاد أنها موضوعة له بوضع حقيقي لا يخلص من سهام التخطئة ولو احتملت عبارته وجوهاً في التأويل متعددة

وحكم ابن قتيبة على قول العامة «تجوع الحرة ولا تأكل ثدييها » بانه خطأ ، وقال : الصواب بثدييها . فقال ابن السيد أما مايذهب اليه العامة من ان المعنى لا تأكل لحم ثدييها فهو خطأ ، ولكنه يجوز على التأويل بحذف المضاف أي اجر أو ثمن ثدييها أو على المبالغة بجعل أكلها لاجر ثدييها بمكان أكل الثديين انفسهما . والتفصيل الذي سبق من النظر في مثل هذا الى حال المتكلم يجري هنا لولا ان العبارة مثل ، فمن قصد بها ضرب المثل على ماورد فقد اخطأ من جهة تحريف المثل وان كان التركيب في نفسه صحيحا

وجه اختلافهم في القياس

من الجلي ان العرب لم يصرحوا بعمل القياس في شيء من أوضاع كلامهم وانما علماء اللسان يتتبعون موارده ويتعرفون احواله فاذا وقعوا على حال في مفردات الالفاظ أو مركباتها قدعمل العرب بها على وجه منضبط ركبوا منها قاعدة ليقاس على تلك الموضوعات المسموعة مالم ينقل من نظائرها

فمن اسباب اختلافهم في القياس ان يتوفر لدى العالم من استقراء الآحاد

ما يكفي لتركيب القاعدة فيجيز القياس ، ولا يبلغ الآخر بتتبعه مقدار ما يؤخذ منه حكم كلي فيمنع أن يكون مقيساً

وقد يتساوى الفريقان فيما عرفوه من الشواهد ويكتفي به احدهما في فتح باب القياس عليه ، ويستقله الآخر فلا يتخطى به موضع السماع . وهذا كاختلافهم في فعل المعتل العين فيظهر من كلام سيبويه ان جمعه على افعال مطرد . وذهب ابن مالك في التسهيل الى انه غير مقيس ، ويرجع خلافهما الى ان ماورد من نحو مال واموال وخال وأخوال وحال واحوال وناب وانياب وباب وابواب هل بلغ مقداراً يكفي لان يجعله مطرداً أم لا ؟ ومن هذا القبيل اختلافهم في جمع الجمع ، فقد ورد منه نحو العشرين كلمة ، وسبب اختلافهم في جعله مقيساً انما هو تفاوت أنظارهم في ان ما سمع — : هل هو من الكثرة بحيث يقاس عليه او انه لاينهض به حتى يجعله مطرداً ؟

وقد يختلفون في القياس نظراً الى مايقف لهم من الاحوال التي تعارض السماع ، فالكوفيون الذين يكتفون في بعض الاقيسة بالشاهد الواحد قالوا : ان صيغة المبالغة فعال ومفعال وفعول لاتعمل عمل اسم الفاعل . واخذوا يؤولون الشواهد التي سردها البصريون واعتذروا عن عدم قبولها والاخذ بظاهرها بان اسم الفاعل انما عمل لشبهه بالفعل المضارع في وزنه والصيغ المذكورة لم تحرز الوزن الذي قرب اسم الفاعل من اصله الذي هو المضارع ، والحقها البصريون بمنزلة اسم الفاعل حسب ما شهدت به الرواية وهدموا مااعتذر به الكوفيون اذ قالوا في جوابهم : ان المبالغة التي قوي بها المعنى في تلك الابنية جبرت مانقصها من الشبه في اللفظ ، فتقابل مشابهة اسم الفاعل للمضارع في اللفظ بزيادة المعنى الذي اختصت به أبنية المبالغة فتحصل الموازنة والتساوي في طلب العمل من غير تفاوت .

تعارض السماع والقياس

اذا تتبعنا جملة من أقوال العرب حتى قامت لنا من استقرائها قاعدة ، ثم وقعت الينا أمثلة نطقوا فيها على خلاف ما تقتضيه هذه القاعدة ، فهل نأخذ في هذه الامثلة بالقياس أو نقف فيها عند حد السماع ؟

هذا النوع تعددت صوره وتشعبت مقالات العلماء في حكمه ، ونطلق

عليك ماتراه صفوة آرائهم وخلاصة بحثهم

للامثلة الواردة على خلاف ما تقرر في الاصول أربعة أقسام (أحدها) كلمة أو كلمات قليلة تدور في مخاطباتهم كثيرا ولم ينطقوا فيها على وفق القاعدة ولو مرة مثل استحوذ واستصوب اللذان وردا على خلاف القاعدة القاضية بقلب واوهما ألفاً نحو استقام واستعاذ . وهذا القسم يجب استعماله على ماسمع من العرب ولا تنتقض به القاعدة ولا يقاس عليه غيره

(ثانيها) ما يجيء مخالفا للقاعدة في أكثر مخاطباتهم وورد على وفق القاعدة في أمثلة قليلة كاطرادهم اسم الفاعل من أبقل على وزن فاعل فقالوا «مكان باقل» وقياسه « مبقل » وقد تكلموا في بعض الاوقات ، ومن هذا قولهم في أفعل التفضيل من الخير والشر «خير وشر» وقياسه« أخير وأشر» وقد نطقوا به في بعض الاحيان ، وهذا يجوز لك العمل فيه على الوجهين بيد إن الوجه الاكثر في السماع أرجح لانك تتكلم بلهجة قوم رجحوه ولانه مألوف عند المخاطبين أكثر من الوجه الذي قل في السماع

وما ورد في القراءة الصحيحة مخالفا للقاعدة والمسموع من كلام العرب فيما يظهر كقراءة « معائش » بالهمزة نعطيه حكم هذا القسم فنستعمل معايش مهموزة وغير مهموزة ولا نقيس على المهموزة غيرها مما كان على وزن مفعلة

(ثالثها) مالم يدر في كلامهم كثيرا وانما هي الكلمة أو الكلمات ترد في شعر أو نثر نادر مخالفة للقاعدة مثل ماحكي من قولهم « فرس مقوود ورجل معوود من مرضه» فهذا لايؤخذ به في استعمال الكلمة نفسها فضلا عن ان يتخذ قياسا.

(رابعها) أمثلة كثيرة تجيء على خلاف ماوضعوه قاعدة؛ وهذا يحتمل ثلاثة أنظار (أحدها) طرح هذه القاعدة وعدم العمل عليها لانها ركبت على استقراء ناقص جدا (ثانيها) الاعتداد بها واجراؤها فيما لم يسمع فقط ثم الاقتصار فيما خالفها على ما ورد به السماع (ثالثها) التمسك بها والعمل عليها فيما سمع مخالفا لها ايضا بحيث يكون اللفظ ذا وجهين، وهما الوجه المسموع والوجه الذي تقتضيه القاعدة

ومن مواقع هذه الافكار مصادر الفعل الثلاثي ، قال أحد النحاة: انما يعتمد فيها على السماع ولا يصح القياس على ضوابطها ولو عدم السماع لانها كثيرة الانتقاض. وذهب سيبويه الى القياس عليها فيما اذا ورد فعل ولم نسمع كيف تكلموا بمصدره ولا يصح ان نقيس مع وجود السماع . وأجاز الفراء

القياس عليها ولو فيما ورد السماع على خلافها

ومقتضى مذهب الفراء حيث اجاز القياس في قواعد كثيرة الانتقاص وهي مصادر الثلاثي ولو فيماورد السمع بخلافها انيجيز القياس فيما ورد بهالسمع مخالفاً للقواعد الثابتة كقاعدة التصغير واسم الفاعل بأحرى ، فيصح على هذا اخذ اسم الفاعل من شاب في صيغة فاعل وان كان المسموع أشيب ، وتصغير ليلة على لييلة كما قال المتنبي « لييلتنا المنوطة بالتنادي »

وان كان الوارد في تصغيرها ليلية . ويستفاد من عبارة صاحب التاج ان هذه الطريقة أعني طريقة الفراء تجري في مصادرمافوق الثلاثي أيضاً حيث قال عند قول صاحب القاموس « التبيان ويفتح مصدر شاذ » والفتح غير معروف الا على رأي من يجيز القياس مع السماع وهو مرجوح

القياس في الاشتقاق

لا يجب على الناظر في المشتقات من اسم فاعل ومفعول وأفعل تفضيل واسم مكان وزمان وآلة عند مايريد انشاء قواعدها ان يستقري جميع آحادها فانه يتعذر عليه الوصول الى هذه الغاية نظراً الى سعة اللغة وانتشارها الى ما لا يمكن الاحاطة به ، وانما يتتبع من جزئياتها الى ان يأتي على مقدار يفيد ظناً قوياً وثقة بأن اللغة جارية في مثله على اعتبار قاعدة ، والذي لايبلغه استقراؤه يكون قاصداً لاجرائه في الكلام على مايطابق هذه القاعدة ، فيصح لنا ان نحمل على شاكلتها في كل لفظ يتفق دون ان نتوقف على سماع

وهاهنا اشكال لايزال يتردد على السنة طلاب العربية ، وهو ان واضع القاعدة اذا لم يلزمه استقراء جميع جزئياتها ويكفيه ان يتقصى جملة منها فما باله يصرح في بعض الافعال والمصادر - مثل ويح وويل ونعم وبئس وعسى وليس ويذر - بأنها لا تتصرف ولا يصح ان يشتق منها اسم فاعل او اسم مفعول او افعل تفضيل ؟ وأي فرق بينها وبين مالم يبلغه استقراؤه من المصادر والافعال فيسوغ لنا ان ناخذ منها أوصافاً ولا يجوز لنا ان ناخذ مثل ذلك من ويل ونعم وما شاكلها من المصادر والافعال التي يصفونها بالجمود ؟

وجواب هذا ان الافعال والمصادر التي لم يسمع لها فروع في الاشتقاق جاءت على ضربين (احدهما) مايكثر استعماله في موارد كلام العرب من غير أن

يتصرفوا فيه مثل ويل وويح ونعم وبئس وما يماثلها ، وعدم تصريفهم لها مع كثرة ترددها في محاوراتهم ومخاطباتهم دليل على قصدهم لابقائها على هيأتها فمن تصرف فيها فقد أتى بها على وجه قصد العرب الى تركه ، والناطق بما يقصدون الى اهماله ناسج على غير منوالهم وناطق بغير لهجتهم

(ثانيها) ما لا يكثر في مخاطباتهم ولا يدور على ألسنتهم حتى يستفاد من وروده بهيأة واحدة انهم قصدوا الى ترك تصريفه ؛ وهذا هو الذي نعمل به على طبق القاعدة وان لم يبلغنا او يبلغ الواضعين للقواعد ان العرب تلفظوا فيه بصورة موافقة لها ، فيصح لواضع القاعدة او مقلده متى اطلع على فعل او مصدر من هذا النوع ان يشتق منه وصفاً بمقتضى القاعدة وان لم يره مستعملا في العربية الفصحى . قال ابو عثمان المازني : ماقيس على كلام العرب فهو من كلام العرب ألا ترى انك لم تسمع انت ولا غيرك اسم كل فاعل ولا مفعول وانما سمعت بعضها فقست عليها غيره. وقال ابن جني بعد ان سرد امثلة من اسم المكان والمصدر الوارد ان على وزن اسم المفعول - : هذا كله من كلام العرب ولم يسمع منهم ولكنك سمعت ما هو مثله وقياسه.

فاذا اشتق العرب صيغة للدلالة على معنى واستعملوها في أمثلة كثيرة فانا نأخذ فيها بمذهب القياس ، ولهذا ترى سيبويه يصرح باطراد ما كان على وزن فعال من أسماء الافعال كنزال ودراك ، وخالفه المبرد فقال هو مسموع فلا يقال قوام وقعاد اذ ليس لاحد ان يبتدع صيغة لم تقلها العرب ، وقد عرفت ان الذي يفرغ الكلمة في قالب أبرزت فيه العرب أمثلة كثيرة على وجه منتظم لايقال عليه انه ابتدع صيغة لم يقلها العرب ، وليس للمبرد سوى ان ينازع في المقدار الذي سمع من صيغة فعال فيرد القياس بأن المقدار المسموع فيها لا يكفي في الدلالة على قصدهم لاطرادها

وجرى الشيخان في صيغة فعال الواردة في النسبة نحو بزاز وعطار على عكس هذه المسألة فذهب سيبويه الى انها غير مقيسة مع اعترافه بكثرة مواردها ، ورأى المبرد ان المقدار الوارد من أمثلة هذه الصيغة يكفي لجعلها قياسا فيقال عنده لصاحب الدقيق دقاق ولصاحب الفاكهة فكاه ولصاحب الشعير شعار : وقول صاحب القاموس ويقال لصاحب الحبر حبري لاحبار مطابق لمذهب سيبويه

(يتبع)

الرحلة السورية الثانية

٦

ذكرنا في النبذة الخامسة التي نشرت في الجزء الخامس ان مسلمي بيروت قد تجدد لهم ثلاث حالات اجتماعية وتكلمنا على الاولى منهن وهي المتعلقة بالنساء فبقي ان نقول كلمة في كل من الحالتين الاخريين وفاء بالوعد

(اتفاق المسلمين والنصارى)

الحالة الثانية الميل الى الاتفاق مع النصارى وهذه ليست جديدة بالمعنى المتبادر من الكلمة وهو انها حدثت بالتطور الذي أحدثته الحرب الاخيرة وما تولد منها، بل كانت من تأثير تطور سابق عليها نبه العرب كغيرهم الى المحافظة على جنسيتهم وكان السوريون أسبق العرب الى التنبه والبحث في ذلك من حيث ان لهم وطنا خاصا له حدود ومصالح خاصة لا تشاركهم فيها الاقطار العربية الاخرى وأهله مؤلفون من أصحاب ملل ومذاهب يرجع أكثرها الى فريقين محمديين ومسيحيين ، بحيث يتوقف عمران البلاد وارتقاؤها على تعاون الفريقين وان كان أكثر مجموع أهالي — البلاد في غير لبنان — من الاولين كما أن أكثر رقبة الارض لهم

فالحق ان الشعور بالحاجة الى الاتفاق بين المسلمين والنصارى عدة محركات الحرب، وثلاثة قبلها وواحد بعدها، والاخير الذي سبق الى ذهننا عند كتابة النبذة الخامسة من الرحلة . أما المحرك الاول فهو الدستور الذي عنى لآمال بوطنية جديدة عثمانية تقضي على دسائس التفرق في المصالح الوطنية بين الملل والنحل، ولكن لم تلبث هذه الآمال ان خابت فكانت خيبتها محرك أقوى وهو اضطهاد الاتحاديين العرب واجتهادهم في صرف قوى الدولة الى تقوية الجامعة التركية الطورانية وأكراه سائر الشعوب العثمانية على الاندغام فيها بمحو لغتهم وجميع مميزاتهم القومية والوطنية ولا سيما السوريين والعراقيين من العرب، وتلا هذا المحرك الثالث وهو حرب البلقان التي انكسرت فيها الدولة انكسارا حرك المطامع الاوربية المستعدة للوثوب الى البلاد العربية لاستعمارها — وعلى اثر ذلك تألف حزب اللامركزية في مصر وجمعية الاصلاحية في بيروت من المسلمين والنصارى ، وباتفاق الحزبين مع بعض شبان السوريين المتعلمين

بتلقي المسلم في أوربة تكون المؤتمر السوري وجعلت رياسة ادارته لحزب اللامركزية لانه أقوى الاحزاب وأمهرها وأعمها

واما الحرب فقد كانت بويلاتها ومصائبها محركا انسانيا وطنيا للتعاطف والتراحم كما وصفنا في هذه الرحلة ووصف غيرنا من الكتاب في الجرائد السورية في جميع الاقطار

واما المحرك الاخير وهو الاحتلال فقد كان يجب ان يكون ـ بعد تلك الحركات الممهدة او المؤسسة ـ هو المتمم للبناء ولكنه كان هادما للاساس والقواعد وراجعاً بهؤلاء السوريين المساذين الى شر مما كانوا عليه قبل تلك التطورات أو الحركات الدافعات لكل فريق الى السعي للاتفاق مع الآخر وتكوين جامعة وطنية، وقد كان كل فريق مؤاخذاً في هذا اللوم الذي كان مظهراً لفقد التربية الوطنية والقومية وتغليب التعصب الديني على كل ماسواه حتى كأنه ـ او لانه ـ قد صار غريزةاو ملكةراسخة لاتزول الا بجهاد طويل ينقرض فيه جيل ويتجدد جيل

ذلك بان الاحتلال المختلط الذي تلا جلاء الترك عن سورية كان مذبذباً فقدسبق الامير فيصل بجنوده ورجاله الى احتلال البلاد باسم الحكومة العربية ورفع على معاهدالحكومة في مدنها علمه العربي الحجازي وكان الاهالي قد سبقوا الى تأليف حكومة وطنية مؤقتة وتلاه الاحتلال المختلط المثلث تحت قيادة الانكليز فالقسمة المثلثة فالقسمة الثنائية، ولما جاء رجال فيصل اولا خضع لهم الجميع ورفعت الحكومة اللبنانية علمه على دار الحكومة في(بعبدا) وكانت المبشرات بالثورة العربية والحكومة العربية الجديدة التي ستنقذ البلاد من الترك (١) قد تغلغلت في البلاد بسعي الدولة البريطانية فكان مجيء رجال فيصل واستيلاؤهم على مصالح الحكومة منتظراً وعده الاهالي أمرا متفقا عليه بين الحلفاء ومنهم ملك العرب. فتلقاه النصارى كالمسلمين بالرضاء والتسليم .

وههنا ظهر تقصير المسلمين وجهلهم بالسياسة وطبائع الاجتماع اذ شكلوا الحكومة السورية المؤقتة اولا والحكومة العربية ثانيا من انفسهم ولم يطلبوا كبراء النصارى في الجاه والعلم الى التشاور والاشتراك في تأليفها، وقد بحثت في هذه المسألة في بيروت وغيرها فاعترف لي بعض من ذاكرت فيها من المسلمين بالتقصير وانه لم يكن سوء نية اذ لم يكن عن تشاور بين المسلمين أنفسهم حتى

لاعمال في ذلك فردية فلم يحصل منهم في وظيفة باسم الدولة. وانما كان حرص
ـمي الى ذلك من افراد المسلمين لما سبق لهم من التعدي لخدمة الحكومة
التعلم في المدارس العثمانية الرسمية لاجل ذلك ، وقلما كان النصارى يقصدون
لك ويستعدون له او يدخلون مدارس الدولة التي هي الوسيلة اليه . ولو كان
سلمين حزب سياسي منظم لما فاته ان يغتنم هذه الفرصة لاتمام ماتأسس في
ـع التطورات العربية من اسباب الاتفاق ودواعيه. ثم انه كان في البلاد
ـمية سياسية سرية لها علاقة وارتباط بالامير فيصل ولكن اكثر افرادها
الشبان الذين لم ترتق بهم السياسة الى مثل هذا الفكر

لم تكد تستقر الحكومة العربية الفيصلية بالاحتلال العربي حتى تبعها
احتلال المختلط من الانكليز والفرنسيس الذي قسم سورية الشمالية الى
المنطقتين: غربية ساحلية احتلتها الجنود الفرنسية وجعلت لها السيطرة عليها
ت رياسة القيادة الانكليزية المحتلة معها ، وشرقية داخلية احتلها الجند
ربي باسم حكومة الحجاز وان كان الجند نفسه مختلطا والمنظم منه مؤلفا من
سوريين والعراقيين وقد جعل له السيطرة في هذه المنطقة تحت رياسة القيادة
بريطانية أيضاً ، وكان هذا التقسيم مقدمة لتنفيذ اتفاق سنتي ١٩١٦
١٩١٧ وقد اعتمدت السلطة الفرنسية في ادارة المنطقة الغربية على صنائعها من
النصارى ولا سيما الموارنة منهم فاكثرت من الموظفين من هؤلاء فكانت كثرتهم
ـجة لقلة عددهم من المسلمين لان اكثر أعمال الحكومة كانت بأيديهم من
د الترك ورأى النصارى ان الدولة قد دالت لهم فرحوا بذلك وسروا به ولم
كن للمسلمين يد عندهم في تلك الايام القليلة التي صار أمر الحكومة اليهم
فأعرضوا عن المسلمين بل صاروا يؤذونهم بالقول والفعل واعتزوا عليهم
ـوا عتوا كبيرا لم يفعل المسلمون شيئاً منه في دولتهم التي تعد بالايام لا بالشهور
بالسنين ، ونسوا كل ماكان قبل ذلك من حرص المسلمين على الاتفاق معهم
الحرب العامة حتى رضوا ان يكون لهم نصف الاعضاء في مجالس الحكومة
ـخبة وغير المنتخبة وذلك فوق ما تقتضيه النسبة لعددية المادلة التي تجري
جميع الدول الراقية وما كان من علمهم بعلومهم واستخدامهم في زمن
ب . وقد اشتهر ماوضعوه من الاناشيد في ذم المسلمين واهانتهم وانشدت
الشوارع والاسواق في بيروت في يوم عيد الفصح . ولولا ان اعتصم

المسلمون بالصبر والحلم لوقعت يومئذ مقتلة فاضحة تعد سبة لسورية ما بقي الدهر

على ان المسلمين لم يكونوا قد يئسوا من سعي فيصل الى استقلال جميع سورية وجعل حكومتها عربية بل كان رجاؤهم في ذلك عظيما وقد شهد لهم بعض كبراء الضباط الانكليز على المسيحيين ولا نحب ان نشرح ذلك ونطيل فيه لئلا يعد انتصارا منا لاهل ملتنا ونحن انما نكتب لاجل التأليف والاتفاق لا لتقوية الشقاق. وغرضنا ان نقول ان مسلمي بيروت شعروا في هذه الحالة بشدة حاجة البلاد في هذه المنطقة الى الاتفاق بينهم وبين النصارى على الوحدة الوطنية ولكن لم يجدوا منفذا للسعي . ويقابل ذلك في المنطقة الشرقية ـ حيث يقل المسيحيون ـ ان المسلمين كانوا والحكومة في ايديهم يجتهدون في استمالة النصارى واشراكهم في كل عمل ويودون اعطاءهم فوق مايريدون بحسب النسبة العددية وقد جرت الاحزاب السياسية على ازالة الصبغة الاسلامية من الحكومة ارضاءا لهم وظهر أثر ذلك في المؤتمر السوري والقانون الذي وضعه للحكومة السورية العامة المتحدة فانا أذكر هذا وذاك لا لتسجيل الذنب الاكبر على النصارى وتصغير ذنب المسلمين أو تبرئتهم بل لاثبت به اخلاصهم في الميل الى الاتفاق

وقد كتبت وأنا في بيروت عدة مقالات في جريدة الحقيقة بامضاء (السيد) دعوت فيها الى الاتفاق بالحجج الناهضة والاساليب الجاذبة ، واجتناب كل ما ينفر من الغاية المقصودة فظهر لها تأثير في زيادة ميل المسلمين الى الاتفاق ولم يظهر لها في النصارى الا أثر ضعيف في بعض شبان المدرسة الامريكانية الجامعة وقيل لي ان آخرين من الاحرار المستقلين قد سروا بها ولكن لم يستجب الدعوة منهم احد ، ولو لا ان كانت تلك المقالات فائضة من روح الاخلاص والانصاف والتلطف في الدعوة لوجد فيها المتعصبون من القوم والذين يخدمون سياسة التفرقة مآخذ للرد عليها ولكنهم لم يجدوا الى ذلك سبيلا ، وقد نقل الينا ان الاستعداد للاتفاق يقوى بعمل الزمان عاماً بعد عام . حقق الله الآمال

التربية الملية مع التعليم العصري

لقد نام المسلمون نومة اجتماعية أطول من نوم اهل الكهف واثقل ، الموقظات التي تصخ الاسماع تتوالى من حولهم كالصواعق وقد ضرب على آذانهم فهم لايسمعون ، ولما بعثوا وجدوا مايعرفون من سير البشر قد تبدل فصار على غير ما يعهدون ، رأوا الغربيين قد سادوا العالم وتولوا ادارة شؤونه في

بلادهم وبلاد غيرهم من حيث يشعر أولئك الاغيار ومن حيث لايشعرون ، فصاروا في امرهم لايدرون ما يصنعون

ماذا يعملون؟ ولماذا لايدرون؟ وكيف يعذر بهذا الجهل المسلمون؟ القرآن يصيح بهم من فوقهم، (ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم) وشواهد هذه القاعدة الاجتماعية القطعية بين أيديهم وعن ايمانهم وشمائلهم

صفات الانفس التي يتوقف تغيير أحوال الامم بتغيرها هي ما يبعث على الاعمال ، من علوم وأخلاق ، وهما يكتسبان بالتعليم والتربية كما ورد في حديث « العلم بالتعلم والحلم بالتحلم » فأما العلوم النظرية والفنون العملية ، فصناعات آلية ، ترتقي بارتقاء العمران، وليس لها دين ولا وطن ، بل يتبع فيها سير العمران واختلاف الزمن ، وأما الاخلاق والملكات النفسية ، التي تتجدد بها حياة الامم الاجتماعية ، فهي تختلف باختلاف الامم في المقومات والمشخصات الملية والقومية ، وتراعى فيها الغرائز القومية والوراثة الجنسية، فـ«الناس معادن كمعادن الذهب والفضة » هم كذلك في أفرادهم ، وفي جماعاتهم وأقوامهم ، فالقوم يعرض لهم القوة والضعف ، والعز والذل ، كما يعرض للمعدن الصقل والصدأ ، والتربية والتعليم للافراد والاقوام كالصقال للمعدن الذي يظهر رونقه الفطري وزينه ويعظم الانتفاع به، ولا يقصد به تبديل جنسه ونوعه بتحويله الى نوع آخر – فلماذا لم يجار المسلمون الغربيين في أساليب التربية الملية والتعليم المدني ومدارسهم بين أيديهم في ديارهم ولا سيما بيروت منها ؟ فأعظم المدارس التي أسسها الافرنج فيها المدرسة الانجيلية الامريكانية والكلية اليسوعية ، فلماذا لم يقتدوا بهم بتأسيس مدرسة قرآنية أو مدرسة محمدية ؟ على ان سائر المدارس التي أسسها الافرنج وتلاميذهم من النصارى الوطنيين دينية التربية ومنسوبة الى البطاركة والقديسين من رجال دينهم ، وياليت التربية الدينية فيها كانت مسيحية خالصة من شوائب الاهواء السياسية ، كلا ! ان كل شعب من شعوب الافرنج قد بث في مدارسه التي أنشأها في الشرق دعوة سياسية تمنع فيها من روح الدين والمذهب فكان ذلك أكبر أسباب الشقاق الديني في سورية ؛ وقد كان هذا خفيا عن الدولة العثمانية الجاهلة المتساهلة وعن أكثر الناس ولكن صار معروفا للعوام كالخواص ؛ اذ ظهر تأثيره بما تجدد من التفرق والشقاق ، بعد تلك المسائل التي مهدت للاتفاق . وهي ما أشرنا اليه في الفصل

الاول من هذه النبذة

علم مسلمو بيروت من ضرر مدارس الافرنج في هذه الايام فوق ما كانوا يعلمون وناهيك بها وقد حلها زوال الحكم العثماني من الشدة على التعدد في اكراه من يتعلم فيها من أولاد المسلمين على تعلم دروس الديانة النصرانية، وحضور وعظها وصلاتها ـ فاقترحت فئة بالقاء خطبة تلقيها دعوت فيها الى تأسيس مدرسة كلية اسلامية، ثم رغبت الى عمر بك الداعوق الذي كان رئيس البلدية ان يدعو كبار الاغنياء الملتيبة ويجتمعهم ثانية في منزله لالقاء دعوتهم الى الاكتتاب لهذا العمل فلبى بالارتياح، ولما انتظم عقدهم ألقيت فيهم خطاباً بما يقتضيه المقام من الكلام الذي يرجى ان يقع موقع الاقناع من العقول، والتأثير من القلوب، وفتح عقب الفراغ منه باب الاكتتاب فدخله الا كثرون وأرجأ الاقلون، ولكن كان ما كتبوه من المبالغ غير لائق بهذا المشروع العظيم ولا يباعث على الرجاء في النجاح فآلمني ذلك وحفزني الى القاء خطاب آخر كان شديداً يقطر بشدة تألمي وتهيج شعوري حتى قال لي صديقي احمد مختار بيهم بعد أيام انه لا يوجد أحد يقبل منه هذه اللهجة الشديدة سواك ولكن كان من تأثير الاخلاص فيه ان ضاعف كثير من المكتتبين ما كانوا كتبوه من التبرع

ثم ألفنا لجنة من كبار الوجهاء أهل الغيرة كانت تطوف على من لم يحضر ذلك الاجتماع في مكاتبهم ومخازن تجارتهم لاتمام الاكتتاب، وافرادها عمر بك الداعوق وابو علي سليم علي سلام افندي واحمد مختار بك بيهم ومحمد افندي الفاخوري ورشيد افندي اللاذقي ورشيد رضا كاتب هذا. وقد بلغ الاكتتاب بالمبالغ المنقدية بضعة الاف من الجنيهات مع اكتتاب سنوي آخر وقد سافرت الى الشام قبل اتمامه الاكتتاب ولم اقف على سيره ولكن الذي لا يخفى انهم ابتاعوا ارضاً واسعة بجوار الحرش باسم هذه المدرسة ستبنى فيها ان شاء الله تعالى

هذا ما انتهى اليه السعي من الاستعداد لهذا المشروع وهو دون ما تبيض به الوجوه، الا اذا نظر اليه من حيث انه بدء حياة اجتماعية جديدة يرجى ان تنمي وتزداد بالعمل وقد كنا معشر الساعين اليه غير مغرورين بنهضتنا ومبلغ استعدادنا ولذلك اتفقنا على انه لا يرجى نجاحه وثباته الا اذا عهد به الى جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية التي ستكون ان شاء الله تعالى من أغنى الجمعيات الوطنية فقررنا نوط العمل بالجمعية، وسعينا الى تجديد نظامها وتنظيم جلساتها

التي كانت معطلة فتم ذلك في أقرب وقت بمساعدة رئيسها صاحب الفضيلة مفتي بيروت أدام الله النفع به

ولما شعر المسيحيون بهذا السعي استكبره على المسلمين المستكبرون ، وكرهه لهم ومنهم الكارهون ، وكتبوا في جرائدهم اننا نريد لوطننا السوري مدارس وطنية ، لا مدارس دينية ، فالدين هو الذي فرق كلمتنا ، واغرى العداوة والبغضاء بيننا ، فرددت عليهم في جريدة الحقيقة بأن المدارس الدينية التي فرقت وفعلت ما نعيت هي مدارس مسيحية لا اسلامية ولا وطنية فاذا رضيتم بتركها واستبدال مدارس وطنية بها فاننا نضع أيدينا في أيديكم وأموالنا مع أموالكم وأولادنا مع أولادكم ، ولكننا نقول ان الدين لم يكن هو المفرق والمغري بالعداوة بأصوله وتعاليمه بل بسوء استعمال السياسة الاجنبية له وانّا بالتربية الوطنية يمكننا أن نجعله من أكبر أسباب الاتفاق والتعاون ، وفي نصوص القرآن والانجيل ، ما يهدي الى سلوك هذه السبيل ، وهي التي سلكها فقيد الوطن البستاني الذي اتفق المسلمون مع المسيحيين على احترامه والاحتفال في هذا العام بذكرى مرور مئة سنة من تاريخه

فهلموا ننشئ مدرسة وطنية جامعة ونجعل في جانب منها مسجدا وفي جانب آخر كنيسة ، فان التربية لا تكمل بغير فضيلة والفضيلة لاتكمل بغير دين ، وفي كل من الدينين الاسلامي والمسيحي فضائل كافية ، وهي في الاكثر متفقة أو متقاربة . فليرب كل فريق منا أولاده على عبادات دينه وفضائله ، ومحبة وطنه والتعاون على ترقيته ، على قاعدة المنار الذهبية (نتعاون على ما نشترك فيه ، ويعذر بعضنا بعضا فيما نختلف فيه) فنحن مشتركون في أرض هذا الوطن وفي جميع مصالحه الاقتصادية والسياسية ومشتركون في اللغة فنتعاون على ترقية ذلك بجميع فروعه ولسنا مختلفين الا في الدين ومذاهبه فيعذر كل منا الآخر فيه وليعلم الافراد المارقون من الدين من الفريقين انه ليس في استطاعتهم هدم الدين وهذه البلاد وما يجاورها هي مهده ومنبت الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام — أولئك العظام الذين يقدس ذكرهم مئات الملايين في الشرق والغرب ولايعدون احدا من الفلاسفة ولا من الملوك والفاتحين مساويا ولامدانيا لاحد منهم بل ولا أصحابهم وتلاميذهم الاولين ، ولا أوليائهم المخلصين ، بهذا قامت الحجة لنا عليهم والخاص في الدعوة الى المصلحة العامة لاتدحض له حجة لان الله تعالى هو المؤيد له (قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم اجمعين)

سورية عربية [1]

أولا وآخرا

للعالم الكاتب السياسي الكبير الامير شكيب ارسلان

« في البيان »

قبل ان انجلى الاتراك عن سورية كان جميع اهلها عربا ولم تكن تسمع فيها بسرياني وعبراني الا من قبيل العاديات (الآثار العتيقة) . وكثيرا ممن برزوا لنا الآن بالحلة السريانية كانوا من صميم القحطانيين يومئذ ، وذلك لأن مقصد مثل هؤلاء كان اخراج الترك حتى يحل محلهم احدى الدول الاجنبية . فلما خرج الترك وجاءت محلهم دولة عربية تريد تحرير البلاد باسم العرب وتدني كل من يريد ان ينشئ البلاد من غير العرب جدت عند بعض هذه الفئة القليلة من اهل سورية نغمة لم تكن معهودة من قبل وهي اننا نحن سريانيون غير عرب وان لغتنا هي السريانية وانما غلب علينا اللسان العربي منذ قرون ولكن بقيت لنا فيه لهجة خاصة تشعر بكوننا سريانا . . . ويا ليتهم قصروا دعواهم على هذا القول فكنا نوافقهم على كون هذه الفئة القليلة هي سريان ولكن طمحوا الى دعوى أعرض من ذلك وهي ان سورية كلها سريانية وانما بدخول العرب الفاتحين تعلم اهلها اللسان العربي وهذا غاية ما في الامر

تكررت اقاويلهم هذه سواء في جرائد عربية اللغة او اجنبية اللغة والعرب قلما يحفلون بها لخروجها من التاريخ وامعانها في التحكم وكونها غلطا او مغالطة فأوهم ذلك بعض اخواننا من ابناء البلاد انهم على حق فيما يدعون فيه

ومن هذا القبيل رسالة طالعناها آخرا تحت عنوان « الحقيقه ضالتنا المنشودة » حاول فيها الكاتب ان يثبت كون سورية سريانية لا عربية وانه لا ينبغي ان يثقل هذا القول على العرب اذ ليس فيه مساس بكرامتهم وكما لا يغض العرب ان تقول: ان الفرنسيس ليسوا عربا . الانكليز ليسوا عربا . الايطاليون ليسوا عربا . فكذلك قولنا ان السوريين ليسوا عربا وانما هم سريان . توفرت على ذلك الادلة التاريخية والاركيولوجية والانتولوجية الخ والاعتراف بالحق أولى . الى غير هذا من الاقاويل التي كنا نحب ان نطوي عنها كشحا كما طوى

(١) نقلا عن عددي جريدة الافكار البرازيلية المؤرخين ٦ و ٩ نيسان (ابريل) سنة ١٩٢١

هو عن مناظر حدث عنها . الا انه لما كان جاء من باب التاريخ والحقائق العلمية وكان من افضلاء المستقرين الخبير والآثر، المغرمين بالسير والنظار - كما يظهر من كتاباته - أحببنا أن نخوض معه عباب هذا البحث متوخين فيه الوجهة العلمية المنزلة معتمدين على التاريخ — لكن التاريخ الحقق المحض لا التخيل ولا الظن — لان الحقائق لا تكون بالظنون بل بالادلة وبعد ذلك نترك للقارئ المنصف ناشد الضالة التي أشار اليها الكاتب في رأس رسالته الحكم على نسب الاكثرية من أهل سورية أهو عربي أم سرياني .

نقول : أولا - ان العرب والسريان (والعبرانيين) هم جميعا من الشعوب السامية لانه قد اتفق المؤرخون الاثبات على كون الساميين قسمين (أحدهما) الساميون الشرقيون وهم البابليون والاشوريون ، وبعد ذلك . فالساميون الكنعانيون وهم الذين كانوا في فلسطين قبل اليهود والكنعانيون سكان سواحل سورية أي الفينيقيون واليهود والاراميون والسريانيون وآراميو فلسطين الذين نطق بلغتهم السيد المسيح عليه السلام والتدمريون والنبط

ثانيا - الساميون الجنوبيون وهم العرب وهؤلاء قسمان الشماليون وهم عدنان ، والجنوبيون وهم قحطان والعرب البائدة وعرب المهر واهل جزيرة سوقطرة وينضاف اليهم الساميون الافريقيون وهم الحبشة وهؤلاء ثلاثة اقسام وهم اليثغري والتارينة والامارينة ، وكذلك من الساميين أقباط مصر وهم والصوماليون والجبرت من جنس واحد

فالسريانيون اذاً هم والعرب من فروع شجرة واحدة متدانية الاغصان يدل على ذلك تقارب مابين لغتي الفريقين حتى لقد يفهم العربي بعض السرياني بدون تعلم بل بمجرد السماع لشدة ما بين اللغتين من الشبه ولقد اعترف بذلك الكاتب صاحب تلك المقالة ولكنه تجنب في الموضوع ذكر سبب هذه المشابهة وهو اتحاد الاصل ووشيجة الرحم بين العرب والسريان . فنسبة السريان الى العرب ليست أبداً من قبيل نسبة الفرنسيس ولا الانكليز ولا غيرهم من الشعوب الاوروبية الى العرب ، بل هي نسبة ابناء عموم السلالة بحيث ان الفرق بينهم هو كالفرق بين الفرنسوي والايطالي أو الاسبانيولي من تجمعهم اللاتينية أو هو أقل من ذلك

ثالثاً - ان اكثر المستشرقين الاوروبيين لايرون في اكثر الامم السامية

الا بطونا من العرب . وان السريانيين هم في الحقيقة الاراميون وان الاراميين كان فيهم عرب كثير لانه ليس المقصود بالاراميين شعبا ذا عرق واحد بل معنى كلمة الاراميين سكان البلاد العالية كما ان معنى كلمة الكنعانيين سكان السهول. كما انه في أواسط آسيا يوجد الايرانيون والطورانيون وقد يتوهمونهم شعبين منفصلين نسبا والحال ان معنى الايرانيين سكان الحواضر ومعنى الطورانيين سكان البوادي . ولقد ثبت كون العرب سكنوا سورية من على عنق الدهر راحلين اليها من الجنوب فدخل منهم من سكان السهول في الكنعانيين واندمج من سكان الجبال في الاراميين وهؤلاء الاراميون لم يتسموا سريانا الا فيما بعد سماهم بذلك اليونان وادعاء الكاتب ان السريانيين السوريين هم السريان اهل بابل وأشور ـ ولهذا هو يفتخر بمدنيتهم ـ هذا فيه مافيه فان المؤرخين لا يخلطون بين السريان والاشوريين كما خلط حضرته جهلا أو تجاهلا لغرض في النفس

رابعا ـ ذهب الاستاذ « سبرنغر » الالماني في كتابه « حياة وتعاليم محمد» صلعم وكتابه الآخر الشهير « جغرافية بلاد العرب القديمة » الى ان جزيرة العرب هي مهد جميع الساميين . وممن ذهب الى ذلك من فحول العلماء الاستاذ سايس الانكليزي في كتابه « أجرومية اللغة الاشورية » ومثله الاستاذ شرودر الالماني أعلن هذا الرأي في مجلة الشرق الالمانية . ومثله الاستاذ رايت في كتابه « اجرومية الالسن السامية » وهو المدرس بكلية كمبردج . ثم العلامة ماكس مولر قال هذا القول نفسه وغير هؤلاء من العلماء المحققين ذهبوا الى ان جزيرة العرب هي مهد الامم السامية باسرها فيكون السوريون بحكم الضرورة عرباً في الاصل كما لا يخفى . وذهب آخرون الى ان اصل الاقوام السامية هو من افريقية هاجروا الى جزيرة العرب وفيها نشأوا ونموا وتقرمت مميزاتهم ومنها خرجوا الى سائر الاقطار . ومن اصحاب هذا القول روبرت سميث الانكليزي وبارتون الامريكاني وغيرهما وعلى كلا المذهبين يكون مرجع السوريين الى العربية

خامساً ـ في عهد العائلة المصرية السادسة أنفذ قائد فرسان من مصر لارتياد اراضي سورية فلم يجد هناك سوى الكنعانيين ولم يقف يومئذ على أثر للفلسطينيين ولا للعبرانيين هذا في كتاب العلامة الهولندي تيل وان كثير

من المؤرخين الباحثين لا يرون في الكنعانيين الا بطنا من العرب . ثم ان المصريين الاقدمين حاربوا جيلا اسمهم الشاسو في جهات سيناء وجنوبي سورية وهذا الجيل كان عربياً

سادساً ـ الفينيقيون هم في سورية قبل السريان وقبل الاراميين وقد ذكر هيرودتس ان قسما من الفينيقيين جاءوا من جهة خليج فارس كما ان العلامة الانكليزي بنت اجرى حفريات كثيرة في جزيرة البحرين استنتج منها كون الفينيقيين من هذه البلاد وان قسما آخر من الفينيقيين جاءوا من سواحل البحر الاحمر، وعلى كلا الحالين فهم عرب من نفس جزيرة العرب . وبعد ان يثبت كون الفينيقيين عربا ـ لا يبقى محل النزاع في عروبية القسم الاعظم من أهل سورية ولا في الدرجة العليا التي يحلها العرب في تاريخ المدنية قبل الاسلام فضلا عما بعده

سابعا ـ الانباط هم عرب يمانيون وقد كانت لهم في سورية دولة ومنزلة ومدنية شامخة تدل عليها آثارهم واخبارهم وكانت لهم جرش وبصرى وتدمر ووادي موسى (بترا) واذا لم يكن من صنعهم سوى وادي موسى (ينحتون من الجبال بيوتاً فارهين) لكفى فكيف وهناك جرش تروما فيها وتدمر التي كانت عروس المشرق، ومن الانباط الحوريون الذين يقال لهم اليوم الحوارنة كانوا جنوبي نهر الاردن

ثامنا ـ عند مجيء ابراهيم الخليل الى سورية كان في هذه البلاد عنصران أحدهما الحثيث في الشمال والثاني العرب الكنعانيون والسوريون الكنعانيون في الجنوب وقد وجد ابراهيم ملكيصادق الملك الموحد الذي كان يتولى الكهنة يعبد الله العلي الأعلى وأدى اليه ابراهيم العشر وان العلامة هومل صاحب كتاب الحفريات الأثرية في القرن التاسع عشر يذهب الى ان ملكيصادق كان عربيا . فلينظر الانسان في أي دور كان العرب ملوكا ودولا في سورية

تاسعا ـ اتفق المؤرخون على كون أساس المدنيات القديمة هو الديانة والتجارة، وكل الآثار تشهد بان أكثر مراسم الديانة في سورية آتية من جنوبي جزيرة العرب . وأهم مراسم اليهودية مأخوذة من ديانة مدين وهي عمانية بحتة والفينيقيون سكان سيناء كانوا عربا من اليمن ايضا

هذا ومن اطلع على كتب وهاوزن الالماني وروبرت سميث الانكليزي

المؤرخين الباحثين في الامور الدينية ، ان أكثر هذه المسماة بالطقوس آتية من جزيرة العرب كما ان المؤرخ الاميركاني هارون بورتون ذهب الى ان كل الاديان السامية هي من العرب . أما التجارة فمن المقرر ان أكثرها كان مع اليمن وانها كانت سبب سعادة سورية حتى ان ثروة سليمان بن داود الشهيرة كان معظمها من الاتجار مع اليمن ولا يخفى انه باستمرار القوافل بين اليمن وسورية كثر طراء العرب على الديار السورية وأوطنوها وتمكنوا وتشعبوا فيها.

عاشرا ـ وجد الضجاعمة من عرب اليمن في حوران وجنوبي سورية قبل الاسلام باحقاب متطاولة . وفي زمن النبي ايليا أي قبل المسيح بنحو ستمائة سنة جاء القائد نعمان العربي من الشام يستشفي من البرص عند اليشع تلميذ ايليا. ثم كان بنو سليح وكانوا يحكمون حتى أبواب مدينة دمشق أما الغساسنة وهم من الازد من عرب اليمن أيضا فقد كانوا في فلسطين والشام وتدمر وكانت لهم القوة والصولة وبقيت عنهم الآثار الباهرة واستمر ملكهم نحو ستمائة سنة ـ فيما أتذكر ـ الى ان ظهر الاسلام. فأنت ترى تعاقب الدول العربية على سورية من ايام الكنعانيين وملكيصادق الى الانباط والعمالقة والفينيقيين الى الضجاعمة الى الغساسنة وكل من هذه الامم انبسطت وامتدت وتركت ملايين من الذراري في ارض سورية .

حادي عشر ـ كان الغالب على سورية العنصر الوارد اليها من الجزيرة العربية قبل الاسلام فكيف من بعده . وقد جاء العرب المسلمون وفتحوا البلاد واندفق سيل المهاجرة من كل حدب واستمر ثلاثة عشر قرنا الى اليوم . ومما قرره علماء التاريخ ان الحواضر السورية تكسب كثيرا من البوادي حتى ان بعضها قد ينقرض لولا طراء البادية . وليس وورود العرب على سورية وايطانهم سورية هما من قبيل الحدس والتخمين وان ذلك عقلا لابد ان يكون هكذا بل مئات الوف من أهل سورية الآن يحفظون أنسابهم ويعرفون انفسهم انهم عرب ومنهم من عنده كتابات خطية تثبت دعواه ومنهم من يعتمد على التواتر ومنهم من انقطعت به أسباب العلم عن معرفة أصله ولكنك تعرفه عربيا من سحنته

ثاني عشر ـ اما كون أهل سورية أسلموا لدن الفتح العربي فنريد عليه دليلا واحداً نريد تاريخا أو نصاً مبينا او قرينة قاطعة لايكفي في ذلك مجرد الظن لان الظن لايغني من الحق شيئا . ثم اننا لانستبعد ان يكون كثير من

الافراد عند الفتح وبعد الفتح على توالي القرون دخلوا في الاسلام ولكن لا يؤدي دخول هؤلاء الى كون السواد الاعظم من أهل سورية كانوا يوم الفتح الاسلامي نصارى أو يهوداً وأسلموا . كما ان وجود العرب نحو مائة سنة في جنوب فرنسا وتنصر من بقي منهم هناك بعد جلاء الحكومة العربية من تلك البقاع ، لا يفيد كون معظم أهل جنوبي فرنسا أصلهم من المسلمين بل يقال ان كثيرا من العائلات في هاتيك الديار ترجع الى العرب . كذلك تنصر عشرات الوف من عرب الاندلس وربما مئات الوف عند ما حملهم فرديناند وايزابلا ثم ديوان التفتيش الشهير بعدهما ثم فيليب الثاني على اعتناق النصرانية بالسيف والنار وربما خيروهم بين التنصر والجلاء فالذي عز عليه دينه جلا والذي عز عليه ملكه ووطنه تنصر ورغم هذا فلا يستطيع مؤرخ ان يقول ان اكثر سكان اسبانيا اصلهم عرب . فهذه الرواية التي معناها ان أكثر أهل سورية اسلموا عند الفتح العربي لا صحة لها ، والصحيح ان الامة الفاتحة غلبت ونمت كما هو شأن جميع الامم الغالبة وان الامم المغلوبة ضعفت وتناقصت كما هو شأن جميع الامم المغلوبة على امرها ودخل في سورية أقوام كثيرة من المسلمين غير العرب فاستعربوا وصاروا عربا منهم الاتراك ومنهم من المغول ومنهم من الاكراد ومنهم من الشركس ومنهم مغاربة دخلوا في أيام الفاطميين وغير ذلك ففاق عدد المسلمين في سورية كثيراً على عدد سائر الملل بهذه الاسباب العديدة

ثالث عشر — ينبغي لمثل هؤلاء الذين يرمون الكلام على عواهنه ويقولون ان السوريين هم سريان ان يراجعوا التواريخ العربية ما كان منها على منازل الاعراب ودخولهم في الحواضر كالقلقشندي والمقريزي وعلى تواريخ الحروب الصليبية التي حررها مؤلفو العرب وعلى كتب التراجم وأنساب بعض العائلات والعشائر وعلى أخبار القيسية واليمنية وعلى الجغرافيات العربية القديمة بحيث يتكون عندهم التصور اللازم لمعرفة الحقيقة . بل لا يكفي هذا وحده حتى يقترن بالتنقيب بين سكان البلاد وسؤال قبيلة قبيلة وقرية قرية عما يعلمون من اصولهم وبعد ذلك يظهر انه ليس الجهل الذي فشا والعلم الذي طمس هما اللذان جعلا أهل سورية يقولون « نحن عرب » بل الجهل بتاريخ العرب وبأنسابهم والاقتصار على رواية واحدة هما اللذان أديا الى القول الجديد « ان السوريين سريان » : ان العرب هي الامة الوحيدة التي يستوي عامها وخاصها

في معرفة نسبه ولم يبلغ انحطاط العلم في سورية ولاسرة ان جهل العرب فيها أصولهم وما على المرتاب الا ان يجول بنفسه في البلاد ويستقصي من أهلها من أصلهم ليلمس الحقيقة لمساً

رابع عشر ـ ان كثيرا من نصارى سورية هم من أصل عربي غساسنة وغيرهم. منهم من بقي بحوران ومنهم من جلاالى دمشق وحاصبيا وبعلبك وزحلة وجبل لبنان . ولا يلزمني الآن أن أتعرض لاسماء هذه البلدان التي تعرف أقسامها. ولعلنا نذكر ذلك مرة أخرى . وان طائفة الدروز هم من قبائل لخم وجذام وبطون أخرى جاءت آباؤهم أيام الفتح الى معرة النعمان ثم أسكنهم الخلفاء العباسيون جنوبي لبنان وان أكثر طائفة الشيعة هم من عاملة من عرب اليمن جاءوا الى الشام ونزلوا بجبل سمي بهم وهو جبل عاملة أو بلاد بشارة ولست ادعي اني على شيء من الاحاطة بأنساب عرب سورية فان ذلك بحر زاخر لاساحل له لكن المعروف منه عندنا هو مما تضيق عنه هذه العجالة. وبالاختصار فالسواد الاعظم من مسلمي سورية وطوائف سورية المتشعبة من الاسلام هم عرب ثم مستعربون من أمم غير سامية . وان قسما عظيماً من نصارى سورية هم عرب صراح لاجدال فيهم وان بين الطائفة المارونية ذاتها التي تنتسب الى السريانية بطوناً كثيرة عربية جلت الى لبنان من حوران باعتراف المؤرخين اللبنانيين من أهل التحقيق ،وسواء اراد بعض السريان أن يفصلوا أنفسهم من العرب بعد أن استعربوا منذ دهور أو لم يريدوا فان الاكثرية الطاحنة في سورية هي للعرب الحقيقيين . انتهى

شكيب ارسلان

حاشية للمصحح: هل كان التغلبيون الذين حاربوا مع عبد الملك ضد خلافة عبد الله بن الزبير مسلمين ؟ هل كانت جيوش العرب المتنصرة التي حاربت مع العرب في العراق ضد العجم مسلمة ؟ هل ينكر ان بني الخازن وبني حبيش وآل شهاب وآل ابي اللمع من نصارى لبنان — وهم من علية طوائف لبنان — غير نصارى ، ولا عبرة بان هذه الطوائف ارتدت ولكن : هل هي عربية أم عجمية ؟ و كتبه صالح مخلص رضا

ترجمة فقيد العلم والاصلاح

أحمد فوزي عمران

بقلم شقيقه محمد بسيوني عمران في (جاوه)

حضرة العلامة المفضال ، ذي الفضل والكمال ، سيدي الاستاذ السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار الاغر متعني الله والمسلمين بوجوده الشريف

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد فاني أكتب اليكم اليوم ويدي مضطربة وقلبي مملوء حزنا وأسى والهموم مسدلة على القلوب لما رزئنا بل رزئت به سمبس كلها من فقد شقيقنا العزيز أحمد فوزي عمران ليلة الخميس الواقعة في ٢٧ شعبان المعظم سنة ١٣٣٩ الموافقة ٥ مايو سنة ١٩٢١

ألا ان مصيبتنا في فقيدنا المرحوم كبيرة كما كان رجاؤنا فيه لاصلاح الأمة كبيراً . لما رزقه الله تعالى من الاخلاق القويمة والصفات الكريمة ، فكان رحمه الله مخلصا قوي الايمان ، قائما بالواجبات ، منزها عن الفواحش والمنكرات صادقا في الجد والهزل ، عالي الهمة ، قوي الارادة ، ساعيا في مصلحة الامة ، محبا للعمل ، متواضعا ناصحا أمينا ، صابرا حليما ، عزيز النفس ، مكرما محبوبا من أقاربه وأصحابه وقومه وجميع من عاشره من مختلفي الاجناس

ولكن الله سبحانه وتعالى لم يحقق رجائي ورجاء الامة فيه فلله ما أعطى ولله ما أخذ ، انا لله وانا اليه راجعون ، ألا الى الله تصير الامور

ولد رحمه الله تعالى يوم السبت غرة شعبان المعظم سنة ١٣٠٦ ولما بلغ ست سنوات من عمره علمه والدنا الشيخ محمد عمران مهراج امام فاضي سمبلس قراءة القرآن الشريف ثم أدخله في مدرسة الحكومة الهولاندية ليتعلم فيها الكتابة الملاوية ومبادئ الحساب وأنا يومئذ في مكة المكرمة أطلب العلم فيها ففاق رحمه الله في المدرسة أقرانه وتقدم عليهم ، ولما أتم دروسه فيها لم يلبث أن طلبته الحكومة معلما في هذه المدرسة . وفي سنة ١٣٢٨ قويت رغبته في تعلم اللغة العربية والعلوم الدينية وكنت أنا منذ سنتين ونصف جئت من سفري من مكة المكرمة فقلت له : ان أردت أن تتعلم اللغة العربية والاسلام

والعلوم الدينية والدنيوية (تمدرية) فاذهب الى مصر وأنا أذهب معك فاتفق رأينا وطلبنا من الوالد رحمه الله الاذن بالسفر الى مصر رأسا لاجل طلب العلم فيها فلم يستطع مخالفتنا في ذلك ، وأخبر الوالد رحمه الله مولانا السلطان محمد صفي الدين بمرادنا فسره ذلك الخبر وقال له : انا نرجو ان يكون ولداك نبراسا لبلادنا .

وفي شهر ذي القعدة الحرام سنة ١٣٢٨ سافرت أنا والفقيد رحمه الله وأحمد سعود وسعد علي من أهل بلدنا الى مصر القاهرة ذاكرين اسم الله وناوين طلب العلم فيها وفي يوم ١٣ ذي الحجة الحرام سنة ١٣٢٨ وصلنا الى مصر القاهرة ونزلنا في بيت مصلح الامة العالم العلامة مولانا السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار فاننا لم نكن نعرف غيره من الناس في مصر ولا محل لرجائنا في تحقيق أملنا وأملنا لتحصيل ما سافرنا وهاجرنا اليه غير هذا المصلح العظيم ، وما كنت أعرفه ولا أرجو فيه مارجوناه الا بعد قراءتي المنار فاني اشتركت فيه منذ سنتين قبل سفرنا الى مصر ، وقد قابلنا في محطة مصر شقيقه الفاضل السيد صالح رضا وكان السيد صاحب المنار ينتظرنا في منزله الشريف ولما دخلنا وسلمنا عليه قابلنا بحفاوة واكرام على عظم قدره وعلو مقامه ، وأكرم مثوانا وضيافتنا ولم ننتقل من بيته الا بعد أيام — جزاه الله عنا خير الجزاء — وكان أول ماسألني عن أحوال مسلمي جاوه وملايو فأخبرته بما علمت وظهر لي انه متأسف من انحطاطنا في الامور الدينية والدنيوية وانه مهتم بأمورنا الدينية بل والدنيوية . ولم يكن أحد منا يعرف اللغة العربية سوى كاتب هذه الاسطر

وكنا نود لو نقرأ على السيد ونتعلم منه العلوم العربية والدينية وغيرها من العلوم العصرية ولكن لم يجد وقتا لذلك لكثرة أشغاله واشتغاله بما هو أكبر من أقرائنا وتعليمنا من الاصلاح الديني والدنيوي العام ومع ذلك لم تفتنا ارشاداته وافاداته وذلك قبل تأسيس مدرسة دار الدعوة والارشاد ، وأما بعد تأسيسها وفتحها فقد كنت أنا والفقيد رحمه الله نحضر دروس التفسير والتوحيد التي ألقاها السيد في المدرسة ولم نحرم ولله الحمد ما كنا نوده ونتمناه وكنت أنا والفقيد رحمه الله نتعلم في الازهر الشريف ويأخذ كل منا معلما خصوصيا بأجرة وبغير أجرة .

وكان رحمه الله يقرأ النحو والصرف والفقه ويشتغل بحفظ اللغة العربية، ولم يمكث سنة واحدة بمصر الا وهو يعرف النحو والصرف وينشئ باللغة

العربية ثم أسست مدرسة دار الدعوة والارشاد بالروضة بجهة مصر القديمة وكان ناظرها ومديرها العلامة صاحب المنار ودخلت أنا والفقيد رحمه الله تعالى في هذه المدرسة المباركة بعد امتحاننا فيما اشترطته في طلابها من العلوم التي تعلموها وكان الفقيد رحمه الله تعالى يجاري طلبة المدرسة المصريين الذين طلبوا العلم في الازهر نحو ثماني سنين في العلوم التي تعلم فيها غير أنه رحمه الله لم ينطلق لسانه بالتكلم باللغة العربية انطلاق ألسنة المصريين . وفي سنة ١٣٣١ سافرت الى وطننا سمبس والفقيد لم يزل يطلب العلم في المدرسة ، ويشتغل بالمطالعات والمذاكرات والمكاتبات ، ثم خرج من المدرسة واتخذ معلمين خصوصيين لم يفارقهما حتى سافر الى سمبس أول سنة ١٣٣٥ ، وكان قصده التوجه أولا الى مكة المكرمة لاداء فريضة الحج ثم الى وطنه ولكن لم يحصل على أذن الحكومة المصرية في السفر الى الحجاز (كانت الأيام أيام الحرب الاوربية الهائلة التي كانت الانكليز تخاف فيها السياسة) وكان رحمه الله متهما بالاشتغال بالسياسة لما وجدته الحكومة المصرية من بعض كتبه الي الذي فيه ذكر أخبار الحرب، وكان لا يكتب الي الا باللغة العربية.

ولما وصل الفقيد رحمه الله تعالى الى سمبس أحبه مولانا السلطان وازداد رغبة في انشاء مدرسة تعلم فيها اللغة العربية وعلومها والعلوم الدينية والدنيوية كالجغرافية والحساب ، وأمر الفقيد بتأليف نظام المدرسة المرغوب وجودها في سمبس فألف رحمه الله نظاما بموجب الامر السلطاني مقتبسا من نظام مدرسة دار الدعوة والارشاد

وفي شهر ذي القعدة الحرام سنة ١٣٣٦ تأسست في سمبس والحمد لله مدرسة عربية دينية تسمى « المدرسة السلطانية » وكان ناظرها ومديرها وأكثر أساتذتها فقيدنا المرحوم المأسوف عليه فكان الاقبال على هذه المدرسة أطال الله عمرها عظيما من أهل البلد فأدخلوا فيها أبناءهم وبناتهم حتى خرج كثير من طلبة مدرستي الحكومة وانتظموا في سلك تلاميذها ، ومن يوم تأسست المدرسة وفتحت كان وما زال رحمه الله يشتغل بالتعليم فيها الى ١٠ رجب الفرد سنه ١٣٣٨ الموافق ١ مارث سنه ١٩٢٠ فانه رحمه الله استأذن مولانا السلطان في السفر الى الحجاز لاداء فريضة الحج وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة

(المنار ج ٨)

وفي ٢٣ رجب سنة١٣٣٨ الموافق١٣ ابريل سنة ١٩٢٠سافر رحمه الله الى سنغافوره فالى مكة المكرمة ، وقبل أداء فريضة الحج حصل له فيها نزيف شديد من فه فذهب مسرعا الى طبيب الحكومة الحجازية وفحصه ثم فحصه وعالجه طبيب جاوي أرسلته الحكومة الهولاندية الى مكة وقال له : ان هذا الداء هو السل وانك لا بد ان تسافر سريعاً الى جاوه — وبعد أن أدى رحمه الله فريضة الحج سافر الى سمبس ولم يمكنه السفر الى المدينة المنورة طبعاً وفي يوم الاثنين الواقع في ٥ صفر ١٣٣٩ وصل رحمه الله الى وطنه وهو لم يزل مريضاً نحيفا وبعد اسبوع ذهب الى سنكاوغ (احدى قرى سمبس) لاجل التداوي عند طبيب الحكومة الهولاندية فقال له الطبيب الهولاندي انك لابد ان تعالج في بتاوي فاني لايمكنني ان اعالجك هنا وفي ٣٠ صفر ١٣٣٩ سافر الى بتاوي ودخل الى أحد المستشفيات هناك ثم نقل الى مستشفى في بوقر وكان لا ينقل الى هذا المستشفى الا من تقدمت صحته ، وفي ٨ رجب ١٣٣٩ وصل رحمه الله تعالى راجعا من بتاوي الى سمبس فسررنا سرورا عظيما لانا ظننا أنه قد شفي شفاء تاما اذ لم نر فيه الا سعالا قليلا ، وفي يوم ١٦ شعبان سنة١٣٣٩ عاوده نزيف الدم وازداد مرضا ، وفي ليلة الخميس عند الساعة الثانية ونصف عربية الواقعة في ٢٧ شعبان سنة ١٣٣٩ خرجت روحه الطاهرة بعد ان نطق بالشهادتين فحصلت الضجة والجزع والحزن من أقاربه خاصة ومن الناس عامة فلا حول ولا قوة الا بالله العظيم

كان رحمه الله تعالى أديبا ، وخطيبا وسطا ، وشاعرا قليلا ، وكان له في العلوم العربية نصيب وكذا في العلوم الرياضية والعصرية والدينية ، ويدل على ذلك مقالاته التي كتبها باللغة العربية والملاوية، وكان محررا بجريدة الاتحاد الملاوية التي كانت تصدر بمصر القاهرة ، وكان رحمه الله يقرأ المنار من يوم عرف العربية وكان آخر قراءته له الجزء الثاني من المجلد الثاني والعشرين وله مقالة نشرها المنار أيام كان بمصر . ومن أثر اجتهاده وحسن طريقته في التعليم أن تعلم وفهم في مدة سنتين عدة أشخاص من تلامذته اللغة العربية والنحو والصرف فهما مكنهم من قراءة وفهم الكتب العربية السهلة العبارة ومن الكتابة باللغة العربية على انهم لم يكونوا يعرفون شيئا ما من اللغة العربية قبل دخولهم المدرسة — ولذلك لما وصل الفقيد رحمه الله من سفره تمنى كل

من تلاميذ المدرسة ذكوروا واناثا ان يعود اليها معلما ولكن: ماكل مايتمنى المرء يدركه ، وان ارادة الله فوق كل ارادة وقدرته تعالى نافذة وليس لنا الا الرضاء والتسليم لحكمه وقضائه .

وقد قال كثير من الناس بعد وفاة المرحوم : ان المدرسة تموت قريبا فانه ليس فيها معلمون أكفاء ، والسبب الاول في موتها عدم الاموال التي تحيا بها والمسلمون بخلاء ضعفاء في الاحوال المالية .

هذا وإني ذكرت ماذكرت من الاطراء والثناء على شقيقي رحمه الله وهو حق ان شاء الله تعالى ، ولا فائدة لي ولا له في ذلك مالم يستحقه . وشهد له بذلك جميع من عرفه من أهل العلم والفضل الذين يقدرون الفضيلة حق قدرها كما تشهد له به آثاره التي لا موضع لذكرها هنا .

سمبس برنيو الغربية تحريرا في ٩ شوال سنة ١٣٣٩ هالموافق ١٦ يونيو ١٩٢١

كتبه

محمد بسيوني عمران

تقريظ المطبوعات (١)

(كتاب تنوير البصائر ، بسيرة الشيخ طاهر)

صفحات هذا الكتاب ١٥٩ بقطع رسالة التوحيد ومواضيعه ٥٣ وقد طبع بدمشق الشام بمطبعة الحكومة العربية السورية (السابقة) سنة ١٣٣٩ على ورق جيد . ويطلب من مؤلفه الشيخ محمد سعيد الباني بدمشق الشام

(شيء من مواضيع الكتاب)

المقدمة من المؤلفين والكتاب من يفترص لما يريد اذاعته فرصة سانحة فيبدي فيها بعض ما يريد نشره ومؤلف هذا الكتاب الشيخ محمد سعيد منهم لانك اذا قرأت الكتاب وأردت أن تأخذ منه سيرة الفقيد مجردة — كما يحب المؤلف — لا تكاد تثبت منه الربع وأما الثلاثة الارباع الباقية فهي مواضيع

(١) كتب تقريظ هذا الكتاب وترجمة الشيخ طاهر شقيقنا السيد صالح مخلص رضا

وآراء في الاصلاح والتراجم والنقد ، فهذه المقدمة وهي من ص ٥ - ١٤ ليس فيها شيء من سيرة المترجم له بل هي مقالة في الدين ولزومه والبدع والمبتدعة الخ

أعماله وآثاره . ذكر في هذا الموضوع ما كان من أعمال الفقيد من الاجتهاد في اصلاح الكتاتيب والمدارس الرشدية وبعض مؤلفاته وما عدا ذلك فهو في انتقاد العلم وكتبه الخ

استثارته دفائن اللغة العربية . هذا الموضوع في أربع صفحات لم يكن فيها شيء عن الفقيد يزيد على نصف صفحة على انه لم يذكر فيه شيئاً من تلك الدفائن ولا ما استثاره منها وبعثه من مرقده ، فهل كان كتاب المخصص من جملة ما أحياه ؟

عنايته باحياء التاريخ . هذه النبذة استغرقت من الكتاب مايقرب من أربع صفحات لم يكن فيها شيء عن الفقيد سوى ما ملخصه « عني فقيدنا باحياء التاريخ وارشاد المسترشدين وغيرهم الى مزاولته ودرسانه وانعام النظر به وبفلسفته والدلالة على كتبه المفيدة والسعي وراء نشرها وطبعها » وما عدا ذلك فكلام في علم التاريخ وفوائده ولم يذكر ما أحياه من التاريخ ولا ما نشره منه

سعيه وراء التوفيق بين الدين والعلم والعمران . هذا الموضوع استغرق مايزيد على ١٦ صفحة ليس فيها عن الفقيد سوى ما يقل عن صفحتين نسب فيه للفقيد ما لم يعرف عنه وما لم يدعه هو لنفسه (انظر ص ٤٩) والا فليقل لنا المؤلف أين مناظرات الفقيد أو كتاباته في الاجتماع والعمران ومعاجته المحافظين على القديم؟ وارشاد الطالبين وتعليم الجاهلين

وكيف كان داعية اصلاح والمؤلف نفسه يقول ما ملخصه « ولما رأى جدب الزمان من حكماء الاخلاق وساسة الارشاد ، وان معالم الاخلاق طمست ودراستها قد درست ، وان وظيفته وهي الدعاية الى الاصلاح العام (؟) لم تمكنه من التفرغ لارشاد السالكين وعظة الغافلين وتربية الاحداث الخ » انظر ص ٢٩

دعوته الى الاخلاق والتربية . هذا الموضوع أخذ ١١ صفحة كان في الفقيد منها ٣ صفحات نسب فيها للمؤلف ما ليس فيه وذكر صحبته وحبه المستشرقين حبهم اياه والمزاورة بينه وبينهم وسرد أسماءهم

فأنت ترى ان الكتاب عبارة عن مجموعة مقالات جعل في كل واحدة منها كلمات في المترجم له رحمه الله تعالى وهذه براعة من المؤلف أشكره على التفطن لها

ولكنني آخذ عليه — عملا بقوله قبيل الخاتمة ص ١٤٢ « ومن وجد غلطا في بعض ما عزوته للفقيد ..... فليتفضل علي بتصحيح غلطي » الخ وبعد الإطلاع على « المدخل » و « المقدمة » — ما يأتي فأقول : —

أولا ـ ان الكتاب بمجموعه لايصدق عليه اسمه ويصعب جدا أخذ تاريخ حياة الشيخ طاهر منه ، وأن أخذ ما أورده المؤلف من هذه الترجمة لتشتتها بين أطوائه وفي تناياه على انها لاتكون صورة صحيحة للفقيد

ثانيا ـ نسب المؤلف للشيخ تلاميذ ومريدين ولم يدلنا على أحد منهم والظاهر لنا انه رحمه الله لم يكن ذا قدرة على التعليم فاننا نعلم انه أقام شهوراً عدة نزيلا عند بعض السوريين في السويس وأراد أن يعلم أحد أولادهم النحو وقد رأينا وعاشرنا هـذا التلميذ وهو لا يعرف الفاعل من المفعول . فأين هم تلاميذ الشيخ طاهر رحمه الله وأين أمكنة دراسته وتدريسه ؟

ثالثا ـ لم يذكر المؤلف ماكان له من الآثار في الآثار (العاديات) غيرانه « تعلم كثيرا من الخطوط الكوفي والمشجر والعبراني وغيرهم (!) ليتسنى له دراسة الآثار الدارسة ونبشها من عالم الدثور الى عالم الظهور »

رابعا ـ لم يذكر ماكان من عمل الفقيد في التوفيق بين العلم والدين الخ غير انه كان من علماء كذا وكذا وما لم يدع الشيخ طاهر لنفسه شيئا منه في حياته وانه تبادل الآراء مع المستشرقين وانه كان بينه وبينهم صداقة الخ انظر ص٤٩ و ٥٠

وكذلك قل عن بقية المباحث. ولو أردنا تتبع الكتاب من أوله الى آخره مازدنا القراء فائدة ولا المؤلف بصيرة وفيما أوردناه كفاية

واليك ترجمة الشيخ طاهر رحمه الله مختصرة مفيدة صحيحة كما وصفها أحد أفاضل علماء الشام ممن له معرفة تامة بالفقيد بعد ان قرأتها عليه اذ قال لي : انها صورة حقيقية مختصرة للشيخ طاهر فأقول : —

الشيخ طاهر الجزائري الدمشقي

حياته وموته ونشأته العلمية

هو الشيخ طاهر بن الشيخ محمد صالح أحد مهاجرة الجزائريين ومفتي المالكية بدمشق الشام، ولد في دمشق سنة ١٢٦٨ ونشأ في حجر والده وتلقى مبادئ العلم عنه في بيته ، ثم اتصل بالشيخ عبد الغني الميداني فحضر عليه علوم العربية

ه الفقه الخ وهو استاذه الوحيد . وكان له شغف بالمطالعة والمراجعة حتى صار له مشاركة حسنة في جميع العلوم العربية وعني بقراءة الخطوط العربية وخاصة الكوفي منها وتلقى شيئا من اصطلاحات الهندسة والفلسفة عن بعض ضباط الجند العثماني حتى لم يعد غريبا عن الهندسة النظرية ، وكان ذا حافظة جيدة وذاكرة حسنة لايغيب عن ذهنه ماقرأه في بعض الكتب من نكتة غريبة أو نادرة ومع هذا لم يكن يعتمد على ذاكرته بل كان يضع في كل موضع فيه مسألة يجب الرجوع اليها من الكتب علامة من قطع الورق حتى انه اذا قرأ كتابا ترى نصف الورق بارزة منه ، وكثيرا ما كان يكتب رقم الصفحة واسم الكتاب على قطع من ورق تكون في جيبه الذي هو سفطه (عفشته) وجرابه وكان حريصا على تلك النكت حتى انه كان يستطرد لوضعها في مؤلفاته ولو في غير موضعها وتوفي في دمشق يوم ١٤ من ربيع الآخر سنة ١٣٣٨ ودفن فيها رحمه الله تعالى

هيأته وزيه وعيشته وأخلاقه

كان رحمه الله قمحي اللون واسع العينين غائرهما نحيف الجسم أبيض اللحية رث البزة غير معتن بنظافة ثيابه وكان لباسه ماتسميه أعراب الشام شبر ويسمى في مصر قفطانا وفي الشام قنبازاً أو غنبازاً فوقه جبة أو جبتان ويتعمم بعمامة من الالجباني وكان كثيرا ما يلبس الثوب مرة واحدة فلا يخلعه حتى يبلى ولا يدع الشمسية (المظلة) صيفاً ولا شتاء ويضع على عينيه مناظر لتقريب البعيد فاذا أراد القراءة في كتاب رفعها ، وكانت له جيوب في جبته كالخرج :

وكان حديد المزاج ضيق العطن ضعيف المنة تغلب عليه الوحشة ولعله كان يحس من نفسه بذلك اذ كان يحاول أن يستر الاستياء بمزاح مع جلسائه ومباسطة . كان كثير الحديث عن علماء دمشق وأعيانها والاسباب فيما كان عليه معاصروه منها من الحب والختل والدهان وما كان يعده هو من الدسائس ليخلص أو ليلمس شخصا أو ليروج مشروعا خيريا من شرهم ، ولولا انه كان يجاهر بذلك أكثر مجالسه ويفخر به ويعبر عنه بالدسائس الطاهرية لما استحسنا ذكره وقد كنا على اليقين ان من دسائسه ما كان للايقاع لا للانقاذ

وكانت عيشته عيشة الزهاد مع الحرص على الوقت وكان يقضي عامة ليله بالمطالعة على ضوء مصباح من البترول ثم رأى ان ينتفع بنوره وحرارته معاً فكان يأتي بقدر صغيرة فيضع فيها شيئا يريد طبخه بحكم وضعها فوق المصباح

مملقة ويقدر لنضجه ساعات يتعاهده عند انتهائها ، وكان أحيانا يطبخ القهوة في القدر ويشرب منها عدة أيام وربما تعفن وجهها من طول المكث

وكان لاينام في الليل بل يأتي بيته بعد العشاء ويطالع في الكتب أو يكتب عامة ليله وينام بعد صلاة الصبح الى العصر وكان مولعا بالدخان والشاي والقهوة جميعا مفرطا في كل منها ولم يكن حريصا على المال

كان خلقه التعفف والكرم مع الحاجة لايميل الى الطمع ولا الدناءة وقد اشتدت به الحاجة في آخر أيامه في مصر فباع معظم كتبه من احمد باشا تيمور وكانت نفقته من ثمنها، وكان يتصدق في كل يوم بملاليم (أعشار القرش) يعدها لذلك، وقلما يصدر من مجلسه وارد بفائدة علمية لانه لم يكن يذكر بين الناس شيئا من وسائل العلم لامفيدا ولا مناظرا ولا مذكرا ولا سائلا ولا مجيبا واذا سأله مستفيد عن شيء أحاله على المراجعة وربما دله على المظان ان كان يرى انه يستحق ذلك ، وكان يرمي الى مقاصده من طرف خفي بدهاء

وربما أوعز الى بعض جلسائه ليوسط بالامر يريده وكان اذا استرسل بالمباسطة أفرط فيكثر من الحركات ويغرب بالضحك حتى يخرج عن وقار الشيوخ

وكان متصلبا في رأيه لايرجع عنه ولو الى الصواب، حكى لي شيخ عالم أمثل أطال عشرة الشيخ طاهر انهم اختلفوا في كلمة لغوية فكان الشيخ طاهر على رأي تبين بعد المراجعة انه كان مخطئا فيه ولم يرجع الى الصواب

مؤلفاته

ارشاد الالباء ،مدخل الطلاب الى فن الحساب ، قصص الانبياء ، الفوائد الجسام في معرفة خواص الاجسام ، مد الراحة الى علم المساحة ، الجواهر الكلامية في العقيدة الاسلامية ، الجوهرة الوسطى ، رسالة في العروض ، وقد أراد ان يجعل هذه الكتب مدرسية وكلها طبعت في سورية ومنها ما أعيد طبعه مرات وله مؤلفات أخرى وهي كتاب التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الاتقان ، طبعه بمطبعة المنار ووقفت على طبعه وعنيت بتصحيحه بأذنه ، وكتاب توجيه النظر في الاصول طبعه الخانجي بمصر وكتاب التقريب الى اصول التقريب ، طبع بمطبعة النهضة بمصر وشرح خطب ابن نباتة وامية الامي ،وكتاب في التعليم الابتدائي وتفسير القرآن الحكيم ، ولعل هذه الاربعة الاخيرة لم تطبع اذ لم نرها وكان هو

الحر والمجلة السلفية التي صدرت في آخر أيام حياته بمصر وكان يودعها نبذاً من مقتطفاته العلمية ومن كناشته (مفكراته) وكانت تلك المجلة تنوه بكناشته وقد وعدت بطبعها فيما أتذكر ، وله كتاب « تقويم المجلة السلفية » وان لم يصدر باسمه

علمه وعمله

لم يشتهر الفقيد واعرفه بعلم من العلوم ولا تصدى لتدريس شيء منها فلم يعلم له تلميذ ما لم أخذ عنه العلم غاية ما عرف به انه كان ذا اطلاع على اسماء كثير من الكتب حتى قال بعضهم انه نسخة من كتاب كشف الظنون او الفهرست وانه وان لم يحص ما أحصى كتاب من هذين ولكنه كان يعرف مواضع كثير من الكتب ويرشد كثير مما يجب نشره ويجب طبعه ولكنه كان يبخل على الوراقين بارشادهم اليه اذ يرى انهم لا يستحقون ما ينالونه من الربح بطبعها . وكانت له مزية فنية في معرفة الخط الكوفي أرشده إليها مقابلة آي القرآن المكتوبة على بعض المساجد والاضرحة في دمشق ومصر وكتاب معرض الخطوط للآباء اليسوعيين وله القلم بالحروف المجردة وما نشر من مؤلفاته اذا دل على سعة الاطلاع فانه لا يدل على تحرير وابداع ولا على على تفقه في العلم أو تمكن منه

وأما عمله فانه كان قد تولى التعليم في المدرسة الظاهرية ثم عين مفتشا للمدارس الابتدائية العثمانية في سورية فكان فيها مثالا للنشاط والذكاء والنصيحة

ومن عمله انه سعى لدى مدحت باشا الوزير العثماني الاداري الشهير عند ما كان واليا على سورية باصدار امره بجمع الكتب العلمية المخطوطة المبعثرة في المدارس الوقفية والمساجد بدمشق فكانت مكتبة مفيدة وجمع من البيوت ما أمكن جمعه وجعل في قبة ضريح الملك الظاهر وجعل لها قوام وخدمة ونظام مختصر ، وفي أيام عبد الرؤف باشا والي سورية استحصل على طائفة من الكتب كانت في دور أناس من أعيان دمشق أودعها الى المكتبة الظاهرية . ثم جعل مفتشا على دور الكتب في سورية وفلسطين فقام بذلك أحسن قيام .

ومن مساعيه تأسيس المكتبة الخالدية في القدس الشريف ، وقد عين في آخر أيامه عضوا في المجمع العلمي الذي يرأسه محمد كرد علي في دمشق وناظراً للمكتبة الظاهرية . وكانت الحكومة عزمت على درس قبر الامام الترتيمة لوقوعه في حديقة خارج مدينة دمشق فأهاج الرأي العام ضد ذلك وبقي قبر الامام محفوظا بسعيه وعنايته وأظن ان هذه الحادثة وقعت في أيام مدحت باشا



— قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و «منارا» كمنار الطريق —

٣٠ في المحرم ١٣٤٠ — ١٠ الميزان (خ ١) سنة ١٣٠٠ هش ٢ اكتوبر سنة ١٩٢١

الاسلام وسياسة الخلفاء

نقلنا هذه المقالة عن الجزء ٩و١٠ من المجلد الاول من مجلة الفجر التونسية الغراء

في اوائل العام الماضي ظهر في عالم المطبوعات كتاب تحت العنوان أعلاه للدكتور انسباطو المستشار السياسي بوزارة خارجية ايطالية نقلته الى اللغة الفرنسية الكاتبة البليغة الآنسة «ماتالي بنانام» فأحببنا تلخيص ماحواه هذا الكتاب المهم لقراء الفجر ليكونوا على خبرة مما تخطه اليوم أقلام المفكرين الاجتماعيين في القارة الاوربية في المباحث العامة الخاصة باحوال الممالك الاسلامية.

قال الدكتور انسباطو : « لايخفى ان السياسة الاستعمارية لايمكن أن تكون واحدة في كل الجهات والاقاليم وانها تختلف طبعا باختلاف الممالك وتباين عادات واخلاق سكانها مع مراعاة مصلحة كل مستعمر بانفرادها وعقائد اهاليها وانتمائهم المذهبي بخلاف السياسة العامة فانها واحدة في جميع الانحاء لانها مرتكزة على معرفة احوال الاسلام الاساسية التي لم تتغير قط اذ بالرغم من الهجمات الخارجية والانقسامات الداخلية، فان الاسلام من حيث جوهره لم يتبدل لاالمدنية التي تولدت منه من الصبغة العالية. ذلك لان الاسلام كان احسن طريقة للوفاق والتآخي بين الامم التي اعتنقته على اختلاف عنصرياتها وتباين اجناسها وأتم سبيل للتعارف الروحي، وهذا هو سر قوته وسرعة انتشاره الى اليوم انتشارا حار فيه فطاحل العلماء — ومن هنا ندرك أهمية الثمرة التي يجنيها السياسي الحاذق الذي يعرف كيف يستخدم تلك الآلة الدقيقة بنباهة وفطنة. ولا شك أن درس حقائق الدين الاسلامي على هذه الصورة سيعين على ازالة جميع الخرافات التي يروجونها ضد الاسلام وأخص منها بالذكر مايسمونه بالپانسلامزم (التعصب الاسلامي) الذي يصورون به الاسلام في شكل هيئة مخيفة تترصد الفرص للقضاء على الكفار: بيد أن الاسلام يظهر لمن عرف أسراره في زي مخالف لذلك على خط مستقيم حيث انه المدنية الوحيدة التي اكتنفت في صلبها كل العقول على تباين مشاربها، وأفسحت مجالا واسعاً لكل المساعي الصادقة ولو اختلفت طرائقها، كيف لا والاسلام دين التسامح والكرم الانساني وهما صفتان ماوجدتا في قوم أو مدنية الا ونهضتا بها الى أرقى وأحسن الدرجات الاجتماعية ؟ ولا ينقص الامم الاسلامية اليوم لبلوغ تلك المرتبة العالية الاسلامية

أمة اوروبية لا تختفي تحت كلمات الرقي والتهذيب والحرية والاخوة التي تنشرها على الوتهانية (الاسترقاق السياسي والاقتصادي) الذي تنفر منه كل نفس أبية اذن فلا خوف مما يسمونه بالبانسلامزم الذي ليس هو الا آلة مرعبة اتخذها أولئك الا نتفاعيون الذين يدعون معرفة الاسلام وهم عنه بعيدون، وما الحوادث المنسوبة للبانسلامزم الا حركات فكرية عادية لا خوف منها بل ربما أفادت المدنية بكيفية مهولة لو استخدمت لهذه الغاية الشريفة. ولذا لم يعد هناك موجب للسياسي الاوروبي ان يعنى بتغير مركز العالم الاسلامي الاقتصادي ، ذلك لان الاسلام من حيث هو قوة عاملة في الحياة الاقتصادية يقدر ان يغني أو يفقر الممالك التي لها علاقة به ......»

ثم نظر الدكتور انبساطو نظرة اجمالية في الاساليب الاستعمارية التي تسلكها الدول الاروباوية بمستعمراتها فابدى رأيه في كل منها ومما قاله في هذا الشأن «ان سياسة فرنسة بالممالك التابعة لها وان نالت الارجحية نظرا لما امتازت به عن غيرها من حرية الادارة والتسامح الفكري الا انها تفتقر الى فكرة ادارية واسعة بدونها لا يمكن الحصول على الثمرة المطلوبة من الاعمال العظيمة التي قامت بها هناك» ثم قال «انه يجب ان ترتكز سياسة البلاد الاسلامية على معرفة نظامات الاسلام معرفة دقيقة »ومن هنا انتقل المؤلف الى درس السلطة في الاسلام والقواعد التي تستند اليها فأتى في هذا البحث العويص بأفكار دلت على تضلعه من الفقه الاسلامي وتاريخ المسلمين فقال « ان القرآن الشريف وأعمال الخلفاء الراشدين هي الاصول التي قامت عليها الديانة الاسلامية وحياة الامم الخاضعة لاحكامها، وان من اراد ان يفهم شؤونهم وحملهم على المشاركة السياسية يجب عليه ان يقبل مبدئيا كافة قواعد دينهم لانه لا سبيل الى التفاهم مع المسلمين الا اذا عرفوا كما هم لا كما يراد ان يكونوا. والصعوبة الوحيدة التي تعترض السياسي في هذا الطريق انما هي التمييز بينما لا يتبدل في الاسلام و بينما هو قابل للتغيير والتطور والانطباق على الحالات الحياتية الجديدة ، لان هذا الدين له خاصية أساسية يجب ان لا نغفل عنها ابدا وهي ملاءمته لكل الظروف بدون خروج عن حدوده الاصلية وصلوحيته لكل الاجيال والاقاليم والاخلاق ـ ومن الغلط ان نعتقد ان المذاهب الاربعة المضبوطة من حيث شكلها هي قواعد موبدة تقضي

ولا يصعب التوفيق بينها وبين المدنية الحديثة — ذلك لان سنة النبي تمثل تلك الصفة المالية التي اختص بها الاسلام ألا وهي ملاءمته لجميع الشعوب والأجناس مهما اختلفت منازلها والوانها ، الا انه يجب على الباحث الاوربي ان يتجنب الآراء الضالة والاغلاط النفسانية الناشئة عن عدم فهم السنة على حقيقتها ولذلك تحتم على حكومة الخلافة اليوم الغاء كل ما قيل أو قرر في الاسلام بعد عهد الخلفاء الراشدين، ولا أقصد بذلك انه يجب اعدام أو اهمال أو مس هيكل العلم الإسلامي النبي وهب العالم اكثر القوانين دواما وأدقها من هندمة وجودة ولكن حيث ان حكومة الخلافة سنية بكل معنى الكلمة فانها تستفيد من آثار كل المشرعين الذين منهم الائمة الاربعة وتستخلص منها ماتراه موصلا لنهوض الامم الاسلامية وسلما ترقى به الحياة والمدنية العصرية »

ومن هنا انتقل المؤلف الى درس مسألة الجهاد على اختلاف أطوارها وشروطها فقال: « إن الحرب مستحيلة قانونا بين الافراد والامم التي لها اتفاقات مع المسلمين وان عقد معاهدات معهم طبق اصول الشريعة المطهرة تضمن لنا السلم المطلق مع كافة اتباع النبي الكريم (صلعم) المنتشرين في العالم أجمع الخاضعين لتعاليم الكتاب والسنة المحمدية » ثم بسط القول على اركان الاسلام التي يجب على الدول الغربية احترامها وبالاخص الحج الى البيت الحرام » وختم كتابه البليغ بشرح مسألة الخلافة ودار الاسلام فقال « لا يمكن ان تحل مسألة الخلافة حلا اوربيا لانها مسألة دينية بحتة وليس لغير المسلمين حق في فصلها وانهائها ولا يجوز لاوربة المسيحية حملهم على تسويتها أو اكراههم على ذلك بوجه من الوجوه ، وعلى كل حال فالخليفة يجب ان يكون حرا بدار الاسلام الامر الذي يستلزم استقلال المدن الثلاث وهي مكة والمدينة والقدس وكذا الاستانة العلية عن كل سلطة مسيحية — وليست المشاكل التي ظهرت في الشرق بعد معاهدة سيفر الا نتيجة تمادي انجلترة عن التصديق بهذا المبدأ المسلم » ومن هنا تخلص الدكتور انسباطو الى ابداء رأيه في السياسة التي ينبغي سلوكها مع المسلمين فحقق أن سياسة التآخي وتبادل المصلحة ممكنة بينهم وبين النصارى لان الفروق الدينية الفاصلة بينهم لا توجب التباغض والعداء لان التباين في تصور الحياة ومظاهرها لا يمنع الثقة والمودة بين الامم — كما أكد وجوب الاعتراف بمقاطعة المسلمين وباحقيتهم في المطالبة بالمساواة العلمية والاجتماعية قائلا « ان انتباههم أمر طبيعي

وفي مقدرتهم ومن واجبهم الاشتراك معنا في سبيل المدنية العامة وان يبذلوا لهذه الغاية من الكد والاجتهاد مابذلوه في صفوفنا مدة الحرب من الشجاعة والاقدام ، ويرى الكاتب ان تحقيق هذه الاماني لايتم الا بواسطة الطبقة المنورة من المسلمين تلك الطبقة العديدة الافراد المنتشرة في كافة البلاد الشرقية التي تقاسي من العذاب ألوانا بسبب الظروف الاجتماعية الحرجة الحاطة بها الى الآن فاذا أنجدنا هؤلاء المفكرين وأيدنا رغائبهم فانّنا نجد منهم أثمن مساعدة سياسية ويعتقد الدكتور انساطو انه يجب الحصول على ذلك أن نساعدهم على درس مؤلفاتهم بطريقة عصرية وان تفتح لهم أبواب المدنية الغربية لانهم سيكونون دعائم السياسة الاسلامية واكبر العاملين لانهاض المجتمع الاسلامي لفائدتهم ولفائدة الامم الاوروبية المشرفة عليهم لاضدها ــ ولكن هذا يتوقف على ان تدرك اوروبة المسيحية ان واجبها يقضي عليها باضاءة العالم الاسلامي بنور المدنية والعرفان اذ لاسبيل لان نجد بين المسلمين أشياعا متفانين في مصلحتنا بالوسائط التي استعملتها اوروبة الى الآن كالتجنيد الجبري وبث الدعوة بالصور والنشريات واستخدام أعوان لا هم لهم الا اكتساب المال أو امتلاك الذمم بوسائل الارشاء على اختلاف أنواعها لان الامم الاسلامية لايمكن لها ولا ترضى ان تقبل بالتضحية لغاية مغايرة للغاية التي ترمي اليها ، وهنا اضع القاعدة الاساسية لاتفاقنا مع الاسلام راجيا ان تسمع نصيحتي وان تكون كقانون ثابت لايتبدل وهي ان تسمح اوروبة للمسلمين بان يعملوا لصالحهم ولصالح الاسلام . ويومئذ يصبح الاسلام ليس المساعد المهم في اعمالنا التمدنية فقط بل الصديق والحليف الذي يقلب بيقينه المكين العوالم ويحرك الجبال » اه

(المنار) لم نر لاحد من كتاب الافرنج كلاما مثل الدكتور انساطو جمع بين الحق والمصلحة المشتركة التي لايمكن التوفيق بين الشرق والغرب بدونها فهذا الكلام مبني على علم صحيح بالاسلام والمسلمين ونصيحة حكيمة للافرنج المستعمرين ، ولكن أهل الشره والنهم من هؤلاء المستعمرين قلما ينظرون في كلام أمثال هؤلاء العلماء الناصحين ، والواجب على العقلاء منا أن يتعاونوا مع أمثاله في سبيل خدمة الانسانية بهذه الطريقة السلمية فان لم يقبلها المنهومون اليوم فسيندمون غدا

القضاء والقدر في نظر الغربيين

مقالة منقولة عن الجزء الخامس من مجلة الفجر الاول

عني نخبة من علماء الافرنج بالبحث في اسباب رقي الاسلام وعلل انحطاطه ودونوا لذلك الكتب الضخمة واستفرغوا المجهودات الجمة وانفقوا الاوقات الفاسحة، فكانت نتيجة مباحثهم مسفرة على ان رقي المسلمين واعتلاء كلمتهم في الاعصر المتقدمة وسرعة انتشار الدين الحنيف في اطراف المعمورة انما الفضل فيه لبساطة تعاليم الدين ووضوحها وموافقتها الفطرة التي فطر الله عليها الانسانية، فبساطة تعاليم الدين ونزاهة غرضه وسمو مبادئه قد جلبت اليه أقواماً دخلوا فيه أفواجا وهرعوا الى اعتناقه زرافات ووحدانا، فاصبحوا بنعمته اخوانا، وعلى تأييد أعوانه والحماية بيضته انصارا وأخدانا

اهتدوا بهديه وأشرقت على قلوبهم شمس رشده التي أضاءت لهم سبل السداد وأنارت لهم طرق الحق والارشاد فانتشروا في أطراف المعمورة يسعون في تشريك الامم في هذا النور المنير ويعملون على ايقاظ الشعوب الذين كانوا يتامون في ليل من الجهل بهيم وشهد التاريخ ودلت الانباء وأجمعت كلمة المؤرخين المنصفين على انهم كانوا في تلك الاثناء رائدهم الصدق والاخلاص، وقائدهم العدل والاحسان، ودليلهم في اعمالهم البر والتسامح والرفق ببني الانسان. اما الصفات التي سادبها فحدث ماشئت عن ثبات وجلد ويقين في النجاح وصبر على السراء والضراء، وشكر في حالتي الشدة والرخاء، وسواء لديهم أطاب عيشهم أم حل بهم ألم اللأواء. هذا الى عزم يهد الجبال، واتحاد في السر والاعلان، وتناصر على المصالح واعتصام بحبل الله في جميع الاحوال. هذه الصفات العالية اذ انطبعت في نفوس وهمم عربية زكية عرفنا بها سر تقدم المسلمين وأدركنا منها اسباب انتشار نفوذهم وسيطرتهم بسرعة البرق على أهم ارجاء العالم في ذلك التاريخ

على ان اولئك العلماء الذين أشرنا اليهم في طالع هذا الفصل قد نظروا أيضا نظرة نقد واعتبار في الاسباب التي قضت على المسلمين بالتقهقر في بعض الجهات وما هي العوامل التي أفضت الى تقلص ظل نفوذه من كثير من الاقاليم والولايات (هنا ومرادهم هنا النفوذ الاسلامي فقط لا الدين والقومية اللذان لم يتغير من جوهرهما شيء كما كنا بيناه في مقال قبل هذا) فأطبقوا على ان ذلك نتيجة

لازمة تؤول اليها كل امة أخلدت الى الترف ومالت الى الراحة وجرت في اعقاب الشهوات وأهملت الاخذ بأسباب الحزم وتقاعست عن مجاراة الامم الراقية في حلبات العمل، فنهم من يعزو الفشل الذي حل بالمسلمين لتعاليم دينهم التي يتوهمون انها تأمر بالرضى بالمقدور والاستسلام للامر المقضي، وهو وهم شائع عند كثير من الافرنج . وقد اعتنى بدحض ذلك أكابر علمائهم . والى القارئ الكريم مقتطفات من كلامهم تقوم انموذجا على ما وصلوا اليه من بعد الغور في المباحث العلمية ، ودقة النظر في الاحوال الاجتماعية

قال بارتلمي سانت ايلير المؤرخ الفرنسي الشهير الذي ولي وزارة الخارجية حوالي سنة ١٨٨١ في القضاء والقدر :

« ومنهم من يتوهم ان الدين الاسلامي يأمر اشياعه بالكسل والفتور وارسال الحبال على الغوارب والاستسلام للمقدور . وهو وهم أدى اليه قلة التثبت واعمال الروية في فهم اسرار هذا الدين

«رأينا فيما تقدم (في فصل سيرة النبي عليه السلام) حركته المستمرة وثقته بنفسه واعتماده عليها وماكان توكله على الله بأقل صدقا ، لكن كان يكتنفه حدود معقولة ولم يتمد قط الى ذلك التعامي المذموم الذي يفرضه العجز والبصر لا القضاء والقدر، القرآن يأمر المسلمين بالاذعان التام والاستسلام لمشيئة الله الامر الذي أوجب عليهم التحلي بالاسم الذي يحملونه وبه يفتخرون . لكننا لم نعثر في تعاليم هذا الدين ولا في سنة النبي على مايشعر بخلع أشرف المدارك النفسانية (الارادة) وتعطيلها عن العمل

«وليست الاحالة على المقادير الا ضلة من ضلالات النفوس الضعيفة تغلب عليها الكسل ونامت بحمل واجباتها فاستنامت للاقدار ، وحكمتها في نفسها تفعل ماتشاء وتختار . عندي ان هذا الفتور الذي عم المسلمين انما كان ناشئا عن عوامل الترف والاخلاد للراحة والنعيم فهو عجز عن العمل لاعقيدة وعلى كل حال فليس القرآن هو الذي يدعو اليه . اللهم الا اذا ارادوا تفسير بعض الآيات على غير ما اشتملت عليه حقيقة . الاسلام شعور يدرك به الانسان ضعفه وعجزه وافتقاره لخالقه ووجوب الخضوع له والركون لعليائه ولكن ليس ثم ماينبىء بنبذ أجل قوة وأشرف موهبة اختصنا بها الباري سبحانه وهي الارادة .

«وقد تكلم في هذا الموضوع قبلنا « فيل » و « سبرنجر » فلنجمع صوتي

الى اصواتها وتقول : ان هذا الدين لدين عمل لا فشل رغم معتقد الجمهور »

وقال غستاف لوبون الفيلسوف الشهير صاحب كتاب « سر تطور المادة » في كتابه « حضارة العرب » ما يأتي :ـ

« القرآن لم يأمر الناس بترك السعي والعمل أو الانسلاخ من خوض غمرات التنافس الحيوي فهو في هذا الموضوع لم يأت بأكثر مما في الكتب السالفة « التوراة » مثلا

يعترف نخبة من الفلاسفة ان مجرى الامور لا يباحثه تبديل، ونظام الخليقة بيد مبدعة لا يعتريه تغيير، فقد قال لوثر :منقح الديانة المسيحية تتفق « معظم آيات الكتاب في صعيد واحد على مناسبة « الحكم الحر Lidre arditre » وهذه الآيات لا أحصي لها عدداً بل هي الكتاب بأجمعه. وهذه عقيدة القضاء والقدر مفعمة بها الكتب الدينية لكل الامم وقد اعتنى بها الاقدمون واعتبروها قوة دونها قوى الرجال والآلهة والحوادث التي سطرتها لا ينفكون في وقوعها فنهنا « أوديب » حين أخبره الكاهن ان سيقتل أباه ويتزوج بامه حاول أعبثا ايقاف هذا الامر فطفق يقدم النذور وانواع القربات للآلهة بدون جدوى الى ان ضربت الايام بضرباتها فاذا هو متزوج بامه قاتل اباه كما هو مشهور. فالنبي العربي (صلى الله عليه وسلم) لم يأت بشيء عجاب فانه لم يخالف طريقة متقدميه ولا طريقة من بعده أي علماء العصر الحاضر فانهم يقولون كما قاله « لابلاس » و « بنيتر » : ان علم (الله) يكتنفه في طرفة عين القوى والاسرار التي في الطبيعة على اتساعها وتباعد اطرافها ويحيط خبراً بأحوال الكائنات التي وضعت فيها كبيرها وصغيرها دقيقها وجليلها من شأنه ان لا يفوته شيء وان يكون علم المستقبل لديه كعلمه للماضي .

ثم ان عقيدة القضاء والقدر الشائعة في فلسفة الشرقيين ويدين بعض فلاسفة العصر هي نوع من الصبر والجلد على تلقي مكاره هذه الحياة ودرع حصينة لمكافحة النوائب والمضاضات. وقد كان العرب عاملين بهذه العقيدة في جاهليتهم . ثم استمر عليها المسلمون ولم تدخل في شيء من ارتقائهم ولا من انحطاطهم اه

(المنار) ان ماشرحناه من حقيقة معنى القدر في القرآن ينقض بناء عقيدة الجبر التي اتبعنا بها سنن من قبلنا وفتن بها كثير من المتكلمين والصوفيه فكان لها ذلك التأثير حسبه كثير من علماء الغرب من الاسلام وما هو منه بل سرى الى اهله ممن قبلهم كما فطن لذلك بعض المحققين منهم

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤٨٣	٨	بأسنا	بأسه تعالى
٤٨٥	٥	ولوشاء	ولو شاءت
٤٨٧	٢	حبه	حجة
«	٢٥	ن	ابن
٥٠٣	٢	،	
«	٨	هذه	هذا
٥٠٤	٢٨	انها	بأنها
٥٠٥	٢٧	ادارتها وعدم تجاوزه	ارادتها وعدم تجاوزها
٥٠٧	٥	التى	التي
٥١١	١٧	مدار الخلاف	مدار الخلاف
«	٢٢	يجاذب	بجاذب
٥١٢	٢١	تقلو	تقلوا
٥١٣	٢٠	تتسامى	تتسامى
«	٥	الرأفة الرأفة	الرأفة —
٥١٧	١٣	وافق	وافقت
٥١٨	٤	له	
٥١٩	١	وماقنين	وماقتين
«	١١	مطمع	مطمع فيه
٥٢٠	٩	واذا	اذا
«	١	اذا	اذ
٥٢٣	١١	زكي	ذكي
٥٢٤	٢١	لم يكن	لم يبق
«	٢٥	من القيام	من القيام
٥٢٦	٦	خبار	اخبار
٥٢٨	٤	[illegible]	[illegible]

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٥٢٨	١٠	المفضوضة	المفضوحة
٥٢٩	١٦	والمروة	في المروة
٥٣٠	١	وكان	كان
«	٤	وفرضتها	وفرضها
«	١١	أول اتصال	الاتصال
«	١٢	بحيث	بحثنا
«	١٣	فيه	منه
٥٣١	٤	والتعصب	التعصب
٥٣١	٤	فطنوا	فطنوا لها
«	٥	الشيخ	مقالة الشيخ
٥٣٢	١٠	اعتزال	اعتزالا
«	٢٠	تجلي	تحلى
«	٢٢	،	جزيهم من
٥٣٣	١	جزيهم من خطأ لا	كالخطأ . ولا
«	٣	كاخطأ	أخطأ
«	١٧	أتقوا	اتقوا
٥٣٤	١٢	بهما	فيهما
٥٣٥	١٨	القمس	والقمس
٥٣٦	٦	السبول السبيل	السبيل
«	٧	الامضاء	الرمضاء
٥٣٨	٢٢	خلافا	اختلافا
٥٣٩	١	يمينا	ثمينا
٥٤٢	٤	صغير	صغيرا
٥٤؟	٩	حادث	حادثا
«	٢٥	أن يستجيزوا	استلزم أن يستجيزوا
٥٤٦	١	الارهاق	الارهاق
«	٣	اتفاق	اتفاقات

بحث لغوي (١)

في براءة القرآن الشريف من بعض الالفاظ الاعجمية

لا يزال اصل اللغة العربية مجهولا أي ليس في كتبها ما يدل على المرجع الذي ترجع اليه الفاظها .وقد وفقني الله الى تمهيد السبيل المؤدي الى ذلك أي الى ارجاع كل كلمة الى اصلها والى تدوين قاموس اللغة تدويناً مؤسساً على اصول ثابتة تظهر اللغة بمظاهرها الحقيقية، والذي حملني على ذلك ماظهر من نقوش قديمة محفورة على جدران معبد الدير البحري في طيبة الغربية وازاء القصر من الغرب تدل على ان المصريين القدماء ارادوا تخليد ذكر اصلهم فاثبتوه بالحفر على آثارهم قائلين ان اجدادهم يدعون الاعناء (جمع عنو) أي انهم اقوام من قبائل شتى اجتمعوا في وادي النيل واسسوا فيه مدناً كثيرة منها مدينة عين شمس ويقال لها بالمصرية العين(الجنوبية) ومنها العين الجنوبية وهي ارمنت ومنها عين التي سميت فيمابعد دندره. ولما نموا و كثروا تفرقوا في الجهات المجاورة لوادي النيل ففريق منهم وهو المعروف باسم أعناء الحنو اواللوبيين توجهوا الى بلاد القيروان وتونس والجزائر وسكنوا فيها، وفريق آخر يسمى اعناء المنتو هاجر الى بلاد الصومال واجتاز البحر الاحمر الى بلاد العرب وانتشر ممتدا الى فلسطين . وفريق ثالث يسمى اعناء السيتو سكنوا القسم الجنوبي من مصر حيث جنادل النيل . وفريق رابع يقال له اعناء الكنوز وهم اهل النوبة . وهكذا تفرق الاعناء وتوطنوا في الجهات التي ذكرناها وبثوا فيها لغتهم مدة من الدهر فكانت لغة البلاد التي تتكلم الى الآن بالعربية . فاللغة المصرية أي لغة قبائل الاعناء التي سكنت مصر وما جاورها من الاقاليم هي اصل اللغة العربية بلا مراء بنص النقوش المذكورة آنفا وقد نزل القرآن الشريف بهذه اللغة العربية ونص على ذلك نصاً صريحاً في آيات كثيرة

قال المفسرون ان في القرآن الشريف كلمات غير عربية لكنها لاتخرجه عن العربية كما ان الكلمة العربية اذا وردت في القصيدة الفارسية لاتخرجها عن كونها فارسية.وانا أخالف هذا القول مخالفة كلية لما سأذكره بعد

---

(١) للعالم الاثري المحقق احمد بك كمال نقلا عن المقتطف (ج ٣ م ٥٩)

هذا وقد جمع المرحوم الشيخ حمزه فتح الله جميع الكلمات الواردة في القرآن الشريف ويقال انها اعجمية وطبعها بامر نظارة المعارف العمومية سنة ١٩٠٢ ميلادية وها أنا ذا اخالفه في ذلك مبينا انها عربية لورودها في اللغة المصرية القديمة التي هي اصل العربية كما ترى فيما يلي

(١) أكواب واباريق — من سورة الواقعة (٥٦ : ٨) قال الشيخ رحمه الله : الاولى نبطية والثانية فارسية .ومن المعلوم ان اللغة النبطية قريبة من القبطية التي ترجع الى لغة الاعباء وأكواب جمع كوب وردت في اللغة المصرية بلفظ قب وقوب وقبو وبالعبرية كب وبالقبطية كاب وكابي وكيبي وهي مشتقة من مادة قأب الواردة في اللغة المصرية القديمة وفي العربية أيضا بمعنى شرب فيقال قأب الماء شربه أو شرب كل ماء الاناء ويقال اناء قوأب وقوأبي :كثير الاخذ للماء. ورجل مقأب: كثير الشرب. كما يقال كاب يكوب كاباً شرب بالكوب. فالكلمة مصرية عربية كما يتضح من موادها المذكورة في القواميس العربية

أما اباريق فهي جمع ابريق وليست بفارسية بل هي مصرية وجدت مكتوبة في حجر نقش باسم احد ملوك الحبشة وعثر عليه في دنقلة فبقيت في العربية بهذا اللفظ وقد جاء القرآن الشريف بها قال تعالى (أكواب واباريق وكأس من معين) أي من ماء طاهر. والكاس وردت أيضاً في المصرية والعبرية بهذا اللفظ وورد أيضاً في المصرية كاز وفي القبطية كاجي بمعنى الكوز ومن ثم تعلم ان ابريق وكاس وكوز كلمات مصرية وعربية ليست من الاعجمية في شيء

(٢) اب — وردت هذه الكلمة في نقوش معبد دندرة وعلى جدران مدينة آبو كما وردت في قرطاس ابرس. وفي القاموس المحيط الاب الكلأ او المرعى او ما أنبتت الارض والخضر فهي اذن عربية لا أعجمية

(٣) سري — قال الشيخ رحمه الله: انه نهر بالسريانية او القبطية اواليونانية وفاته كما فات غيره من المفسرين انه مشتق من سرى يسري وسرى به فاشتق منه سري أي النهر لسيره وجريانه وقد وردت سرى في المصرية بهذا المعنى في لوحة الاحصاء وجاء في العربية ايضاً ظرى يظرى :جرى الماء وبطنه لم يتمالك لينا . فلعلها لغة في سرى بقلب الظاء سينا لقرب المخرج فهي قريبة منها في المعنى لقرينة الجريان وعلى كل حال فادة الكلمة عربية ومصرية وليست باعجمية كما قال المفسرون

(٤) — هيت قال الشيخ رحمه الله: معناها هلم بالقبطية او السريانية او

الحورانية أو العبرانية والحقيقة انه من هيت به صاح به ودعاه وهيت لك وقد يكسر أوله أي هلم. ووردت هيت بمعنى اقبل وذكرت في العربية والمصرية ايضا بغير التاء فيقال في العربية هيا أي اسرع واقبل عن كذا. وعليه فهي عربية محضة خلافا لما قاله المفسرون

(٥) رس ـ قال الشيخ رحمه الله الرس البئر أعجمية. مع انها وردت في القاموس المحيط وغيره من معاجم اللغة انها البئر المطوية بالحجارة وبئر كانت لبقية من ثمود كذبوا نبيهم ورسوه في بئر أي دفنوه، اذ من معاني رس الحفر والدس ودفن الميت. وقد ذكرت كثيرا في النصوص المصرية القديمة وكثيرا ما تلحقها تاء التأنيث ومعناها البئر المعدة لدفن الموتى اذ كان من عادة المصريين القدماء ان يدفنوا موتاهم في آبار ينحتونها في الجبال والصروك فهي عربية ومصرية بحتة

(٦) قط — قال تعالى في سورة ص (٣٨: ١٦ وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) قال الشيخ رحمه الله: اي كتابنا بالقبطية. وجاء في القاموس للفيروزابادي قط بالكسر الصك وكتاب المحاسبة جمعه قطوط. والقطاط اي الخراط وهو من مادة قط اي قطع عامة وعرضا او قطع شيئا صلبا كالحقة. وفي المصرية قط وجمعه قطوط أي كاتب والقطاط الخراط او الحطاط (راجع مفردات دارمان الصحيفة ١٣٥) وهي في المصرية من مادة قط أي قطع النقوش في الاحجار أي حفرها بقلم الحفر لان قط وخط معناهما في المصرية واحد وهي الكتابة بالحفر أي رسم الشيء بالقطع او الخرط. فالمصرية تظهر حقيقة المعنى في الكلمتين وكان من عادة المصريين في كتابة نقوشهم ان يرسم الكاتب النصوص بالمداد الاحمر على الجدران في المعابد او المقابر او نحوها ومتى أتمها اتى القطاط فيقطعها بقلم الحفر شيئا فشيئا حتى يتم حفرها كما يفعل الآن في النقش على الاحجار، هذا هو المعنى الاصلي لقط وخط فالقطاط لغة في الخطاط أي النقار او النحات أو النقاش وقد يطلق عليه الآن في عرف العامة ويقرب من هذا المعنى القديدي و جمع قديدون تباع الـكرش من الصناع كالقصاب والبيطار (قاموس المحيط) وكالنحات لانه اسم مشتق من مادة قد أي قطع مثل قط فالكلمة اذن عربية لاحظ لها من العجمة

(٧) يم — في قوله تعالى (فغشيهم من اليم ما غشيهم ٢٠ : ٧٨) قال الشيخ رحمه الله معناها البحر بالسريانية او العبرانية او القبطية — وهي كلمة

مصرية وردت بهذا المعنى في اللغة المصرية القديمة تطلق على النيل وعلى البحر ويقال لها في القبطية أيام وايوم وايوم بإمالة عين الكلمة في اللفظ الثالث وذكر في القاموس المحيط اليم : البحر ويم بالضم فهو ميموم طرح فيه فهي عربية بل عريقة فيها لوجودها مذكورة بلفظها ومعناها في المصرية ثم في القبطية

(٨) — يحور في قوله تعالى (انه ظن ان لن يحور : الانشقاق ٨٤ : ١٤) قال الشيخ رحمه الله تعالى : يرجح انها بالحبشية . والحال انه فعل متصرف من حار بمعنى رجع ونقص وحاوره يحاوره : تراجع في الكلام . وحار يحار حيرة . أي نظر الى الشيء ولم يهتد فهي مادة عربية محضة وذكرت في المصرية بلفظها ومعانيها في قرطاس سلير وقرطاس انسطاسي وقرطاس هرس وفي الدنكيلر وفي مدحة النيل لماسبرو

(٩) سينين — في قوله تعالى من سورة التين (٩٥ : ٢ وطور سينين) وهو جبل بالشام ويقال له ايضاً (طور سيناء) في سورة المؤمنين (٢٣ : ٢٠) في قوله تعالى (وشجرة تخرج من طور سيناء) . قال الشيخ ان الاولى والثانية معناها بالحبشية الحسن . والحقيقة ان اصلهما في المصرية والعربية من مادة ان كذا وانان وانين ومأنان ثم ألحق بها السين فصارت سيناء وسينين أي حسن هذا ما أيدته اللغة المصرية القديمة ووجد مطابقاً للعربية وقد جاء في القاموس المحيط سنن النطق أي حسنه ورجل مسنون الوجه مملسه وهي مؤنث سنى من مادة سنيت فهذا يؤيد ان سينين وسيناء لفظان عربيان بلا نزاع

(١٠) قيوم — في قوله تعالى (الله لا اله الا هو الحي القيوم : البقرة ٢ : ٢٥٥) قال الشيخ رحمه الله معناه الذي لاينام بالسريانية . وفي المحيط القيوم والقيام الذي لاند له من اسمائه عز وجل وهو مشتق من مادة قام قوماً وقياما . وقد ورد هذا اللفظ في المصرية وذكره ارمان في مفرداته (الصحيفة ١٣٦) فقال قيوم صفة واله أوجد نفسه بنفسه سماه اليونان (كاميفيس) والكلمة مركبة في المصرية من لفظين معناهما قيم الام أي زوج الام أي زوج وام في آن واحد أوجد نفسه بنفسه ثم ركب تركيبا مزجيا فصار صفة يراد بها الموجد لنفسه فهو ليس من مادة قام العربية والمصرية بل هو كلمة قائمة بذاتها عريقة الاصل في كلتا اللغتين

وسيأتي الكلام على سائر هذه الالفاظ — احمد كمال

الخيال فى الشعر العربي

٧

أطوار الخيال

كان العرب زمن الجاهلية يعيشون في مواطن لا يشهدون فيها غير مناظر فطرية كالكواكب وبعض النبات والحيوان أو مرافق حيوية ووسائل حربية كالرحى والجفنة والرمح والحسام ، ولصفاء قرائحهم وسلامة أذواقهم أضافوا الى هذه الحقائق مايخطر على ضمائرهم ويدركونه بحاسة وجدانهم من المعاني التي لا تنالها الحواس الظاهرة كالحب والبغض والرضاء والغضب ونسجوا منها على مثال التخيل صوراً بديعة

وان رأى المدني اليوم ان معظم تلك الصور من التخيلات القريبة فعذرهم في ذلك انهم لم يدخلوا في مسالك الفلسفة ولا عودوا أنفسهم التنقيب عن المعاني الغامضة وانما كانوا ينطقون بالشعر على البداهة ، فان وقفت له على معنى رائع كقول النابغة

وانك كالليل الذي هو مدركي   وان خلت ان المنتأى عنك واسع

فقد لفظته قريحته عفواً وانساق اليها بدون اجهاد نظر ، ومن ثم كانت أمثال هذا التخييل البديع نادرة في أشعارهم ، ولو كانوا ممن يذهب في صوغ المعاني الى ازعاج الفكر وحثه على استخراجها من مغاصها العميق كما يفعل المولدون لظفرنا لهم بنظائر لاتحصى ، ثم ان التخييل كسائر الملكات والصنائع انما تترقى شيئاً فشيئاً وتتكامل يوماً فيوما ، فتطلع زهير بن أبي سلمى مثلا على تخيلات لا تظفر بها في أشعار من يتقدموه بأمد بعيد ، فالعهد الذي يعبر فيه هـذا الشاعر عن معنى ان من لم يجب الى الامر الصغير يقع تحت وطأة الامر الخطير بقوله

ومن يعص أطراف الزجاج فانه   يطيع العوالي ركبت كل لهذم

لايصح ان يكون من أوائل العصور التي ظهر فيها التخييل الشعري فان هذه الغاية من حسن البيان لايدركها الناس بفطرتهم الا بعد ان يتقلبوا في سبيلها أطواراً ويقضون في السير اليها أحقاباً ، كما ان ابن سفر الاندلسي لو نشأ في البيئة والعصر الذين نشأ فيهما زهير لم يسهل عليه ان يصف نهر اشملة الذي

يصعد فيه المد مسافة بعيدة ثم يحسر بقوله

شق النسيم عليه جيب قميصه فانساب من شطيه يطلب ثاره
فتضاحكت ورق الحمام بدوحها هزؤا فضم من الحياء ازاره

ثم بزغت شمس الاسلام وكان من أساليب القرآن في الدعوة ان ضرب الامثال الرائعة وصاغ التشابيه الرائقة والاستعارات الفائقة والكنايات اللطيفة ، ويضاف الى هذا ما كان ينطق به الرسول عليه الصلاة والسلام من الاقوال الطافحة بالامثال والاستعارات والكنايات التي لم تخطر على قلب عربي قبله ، فكان مطلع الاسلام مما زاد البلغاء خبرة بتصريف المعاني وترقى بهم الى رتبة سامية في صناعة الخيال

أخذ الخيال يتقدم بخطوات أوسع مما كان يسير به في الجاهلية ولكن الادباء الى أواخر عهد الدولة الاموية لم يحيدوا عن طرقه المعهودة ويغيروا أساليبه تغييرا يحس به كل أحد ، فلو قال قائل ان عبدالله بن الدمينة أو عمر ابن أبي ربيعة أوجميلا أو كثيرا شاعر جاهلي لم يكن لك ان تدخل الى مغالبته وابطال دعواه باقامة الحجة من مناهج تخيلاتهم كان تجلب له من أشعارهم أمثلة ينكشف بها جليا انهم ساروا في التخيل على نمط لم تنسج عليه الجاهلية ، ولكنك اذا نظرت في مجموعة الشعر الجاهلي ثم وازنته بمجموعة الشعر الاسلامي تيقنت ان الخيال قد بعد شأوه واتسع نطاقه لانك تقف على تصرفات كثيرة من تشابيه مبتكرة واستعارات لم يحم عليها شعراء الجاهلية وان كانت مفرغة في قوالبهم مرسومة على خططهم

ثم ظهر في أوائل عهد الدولة العباسية مثل بشار بن برد وأبو العتاهية وأبو نواس وعبد السلام الملقب بديك الجن فأصبحت مسافة الفرق بين الشعر الجاهلي والشعر الاسلامي واضحة لكل من له أدنى تعقل ، فلو ادعى مدع ان عبد السلام الملقب بديك الجن شاعر جاهلي لكفاك ان تتلو عليه نبذة من شعره الذي أوغل فيه الى حد يبدو عليه أثر التصنع كالبيت الذي أعجب به أبو نواس وقال له عند ما اجتاز به وهو بحمص انك قد فتنت به أهل العراق أعني قوله يصف الخمر

موردة من كف ظبي كأنما تناولها من خده فأدارها

وجاء بعد هؤلاء ابن المعتز وابن الرومي ومسلم بن الوليد وأبو تمام وقد

استحكمت عرى المدنية وتجلت لهم الحضارة في أجلى مظاهرها فكانوا أكثر ممن تقدمهم تفننا في صناعة التشبيه والاستعارة وما يلحق بهما من تصرفات الخيال كالتورية والمقابلة وحسن التخلص من غرض الى آخر ، وهذا لا يمنعك من ان تقضي للسابقين بأنهم أقوى عارضة وأدرى بصناعة الشعر من ناحية سبك الالفاظ ومتانة بنائها

وبعد ان عني الناس بالنظر في شؤون الكون وسلكوا في البحث عن أسراره طريقا فلسفيا أخذ الخيال الشعري يعمل في الحقائق الفلسفية ويجري وراء الفكر كالمسعف له في تصوير تلك المعاني الغامضة كما تراه في مثل قصيدة ابن سينا في النفس المفتتحة بقوله

هبطت اليك من المحل الارفع   ورقاء ذات تعزز وتمنع

وقصيدة المعري المفتتحة بقوله

غير مجد في ملتي واعتقادي   نوح باك ولا ترنم شاد

وقول أبي بكر بن الطفيل يصف حال الروح والجسد

نور تردد في طين الى أجل   فانحاز علوا وخلى الطين للكفن
ياشد ما افترقا من بعد ما اجتمعا   أظنها هدنة كانت على دخن
ان لم يكن في رضا الله اجتماعهما   فيالها صفقة تمت على غبن

وفي هذه الطبقة خرج كثير من أشعار الصوفية كما تراه فيما ينسب الى الشيخ محي الدين بن عربي وابن الفارض

وقام بأزاء هذا المنزع الفلسفي ان الشعراء عند ما اتسعت دائرة العلوم الاسلامية ونقلت العلوم النظرية الى العربية مد بعضهم يده الى قضايا هذه العلوم واصطلاحاتها وخلط بها تصرفاته الخياليه كقول ابي تمام

خرقاء يلعب بالعقول حبابها   كتلاعب الافعال بالاسماء

قول حيص بيص

لا تضع من عظيم قدر وان كنـ   ـت المشار اليه بالتعظيم
ولع الخمر بالعقول رمى الخمـ   ـر بتنجيسها وبالتحريم

وقول ابن الخطيب

ونقطة قلب اصبحت منشأ الهوى   وعن نقطة موهومة ينشأ الخط

وكذلك كانوا يقتبسون من سائر العلوم والصنائع حتى راق لكثير من

المتأخرين أن يجعلوا قصائدهم كنموذج يلوح به الى علوم شتى

ومما حدث من ممارسة هذه العلوم ايراد التشبيه في أساليب منطقية كقول بعضهم

لو لم يكن اقحوانا ثغر مبسمها ما كان يزداد طيبا ساعة السحر

ومن تقصى أثر الشعر العربي ولاحظ الاطوار التي تدرج فيها الخيال أخذ في نفسه قوة تساعده على التفصل في بعض الابيات أو القصائد التي يتنازع الرواة في نسبتها الى قائلها ، فالقصيدة التي جاء في أثنائها

قالت لطيف خيال زارني ومضى بالله صفه ولا تنقص ولا تزد

فقال خلفته لو مات من ظمأ وقلت قف عن زلال الماء لم يرد

يعزوها بعضهم الى الوليد بن اليزيد ومن لاحظ أن القصيدة جمعت فنونا من الخيال لا يفحص عنها ويجمعها في نظم واحد الا شاعر نشأ أيام دخل التصنع في الشعر وهو عهد الدولة العباسية أعرض عن هـذه الرواية وذهب الى أن تكون كما قيل لابي القاسم بن طباطبا المتوفى سنة ٣٤٥ أو ذي القرنين بن حمدان المتوفى سنة ٤٢٨

ترقى التخيل يوم دخل الشعر في طور التصنع ولكن التصنع هو الذي جر الى استعارات مكروهة وتشابيه سمجة ايضاً فقد اقتحم ابو تمام والمتنبي ومن تقدم في هذا الغرض مساوئ لم يرتكبها الجاهلية ، فالعربي الصميم — وان كان معظم تخيلاته ساذجة — لا يعالج قريحته ليستنبط لك منها مثل قول ابي نواس

يح صوت المال مما منك يشكو ويصيح

أو قوله

ما لرجل المال أضحت تشتكي منك الكلالا

وتمادى الشعر مابين تخيل فطري وتخيل فلسفي وتخيل علمي الى هذه الاعصر وان كان النوع الاول هو الغالب في النظم والمألوف في التخاطب لان التخيلين الفلسفي والعلمي، انما يليقان بكلام يوجه به الى الخاصة من الناس واما التخيل الفطري فيصلح لخطاب الخاصة والجمهور

والضرب الفلسفي لا يعد في الحقيقة تطورا في نفس التخييل وانما هو تطور لحقه من جهة دخوله في منزع جديد أعني الخوض في حقائق وسنن كونية على طريقة النظر العميق

القياس في الاشتقاق

تابع ما نشر في الجزء الثامن ص ٦١٦

ومن الاصول التي يراعونها في الكف عن القياس وعدم الاخذ بالامثلة القليلة في تقرير أحكام هذا الباب قاعدة تجنب مايوقع في لبس واشتباه ، ولهذا لم يجز الجمهور صوغ فعل التعجب واسم التفضيل من الافعال المزيدة لان الصيغة لاتسع الا الحروف الاصلية واذا سقطت الحروف الزائدة عميت على السامع معانيها الخاصة كالمطاوعة والتكثير والمشاركة والطلب فيضيع بعض المعاني وتخلو العبارة عن الفائدة المطلوبة ، فما ذهب اليه الاخفش والمبرد من اباحة اشتقاق أفعل التفضيل من جميع المزيد غير مستقيم وانما أجاز سيبويه اشتقاقه مما جاء على وزن افعل خاصة اعتماداً على ان ماروى من شواهده قد بلغ من الكثرة مبلغاً يجعل مأخذ القياس عليه سائغاً . ودخل ابن عصفور الى هذه المسألة من باب النظر فأجاز القياس في أفعل خاصة كما يقول سيبويه ولكنه شرط ان تكون همزته لغير النقل نحو أظلم الليل وأقفر المكان لان أفعل الذي تكون همزته لغير النقل (يعني التعدية) لايزيد على معنى الثلاثي وهو الدلالة على مجرد الحدث فلا يدخل زنة التعجب أوالتفضيل خلل في المعنى وهذا التفضيل وان كان أقرب الى الاصول لم يقبله الشاطبي بدعوى ان الاجماع قد انعقد على ثلاثة مذاهب . والاجماع لايخرق ولو في الاحكام الامثلية :

ومما يجري على قاعدة تجنب اللبس منعهم من صوغ التفضيل والتعجب من المبني للمجهول لان صوغهما منه يؤدي الى التباس وصف الفاعل بما يقصد به المفعول ، وقد حقق النظر من أجاز صوغهما من الافعال اللازمة لصيغة المجهول نحو عني وزهي وهزل وارعد وأغمي وغم واهل ونخي اذ لايعرض عند ايرادها في احدى الصيغتين التباس

ويدخل في هذا الصدد اشتقاق فعيل بمعنى مفعول نحو قتيل وجريح وصريع فقد وقف فيه بعضهم عند حد السماع واغلقوا دونه باب القياس وفصل آخرون فتمموا القياس فيما ورد منه فعيل بمعنى فاعل نحو علم وسمع حيث ورد اسم فاعله على فعيل فقالوا عليم وسميع . وأباحوه فيما عدا ذلك ، وقد تخلصوا بهذا التفصيل من المحذور الذي تحاشاه الذاهبون الى منع القياس باطلاق وهو التباس وصف المفعول بوصف الفاعل

فأصل الاحتراز عن اللبس والابهام في اللغة مكين . بيد انه لايخلو كسائر القواعد الوضعية من جزئيات تأتى على خلافه كالاسماء المعتلة العين نحو مختار ومنقاد والفعل المضاعف نحو يضار ويشاد . فان هذه الصيغ تطلق في وصف الفاعل والمفعول ويعول في فهم مايراد منها على قرينة حال أومقال . ومثل هذا مما دار على السنة الفصحاء وشاع حتى لم يبق ريب في صحة اطرادم تفسح له مجال القياس ويبقى غيره مما فيه ابهام المراد على أصل المنع حتى ينهض دليل السمع بجوازه . فاذا وقع النزاع على اشتقاق يحصل معه احتمال بخلاف المراد فالاصل بيد المانع حتى يقيم المجيز الشواهد الكافية للقياس .

ومما يوردونه عذرا في الحكم - ترد به أمثلة كثيرة ويأبون جعله قياسا مطردا - الاستغناء عنه بصيغة أو صيغ أخرى . كما قال الرضي ناقلا عن سيبويه ان باب « فعلته » الذي تضم فيه العين للمغالبة مسموع بكثرة ولا يصح القياس عليه للاستغناء عنه بنحو « غلبته » . وربما تعلقوا بهذا الوجه في استثناء بعض الفاظ تشملها قاعدة فيصرحون بالمنع من اجرائها على القاعدة استغناء عنها بصيغة أو جملة تسد مسد الحاجة اليها . كما قال سيبويه في الكتاب لا تقول (العرب) في قال يقيل « ما أقيله » استغناء عنه بنحو « ما أكثر قائلته » كما قالوا تركت ولم يقولوا ودعت

والذي نرى ان ابطال القياس في مثل المسألة الاولى - أعني باب المغالبة - بعلة انه مستغنى عنه بصيغة أخرى غير سديد وانما المدار على قلة ما ورد منه وكثرته . فاذا كانت الشواهد المروية منه بحيث بلغت ما يكفي للاعتداد به في وضع القواعد صح جعله قياسا مطردا . وليس غنى اللغة بما تملكه من صيغة أو صيغ تفيد معنى خاصا بمانع من ان ينضم اليها طريق آخر يزيدها سعة على سعتها . فترادف المفردات والصيغ على غرض واحد في اللغة ليس بعزيز

وأما المسألة الثانية أعني الاستغناء عن قولك «ما أقيله» بمثل «ما أكثر قائلته» فهي راجعة الى الكشف عن وجه اهمال العرب للصيغة الاولى ، وقد تعرضنا فيما سلف الى حكم اللفظ الذي تتناوله قاعدة ولم نسمع في كلام العرب ما يدل على انهم نطقوا به على وفقها ، وذكرنا الفرق بين مايدور في محاوراتهم بكثرة فنقتفي فيه أثرهم ولا نخرج في تصريفه عن الوجه المنقول عنهم وبين ما لا يكون كثيرا شائعا فيسوغ لنا ان نصرفه وننطق به على ما تقتضيه القواعد

دون توقف على سماع . وكأن الامثلة التي ذكر سيبويه في الكتاب وابن جني في الخصائص ان العرب استغنت عن تصريفهما بصيغ أخرى ، وجعلوا التلفظ بها على طبق القاعدة خطأ ، كانت في نظرهما من القسم الاول وهو مالا تتجاوز فيه حد الرواية ، والوقوف في الالفاظ الدائرة في المخاطبات بكثرة عند وجهها المسموع وعدم اجرائها في سبيل القاعدة لا يعد في غرائب اللغة العربية . فان في غيرها من اللغات الاخرى كاللسان الالماني مصادر بتصرف على وجوه تخالف القواعد المعروفة ، ويصرح علماؤهم بوجوب التلفظ بها على تلك الوجوه الشاذة ويعدون المتكلم بها على نمط القاعدة قد تعدى حد اللغة وارتكب خطأ فاحشا ، بل ترى من أسماء التفضيل المتداولة في ذلك اللسان ما شذ عن القاعدة الى ان ركبوه من حروف غير حروف الوصف الاصلي ، على نسق مايقول علماء لغتنا ان الخلد - وهو الفار الاعمى - يجمع على مناجيد أو مناجذ

وتصرف العرب في بعض أسماء الاجناس فاشتقوا منها افعالا وأوصافا فقالوا تشمس وتجورب وتحجر واستنسر البغاث واستنوق الجمل . وقالوا أحنك الشاتين أو البعيرين وفلان آبل الناس أي أشدهم تأنقا في رعي الابل . وقد رأى علماء العربية ان الامثلة الواردة في هذا الغرض لا تكفي لفتح باب القياس فوقفوا فيه عند حد السماع . وكثيرا ما ينكرون على من ينتزع فعلا من غير مصدر كما اعترضوا على القطب الرازي في قوله « والشيخ في الشفاء ثلث القسمة » بدعوى ان لفظ « ثلث » محدث لم ينطق به العرب . ولم يلتفتوا الى قياسه على ما صح لغة من قولهم خمس وسبع وأمثالها ، حتى استشهد له السيلكوتي بحديث « شر الناس المثلث » يعني الساعي بأخيه ، يهلك نفسه وأخاه وامامه . ولم أر من حام على القول بجعل مثل هذا مقيسا الا عبد اللطيف البغدادي فانه اعترف في كتاب التكملة بأن لفظ التجنيس والمجانسة مولد وأجازه على وجه القياس وقال هو من لفظ الجنس كالتنويع المأخوذ من لفظ النوع .

واطلاق التصرف بمثل هذا للافراد فيصنع كل على انفراده من أسماء الاجناس وأشباهها ما يبدو له من أفعال وأوصاف يفضي الى القاء الجمل مركبة من الفاظ لا يألفها المخاطبون أو يتعاصى عليهم فهم ما يقصد منها . واللغات الاجنبية يجري فيها الاشتقاق من أسماء الاجناس أحيانا ولكن الذي يقوم بذلك جمعيات علمية تصوغ الكلمة تضمها في ديوانها اللغوي وتنشرها بين الناس

القياس في وضع اسماء الاجناس

يقول ابن فارس في طالعة تاليفه المسمى بالصاحبي ان اللغة قد قر قرارها فلا نعلم لغة من بعد النبي صلى الله عليه وسلم حدثت ، فان تعمل اليوم لذلك متعمل وجد من نقاد العلم من ينفيه ويرده ، ولم يبلغنا ان قوما من العرب في زمان يقارب زماننا اجمعوا على تسمية شيء من الاشياء مصطلحين عليه فكنا نستدل بذلك على اصطلاح كان قبلهم وقد كان للصحابة من النظر في العلوم الشريفة مالا خفاء به وما علمناهم اصطلحوا على اختراع لغة أو احداث لفظة لم تتقدمهم. وقال في مبحث آخر من ذلك الكتاب ليس لنا اليوم ان نخترع ولا ان نقول غير ماقالوه ولا ان نقيس قياسا لم يقيسوه لان في ذلك فساد اللغة وبطلان حقائقها . اغلق ابن فارس الباب في وجه من يريد احداث كلمة وادخالها في سلك اللغة ولكنه يبيح لاصحاب العلوم والفنون الاصطلاح على كلمات ينقلونها من معانيها اللغوية ويضعونها بازاء معان خاصة، بيد انه يفرق بين الوضع العربي والوضع العلمي فيسمى الاول اسما لغويا والثاني اسما صناعيا .

والحق ان اللغة في حاجة الى ان يبقى الطريق الى وضع اسماء الاجناس مفتوحا مثلما بقي طريق وضع الاعلام الشخصية يسلكه الناس فيما يزداد لهم من الولد أو يحدثونه من الضيعات والقرى . فان الاعصر مابرحت تكشف لنا من معان لم تظهر ايام كانت اللغة تتسع وتنمي بالالفاظ التي تجري على السنة الناطقين بها عن سليقة المتلقين لها من افواه المرضعات ورعاء الشاء . وليس من الممكن ان نصرف السنتنا عن التعبير عن هذه المعاني بعد ان اندمجت في متاع البيت والتصقت بما يتخذه الناس من الملابس ويمتطونه من المراكب ويرتفقون به من وسائل الحياة

ومما يشوه وجه المقالة أو القصيدة ان نضع في نسقها اسماء هذه المعاني الموضوعة في قالب لغة اجنبية ونتلفظ بها على علاتها من غير تهذيب وسبك يؤلف بينها وبين ماهو عربي اصيل

فالعربية توسع صدرها لافتراض الاسم من لسان آخر ولكن بعد تنقيحه وصبه في قالب يطابق موضوعاتها الاصلية ، وهي مع ذلك في سعة وغنى بما ملكته من المواد الغزيرة والتصاريف التي تساعد على ان نستمد منها اسماء لاي معنى خرج الى حيز الوجود

وانما يستقيم هذا العمل اذا نهضت له جماعة ذات اطلاع واسع واذواق سليمة فيتخيرون أو يشتقون للمعاني الحديثة اسماء مقبولة فيبقون على هذا اللسان حياته ويحفظونه من ان يتسم فرق طاقته فتتسرب اليه قطع من لغة اخرى

انتباه الشرق (1)

العرب وبطش سيف المستعمرين . سورية وفلسطين . اليمن وعمان . الاناضول ومعاهدة سيفر . ازربيجان والافغان . شمال افريقية

لاجرم ان الشرق قد بدأ ينتبه من غفلته ويثيب من رقدته ، ويهب من سباته العميق ويستفيق من كابوسه الثقيل ، وان ذلك قد لاحت تباشيره منذ وضعت الحرب أوزارها ، وظهرت مخايله في كل صقع من أصقاع الشرق بصورة لا تقبل المغالطة ، ولا تحمل المراء ، بحيث شعرت أوربا شعورا تاما بأن شرق اليوم هو غير شرق الامس ، وان الحرب العامة قد تمخضت بحوادث لم تكن في حسبانها ، وبما تلد انقلابات كان يجوز ان يستأ كل فصالها القرون والاحقاب فعجلت الحرب في توليدها بضع سنين فكان الظفر الذي ظن الغالبون انه سيلقي اليهم بمقاليد الارض بحذافيرها ويؤمنهم على تراثها بدون معارض ولا منازع ، هو مبدأ انحلال سلطانهم الملفقة من قوى الامم الاخرى وفاتحة انتثار اسلاكهم المنظومة بجماجم المستضعفين في الارض ، ومصداق قوله تعالى (حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة وهم لايشعرون) ولا بد أن يأتي يوم يقول فيه الشرقيون — طالما أحزنتنا نهاية الحرب العامة بما انتهت به وخلو الجو للدولة المستعمرة تاتي بجرانها على من تشاء وتهضم حق من تشاء وتظن الاحرار قد أصبحوا لها خولا وعبيدا ، ولكن صدق علينا وعليهم قوله عز وجل (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون)

فقد ظن المستعمرون قبل كل شيء انهم يخدعون الامة العربية بمواعيد الاستقلال حتى تنفصل عن الامة التركية ويقع بأس احداها بالاخرى بما يوفر على المستعمرين الاموال والرجال ، حتى اذا انفصل العرب عن الترك بعد ذلك وجدوا أنفسهم بين براثن أولئك الخلابين الخداعين وأطبق هؤلاء عليهم قوائم

(1) نقلا من جريدة « بطلة العرب » الاميركية تاريخ ٢٣ و ٣٠ تموز سنة ١٩٢١

طبقا بعد طبق يقتسمون بلادهم فيما بينهم تقاسم لايسار الجزور وينقضي الامر وينتهي النزاع ، واذا تنجز العرب ما تقدم لهم من المواعيد لم يع من صنعته الخلابة ومهنته الكذب والرياء ان يجاوب أولا بالالفاظ التي قد جاوب بها من قبيل: استقلال وتحرير، وترقية، وتنمية، وسيطرة وقتية، ووصاية أبوية، وارشاد الى وقت بلوغ الاشد. وغير ذلك من الخزعبلات التي لا يخجل أمثالهم من ان يجعلوها شباكا للصيد وخطاطيف للقبض فان لم تنفع هذه الالفاظ ولم تنجح هذه العناوين الضخمة في اخفاء المرام وتهوين المصاب فيكون الجواب صريحه برمته بالسيف والمدفع والطيارة والدبابة وغير ذلك من الآلات المهلكة والنيران المحرقة ويقال ان ذلك انما هو موت لاجل الحياة وقطع للاعضاء الفاسدة لسلامة الجسد وتخريب من أجل المدنية وهمجية لاجل الانسانية(!!)

ولكن ساء في هذه النوبة فألهم وكذب خالهم ورأوا من العرب مالم يكن يخطر لهم على بال اذوجدوا هذه الامة بعد انفصالها عن الامة التركية أشد نفورا من حكومة الاجنبي مما كانت من قبل، وما وضعت الحرب العامة أوزارها من جهة وظن الحلفاء الغالبون ان البلاد قد بردت لهم عفوا صفوا حتى لقحت الحروب في الشرق الادنى والاوسط من الجهة الاخرى وقام العرب ينادون يالثارات ممن نكثوا بالوعود وخفروا العهود وتورطت انكلترا في العراق في حرب زبون لم يعدلها نهاية فبقيت سنتين ونصف سنة توالي البعوث على البعوث وتلف الزحوف على الزحوف وتكور الطيارات على الدبابات والدبابات على الطيارات وتحرق القرى وتنسف المنازل وتهلك الحرث والنسل وبلغ عدد جنودها في العراق ١٢٠ الف مقاتل وبلغت نفقاتها السنوية هناك ٥٠ مليون ليرة انكليزية وهي لاتفوز بطائل ولا تصل الى غاية تذكر ولا تزداد من اهل تلك البلاد الا بغضاً وعدواناً، وسخيمة وشنآنا الى ان يئست من تدويخ العراق بالسيف وبعد ان كانت لا تعير مطالب اهل العراق أدنى بال وكانوا يشكون اليها فيشكون الى غير مصمت (١) عادت هي تستصرخ الملك فيصل وذويه الى حمل العراق على قبول حكومة وطنية يكون لهم فيها الاستقلال الداخلي ويكون لانكلترة النيابة الخارجية وعادوا هم لا يرضون بهذه الدرجة من الاستقلال ويريدونه تاماً وينتجزونه باتاً مطلقا ولا يرضخون للانكليز الا عن بعض مسائل

(١) أي الى من لا يسمع الشكوى

اقتصادية لاغير مع ان العراق قبل الحرب العامة لم يكن يحسب احد انه ينطوي على مثل هذه القوة ولا أنه يقتضي لتدويخه اكثر من توابير معدودات ، ولكن الحرب العامة أضاعت كل حساب وأتت من ظهر الغيب بما كان يظن من الاحلام : ومثل ذلك سورية التي كانت تظن فرنسا أنها تقبض عليها بمجرد خفوق العلم الفرنسوي على ثكنة بيروت قد كلفت فرنسا الى الآن ازيد من ١٠٠ مليون ليرة وعشرات الوف من العساكر ولم تكسب من وراء ذلك سوى زيادة الاحقاد والاحن والقاح العداوات والفتن وكون من كان يناويها قبل الاحتلال قد ازداد برأيه يقيناً وبمذهبه استبصارا ومن كان يميل اليها قبل ان خبرها من قريب وتارفها تحت العمل قد تحول عنها تحولا فات فيه اعداءها الاصليين وانفقت كلمة الجميع على طلب الاستقلال التام ولو كان كل يسمي به الى ناحية وطنه ، فاللبناني ينادي باستقلال لبنان والسوري ينادي باستقلال سورية ، والفلسطيني ينادي باستقلال فلسطين ، وليس من كل هؤلاء من رضي بسيطرة فعلية لفرنسا أو لا لانكلترا أو لغيرهما بل غاية ما هنالك عدة مأمورين من باعة الذمم وتجار الضمائر وعدة صحف من قبيل الربابات المعروفة عند البدو أو زمور الاعراس يعزف عليها العازف لمن شاء ولمن يبض البخت على رأي اصحاب هذه الآلات . فهؤلاء لا يزالون يتشدقون بلفظة « انتداب » ويتمنطقون بكلمة « ارشاد » وعبارات مموهة وجمل مزخرفة من قبيل « الاخذ باليد في معترك الحياة » ومن طائفة « تسديد الخطوات الى السير في طريق التقدم » وما اشبه ذلك من الكلمات الفارغة المخالفة للواقع وتشدقهم يدوم مادامت يد فرنسة في حلوقهم وما دام سيفها مسلولا أمام أعينهم فأما ولا بد لفرنسا وقد بلغ دينها ٣٨٨ مليارا أي أربى على مجموع ثروتها العمومية بكثير (لان مجموع ماتملكه فرنسة لا يزيد على ٢٨٠ مليارا) من ان تعجز عن متابعة بذل المبالغ الطائلة على جيش احتلال سورية كما عجزت عن متابعة غزو كليكية فبمجرد تقلص الظل العسكري من هناك تحس فرنسا بخيانة هؤلاء الذين اذا كانوا خونة لاوطانهم فهم اولى بأن يخونوها هي وان لا يصدقوها القول ولا يمحضوها النصيحة وان يقلبوا لها ظهر المجن عند اول دغرة لائحة . وسواء كان مثل هؤلاء معها أو عليها فلن يقدروا ان يؤثروا شيئا في تحويل مجرى الاحوال العامة اذ لا بد لاهل سورية من نيل استقلالهم التام الناجز المحقق بالفعل البائن عن المماطلة المرتفع من المغالطة ولا

بد لفرنسا من الرجوع في امر سورية لا الى رأي (السوسياليت) فقط بل الى رأي كثير من الحزب المعتدل بل الى رأي المسيو بوانكاره نفسه وهو القيام في سورية بمهمة استشارية محضة بل كيف تقلبت الامور فالعرب لن يتركوا سورية لفرنسة ولا بد من ان يأتي اليوم الذي ترجع فيه فرنسة الى طريقة انكلترة في العراق بل الى اقل منها على حين يكون ما تركته من الحقد في قلوب العرب حائلا دون كل امتزاج مانعا من كل هوادة بين الفريقين

وأما فلسطين وما أدراك ما فلسطين فان انكلترة قد ظنت مجرد اعلان معاهدة الصلح ووصايات عصبة الامم والامر الملكي الصادر لاهل فلسطين بتقرير هذه البلاد وطنا قومياً لليهود وفقا لتصريحات بلفور في أواخر أيام الحرب ظنت كل هذا كافيا لفت في اعضاد الفلسطينيين والفل من غروب عزائمهم بحيث يستنيمون الى الطاعة ويخلدون الى السكون على قلة عددهم ونقصان شرائط انتقامهم فرأت من هذه الجهة أيضا لها باصراً وحلت من حماية اليهود أمراً اداً وسوف تعلم هي ويعلم اليهود انهم يحاولون قلع الجبال ولا يحصلون على أدنى طائل ، وان الفلسطينيين كالسوريين وكالعراقيين وكالمصريين من قبل لن يتأوا ناصبين للانكليز العداوة حتى يقلعوا عن سياسة الاتجار بالامم ويفهموا خطر اللعب بالعهود والمواثيق ويعرفوا ان الامة العربية هي كلها من وراء الفلسطينيين لاتدع بلادهم مجالا للاطماع ولسان حالها يقول : « ودون عدواتي كلا جداع »

انظر الي اليمانيين الذين خالت انكلترا ان الاحاطة ببحرهم وقطع الاتصال بينهم وبين الدولة العثمانية مدة سنين يكون كفيلا بنزولهم على حكم الانكليز وصرم حبال آمالهم في الدولة والخلافة فكان الامر على عكس ماظنت . وبعد ان كان اليمانيون تحتاج الدولة الى بسط سيادتها عليهم الى أربعين أوخمسين طابوراً بصورة دائمة انقلبوا بأسرهم عثمانيين بدون عساكر بين أظهرهم وقاموا هم مقام العساكر وشدوا روابط تابعيتهم للدولة والخليفة من ذي قبل ورفضوا ان يسمعوا بشيء من جميع هذه المعاهدات التي تعقد في باريز ولندرة ولم يكتفوا بالمرابطة في منطقة عدن ومنع الانكليز عن الخطو الى الامام قدماً واحداً حتى حصروهم في مرسى الحديدة الذي كانوا احتلوه بل اضطروهم الى الجلاء عن الحديدة بما اجهضوهم طول هذه الاشهر بالقتال غدوا ورواحا

وكانت انكلترة راسلت حضرة الامام يحيى مرارا وعرضت عليه «الاستقلال»
الذي أعلقت بأحابيل وعده كثيراً من أمراء العرب فلم يغتر كغيره ، وأجابها
بانه لا يبرح عثمانيا هو وقومه وجميع أهل اليمن من تهامتها الى نجودها ومن
حضرموتها الى عسيرها . ولن يقبل ان يطأ الانكليز شبراً واحداً من أرض
اليمن ولا ان يتدخلوا بين أهل اليمن وبين الخليفة العثماني الذي لا يعرفون سواه،
ولما كان قد عجم الانكليز عود الامام يحيى ورأوا من صلابته حذروا
من التصريح بشيء في أمر اليمن في معاهدة سفرس خشية سرعة التكذيب
وازدياد الخطب ، ولكن حضرة الامام خاطب السلطان محمد وحيد الدين الى
الاستانة وأكد له استمساكه بعروة خلافته وبقاء جميع اليمانيين من شافعية
وزيدية في حوزة طاعته وقريبا نطلع القراء على صورة كتاب حديث العهد
قد ساعدنا الحظ بالاطلاع عليه صادر عن الأمام المتوكل على الله يحيى حميد
الدين وكتاب آخر من محمود نديم بك الوالي العثماني الذي كان في اليمن ولا
يزال والياً فيها باسم الدولة العثمانية صادراً هذا الكتاب عن محله في مناخة
منبئا بزحفه على باجل والحديدة بناء على طلب سادات واشراف تهامة (١)
مما جاءت فيها بعد تلغرافات الجرائد الانكليزية مؤيدة له بل رواية عن حوادث
تلك النواحي . مازاد على ماجاء في الكتاب المذكور

وانظروا الى العمانيين الذين ظن الانكليز انهم يحملون أمير مسقط على
تجريدهم من سلاحهم فكان منهم انهم خلعوا ذلك الامير وحصروه في مسقط
وما زالوا في الثورة حتى أقلعت انكلترة عن مزاعمها هذه وتركوا لهم سلاحهم
وعاشوا طول أيام الحرب أحراراً لم تقدر انكلترة ان تتعرض لهم بأدني سوء
ولا يزالون على استقلالهم التام بحماية سيوفهم

اما مصر فاننا سنفرد لثورتها ونهضتها مقالا مخصوصاً ، ولكن نقول
هنا بالجملة انها نالت ثمانين في المائة من مطالبها . هذا من جهة العرب واما من
جهة الترك فكانت فرنسة تظن انها تبتزهم ولاية اطنة الحصينة وانهم بتتابع
حروبهم ومحنهم لاسيما هذه السنوات الاخيرات يكونون قد بلغوا حد الاشفاء
ولم يبق عندهم رمق يقوم بهم الى الدفاع فكانت نتيجة احتلال فرنسة
لكيليكية خسارتها مائة مليون ليرة ونحو عشرين الف جندي والخروج منها

(١) تهامة ساحل اليمن .

ببعض شروط اقتصادية كانت تقدر على نيلها بدون سفك دم ولاهتك ستر ، ولكنها استطعمت قوماً ظنتهم صاروا ألين من حمل النعام فاذا بهم لم يزالوا افذ من ريش القنفذ. وعلمت انهم لن ينفكوا عن القتال عن ديارهم مهما درجت الايام وكرت الليالي فعدلت معهم عن المخاشنة الى المحاسنة وأخذ الجنرال غورو ينوه بمحامد الترك وحسن عهدهم ومحافظتهم على أصول الحرب وانه لولاهم لكان الا ن من الغابرين لانه لما جرح وطاحت يده في احدى وقائع الدردنيل نقل الى سفينة استشفائية رافعة علم (الصليب الاحمر) ثم كون الالمان لم يتوقفوا في الحرب عن ضرب مستشفيات كهذه (اظن أكثر المتحاربين لم يراعوا قواعد الانسانية في هذه الحرب لا الالمان وحدهم) امسك الاتراك عن ضرب تلك السفينة التي كان فيها غورو مع قدرتهم على اغراقها .

ثم صرح الجنرال غورو بهذه الشهادة في مجلس الشيوخ في اخريات هذه الاونة عند ماتقرر اخلاء كليكية ولكنه نسيها طول تلك المدة التي كان يذبح فيها اتراك اطنه ومرعش وعينتاب في بحبوحة اوطانهم املا بالاستيلاء على تلك الولاية . فاما قصة الامساك عن ضرب البارجة التي نقل اليها عند جرحه في الدردنيل فقد سألت عنها منذ ايام قلائل وهيب باشا الذي كان قائد الجيش العثماني في شطر الاناضول من (شناق قلعة) والذي كان هجوم الفرنسيس من جهته فقال لي هكذا : ان الجنرال غورو لم ينقل الى بارجة من بوارج المستشفيات كلا ! بل نقل الى بارجة رفعت علم الصليب الاحمر زورا وهذا مخالف لقوانين الحرب وعلى ذلك كان صدر الامر من الجنرال ليمان فون سندرس باشا قائد القوى العثمانية في الدردنيل بالضرب على هذه البارجة الحربية التي تحولت بغتة الى مستشفى فابيت انا انفاذ هذا الامر قائلا : يكفي انهم التجأوا الى الصليب الاحمر فنحن نكف عنهم حرمة له . آثرنا استقصاء هذه القصة لما فيها من الدلالة على مكارم اخلاق الشرقيين وعلى كون الغربيين قد يقرون بها عند ما تقضي عليهم بذلك السياسة ويغمطونها عند ما يرون انفسهم في غنى عنها

ثم ان الانكليز رتبوا على تركية معاهدة سيفر ولم يدر في خلدهم ان هناك امة تنهض من العدم الى الوجود في وجه الدول الغالبة في ابان عز وعنجهية ظفرها وتقول لهم بلسان حالها انكم حيث نسيتم مواعيدكم باستقلال الشعوب كل في دائرة سواده الاعظم وظهرتم قبل الظفر بمظهر وبعد الظفر

بمظهر آخر واحتقرتم بهذا التقلب انفسكم فاسمحوا لنا نحن أيضا بان نحتقركم وبان لا نخضع لمقررات مؤتمركم وبان نعامل مركزكم المادي الناهض كما نعامل مركزكم الادبي الساقط وان كنتم معتمدين على ضعفنا وتجريدنا من سلاحنا واحتلال عاصمتنا وحصر سواحلنا ووضع اليد على تجارتنا فاعلموا ان لضعفنا حداً وان لعجزنا امدا وان لنا سلاحا من عزائمنا وبرد يقيننا وجلاء حقوقنا ومنعة مواقعنا وسعة اراضينا ووعورة مسالكها وقلة احتياجاتنا ومن صبرنا على البلاء وبياتنا على اللاواء وان لنا من جميع الشعوب الشرقية عضداً ومن العالم الاسلامي ردءاً ومن طبقات العملة والاشتراكيين في جميع الدنيا حامياً ونصيرا ومن لنين وحزبه مؤنسا وسميرا بهذا كانت تتناجى ضمائر الاتراك وتتراسل جوائش صدورهم بعد ان علموا سوء نية الحلفاء وعملهم على الغدر بهم فقيض الله لهم من مصطفى كمال من جسم هذه الافكار افعالا وألبس هاتيك الخوالج من العمل رداء فما شعروا الا وفي الاناضول شعب يقول لبريطانيا العظمى قف فلن تكون ارادتك هي الاقدار الالهية ولن تبلغي السماء طولا واننا لقوم نريد ان نعيش كما يعيش غيرنا وان هذا الصلح الذي تحملوننا عليه هو محو لوجودنا ولسنا له بمقرنين وليس الحرب بأشد خطراً علينا منه ولا الموت الذي تهددوننا به أمر في افواهنا من الصلح الذي تمدوننا به لا فرق بين الموت الاحمر والابيض فكان جواب لويد جورج بما معناه ان معاهدة سيفر هذه آيات منزلات من السماء لن تقبل تحويلا ولا تعديلا ومنع الوفد التركي من الكلام وسد على افواههم في الخصام اولا وثانيا ورماهم بالجيش اليوناني تمده الجنود الانكليزية ودوارع بريطانية العظمى وفتح لليونان خزائن انكلترة لميرة جيوشهم وأعتادها وأباحهم من ولايتي ازمير في آسيا وولاية ادرنه في اوربة ماشاءوا بشرط ان ينفذوا له الاتراك ويأخذوهم اخذ عزيز مقتدر وبحت اصوات الهنود المجوس فضلا عن المسلمين في مطالبة انكلترة بانصاف تركية وتتابعت ثوراتهم فكانوا كانما يزيدون نار انكلترة على الترك اجيجا وكل هذا لاسترسال لويد جورج الى كلام فنزيلوس بانه يسحق قوة مصطفى كمال في ١٥ يوماً فمضت سنة وشهر واليونان يهاجمون والاتراك يدافعون وقوة حكومة انقرة هي الى الامام لا الى الوراء وجيش مصطفى كمال وان أعوزه كثير مما توفر عند غيره فقد عز بعد ذلة وعظم بعد قلة وجاءته

اعتاد من هنا ومن هناك واثبت انه قوة لايستهان بها وان الترك يحاربون في الاناضول سنين طوالا تنفتح اثنائها على انكلترة فتن مسقطة الآجال ومحن زلزال الجبال فعاد لويد جورج الى النظر في معاهدة سيفر وجوز التنقيح منها بعد ان كانت عنده آية لاتنسخ ومقعداً لايفسخ ولما رأت فرنسة وايطالية مارأتا من ثبات الاتراك وصعوبة مراسهم وكانتا تعلمان ان تبسط اليونان في الاناضول لاينفعهما في شيء وانما اليونان اصبحوا شرطة وجلاوزة (١) للانكليز على ابواب الدردنيل

وكانت ايطالية خاصة وقفت منذ نهاية الحرب وقفة المنصف المعتدل البصير بالعواقب في جانب العالم الاسلامي كله نصحتا انكلترة بالعدول عن هذا العناد والرجوع الى مبادئ تخيير الامم في تعيين مصيرها فرضي لويد جورج بقبول مندوبي انقرة في جنب مندوبي الاستانة مع انه كان ينعتهم من قبل بالعصاة ويعلن بأنه يستحيل بان يجلس في مؤتمر الى عصابة اشقياء فأجلسه مصطفى كمال بسيفه الى جانب « اشقيائه » واضطره الى تعديل كثير من شروطه ولكنه لما وصل الى مسألة تركية عاد لويد جورج الى عناده وابى بقاعدة تصويت الاهالي وقال هذه معاهدة تعتبر جوهراً فرداً فاما ان تقبل بزرها وعروتها واما ان ترفض بزرها وعروتها ولم يلبث ان رأى الخلف مع اليونان فيما كان اسلف من المواعيد نجاحاً للكبرياء البريطاني فعاد يسبر غور قسطنطين سراً عما اذا كان يقدر على استئناف الهجوم ليكون السيف هو الحاسم فيما بقي تحت النزاع فاجابه قسطنطين بان الامة اليونانية ناهضة الى الحرب نهوضا نجيحا كافلة اخماد جمرة الاناضول بشرط ان تمدها انكلترة بالاموال اللازمة وهكذا قر بينهما القرار وزحفت جيوش اليونان بقضها وقضيضها وجاءت بالشوك والشجر واحتلت افيون قره حصار وتباشرت ببلوغ الاوطار وتسحب الاتراك الى الوراء لايريدون ان يصلوا القتال الا على مقربة من قواعد حركاتهم فظن الاروام ذلك خورا وعجزا ودلفوا الى الترك طامعين في الغلبة واحتلال اسكي شهر فكانت هناك الواقعة الكبرى التي اسفرت بعد حرب استمرت اسبوعا عن هزيمة اليونان الشنعاء ووقوع فرقة تامة منهم في الاسر وامتلاء البطاح باشلاء قتلاهم وتلالات جرحاهم وسقط أخو الملك قسطنطين (٢) وبعض القواد الكبار

(١) الجلواز الشرطي والجمع جلاوزة (٢) لم يتحقق سقوط اخو الملك

في جملة القتلى وعاد اليونان يستصرخون دول الحلفاء ويستمدونهم على الترك وليس في دول الحلفاء الآن من تقدر على اصراخ اليونان فايطاليا تفرح بفشل اليونان فرح الترك أنفسهم وفرنسا لو كانت قادرة على الامداد لما اخلت كيليكيا وهي اليوم في شغل آخر من جهة المغرب وانكلترة لولم يمسها الاعياء لما طابت نفسها باخلاء العراق ولا تركت القوقاز ولا تحفزت لاخلاء فارس فكيف تقدر ان تبقي خزائنها مفتوحة لحكومة أثينا ودوارعها مرصدة لحماية الاروام

ولو نظرنا الى جمهوريات اذربيجان وكرجستان والطاغستان وقازان وطاشقند والباشكرد وامارتي بخارى وخيوة وكيف هبت كل من هذه الحكومات الى ترتيب أمورها وتأثيل استقلالها بعد ان كان الروس أودوا بقوميتها واحنوا على عصبيتها لرأيت الشرق قد ركب جناحي نعامة في طلب استقلاله واستئناف مجده وتفض غبار الذل عن أقوامه وهاهي فارس التي كان الروس والانكليز قد تقاسموها خطتين وتشطروها منطقتين ولم تجسر ان تقف في وجه واحدة من هاتين الامتين هبت اليوم تستنجز انكلترة الرحيل التام عن أرضها وأعلنت الغاء المعاهدة التي كانت قيدتها بولائها كما انها نجحت بمفاوضاتها مع الروسية السوفيتية بأنها نالت منها الاعتراف التام باستقلال ايران ونزول الروس عن كل ما كان لهم هناك من مرافق ومنافع وديون ومصارف الى الحكومة الفارسية

واما مملكة افغانستان التي هابت التهور في الحرب العامة مع جميع ميلها الى تركية فلم تقدر ان تجيب داعيها الى الحرب وشن الغارة على الهند لم تخمد نيران الحرب العامة حتى جدت بها نهضة لم تكن من قبل فعبت جيوشها واخترقت ثغور الهند ونهضت معها قبائل شمالي الهند المشهورة ببأسها ونجدتها كالوزيري والمسعودي وغيرهما فحشدت انكلترة لمصادمة هذه نحو ٣٠٠ الف مقاتل وهي منذ سنتين ونصف سنة لا تقدر ان تخلي شمالي الهند من الجيوش الجرارة المرابطة ولكن القبائل لا يمهلونها شهرا حتى يناوشوها شهرا فاما أمير الافغان فقد رضي بهدنة الانكليز على شروط منها الاعتراف للافغان بالاستقلال التام ليس في الامور الداخلية التي هو منذ الاول مستقل بها بل في الامور الخارجية ايضا فاجابته انكلترة الى ما اراد وصارت له سفارة في

موسكو وعقد مع الروس في هذه الايام الاخيرة معاهدة على قاعدة الولاء المتبادل وامداد السوفيت له بالسلاح والمدة واعادت الروسيا له مقاطعة على حدود تركستان كان يدعيها من القديم وهو اليوم ينظم جيشه على ايدي ضباط عثمانيين والمان ومن جملة من عنده احمد جمال باشا الذي اتصل بخدمته واثناء تحريري هذه الاسطر حضر وفد افغاني الى برلين مؤلف من ثمانية اشخاص يقلن ان مقصد بعثته تأسيس علاقات سياسية مع المانيا وتعيين سفير لافغستان لديها والاستضاءة بمعارف الالمان والارتفاق بصنائعهم كما ان عند امير الافغان معملا للسلاح أسسه منذ سنين جده المرحوم عبد الرحمن خان والامير الحالي امان الله خان ينوي تأسيس عدة معامل في بلاده وترقية المعارف والصناعات بين امته : وقد بلغنا ايضا ان في كل من امارتي بخارى وخيوه عددا من ضباط الاتراك العثمانيين يرتبون لهم امورهم ويدربون جنودهم

واذا عطفت نظرك الى شمالي افريقية الذي وان كان معدودا في الجغرافية من المغرب فهو في الصلة والعرف والدين والغرض معدود من المشرق تجد ان أهالي طرابلس الغرب فازوا باستقلالهم الداخلي وأوجدوا لانفسهم حكومة ذات شخصية مستقلة وان اهالي تونس نهضوا بطلب حكومة تمثيلية مهما ماطلت فرنسة فلن تقدر على منع ايجادها وان عند الجزائريين حركة وطنية لم توجد في وقت من الاوقات كما هي بعد الحرب فاما المغرب الاقصى الذي ظن الفرنسيس انه بعد الحرب العامة يستسلم الى بأس فرنسا الظافرة فقد ثار ثورة لم يقم بها اثناء الحرب وايام اشتغال فرنسا بدفع الالمان عن بلادها وعدا المائة الف جندي التي لفرنسا هناك جاء المرشال ليوتي يطلب تقوية الجيوش بتجريد ٨٠ الف جندي آخرين للفراغ من امر المغرب والله غالب على أمره وكل من يتأمل في هذه الحوادث وفيما يجري اليوم في بلاد الهند الواسعة وفيما نالته مصر يعلم ان الامم الشرقية قد نهضت من عثارها وهبت الى الاخذ بثارها وان أمام الشرق مستقبلا عظيما سيزعج الغرب من منامه وينزله عن صهوة غروره فانه مانم شيء الا بدا نقصه وما طار طير الا وقع وما انبسط جناح الا انقبض ولا يدوم بؤس كما لايدوم سعد وما زال الدهر يعود كما بدا ويكري كما أرمى (سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا).

(عربي صميم)

الخمر

اسم الخمر . مؤاخذة العلماء . اضرار الخمر الجسدية . اضرارها العقلية . اضرارها الاجتماعية . اضرارها الاقتصادية . اضرارها الادبية

يكني المسلمون الخمرة « أم الخبائث » وما أجدرها بهذه الكنية ، ومن أسمائها عند العرب « الاثم » قال الشاعر

شربت الاثم حتى ضل عقلي كذاك الاثم تفعل بالعقول

وقد حرمها بعض العرب على نفسه قبل الاسلام لغوائلها ومضارها . ومنهم عثمان بن مظعون (رضي الله عنه) قال : لا أشرب شيئاً يذهب بعقلي ، ويضحك علي من هو أدنى مني .

ثم جاء الإسلام فتدرج في التنفير منها الى تحريمها وفرض الحد على شاربها وقد سألوا النبي (ص) عند تحريمها فاذا نفعل بالخمر ؟ فقال « اهريقوها » فكانت شوارع المدينة كمجاري السيل مما أريق فيها من الخمرة

وما زال العقلاء والفضلاء في بلاد الغرب يشكون من فشوها وانتشار الامراض وقتل الوقت واضاعة المال بسببها حتى سنت الولايات المتحدة الاميركية قانوناً في اول سنة ١٩٢٠ يحرم صنعها والاتجار بها ودفعت بما كان مخزوناً لديها الى خارج بلادها حتى خشيت كندة — وهي أقرب البلاد اليها — من فشو هذه السموم في بلادها فحرمت استيراد الخمور من الخارج الا الى حد محدود فاندلق سيل هذه الطامة الجارف الى اليابان وفشا فيها فشوا فظيعا . وكانت حكومة روسية قبل ذلك منعت شرب نوع من الخمور يسمى « أبسنت » فحرمه غير واحدة من دول الغرب لشدة ضرره

وربما حرمت الخمر فيما بعد في جميع الامم الغربية وناهيك بجماعات مقاومة المسكرات فيها ، ولكن البلاد التي تعرف بأنها اسلامية مثل مصر والشام وتونس والجزائر لم يبد منها أية حركة ولم تنزعج أي انزعاج لهذا الخطب الجلل

فان قلت ان هذه البلاد اسلامية ولكنها ليست بدار اسلام أي ان حكوماتها غير اسلامية بل هي ذات شرائع غير شريعة الاسلام يتدارسها قضاتهم ومحاموهم ويحكمون بها وليس فيها تحريم الخمر فليس لاهلها شيء من الامر . فأقول : (ان صح منك الهوى ارشدت للحيل) لو ان الغيرة على الدين

الاسلامي بقي منها بقية عند من يسمون أنفسهم علماء الدين لتوسلوا الى منع هذه الموبقات بكل وسيلة وسلكوا اليه كل طريق

هل سمعت بأن أحد الشيوخ طلب تعديل لائحة أو قانون لتقويم الاخلاق؟ ألم يبلغ العلامة فلان أن ابنه الاستاذ فلان سكير؟ ألم يعلم علم الاعلام بان ربيبه من أفسد الناس أخلاقاً؟ أولم يشاهدوا من أمامهم ومن ايمانهم ومن شمائلهم من مفككات روابط الاخوة ومفسدات الاخلاق بسبب الخمر وغيرها من الموبقات مالو ألقي على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وسوء المنقلب

كيف تسنى لرجال الدين في بلدة (اورنبورغ) — فيما اتذكر — ان طلبوا من الوالي الروسي بان يصدر أمراً ادارياً بحتم اقفال الحانات في نهار رمضان — أيام الحكومة القيصرية — فأصدر بذلك أمره بعد الاستئذان من العاصمة (بطرسبرج) وان يلقى القبض على من يرى من المسلمين مفطراً في رمضان ويؤتى به الى الامام فان انتفى بوعظه وارشاده والا سجن يوماً أو يومين. كذلك صدر الامر باقفال الحانات أيام عيد رمضان وفتئذ بطلب علماء الدين .

وهذا الشرطي الفرنسي يلقي القبض على المسلم المفطر في رمضان في دمشق ويرسله الى المحكمة لتقتص منه فهل طلب مشايخنا منفردين أو مجتمعين أيصاد حانة أو ماخور مما في جوار المساجد والمعابد تنفيذاً للقانون المصري الذي يحظر ذلك دع عن مطالبتهم الحكومة بسن قوانين جديدة لحفظ الآداب؟ قد كان يرجى ذلك أو بعضه لو كانوا يعلمون ان مكانتهم الدينية توجب عليهم ذلك من طريق الدين والادب والاقتصاد

ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه مالا يرى

للخمر مضار في الافراد والجماعات من صحية وعقلية واقتصادية وأدبية الخ وقد ذمها كل عاقل حتى من كان ولوعا بها وها نحن اولاء نذكر أهم اضرارها:—

اضرار الخمرة الجسدية

(١) منها الخمول والهبوط اللذان يحدث منهما زيادة التنبه في الاعصاب ويهيجان بالسكر فيتناول شيئاً من الخمر فينهض به من خموله ويرفع من هبوطه الجسدي والعصبي ولسان حاله ينشد قول أبي نواس (وداوني بالتي كانت هي الداء) ولكنه لايلبث ان يعود فيتولاه الخمول والانحطاط ثانية بحكم رد الفعل و يحكى ان بعض المدمنين من الفرنسيين قال عن نفسه ان أول كأس شربه

انما كانت ليزيل بها هما عراه وكل ماشربه بعدها كان ليزيل به ما اسأرته الكاس الاولى من الهموم قال المتنبي :

اذا استشفيت من داء بداء   فأقتل ما أعلك ماشفاكا

وقد سبقه الى ذلك المدمن العربي القائل

وكأس شربت على لذة   وأخرى تداويت منها بها

(٢) ومنها فساد المزاج واعتلال الصحة لانها تحدث أمراضاً مهلكة وادواء معضلة (منها) السل الرئوي الذي قيل : ان سبع الوفيات في العالم بسببه وان ستين في المئة من أموات أبناء العشرين من المسلولين ، وكأمراض الكبد والرئتين والكليتين . وقد قال أحد الاطباء : ان تسعة اعشار المصابين بهذا المرض من السكارى والسكر هو السبب في مرضهم (ومنها) أمراض النخاع الشوكي والعضلات الدموية مما يتسبب منه الرثية (الروماتيزم) وتصلب الشرايين (ومنها) فقر الدم (ومنها) تلبك المعدة لان السكير يكثر أكله ويضعف هضمه (ومنها) تمدد المعدة واسترخاؤها

اضرار الخمر العقلية

(١) من اضرار الخمر العقلية الخمار (بوزن غراب) الذي يدعو الشارب الى المعاودة فالادمان .

(٢) ومنها فساد الاخلاق لاختلال اعتدال القوى النفسية

(٣) ومنها اختلال نظام العقل فالانفلات من كل قيد من قيود الوقار والحكمة. وما أحسن ما أجاب به مجنون دعاه سلطان الذي شرب الخمر ليشربها معه فقال: « انت شربتها لتكون مثلي فأنا أشربها لا كون مثل من »

بل هي جنون . قال ابن الوردي :

واهجر الخمرة ان كنت فتى   كيف يسعى في جنون من عقل

(٤) ومنها الذهول العصبي والنوبات الهستيرية

اضرار الخمر الاجتماعية

(١) من اضرار الخمر الاجتماعية ضعف النسل فانقراضه لان مدمني الخمر كثيرا ما يصابون بالعقم ومن يلد منهم فانما يلد نسلا ضعيفا دميا أو أبله معتوها وقد تدل النسل ... [illegible]

ان انقراض الامم المتوحشة سيكون بفتك الاشربة الروحية بهم

(٢) ومنها فساد التربية المنزلية لان السكير لايلتفت الى تربية اولاده واذا وكل أمر تربية الاولاد الى المربين ذهبت مقومات الامة وتقاليدها خصوصاً في بلاد كهذه البلاد التي يقصد بتربية ناشئتها الى تربية خاصة تمسخ الامة مسخا وتجعلها بين بين فلا هي جاهلة ولا هي متعلمة وتحملها اوزاراً من زينة الاوربيين وازيائهم تكون هي الذاهبة بشخصياتهم ومقوماتهم

(٣) ومنها سد باب النبوغ والاختراع في الصناعات والزراعة اذ ان السكارى لايشغلهم شاغل عن مواصلة الشرب فان كان السكير من ارباب المصانع فسد نظام مصنعه وان كان من أصحاب الارض اختل نظام زراعتها فاننا نرى كثيراً من أهل الثراء الذين لا يعرف السكير منهم موسم أرضه ولا ماذا أصلح فيها الزراع أو أفسدوا ، ومنهم من لا يعلم من احوال ملكه شيئا او يكل ذلك الى مدير العمل والكاتب والجابي، وكثيراً ما نرى امثال هؤلاء من غفلة اولئك الذين اصبحوا فقراء لم ينالوا من ثروتهم الا ماتعودوه من السكر الذي يلجئهم الى التسول ومنهم كثير في مصر تعرفهم بسيماهم نرى أمثال هؤلاء وهم على ما وصفنا

(٤) ومنها ايقاع العداوة والبغضاء بين اعضاء الاسرة الواحدة وافراد الامة مما يفكك روابطها وينفث في عضدها ويجعل بأسها بينها شديداً فكم تقاطع الاخوان وتفرق الزوجان وانفرط عقد الاخوان وعق الوالدان واهمل امر الولدان بسبب بنت الحان ؟؟

اضرار الخمر الاقتصادية

حقاً ان داء مصر في المسكرات لدوي اذ ان معدل مايشربه المصري يزيد على ضعفي مايشربه الفرنسي وبلاد الفرنسي تنتج له من الخمر مايشربه ويتجر به في الخارج ولكن مصر لاتصدر خرا خارج حدودها ولاتنتج مايستهلكه اهلها فضرر الخمر الاقتصادي فيها اكثر منه في كل بلد في المعمور لذلك يثرى الخمار في مصر بسرعة، فمن اضرارها الاقتصادية

(١) اسراف المدمنين فيها اسرافاً كثيراً ما ذهب بكل ما يملكون وتتسرب اموال الامة الى البلاد الاجنبية بسبب ذلك ولم يقتصر ذلك على الريع والانتاج فحسب ولكنه تعدى الى رقبة الارض فكم من المزارع ـ والتفاليش ـ

والضياع ـ والعزب ـ والاباعد تحولت في الحرين والقرادين من اسه يوان ؛
(٢)ان المقدر ان تحريم الخمور في الولايات المتحدة يوفر لاهاليها اربع مئة مليون جنيه في السنة مما كان ينفق في الخمر ووسائلها ، اذاً ماذا يقدر ان يوفر تحريم المسكرات لاهل مصر؟ انه لايقل عن ٦١ مليون جنيه في السنة اذا قدر ان المصري لا ينفق في سبيل الخمر أكثر من اربع جنيهات في السنة وان أرجح انه ينفق ثمان جنيهات في هذه السبيل واذا فرض صحة هذا الترجيح فان تحريم الخمر في هذه البلاد يوفر أيضا لاهلها ١٢٢ مليون جنيه في السنة تضاف الي رأس مال الامة
(٢) انقباض رأس المال ، والتمادي في استهلاك رأس المال هو الانتحار الاقتصادي السياسي . وهذه حالة مفزعة ظهر أثرها في مصر ظهوراً بيناً . نعم اذا بحثت في أسباب ذهاب الثروة وانتقال الاموال الثابتة الى الاجانب فلا ترى الا سبباً واحداً هو الخمر وهي رسول الميسر وداعيته ـ اذ قلما ترى سكيراً غير مقامر ـ فظهر مصداق قوله تعالى (فيهما اثم كبير) وأي اثم اكبر من هذا الاثم الذي هو علة خسران الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين
(٣) ومنها استهلاك معظم الانتاج وبعض رأس المال وتسير به الى الخارج البلد وأي انحطاط اقتصادي أدنى من هذا الانحطاط

اضرارها الادبية

(١)من اضرارها الادبية : ذهاب الحشمة والوقار فان السكير لاقيمة له بين أهله وولده وحشمه وجيرانه
(٢) ومنها قتل الوقت في الحانات وتوالى الشراب وذلك مما يذهب بالاحترام الشخصي ويخل بالمكانة الادبية.
(٣) و٤ ـ ذهاب الحياء والصد عن ذكر الله وعن الصلاة . ولاحياء لمن لادين له ولادين لمن لاصلاة له وذكر الله جلاء القلب ونور الروح ومصباح المدلج ؟

لم أرد بهذه العجالة أن أضيف الى المنار بحثا أهمله فقد أغنى المنار عن المهلكات ـ ومنها الخمر ـ من أول نشأته وأبعد ما أذكره ما في المجلد الرابع في ص ٨٨١ ـ ٨٩٠ وفي ص ٨٩٧ وأثر ٩٠٠ في الجزء الثاني من التفسير

صالح مخلص رضا

شذرات أدبية (*)

١ — آداب المكاتبة

أو المجاملة والقناعة

كان محمد بن حازم الشاعر جار سعيد بن حميد (١) الكاتب الطوسي فهجاه لامر كان بينهما فبلغ سعيد هجوه فأغضى عنه مع القدرة ثم ان محمداً ساءت حاله فتحول من جواره فبلغ ابن حميد ذلك فبعث اليه عشرة آلاف درهم وتخوت ثياب وفرسا بآلته ومملوكا وجارية وكتب اليه « ذو الادب يحمله ظرفه على نعت الشيء بغير هيئة ، وتبعثه قدرته على وصفه بغير حليته ، ولم يكن ما شاع من هجائك في جاريا الا هذا المجرى . وقد بلغني من سوء حالك وشدة خلتك ما لا غضاضة به عليك مع كبر همتك وعظم نفسك ، ونحن شركاء فيما ملكنا ومتساوون فيما تحت أيدينا ، وقد بعثت اليك بما جملته وان قل ، استفتاحا لما بعده وان جل » فرد ابن حازم جميعه ولم يقبل منه شيئا وكتب اليه .

وفعلت بي فعل المهلب اذ غمر الفرزدق بالندى والدثر
فبعثت بالاموال ترغبني كلا ورب الشفع والوتر
لا أقبل النعماء من رجل ألبسته عارا على الدهر

٢ — آداب المعاشرة

اني ليهجرني الصديق تجنبا فأريه أن لهجره أسبابا
وأخاف ان عاتبته أغريته فأرى له ترك العتاب عتابا
واذا بليت بجاهل متغافل يدعو المحال من الامور صوابا

(*) جمعها شقيقنا السيد صالح مخلص رضا

(١) سعيد بن حميد ويكنى ابا عثمان وكان ، يدعي أنه من أولاد ملوك الفرس له من الكتب انتصاف العجم من العرب ويعرف بالتسوية ، وديوان رسائل وديوان شعر صغير وهو شاعر أديب مترسل عذب الالفاظ مقدم في صناعته جيد السرقة حتى قال بعض الفضلاء : لو قيل لكلام سعيد وشعره ارجع الى أهلك لما بقي منه شيء

أو ليته مني السكوت وربما كان السكوت من الجواب جوابا
الناشئ الاصغر (١)

٣ ـ التقسيم العجيب

لح كوكباً وأبد غصنا والتفت ريما فان عداك اسماؤها لم تعدك السيما
وجه أغر وجيد زانه جيد وقامه تخجل الخطي تقويما
يامن تجل عن التشبيه صورته أأنت مثلت روح الحسن تجسيما
لو شاهدتك النصارى في معابدها ممثلا ربمت فيك الاقانيما
حبوبي (٢)

٤ ـ ومنه في وصف مغن

رنا ظبيا وغنى عندليبا ولاح شقائقا ومشى قضيبا
بعض الشعراء في عصر الثعالبي (٣)

٥ ـ ومنه

بدت قمراً ومالت خوط بان وفاحت عنبراً ورنت غزالا
المتنبي (٤)

٦ ـ ومن الابداع في هذا

وبيض بألحاظ العيون كأنما هززن سيوفاً وأسللن خناجرا
تصدين لي يوما بمنعرج اللوى فغادرن قلبي بالتصبر غادرا
سفرن بدوراً وانتقبن أهلة ومسن غصوناً والتفتن جآذرا
وأطلعن في الاجياد بالدر أنجما جعلن لحبات القلوب ضرائرا
الزاهي (٥)

٧ ـ الانحياز الى العدو عداوة

اذا المرء عادى من يودك صدره وكان لمن عاداك خدنا مصافيا

(١) هو ابو الحسن علي بن عبد الله بن وصيف المعروف بالناشئ الاصغر الشاعر المشهور وهو من الشعراء المحسنين له في أهل البيت قصائد كثيرة توفي سنة ٣٦٦
(٢) محمد سعيد حبوبي توفي في القرن الثالث عشر (٣) عبد الملك بن محمد بن اسماعيل النيسابوري الثعالبي صاحب اليتيمة توفي سنة ٣٢٩ (٤) احمد بن الحسين المتنبي قتل سنة ٣٥٤ (٥) الزاهي هو علي بن اسحاق بن خلف البغدادي المعروف بالزاهي توفي سنة ٣٥٤

فلا تسألن عما لديه فانه هو الداء لا يخفى بذلك خافيا

صعصعة بن ناجية

واحذه معصوم فقال

٨ — اذا صافى صديق من تمادى فقد عاداك وانقطع الرجاء

٩ — رثاء برذون

كان لمحمد بن عبد الملك برذون اشهب لم ير مثله فراهة وحسناً فسعى ساع الى المعتصم ووصف له فراهته فبعث المعتصم اليه فأخذه منه فقال ابن عبد الملك يرثيه

كيف العزاء وقد مضى لسبيله عنا فودعنا الاحم الاشهب

ومنها فالآن اذكمات اداتك كلها ودعا العيون اليك لون معجب

واختير من سر الحدائد خيرها لك خالصاً ومن الحلي الاغرب

وغدوت طنان الحديد كانما في كل عضو منك صنج يضرب

وكأن سرجك اذ علاك غمامة وكأنما تحت الغمامة كوكب

ورأى علي بك الصديق جلالة وغدا العدو وصدره يتلهب

ومنها اضمرت منك اليأس حين رأيتني وقوى حبالي من قواك تقضب

ورجعت حين رجعت منك بحسرة لله ما فعل الاحم الاشهب

١٠ — توافق الخاطرين ، بين الشاعرين

خرج جرير والفرزدق مرتدفين على ناقة الى هشام بن عبد الملك الاموي وهو يومئذ بالرصافة، فنزل جرير لقضاء حاجة فجعلت الناقة تتلفت فضربها الفرزدق وقال : —

الام تلتفتين وانت تحتي وخير الناس كلهم أمامي

متى ترد الرصافة تستريحي من التهجير والدبر الدوامي

ثم قال : الآن يأتيني جرير فأنشده هذين البيتين فيقول :

تلتفت انها تحت ابن قين الى الكيرين والفأس الكهام

متى ترد الرصافة تخز فيها كخزيك في المواسم كل عام

— فجاء جرير والفرزدق يضحك ، فقال : مايضحكك يا أبا فراس ؟ فأنشده البيتين الاولين فأنشده جرير البيتين الآخرين ، فقال الفرزدق : والله لقد قلت هذ . . . فقال جرير أما علمت أن شيطاننا واحد ؟ (يتلى)

باب انتقاد المنار

رد جريدة القبلة

على الحقائق الجلية في القضية العربية

نشرنا في الجزء السادس من المنار ذلك المقال المطول في تلخيص حقائق المسألة العربية فكتب احد المتملقين لامراء مكة في جريدة الأهرام يؤاخذنا على نشر ذلك المقال الذي زعزع الثقة بمن اتخذهم هو وأمثاله زعماء العرب مشايعة لسياسة الانكليزية التي سخرتهم لمساعدتها على تقويض صرح اكبر دولة اسلامية يعتز بها المسلمون في مشارق الارض ومغاربها والثأر للملك الانكليز قلب الاسد ومن كان معه من الصليبيين من المسلمين، وفتح القدس واستعمار سائر بلاد العرب . ولم يستطع هذا الكاتب أن ينقض قضية أو يكذب كلمة من مقالنا وانما كانت مقالته عبارة عن لوم وتثريب، وتهكم وأكاذيب، زعم فيها أن صاحب المنار ادعى انه كان في دمشق ثاني الملك فيصل وان المؤتمر السوري كان آلة بيده... ولو صح أن المقال كان يتضمن هذه الدعوى وأنها دعوى باطلة لما كان ذلك بدافع شيئاً من انكارنا على امراء مكة ما أنكرناه عليهم باسم الشرع والدين والمصلحة العربية

وقد كان من جناية ذلك الكاتب على زعمائه الذين أراد الدفاع عنهم أنه حملنا وحمل غيرنا على كتابة مقالات في المسألة العربية ونشرها في تلك الجريدة اليومية التي يقرأها الوف من الناس لا يقرأون المنار فعرفوا جناية أولئك الامراء على الاسلام والعرب وانه لا يملك أحد من أشياعهم أن ينقض من الحقائق التي أثبتها المنار شيئاً .

ثم اننا اطلعنا على العدد ٥١٠ من جريدة القبلة التي تصدرها حكومة الحجاز في مكة المكرمة الذي صدر في ١٨ ذي الحجة الحرام سنة ١٣٣٩ فرأينا في صدره مقالة في الرد علينا مكتوبة بذلك القلم المعروف لكل المطلعين على تلك الجريدة بانشائه الغريب فرأيناها كما كتب الينا بعض من اطلع عليها قبلنا ونحن في مدينة (جنيف) من بلاد سويسرة من أوربة اذ قال: «وجدتها بمكان سحيق من السخافة يكفي في الرد عليها نشرها» فرأينا ان ننشرها ونرد عليها وان كان رأي صاحب هذه العبارة صحيحاً لان سائر جريدة القبلة مغرور

مفتون بكل مايكتبه فينبغي ان نريه قيمة ما كتب بما فيه عبرة وفائدة لقراء المنار » وهذا نصها :

أأعجمي أم عربي؟!

تحقق لدينا في هذا الاسبوع — احتدام غيظ وغضب وعداوة وبغضاء مولانا . . . ومصباح ظلامنا . . . رشيد رضا — على سيدنا مولانا المنتقد وأنجاله بما رأيناه في عدد (١٣٥٠٠) من « اهرامنا » الاغر من كرته بالتنديد المعلوم الشكل والماهية !

وعليه فلا يسعنا أن نأتي بشيء في الموضوع الا بياناً بأن الروابط التي يزعمها حضرته تجعلنا نسترحم عواطف مدارك ارشادات كالاته العفو والصفح : . . ولا نظن أن عظم جريمة . . سيدنا المنتقد وأنجاله في نظره — ينسيه : «والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس» أقله ان العظمة والكبرياء والمدارك والاحاطات التي وصف بها ذاته المعظمة وحصرها في شخصه وتميزه دون سواه بتلك الفضائل . . . والجلائل . . . — تأبى شهامتها المبادأة بأبسط من ذلك التمريض «الذي هو على طرف نقيض» حتى بالاجانب فضلا عمن تزعم أنك من عنصرهم وهذا لا نشك أنه من نجابة دستور شعور تلك السجايا والمزايا . . .

ومع ذا فلا نظن أن نجابة دستور ذلك الشعور تحظر علينا أن نسائل مولانا (الذي أفهمتنا بياناته المذكورة بكل صراحة أنه أصبح اليوم مرشد الامة الاوحد . . . وهاديها الفرد الاعبد . . .) أولا : أهو عربي أم أعجمي ؟ . واذا كان الاول فليسلسل وثائقه الى الفخيذة التي يريد أن ينتمي اليها . وسؤالنا هذا هو ليتضاعف قدره . . . وتترادف كبرياء

عظمته . . . لدينا ليس الا

ولا بأس أن نشفع طلبنا هذا بقولنا : ان تجابة شعور ذلك الدستور تقضي علينا أيضاً بأن نكتفي من البحث في الموضوع بما أورده أحد قرائنا الافاضل مما ادرجته « القبلة » في عددها الذي قبل العدد الماضي المتضمن الرد على عداء مصباح الظلام ومرشد الانام بقوله :

(يعرض الاستاذ بآرائنا في شؤون المسألة السورية فنقول له : عساه ان يتأمل مواقفهم وأعمالهم الناجحة باخراجهم « بقدرة الباري » للجنرال ليمان فون سندرس وما ادراك ما سندرس من سورية ويطابقها على نتائج مواقف حضرته التي أدت الى تسليم تلك البلاد للجنرال غورو. ولا يمكن الشيخ رشيد رضا أن ينكر هذا وهو القائل بأنه كان الآمر الناهي في دمشق يولي من يشاء ويعزل من يشاء من الوزراء ويقرب من يشاء ويبعد من يشاء الخ) انتهى

فاذا تأمل رشيد بل وكل متأمل — هاتين النتيجتين اللتين جمعتا فأوعتا القضية من مبدأها الى منتهاها بعد تطبيقها ومقايستهما على ماذكر — تظهر الخلاصة الجوهرية التاريخية التي يريدها الشيخ رشيد بقوله : (الحقائق الجلية في تاريخ القضية العربية) : عنوان مقالة تنديده بسادتنا

فهل وراء اخراج سادتنا وقادتنا على مرأى من حضرته والعالم لسندرس وألمانيته ، وادخال مولانا الاستاذ وهيأته كما ذكر لغورو وافرنسيته — حقائق تاريخية عن سوريتنا وحوادثها ؟ أو هل يقتضي بحث أي مؤرخ فيها ؟ ربنا لاتضلنا بعد اذ هديتنا

لاندري وأبيكم كيف فات على تلك العظمة وكبريائها بأن الكثير حتى

من البسطاء أدرك ما في اظهار تلك العظمة والانانية لهذا العداء والبغضاء ومصارحتها به اثر ما يزعمه المبشرون عن كيفية الاعتداء على صديقنا غورو وجعلهم يحكمون بأن تلك المظاهر بالتحريض والنيل من أشبالنا[1] وسراتنا هو فصل من تلك الفصول وبقلة من تلك الحقول؟ ... فليتأملوا!!

أما بحثه عن عدائنا للترك فقد أجاب عنه طليعنا في عدد (١٣٠٤) من اعدادنا بقوله للشيخ رشيد :

(لقد أخطأت في اشارتك على جلالة ملك الحجاز «بحسب تصحيحك الاخير» «بعداوة» الاتحاديين التي أدت الى محاربتهم وهذه أدت لمحاربة الاتراك لكون الامة التركية كانت تأتمر بأمر الاتحاديين ولم يكن بالامكان سوى ذلك فهل للسيد الاستاذ ان يبرهن عما اذا كانت العداوة لا تؤدي الى الخصومة والخصومة الى القتال سيما اذا كان ذلك بين عنصرين وفي زمن حرج كالزمن الذي سافر فيه الاستاذ الى الحجاز أثناء الحرب العامة؟ وما حمل جلالة ملك الحجاز لمناوتهم الا ما كان يسمعه من ظلم جمال وقتله خيرة أبناء سورية وما كنتم تكتبونه في المنار من التحريض ضد الاتحاديين بعد عودتكم من الاستانة وما كان يذكره في الجرائد العربية طلاب الاصلاح في سورية . فعل ما فعل ولكن الظروف الاخيرة عاكسته وتخلى عنه حلفاؤه بعد ان داسوا حقوق الشعوب الضعيفة ولم يراعوا عهوداً ووعوداً فالقوة القاهرة اليوم لا تمنع امة بأسرها من المطالبة بحقها المشروع والذود عنه يوما ما) انتهى

ومع هذا فلا بأس من ان نشفع ذلك بقولنا أيضا : انه يعز علينا أن

---

(١) ليتأمل القارئ، كلمة أشبالنا ومن قالها

أنانية تلك العظمة والكبرياء تنقض اليوم ما دلته بالامس فان منارنا . . . ومظهر فخارنا . . . كما أنه موجود لدينا – ضروري انه موجود أيضا لدى كثير من قرائه فانه مشتمل على الغارات الشعواء التي شنها مولانا على الترك بما هو معلوم

ومع ذلك فلابد أن هناك دواعي . . . وأسبابا . . . لهذا التخليط والتخبط والتغليط لا تدركها الا أنانية تلك العظمة والكبرياء ! . . غير اننا والحالة هذه نلتمس احاطة مداركها ارشاد العالم الى من يجب أن يتبعوه الآن : أهم يقتدون بأنقرة أم القسطنطينية ؟ والله يهدي من يشاء الى الصراط المستقيم

.ويحسن بنا أن نلفت أنظار المتأملين والمدققين – الى ما نقلته البرقيات الاخيرة وكثير من الصحف عن عزم الكماليين على اخلاء انقرة وانتقالهم الى قيصرية – ليطبقوا هذا النبأ على استعجال الشيخ رشيد بضرب المثل تيم في مباحثه التنديدية بسادتنا في كفاءة الزعامة وقيامهم بشؤونها ولا نظن (ان صح تركهم لانقرة) الا انه لا فرق بين ذلك وبين تسليمك يامولانا لدمشق » اه كلام جريدة القبلة بنصه السقيم وغلطها المعروفة

(المنار)

لوأردنا أن نرد على كل مافي هذه المقالة من الخطأ والخطل الشرعي واللغوي والسياسي لشغلنا قراء المنار زمناً طويلا بمسائل يفضلون جميع مباحث المنار عليها فنكتفي اذاً بما نراه مفيدا من ذلك

عجز سياسي القبلة أو سائسها أن ينقض شيئا من « الحقائق الجلية » التي أثبتناها في مقالنا التاريخي فحصره الانكار والرد علينا بما أورد في مقالته يتضمن الاعتراف بتلك الحقائق كما سبق لنصيره الذي رد علينا في الاهرام، ثم أورده ينحصر في مسألتين مبتكرتين ، ومسألتين منقولتين

اما المسألتان اللتان جادت بهما قريحة سائس القبلة وقلما يصدر مثلهما الا من ذلك الفكر الغريب ، والدماغ المخالف لسائر أدمغة البشر في التركيب ، فأولاهما وأولاهما بالتقديم ما أشار اليه بعنوان المقالة: أأعجمي ام عربي!

انكار جريدة القبلة لكون صاحب المنار عربيا

شرح سائس القبلة هذا العنوان بما صرح فيه باخراجنا من الامة العربية والحاق نسبنا بالاعاجم والظاهر انه يعني بهم الترك الذين انكرنا عليه عداوته لهم ومحاربتهم ايام توليا للانكليز ولنا في هذه المسألة ابحاث :

(١) اذا كان يعني ان صاحب المنار تركي الاصل أو غير عربي بدليل ما كان من غيرته على الدولة العثمانية فاكثر مسلمي الارض من عرب وعجم اتراك لانهم يشاركون صاحب المنار في رأيه وشعوره في الامة التركية والدولة العثمانية حتى اهل الحجاز وفي مقدمتهم الشرفاء فقد علمنا بالخبر وخبر الثقات أن أكثرهم قد ساءه الخروج على الترك وسقوط حكومتهم وانهم يفضلونها على حكومتهم الحاضرة ولكنهم لا يستطيعون التصريح بذلك الالمن يثقون بأنه لا يفشيه لحاكمهم المطلق

(٢) اذا كان من ينتصر لقوم ويدافع عنهم ولو بالحجة والبرهان لا يكون الا من المشاركين لهم في نسبهم فما القول فيمن ينتصر لقوم باللسان، والسيف والسنان، ويحارب أهل دينه ويخرج على سلطانه وخليفته ويتولاهم عليه ؟ أليس هو الاولى بأن يعد منهم ان لم يكن بالنسب فبقوله تعالى (ومن يتولهم منكم فانه منهم)

(٣) بعد ان خاطب سائس القبلة صاحب المنار بقوله « تزعم انك من منصرهم » اي العرب سأله سؤال تعجيز: أهو عربي ام عجمي؟ (قال) « وان كان الاول فليسلسل وثائقه الى الفخيذة التي يريد ان ينتمي اليها » — تأمل قوله يريد ان ينتمي اليها — فياليت شعري هل القاعدة عند من يريدون ان يتولوا ملك العرب الا يعتدوا بعربية احد الا اذا جاءهم بوثائق مسلسلة الى الفخذ او الفخيذة التي ينتمون اليها او يريدون الانتماء اليها ؟ أم ذلك خاص بأهل الحضارة من عرب سورية والعراق وامثالها كمصر والمغرب الادنى والاقصى؟

(٤) ان سائس القبلة يعلم اننا ننتمي الى آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ويريد ان يطعن في نسبنا طعناً بليغاً باخراجنا من الامة العربية بأسرها جهلا منه بدينه وبنفسه فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم « اثنتان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب والنياحة على الميت » رواه احمد في مسنده ومسلم في

صحيحه . والمراد ان ذلك من اعمال الكفر والجاهلية . ونحن قد ذكر لنا بعض أهل بيوتات مكة ماهو مشهور فيها من ان بعض كبراء أمرائها ... قد ثبت بطلان نسبه في المحكمة الشرعية بشهادة الشهود لدى القاضي الشرعي بأن امه - وهي مملوكة بالطريقة المعروفة اليوم وهي غير شرعية غالبا - دخلت بيت ابيه وهي حامل به ووضعته قبل ان يتم لها في داره اقل مدة الحمل الشرعية وحكم القاضي بذلك . فقلنا لكنه يدعي النسب العلوي وحكم الشرع أن الناس مأمونون على أنسابهم وان الطعن في النسب من عمل الجاهلية ونحن لم نطلع على الحكم الشرعي الذي تذكرونه ، فأين هذا الادب الشرعي من جرأة سائس القبلة وعدم مبالاته بالشرع والدين ؟

(٥) يقول سائس القبلة متهكما كعادته انه سأل صاحب المنار عن الوثائق المذكورة « ليتضاعف قدره .. وتترادف كبرياء عظمته .. » لديه أي بالصحيفة الحقيرة التي يريد الانتماء اليها . وجوابه ان صاحب المنار على كونه شريف النسب وعنده وثائق وجميع اهل قريته (القلمون) ماعدا الدخلاء - وهم قليلون معروفون - شرفاء ونسبهم متواتر في بلادهم يضرب به المثل فيقال : سيد شريف من القلمون - وذكرهم بعض المصنفين وعلى كونه هو أشهرهم في ذلك حتى اذا اطلق لقب « السيد » عند اهل العلم والادب والوجاهة في طرابلس وبيروت ينصرف اليه - لم يفتخر يوما من الايام بنسبه لا قولا ولا كتابة (*) فهو يدع الكبرياء والاعجاب بالنسب لمن حرموا من هداية الشرع وآدابه ومن الفضائل الذاتية فلم يجدوا لهم مفخراً يتكبرون به على الناس الا الانتماء الى اولئك الآباء الذين كرمهم الله تعالى بالعلم والهدى لا بمجرد النسب ، فأبو لهب أخو حمزة والعباس رضي الله عنهما . وقد قال الله تعالى (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا

(*) قد يرد علينا ما يحفظه بعض الادباء من قولنا في القصيدة الشرقية التي نظمناها كسائر شعرنا في الحداثة زمن طلب العلم

معلقات فحول الشعر قاصرة عنها كمقصورة الشهم الدريدي
تطوى قصائدهم طي السجل اذا ماساجلت شعر كندي وعبسي
رثت من فصحاء الهاشمية ان تنشر ومن لسن النسل الحسيني

والجواب ان هذا فخر بالفصاحة لم يقصد به الفخر بالنسب بل لم يقصد من الفخر الا أسلوبه ، على اننا نستغفر الله منه ومن مثله في قصيدة الجاذبية

ان أكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير) وقد روى الترمذي في جامعه وغير من حديث ابن عمر أن النبي (ص) طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الاركان بمحجنه فلما خرج لم يجد مناخا فنزل على ايدي الرجال فخطبهم فحمد الله وأثنى عليه وقال « الحمد لله الذي اذهب عنكم عيبة الجاهلية وتكبرها بآبائها ، الناس رجلان برتقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله والناس ، والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب قال الله تعالى (يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا — الى قوله — خبير) والاحاديث في هذا الباب كثيرة

ثم ان صاحب المنار لا يعد شرف النسب سبباً للكبرياء كغيره بل يرى ان للكبرياء سبباً واحداً وهو شعور المتكبر بمهانة يحاول اخفاءها بتكلف اظهار ضده كبيراً ، على انه لو كان يفاخر بعلم اونسب لما كان يحفل بأن يكون من العظماء في نظر سائس القبلة بعد أن علم من حاله ومن العظماء في نظره ما علم . الكبر غمط الحق واحتقار الناس كما عرفه سيد العرفاء (ص) وصاحب المنار يحمد الله تعالى ان وفقه للخضوع للحق والاعتراف به ولو على نفسه وقومه وهو يطالب أهل العلم والرأي بمناره في كل سنة ان يبينوا له ما لعله اخطأ فيه الحق ليرجع اليه ولم يجعله كمن لا يتجرأ أحد على مراجعته في خطأ ديني ولا سياسي حتى انه حرف بعض آيات القرآن لفظاً ومعنى وكذب على الرسول فيما عزاه اليه من الموضوعات وقد أرشدنا بعض محرري القبلة الى تنبيهه فلم يتجرؤا بعد ان جربوا النصح والتنبيه فأهينوا وهو يحتقر العلم والعلماء ومن فوقه من السادة والامراء

(٩) لو صدق سائس جريدة القبلة ومحاميه الدكتور طليم في زعمهما أن صاحب المنار قد افتخر بأنه كان في دمشق ثاني الملك بكونه رئيس المؤتمر السوري العام الذي كان يمثل الامة وله صفة ما يسميه علماء السياسة بالجمعية التأسيسية لما كان أبعد عن الصواب وأحق بالنقد من جريدة القبلة وسائسها بما نشر فيها من الفخر والتبجح بقول التيمس ان البريطانيين حاولوا البحث عن بدل السلطنة العثمانية البالية فوجدوا أبدالا ذكرت التيمس منهم العرب وفلسطين الجديدة وأرمينية الجديدة . فجعل سائس القبلة هذا القول فخرا للعرب الذين انتحل لنفسه حق تمثيلهم بمثل قوله « فان على مثل هذا يتنافس المتنافسون ، ولمثله فليعمل العاملون » فجعل قول التيمس بالمكانة التي خص بها كتاب الله تعالى بقاءه في دار كرامته بصيغة الحصر فقال « مشيراً الى مادل عليه ماقبله من الخلود في النعيم المقيم والأمن الدائم

من العذاب (ان هذا لهو الفوز العظيم * لمثل هذا فليعمل العاملون) تخالف سائس القبلة كتاب الله تعالى وجعل رضاء الانكليز المستنبط من اشراكهم للعرب أو للحجاز مع اليهود الصهيونيين والارمن في ارث ملك الدولة العثمانية هو الفوز العظيم الذي يجب أن يعمل له العاملون دون سواه كما يعمل المؤمنون المتقون لنيل رضاء الله تعالى والخلود في دار كرامته . ومثل هذا يقال أيضا في تمثله بقوله تعالى (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون)

ويؤيد هذا ما هو أغرب منه في الاخلاص للانكليز وهو ما قاله ملك الحجاز نفسه في كتاب لنائب ملك الانكليز بمصر ونشره مرارا في جريدة القبلة افتخارا وتبجحا به لحسبانه أنه من آيات الله الكبرى وأنه يبرئه مما يرميه به المسلمون وهو أنه بعد أن أدلى باخلاصه واخلاص اولاده «الذين لا تغيرهم الطوارئ والاهواء » لبريطانية العظمى وطالبها بانجاز ما كان طلبه منها لاجل نهوضه بالخروج على دولته وقتالها معها أو تعيين بلد يقيمون فيه ليسافروا في اول فرصة اليه — وبعد أن صرح بانه لا يقبل من مؤتمر الصلح أن يقرر له شيئا من دونها ـ قال ما نصه «ولو قرر المؤتمر المذكور أضعاف مقرراتنا وكان ذلك من غير وساطتكم وقبلناها فنكن (كذا) مطرودين من رحمة الباري جل شأنه الرقيب على قولي هذا » اه بنصه

ولم نعهد قبل هذا ان احدا من البشر اختار لنفسه ان يذل ويخزى لمخلوق بجعل العبودية تحت ظل سلطانه خيرا من كل ما يتصور من رضوان الله ونعيمه في الآخرة أو مثله وخيرا من الحرية والاستقلال المطلق في الدنيا فان « المقررات » التي يطالب ملك الحجاز الانكليز بتنفيذها عبارة عن تأليف انكلترة حكومة عربية له تتولى هي صيانتها والمحافظة عليها في داخليتها وسلامة حدودها البرية والبحرية من أي تعد بأي شكل حتى الدسائس الداخلية واعتداء الحاسدين له من امراء العرب كما صرح به في كتابه الذي كتبه الى نائب الملك في ٢٧ شعبان سنة ١٣٣٣ وهو الكتاب الذي يسميه « مقررات النهضة » وهو الآن يقول ان مؤتمر الصلح لو قرر له الاستقلال التام المطلق من قيود تأليف الانكليز لحكومته وحفظها له في داخليتها وحماية حدودها ومن غير ان تكون البصرة « تحت اشغال العظمة البريطانية » كما اقترح من تلقاء نفسه — وفلسطين لليهود الصهيونيين وسورية للفرنسيس كما

لو قرر المؤتمر العربي على هذا بدون مساعدة «المعظمة البريطانية» وقبله يكون مطروداً من رحمة الله تعالى كما يشير لعنه الله ومن المعلوم أن «المعظمة البريطانية» لم تنفذ تلك المقررات التي جعل تعديلها سبباً موجباً لخروجه مع أولاده من الحجاز أو بلاد العرب الى حيث تختار لهم المعظمة البريطانية، وهي لا تختار لهم الا الامكنة التي هم فيها فانهم لا ينفعونها في سواها .

شماتة سائس الحجاز بالكماليين

والمسألة الثانية مما انفرد به سائس جريدة القبلة في الرد علينا هي التماسه من صاحب المنار «ارشاد العالم الى من يجب أن يتبعوه الآن : أهم يقتدون بأنقرة أم القسطنطينية ؟» وقفى على هذا السؤال بذكر ما نقلته البرقيات من عزم الكماليين على اخلاء أنقرة ليظهر للناس خطأ صاحب المنار بتنويهه بهم وتفضيلهم على زعماء الحجاز يعني انهم غلبوا على أمرهم ولم يستطيعوا ان يفعلوا شيئاً، وطالما أظهرت جريدة القبلة الشماتة بهم. وجوابنا أننا نحمد الله تعالى أننا لم نر هذه الشماتة بالترك وسرور سائس جريدة القبلة بانتصار الصليب على الهلال كسروره من قبل بفتح القدس وبغداد ودمشق الا بعد ان نصر الله الكماليين على اليونان وأقصوهم عن أنقرة مذءومين مدحورين، وليعلم سائس القبلة أن العالم الاسلامي لا يحتاج الى مرشد يرشده الى من يقتدي به من فريقي القسطنطينية وأنقرة، فعقيدة المسلمين الدينية وشعورهم الاسلامي خير مرشد يرشدهم الى ضد ما تفتيهم به جريدة القبلة المخالفة للرأي العام لاهل القبلة، وهم يعلمون أنه لا خلاف بين أنقرة والاستانة في نفس الامر وانما ابتليت القسطنطينية بالاحتلال الاجنبي فقامت أسود أنقرة بواجب الدفاع عنها مجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل انقاذ بلادهم كلها وسلطانها وخليفتهم من السيطرة الاجنبية التي يفتخر سائس القبلة وحكومته الحجازية بالخنوع لها طوعاً واختياراً بمثل ما نقلناه عنها آنفاً . نعم ان الآستانة خدعت أولا بدسائس الاجانب فوجد فيها من عد الكماليين عصاة ولم يكن ذلك ميلا للعالم الاسلامي الى زعماء الحجاز الذين اختاروا لانفسهم ان يكونوا آلات لاولئك الاجانب ولكن الآستانة لم تلبث ان ثابت الى رشدها وعرفت للكماليين فضلهم عليها وعانق مندوبها في لندن مندوب انقرة. أليس صاحب المنار صادقاً في حكمه بان زعماء أنقرة سجلوا الأمتهم الاسلامية لالشعبهم التركي وحده المجد والفخار وزعماء الحجاز سجلوا على انفسهم وأعوانهم.... ؟

هل اخراج الترك من سورية مفخرة للحجاز

وأما المسألتان الثانية فالاولى منهما نقلتها جريدة القبلة عن أصحابها وهي أن زعماء الحجاز هم الذين أخرجوا القائد الالماني الذي كان أحد قواد جيش الدولة العثمانية من سورية الخ وجوابنا عنها على فرض التسليم أننا نعدها من أعظم النكبات التي أصابت العرب والاسلام بفوزهم بسلبهم هذه البلاد وغيرها من الدولة الاسلامية التي جعلت لاهلها من الحقوق في الدولة مثلما للترك فيها ليحل محلهم فيها الانكليز واليهود الصهيونيون والفرنسيس وحالة أهل البلاد معهم معروفة. ولكن سائس القبلة ودكتوره من طائفة الدروز ومن أيده كرياض أفندي الصلح من طائفة أهل السنة من المسلمين يفضلون أخذ الافرنج للارض المقدسة والارض المباركة (سورية) على سلطان الترك عليها ويخالفهم في ذلك العالم الاسلامي كله والسواد الاعظم من أهل سورية حتى النصارى الكاثوليك كما يعلم ذلك المختبرون لحال البلاد ؛ ولقد قلت في شهر مارس سنة ١٩٢٠ لموسيو روبير دوكيه ناموس الجنرال غورو أخبرني رجل من أشهر انصاركم واعلمهم بحال البلاد انه لو خير اهل لبنان حتى الموارنة منهم بينكم وبين الترك لفضل الترك عليكم ثمانون في المئة من أنصاركم الموارنة فا القول بغيرهم؟ فقال اننا نعلم شيئا من هذا ولكن دون هذه النسبة. وقد قرأنا من قبل في جريدة القبلة ما لا يتشاءم فيه سائسها من انتصار الكماليين على اليونان وينبه الانكليز الى ما فيه من الخطر على سورية ويحرض حكومته لتلافي هذا الخطر ، ولما أشيع خبر استيلاء اليونان على مدينة انقرة — وكنا في مدينة جنيف بسويسرة — اظهر رياض افندي الصلح السرور وعلله بأن انتصار الترك ربما يفضي الى زحفهم على سورية ؟ قلت وهل تفضل الفرنسيس على الترك قال نعم انه يفضل عليهم حتى الفرنسيس واليونان ، وتفضيله للانكليز بالاولى ، نعم انه لا يفضل ذلك على الاستقلال ، ولو أن سورية نالت الاستقلال بما يفتخرون به مما ذكر لكان لهم أن يفخروا ولما نوزعوا في الفخر ولو باطلا كما ينازعون به بعد هذه العاقبة السوءى لعملهم المبني على الفساد من أول يوم

من سلم دمشق لفرنسة ؟

هذا وان من الجلي البين أن تبجح سائس جريدة القبلة نقلا واقراراً باخراج

العثمانيين من سورية هو نص صريح بأنهم كانوا هم الذين فتحوها للانكليز والفرنسيس الذين اقتسموا الولايات العربية العثمانية في اثناء الحرب، وقدمنا أم ملك الحجاز بهذا الفتح المبين. ثم أن شبله الملك فيصل بذل جهده لجعل سورية للانكليز وحدهم باسم الانتداب المبتدع فلما أعلموه بالقسمة اتفق مع موسيو كلمنصو على إقناع سورية الشمالية بالانتداب الفرنسي فكان صاحب المنار في طليعة المعارضين له قبل عقد المؤتمر السوري العام ثم وانتخابه رئيساله وبعد ذلك؛ وهو لم يستطع قبول انذار الجنرال غورو والخضوع للانتداب الذي سيم خسفه الا بعد تعطيل المؤتمر، وقد صرح في البرقية التي أرسلها الى الجنرال أنه قبل الانتداب بالرغم من ارادة الامة وعرض نفسه وحكومته للخطر، ومن المعلوم أن المؤتمر كان اكبر ممثل للامة لانه هو الذي أعلن الاستقلال ونصب فيصل ملكا باسم الامة فاذا كان سائس القبلة ينكر هذا او يماري فيه فاننا ننشر نصوص البرقيات التي ارسلها الملك فيصل الى الجنرال غورو وما احتف بها من الحوادث خصوصاً اتهام فيصل للمؤتمر بانه قرر خيانته وقتله وما خاطبته به في هذه المسألة وغيرها،

اليس من غرائب شؤون البشر ان يقول العالمون بهذه الحقائق ان صاحب المنار هو الذي ادت موافقته الى تسليم البلاد الى الجنرال غورو !! ثم يعللون ذلك بزعمهم تهكما أنه ادعى انه كان هو الآمر الناهي في دمشق يولي من يشاء ويعزل من يشاء؟ وهل يمكن ان يصل احد الى سفه نفسه بمثل هذا الا بخذلان من الله؟

من حمل أمير مكة على الثورة

وأما المسألة الثانية مما نقلته القبلة عن نصيرها وهي زعم الدكتور طليع الذي ارتضاه سائس القبلة - ان صاحب المنار اشار على ملك الحجاز بعداوة الاتحاديين فأفضت العداوة الى قتال الترك لان امر الدولة كان بأيدي الاتحاديين - فهي تضليل ظاهر وافك بين فان صاحب المنار انما ذهب الى الحجاز حاجا بعد خروج امير مكة على الدولة وقتاله اياها واستعانته عليها بالدولة البريطانية التي ايدته بأساطيلها وببعض الجنود المصرية وبذلك غلبت الحامية العثمانية التي كانت بجدة ومكة والطائف وفي تلك الاثناء نصحناله بما اشرنا الى بعضه في بعض المقالات تحت اشراف المراقبة الثقيلة على المنار وصرحنا ببعضه في مقالة الحقائق الجلية وأهمه التحذير من عداء الامة التركية وان يكون من أسباب سقوط الدولة العثمانية، وان يحصر عداوته في خطة الاتحاديين الطورانية، وانكار قسوة جمال الوحشية، حتى

يبقى للصلح بينه وبين الدولة موضع كما صرحت بذلك في خطبتي التاريخية في احتفال العيد بمنى واظهر لي القبول وكان هذا ممكنا

وبعد العودة الى مصر انكرت في رحلة الحجاز على بعض الشبان الذين ذهبوا الى الحجاز امتهان الدين، وفضلت عليهم من كنا ننكر عليهم من الاتحاديين، فبادرت الحكومة الحجازية الى عقابنا على هذا بمنع مجلة المنار من دخول الحجاز، ثم استرسلت في اعمالها السياسية والحربية بما كنا ننكره عليها ولا نستطيع مقاومتها بقول صريح، ولقد استغربنا اقرار سائس القبلة ماذكر من سخف نصيره والمحامي عنه ولا سيما زعمه انه «ما حمل جلالة ملك الحجاز لمناوئتهم (؟) الا كذا وكذا.

فهل كان امير مكة يقرأ مقالات المنار في الانكار على الاتحاديين وكانت عنده من الاسباب التي حملته على موالاة انكلترة ومساعدتها على قتال الدولة العثمانية ؟؟ أم كان ذلك بفعل الدسائس والجنيهات الانكليزية ؟؟

كلا ان ما كتبناه في الانكار على ما اتاه بعض الاتحاديين المارقين قد كان مشايعة ونصرا لجمعية علماء الاستانة وللاحزاب العثمانية المخالفة لهم من حيث هم حزب سياسي لم يقدر المركز الديني للدولة حق قدره وفتن بالعصبية الطورانية حتى كان جميع المتدينين خصوما له وان لم تظهر لهم حقيقة الغلاة من زعمائه الا بالتدريج، ولم يكن في شيء من ذلك تحريض على الترك ولا على الدولة بل كان انتصاراً لها. وقد علمت في أوربة أن السواد الاعظم في الاستانة والاناضول صار خصما لاولئك الغلاة وائتمروا بالفتك بهم بعد انتهاء الحرب. ونحمد الله تعالى ان ظهر للجميع خطأ تلك العصبية الجاهلية التي أنكرناها عليهم واجمعوا على صحة رأينا، وسنبين ذلك في الرحلة الاوربية ان شاء الله تعالى

﴿ تنبيه ﴾ افترى الدكتور طليم علينا ما شايعته عليه جريدة القبلة من زعمه اننا كنا نحرض على الترك وان ذلك كان من أسباب خروج أمراء الحجاز عليهم وغرضهما من ذلك معروف جلي. والا فليأتونا بنص من المنار يؤيد زعمهما . كما افترى علينا الدكتور طليم بأننا كنا مؤيدين لملك الحجاز في عداوته وقتاله للترك الى عهد قريب . والصواب اننا كنا في أول العهد بالثورة غير مطلعين على دخائلها وأسبابها فظننا انه يمكننا أن نوقفها عند حد ما يسميه المناطقة قضية مانعة الخلو وهو اما ان تنفع واما ألا تضر وبذلنا ما استطعنا من النصح في هذه السبيل، وقد رابنا كلام الرجل في مكة وان صرح في حفلة منى العامة

جهرا بأنه لم يعبر احد عن رأيه من غير تواطؤ قبل خطبتنا في تلك الحفلة. ونحن نذيل هذا الرد بنص بلاغ حكومة الحجاز الرسمي بمنع المنار من الحجاز الذي منعتنا المراقبة من نشره في ايام الحرب . وهذا نصه منقولا عن عدد ٧٨ من جريدة القبلة الذي صدر في ٢٣ رجب سنة ١٣٣٥

منع مجلة المنار

من البلاد العربية الهاشمية

جاءنا من وكالة الداخلية البلاغ الآتي :

«ان ماورد في مجلة المنار (عدد ٦ ؛ مجلد ١٩ ؛ الصادر في محروسة مصر في ٣٠ ربيع الآخر سنة ١٣٣٥) من التعريض بمن قدم الينا من ابناء الوزب والتحامل عليهم لاتعتبره الحكومة العربية الهاشمية الا مقصوداً به الحط والنيل منها ، اذ ان الافاضل النجباء المشار اليهم اجل وارفع من ان تمسهم شائبة مما رمتهم به المجلة المذكورة كما هو معلوم ، وانهم لاذنب لهم في حياة الشيخ المعروفة الا انضمامهم الى حكومتنا العربية ، ولا جريمة تستلزم غيظه وغضبه على حكومتنا — وهي لم يمض عليها الوقت الكافي لاحتدام هذا الغيظ والغضب — الا ما عساه ان يكون مما اشير اليه في الكتاب المرسل للفاضل الاجل حضرة رفيق بك العظم الذي توجه الى مراجعته انظار الافاضل من انصار الحقيقة (١)

وان هذه الخطة تذكرنا بكلمة المرحوم المبرور الشيخ علي يوسف وقد اختصر واوجز عند ما اريد اسقاط مؤيده في دمشق فقال « انهم لم يرفعوا المؤيد حتى يسقطوه » (٢)

ولما كان مسلك الحكومة العربية الهاشمية يخالف ما كان من هذا النوع

(١) المنار : اننا لم نطلع على ذلك الكتاب الى اليوم ولم نكتب ما كتبنا يومئذ ولا أمس واليوم الا لما يجب من بيان الحق والنصح للخلق(٢) نقول بمناسبة هذه العبارة أن منع الحكومة الحجازية للمنار كانت زيادة في رفعة قدره وحطة قدرها ولله الحمد وهذا القول الرسمي يكذب دعوى كون كلامنا كان من أسباب الثورة الحجازية

من المناقشات الناشئة عن الاغراض النفسانية التي تأباها شيم قوميتنا وشهامة امتنا ، فتلافيا لضرر ما صدر من حضرة الشيخ صاحب المنار في هذا الباب امام الامم والشعوب لاسيا في الآونة الحاضرة، ودرءاً لما ينطوي تحت التمادي في ذلك من المساوئ المنافرة لشعار عنصرنا الشريف قد تقرر منع دخول تلك المجلة الى الممالك الهاشمية (١) . وقد ابلغ ذلك لمدير عموم دوائر البرق والبريد ومديري الجمارك في الثغور . وهذا اول وآخر جواب تمده الحكومة لكل ما كتب ويكتب من هذا القبيل » اه

تقريظ المطبوعات (*)

الفجر. مجلة علمية عمرانية اخلاقية يحررها نخبة من أفاضل الكتاب صفحاتها ٢٤ بقطع المنار تصدر في الشهر مرة واحدة وتطبع على ورق جيد طبعا نظيفا وادارتها (بنهج انقلترة عدد ٥٠ بتونس) وقيمة الاشتراك بها ستون فرنكا ويمكن الاشتراك بواسطة مكتبة المنار بمصر

صدر الجزء الاول من المجلد الثاني من هذه المجلة مفعم بالمقالات النافعة والنبذ المفيدة مما يرهن على مضي المجلة في سبيلها القويم وذكر في صدر هذا الجزء ان المجلة فتحت باب الانتقاد والتقريظ ونقد المؤلفات الحديثة وانها عزمت عا ـ [illegible]



ـــ قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى « ومنارا » كمنار الطريق ـــ

٢٩ صفر ١٣٤٠ ـ ٧ العقرب (خ ٢) سنة ١٣٠٠ هـ ش ٣١ اكتوبر سنة ١٩٢١

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة اذ لا يسع الناس عامة، ونشترط على السائل أن يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك أن يرمز الى اسمه بالحروف أو يعبر بما شاء من الالقاب ان شاء. واننا نذكر الاسئلة بالترتيب غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه ، وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا . ولمن مضى على سؤاله شهران أو ثلاثة أن يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لإغفاله

﴿ اسئلة من جاوه ﴾

(س ١٥ - ١٧)   من صميص بالامضاء المبهم في ذيله

تتعلق بالربا في القراطيس المالية والفلوس النحاسية وصندوق التوفير

حضرة مولاي الاستاذ العلامة المفضال السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار الاغر زاده الله فضلا وكرما . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فقد كلفني عدد من العقلاء أن ارفع الى حضرتكم اسئلة آتية ارجو من فضلكم الجواب عنها وهي :

(١) اعطى رجل رجلا آخر دينا قدره عشر روبيات هولاندية من فضة وشرط عليه أن يدفع له خمس عشرة روبية من القراطيس المالية الهولاندية، قال عالم من العلماء الجاويين (الملاويين) المدرسين في مكة المكرمة : هذا جائز فان بيع القراطيس المالية بالروبيات الفضية مع زيادة احدهما على الآخر جائز وليس في ذلك ربا - بخلاف ما اذا بيع قرطاس من هذه القراطيس بجنسه مع زيادة فانه لا يجوز كبيع الدرهم بالدرهمين ، فهل هذا القول صحيح أم لا ؟

(٢) عندنا فلوس نحاسية هولاندية تساوي مئة سنت منها روبية واحدة هولاندية فهل يجوز لنا أن نبيع روبية من هذه الروبيات بمئة وعشرين من هذه الفلوس أم لا ؟ قال العالم الجاوي : انه يجوز وعليه يقاس بيع القراطيس المالية بالروبيات مع زيادة احدهما على الآخر وهل هذا القول صحيح أم لا ؟

(٣) يوجد عندنا ما يسمى « فوستر بنك Posts parbank » وضمنه

الحكومة الهولاندية لايداع من أحد من الناس يريد توفير ماله والتوفير بنك لايقبل أكثر من ألفين وخمسين روبية يودع فيه . وكل من أودع ماله فيه نحو سنة زاده عليه زيادة وله أن يسترد منه ما شاء ومتى شاء — فهل يجوز لنا أن نودع مالنا فيه ونأخذ الزيادة أم يجوز لنا ايداع مالنا فيه فقط ويحرم علينا أخذ الزيادة ؟ وهذه الزيادة ليست بكثيرة وانما هي نحو اثنتين أو ثلاث في المئة

هذه هي الاسئلة المرجو من علومكم الجواب عنها جوابا شافياً ولكم منا الشكر والثناء الجميل ، ومن الله الاجر الجزيل . (سائلون)

تحريراً ٧ ذي القعدة سنة ١٣٣٩

﴿ جواب المنار ﴾

قد سبق لنا فتاوى في هذه المسائل وأمثالها منها فتوى في الأوراق المالية المسماة بالانواط أو (بنك نوت) وبحث الزكاة والربا فيها (ص ٥١ م ٥) وفتوى في بيع الدين بالنقد والاوراق المالية وهل هي نقود أم لا (٥٣٨ م ٩)وفتوى في صندوق التوفير (ص ٧١٧ م ٦ و ٢٨ م ٧) وغير ذلك . ومذهب المنار في أمثال هذه المسائل المدنية أن يراعي فيها نص الشارع وحكمة التشريع والقواعد العامة ولا سيما القطعي منها كاليسر ودفع الحرج والعنت ونفي الضرر والضرار وجلب المصالح ودفع المفاسد ، فمجموع هذه الدلائل تفتي في الوقائع المستحدثة التي لم تكن في العصر الاول ونكتفي في الجواب الاجمالي هنا الاحالة على ما تقدم

حكم الانواط في البيع والدين

(المسألة الاولى) استدانة عشر روبيات هولندية من الفضة بخمس عشرة روبية من القراطيس المالية الهولندية . هذه القراطيس سندات أو حوالات من الحكومة الهولندية بدين عليها لحاملها من الروبيات الفضية . فهي ليست عروض تجارة لها قيمة ذاتية وتكون لها حكم النقد الربوي وان لم تكن فضية لان حاملها يأخذ بها ما يقدر من النقد الفضي فكأن الدائن في الواقعة المسؤول عنها قال للمدين خذ هؤلاء العشر الروبيات بشرط أن تعطيني بها حوالة على فلان الغني الملي اولي خمس عشرة . فهل يصح أن يقال في مثل هذه الصورة ان الدائن اشترى من المدين ورقة بعشر روبيات من الفضة نسيئة وان الورق غير

ربوي فلا يشترط أن يباع مثلا بمثل ولا يداً بيد لاختلاف الجنس ؟ ما أظن أن ذلك المدرس الجاوي يقول بجواز هذا فإذا صدق ظني فبماذا يفرق بين الصورتين ؟

قد يقاول هذه القراطيس المالية الدولية قد تنقص قيمتها بالنقد الفضي والذهبي مما التزم بها من روبيات أو قروش أو جنيهات فتباع بما دونه كما هو واقع اليوم في القراطيس (الانواط) النمسوية والالمانية والفرنسية وغيرها فنها ما يباع بنصف القيمة وما يباع بخمسها أو سبعها أو أدنى من ذلك أو اكثر فبهذا صارت من قبيل عروض التجارة — ونقول ان هذا النقص في قيمة الانواط لا يكون من الحكومة التي أصدرتها في بلادها وانما يعرض في التعامل بين الاجانب وشبيه أن الثقة المالية بالدول تقوى وتضعف أحيانا كالثقة بالافراد بما يعرض لها من العجز عن دفع كل ما عليها من الدين فحينئذ يرضى من بيده سند أو حوالة على مثل هذه الدولة أن يبيعه بما دون القيمة المرقومة في السند أو الحوالة اذا لم يكن يستطيع معاملة هذه الدولة بها أو انتظار عودة الثقة المالية التي تمكنها من الوفاء بما التزمته من دفع هذه القيمة وتحمل الناس على تداول قراطيسها (أنواطها) بقيمتها كاملة ، ومثل هذه الحالة لا تصدق على مثل الحكومة الهولاندية في بلادها ومستعمراتها فان قراطيسها المالية لا تنقص عن القيمة المرقومة فيها من الروبيات الفضية ، فاذا أخذ الدائن من المدين في النازلة المسؤل عنها قرطاسا بخمس عشرة روبية فانه يمكنه أن يأخذ من الحكومة هذا المبلغ من الفضة أو يدفعه لاي مصلحة من مصالحها بهذه القيمة فاذا كان عليه دين للحكومة قبلته منه خزينتها واذا دفعه لمصلحة البريد أو مصلحة الجمارك أو صندوق التوفير فانها لا تفرق بينه وبين الفضة البتة ، وانما قد يفرق بينهما في البلاد الاجنبية التي لا تتعامل بقراطيس هذه الدولة ولا فضتها بحسب الاحوال التي أشرنا اليها آنفاً

واذا سلم ان هذه القراطيس من قبيل عروض التجارة امتنع فيها الربا في جميع مذاهب الفقهاء لانها ليست من النقد ولا من اصول الاقوات التي ورد بها النص ولا مما ألحق بها قياساً فتعد ربوية عند اهل الحديث وفقهائه ولا من المكيلات ولا من الموزونات فتعد ربوية عند اهل الرأي ، فكيف منع زيادة أحد العوضين فيها اجماعا كبيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة أو البر بالبر

فظهر بهذا أن رأي ذلك المدرس على كونه غير مطابق للواقع يؤدي الى

إباحة الربا الذي لاشك فيه حتى في دار الاسلام بين أهله ويذهب بحكمة الشرع في تحريمه وهو تعاطف الناس وتراحمهم وتعاونهم في اوقات العسرة كما أنه يتوسل به الى منع الزكاة أيضاً

بيع الفلوس النحاسية بالفضة

وأما المسألة الثانية وهي مسألة الفلوس النحاسية فقول العالم الجاوي فيها هو عين مذهب الشافعية الذي يتقلده مسلمو جاوه فهو مصيب فيه ولكنه مخطئ في قياس القراطيس المالية عليه لانها سندات أو حوالات بنقد ربوي، ولو كانت هذه الفلوس مجسدة في النقد لجعل لها حكم الذهب والفضة بالقياس الجلي أو لحوى النص، وليست كذلك بل جعلت لاجل ضبط كسورها والتعامل بها قليل ومحصور ما تضربه كل دولة منها في بلادها فلو نقل الى بلاد اخرى لا يتعامل به ولا يباع بقيمة النقد ولا بقيمة معدنه لو كان آنية بخلاف نقود الفضة فانها تباع في كل قطر لايتعامل أهله بها بقيمة معدنه. وماقلناه في هذه الفلوس هو المتعين في القوت الغالب اذا لم يكن من الاقوات التي وردبها النص

صناديق التوفير والفرق بين دار الاسلام وغيرها

وأما المسألة الثالثة وهي مسألة صندوق التوفير فهي عامة في جميع الممالك الاوربية وما على نسقها من البلاد كمصر ، وقد أجازه جماعة من علماء المذاهب الازهريين وأفتى به مفتي الديار المصرية بعد تطبيق استغلال مصلحة البريد المصرية للاموال الموفرة فيه على بعض احكام الشركات الشرعية كما بيناه في المنار . راجعوا ذلك في المجلدين السادس والسابع

ونزيدكم على ذلك أن علماء الازهر نظروا في ذلك وأقروا ما أقروه فيه بطلب أمير البلاد بناء على اعتبارهم أنها بحسب حالها الشرعية دار اسلام، وكان ذلك قبل الحرب الاخيرة ووضع مصر تحت الحماية الاجنبية التي لايعترفون بها ببضعة عشر عاماً ، وبلاد جاوه ليست دار اسلام ولا تجري فيها المعاملات المالية على الشريعة الاسلامية فلا يجب على المسلم فيها أن يلتزم في هذه المعاملات مع الحكومة الهولندية أو الشركات الهولندية أ والافراد أحكام شريعته في الربا وعقود البيع والاجارة والقروض وغيرها بل يحل له أن يأخذ من أموالهم ما تبيحه له شرائعهم وقوانينهم وما كان بتراض منه ومنهم دون ما كان بخيانة

ثم ان الربا انما يتحقق في عرف الفقهاء بالعقد الذي يشترط فيه من يعطي المال أن يأخذ عليه ربحا معينا ، فمن أقرض رجلا مالا بغير عقد ولا شرط فرده اليه وزاده من غير اشتراط زيادة كان ذلك حلالا ، وقد ثبت في الحديث الصحيح استحباب ذلك كما بين في محله من صحيح البخاري وغيره ،وحديث: كل قرض جر منفعة فهو ربا غير صحيح كما بينا ذلك من قبل

فعلم بهذا أن للجاويين وامثالهم عدة وجوه لوضع شيء من أموالهم في صندوق التوفير الذي وضعته حكومتهم وأخذ الربح منها . ومثله وضع المال في مصارفهم المالية وأخذ الربح منها كما يفعل مسلمو الصين . ومما يبعث العجب من حال كثير من المسلمين أنهم قد اختاروا لانفسهم بلبسهم الدين مقلوبا كالفرو أن يقترضوا المال من الاوربيين بالربا ولا يقرضونهم ويودعوا اموالهم في مصارفهم (البنوك) ليستغلوها ولا يستبيحون لانفسهم ان يشاركوهم في شيء من ربحها . ومعنى هذا أنهم يفهمون من دينهم أنه اباح لهم ان يتلفوا ثروتهم ويعطوها للاجانب حتى الفاتحين منهم لبلادهم باسم الفتح أو الاستعمار او باسم آخر وحرم عليهم أن يتنفعوا بشيء منهم ولو كان برضاهم وبعض ثمرة ما أعطوهم من المال . وأعجب من هذا أن منهم من يشكو من شرع دينه ويزعم انه لا ينطبق على مصلحة الامة في هذا العصر وان تركه الى شرائع تلك الامم أتم لهم ! وانما الامر بضد ذلك فقاعدة الشرع الاسلامي أنه لا حرام الا ما كان ضارا ومنه اضاعة المال ، ولو عرف المسلمون حقيقة شرعهم والتزموا أحكامه لكانوا أغنى الامم وأعزها ولما أضاعوا ملكهم وملكهم ،وانما أضاعوها بجهله وترك العمل به ،والذنب الاكبر في هذا على علمائهم الجامدين ، وحكامهم الجاهلين او المارقين .

هذا وان على المسلمين أن يراعوا في غير دار الاسلام أحكام دينهم وحكمه فيما بينهم حتى في المعاملات فلا يباح للموسر منهم أن يقسو على المحتاج اذا اقترض منه فيستغل ضرورته أو حاجته بما تبيح له قوانين البلاد من الربا . والفرق بين هذا وبين ربح صندوق التوفير والمصارف المالية عظيم جداً فان الربا انما حرم في دار الاسلام لضرره كما علله تعالى بقوله (وان تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) وليس في أخذ الربح من صندوق التوفير والمصارف ظلم لاحد ولا قسوة على محتاج حتى في دار الاسلام . وقد فصلنا القول في الربا هذا في تفسير آية آل عمران فيه فليراجع

بحث لغوي

في قراءة القرآن الشريف عن بعض الالفاظ الاعجمية

تتمة مقالة احمد بك كمال

(١١) زبر الكتاب — اي كتبه وزاد في مفردات الراغب كتابة غليظة والزبير الكتاب جمعه زبور والزبور الكتاب بمعنى المزبور اي المكتوب جمعه زبر (بضمتين) وغلب على مزامير داود النبي والملك

والزبرة الخط والكتابة مصدر زبر قال الاصمعي سمعت أعرابياً يقول انا اعرف تزبرتي اي خطي وكتابتي، والمزبر القلم، وبما ان مادة زبر وذبر وسفر كلها واحدة بمعنى كتب قد تنوع لفظها في العربية وفي النصوص المصرية ايضا فلا حاجة لاخراجها من العربية وانتسابها الى العجمة بدون مسوغ لغوي

(١٢) سفر الكتاب — كتبه والسافر الكاتب جمعه سفرة (بفتحتين ككتبة) يقال والسفرة الكرام اي الكتبة والسفر الكتاب الكبير وقيل هو جزء من اجزاء التوراة، تقول (١) حطمني طول ممارسة الاسفار وكثرة مدارسة الاسفار

(١٣) ذبر الكتاب ذبراً كتبه ونقطه — وقرأه قراءة حقيقية وقيل سريعة ومنه ما احسن ما يذبر الكتاب أي يقرأه ولا يتمكث فيه والشيء علمه وفقه فيه وذبر الكتاب تذبيراً قبل ذبره والذابر المتقن للعلم والذبر الكتاب جمعه ذبار كقوله «على عرصات كالذبار نواطق» (٢) وثوب مذبر منمنم يمانية — والكلمة مصرية قديمة دونها ارمان في مفرداته المصرية (الصحيفة ١٤) وتقرأ سبر والسين تقلب ذالا وزايا والباء فاء فيقال ذبر وزبر وسفر وهذا القلب والابدال له اصول متبعة في اللغتين المصرية والعربية والسبب فيه تعدد القبائل ولهجاتها فاللغة المصرية وهي الاصل للغة العربية(٣) شاملة لالفاظ مختلفة اللهجة باختلاف لهجات القبائل

(١٤) سبط جمعها أسباط — ولد الولد ومن اليهود كالقبيلة من العرب

(١) هذا من سجعات أساس البلاغة (٢) الصواب « على عرصات كالذبار النواطق » والبيت لذي الرمة وأوله : أقول لنفسي واقفاً عند مشرف (٣) هذا رأي الكاتب والصواب عندنا العكس فالعربية هي الاصل كما بينا ذلك من قبل

وفي القرآن الشريف (وقطعناهم اثنتي عشرة اسباطاً) (١) اي امة وجماعة وقد يستعمل للقبيلة من العرب . والسبط كلمة مصرية قديمة وجدت مذكورة في نصائح بتاح حتب حيث قال ما تعريبة : —

« ان المنذور لله الساكن سأواً ليس للاسباط فيه يد »

ومعنى ذلك ان الرجل التقي لله الساكن في موطن لا يجعل للاسباط يداً اليه اي سببا لاذيته كما انها ذكرت في كتاب الموتى وعلى جدران مقبرة(أمست) بمعنى ما جاءت به في العربية فهي اذن عربية لوجودها في المصرية ايضاً وقد خصصت في المصرية باشارات مؤيدة لمعناها اي رسم بعدها رجل وامرأة مصحوبان بعلامة الجمع مما يثبت معنى الكلمة فهي اذن عربية لا محالة

(١٥) يصهر — في قوله تعالى:(٢)يصهر به ما في بطونهم.(الحج — ٢٢:٢٠) أي ينضج بلسان اهل المغرب وقد بينا ان اهل المغرب هم (اعناء التحنو)وان لغتهم لغة الاعناء وهي اصل اللغة العربية فالكلمة اذن عربية وقد وردت في القاموس المحيط من مادة صهر يقال صهرته الشمس أي صحرته بالحاء بمعنى طبخته وصهر الشيء أذابه فانصهر فهو صهير والصهر بالفتح الحار (؟) والاذابة كالاصطهار الخ : وقد وردت هذه المادة في المصرية بهذا المعنى فهي اذن عربية

(١٦) مجوس — في قوله تعالى : (والنصارى والمجوس) كلمة اعجمية فارسية تدل في الاصل على قبيلة من ميديا يظهر انها كانت على دين تلك البلاد ثم التي كانت تعبد النار فاشتهرت هذه الديانة بعدئذ باسم مجوس ثم اطلق اسم المجوس على كهنة الديانة المجوسية واطلقه من بعدهم العرب على الديانة المزدية وكان للمجوس مدن خاصة لهم منها اكتبان وهي مدينة في نهاية حدود الفرس هذا وان اصحاب الاسكندر ادركوا المجوس وهم بوظائف كهنوتية ـ ومن المحتمل أن تكون مجوس من اصل طوراني دخلت في كلدة وعلى كل حال فهي اسم علم لا يتغير ذكر في القرآن الشريف بلفظه فتأمل

(١٧) بيع ـ بيع مفردها بيعة ذكرت في قوله تعالى:(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع . الحج ـ ٢٢ : ٤٠) قال الشيخ رحمه الله البيعة فارسية معربة اهـ . أما البيعة فهي من بايعه مبايعة اذا شرط معه على شيء

(١) النص الكريم (اسباطاً امما) فامما بدل من اسباطا(٢)ضبطت في المقتطف: يصهروا في بطونهم) وهو غلط فاحش

أو اتفق معه على امر أو سلمه في امر أو اعترف له بالرئاسة والولاية فالبيعة محل الاعتراف باداء الفرائض الدينية من عبادة وصلاة فهي كالمسجد أو الجامع من حيث اداء الصلوات فيها . وقد ذكرت في المصرية بيعاً وذلك في ورق ابوت (١٠١) المؤشر عليها بعدد ١٠٢٢١ وهي المحفوظة في متحف انكلترا وفسرها الأزيون بالجبانة ولكني اصرفها الى معنى المعبد كما يفهم من سياق الكلام في الورقة المذكورة احمد كمال

القياس في العربية

المقالة الثانية في قياس التمثيل

ذكرت فيما سلف أني اريد بقياس التمثيل الحاق نوع من الكلم بنوع آخر في حكم . وهو ما يعنيه بعض النحاة في قولهم : ان اللغة لا تثبت بالقياس

يأخذ النحاة بقياس التمثيل لاثبات اصل الحكم ، وكثيراً ما يرجعون اليه في تأييد المذهب بعد بنائه على السماع . وهـذا ابو حيان الذي هو أشد النحاة وقوفاً عند حد السماع وأسرعهم الى محاربة من يعول على هذا الفن من القياس قد ينظر اليه في بعض الاحيان كما قال:ان الناصب لاذا فعل شرطها قياساً على سائر ادوات الشرط . وقال في سياق الكلام على الجملة المنفية حين تقع حالا ـ :والمنفية بان ـ لا أحفظه من كلام العرب والقياس يقتضي جوازه نحو جاء زيد ان يدري كيف الطريق ، قياساً على وقوعه خبراً في حديث «فظل ان يدري كم صلى »

ويدور البحث في هذا المطلب على تحقيق المقتضي للقياس ثم شروط صحته

المقتضي للقياس

يقيس النحاة بعض أنواع الكلم على بعض اذا انعقد بينهما شبه في المعنى أو في اللفظ أو في العمل أو اشتركا في العلة التي يقع في ظنهم أن الحكم قائم عليها

والعلل التي يقول الباحثون في العربية ان العرب راعتها وبنت عليها احكام الفاظها ترجع الى قسمين (احدهما) مايقرب مأخذه ويتلقاه النظر بالقبول كما وجهوا تحريك بعض الحروف الساكنة بالتخلص من التقاء الساكنين وعللوا حذف احد الحرفين المتماثلين بطلب الخفة

(ثانيهما) ما يكون من قبيل الفرضيات التي لا تستطيع ان تردها على قائلها كما انك لا تضمها بمحل العلم او الظن القريب منه . وهذا كما قالوا في وجه بناء قبل وبعد اذا قطعا عن الاضافة لفظا « انها شابهت الحرف في احتياجها الى معنى المحذوف فاذا قلت ان العلة عند ذكر المضاف اليه ثابتة فلماذا لم يرتبط بها أثرها وهو حكم البناء؟ قالوا ظهور الاضافة التي هي من خواص الاسماء ابعدها عن شبه الحرف فعادت الى اصلها الذي هو الاعراب . فان قلت ما بالهم بنوا «اي» الموصولة فيما اذا أضافوها في اللفظ وحذفوا صدر صلتها؟ اجابوك بأنهم انزلوا المضاف اليه منزلة صدر الصلة فصار في حكم المقطوع عن الاضافة . ولا يسعك بعد هذا الا ان تنفض ثوبك من غبار هذه المجادلة وتنفصل عنها وليس في يدك اثارة من علم . وقد ذكر ابو حيان تعاليلهم لاختصاص ضمير المتكلم بالضم وضمير المخاطب بالفتح وضمير المخاطبة بالكسر ثم قال هذه التعاليل لا يحتاج اليها لأنها تعليل وضعيات ، والوضعيات لا تعلل .

والذي بني عليه البحث في هذا الباب ما كان من قبيل القسم الاول اذ هو الذي تستقيم معه الاقيسة الصحيحة .

شروط صحة القياس

اذا تتبعنا ما يتشبث به القادحون في مسائل هذا الضرب من القياس رأيناه يدور على ثلاثة وجوه (أحدها) بيان الفرق بين المقيس والمقيس عليه (ثانيها) الاختلاف في حكم المقيس عليه (ثالثها) مخالفة حكم المقيس عليه للاصول

فالقياس مع الفارق كما أجاز بعضهم تقديم الفعل المنفي بلن قائلا ان لن اضرب نفي لسأضرب فكما جاز زيداً سأضرب جاز زيداً لن أضرب . وما كان من المنكرين لهذا القياس سوى أن تعرضوا للتفريق بين السين ولن بأن حرف النفي يقتضي الصدارة في الجملة التي يدخلها وذلك معنى يمتاز به دون حرف التنفيس

والقياس على المختلف فيه كما ألحق الكوفيون فعل التعجب بافعل التفضيل في جواز بنائه من لوني البياض والسواد . وقد رده البصريون بانه قياس على مختلف فيه اذ هم لا يوافقون على صوغ اسم التفضيل من الالوان وكأنهم نحوا في هذا المبحث منحى القياس الفقهي ، وقد ذهب فريق من الاصوليين الى صحة القياس على المختلف فيه لانه - وان لم يكن دليلا مسلماً عند المخالف

يصلح أن يكون مستنداً لمن يتقرر عنده حكم الاصل بحجة راجحة

والقياس على ماخالف القياس كما قال الكسائي لا يقتصر في الظروف الواردة اسماء افعال نحو عليك واليك على ما ورد في الرواية بل يجوز أن يقاس عليها غيرها مما لم يرد به سماع . وطعن البصريون في هذا المذهب بان تلك الظروف وقعت موقع الاسماء على خلاف اصلها ، وما جاء على خلاف الاصول لا يصح القياس عليه بحال . وأجاز ابن مالك جمع حم بالواو والنون مع اعترافه بانه لم يسمع فقال ابو حيان ان اجازته لذلك انما هو بالقياس على أب وينبغي أن يمتنع لان جمع اب وارد على وجه الشذوذ فلا يصح القياس عليه

والتحقيق ان الاصول التي يجيء الحكم على خلافها تتفاوت في القوة والضعف فالاصل الذي يمنع من الزيادة — وهو ان الالفاظ انما وضعت لافادة المعاني — أقوى من الاصل الذي يمنع من تقديم المعمول على العامل ولهذا كانت مخالفة العرب لقانون تقديم العامل اكثر من مخالفتهم لقانون المنع من الزيادة ، فيترجح امتناع زيادة كان في صدر الكلام اوآخره قياسا على زيادتها في الوسط ، وليس من البعيد جواز تقديم الخبر في باب زال الناسخة قياسا على تقديم المعمول الثابت على خلاف القياس

المقالة الثالثة في المباحث المشتركة

القياس في الاتصال

خصت العرب بعض الادوات بالدخول على انواع من الكلم لا تتجاوزها مثل الاسماء تختص بحروف الجر والنداء ، والمضارع يختص بنحو لم وكي ، وأبقت بعضها دائراً بين نوعين نحو هل وهمزة الاستفهام يوصلان بالاسماء والافعال ، وان ولو الشرطيتين يدخلان على الافعال الماضية والمستقبلة . فاذا وردت كلمة من امثال هذه الادوات مقرونة بنوع خاص من الكلم فليس لنا ان نخرج به عن دائرة السماع ، ومثال هذا لما الحينية انما جاءت موصولة بالفعل الماضي فلا يسوغ لنا ان نلصق بها فعلا مضارعا كما صنع ابن ابي حجة في قوله

والنبت يضبطها بشكل معرب لما يزيد الطير في التلحين

واذا دارت الكلمة في كلام العرب بصورة المضاف ولم تأت في الرواية موصولة بأل المعرفة قط فليس لنا أن نقطعها عن الاضافة ونصلها بأداة التعريف

مثل لفظ كل وبعض وغير

فان قال قائل أن هذا الحجر يقتضي أن لا تدخل أل على اسم الا اذا سمع اتصالها به في الفصيح من كلام العرب . ومن المتعذر أن يتتبع واضع القاعدة جميع الأسماء العربية ليتحقق هل نطقوا بها مقرونة بال أم لا . فالجواب انا لا ندعي أن هذه الكلمات لم يستثنها النحاة الا بعد أن أتوا على جميع المفردات مفرداً مفرداً ، وانما جاء استثناؤها من جهة انها دائرة على السنة الفصحاء بكثرة حتى لا تكاد تمر بقصيدة أو خطبة أو محاورة دون ان يعترضك شيء منها ، فعدم استعمالها موصولة بأداة التعريف مع ايرادهم لها في جل مخاطباتهم دليل على أنهم التزموا قطعها عن هذه الاداة ؛ ولا يسوغ لنا الحاق الكلمة بأشباهها متى شهد الاستعمال بعدم اجرائها على القاعدة

وعلى هذا التحرير يجري القول في الاسماء التي قصروها على حالة كالالفاظ التي قال صاحب اصلاح المنطق وغيره انها لا تستعمل الا في سياق النفي وهي احد وعريب وديار واخواتها . وينتظم في هذا الصدد الاسماء المختصة بالاضافة الى المضمرات كوحد ولبي ودوالي وسعدي

وصفوة المقال ان الكلمة اذا وردت مقرونة بلفظ معين أو نوع خاص فلابد من النظر في حال استعمالها فان كثر دورانها في اقوال الفصحاء وغيرهم ولم يعدلوا عن وصلها بذلك اللفظ المعين أو النوع الخاص وقفنا عند استعمالهم، ولا يسعنا الخروج عن حالتها في الرواية . واذا لم تكن شائعة في فنون المخاطبات فانه يسوغ لنا أن نتصرف فيها فنقرنها بغير ذلك اللفظ ونتعدى بها مكان الرواية حيث لم يقم الدليل وهو كثرة تقلبها في الستهم على قصد اختصاصها بهذا الاقتران

ومن أمثلة هذا انه ورد اتصال هاء التنبيه بالضمير المخبر عنه باسم اشارة فرأى ابن هشام ان الامثلة الواردة بهذا الاسلوب قد بلغت في الكثرة الى ان يؤخذ منها التزامهم في خبر الضمير ان يكون اسم اشارة فاوجب في خبر الضمير المقرون بحرف التنبيه أن يكون اسم اشارة اتباعاً للاستعمال

ويدخل في هذا القبيل قولهم « ليس غير » قال ابن هشام ان غير المبنية على الضم انما تستعمل متصلة بليس وقولهم « لا غير لحن » . ومن عد هذا الاستعمال في جملة الصحيح فقد ظفر في كلام العرب بما يشهد بصحته وهو قول الشاعر

جوابا به تنجو اعتمد فوربنا لمن عمل اسلفت لا غير تسأل

واذا وردت الكلمة متصلة بنوع من الاسماء وروداً لا يحيط به استقصاء صح أن يكون اتصالها بذلك النوع مقيساً ، كتاء التأنيث تتصل باسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة والمنسوب على وجه القياس ، ولم يبلغ اتصالها بالاسماء الجامدة هذا المبلغ فوقفوا فيها عند حد السماع كفتى وظبية وامرئ وامرأة . فلا تقول انسانة في مؤنث انسان الا اذا نقل اليك لفظه في شاهد صحيح ، كما تسمع القة للمؤنث من القرود ولا يقال في مذكرها القى حيث لم يعثروا على نقل يشهد بصحة استعماله

ولهذا الاصل انكر الصفدي قولهم الظبية غزالة مع ورود غزال للمذكر لانه لم يثبت عنده رواية ، وما خالفه الدماميني في ذلك الا بعد وقوفه على شواهد من كلام العرب تقتضي صحة استعمالها

القياس في الترتيب

اذا كانت احدى الكلمتين تابعة للاخرى من جهة المعنى فالتناسب الطبيعي يقتضي ان تذكر عقبها في التلفظ ، ومن ثم قرروا في أصولهم أن المتبوع يتقدم على التابع ، والمستثنى منه يتقدم على المستثنى ، والمميز يتقدم على التمييز وصاحب الحال يتقدم على نفس الحال

فمن أباح تقديم الكلمة التابعة فانما تقبل دعواه متى كانت مصحوبة بدليل ، فالكوفيون مثلا أجازوا تقديم المعطوف على المعطوف عليه والكسائي والمبرد سوغا تقديم التمييز على عامله ، والفراء والاخفش ذهبا الى صحة تقديم الحال على عاملها الظرف أو الجار والمجرور ، وابن برهان وابن كيسان أباحا تقديم الحال على صاحبها المجرور بحرف ، وما أجازوا هذه القضايا التي يحكم الاصل بمنعها الا باستنادهم الى شواهد رأوها كافية في تقرير ما ذهبوا اليه

ومن فروع هذا الاصل أن لا يتقدم الضمير على معاده ويستثنى من ذلك مواضع ، بعضها عقدوا عليه الاتفاق كضمير الشأن ، ومنها ما اختلفوا فيه كالضمير العائد على المفعول به ، والاصل في محل الاختلاف بيد من لا يجيز عوده على المتأخر عنه في تلك العبارة الى أن يقيم المخالف شاهده الصحيح

أجاز الاخفش وأبو الفتح عود الضمير المتصل بفاعل مقدم الى مفعول

تأخر وأماما على ذلك شواهد مثل قول حسان

ولو أن مجداً أخلد الدهر صاحباً من الناس أبقى مجده الدهر مطعما

ومنعه الجمهور في حال السعة وحملوا تلك الشواهد على الشذوذ أو الضرورة ومنزعهم في عدم قبول هذه الشواهد أنها جاءت على خلاف الاصل ، وما يرد على خلاف الاصل لا يجعل مقيساً الا حيث تكثر شواهده حتى تدل على قصد العرب لاطراده

ومما يتناوله الاصل المومأ اليه أن المستثنى أخرج من المستثنى منه ثم نسب الحكم الى بقية الافراد فكان المستثنى في الظاهر مخرجا من الحكم أيضا ومرتبة المخرج متأخرة عن رتبة المخرج منه فكان موقع المستثنى بعد اللفظ بالحكم والمستثنى منه ، ولكن كثر في الاستعمال تقدمه على المستثنى منه نحو جاءني الا زيداً القوم . أو على الحكم فقط نحو القوم الا زيداً اخوتك فبقيت مسألة تقدمه عليهما معاً على أصل المنع ، وقد جوزها الكوفيون قياساً ، والحق أن مخالفة الاصل بكل واحد من أمريه على انفراده لا تدل على جواز مخالفته بالامرين كليهما في تركيب واحد

يتفاوت ارتباط بعض الكلم ببعض من جهة المعنى في القوة والضعف ، وهذا التفاوت له مدخل في باب القياس ، الا ترى ابن جني كيف أجاز تقديم المفعول معه على مصاحبه ومنع تقديم المعطوف على المعطوف عليه . والامثلة الشاذة الواردة في تقديم المفعول معه ليست بأكثر من الامثلة الواردة في تقديم المعطوف ولكنه يرى أن تبعية المعطوف للمعطوف عليه أشد من تبعية المفعول معه لمصاحبه

القياس في الفصل

الاصل في الالفاظ المربوط بعضها ببعض من جهة المعنى أن لا يلقى بينها بفاصل ، وقد خالفوا هذا الاصل في مواضع شتى حتى عد بعضها في فنون البلاغة كالفصل بين مفعولي رأيت في مثل قول الشاعر

وبمتحن الدنيا امتحان مجرب يرى كل ما فيها وحاشاك فانيا

أو بين النعت والمنعوت كما قال تعالى « وانه لقسم لو تعلمون عظيم » ويجب النظر في قوة الارتباط وضعفه في هذا المقام أيضا فيكفي من الشواهد

الواردة في الفصل بين ما ضعف ارتباطهما ما لا يكفي في الفصل بين ما كان الارتباط بينهما قويا ، ولهذا تلقوا ما سمعوه من الفصل بين التابع والمتبوع بالقياس واختلفوا فيما ورد من الفصل بين المضاف والمضاف اليه فأجاز بعضهم الفصل بينهما بالقسم والظرف والمفعول على وجه القياس ومنعه آخرون بدعوى أن الفصل الوارد في السماع محمول على الشذوذ أو الضرورة . ولا منشأ لهذا الاختلاف وعدم اكتفائهم بما وصل اليهم من الشواهد فيما أحسب الا اعتقاد بأن كلمتي المضاف والمضاف اليه قد بلغتا في شدة ارتباطهما الى أن صار بمنزلة الكلمة الواحدة وربما اكتفوا بمقدار هذه الشواهد في الفصل بين التابع والمتبوع لان الارتباط بينهما لا ينتهي الى هذه الدرجة ويدلك على رعايتهم لشدة الارتباط أنهم أطبقوا على منع الفصل بين الموصول الحرفي وصلته متى كان الموصول عاملا مثل «ان» واختلفوا حيث يكون الموصول غير عامل مثل «ما» فأجاز كثير منهم الفصل بينها وبين صلتها ، وذلك لان الموصول العامل أشد اتصالا بصلته من غير العامل اذ الاول طالب للصلة من جهة المعنى والعمل وأما الثاني فطلبه لها من جهة واحدة وهو الموصولية

القياس في الحذف

من الجلي أن حذف أحد أجزاء الجملة يغير أسلوبها ويحدث فيها هيأة جديدة والمحافظة على الاسلوب العربي تقتضي أن لا يلفظ الانسان بعبارة الا أن تجيء مطابقة للهجة العربية . وهذا الاصل هو الذي يتمسك به من لا يجيز حذف لفظة حيث لم يثبت عنده بدليل يعتد به ، كما منع الجمهور حذف الفاء والبصريون حذف الموصول ، وابن ملكون حذف أحد مفعولي ظننت ولو مع قيام القرينة على المحذوف

قد يقال ان العرب اكثروا من حذف ما تقوم عليه القرينة كالمضاف والمضاف اليه والمبتدأ والخبر والمفعول به والمعطوف والمعطوف عليه والحال والتمييز وفعل الشرط وجوابه ، وباستقراء هذه المواضع يتقرر أصل يمكن المراد وهو صحة الحذف لدليل . والجواب أن ورود السماع بالحذف في باب كالنعت أو المنعوت انما يسوغ القياس في ذلك الباب خاصة اذ قصارى ما تدل عليه شواهده أن الحذف هنالك لا يخالف الاسلوب ، واجازة الكسائي لحذف

الفاعل ، والكوفيين لحذف الموصول ، والجمهور لحذف أحد مفعولي ظننت انما اعتمدوا فيها على شواهد مبسوطة في كتب الفروع

واذا وضعت الفاظ للدلالة على غرض وانتظمت في منهج وسمع في أحدها حذف بعض متعلقاته فهل يجري الحذف في متعلقات ما يشاركه في المعنى على طريقة قياس التمثيل ؟ ومثال هذا أنه ثبت حذف صدر الصلة مع أي الموصولة في نحو قولك « زارني أيهم أكتب » فوقف أكثر النحاة عند هذا الموضع واستضعفوا حذفه مع غير أي من الموصولات ، ولم يستضعفه ابن مالك . فالقائل بمنع القياس ناظر الى أن حذف متعلق الكلمة وهو صدر الصلة جرى على غير أصل فلا نتجاوز فيه حد السماع حتى نلحق به ما يشارك تلك الكلمة في مساقها ونحذف متعلقة . والقائل بجواز الالحاق ناظر الى أن اتحاد الكلمتين في المعنى يجعلها في حال الكلمة الواحدة فما يثبت لاحدهما من الاحكام يصح اعطاؤه للاخرى حيث أن الاسلوب معها متماثل

واذا ورد السماع بحذف حرف في موضع من التركيب على سبيل الاطراد فهل يقاس عليه ما يرادفه من الحروف فيسوغ حذفه ولو لم ترد به الرواية؟ هذا من مواقع اختلافهم أيضاً ومن امثلته أنهم أجازوا حذف (لا) النافية في جواب القسم كما ورد في قوله تعالى « تالله تفتؤ تذكر يوسف » وقول الشاعر

آليت حب العراق الدهر أطعمه والحب يأكله في القرية السوس

واختلفوا في حذف (ما) النافية في نحو هذا التركيب . ومن أبى حذفها قد يتمسك بأن لا وضعت للدلالة على السلب ، وحذفها يوهم ارادة الاثبات الذي هو ضد مدلولها فكان ذكرها على ما يقتضيه وضعها ضربة لازب ولكنهم حذفوها في جواب القسم لكثرة استعمالها ، ولا يصح الحاق لفظ (ما) بها وان كانت مرادفة لها في المعنى لانها لا تشاركها في الوجه الذي اقتضى العدول بها عن القياس وهو كثرة الاستعمال

ولا ترى طائفة منهم الكافيجي الوقوف في الاساليب على ما ورد عن العرب فاجازوا لك أن تقول في الدرس علي والمسجد خالد . ونحو كان تالياً الخطبة بكر والقصيدة محمود . وهذا ما يعبر عنه النحاة بمسألة العطف على معمولي عاملين مختلفين ، ثم قال الشيخ الكافيجي عقب هذا ان جزئيات الكلام اذا أفادت المعنى المقصود منها على وجه الاستقامة لا يحتاج الى النقل والسماع والا لزم

توقف تراكيب المئين في تعابيرهم على ذلك

وهذه العبارة مطلقة العنان ولا بد من رد جماحها فنقول ان أراد الكافيجي بقوله « أفادت المعنى على وجه الاستقامة » انهما أوصلتا المعنى الى ذهن المخاطب كاملا ، فهذا لا يكفي في صحة الكلام عند علماء العربية قطعاً فان من التراكيب ما يؤدي المعنى وافياً ويكون المتكلم قد خالف فيه بعض القواعد المجمع عليها . وان قصد بوجه الاستقامة المطابقة لصحة الاسلوب عربية فهذا هو محل النزاع بينه وبين من لا يجيز أمثال ذينك التركيبين حيث ان المانع يراهما غير مطابقين للاسلوب الصحيح ، فلا محيص للكافيجي وغيره من اقامة دليل على الصحة اما سمع يوثق به أو قياس تمثيل لا يتطرق اليه قادح

القياس في موقع الاعراب

اذا وردت الكلمة بمكان من الاعراب لم يسمع استعمالها في غيره فأصولهم تقتضي أنها انما تطرد فيما سمعت ولا يقاس عليه غيره من المواقع ، ومن هذا تخصيصهم فل ولومان ونومان بالنداء ، وقط وعوض بالظرفية أو الجر بمن

ومن فروع هذا قول ابن الحاجب وسعد الدين التفتازاني أن لفظة كل اذا اضيفت الى الضمير لم تستعمل في كلامهم الا توكيداً فيمتنع ايرادها مفعولا به أو فاعلا . ومن أجاز ايرادها مفعولا به كابن هشام اعتمد على ما وقع في يده من الشواهد التي منها قول الشاعر

« فيصدر عنها كلها وهو ناهل »

ومما يجري على هذا الاصل قولهم ان كافة وقاطبة وطرا لاتخرج عن الحالية وعن ابن هشام في أوهام الزمخشري تخريج قوله تعالى « وما ارسلناك الا كافة للناس » على أن كافة نعت لمصدر محذوف ، والتقدير رسالة كافة . ومن نازع في اختصاصها بالحالية يستشهد بمثل قول عمر بن الخطاب « قد جعلت لآل بني كاهلة على كافة بيت مال المسلمين لكل عام مائتي مثقال ذهباً » وحاول الشهاب الخفاجي هدم هذا الاصل فقال في شرح الدرة ان كافة ورد عن العرب بمعنى جميع لكنهم استعملوه منكراً منصوباً وفي الناس خاصة ، ومقتضى الوضع أنه لا يلزمه ما ذكر فيستعمل كما استعمل جميع معرفاً ومنكراً بوجوه الاعراب وفي الناس وغيرهم لانا لو اقتصرنا في الالفاظ على ما استعملته العرب العاربة

والمستعربة حجرنا الواسع وعسر التكلم بالعربية على من بعدهم وهذا الرأي لا يؤخذ به على الاطلاق ويستضاء به في كل حال فانه لا يطابق ما قاله أساتيذ العربية من أن معرفة الوضع غير كافية ما لم ينضم اليه العلم بحال الاستعمال. قال ابن خلدون في المقدمة ليس معرفة الوضع الاول بكاف في التركيب حتى يشهد له استعمال العرب لذلك . واكثر مايحتاج الى ذلك الاديب في فني نظمه ونثره حذراً من أن يكثر لحنه في الموضوعات اللغوية في مفرداتها وتراكيبها وهو شر من اللحن في الاعراب وأفحش

ولو اقتدينا بالشهاب وسرنا على أثر مقالته التي لم يرسم لها حداً لعمدنا الى مثل قط وقبل وعند وأخرجناها عن الظرفية الى الابتداء أو الفاعلية ولا أحسبه يرضى للغة هذه الفوضى فيفصم نظامها وهو يريد توسيع نطاقها

والتحقيق في هذا المطلب أن ما يصلح أن نجريه على القاعدة في الاعراب نوعان (أحدهما) ما يدور على ألسنة الفصحاء وغيرهم ويجري في خطاباتهم بحالة خاصة من الاعراب مثل عند وقبل وبعد وقاطبة وطرا ، وهذا هو الذي نقف فيه عند السماع فان كثرة دورانه في مجاري كلامهم نظما ونثرا وتقلبه في أساليبهم بحالة مخصوصة يشعر بقصدهم الى تخصيصه بتلك الحالة الاعرابية وما كان ينبغي لنا في هذا القسم الا ان نتحرى الطريقة المألوفة في استعماله

ثانيهما ما لا يتردد في أغلب خطاباتهم وانما يرد نادرا أو كثيراً ولكن لم يصل الى مبلغ يدل على قصدهم الى قصره على الحالة التي جاءت بها الرواية وهذا هو الذي يسوغ لنا ان نخرج به عن حالته الواردة ونستعمله في المواضع التي يساعد عليها الوضع ، فلو لم نسمع لفظ الضرغام أو اللوذعي أو الفيصل مثلا الا فاعلا أو مفعولا كان لنا ايراده في تراكيب من عندنا مضافا اليه أو مبتدأ أو خبرا . فيتضح بهذا التفصيل مذهب الجمهور ووجه مأخذه ويمكنك ان تقضي به على مقالة الشهاب حيث اباح خروج كافة عن الحالية بمجرد النظر الى حال الوضع فان هذه الكلمة من القسم الاول قطعا فيجب على القائل بصحة استعمالها فاعلا أو مفعولا مثلا اقامة شاهد على ذلك ولا يكفيه التمسك بانها قابلة لهذه المواقع بحسب وضعها (يتبع)

من الخرافات الى الحقيقة (*)

— ١ —

مقدمة

سيدي نابغة المسلمين !

دعاني الى ترجمة الكتاب المسمى (من الخرافات الى الحقيقة) الذي ألفه من قبل (م . شمس الدين) باللغة التركية ؛ داعيان مستقلان

(١) قلة الاشغال

(٢) الالم الذي يستولي علي حينما أرى حالة امة محمد (ص) كأنها تدين بدين غير الاسلام .

أما قلة الاشغال : فانه منذ زالت الحكومة الاسلامية من هذه البلاد (فلسطين) نزعت الوظائف السياسية والادارية من يدنا معشر الشبية(١) المتعلمين من المسلمين الى النصارى ثم الى اليهود . وبقينا بغير اعمال، فاشتغل بعضنا بالتجارة وبعضنا بغيرها واشتغل هذا العاجز بالترجمة والتأليف ـ هذا هو الداعي الاول.

وأما حالة المسلمين وما تحدثه من الآلام فانني لا أتصور مسلماً يرى الهوة السحيقة التي يتدحرج فيها المسلمون ويسمع أنين هذه الكتلة البشرية ويسعه السكوت على ما يرى ويسمع . بل لابد أن يتفجر في دماغه الذي هو ممكس لصوت ذلك الانين طوفان آلام يدفعه الى عمل شيء ينفع به هذه الامة .

ان المسلمين الذين قضوا وقتاً طويلا وهم يحكمون في العالم فيطاعون ، ويسودون الامم ادارة وعلماً واقتصاداً فيتبعون ، هم الآن ذليلون مهانون ، يئنون تحت ضربات حكامهم الغرباء وطنا ولغة وديناً .

ان العالم الاسلامي الذي كان يخطر على المسكونة مهابة وشرفا قد انحنى

(*) مترجم الكتاب حسني بك عبد الهادي من بيوتات نابلس الشهيرة وقد خص به مجلة المنار فنحن ننشره شاكرين غيرته وهمته مع اصلاح للترجمة لا يغير المعنى بل يجليه

(١) الشبية بوزن قصبة جمع شاب والشبيبة مصدر شب الغلام اذا صار شابا

وانزوى وغاب عن الابصار ، ان المسلمين الذين كان العالم يهتز طربا أو اضطرابا من صوتهم أمسوا اليوم مسودين مسوقين اسراء .

ان المدن الاسلامية التي كانت مرايا الرقي والحضارة بات اليوم يعشش فيها . والمسلمون الذين كانوا يبارزون القوى الطبيعية أصبحوا اليوم يخافون من ظلهم . واخذوا يتدحرجون في مهاوي الاوهام . بل أقول ان ديار الاسلام أمست مقابر ، والمسلمون فيها جنائز . ولابد لهذا السقوط العام من مؤثر عام . ان هذا المرض المستولي على مسلمي آسية وأوربة وافريقية والاوقيانوسية يبدي للناظر أعراضاً متشابهة وهذا ما حمل العقلاء على أن يقولوا ان منشأ المرض شيء واحد ما دامت الامة المسودة التي تئن تحت عوامل السيادة الاجنبية هي امة واحدة — امة محمد صلى الله عليه وسلم

عجباً ما ذاك العامل الذي رفع امة عيسى وهبط بأمة محمد ؟ ماذلك الدرج الذي صعدت عليه امة عيسى حتى استوت على عرش الحكم ؟ وما ذلك الدرك التي تحدرت فيه امة محمد حتى وصلت الى هذا المكان السحيق مكان المستعبد الخانع ، مكان المسود التابع ، مكان الاسير الخاضع ؟

ان الرابطة التي تربط ثلاثمائة مليون ونيفا من المسلمين هي (الدين) وبهذه الرابطة ملك المسلمون — امراء اليوم سادة الامس — أقاليم مختلفة . ثم عفت سلطتهم في تلك الاقاليم شيئا فشيئا حتى انحصرت اليوم في الاناضول . الا يوجد اليوم اقليم غير الاناضول لايدين ويخضع لهؤلاء الفرنجة بل يسن قوانينه بدون استشارتهم وينفذها بنجوة من سيطرتهم ؟ (١)

لا مراء في ان الدين الاسلامي قد كان هو السبب لتعالي المسلمين . فهل يمكن أن يكون سبب الرقي والصعود ، هو بعينه سبب التدهور والسقوط ؟ لا لا (٢) بل الدين الذي كان سبباً لتعالي المسلمين هو غير الدين الذي هبط بهم

(١) المنار ان جزيرة العرب وبلاد الافغان لاتدينان لاجنبي عنهما ولكن يعوزهما من العلوم والفنون والصناعات ما تحفظ بها قوتهما من الطامعين فيهما ، وينمي ثروتهما فتغنيهما عن الاجانب . ويعوزهما زعماء عقلاء يجمعون الكلمة ، وقد بدأ الافغان فتى يبدأ العرب ، الذين فضحوا أنفسهم بين الامم ؟

(٢) المنار قد سبقنا الى مثل هذا السؤال وجوابه في المقصورة الرشيدية ثم في المنار ، وهذه أبيات من المقصورة في ذلك =

اليوم الى العبودية والذل . ثم ان بيننا — على الاشتراك في الاسم — فرقاً جلياً وبوناً بعيداً .

كان المسلمون يحترمون الحقائق ، وأما نحن فأسرى الخرافات .

كان المسلمون اصحاب عقائد مستندة الى العلم والنور وأما عقائدنا اليوم فبنية على البدع والاوهام

ان هذا الكتاب لم يكتب ولم يجمع (ولم يترجم) الا لاراءة الفرق بين أجدادنا وبيننا ولاجل تصوير منشأ الخرافات الحاضرة

لا يسع عاقلا مسلما يرى العالم الاسلامي يتدحرج في مهاوي الهلاك الا أن يسعى لانقاذه ، وأول ما يخطر على باله هدم الخرافات واقامة الحقائق محلها. وهذا لا يكون الا باحياء قواعد الدين الحقيقية التي رفعت المسلمين في القرون الاولى الى سماء المجد . لان الخرافات لا تحيي بل تذل ثم تميت .

المسلمون اليوم أذلاء ، لا جيش ، لا أسطول ، لا طيارات ، لا معامل صناعة ، لا مصارف مالية ، لا سكك حديدية ، لا علم ولا اختراع ، لا سفراء ولا قناصل ، وجملة القول انهم مجردون من كل ما يرفع النفس ويكون مدعاة الافتخار . لماذا ؟ لانهم غارقون في بحر من الخرافات .

ربما كان هذا الكتاب سبباً لغضب الكثيرين الذين يصطادون في الماء العكر . ولكن المسلم الذي يرى الدين في تهلكة والامة على شفير القبر ، لا يقدر أن يسكت ومن سكت فهو أسقط من مسببي هذا السقوط .

فهذا هو السبب الثاني الذي دعاني الى ترجمة الكتاب . ؟

لكنما أبكي لمجد أمة	ثلت عروشه وحلت العرى
ووطن ذل فساد حوضه	(مذعثر الاعتقاد مهدوم الحبى)
وملة حكيمة رحيمة	قد تركت للجهل كالشيء اللقا
وقال فيها الاخسرون انها	علة هذا الانحطاط والشقا
فكيف كانت علة السعادة الـ	ـتي مضت قبل وذاك الارتقا
أما أصبنا الملك والحكمة والـ	ـعلم بها فا عندنا مما بدا
ألم توحد امما تفرقت	واختلفت في الاعتقاد واللغى
فكيف عدتم وانتم اخوة	لما تركتم هديها من العدى

الخ

وستكون مطالعتنا مؤيدة بآيات شريفة وبأحاديث منيفة .... لمن الجامع الصغير

ان من سنن الاجتماع التي لا تتبدل ولا تتغير ان الامم التي تتراءى من سماء الاقبال الى حضيض الادبار ترى جميع حركات الامم الحاكمة و... حسنة ممتدلة.

مثال ذلك ان العالم المسيحي اليوم يجلس على عرش السلطة والعالم الاسلامي يجلس على الارض تحت كرسي ذلك الحاكم. وكل مايخرج من ملك الهلال يدخل في ملك الصليب، والمسلمون لاهون يظن الجاهلون قصير والنظر منهم أن سبب سقوطهم هو (الدين) والقصد من تأليف هذا الكتاب ابادة هذا الظن الباطل. لان الاسلام من أسباب الرفعة والعلاء، لا السقوط والاستخذاء، وأما سبب اغلال مسلمي اليوم فهو خلط الاسلام النقي الصافي بخرافات الاولين

فاذا رجع المسلمون الى (الدين الحق) كما هو فانه ينفخ فيهم روح حياة جديدة وينجون من الاحتضار الواقع. وهذا لا يمكن الا بترك الخرافات والتمسك بالحقائق، وهو موضوع هذا الكتاب

يتألف هذا الكتاب من ٢٢ فصلا (١)

(١) المستوى الفكري والاجتماعي في المحيط الذي ظهر الاسلام فيه
(٢) الطور الاول للاسلام
(٣) الضربة الاولى التي ضرب الاسلام بها
(٤) المؤثرات التي زلزلت الوحدة الاسلامية
(٥) تغلب روح الفرس على روح الاسلام
(٦) كيف طرأ الفساد على الاسلام ومن أحدث ذلك
(٧) الفوضى الدينية والاجتماعية والسياسية وحزب القرامطه
(٨) عصابة الدراويش الفوضويين الحشاشين
(٩) عبدة الامام علي
(١٠) مذهب الاسماعيلية

(١) المنار: ان القرامطة والحشاشين والاسماعيلية والدروز والنصيرية والبكتاشية كلهم من الباطنية الذين توسلوا بالصوفية والروافض ومذاهبهما الى بث دعوتهم فتقسيم الكتاب غير ظاهر لنا الآن

(١١) الدروز والنصيرية
(١٢) الباطنية: الروافض والصوفية والبكتاشية
(١٣) اخوة المسلمين تحتاج لرفع النفور المذهبي
(١٤) الاحاديث الموضوعة
(١٥) كتب المواعظ
(١٦) عبادة الاموات
(١٧) الاعتقادات الباطلة
(١٨) ضرورة رجوع المسلمين الى الطريق الاول
(١٩) أساس الاسلام الاول النظر التعقلي
(٢٠) لا يكفر المسلم بسهولة
(٢١) لا يوجد تحكم ديني في الاسلامية
(٢٢) النتيجة

هذه هي فصول الكتاب. وسنبذل الجهد لان يكون كاشفا لحقيقة المرض ومحتويا على العلاج النافع وبالله المستعان

نابلس (حسني عبد الهادي)

الرحلة السورية الثانية

—٧—

الحالة السياسية والاحتلال في السواحل

نكتب في هذا الفصل كلمة حق وما كل مايعلم يكتب في مثل هذا الو لان الزمن الذي يلد التاريخ لا يدونه كما قال بعض حكماء الغرب ولان الـ في السياسة يراعى فيها مصالح كثيرة يقع التعارض فيها فيرجح كل ناظر المتعارضات باجتهاده

قد اشترطت علينا السلطة الانكليزية في اعطائنا جواز السفر الى سـ شروطاً ثقيلة أشرنا اليها في الفصل الثاني من هذه الرحلة(ص٤٢٨م٢١)خلا أن نتحامى احداث تهييج سياسي بالكتابة أو الخطابة فوفينا بالشرطوا كـ من الافادة والاستفادة أن نعرف حقيقة الحال ونقول ما نرى أنه الحق

ن البلاد [illegible] الصحيح للناس بما يجب [illegible] من الأمن والاستقرار والعلم والاقتصاد ،

أما أهل البلاد فقد كان التغاير بين المسلمين والنصارى منهم في السواحل بالغاً أشده فالنصارى كانوا يرون أن ملك البلاد سلب من المسلمين وصار لهم بقوة فرنسة وحمايتها والمسلمون يبكون أسى وحزناً على الدولة العثمانية ويعلقون آمالهم بالامير فيصل الذي ضمن لهم استقلال البلاد وجعلها دولة عربية بمساعدة بريطانية العظمى ، فلهذا كانوا في منتهى النفور من الفرنسيس وكان من هؤلاء من يتودد اليهم ويجتهد في استمالة زعمائهم واصحاب المكانة منهم فلا يزيدهم ذلك الا نفوراً منهم ومبالغة في التعلق بفيصل فيغطر هم ذلك الى حصر ثقتهم بالنصارى ومن يتقرب اليهم ويتملق لهم من طلاب المنفعة من المسلمين وان كانوا لا نفوذ لهم ولا تأثير في اهل ملتهم . وقد فصلنا في الفصل السادس من هذه الرحلة ما أخطأ فيه كل من المسلمين والنصارى في هذا الامر وما كان يجب على كل منهم من السعي الى الاتفاق والاتحاد على مصلحة الوطن المشتركة وما سعينا اليه قولا وعملا وكتابة في هذه السبيل وقد كان هذا السعي كله بعد اضطرار السلطة الفرنسية اياي الى الاقامة في بيروت وفي طرابلس عدة اشهر بعد ان كنت عازماً على أن اقيم فيهما عشرة ايام فقط .

ذلك باني عقب المأتى بيبروت (في ٤ المحرم سنة ١٣٣٨) قد أصابتني زكمة صدرية فتاخرت عن زيارة طرابلس الى ١٦ المحرم ولما أردت العودة منها الى بيروت عرض لي تصدي السلطة الاحتلالية ما سأذكره بعد ذكر اجتماعي في بيروت بالمندوب الفرنسي السامي

مقابلة المندوب السامي موسيو جورج بيكو

جاءني في يوم الاثنين (١١ المحرم — ١٧ اكتوبر سنة ١٩١٩) شرطي بيروتي وقال لي اذا كنت تحب أن تقابل القومسير السامي (مسيو جورج بيكو) فهو مستعد لمقابلتك بين الساعة التاسعة صباحا والظهر في الدار التي كانت للوالي فوعدت بالذهاب وذهبت في الساعة العاشرة وقابلته فمكثت معه من الساعة الحادية عشرة الى ما بعد الظهر فاحتفى بي وتلطف غاية التلطف ودار الحديث بيننا في ثلاث مسائل

(المسألة الاولى) ما ينكره المسلمون من السلطة الفرنسية . سألني عن عهدي برؤية البلاد وكيف رأيت حال المسلمين اليوم ؟ فقلت له ان المسلمين على كونهم لم ينسوا ما اصابهم في آخر زمن الترك من الرزايا والمصائب يبكون عليهم وان

لم تخف دموعهم من الظلم ... في هذا الوقت حتى في ديهم .
فأجاب بأنه وقع من رجالهم أغلاط ... كرونها ولكنهم سيتلافونها ،
وأنه على ما ينويه من المساواة بين جميع الطوائف والملل في الوظائف وغيرها
سيجتهد في مراعاة شعور المسلمين الديني ... وعناية تامة ، وذكرت له أن أهم
مايهم المسلمين (كما يهم غيرهم أيضا) ... بالغة العربية وجعلها هي الرسمية
وعدم تعرض السلطة للاوقاف والتعليم الديني فوعد بذلك وعداً مؤكداً ، وانما
ذكرت له هذا لاسمع منه مايقوله فيه لا لاقتراح شيء عليه

(المسألة الثانية) ما ينوون عمله في المنطقة الشرقية ، سألته هل تظل على حالها ؟
فقال لابد من توحيد الادارة في البلاد كلها ومن وجود المستشارين الفرنسيين
في الداخل كالساحل الا أن الاحتلال العسكري يبقى في الساحل فحسب . قلت
وهل يكون لسورية كلها حاكم واحد كالامير فيصل أم تجعل قسمين لكل منهما
امير او حاكم وطني عام ؟ قال لا بد من قسمة البلاد الى عدة ولايات او مقاطعات ،
ولا يعلم الآن كيف يكون ذلك لانه يتوقف على ما يكون عليه الصلح مع الترك
لان البلاد لا تزال لهم (بلاد العدو المحتلة)

هذا ما قاله وهو اعلم بغرض حكومته على انهم قسموا البلاد قبل الصلح
مع الدولة جعلوها بضع دول اكبرها واغناها ما سموه (لبنان الكبير)

(المسألة الثالثة) المقابلة والتنظير بين الفرنسيس والانكليز والسياسة الحاضرة
وما ينتظر من التحول والانقلاب فيها ... أطلنا فيها مالم نطل فيما قبلها

قال هو ان الفرنسيس أرق طباعاً وألطف معاشرة من الانكليز فهم يحترمون
الشرقيين وغيرهم ويقابلون أهل التعزز والمكانة بما هم أهل له من الحفاوة
والاكرام وأما الانكليز فتكبرون يزرون بأقدار الناس — أو ما هذا معناه

قلت ان لطف الفرنسيس وحسن ... وقربهم من الشرقيين في ذلك
مشهور كشهرة الانكليز بالجفوة والانكماش والعجب بانفسهم واننا قد اختبرناهم
في مصر فألفيناهم كما يقال عنهم الا أن آدابهم ... في معاشرة من يرضون معاشرته
ولقاء من يودون لقاءه ، ولكن ما ... عليه من الترفع والعجب والاثرة ،
والطمع ومحاولة الاستبداد بالسيادة سيفضي ... الى جميع الامم والشعوب ويؤلبها
عليهم . وذكرت طمعهم في بلاد العرب ... والاستقامة وما يقصدون من
مد ظل سلطنتهم (أمبراطوريتهم) من ... الافريقي من أفريقية والغربي

مد ظل سلطنتهم (أمبراطوريتهم) من ... الافريقي من أفريقية والغربي

من آسية إلى حدود ... وسيادة ... البحار وازالة ملك الاسلام من الشرق وجعل جميع الدول العظمى في أوربة عالة عليهم وتبعاً لهم في سياسة العالم (قلت) حتى اني لا أتوقع مجيء يوم ... فيه من مصلحتكم محالفة الالمان على الانكليز — فوافقني على آرائي في هذه الامور بعد مناقشة في بعضها وقال في توقع الانقلاب في سياسة الحلفاء انه ... محال أو غير بعيد ولكننا الآن متفقون في كل شيء

وبهذه المناسبة ذكرت له خلاصة من مذكرتي التي أرسلتها الى مستر لويد جورج في هذا الموضوع ليعلم أني لم أقل له ما قلت في الانكليز تقربا اليه كما يفعل أنصارهم في سورية وانما هو شيء قلته بل كتبته لاعظم رجال الانكليز لاني أعتقده وأعتقد أن استمرارهم على تقاليدهم السياسية القديمة شر لهم وانه سيفضي الى عداوة الامم لهم واختلاف مع حلفائهم الذي اضطرهم الى محالفتهم الخطر الالماني المهدد للفريقين المنافي لتماديهما في بطون التاريخ وقد تجددت بينهما عداوة حسد المهضوم حقه في هذه المحالفة بكثرة خسارته للآخر الذي زاد ربحه على خسارته أضعافا ولم ير غليل مطامعه، أعني عداوة اللاتين للانكليز. وقد صرحت بهذا في مذكرتي للوزير البريطاني التي نوهت بذكرها في مقالة (الحقائق الجلية في المسألة العربية) وكان غرضي منها اقناعه بترك قسمة تراث الاسلام لانه لم يمت والاستبداد باستقلال العرب والترك والفرس وكذا مصر، ولا تزال الايام تصدق بأ... كل ما كتبته في تلك المذكرة كما صدقت ما كتبته لهم فيما قبلها، ولكن جمود لورد كرزون على سياسة الطمع القديمة والتعصب الديني والجنسي الذي ... فيه مستر لويد جورج على مرونته وتقلبه من أكبر أسباب ما تفاقم ... من الكوارث السياسية وعجزها عن حل شيء منها

بعد هذا الاستطراد أقول اني لم أكن أحاول اقناع مسيو جورج بيكو برأيي لاجل عمل يرجى أن يأتي منه. كيف وقد كان هذا الكلام في أيام تنفيذ معاهدة سنة ١٩١٦ التي وضعها ... مديقه السر مارك سايكس بين الدولتين وكانت الجنود البريطانية تخرج بذلك ... ها وسلاحها من سورية الشمالية كلها وتسلمها للجيش الفرنسي بعد تنازع وقع بينهما في سبيل تنفيذها ظهر أثره في سورية كما ظهر في باريس ولندن حتى قال ... دهاقين السياسة انها نقضت نقضا ومنهم

موسيو كلمنصو رئيس الوزارة الفرنسية لذلك العهد وكانت فرنسة يومئذ تريد أن تتخذ اتفاق الاحزاب السورية على طلب وحدة البلاد وسيلة لجعلها كلها تحت سيطرتها باسم الانتداب، فعارضتها السياسة الانكليزية بحزب سوري تألف في مصر يطلب أن يكون الانتداب لحكومة الولايات المتحدة ويحمل الامير فيصل لحزبه في الشام على طلب جعل الانتداب لانكلترة وحدها فان لم يمكن فلها ثم لحكومة الولايات المتحدة الامريكية اذا هي لم تقبل وقد كان المظهر الاكبر لهذا التنازع بين السياستين في البلاد أيام المام الوفد الامريكي بها الاستفتاء اهلها في مستقبلهم وفي اختيار الدولة المنتدبة

وفي السابع عشر من المحرم (١٢ اكتوبر) ذهبت من بيروت الى طرابلس والقلمون في سيارة فأقمت فيهما ستة عشر يوما طلبت في أثنائها من الحكومة اعادة وقف جامع القلمون الي اذ كنت الامام والمتولي الشرعي له وكانت ادارة الاوقاف تولت أمره منذ بضع سنين وحال انقطاع المواصلات بالحرب العامة دون مطالبتي اياها باعادته الي كما كان في عهد والدي (رحمه الله تعالى) فوافقت لجنة الاوقاف بطرابلس على اعادته وقررت باتفاق الآراء أنني المتولي الشرعي وكتب مأمور الاوقاف بذلك الى مدير أوقاف الولاية في بيروت فأزمعت الذهاب الى بيروت لاتمام هذا الامر الذي جرى لي فيه من العبر ومعرفة الخلل في الحكومة وأخلاق رجالها وسيرتهم ما يعلم به أن جل ما تشكو منه البلاد فهو من اهلها أو بمساعدتهم ويستحق ان يفرد له فصل خاص وانما كلامنا الآن في الحال السياسية

حادثة تعرض السلطة الفرنسية لنا

في الثالث من صفر (٢٨ اكتوبر) أخذت ورقة السفر من طرابلس الى بيروت في باخرة فرنسية تسافر من الميناء ليلا وكنت في الميناء فأردت النزول الى الباخرة فقيل لي ان السفر يتوقف على توقيع السلطة الفرنسية على جواز السفر — وهذا لم يكن من قبل — وكان من التسهيل غير المنتظر أن الشرطة وقعت على الجواز اذ عرضه عليها من تبرع لذلك من معارفنا ومعارفهم ولا أدري أكان في ذلك دخل متوخى أم لا ولكننا لم نكد نضع متاعنا في الزورق مع متاع كثير من المسافرين الا وفاجأنا الشرطة ففتحوا جميع صناديقهم

بالاسماط وعمدة الورق و[illegible] و[illegible] زيارة وفتشوا على ذلك تفتيشاً دقيقاً لم يغفل فيه طيات الثياب ولا جيوبها ثم فتشوا جيوبي وأخذ الشرطي جميع الاوراق ودعاني الى الذهاب معه الى ادارة المكس (الجمرك) فذهبنا واعيد المتاع الى حيث كان وطفقوا هناك ينظرون في الاوراق نظرا دقيقا وكان جل عنايتهم وأشد دقتهم فيما ظنوا بجهلهم وغباوتهم ان فيه أسرارا سياسية ينال مكتشفها أسنى الجوائز عند السلطة القرنسية وهو فهرس وضعته للجزء الثامن من تفسير القرآن راعتهم أرقامه فظنوا فيها الظنون على أني أخبرت الباحث فيه بأنه فهرس لكتاب في التفسير ... فقال يمكن أن يكون كتب في أثنائه شيء سياسي (!!)

ولما طال هذا البحث استأذنت الشرطي في الذهاب الى دار نسيبي الشيخ حسن الصفدي لاجل العشاء وصلاتي العشاءين وتغيير الثياب فأبى وقال ان رئيسه (لبنان بك) أمر أن أبقى ثم الى أن يجيء هو من المدينة الى الميناء

ثم في أثناء الساعة الثالثة بعد الغروب جاء شرطي (او قومندير [illegible] اسمه احمد على ما أتذكر وقال ان لبنان بك أرسله بالنيابة عنه ليأخذني الى دار الحكومة في المدينة لاجل توقيفي فيها (التوقيف في عرف الحكومة التركية هو الحبس الموقت) فاستأذنته بما استأذنت به الاول فلم يأذن وذهبنا الى المدينة [illegible] ووضعوني في حجرة من حجر الشرطة نوافذها مكسرة الزجاج وكان فيها مصباح صغير فيه قليل من زيت البترول تمد فانطفأ ولم نجد من في [illegible] من الشرطة [illegible] وكان الماء مقطوعا عن دار الحكومة وليس في المراحيض ورق [illegible] فكان التخلي فيها متعذرا على أمثالنا كما كان النوم متعذرا [illegible] هواء [illegible] في طرابلس يأتي من ناحية الجبل الذي يعلوه الثلج فيكون باردا [illegible] يكون هواء النهار حارا بالنسبة اليه ولا سيما في تلك الايام من فصل الخريف

ثم جاءنا الشرطة بفانوس كانوا يتقونه من حجرة الى أخرى [illegible] الحاكم العسكري قد حضر فأخذوا الفانوس [illegible] الى حجرته وتركوه له فيها وقد بلغني بعد ذلك [illegible] بعض المقربين اليه من الوجهاء [illegible] توقيفي [illegible] الى الروم وأنذروه [illegible] بقي هذا الرجل موقوفا [illegible] ان يثوروا و[illegible] دار الحكومة لاخراجه عنوة وتكون فتنة كبيرة .

وقد ظل الحاكم مع ترجمانه ينظر في الاوراق ساعة و ٣٠ دقيقة ثم دعاني وبلغني ترجمانه عنه ما يأتي :

« انك جئت الى هنا وكان البوليس السري يتعقبك ولما نزلت الى البحر أخذوا أوراقك فوجد فيها شيء يدل على انك تشتغل بالسياسة وفيها ما يدل أيضا على انك رجل مهم غير عادي(١) فأنا لا أريد أن أوقفك هنا واذ كنت تريد السفر الى بيروت فتابع سفرك اليها وأنا أرسل أوراقك الى حاكمها الاداري ليرى رأيه فيها »

قلت أحسنت صنعا فرجالكم في بيروت أجدر بمعرفتي وانصافي منك واني لا أشعر بما تدل عليه الاوراق . قال انك لم تزرني لاعرفك .

ثم قال الترجمان الشرطي (أو القومسير حنا) الذي صحبني خذ هذه الاوراق (وكانت قد وضعت في ظرفين كبيرين ختما بالشمع الاحمر ولا يزالان عندي) وهذا المكتوب وأعطوها لبوليس يسافر مع الشيخ الى بيروت الى دار الحكومة فيها ويجب أن تفهموا هذا البوليس ان يكون رفيقا بغاية الادب لا كما كانوا يفهمون من قبل أنهم مسيطرون على من يصحبونه يتحكمون فيه ويهينونه . وأعطاه ورقة أخرى من الحاكم الى رئيسهم لبنان

ثم صافحت الحاكم ونزلت معه الى خارج دار الحكومة حيث ركبت عربة وركب معي نسيبي الشيخ حسن وأخي السيد ابراهيم أدهم وهم لم يفارقا دار الحكومة منذ جاءا معي وركب معنا شرطي يحمل الورق وقصدنا الميناء فالتقينا لبنان في الطريق عائدا منها فأعطاه الشرطي رقعة الحاكم له فأرجعنا الى دار الحكومة ولم يرض أن اسافر في البحر وأمر حنا بأن يستأجر لي عربة من ملي ويرسلني في البر وكان يتكلم بغلظة وخشونة وعظمة الحاكم القاهر المستبد ، ووكل الى حنا تنفيذ الامر وذهب

وفي أثناء الساعة الثالثة الزوالية بعد نصف الليل أحضرت المركبة وأجرتها ٤٥٠ قرشا مصريا صحيحا كما زعموا وليس لي أن أعترض والشرطي الذي يحمل الورق فأوصاه حنا بما يأتي .

اذا صادفت في الطريق أحداً يريد أخذ الاوراق منك فأطلق عليه الرصاص

(١) كان في تلك الاوراق قوانين وقرارات بعض الجمعيات ومكتوبات من بعض المشهورين في سورية والشرق حتى عندي والغرب حتى مراكش فيها امورهم ،

واذا أراد أحد أخذ الشيخ منك فأطلق الرصاص على رجل الشيخ (أو قال رجليه) وعلى من يحاول أخذه

ثم ركب معنا حنا نفسه وجندي مسلح الى أن تجاوزنا بساتين طرابلس لئلا يكون أحد من الاهالي علم بأمرنا وكنوا بين الاشجار ليأخذوني عنوة وهو يجهل أن مثلي لو كان جانيا لترفع عن الهرب فكيف وهو يعلم أنه ليس في أوراقه ما يمكن أن تعاقبه عليه السلطة الفرنسية مهما يكن ضغطها على المسلمين شديدا في ذلك الوقت مقاومة للفكرة العربية والتماق بفيصل ولو عاقبته لما زاده عقابها الا رفعة قدره، على أن الشرطي الذي ارسل معي كان مسلما فلم يكن محتاجا الى التوصية بالتأدب معي بل كان من اولياء بيتنا ويتمنى لو يكون في خدمتي طول عمره وكان ارساله معي مما أثار عجبه وعجبي فكيف وقد اوصي بتلك الوصية الحمقاء التي كان يتلذذ بمثلها أولئك المتعصبون من اوشاب اللبنانيين الذين يعتقدون أن فرنسة حكمتهم في أشراف المسلمين وعلمائهم — بله عامتهم — تقربا الى يسوع المسيح والرسل والقديسين فكانوا حجة على فرنسة بأنها اما ظالمة سيئة الادارة واما متعصبة سيئة النية ،وسببا لشدة نفور المسلمين واستيائهم منها وتفضيل الانكليز عليها وشرا على وطنهم بالقاء البغضاء والتفريق بين الفريقين الكبيرين من أهله كما يعلم مما مر في هذه الرحلة ومن بقية هذا الفصل منها ، على ان هذا كان مفيدا للمسلمين من حيث انه قوى فيهم نزعة الجنسية العربية وحب الاستقلال ومعرفة قيمته كما قوى فيهم روح الدين وأعاد اليهم بعض ما فقدوا من هدايته . وكان جميع المشتغلين بالسياسة من خصوم الاحتلال الفرنسي يسرون بسوء تصرفها وتصرف أعوانها ولا يحبون أن تحسن الادارة لئلا يميل اليها الجمهور

ولو كان أمثال لبنان وحنا من اصطناع الفرنسيس من بيوتات لبنان المعروفة أو من الافراد الذين تربوا تربية ترفع من خسة المنبت ووراثة السوء لما كانوا يعاملون مثلي بهذه المعاملة وان امروا بها أمراً بل كانوا ينصحون للاجنبي الذي يأمرهم به بمثل ما نصح لحاكم طرابلس المصري من حذره على خروجه من داره ليلا ابتلاني بنفسه ما كان امر به . فأما ابناء البيوتات فانهم ورثوا الادب الشرقي في احترام الاسر الشريفة والمشائر المحترمة . وأما أبناء التربية الحسنة فيعرفون قيمة العلم والادب ويحترمونهم بالطبع فينزهون أنفسهم مهم

عن سوء الادب

وأما ما كان من أمر هذه الحادثة في بيروت فهو أننا لما وصلنا اليها وكان ذلك بعد المغرب من يوم الاربعاء صادفنا في الطريق الى دار الحكومة بعض الاصدقاء فسار أحدهم معنا اليها وانتظر آخرون مايعود به من الخبر ليبنوا على مايقع لنا ما يجب أن يعمل لتلافيه ان كان شرا . ولما دخلت دار الحكومة لقيت فيها لدى الباب الشيخ عبد الكريم الباقي نقيب أشراف بيروت من أصدقائنا الاولين(١) وهو موال للسلطة الفرنسية فسألني بعد التحية عما جاء بي الى دار الحكومة في ذلك الوقت فأخبرته فأخبرها كم بيروت أو نائبه بجنزي مقرونا بالثناء والتزكية والضمان غير الرسمي، فرضي بأن أخرج وأكون حرا في بيروت الى أن ينظروا في هذه الاوراق وينصتوني فيها بشرط أن لا أعمل أعمالا سياسية مضادا لهم فيها

تقريري للمندوب الفرنسي السامي

كان هذا الحدث وسيلة لي الى كتابة تقرير للمعتمد الفرنسي بدأته بالتذكير بما دار بيني وبينه وشرحت فيه ما كنت أجلته في الحديث معه يوم لقائه من اضطهاد المسلمين بما لم أكن أعلمه يومئذ لقرب العهد بالوصول الى بيروت ومنها كون النسبة الى العرب من كبار الذنوب السياسية مع كونه هو وكثير من كبار رجال فرنسة فمصر خوابأنهم يريدون احياء الجنسية العربية ولغتها ومدنيتها ...

ثم ذكرت فيه بتفضيله الفرنسيس على الانكليز في معرفة أقدار الناس من أفراد أو شعوب وقفيت على ذلك بإعلامه بأنني كنت في مصر أنتقد سياسة الانكليز كتابة وخطابة وقولا في المجالس العامة والخاصة وقدمت لهم في أثناء الحرب وبعدها مذكرات في تخطئة سياستهم في المسألتين العربية والاسلامية (حتى التركية) وآخرها المذكرة التي أرسلتها الى وزيرهم مستر لويد جورج وأنذرته فيها بعداوة العالم الاسلامي لهم . وأنه قدمت اليهم تقارير كثيرة في أمثال هذه المسائل (علمت

(١) لآل الباقي مودة لآل بيتنا منذ قرن ونيف على عهد أشهرهم الشيخ عمر الباقي الشاعر الاديب صاحب الديوان المعروف ففي ديوانه بعض القصائد التي مدح بها جد والدي السيد الشيخ محمد الكبير وله فيه قصائد اخرى لاسيما تاريخ داره في القلمون وقد نقش على رخامة فوق بابها الكبير في أبيات من قصيدة وبيت التاريخ «بل كل من قد حلها » أرخ يراها خير دار « سنة ١٢٣٢

هذا من نائب الملك وغيره) وكانوا يعلمون أن لي علاقة ودية بأمراء العرب وزعمائهم وجمعياتهم ، بل عثروا على رسالة تمد تحريضا للعرب على الاجانب وقيل لهم انني أنا الذي طبعتها ووزعتها — ومع هذا كله لم يفتشوا لي منزلا ولا مطبعة ولا أهانوني بقول ولا عمل ولم يقابلني أحد من كبار رجالهم الا بالاحترام اللائق — فأين هذا مما عاملتني به السلطة الفرنسية في طرابلس ؟

وذكرت له بهذه المناسبة أيضا كلمة عن ذهابي الى الهند سنة ١٩١٢ بدعوة جمعية ندوة العلماء فيها لرياسة المؤتمر الاسلامي وان الانكليز كانوا كارهين لهذه الدعوة وبلغني في الهند أن جواسيسهم كانت تتبعني كما فعلت وتفعل جواسيس فرنسة بطرابلس وبيروت ولكن لم يتعرض أحد لحريتي الشخصية ولا فتحوا صناديقي ولا فتشوا أوراقي. وختمت هذه المسألة بقولي له « وليس هذا بكثير على حرية الانكليز التي قسروا بها من يختبرهم ويختبر غيرهم على تفضيلهم على جميع الشعوب الاوربية في الحرية ومعرفة أقدار الناس »

قلت بل كان الغريب ما عاملني به أحمد جمال باشا الاتحادي الشهير في بغداد وكان يومئذ جمال بك — اذ ألممت بها منصرفي من الهند وكنت مجاهرا بالطعن في الاتحاديين والتنفير عنهم وكانت (مجلة العالم الاسلامي) التي يصدرونها في الآستانة تنشر بقلم الشيخ عبد العزيز شاويش انني أقصد العراق لاجل تأليب العرب واثارتهم على الدولة — ولكن جمال باشا لم يأخذ هذا الكلام قضية مسلمة بل سأل نقيب السادة الاشراف السيد عبد الرحمن المحض الكيلاني (رئيس وزارة بغداد لهذا العهد) وبعض كبار العلماء عني فبالغوا في الثناء (وكان هو يعرف عني شيئا وكتب الي قبل سفري ذاك) فأكرمني وزارني ودعاني الى طعامه . فأين هذه المعاملة من أقسى الاتحاديين الذي اشتهر بلقب السفاح من معاملة الفرنسيس لي في بلدي وأنا لم أفعل شيئا يخالف القانون ولا يخل بالامن ولم أدخل في غمرة الاحزاب السياسة الخ

وختمت المذكرة بسوء تأثير هذه الحادثة في أنفس المسلمين الذين صاروا يتعجبون لما كانوا يسمعون من حسن سيرة فرنسة وسوء سيرة الدولة العثمانية وقد تبين لهم أن الترك أعدل وأرحم وأبعد عن التعصب وأحسن ادارة من الفرنسيس ، فصاروا يسألون عن سبب سوء صيت الترك وحسن صيت الدول الاوربية الخ

اعتذار المندوب السامي وغيره

أرسلت المذكرة الى المندوب (القومسير) السامي فلم ألبث أن دعيت الى مقره الرسمي (القومسيرية وكان ذلك في ٨ نوفمبر) فقابلني فيها (مسيو رودوبكس) معاون مدير الامور السياسية لانه يحسن العربية وكان هو المترجم بيني وبين المندوب عند تلاقينا منذ شهر فرحب بي أجمل الترحيب وبلغني شدة أسف المندوب السامي لوقوع الحادثة وانه كان يود لو يلقاني ليعتذر لي بنفسه لولا انه أصيب منذ ثمانية أيام باسهال تحول الى دوسنطارية وانه كلفه الاعتذار باسمه وأن يخبرني ان الحاكم العام (موسيو نيجر) سافر أو يسافر الى طرابلس لاجل هذه الحادثة ليحقق الامر فيها ويعاقب المسيئين وانه سيعزل حاكم طرابلس لأجلي . وكلفه أن يخبرني أيضا بأن الحكومة الفرنسية مستعدة للقيام بكل ما أطلبه من التعويضات المالية والادبية — وكرر على ذلك قائلا مهما تطلب من التعويض يؤد بكل ارتياح .

قلت انني لا أطلب تعويضا ماليا وانني لم أخسر من المال شيئا يذكر وأما معاقبة المسيئين من الشرطة وغيرهم فهو لمصلحتكم لانه يرفع عنكم تهمة تعمد اهانة المسلمين وظلمهم وأنا لم أخسر شيئا من مقامي الادبي بظلمكم اياي بل ذلك مما يرفع مقامي في نظر أهل وطني وغيرهم ، الا أن حاكم طرابلس أمسك عنده اوراق وقفنا فأنا اطلبها للسعي في انجاز العمل فيها

قال اذا أنت لم تطلب لنفسك شيئا فأنا أطلب منك باسم الوطن السوري أن تترك مصر وتقيم هنا وتشتغل باصلاح بلادك فهي أولى بك لانها فقيرة من الرجال ونحن في حيرة من هذا الفقر ... نريد انشاء مجمع لغوي وان تكون أنت العضو الاول فيه وفي البلاد مصالح اسلامية خاصة أنت أولى باصلاحها أو ادارتها ونود أن تكون مستشارا للحكومة العليا في البلاد لتكون خدمتنا لها على الوجه المرضي للمسلمين أصحاب الاغلبية في البلاد وان ادارة هذه البلاد من أشق الامور وأصعبها لكثرة الاديان والمذاهب المتعادية فيها (وذكر أكثرها وأطال في استمالتي والثناء على بلسانه وبشاشته)

فشكرت له هذه العناية والثناء واعتذرت عن الانتقال من مصر الى سورية بما لاحاجة الى الاطالة به

وكان اتفق في هذه الاثناء أن دعا الحاكم العام للولاية (موسيو نيجر)

أكابر وجهاء المسلمين المعارضين لتألبهم وعلمائهم ينكرون على السلطة الفرنسية وما ينقمون منها فكان أشد ما ذكر له مما نقموا وأنكروا حادثتنا هذه، تكلم فيها في ذلك الاجتماع وغيره أكبر العلماء مفتي الولاية الشيخ مصطفى نجا والشيخ أحمد عباس وأيدهما كبار الوجهاء المشهورين بالشجاعة الأدبية كالمرحوم أحمد مختار بيهم وأبي علي سلام فأكبروا من شأن صديقهم خادم الإسلام والوطن فحمل ذلك الحاكم على أن يطلبني ليسمع تفصيل الحادثة مني فاتفق أن طلبني مدير الأمن العام في الوقت الذي حدده لي كتابة

جئت دار الحكومة بعد العصر من ذلك اليوم فقابلت مدير الأمن أولا فأعطاني أوراقي وبلغني عن حاكم مدينة بيروت الإداري أنه يجب أن أسافر إلى مصر في أول باخرة تسافر من بيروت إلى الثغور المصرية . ثم دخلت على الحاكم العام فرحب بي واعتذر عن الحادثة متأسفا لوقوعها وقال إنها بلغته من مصادر مختلفة فأحب أن يعرف الحقيقة مني قبل سفره إلى طرابلس فلخصتها له ، فأعاد التلطف في الاعتذار ووعد بالتحقيق ومعاقبة المسيئين فقلت له : ذلك شأنكم ولكن مدير الأمن العام بلغني الآن أنكم حكمتم علي بالنفي من البلاد ولم يبين لي سبب هذا الحكم القاسي فهل هذا ما وعدتم به من العدل ؟ وأنا لا يهمني عقاب أحد بعزل ولا غيره لأجلي ، فإن هذه الإساءة رفعت من قدري في نظر أبناء وطني ، ولكن حاكم طرابلس أرسل إليكم جميع أوراقي ما عدا الأوراق الرسمية المتعلقة بالوقف — ولخصت له خبرها — فأنا لا أطلب إلا استرجاعها لأجل إتمام المعاملة الرسمية في الولاية بها . فظهر الاستياء على وجهه وكتب أمراً بإلغاء حكم النفي معتذراً عنه وأما أوراق الوقف فوعد بأن يحضرها معه . ثم ذهب إلى طرابلس وبحث مع حاكمها العسكري في ذلك وبلغني أن هذا قد احتج لنفسه بأن البوليس فعل ما تقتضيه وظيفته إلا إساءة المعاملة، وأما هو فلما علم بحقيقة الحادثة حولها إلى الولاية ولم يسئ في شيء — وقد صدق في هذا — وبلغني أنه وبخ لبان وصاحبه حنا وهددهما .

وهكذا كان شأن السلطة الفرنسية سوء اختيار الموظفين ثم تقع في المشكلات [illegible] ثم تعود إلى [illegible] وعند [illegible] على [illegible] فالخطب السهل ولا عتب لنا في ذلك هنا لأننا [illegible] تاريخية

تعلق مسلمي الساحل بفيصل وتأثيره

قد كان استغرابي لاغترار المسلمين بالانكليز وفيصل عظيما جدا ولا سيما بعد تنفيذ الانكليز لمعاهدة سنة ١٩١٦ باقتسام البلاد العربية بينهم وبين فرنسة ، وأغرب من ذلك استغرابهم لتخطئتي اياهم في ذلك واعلامهم بما لم يكونوا يعلمون من امر ثورة الحجاز وحقيقة حال ملكها والامير فيصل وطمع الانكليز في السيادة على جميع البلاد العربية ما عدا هذه الحصة التي أعطتها لفرنسة من سورية، والجزم بأنها لن تعود الى منازعتها فيها وانتزاعها منها لتعطينا اياها ، وانما يجوز بل يرجح أن تأخذها منها في يوم من الايام ، اذا استقرت قدمها الاستعمارية فيما جاورها من البلاد ، وان تستخدمنا في ذلك كدأبها في ضرب الامم بعضها ببعض

كنت اقول في كل مجلس يدور فيه البحث في امر البلاد ان مثل انكلترة مع فرنسة في المسألة العربية كمثل جبار غاصب انتزع ضيعة لاسرة غنية من ايديها وأعطى بستاناً أو داراً منها لرجل كان مساعداً له فأي الرجلين أولى بخصام اصحاب الضيعة ؟ ألذي اغتصبها أم صاحبه الذي أخذ داراً واحدة أو بستاناً منه ولولاه لم يأخذ شيئا ؟ وهل يليق بالاسرة المالكة للضيعة أن تتمادى وتتنازع في تفضيل احد الغاصبين على الآخر أم الواجب عليهم أن يتفقوا على ما يجب عمله لاسترداد المغصوب ؟

ثقل على كثير من وجهاء المسلمين قولي هذا من حيث كان مزلزلا أو مزيلا لما كانوا يمنون به أنفسهم ويسلون به همومهم وزاد ثقله على تلك الاسماع ووقعه في تلك القلوب ان كان ممن يوثق بعلمه ، ولا يتهم في اخلاصه وحسن قصده ، وأنه لا سبيل الى نقضه أو رده ، فمنهم من كان يقول وكيف العمل ، واذا لم يعمل لنا فيصل ووالده فمن ؟ ومنهم من يسألني بادلال المودة والصداقة أن اكتم هذا لئلا ييأس الراجون ، ويشمت المخالفون ،

ذلك بأن أعضل امراضنا الاجتماعية أننا تعودنا التواكل بيننا ، والاتكال على غيرنا ، ولا تزال الاحزاب والجمعيات السياسية في سن الطفولة وقد رسخ خلق التنازع بين أهل الاديان والمذاهب، واذ كان النصارى ممترين بالفرنسيس لم ير المسلمون بدا من الاعتزاز بالامير فيصل وبأنصاره الانكليز ، وكنت أرى هذا التناظر ضارا في الحال ، وسيء العاقبة في الاستقبال . وأن الاولى بالفريقين ان يتركوه ويرجعوا الى أنفسهم فيعطوها حقها ولا يمتهنوها ويجعلوا

جل اعتمادهم أو كله على غيرهم ، وأن يغتروا [illegible] ويفتخروا عليهم ، وأنه يستحيل أن يعمر ويعمروا به ما داموا متنافرين متعادين بسبب اختلاف الأديان والمذاهب ، والاتكال على الاجانب ، وكنت أرى أن إظهار المسلمين لذلك التعلق بفيصل — وإن كان له مالا ينكر من الباعث الطبيعي — قد زاد في كره أبناء وطنهم النصارى له ولهم ، ونفورهم منه ومنهم ، وحمل الفرنسيس على اتخاذه عدوا مبينا وتوطين أنفسهم على مقاومة نفوذه في البلاد السورية وفي أوربة معاً ، وانما كان يمتاز فيصل على وجهاء الوطن السوري في السعي السياسي لاستقلاله بكونه قد عد من قواد الحلفاء وأنصارهم فكلامه أجدر بالقبول لدى حكوماتهم ، فكان من المصلحة أن لا يخص بعضهم بالولاء وبعضهم بالعداء ، وأن لا يجعل أنصاره من المسلمين ما كانوا يظهرون من التعلق به والاحتفال بغدوّه ورواحه اغاظة للنصارى المعتزين بفرنسة ، وكنت أرى الصواب في هذه المسألة أن لا يغتر المسلمون به ويتكلوا عليه ، وأن لا يخاف النصارى منه ، فصرحت في بعض المقالات التي نشرتها في جريدة الحقيقة للتأليف بين الفريقين على المصالح المشتركة بينهم في البلاد بأن فيصلا لا ينبغي أن يخيف أحداً من أهل البلاد اذا كانوا متفقين على القيام بشؤون بلادهم لانه ليس من أهل دولة أجنبية قوية يمكنه أن يستعين بمالها وجندها على جعل سورية تابعة لها اذا هو ولي امارتها بل يكون هو تابعاً لها حتى اذا فرض أن عادت بلاده الاصلية أو حاربتها لا يسعه الا مجاراتها أو الاستقالة من امارتها والخروج منها ، وضربت لذلك مثلا ملك البلاد الرومانية إذ اضطر الى قتال أبناء جنسه النسبي وهم الالمان اتباعا لارادة أمته السياسية ، وقد كان هذا القول مقنعاً لخصوم فيصل فلم يرد عليه أحد ، بل لم يكن أكثرهم يعلم أن الامر كذلك ، بل كانوا يظنون أن إمارة فيصل على سورية وترك فرنسة لها يستلزم إلحاقها بالحجاز ، وان ملك الحجاز رئيس ديني للمسلمين كالبابا عند الكاثوليك ، وقد صرحت في ذلك المقال بتخطئتهم في هذا الاعتقاد أيضاً

وقد رضي المسلمون بما كتبت في هذا المقال وسرهم عدم انتقاد النصارى له ولو جروا على هذه الخطة قولا وكتابة وكفوا عن ذلك المظاهر [illegible] الكره في شأنه لوقفت المعارضة له من الفرنسيس وأعوانهم عند حد ولم تنته الى ما انتهت اليه ، ولما كان تأثير عاقبة أمره في المسلمين أليما شديداً كما كان ، ولكن

ذلك البيان لم يكرر ولم يعمم فظل السواد الاعظم من النصارى يعتقد الى اليوم ان فيصلا كان يريد جعل سورية تابعة للحجاز وانه كان قادرا على ذلك لو تم له الاستواء عليها ، وكل من الامرين خطأ . ولم أكن أريد بهذه الخطة تأييد فيصل لذاته أو مشايعة لحزبه وأكثرهم من اخواني وأصدقائي وان كنت أعلم أنها أمثل ما يؤيد به ، وانما كنت أقصد أن لايتمادى أهل وطني بسببه وان أدلهم على ما تحفظ به مصلحة الوطن اذا أتاح القدر له ان يكون أمير البلاد أو ملكها بنفوذ حلفائه .

وجملة القول انني كنت أتحرى في كل ما كنت أقوله واكتبه النصح لجميع أهل وطني مع المحافظة على ما ألزمتني اياه السلطة البريطانية بمصر وجعلته شرطا في الاذن لي بالسفر وان كان ظلما واعتداء على حريتي الشخصية في بلادي التي أنا أولى بالحرية فيها منهم ، ولم اكن أتشيع لسلطة من السلطات التي قسمت البلاد ولا متحاملا على واحدة منهن تحيزاً لخصيمتها ، ولا مهيجاً على السلطة الاحتلالية ،

الدين والقوة والمصلحة في سياسة أوربة

واني أرجو أن يكون الزمان قد أثبت لاهل البلاد على اختلاف أديانهم ان جميع ما قلته في فرنسة وانكلترة والحجاز هو الحق وان جميع ما اقترحته هو المصلحة ، وان لم يتذكروا أقوالي ، فن لم يكن ظهر له ذلك الى اليوم كله أو بعضه فسيظهر له عن قريب فيعلم السوريون وهم شعب غير مسلح انه لا قوة لهم الا بالاتحاد وجمع الكلمة ، وأن الشعوب لا تنال من الحرية والاستقلال ولا من الكرامة والارتقاء مع احتلال أجنبي الا بقدر قوتها ، وان دول اوربة وان بنيت سياستها القديمة في الشرق الادنى على دعوى حماية المسيحيين وانصافهم أو انقاذهم من سلطة المسلمين فهي تتخذ الدين وسيلة الى مصالحها ولا تبالي بما يعارضها وان نسف الدين وأهله في اليم نسفاً .

والدليل على ذلك أن الدولة الفرنسية حامية المسيحيين الاولى في الشرق لا دين لها وانها قد قوضت الآن بنيان القاعدة الاساسية للسياسة الاوربية في الشرق - أعني قاعدة التنازع بين الهلال والصليب وسبقت حلفاءها الى الاتفاق مع الترك الوطنيين الاقوياء في الاناضول وصرحت بأن لهم الحق في الاستقلال التام واستعادة ما أخذه الحلفاء المنتصرون منهم ، ورضيت بأن تنجلي لهم عن جميع كيليكية ، وعن جزء عظيم الشأن من سورية ، والامة الفرنسية ترفع صوتها

... حكومتها في سبيل إعادة المودة بينها وبين الاسلام وخليفة المسلمين ، إذ رأت أن هذا من مصلحتها لم يصدها عن تنفيذه حماية المسيحيين في تلك البلاد ، ولا قاعدة ما أخذ الصليب من الهلال لا يعود الى الهلال

وان الدولة البريطانية ترجح المصلحة على الدين أيضاً وهي ذات الصبغة المسيحية الرسمية والملك الحامي للايمان وواضعة قاعدة الصليب والهلال التي ملأت الدنيا عنفاً وتثريباً على فرنسة لاتفاقهـا مع مصطفى كمال باشا ناسخة للقاعدة الاوروبية المذكورة آنفاً بعد أن كانت متفقاً عليها وتاركة حماية الاقليات المسيحية في كيليكية فانها قد كانت سبقت الى خطبة مودة الكماليين فلم تظفر بها، وضحت الارمن الذين دفعتهم الى عداوة دولتهم ، وتركتهم يذوقون جزاء ثوراتهم وعصيانهم ، ولم تقبل ان تكون منتدبة لحمايتهم ، بل لتأمين ما اعترفت به من استقلالهم ، ثم إنها تريد أن تسيد سلطان اليهود القومي الى مدينة المسيح (عليه السلام) ومهد دينه وهي تعلم أن ذلك يسوء كل مؤمن بالمسيح ولا يرضاه حتى من شعبها نفسه الا يفضل الجنيه عليه وعلى انجيله وأهل دينه ، وان كل ما يشكو منه أعداء الحجاز من المسيحيين ويسوءهم من نفوذ أمرائه لانه مهد الاسلام ولحسبانهم أن سلطة شريف مكة كسلطة البابا فهو من أعمال بريطانية العظمى وانما الحجاز معبد ليس مقر سلطة ولا يصلح أن يكون كذلك ، وليس فيه قوة جندية ولا مالية يفتح بها سورية أو يحفظها نفسه لو حاربته هي أو غيرها.

... وان هذه الدولة مهتمة بالصلح مع الترك والاعتراف لهم بحق الاستقلال في بلادهم واحترام سلطة الخليفة التركي واظهار الرغبة في مساعدته كما فعلت فرنسة اذا هي عجزت عن إقناعها مع ايطالية ثانية بالاتفاق معها على الاجهاز على هذا الاستقلال

وأما امراء الحجاز فقد ظهر فيهم ما كنا نقوله لابناء الوطن السوري فيهم وهو أنهم لا رجاء فيهم للمسلمين ، ولا خوف منهم على المسيحيين ، لانهم لا حول لهم ولا قوة بأنفسهم وانما هم مسخرون لخدمة بريطانية العظمى ينال كل منهم من الحظوة عندها بمقدار خدمته لها وتمكين نفوذها في بلاده وسائر البلاد العربية كدأبهم في جميع البلاد التي مدوا اليها أيدي مطامعهم .

فلما كان فيصل أكثر مواتاة لهم جعلوه ملكاً لمستعمرة العراق الجديدة وكم لديهم من السلاطين والامراء والالقاب الاخرى في المستعمرات والاملاك التي هي أوسع من العراق استقلالا ، ونفوذهم فيها أضعف وان لم يسم انتدابا ،

ولو واتاهم أخوه الامير عبدالله من قبل لسبقه الى ملك العراق ، وليته إذ لم يقبل لقب الملك في العراق لانه بغير ملك ، لم يقبل ما دونه في شرق الاردن ، وياليت ... وياليت ، وليت وهل ينفع شيئا ليت ، ليت شبابا بيع فاشتريت !!

فعسى أن يثوب أهل سورية عامة الى رشدهم من قريب ويغسلوا عنهم ما لحقهم من عار التعصب وعدم الوطنية لا يتحدوا اتحادا يضطر الاجانب الى احترامهم والرغبة في صداقتهم بدلا من استعبادهم ، ولا يأبى المسلمون حينئذ أن تكون حكومة لبنان مسيحية مستقلة لا سلطان لغيرها عليها وانا نضمن ذلك لمن شاء مما يقنعه ان شاء الله .

نصيحتي للفرنسيس بتغيير سياستهم في سورية

قلت اني قد اضطررت بسبب حادثة طرابلس لاطالة المكث في بيروت واشتغلت بمسالة الوقف بعد أن كنت وكلت من يقوم بذلك ؛ وفي أثناء هذه المدة جمعني بعض معارفي بمو سيو (مرسيه لوي) وهو يحسن التركية وكان قد زارني بمصر فكان مما ذكره لي أنه يبلغهم عني غلو عظيم في الحدة والمعارضة والمقاومة لهم ولكنهم لا يأخذون الكلام على علاته بل يتروون ويحققون الى أن يقفوا على الحقيقة . فقلت له إن عندي قاعدة أخرى تطبيق عملي عليها وهي أن الرجل من لا يقول قولا يحتاج الى إنكاره واني أعدك وعداً مؤكداً بشرفي بانك لو سالتني عن كل ما نقل اليكم عني لصدقتك في الاعتراف بالصحيح وإنكار ما عداه لتعلموا مقدار غش جواسيسكم ، والا فانني أخبرك اجمالا بسيرتي في البلاد . إنني لست قائما بدعوة الى مقاومتكم ولا الى تأييد نفسكم ولكنني من رجال الاستقلال ومعارضي السلطة الاجنبية ومشهور بهذا . وانما أصرح برأيي ومشربي اذا اقتضت الحال ذلك ولا انتقدكم باكثر مما أنتقد به الانكليز والشريف حسين والشريف فيصل ، وانني معتقد أن محاولتكم استعمار سورية ليس خيراً لكم ولا لها ولو فرض أنني اعتقدت أن استعماركم لها خير لها لما كان لي أن أصرح بهذا الاعتقاد المخالف لما يعلم كل الناس من مشربي وثباتي عليه اذ يكون التصريح مظنة ريبة في كونه اعتقاداً مرضياً . قال هذا كلام صحيح

ثم شرحت له رأيي في بيان كون اقتسام سورية والعراق بينهم وبين الانكليز ضرا لهم لما سيكون من عاقبته في عداوة العالم الاسلامي لهما وكون غبنهم في

هذه القسمة أعظم من غبن حلفائهم بنصف حصتهم وعسر التصرف في أهلها وما يتوقع من انقلاب النصارى عليهم وقد بدت بوادره ، وان الخير لهم في حصتهم من سورية أن تكون مستقلة استقلالا صحيحا وجعلها صديقة لهم وحينئذ ينتفعون منها باختيار أهلها من غير خسارة فوق ما ينالهم من النفع بسبب السيادة العسكرية فيها ويربحون صداقة الامة العربية كلها ويأمنون ضرر عداوتها وجعلها آلة بأيدي الانكليز . وذكرت له انني نصحت للانكليز بمثل هذه النصيحة (١) فنعهم الغرور والطمع والتعصب الديني من الاصغاء . ولخصت له معنى مذكرتي لرئيس الوزارة البريطانية وقد سبق ذكرها في المنار غير مرة . فأعجبه كلامي واقترح علي أن اكتب مذكرة للجنرال غورو بذلك وهو يترجمها له ليرسلها الى باريس فامتنعت عن الكتابة وقلت له بلغه أنت ذلك

بعد هذا ذهبت الى دمشق إجابة لطلب الامير فيصل ثم عدت الى بيروت في أول مارس سنة ١٩٢٠ لاقناع وجهاء بيروت المنتخبين للمؤتمر السوري بالذهاب الى دمشق لحضور جلسة المؤتمر التاريخية التي تعلن استقلال سورية وفي ٤ مارس جاءني كتاب من (موسيو مرسيه لوي) يقول فيه بعد رسوم الخطاب « إن سيادة الجنرال غورو قد عين لكم ٥ آذار الساعة ٦ افرنكي صباحا ميعاد استقبالكم في السراي » ... وكان هذا الطلب بسبب مخاطبته إياه بموضوع حديثنا لا بطلب مني ولا علم لي. جئت في الموعد فبلغت أن موسيو مرسيه الذي سيترجم بيني وبين الجنرال قد ذهب الى قنصل أميركة في عمل رسمي أبطأ فيه فانتظرناه متوقعين مجيئه في كل دقيقة زهاء ساعة ونيف فلما حضر دخلنا حجرة الجنرال فتلقانا أمين سره (السكرتير موسيو روبير دوكيه) وبلغنا بعد التحية أن ميعاد الجنرال ذهب بطء (موسيو مرسيه) فهو يعتذر عنه باسمه ويحل محله فيما طلبني لاجله اذا كان لدي سعة في الوقت . قلت ليس لدي مانع من البحث .

وانما ذكرت هذه القصة ولم ألخص حديثي معه بدونها للاعلام بأن الجنرال نفسه كان حريصاً على البحث في هذا الموضوع المهم وهو كون استقلال سورية وحريتها خيراً لفرنسة من استعمارها باسم الانتداب وقد يتعجب كثيرون من من نتيجة ما أقصه من حديثنا ويرون فيه دليلا على تقصير السوريين في السعي المعقول لدى الفرنسيس بأسف منهم وان ضاع استقلال سورية بمكس (لها بقية)

(١) النصح يقابل الغش والخداع ولا يتضمن استعلاء من الناصح

باب المراسلة والمناظرة

انتشار علم السنة ومدرسة الدعوة والارشاد

محلة مسير (غربية)

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله أحمد (بن) احمد سلامة الى حضرة صاحب الفضيلة الامام الوارث لعلوم المرسلين ، الباذل جهده في ابلاغ دين الله جميع العالمين ولم يدخر وسعا في السعي وراء تحقيق اصلاح حال المسلمين ، السيد محمد رشيد رضا الحسيني بلغه الله ما يتمناه وتتمناه لهذه الامة المحمدية آمين

السلام عليكم ورحمة الله وعلى كل من والاكم في ذات الله . وبعد فانا نحمد الله اليكم الذي أيدكم بروح منه ووفقكم للقيام بتحرير منار الدين، حتى بلغ صوت الحق منه آذان القريبين والبعيدين ، فأحيا الله به هنا وهناك نفوس المستعدين، وأقام به الحجة على المتخلفين والمعارضين، ممن سموا بالعلماء والمتعلمين، ولقد فطن كثير من اخواننا في هذه الايام الى أن حال المعاهد الدينية الحاضرة في هذا القطر لا تغني أولادهم من التربية الحق شيئا، ولا تجديهم نفعا، ان لم تكن ضارة ومفسدة لاستعدادهم ، ومميتة لنور الفطرة المودع في نفوسهم ، فعمدوا من أجل ذلك الى تولي تعليمهم بأنفسهم يحفظونهم أحاديث الاحكام بعد تمام حفظ القرآن بدلا من متون الفقه التي وضعها المتأخرون حتى ان بعض التلاميذ من بلدنا الآن يحفظون فوق الألف حديث من بلوغ المرام وشروحه وبعضهم يحفظ طائفة من المنتقى مع [illegible] الى تنبيه أفهامهم وتوجيه أذهانهم الى ما اودع الله في كتابه من أسرار التوحيد وما أقام من الآيات البينات عليه وأحكام العبادات وأسرارها المثبتة لها في النفوس وقد تبينا بالبحث ان كثيراً من العلماء في كل معهد قد ولوا وجوههم شطر السنة تاركين التقاليد جانباً بعد أن علموا سوء عاقبته بالدليل وهم يتشاكون من الشكوى مما عليه المعاهد غير أن هذه كلها وان كانت امارات مبشرة لا يشفي علة ولا يروي غليلا من الاصلاح التام الذي سنته مدرسة الدعوة والارشاد من قبل وكان أول من عني بهذه الخدمة قائمة بمدرسة الدعوة والارشاد فقد فتحت أبوابها للطالبين فأجاب دعوتها قليل من الناس سنة الله في كل دعوة الى الحق ولن تجد لسنة الله تبديلا . غير

أن هؤلاء الطالبين على قلتهم وقصر مدة شغل المدرسة قد أفادوا الناس فائدة كبرى لا يستهان بها فقد سمع نداءهم والحمد لله على اختلاف جهاتهم وتنائي ديارهم جماعات هم الآن متعارفون متزاورون ولقد وعدتم حفظكم الله تعالى المرة بعد المرة أو فهم من كلامكم في المنار هذا الوعد باعادة مدرسة الدعوة والارشاد فكان ما فهمناه من هذا الوعد طمأنينة نفوسنا على مستقبل أولادنا ولكن طال المهد على هذا وأمله من آمالهم وآمالنا فمتى ياصاحب الفضيلة يكون يوم تحقيقه؟ ولقد يغلب على ظننا أن اهل هذه البلاد ما علموا ولا شعروا بفائدة هذه المدرسة الا بعد وقوف عملها وتعرف اخبار الثلاثة أو الاربعة الذين أخرجتهم هذه المدرسة كالاستاذ الشيخ ابي زيد والشيخ عبد الظاهر وبعد أن عقد الحق صلة بينهم وبين كثير من المستمدين من العلماء والمتعلمين ، فان صح رأينا هذا قوي الامل في تنبيه هذا المشروع من فترته ، واقالته من عثرته ، فنناشدك الله والدين ، والميثاق المأخوذ على المرسلين ، والوارثين ان تقوموا انتم ومن تبعكم باحسان وتؤذنوا في الناس الامراء وغير الامراء ، من اهل الخير والثراء ، بوجوب إحياء هذا المشروع الذي لا غنى للمسلمين في جميع اقطار الارض عنه ، وإن في ذلك لنصراً لدين الله وقد وعد الله ووعده الحق بنصر من ينصره ، وان هذا الجهاد في الله وقد وعد الله المجاهدين فيه ان يهديهم السبيل وان يكون معهم ، وان هذا لايفاء بعهد الله ولقد وعد الله الموفين بعهده الايفاء بعهدهم ولسنا نعلمك بشيء انت تجهله نعوذ بالله . او نذكرك بما غاب عنك نستغفر الله ، وانما هي نفثة المصدور وتروح المحزون لما عليه المسلمون ، وان كان لدى فضيلتكم ما يبشر بتحقيق الامل قريباً فتفضلوا به علينا اثابكم الله وجزاكم عن المسلمين خير الجزاء ، ويسلم عليكم وعلى من تبعكم باحسان تلميذكم العارف لكم حقكم الشاهد بفضلكم شيخنا الاستاذ الشيخ سيد مصطفى الشرف ؟

٢٥ ذي القعدة سنة ١٣٣٩ كاتبه تلميذكم المخلص

احمد احمد سلامه

(المنار) نحمد الله تعالى على توفيق المسلمين لاحياء علم السنة وحفظ الحديث والتفقه فيه حتى في القرى الصغيرة ، ونسأله أن يحيينا الكتاب العزيز وبه استاذه المصطفى لافاضة نور السنة في ذلك الديجور

اما مدرسة الدعوة والارشاد فهي كما قال أحدنا الكتاب أرسل الوسائل لكل

اصلاح اسلامي بحسب ما وصلت [illegible] جهودنا ووفقنا عليه أرقى من [illegible] عقلاء المسلمين واهل الرأي فيهم في الاقطار المختلفة [illegible] بعض كبراء الدولة العثمانية من رجال جمعية الاتحاد [illegible] معترفين بما كان يرجى للدولة وللاسلام من هذه المدرسة لو [illegible] تأسيسها في الآستانة وآسفين لعدم التوفيق لذلك

واما اعادة المدرسة فانني عازم عليه ساع له ولو بأن استأجر مكانا [illegible] واعيد فيه تلك الدروس التي كنت القيها واكلف بعض الفضلاء من اخواني مساعدتي على ذلك بدروس اخرى ولو ليلا ، وان اجعل فيها قسما اسميه دار الحديث للمساعدة على حفظ السنة والاستعانة بها [illegible] هداية القرآن . أنتظر بذلك الميسرة المرجوة ولست بيائس من إعادة الحكومة [illegible] لاعانة المدرسة من أوقاف المسلمين الخيرية ولا سيما اذا زالت السيطرة الاجنبية عنها او ضعفت ولعلي لو طلبت ذلك في هذه السنة لاجبت ولكني رأيت البلاد كلها في شغل شاغل بقضية البلاد السياسية عن كل شيء ولكل شيء اجل لا يعدوه وسيعرف اهل الغيرة الاسلامية بعد ذلك قدر هذه المدرسة فيساعدونها من كل قطر ولا سيما الهند ونجد

وليس الشيخ عبد القاهر والشيخ محمد ابو زيد الذي كاف اصلاح مدارس جمعية الاصلاح والارشاد في جاوه هما اللذان قد أخرجا من المدرسة وعنيا بالدعوة الى الاصلاح والارشاد مع اثنين آخرين كما قلتم بل نشر طلابها الاصلاح في أقطار مختلفة وقد نشر في الجزء التاسع من المنار ترجمة واحد منهم من اهل جاوه توفي فيها بقلم أخيه وكلاهما من تلاميذها . وانني أنشر هنا جملا من مكتوبات بعض طلابها من مسلمي الهند

﴿ كتاب من تلميذين من تلاميذ المدرسة بنصه ﴾

وذلك عقب سفرهما من مصر منذ سنين

استاذنا ومرشدنا السيد الامام حجة الدين وفخر الاسلام حفظه الله

بعد أداء واجبات التحية والاحترام وصلنا بحمد الله الى وطننا العزيز ولكننا لم نفرح كل الفرح لاننا من الاسف لم نوفق لتقبيل يديكم عند مغادرتنا مصر وذلك ليس الا للمصائب التي أحاطت بنا ذلك الحين وأقلقت بالنا واضطرتنا أن نسافر على تلك الحال

وبعد وصولنا الى الهند بقينا في بلدنا وقدمنا أعمالنا على المواعظ في الاجتماعات الدينية لنستريح حينا من وعثاء السفر — وها نحن (أولاء) تلاميذكم الثلاثة قد اجتمعنا لنخرج الى ميدان العمل ونسير على طريقتكم المثلى التي اقتبسناها من دروسكم ومحاضراتكم الثمينة في مدة قيامنا بمدرستكم الغراء . وقد شرعنا في ترجمة بعض الكتب والمقالات النافعة ونحن مصممون على أن لا نشتغل الا في الاعمال العلمية الحرة فأردنا أن نفتح مدرسة لتعليم اللغة العربية على طريقة العملية (١) ونصدر أيضا مجلة عربية غير الهندية ... الخ

ولم ننس وصيتكم الاخيرة بجمع الكتب الاثرية القديمة وقد عرضنا هذه الفكرة على المولى عبد الحي مدير مدرسة ندوة العلماء فاستحسنها ووعدنا بالمساعدة — دمتم الخاضعان

محمد عثمان — عبدالله خدابار —

﴿ كتاب من تلميذ آخر من تلاميذ المدرسة بنصه ﴾

هو الآن محرر جريدة (پيغام) أي البلاغ في كلكته

استاذي ومرشدي حجة الاسلام فخرا لمسلمين السيد الامام متعنا الله بطول بقائكم !

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته : فاني قد كنت كتبت الى جنابكم العالي كتابين بعد مغادرتي من الحجاز (٢) ولعلهما وصلا اليكم . ثم سكت طول هذه المدة لا لغفلة بل لاسباب لاتخفى على احد، وكيف أرتكب جرم الغفلة والذهول أونا لم أعقل ولم أعرف شيئا الا منكم ، قدمت مصر وأنا في غياهب من الجهل فاقتبست من نوركم فصرت بصيراً والحمد لله والمنة لكم !

واكبر شكر يستطيع التلميذ والمريد أن يشكر به استاذه هو أن يحذو حذوه في الخير ويحيي طريقته وينشر آراءه ويهدي امته بالهداية التي اهتدى بها ، واني يامولاي ما برحت أسير على هذه الطريقة منذ نزولي الى الهند فما زلت اكتب المقالات العلمية والدينية في اكبر الجرائد الهندية ومجلاتها ، وألقي الخطب في المجالس العامة ، وبحمد الله يكون لها اكبر وقع عند الخاص والعام لان تلك الافكار ، غريبة عنهم ! مكبا في مطالعة علم الحديث (٣) وقد قرأت

(١) الوجه أن يقال الطريقة العملية (٢) الصواب حذف من لان غادر كفارق يتعدى بنفسه لا بمن (٣) يريد : وما زلت مكبا على مطالعة علم الحديث فعطف الاسم المفرد على الجملة الفعلية

الصحاح والموطأ في الحد[illegible] ومقدمة ابن الصلاح في اصوله على اكبر محدث في الهند الاستاذ السيد أمير علي الدين [illegible] المتوفى(١) الى رحمة ربه رضي الله عنه وقد كان رحمه الله كثيراً ما يثني عليكم وعلى تفسيركم ! وانا الآن مجد في اتيان فن الرجال واذا لم يعد الله سبحانه بعد المعونة الي لا انجح فيه لانه فن صعب بعيد المرام كما هو واضح لديكم ! ومشتغل بالتأليف فقد ألفت الى الآن ثلاثة كتب كتابا في سياحتي لمصر يحتوي على اكثر من ثلثمائة صحيفة وبعد أن يتم طبعه اقدمه الى عتباتكم العالية ويا ليت لو اطلعتم على ما فيه ! (لكنه بالهندية) — وكتابا في المولد النبوي وسينتفع الناس ان شاء الله : وكتابا جمعت فيه الاحاديث الصحيحة من الصحاح والموطأ لمالك والمسند لابن حنبل بعد مطالعة هذه الكتب والبحث في الاسانيد — وأنا مرسل اليكم فهرست عناوينه لتطلعوا عليه وترشدوني في امر الكتاب(٢) وسأنشره مع الترجمة ! وكذلك شرعت في كتاب رابع أجمع فيه الالفاظ الحديثة التي تستعمل في الجرائد العربية ومجلاتها حتى يفهمها اهل الهند حق الفهم فانهم الى الآن لا يستفيدون من المطبوعات الحديثة لتلك الكلمات الدخيلة (٣) وقد كنت استأذنت منكم لترجمة تفسير المنار ثم لم أتجرأ عليها لعدم اذنكم لي بها. وما راجعتكم ثانيا لاني منتظر صدور تفسير (بالهندية) لابي الكلام آزاد منشئ الهلال لاعتقادي انه إما أن يكون ترجمة لتفسيركم أو مقتبساً منه ! الخ الخ

تلميذكم

٨ شوال سنة ٣٧ هـ عبد الرزاق عبد الحميد الهندي

---

(١) المنار تعريف الاعلام فانا [illegible] منه عالم أعجمي حتى كان يجري على لسان السيد جمال الدين الذي احيا من الاسماء والحماية بمصر(٢) أبواب الكتاب ٨ وهي في الاخلاق والمعاشرة والحضارة والنساء والسياسة والامور الروحانية والآداب فهذه سبعة والثامنة متفرقة كالامر والسمر والايمان والنذور وجوامع الكلم(٣) زارنا منذ بضع عشرة سنة [illegible] التوقاس فكان مما قاله انه يصل اليهم المنار والمؤيد واللواء وانهم يفهمون كل ما يكتب في المنار واذا خفي عليهم بعض الالفاظ تعدو [illegible] معاجم اللغة عانيا و[illegible] لكنهم لا يفهمون المؤيد واللواء حق الفهم [illegible] العامة ثلاثة [illegible] ذلك فذكرنا له [illegible] والعامي الذي لم يدرسه الى زمن [illegible] عن [illegible] وضربنا له الامثال .

الانتقاد على المنار

نطلب في أول جزء من كل مجلد من قراء المنار إتحافنا بما يرونه منتقدا فيه سواء كان بمخالفة الحق في بعض المسائل أو مخالفة المصلحة العامة التي نتوخاها في خدمتنا ، ونذكر في خاتمة آخر جزء من المجلد بذلك مشيرين الى ما لم ننشره من النقد الشفوي أو غير الموجهة الى المنار

فنقول الآن في خاتمة هذا المجلد اننا قد نشرنا كل ما كتب الينا من النقد كالرد على مانقلناه عن ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى في مسألة فناء النار وعدمه والخلود فيها ومعناه ولم يهمل المنار شيئا في هذا الباب مما كتب اليه . وأما النوع الآخر من النقد فليس لدينا منه الا ماقاله بعض السوريين أو نشروه في بعض الجرائد ولم يرسلوه الى المنار في موضوع مقال (الحقائق الجلية في المسألة العربية) التي نشرت في الجزء السادس فقد استحسنها الجماهير في الاقطار الاسلامية المختلفة حتى ان محرر جريدة (بيغام) الهندية الاسلامية التي تصدر في (كلكته) كتب الينا بأنه ترجمها ونشرها في جريدتهم فنقلتها عنها « الجرائد الانكليزية الوطنية والهندية واستحسنها الناس كثيرا »

انتقد ساطع بك الحصري في حديث دار بيننا وبينه مسألتين من المقالة وهو مطلع على ما جرى لانه كان وزير المعارف في الحكومة السورية ورسول الملك فيصل الى الجنرال غورو في أثناء المفاوضة بينهما في أمر الانذار المشهور (الاولى) قولنا في الصفحة ٤٦٩ : قبلت الحكومة برياسة الملك فيصل جميع مطالب الجنرال غورو ومنها قبول الوصاية بلا شرط ولا قيد فأصبحت بذلك ساقطة غير شرعية بقرار المؤتمر .. (والثانية) قولنا فيها أيضا : عظم الخطب على فيصل ووزرائه لما رأوا أنهم سلموا بقبول الوصاية مع تلك الشروط المخزية ليدفعوا الاحتلال عن دمشق ويبقوا فيها متمتعين في ظل الوصاية وخدمتها بما كانوا عليه بعد ان قالوا في عدم قبولها ماقالوا من المبالغات فقال في الاولى ان الوصاية كانت مقيدة بقيود معلومة لاتخفى عليكم وفي الثانية : ان الوزراء وان قرروا قبول شروط الجنرال غورو لم يكونوا يرجون ان يبقوا في الوزارة لان الجنرال طلب فيما طلبه من فيصل تأليف حكومة موالية لفرنسة . وقد تناقشنا في المسألتين ورغبت اليه أن يكتب انتقاده كتابة لا يبين حقه من

باطله وأعترف له بما فيه من الحق فانني لا أكتب لغرض ولا هوى بل لبيان الحق وخدمة الامة فاذا ظهر لي ان فيما كتبت ما يخالف ذلك اعترفت به ورجعت الى الصواب الذي أقتنع به . ولكنه لم يكتب

وجوابي عن المسألة الاولى ان الجنرال غورو هو الذي قيد الوصاية في انذاره بما عناه ساطع بك لا الحكومة السورية (الوزارة مع الملك) وهذه ترجمة الشرط أو الطلب الثالث من انذاره

« ٣ — قبول حق وصاية فرنسة على سورية بحيث تكون حرية البلاد مضمونة وبحيث لا يمس حق الوصاية المذكور ما للحكومة التي تنتخبها الامة من السلطة بل يكون محصوراً في المساعدة الودية خالياً من كل غرض استعماري»

وأما المسألة الثانية فالذي أعلمه فيها أن انذار الجنرال غورو لم يكن فيه طلب تغيير الوزارة وانما الشرط أو المطلب الخامس منه عقاب جميع الذين أظهروا العداء لفرنسة . وكان الجنرال يتهم الحكومة بأنها تساعد العصابات التي تناوئ الاحتلال الفرنسي كما بينه في بعض أجوبته عما كتبه اليه فيصل بعد قبول الانذار ولعل طلب تأليف حكومة موالية كان من المطالب التي تجددت بعد قبول الانذار وكان ساطع بك الحصري هو الرسول بين فيصل وغورو فيها

والذي علمناه من امر تلك الوزارة أن بعض أعضائها كان معدوداً من المعادين لفرنسة كالمرحوم يوسف العظمة والدكتور شاهبندر وبعضهم كان مواليا لها كعلاء الدين بك الدروبي الذي عينه فيصل رئيسا للوزارة الموالية بعد الاحتلال وأما الآخرون فلم نعرف عنهم عداء ولا ولاء لفرنسة

ثم كتب رجل من دروز لبنان اسمه الدكتور سعيد طليع كان من أعضاء المؤتمر السوري العام بدمشق مقالة رد بل تهكم على المنار ونشرها في جريدة الاهرام على إثر كلام أغضبه مني في الاسكندرية فظن خطأ أنني قصدت إهانته فيه سبقه غضبات كانت في دمشق بعضها في المؤتمر اذ تكرر أن منعته من الكلام في بعض المسائل منعاً قانونيا فظن أنني تعمدت التحامل وتقديم غيره عليه وكنت أظن أنه نسيها لانني وكدت له القول بأن ذلك كان من الانتقام على أنه من شيعة الملك فيصل اذ لم يبلغني أن أحداً من أعضاء المؤتمر ذهب الى لقاء فيصل في اليوم الذي كان ينتظر أن يجيئه فيه جميع الاعضاء بمكتوبات خطية سرية يبينون فيها رأيهم في انذار الجنرال غورو لان الدعوة بثت ليلا وصباحا بان لا يكتب اليه

أحد . وقد جاءني الدكتور طليع هذا بعد عصر ذلك اليوم الموعود الى الدار بدمشق ـ وكان من أكثر الاعضاء مودة لي ـ وأخبرني أنه كان عند الملك وانه وجده مستاء جدا لانه كان منتظراً من أول النهار إقبال أعضاء المؤتمر عليه بما وعدوا من الكتابة اليه بآرائهم ولم يجيء أحد ولا الرئيس الذي كان يجيء في مثل هذا اليوم عادة (وهو يوم أحد) وقال الدكتور طليع إنه ينتظر ذهابك اليه فيحسن أن تذهب وتسليه ، فقلت حقا انني بعد اشتغالي برياسة المؤتمر قصرت زيارتي له على يومي الجمعة والاحد لعدم عقد الجلسات العامة فيهما (وكنت أزوره صباح كل يوم) ولكنني بعد أن رأيت منه ما رأيت من احتقار الامة عزمت على أن لا أزوره الا بدعوة رسمية ...

واذ نحن في الحديث جاءني رسوله يقول ان جلالة الملك ينتظرك فذهبت اليه فرأيته واجما مغموما وسألني ما بال أعضاء المؤتمر قد أخلفوا موعدي ولم يأتوني بآرائهم في الازمة الحاضرة مكتوبة وقد ظللت منتظرا لهم النهار بطوله ؟ قلت إنني علمت منذ خرجنا من هنا انهم عازمون على عدم إجابة اقتراحكم الذي ساءهم جدا لانه عدوه متضمنا للطعن فيهم بالجبن والمداهنة العامة فيما يبدونه في المؤتمر . قال لكنهم أظهروا استحسان الاقتراح وقبوله ، قلت ان الجمهور سكتوا واجمين وانما صفق واحد منهم للاقتراح ، ولما خرجوا صاروا يتناجون بينهم بأن هذه مكيدة يراد ايقاعهم بها ويتواصون بعدم الوقوع في شركها .

والظاهر أنه لم يذهب اليه الا الدكتور سعيد بك طليع وأنه لم يذهب اليه الاوقد كتب اليه ما يحب وهو إجابة الجنرال غورو بقبول إنذاره !!

لم يكن ما كتبه الدكتور طليع بالذي يستحق أن يعنى به ويرد عليه لانه دعاوى زور وإفك وبهتان اختلق ليبنى عليه ما يشفي غيظ الكاتب من التهكم والازراء ، ويتقرب به الى أولئك الملوك والامراء ، وليس نقداً صحيحاً ولا قصد به بيان حقيقة ولذلك نشر في جريدة يومية سياسية ولم يرسل الى المنار

واني مع ذلك قد رددت عليه ونشرت الرد في جريدة الاهرام لغرضين أهمهما إطلاع من لا يقرأ المنار من قراء الاهرام على حقيقة المسألة العربية التي يهتم جميع المسلمين وكثير من سائر الشعوب بأمرها ـ ولذلك نشرت مقالتنا جرائد الهند الاسلامية والانكليزية والوثنية ـ وثانيهما إعلام من ذكر من قراء الاهرام بما افتراه الكاتب على المنار وقراء المنار في غنى عن ذلك

على اني ألخص تلك الدعاوي والاكاذيب فأقول (أولها) إنكار قـ
إنه لم يوجد في الامة العربية في فرصة هذه الحرب زعماء يجمعون كلـ
ويوحدون قواها لحفظ استقلالها كما وجد في الترك مصطفى كمال باشا وأنصـ
من كبار القواد والسياسيين ودعواه «أن الزعامة الطبيعية توفرت في جلالة الملـ
حسين» الخ (ثانيها) افتراؤه علي بأني قلت اني أشرت على الملك حسين بأن يحار
الاتحاديين وقد سبق للمنار ذكر هذه الفرية في الرد على جريدة القبلة من اهـ
التأهم بعد الرد عليها في الاهرام منذ أشهر (ثالثها) عبارة كاذبة بنى عليها إستنتـ
تصريح المنار بالرواية التي صرح بها بشأن امتناع الملك حسين من قبول مشر
اتفاق امراء جزيرة العرب (رابعها) زعمه اني قلت كنت في دمشق ثاني الملك وصاحـ
النفوذ الاعلى واني كنت انصب الوزراء وأعزلهم — استنبط هذا مما ذ
في مسألة المرحوم يوسف العظمة وجعله حقيقة واقعة لاجل التهكم الذي أر
وقراء المنار يعلمون ما قلنا في ذلك (خامسها) قوله « ويقول أيضاً أنه هو الذ
أقنع المؤتمر السوري بأن يقلع عن فكرة وضع الحكومة بيد دكتاتور» وقـ
المنار يعلمون أني لم اقل هذا وانما قلت كان بعض الاعضاء يريد عدم امتـ
أمر الملك بتأجيل اجتماع المؤتمر فأقنعتهم بأن هذا خير للمؤتمر. وقد أوضحـ
هذا في الاهرام ببيان أن بعض اعضاء المؤتمر طلبوا مني الاذن بالكلام والخـ
بعد تلاوة أمر الملك المذكور فلم آذن لاحد منهم ونزلت عن كرسي الريـ
تنفيذاً للامر وعدم جعله موضوعاً للمناقشة . وان بعض هؤلاء كلموني
غيرهم فيما كانوا يرون من عدم امتثال الامر فأقنعتهم بما ذكرت. وأزيد الا
أنني لو سمحت لاعضاء المؤتمر بأن يتكلموا في موضوع الامر ويلقوا فيه الخـ
لكانت خطبهم أشد مما كانت في الجلسة السرية التي عقدوها قبل ذلك اذ
التهييج والسخط على الحكومة والملك فيصل بالغين حد الافراط وكان الشعـ
أشد تهيجاً وهو مستعد لاتباع كل ما يقرره المؤتمر ، واذاً لوقعت ثورة داخـ
تكون عاقبتها اتهام المؤتمر بأنه هو المضيع لاستقلال البلاد

(سادسها) الاحتجاج على ما وصفت به امراء مكة بأني أثنيت مرة
الملك فيصل. وقد أوهم هذا الثناء عليهم أنه ثناء بالكفاءة للزعامة وإنقاذ الا
العربية والحقيقة أن ما أشار اليه كان رداً على ثناء الملك على اعضاء المؤ
باجابتهم دعوته الى مأدبة في رمضان بأنه هو المحسن في الدعوة و بالتهكم على قبو

فهو أحق بأن يثني عليه وهو جدير بشكر تسميته محسن لأ جللناه كما قال ابن الجهم
(سابعها) انكاره ما سماه دعوة للفرنسيس بأن لا يعادوا الأمة العربية
في بيت ملك الحجاز : وأنا ما دعوتهم الى ذلك دعوة كما زعم وانما بينت لهم خطأهم
والخطب سهل (ثامنها) زعمه أني قلت ان جلالة الملك حسين وافق على معاهدة
سايكس وبيكو . واستدل على رد هذا بعدم تصديقه على معاهدة فرساي قال
«لتضمنها المادة ٢٢ من عهد عصبة الامم» وقد رددت عليه في الاهرام ، وقراء
المنار يعلمون أنني لم أقل من عندي إنه صدق على معاهدة ١٩١٦ وانما رويت
روايات فيها عمن سمعوا بآذانهم من السر مارك سايكس ورأوا بأعينهم كتاب
جلالة الملك الى نجله الامير فيصل وأطلت في ذلك بما لا حاجة الى ذكره هنا لاننا
نريد إقفال هذا الباب الآن لا كثرة الدخول فيه والخروج منه

علاقتنا بأسرة ملك الحجاز

وليعلم القراء أني لم اكتب قط كتابة من شأنها أن يسوء الحق فيها احداً من
الناس ويؤلمه وأنا متألم وخجل من مساءته كالذي كتبته في المسألة العربية عالما
بأنه يؤلم الملك حسينا واولاده لانني عرفت منهم الامير عبد الله أولا والامير
زيدا والامير فالملك فيصل اخيراً ووالدهم فيما بين ذلك فلم أشك من معاملتهم لي
قولا ولا فعلا بل كنت معجباً أشد الاعجاب بآدابهم العالية وقد اكرم مثواي
الكبير في الحجاز وأضافني مع من كان معي من نساء ورجال أحسن الضيافة كما يعلم
من تنويهي به وشكري له في رحلة الحجاز من المنار ، واني لأعلم أن منع المنار
بتلك العبارة الخشنة قد كان بدسيسة

وكان يسهل علي تلافي ذلك كما اقترح علي بعض رجال الانكليز هنا ، ولكنني
قد سررت بذلك المنع لانني كنت قد علمت أن الامر جار على ما ينافي مصلحة
العرب والاسلام ، وقد كنت صرحت له عند توديعي اياه بحجرته في الحرم الشريف
بأنني لا أعمل الا ما أعتقد أنه لمصلحة الملة والامة فما دمت أعتقد أن الحركة
العربية كذلك فأنا أخدم فيها كالجندي — قلت هذا بعد أن تلطف كل التلطف
في الثناء وطلب المساعدة كما أشرت الى ذلك في الرحلة حتى كان من تواضعه
ولطفه بعد ذكر خدمة المنار للاسلام أن قال في ما معناه أنه أعلم منا بكل شيء
فنحن نحتاج الى علمه وسعة اختباره باقامته بمصر كل هذه السنين في كل عمل
نريده في حكومتنا ... وفصل ذلك تفصيلا أحصي

وعرفت الامير عبد الله في الآستانة وكان أول كلامي معه تعريضا شديدا بأمرائنا قابله قبله بغاية اللطف والادب ثم ذكر اجتماعي به وأثرك وصف تواضعه مني اقتداء بادبه في التواضع .

وأما فيصل فكان أول لقائي إياه وحديثي معه في بيروت بعد عودته الثانية من أوربة حيث كان له ما يعلم الناس من علو المكانة . طلبت الخلوة به على ضيق الوقت فسمح بها ليلا فكان اول حديثي معه في السياسة بعد مجاملات اللقاء أن ذكرت له بالاختصار رأيي في ثورتهم ومضارها من مبدئها إذ بنيت على الاتكال على الاجنبي لا الاستقلال الصحيح ولا جمع الكلمة الى ما كان لها من سوء العاقبة وأسباب ذلك — فلما وافقني على رأيي في سوء النتيجة والمقدمات؛ قلت له اني أرجو أن تكونوا قد استفدتم بالاختبار ماينهض بهمتكم الى تلافي هذه الاخطار ، ولذلك طلبت الخلوة بكم لاقف على خطتكم الجديدة فان وافقت رأيي كنت مساعداً لها على قدر طاقتي ، والا كنت مقاوماً لها على ضعفي ، ولا أراكم تستكبرون مني كلمة المقاومة لانني لست اميراً فقد قاومت السياسة الحميدية على عظمتها وخضوع الرقاب لها ولم اكن أميراً، وقاومت السياسة الاتحادية على قوتها وجبروتها واغتيالها لخصومها ولم اكن أميراً . فقابل قولي — على خشونته — الذي أوجبته المصلحة والاخلاص في النصيحة باللطف والثناء والرجاء في التعاون والاتفاق، ثم انه ألح علي بالذهاب معه الى الشام لاجل التعاون على العمل فوعدته بأن أتبعه ووفيت ، وكنت قبل الاشتغال بالمؤتمر اول من يخلو به صبيحة كل يوم للحديث والتشاور في المسألة السورية والمسألة العربية وقد بينت له رأيي فيما يجب من العمل في المسألة العربية قولا ثم كتابة فاستحسنه جد الاستحسان ووعد بأن يفرغ ما في وسعه في سبيله. ولو كنت ممن يستفوز الى أخذ المال والتحف لكنت أقدر على استدرار تلك الكف الواكفة كالسحاب بغير حساب ؛ ولا تفرقة بين المستحق وغيره من العفاة والطلاب، واذ كان يعلم أنني لا أطلب ولا أقبل عطاء زين له جوده ان يحتال لتقديم هدية يخلق لها مناسبة فألح علي بأن أستأجر دارا لان طول الاقامة في الفندق غير لائق وقال سارا عليك الدار وعلينا فرشها فاستأجرت دارا واستحضرت لها فرشا من بلد (طرابلس الشام) بعد أن بلغته بنفسي وبعد وسائط منها رئيس امنائه احسان بك الجابري عدم القبول . وقد اختلفنا غير مرة في المسائل السورية حتى تغاضبنا وكان

كل منا سريع الفيء لا نلبث أن نعود الى ما كنا عليه من صفاء المعاشرة التي كان يفضلني فيها ويفضل اكثر الناس أدبا ولطفا وتواضعا حتى كان الخلاف الاخير الذي انتهى بمقاطعتي له بعد تعطيل المؤتمر ، على انني لما علمت أن الفرنسيس آذنوه بوجوب الخروج من دمشق لم أر بداً من توديعه وقد أعرض عنه المتملقون فكنت آخر من ودعه ليلا على قلتهم ، وأفضل ما أذكره له من ولاء بعد جفاء أنه كاشفني بكل ما في نفسه وما ينويه من سعي وعمل ، فقلت له يامولاي ان مثل هذا لا يجوز أن يتحدث به ، فقال اني والله لم أذكره لاحد سواك ولا لاخي زيد !

أفليست هذه الثقة منة يجب أن أعدها له ان لم يعدها أو يعنها هو علي ؟ بلى ولاجلها لقيته وكررت الزيارة اذ جاء مصر عائداً من أوربة راجيا أن استفيد نبأ منه ، وأتوسل الى ما يجب من النصيحة له ، فلم أسمع نبأ يبعث الارتياح في مصلحتنا العامة ، وصرح لي بأنه سيطلبني الى العراق للعمل معه ، ولو كنت أعمل للمنفعة الشخصية كما يعمل الكثيرون لكانت مجاراة الملك فيصل في ظل بريطانية العظمى أوسع أبوابها لدي هنالك بعد ان قال لي غير مرة بدمشق إنه يعدني حجر الزاوية في كل ما يتمنى من خدمة العرب والاسلام ، ولكنني أعتقد أنه لن يستطيع أن يعمل هو ولا غيره مع السيطرة البريطانية شيئا إلا لها ، ولدي من العلم الذي استفدته في ٢٤ سنة بمصر ما ليس عنده ولا عند أحد من آله وصحبه ، والمسألة المصرية حجة بالغة ولم تبق خفية على أحد

وجملة القول ان علاقتي بهذه الاسرة علاقة مودة واحترام حتى ان الملك الكبير على شممه وعلو نفسه كان إذا ذكر لي أحد أنجاله الكرام قولا أو كتابة يقول « أحد أولادكم » وكنت من أقدر الناس على الانتفاع منهم لو كنت طالب منفعة شخصية ، وعلى الخدمة للامة معهم لو سلكوا لها سبيلها ، أفلا أكون خليقا بالخجل الطبعي من الطعن بخطتهم وسيرهم ؟ بلى والله وان كان بعض مقاصدي بها ، امكان استفادتهم منها ، والمصلحة العامة هي التي يرتكب في سبيلها كل صعب ، ويستسهل كل خطب ، وما أنا بآمن على نفسي من الضرر ، الذي لا أعد منه ماكان من طعن وهذر ، وإنما كتبت بعض ما أعلم بالاختصار عند العلم بنجاح المكيدة البريطانية للعرب بحكومة العراق التي يغتر بها الاغرار ، ويستغلها عبدة الدينار ، لاعتقادي انه واجب علي شرعا ووضعية . وقد ظهر اني لو لم أقم بهذه النصيحة الواجبة لما قام بها أحد ، ولكان ذلك خزيا وعارا على

خاتمة المجلد الثاني والعشرين

باسم الله وبحمده أختتم المجلد الثاني والعشرين من المنار كما افتتحته باسمه وبحمده فهو به وله منه واليه ، ولا حول ولا قوة الا به

بفضله تعالى أعدنا اجزاء المنار الى حجمها السابق الذي انتقصت منه رزايا الحرب وطبعناه على ورق اقوى وانظف واغلى من ورقه الاول فثمنه يزيد على الثمن الذي كان قبل الحرب خمسة أضعاف وتوسعنا في مباحثه ومسائله ، عملنا كل ما أقدرنا الله تعالى عليه فنسأله أن يوفق سبحانه قراءه الى أن يقوموا بما يجب عليهم من اداء حقه فلا يزال الكثيرون من اهل الوفاء منهم يرجئون دفع القيمة الى انتهاء السنة واستيفاء أجزاء كل مجلد كاملة ولا يزال الكثيرون من غيرهم مدينين باشتراك عدة سنين ، يلوون ويمطلون ، وهم أغنياء واجدون ، ويندر أن يوجد فيهم من يستقبح هذا الجرم ، ويستحل أن يصدق عليه قول الرسول (ص) « مطل الغني ظلم » (متفق عليه) ولكنهم غافلون حتى عن أنفسهم ، فلا يفكرون في نفقات العمل من أين تأتي اذا كان جميع المشتركين أو اكثرهم [illegible] يرضون لانفسهم أن يكون غيرهم خيراً منهم ، ولا يحاسبونها [illegible] وهضم الحق الصراح ، ولا سيما اذا كان صاحبه مهملاً أو مقصراً في [illegible] بالالحاح ، لان الامور الادبية قلما يحاسب نفسه عليها في الامم المريضة [illegible] الا الافراد من الفضلاء ، وأما الدهماء فقلما يفكرون في جناياتهم العملية [illegible] عليهم وامتهم ، أو يفطنون الى سوء عواقبها فيها وفيهم ، واذا ذكر احدهم [illegible] رجهت اليه لائمة بادر الى تبرئة نفسه ، وتحويل اللائمة الى غيره ، فلا ينبه اللوم والتذكير منه الا غريزة الدفاع عن النفس ، والمحافظة على كرامتها بما يسبق الى ذهنه بادي الرأي ، وقد يقضي بما يقول عليها ، وهو يحسب أنه قد [illegible] أها ، وما هي الا الغفلة عن النفس تصل الى درجة السهو والنسيان ، كما أرشد الى ذلك القرآن ، فقد قال في قوم (نسوا الله فأنساهم انفسهم) ووصف قوماً بأنهم (في غمرة ساهون)

لا يبالي المليم مايدفع به اللوم أكان حقاً ام باطلا ولا يقول ما يقول دائما عن اعتقاد وقد يقول كلمة حق يريد بها باطلا أو لا يريد بها الا مقابلة اللوم عثله كن يعتذر عن تأخير اداء الحق الذي عليه للصحيفة بتأخر بعض الاجزاء

عنه ، ويقل فيمن يعتذرون مثل هذا الاعتذار من قصد جعل الارجاء أو ترك الوفاء عقابا على تأخير بعض الاجزاء أو الاعداد والاصل في الاشتراك أن تدفع القيمة كل سنة سلفا للاستعانة بها على العمل فيكون باذلها مشاركا لصاحبها فيه فان لم يفعل المشتركون ذلك وعد مدير العمل مسيئا بتأخير اصدار الصحيفة فاساءته تكون متأخرة عن إساءة مرجيء الدفع سلفا بل تكون معلولة لها في الاكثر ، وإذا كان كل مشترك لا يدفع الا بعد استيفاء أجزاء السنة كلها في مواقيتها وكان اصدار الاجزاء في مواقيتها أو مطلقا متوقفا على دفع القيمة قبله لاجل النفقة تكون المسألة من قبيل ما يسمى في اصطلاح المنطق بالدور فيقال لو لا تأخير المشتركين لقيمة الاشتراك لما تأخر صدور شيء من أجزاء المجلة ولولا تاخير اجزاء المجلة لما تأخر المشتركون عن أداء القيمة سلفا ــ هذا ما

والحق إن الارجاء والتسويف لايكون من جميع المشتركين في الصحف وان من المرجئين من يرجيء كسلا وتهاونا في الوفاء ، ومنهم من يرجيء لان أداء الحق ثقيل على طبعه وليس له من باعث الدين ولا التربية على الوفاء والنظام في المعيشة ما يرجح على البخل وهضم الحقوق، ومنهم المعسر الذي ينتظر الميسرة ،ومنهم الحريص الذي يخشى أن يعجز صاحب المجلة أو الجريدة الاستمرار على إصدارها، وا كثر الناس في هذه البلاد وأمثالها لا يثقون باكثر ما يتجدد من الصحف لكثرة ما يصدر منها أياما وأسابيع أو أشهراً قليلة ثم ينقطع وتضيع قيمة الاشتراك التي دفعت لاصحابها سلفا ولكن قلما يشك احد في الثقة بثبات الصحف التي طالت أعمارها وصبرت على لأواء الزمان ولاسيما لأواء هذه الحرب

ألا ان كل من أنصف من نفسه وأعطى التفكر في المسألة حقه يظهر له الحق فيها ويجتهد في المسارعة الى دفع قيمة الاشتراك في الصحيفة التي ارتضاها سلفاً فان لم يكن ففي أثناء السنة ، وانه يظلم صاحبها بالتأخير الى نهاية السنة. فكيف بمن يرجيء اشتراك سنتين فاكثر وصاحب الصحيفة يظل يرسلها اليه ثقة به وحسن ظن فيه ؟ وجملة القول ان الناس في هذه المسألة كما قال تعالى في الذين أورثوا الكتاب (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفوز الكبير) وكل ظالم لغيره فهو ظالم لنفسه

مواد المجلد الـ ٢٣

لدينا من المواد المعدة للمجلد الآتي بحث طويل الذيل متدفق السيل في

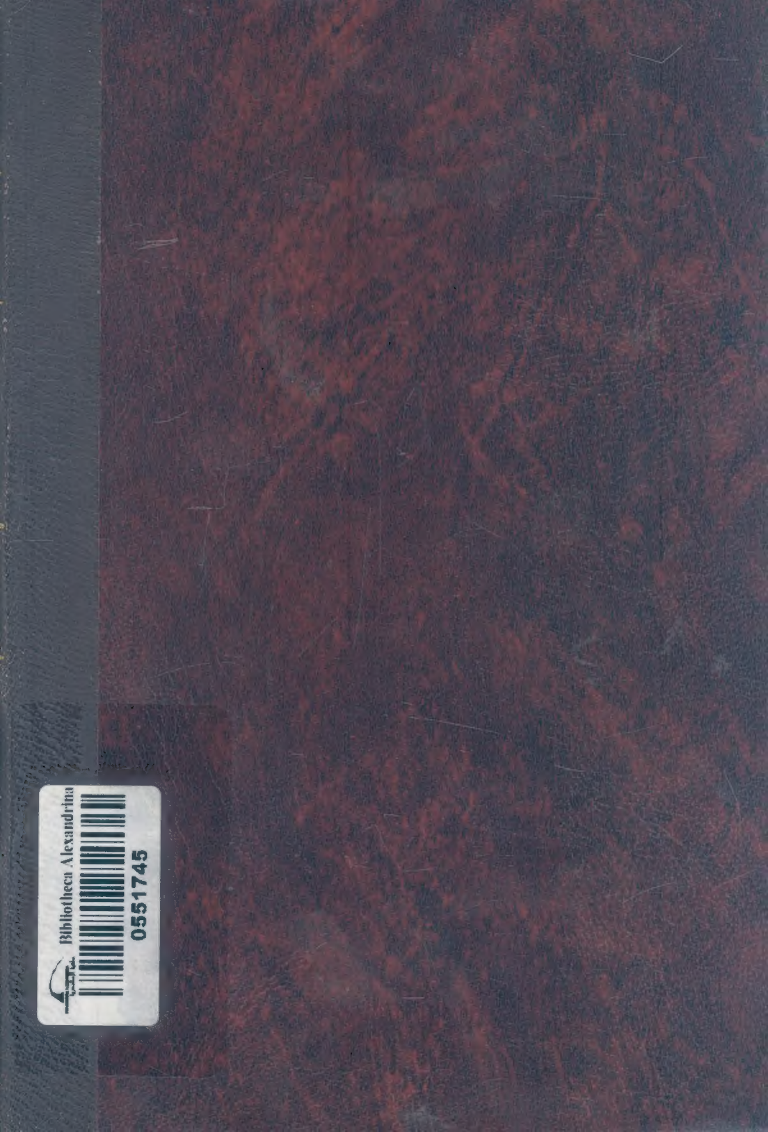
مسألة (الخلافة الاسلاميه) لاحد أركان النهضة الاسلامية في الهند مولانا المولى (ابو الكلام محيي الدين آزاد) صاحب مجلة (الهلال) العلمية الاسلامية وجريدة بينام — أي البلاغ — السياسية في (كلكتة) الذي قد كني الكلام بالالهام فانه من أفصح اهل العصر كلاما وأقدرهم على الخطابة والكتابة وهو يجيد فهم اللغة العربية بحيث إنه أعاد الخطاب الذي اختتمت به مؤتمر ندوة العلماء في (لكهنؤ) بطريق الخطابة باللغة الاوردية في جلسة خاصة عقدت لاجل ذلك وكانت خطبتي ارتجالية استغرق إلقاؤها زهاء ساعتين ، وقد سمعت ممن يفهم اللغتين أنه لم يفرط في أداء معانيها من شيء

وهذا البحث في الخلافة يؤلف كتابا جليلا ذا أبواب وفصول تاريخية وشرعية واجتماعية وسياسية تهم جميع المسلمين وجميع الذين يعنون بمعرفة تاريخهم الديني والسياسي ، ومن مباحثه الفرق بين خلافة النبوة الراشدة وما بعدها من خلافة الملك وأحكامهما واحوال المسلمين فيها ومسائل الجماعة وما ورد في لزومها وفي النهي عن التفرق ... واسباب ضعف المسلمين وطاعة الخليفة والتزام الجماعة وتفسير أولي الامر وأحكام الجهاد والهجرة وشروط الامامة والخلافة في حال الاختيار وحال التغلب وكون الخليفة لا يتعدد والتعارض والترجيح بين طاعة الخليفة وبين وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وإزالته ، ومن أهم مباحثه خلافة آل عثمان وغير ذلك مما لم يصل الينا بعد . وسنعلق على بعض المسائل حواشي مختصرة إيضاحا أو استدراكا أو انتقاداً ونترك للقراء الحكم فيه

ولدينا أيضا (كتاب من الخرافات الى الحقيقة) وهو كتاب إصلاحي عظيم كما علم من مقدمته وأبوابه التي نشرناها في هذا الجزء ، وسنعلق عليه بما ذكرنا آنفا

ويلي ذلك رحلتنا الاوربية — فهذا أوسع مالدينا الآن من الزيادة في المواد على المعهود إجمالا من أبواب المجلة كالتفسير والفتاوى وغيرهما أو تفصيلا كفصول بحث القياس في اللغة العربية والرحلة السورية ووراء ذلك ما يتجدد من المقالات والرسائل في أثناء السنة

ونسأله تعالى أن يقر أعيننا بحياة أمتنا ويوفقها الى تغيير ما بأنفسها من أفكار فاسدة وخرافات كاسدة وأخلاق سيئة ، ليغير ما بها من ذلة ومهانة ، وضعف واستكانة ، وان يجعلنا فيها وفي سائر العالم من الهداة الناصحين ، والصالحين المصلحين ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين


Bibliotheca Alexandrina
0551745